

السلوك لمعرفة دول الملوك

تأليف

تقي الدين أبي العبّاس أحمد بن عليّ بن عبد القادر
العُبيدي المقريزي
المتوفى سنة ٨٤٥ هـ

تحقيق

محمد عبد القادر عطا

الجزء الأول

سنة ٥٦٨ هـ - ٦٦١ هـ

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وصلاة وسلامًا على سيدنا محمد - ﷺ - النبى الأمى الذى انطلق من ظلام الأمية ليضىء العالم بهدى من ربه سبحانه وتعالى.
لقد شاءت إرادة الله جلت قدرته أن تنطلق البشرية من تلك المرحلة التاريخية المظلمة الشديدة الانحطاط بفضل دينه الخاتم ونبيه المصطفى - ﷺ -.

وقد كانت سيرته - ﷺ - نموذجًا تاريخيًا للاتساق الكامل بين الأقوال والأفعال، وصلنا ذلك من خلال رواة ثقاة، نثق فى أمانتهم وقدرتهم على نقل الأحداث الحقيقية دون زيادة أو نقصان.

على أن الأحداث التاريخية الخاصة بعصر صدر الإسلام - حياة النبى ﷺ والخلفاء الراشدين - مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنصوص الدينية والتعاليم المقدسة حيث السيرة الذاتية لرسول الهدى ليست إلا نصوصًا وأفعالاً راقية تدعو من يتعلمها - فى سهولة ويسر - للتشبه به ﷺ وبذل الطاقة للسير على هداه.
ثم انفصلت الرؤية التاريخية للأحداث عن النظرة الدينية بفعل استحداث سلوكيات سياسية بعضها تبتعد ابتعادا كاملا عن جوهر الدين الإسلامى الحنيف.
وكان للعصر الذى تلى عصر الخلفاء الراشدين دورًا كبيرا فى ظهور مدارس متعددة للتأريخ تتأثر فى المقام الأول بالمذهب السياسى الذى ينتمى إليه صاحب التأريخ، اتضح ذلك فى نظرتهم التاريخية التى كانت فى غالب الأحيان مشوبة بعدم الحيدة بسبب ارتباط فكرة تسجيل التاريخ بالدعوة للفرقة أو الجماعة التى ينتمى إليها وهذا شكل من أشكال إلباس الفكر السياسى عباءة الحقائق التاريخية وهو ما يعنى الانتصار لوجهة نظر معينة دون النظر إلى الأمانة العلمية ووضع الحيدة محل الاعتبار.

ثم تلى ذلك مرحلة هامة فى تاريخ العالم العربى والإسلامى، ألا وهى مرحلة ظهور مجموعة من الكتاب الذين يركزون نشاطهم العلمى على تسجيل التاريخ والحرص على جمع الأحداث التاريخية من عدة مصادر وثيقة تنقل لنا أو تجعل من الميسور تقريب الصورة الحياتية لفترات زمنية واسعة من التاريخ العربى، ساهمت كتاباتهم التاريخية فى إلقاء الضوء على أشكال الحياة - بشكل شبه دقيق ويومى - خلال الفترة الزمنية التى عاشها هؤلاء الكتّاب مع عرض غير مخل للأحداث السابقة التى سبقت حياتهم.

وإلى هذه الفئة ينتمى صاحب هذا الكتاب **«السلوك لمعرفة دول الملوك»** الذى نعرض له بالتحقيق وهو المؤرخ الكبير أحمد بن على بن عبد القادر أبو العباس الحسينى

العبيدى تقى الدين المقريزى» (٧٦٦ هـ - ٨٤٥ هـ).

وهذا الكتاب هو واحد من أهم الكتب وصاحبه علم من أعلام التأريخ العربى والإسلامى فى فترة العصور الإسلامية الوسطى، والكتاب مرجع تاريخى غاية فى الأهمية والقرب من حياة الحاكم والمحكوم بشكل يوحى للقارئ بملازمته للأحداث ومعايشته لها كاملة غير منقوصة.

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

هو كتاب من أبرز كتب المقريزى، ومن أبرز كتب التاريخ المصرى الوسيط. أتم به المقريزى سلسلة التواريخ المصرية بجمع وتسجيل أوسع ما وجد من المعلومات حول عصرى الدولتين الأيوبية والمملوكية من سنة ٥٧٧هـ حتى السنة التى سبقت وفاته سنة ٨٤٥هـ.

اعتمد المقريزى عددًا من المصادر السابقة له. ومن عادته ذكر هذه المصادر أو الإشارة إليها. ونستطيع أن نرى لديه بعضًا من ابن الفرات وبعضًا من ابن أيبك وبيبرس ومن الدواداري والنويرى والجزرى والبرزالى ونصوصًا من ابن واصل وابن عبد الظاهر.

على أن المقريزى جمع إلى هذه المصادر براعة طيبة وسدادًا فى تخير المعلومات، وعينًا ذكية تعرف كيف تسوقها وتربطها، وحسا تاريخيا مرفها يهديه إلى ما يجب أن يضيف إليها من المعلومات والتفاصيل الضرورية، والمكملة. وربما وصل المقريزى فى هذا الشغف التاريخى حد الثرثرة بأمور يعتبرها معاصروه من المعارف الدارجة التافهة، ولكنها أضحت بالنسبة إلينا اليوم ثروة تاريخية كشفت لنا جوانب كثيرة من مشاكل العصر فى العملة والأسعار مثلاً وفى الأبنية والهدايا والأوبئة والمكوس والحرائق، وفى نقد الحكم أو إحصاء الأنوال أو مشكلة الحجاب...

نظم المقريزى كتابه على منهج مغاير لما شاع فى المؤلفات السابقة له فى تاريخ ابن الفرات أو الدوادار أو النويرى، فقد جعل كتابه حوليا ودوّن حوادث كل عام فى فصل مستقل يحمل عنوان ذلك العام، وختم الحوادث بذكر الوفيات، والترجمة لأصحابها فى شيء من الاختصار المعتمد فى الأرجح. وكثيرًا ما يعمد فى النصف الثانى من كتابه خاصة إلى أن يفتتح السنة بذكر الوظائف الكبرى ومن يتولاها، وبخاصة إن وافق بدء السنة قيام سلطان جديد، وما يصحب ذلك - فى العادة- من تغيير وتبديل بين موظفى البلاط السلطان وكبار الأمراء. وقد يكتفى المقريزى بعبارة افتتاحية فى أصل ذلك السلطان وماضيه، ثم ينتقل إلى ذكر الحوادث والأخبار بترتيبها الزمنى.

وثمة من كتاب السلوك مخطوطات بعضها كامل مثل مخطوط أياصوفيا (فى ٤ مجلدات) رقم ٣٣٧٢، ومخطوط آخر فيها برقم ٣٣٧٣ حتى ٣٣٧٦، ونسخة أخرى فى مكتبة فاتح ٤٣٧٧ حتى ٤٣٧٧ ونسخة أخرى نفيسة برقم ٣٣٨١ حتى ٣٣٨٩، كما أن ثمة قطعا متفلاقة فى أحمد الثالث وفى جامع (لعلها بخط المقريزى) وكوبرللى وحافظ أحمد وغيرها. ومنه قطعة فى الظاهرية بدمشق رقم ٧٣٠٤، ونسخة فى أكسفورد (فى ٤ مجلدات) عنوانها «واسطة السلوك».

وقد طبع بعض من كتاب السلوك فى عهد مبكر. فقد نشرت أجزاء منه بتحقيق كاترمير الفرنسى بعنوان: **«تاريخ السلاطين المماليك بمصر»** فى مجلدين (باريس ١٨٣٧ - ١٨٤٥م). وبعد ذلك بقرن - كان نشره فى مصر، فظهر الجزء الأول منه سنة ١٩٣٤ بتحقيق محمد مصطفى زيادة، ثم نشر بجزء الثانى (سنة ١٩٥٨م) الذى انتهى ببعض أحداث سنة ٧٥٥هـ. ثم صدر الجزء الثالث ثم الرابع والأخير بتحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ما بين سنتى ١٩٧٠ - ١٩٧٣م وكل جزء من هذه الأجزاء فى عدد من الأقسام.

وقد اعتمدنا فى عملنا هذا حين العرض لهذه القيمة التاريخية المتمثلة فى كتاب **«السلوك لمعرفة دول الملوك»** على اتباع الآتى:

• اعتمدنا فى نسخة التحقيق على نسخة مطبوعة بتحقيق د: محمد مصطفى زيادة ود: سعيد عبد الفتاح عاشور والذى استغرق استكمال طباعتها قرابة الأربعين عامًا.

• قمنا بضبط متن النسخة المطبوعة من خلال مطابقة دقيقة مع مجموعة من المخطوطات الموجودة بدار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية. وقد أفادنا هذا فى متابعة الأحداث من خلال عدة مصادر تاريخية دُونت فى فترات تاريخية سابقة ولاحقة للفترة الزمنية التى عاشها المؤرخ الكبير **«تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر المقريزى»**.

• قمنا بترجمة مفصلة للأماكن والأشخاص التى كانت محور الأحداث خلال الفترات الزمنية التى تعرض لها المقريزى فى كتابه بالإيجاز للتيسير على القارئ وإعطائه نظرة أكثر شمولا للأحداث.

• قمنا بتخريج الآيات القرآنية.

حافظنا قدر الإمكان على الشكل الخطى للأسماء والأماكن التى اختلفت من موضع لآخر كما أوردها المقريزى ربما كانت له فى ذلك وجهة نظر.

وأخيرا: لقد سعدنا بالرحلة الممتعة الشيقة التى كان المقريزى خير مرشدا لنا للإطلال من نافذة واسعة على حقبة تاريخية غاية فى الثراء لما تحمله بين طياتها من أحداث لها عظيم الآثر حتى الآن فى صناعة العقل العربى من خلال ما مرت به الأمة من أزمات ومحن وانتصارات كبيرة أدامها الله.

والله من وراء القصد وهو يهدى سواء السبيل.

محمد عبد القادر عطا

المدرسة التاريخية المصرية

تأخرت المدرسة المصرية كثيرًا حتى أطلعت مؤرخها الكبير المقريزى، ولم يكن السابقون له من فحول المؤرخين مثله. فبعد النويرى، والدوادارى، وسبط بن عبد الظاهر، انتظرت مدرسة مصر نصف قرن حتى ظهر فيها ابن الفرات، وابن دقماق، والقلقشندى. لكنها بلغت أوجها دون شك مع المقريزى.

أولا: المقريزى ومسيرته العلمية

اسمه ونسبه:

أبو العباس تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم البعلى، العبيدى الحسينى. أصله من بعلبك من حارة المقارزة فيها، وإليها ينسب. كما كان يدعى النسب الفاطمى، ومن هنا كان العبيدى فى نسبه[1].

وقد ذكر بعض المؤرخين أن نسب المقريزى يرجع إلى الفاطميين ومنهم صاحبه ابن حجر العسقلانى الذى قال فى ترجمته[2]:

نشأته:

ولد فى القاهرة سنة ٧٦٦ هـ/ ١٣٥٦ م. وتوفى فيها سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م. وكان جد المقريزى من كبار المحدثين فى بعلبك، وقد تحول والده إلى القاهرة حيث ولى بعض وظائف القضاء وكتب التوقيع بديوان الإنشاء. وكان يسكن حارة برجوان، وهى من أكثر حارات القاهرة حيوية وامتلاء بالصخب وضوضاء العمران والحياة، وهناك نشأ ابنه أحمد، ودرس على مشايخ العصر كابن الصائغ، كافله ومربيه بعد أن مات أبوه وهو صغير، وابن رزين، والبرهان الأمدى وزين الدين العراقى وابن أبى المجد والسراج البلقينى والهيثمى وابن خلدون. وقد بلغ عدد شيوخه ستمائة فتوفر له التكوين الثقافى اللازم للبروز فى عصره. وكان أكثر شيوخه تأثيرا فيه، أولهم ابن الصائغ فى مرحلة النشأة، وآخرهم ابن خلدون الذى عرفه فى مرحلة النضج.

وقد برع المقريزى فى علوم الدين من فقه وحديث براعته فى الأدب من نظم ونثر، وإن أبدى هواية للتاريخ من جهة، وللعمل بالتنجيم والرمل والزايرجة والاصطرلاب من جهة أخرى. واستمرت هذه الهوايات معه طول حياته. على أن مؤهلاته العلمية فتحت له باب العمل الحكومى. فكان موقعا أول الأمر فى ديوان الإنشاء سنة ٧٨٨هـ، ثم تولى

---

(١) انظر التاريخ والمؤرخون، د. شاكر مصطفى.

(٢) انظر أبناء الغمر بأبناء العمر ١٦٩:١٧١.

وظائف الوعاظ وتدريس الحديث فى عدد من المساجد. كما تولى حسبة القاهرة غير مرة (اعتبارًا من سنة ٨٠١هـ) والخطابة (بجامع عمر ومدرسة السلطان حسن) والإمامة (بجامع الحاكم) وإقراء الحديث (بالمدرسة المؤيدية). وتقلب فى الوقت نفسه فى عدد من وظائف القضاء والإدارة فى مصر والشام. وحج مرات، كما زار دمشق مرات، كانت أولاها سنة ٨١٦هـ بصحبة الناصر فرج بن برقوق. وعرض عليه قضاء دمشق فأباه. لكنه تولى فيها فيما بعد أوقاف المدرسة القلانسية والبيمارستان النورى والتدريس ببعض المدارس مدة عشر سنوات قبل أن يعود إلى القاهرة ليعتزل كل عمل رسمى.

ومواهب المقريزى (مع علمه وطرافة اهتماماته) أهلته للحظوة عند الملك الظاهر برقوق، ثم عند ابنه الملك الناصر فرج من بعده، وكان على صلة طيبة بالأمير يشبك الظاهرى بعض الوقت، ونال فى ظله الجاه والمال. فلما بلغ مشارف الستين واجتمع له من الثروة ما يكفى للعيش الهانئ، عاد ليستقر فى القاهرة، ويتوفر على الاشتغال بالعلم والتاريخ والعبادة، ولم يغادرها إلا إلى مكة للحج سنة ٨٣٤هـ حيث بقى خمس سنوات، يدرس ويملى قبل أن يعود.

ويبدو أن هواية التاريخ قد استبدت بالمقريزى قبل ذلك بسنين طويلة جدا فهو يقول فى مقدمة الخطط: «فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة، وجمعت من ذلك فوائد قلَّ ما يجمعها كتاب، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب..» وكل ما جمعه - على ما يظهر - كان متصلا بمصر لأنها كما قال «مسقط رأسى ومجمع ناسى.. لا زلت منذ شدوت العلم أرغب فى معرفة أخبارها وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها..».

وقضى المقريزى ثلاثين سنة بعد الاعتزال يعمل فى التأليف التاريخى خاصة حتى زادت مؤلفاته - حسب ما قرأ السخاوى بخط المؤرخ نفسه - على مائتى مجلد فى الحجم وعلى نيف وثلاثين عنوانا فى التاريخ وحده، بعضها كتيبات ورسائل، وبعضها كتب موسوعية كبيرة فى مجلدات وصلت أحيانًا ستة عشر، كما وصلت المائة. ويمكن تقسيمها خمسة أقسام: فقسم يتناول تاريخ مصر والقاهرة فى مختلف عصورها، وقسم يتناول التاريخ الإسلامى، وقسم ثالث يتجه إلى بعض المواضيع الخاصة (النقود، الموازين، حج الملوك، الغناء، الكعبة، النزاع الأموى الهاشمى) وقسم رابع لبعض البلاد المجهولة (الحبشة، حضرموت، المغرب). أما الخامس فيشمل النبذ والمعلومات المتفرقة كالتذكرة وما إليها. على أننا سنستعرض هذا التراث التاريخى إرسالا:

١ - كتاب **«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»**: وهو أثر فريد فى موضوعه وطريقته ومادته الغزيرة يتحدث عن القاهرة وخططها (طبغرافيتها) القديمة، وتطورات الخطط والشوارع والأرض والأسواق والأحياء والمساجد والقصور والدور والمدارس

والرياض والأسوار، ويظهر من نصوص هذا الكتاب أنه استمر تحت يدى المقريزى يبدى فيه ويعيد أكثر من خمس وثلاثين سنة. فيه صفحات كتبت سنة ٨٠٦هـ وأخرى صممت أو أضيف إليها ما استجد سنة ٨٤٣هـ وإذا كنا نعرف اليوم مدينة القاهرة فى القرون الوسطى أتم المعرفة، فإنما يرجع ذلك إلى هذا الكتاب الذى استوعب ونظم كل المؤلفات التى سبقته فى هذا الموضع، وأضاف إليها الكثير الكثير.

ولا يخفى المقريزى مصادره فى الخطط وهو ينص فى مطلع كل خبر على مصدر نقله. وكثير من هذه المصادر فقد، فليس لدينا منه سوى ما نقله المقريزى الذى نظم معلوماته على سبعة أجزاء (ألغى فى النهاية الجزء السابع منها والمتعلق بأسباب خراب مصر). فالجزء الأول جغرافى عامة فى أخبار مصر ونيلها وخراجها وجبالها. والثانى فى المدن وأجناس السكان. والثالث فى أخبار الفسطاط. والرابع فى أخبار القاهرة. والخامس فى أحوال القاهرة فى عصره. والسادس فى ذكر قلعة الجبل وملوكها ويستطرد المؤلف فيتناول ما فى القاهرة من المساجد والمنشآت. ويختم بفصول عن تاريخ اليهود والقبط والأديار والكنائس... والكتاب بعد هذا منجم تاريخى فيه تسجيل لتاريخ مصر العمرانى والاجتماعى والفنى والاقتصادى لا نجده فى أى مؤلف آخر. والسخاوى يتهم المقريزى بأنه سطا على مسودة كان الأوحدى قد أعدها لهذا الكتاب، فأخذها بعد موته وزادها زوائد غير طائلة وقذفها للناس باسمه.

كان كتاب «الخطط» موضع عناية المستشرقين منذ أكثر من قرن، وقد وجدوا منه عددًا من المخطوطات: منها مخطوط الأوقاف فى استانبول، فى مجلدين، ومخطوط أحمد الثالث رقم ٢٩٤٦ (فى مجلد)، و٢٩٤٧ فى ثلاثة مجلدات، وعاشر ريس ٦٩٣، وحكيم أوغلو ٧٤٣ - ٧٤٤، وأياصوفيا ٣٤٧١ - ٣٤٧٧ مع نسختين أخريين، وفيض الله ١٥٣٧ - ١٥٣٩، ودامار إبراهيم ٩١٤ - ٩١٥، والظاهرية بدمشق رقم ٧٠٠٤ و٥٦٩٦ و٥٦٩٧، وكلها نسخ كاملة عدا القطع المخطوطة من الكتاب وهى متفرقة فى استامبول ومصر والظاهرية وغيرها.

وقد طبع الكتاب مبكرًا طبعات عديدة منها طبعة بولاق القديمة - القاهرة سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ م. فى مجلدين كبيرين، ثم أعيد طبعه فى مصر (المطبعة الأهلية فى أربعة أجزاء سنة ١٩٠٧م). كما أعيد مؤخرًا طبع نسخة بولاق على الأوفست (مكتبة المثنى - بغداد - دون تاريخ) وطبع قسم منه طبعة أوروبية فخمة.

وترجم كتاب الخطط مبكرًا جدًا إلى اللاتينية. فقد طبعت هذه الترجمة سنة ١٧٢٤م، ونقل شىء من الكتاب إلى الفرنسية، وطبع فى باريس سنة ١٨٩٥م وسنة ١٩٠١م، واستخرج منه المستشرق كازانوفا وصف قلعة القاهرة وتاريخها، وأوضح

ذلك بالرسوم والخرائط، وطبع كتابه بالفرنسية سنة ١٨٩٤م وسنة ١٨٩٧م فى مجلدين. وقام بنحو هذا العمل المستشرق رافيس فتناول خطط القاهرة وأوضحها بالخرائط وطبع ذلك سنة ١٨٨٨م وسنة ١٧٩٩م فى قسمين، وترجم المستشرق وستنفلد القسم الخاص بتاريخ الأقباط فى مصر إلى الألمانية وطبعه مع الأصل العربى فى توبنغن سنة ١٨٤٥م، وترجم أيضًا ما يتعلق بوصف المارستانات فى القاهرة نقلاً عن مسودات غوطا وفيينا ونشرها فى مجلة خلاصة العلوم.

وتقوم دار الكتب العلمية ببيروت بإعداد الكتاب وتحقيقه وطباعته فى طبعة جديدة، وسيظهر قريبا.

ومن جهة أخرى فقد حظى كتاب الخطط إلى هذا كله بعناية الكثير من العلماء القدامى، وعمد بعضهم إلى اختصاره، ومن ذلك:

• كتاب **«الروضة البهية فى القاهرة المعتزلية»** لمحمد بن أحمد بن محمد الحنفى الشبلى العلائى (أواسط القرن الحادى عشر).

• كتاب **«قطف الأزهار من الخطط والآثار»** لشمس الدين بن أبى السرور البكرى الصديقى المؤرخ (المتوفى سنة ١٠٦٠ هـ / ١٦٥٠ م).

٢ - كتاب **«السلوك فى معرفة دول الملوك»**: ونرجئ الكلام عليه فى موضعه.

٣ - كتاب **«اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا»**: وهو أوفى مصدر فى التاريخ الفاطمى: يؤرخ أولا للسلالة ولمشكلة النسب الفاطمى ولقيام الدولة فى المغرب وخلفائها الأربعة هناك، ثم يتحدث عن الفتح لفاطمى لمصر، ويسهب فى قصة الصراع مع القرامطة، ويتناول بعد ذلك خلفاء الفاطميين الواحد بعد الأخر حتى نهاية الدولة. وقد استوعب المقريزى فى كتابه هذا خلاصة ما أورده جمهرة المؤرخين الذين أرخوا للدولة الفاطمية قبله ممن عاصروها أو جاءوا بعدها، ومعظمهم ممن ضاعت مؤلفاتهم وبقى للمقريزى الفضل فى حفظ مجموعة واسعة من نصوصها من أمثال ابن زولاق وابن الطوير والأمير ابن شداد، وأخى محسن، وابن المهذب وابن رزاء مما جعل الصورة الفاطمية كاملة.

وكان المعروف حتى الأربعينات من هذا القرن أنه لا توجد من هذا الكتاب سوى نسخة مخطوطة وحيدة ناقصة فى مكتبة غوطا (فى توبنغن بألمانيا رقم ١٦٥٢) وعنها نشر المستشرق بونز الكتاب (سنة ١٩٠٩م) (طبعة دار الأيتام بالقدس) وقدم لها بمقدمة بالألمانية طبعها فى ليبزيغ، وأثبت أن النص مكتوب بخط المقريزى نفسه.

وقد أعاد الدكتور جمال الدين الشيال طبع هذا النص بعد تصحيحه وتقيقه بشكل

علمي (القاهرة ١٩٤٨م)، ثم كشف كلود كاهن أن فى مكتبة أحمد الثالث باستامبول نسخة كاملة من الكتاب تحت رقم ٣٠١٣، وكشف الدكتور الشيال أن النص السابق ليس أكثر من سدس الكتاب (٣١ ورقة من أصل ١٧٢) فجاء بالنص الكامل ونشرالمجلد الأول منه (القاهرة ١٩٦٧م) ثم توفاه الله فأتم النشر محمد حلمى أحمد فى مجلدين آخرين (القاهرة ١٩٧١ و١٩٧٣م). وهو تحت الطبع بدار الكتب العلمية بتحقيقنا.

٤ - **«كتاب المقفى فى تراجم أهل مصر والواردين إليها»**: وهو كتاب حافل فى تراجم الملوك والأمراء والعلماء المصريين أو من عرفتهم مصر من جميع الأقطار (على منهاج تاريخ بغداد للخطيب البغدادى وتاريخ دمشق لابن عساكر) كتب منه المقريزى ستة عشر مجلدًا. وقد ذكر ابن تغرى بردى كلمة المقريزى الذى قال له عنه: «لو كمل هذا التاريخ على ما اختاره لجاوز الثمانين مجلدًا». وقد جعله المقريزى على حروف المعجم.

وقد ضاعت المجلدات المكتوبة من هذا المؤلف و لم يبق منها سوى ثلاثة مجلدات بخط المؤلف، واحد فى ليدن برقم ١٣٦٨ فيه بعض حرف الألف وحرفا الكاف واللام وبعض الميم. ومجلد آخر فى مكتبة برتو باشا فى المكتبة السليمية باستامبول (رقم ٤٩٦) فيه الباء والثاء، ومجلد ثالث فى المكتبة الأهلية بباريس (رقم ٢١٤٤).

٥ - كتاب **«شذور العقود فى ذكر النقود»**: وهو رسالة نفيسة فى تاريخ النقود العربية الإسلامية. فقد ضربت الدراهم أول مرة زمن عمر بن الخطاب حتى أيام الظاهر برقوق، فيمر المقريزى بالنقود أيام معاوية وعبد الملك والخلفاء العباسيين، ثم يعطف إلى النقود فى مصر فى العهد الأموى والطولونى والفاطمى والأيوبى حتى المملوكى، فى دقة حسنة. ولعله أول كتاب مفرد كتب فى هذا الموضوع، وقد كان فى الأصل فصلا من كتاب «إغاثة الأمة» ثم أفرده المقريزى بكتاب مستقل وعنوان خاص بعد أن توسع فيه.

وثمة من هذه الرسالة نسخ مخطوطة عديدة فى برلين وليدن واستامبول والأسكوريال، ولكن أهميتها جعلتها تلقى الكثير من العناية والنشر منذ فترة طويلة. فقد نقلت إلى الإيطالية وطبعت سنة ١٧٩٧م، وترجمها المستشرق دوساسى إلى الفرنسية، ونشرها فى باريس سنة ١٧٩٧م أيضا. ثم نشرت فى القسطنطينية بعناية أحمد ابن فارس الشدياق سنة ١٢٩٨ هـ./١٨٨١ م. بمطبعة الجوائب (ضمن مجموعة رسائل لابن الغديم وياقوت المستعصمى). وطبعت فى الإسكندرية سنة ١٩٣٣م بعناية ماير، ثم فى النجف الأشرف سنة ١٩٣٨م بعناية محمد صادق بحر العلوم، ثم طبعت

فى القاهرة (سنة ١٩٣٩م) بعناية أنستاس الكرملى (ضمن عدة رسائل فى موضوعها) وطبعت بعد ذلك أيضا فى النجف سنة ١٩٦٧م مع دراسة موسعة للمؤلف وللموضوع بقلم محمد بحر العلوم. وهو تحت الطبع بدار الكتب العلمية ببيروت بتحقيقنا ضمن مجموعة رسائل المقريزى.

٦ - كتاب **«إغاثة الأمة بكشف الغمة»**: وهو كتيب صغير، ولكنه من خير ما كتب المقريزى عمقا وفهما. استعرض فيه تاريخ المجاعات التى حلت بمصر منذ أقدم العصور حتى مجاعة سنة ٨٠٨هـ، السنة التى كتب فيها الكتاب، مع تحليل العوامل الاقتصادية والاجتماعية لهذه الأزمات. ومنه مخطوطات عديدة: فى كمبردج ضمن مجموع برقم Add ٧٤٦ (من ورقة ١٩ ظهر حتى ٥٠ ظهر) وفى باريس بالمكتبة الوطنية وغيرها.

وقد طبع الكتاب فى القاهرة سنة ١٩٤٠م بتحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، ثم أعيد طبعه سنة ١٩٥٧م، كما طبع طبعات أخرى إحداها فى حمص سنة ١٩٥٦، ثم سنة ١٩٧٠م.

وهو أيضا تحت الطبع بدار الكتب العلمية ببيروت بتحقيقنا ضمن مجموعة الرسائل.

٧ - كتاب **«الخبر عن البشر»** وهو كتاب فى التاريخ لعله مشروع تاريخ عام كان المقريزى يود كتابته. والمصادر تذكر أنه جعله كالمدخل لكتابه «إمتاع الأسماع فيما للرسول من الحفدة والأتباع» ويذكر ابن تغرى بردى فى «المنهل الصافى» أنه «فى أربع مجلدات وعمل له مقدمة فى مجلد»، وثمة من هذا الكتاب بعض الأجزاء المخطوطة:

فهناك ستة أجزاء فى مكتبة أحمد الثالث برقم ١/٢٩٢٦، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، فالأول من أول الخلق (فى ٢٠٣ أوراق) والثانى من التبابعة إلى قريش البطاح (فى ١٩٨ ورقة) والثالث من بنى عدنان حتى أسواق الجاهلية (فى ٢٢٠ ورقة) والرابع من أيام الفجار إلى يوم أوارة (فى ١٦٨ ورقة) والخامس (فى ١٨٣ وقة) والسدس (فى ٢٤٢ ورقة).

وهناك نسخة فى مكتبة فاتح باستامبول فى ستة أجزاء بخط المؤلف مع فهرس لمحتويات الجزء الأول مصورة فى دار المكتب بمصر (رقم ٩٤٧ تاريخ) فى ستة عشر مجلدًا.

ونسخة ثالثة فى الأزهر رقم تاريخ ٤٣٩ (٦٧٣٣) أباظة (الجزء الثانى فقط). ومنه مجلد فى استراسبورغ أيضا نقلت منه مجلة المستشرق فصلا فى تاريخ الكتابة العربية فى الإسلام (السنة العاشرة ﷺ ٤٧٨ فما بعد).

٨ - كتاب «**إمتاع الأسماع فيما للرسول من الحفدة والأتباع**»: طالعه ابن تغرى بودى وذكر أنه «نفيس»، وهو يتحدث فى شمائل النبى ﷺ والنبوات وآل الرسول والسيرة النبوية والهجرة والغزوات، ومجموعة من الأخبار عن أحوال الرسول وأحكامه وأعماله ودقائق حياته وحديثه.

ومن هذان الكتاب نسخة مخطوطة فى كوبريللى باستامبول رقم ١٠٠٤ فى ستة مجلدات، ومصورة فى دار الكتب بمصر رقم (٨٨٦ تاريخ) فى تسعة مجلدات.

وهناك نسخة من الإمتاع فى مجموعة حسين باشا رقم ٣٥٤ تاريخ، ونسخة أخرى فى غوطا (غوتنغن).

٩ - «**الإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام**»: كتبه فى مكة سنة ٨٣٩هـ، وحرره فى مصر سنة ١٤١م بعد تدقيقه. ومنه نسخة مخطوطة ضمن مجموع ٣١٩٥ فى مكتبة ولى الدين باستمبول. وقد طبع فى بتافيا مع ترجمة فرنسية سنة ١٧٩٠م، كما طبع فى مصر سنة ١٨٩٥م. وتحت الطبع ضمن مجموعة رسائل المقريزى بدار الكتب العلمية.

١٠ - «**الطرفة الغريبة فى أخبار حضرموت العجيبة**»: وهى رسالة كتبها وهو مجاور فى مكة سنة ٨٣٩هـ أيضا، ومنها مخطوطة فى كمبردج وأخرى فى باريس (ضمن مجموع ٤٦٥٧). وقد طبعت مشروحة مصورة سنة ١٨٦٦م فى بون بعناية المستشرق سكوى باللغتين العربية واللاتينية. وتحت الطبع ضمن مجموعة رسائل المقريزى بدار الكتب العلمية.

١١ - «**البيان والإعراب عما فى أرض مصر من الأعراب**»: ويبحث فى القبائل العربية التى سكنت مصر، ومنه نسخة مخطوطة فى فيينا، ونسخة فى باريس رقم ١٧٢٥، ونسخة مخطوطة أخرى هناك (ضمن مجموع ٤٦٥٧٤)، ورابعة فى دار الكتب بمصر رقم ١٥٠ تاريخ. وقد ترجمه وستنفلد إلى الألمانية ونشره فى غوتنغن سنة ١٨٤٧ فى ثلاثة أجزاء.

وقد طبع فى مصر بتحقيق عبد المجيد عابدين (طبع عالم الكتب سنة ١٩٦١م)، وكان قد طبع بمصر قبل ذلك بتحقيق إبراهيم رمزى (طبعة المعارف) سنة ١٩١٦م نقلا عن النسخة الألمانية. وتحت الطبع ضمن مجموعة رسائل المقريزى بدار الكتب العلمية.

١٢ - «**الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك**»: كتبه المقريزى سنة ٨٤١ وذكر فيه ستة عشرين من هؤلاء الحجاج، بدأهم بالرسول ﷺ ثم الخلفاء الراشدين ومن بعدهم إلى أيامه فى خمسة أجزاء. ومنه مخطوطات فى كمبردج، ومخطوط ضمن مجموع ٣١٩٥ فى ولى الدين باستامبول، ورابع فى المكتبة الأهلية فى

باريس ضمن مجموع (رقم ٤٦٥٧). وقد نشره جمال الدين الشيال (القاهرة سنة ١٩٥٤م). وتحت الطبع ضمن مجموعة رسائل المقريزى بدار الكتب العلمية.

١٣ - **«النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم»**: رسالة صغيرة منها مخطوط فى فيينا ضمن مجموع وآخر فى باريس (ضمن مجموع ٤٦٥٧) وثمة نسخة ثالثة فى الظاهرية بدمشق رقمها ٣٧٣١. وقد ترجم إلى الألمانية، ونشر فى ليدن سنة ١٨٨٨م، ثم طبع فى القاهرة أكثر من مرة كما طبع فى النجف (المطبعة الحيدرية سنة ١٩٦٦م). وتحت الطبع ضمن مجموعة رسائل المقريزى بدار الكتب العلمية.

١٤ - **«الدرر المضيئة فى تاريخ الدول الإسلامية»** (أو) **«الخلفاء حتى نهاية العباسيين»**: وهو من مقتل عثمان بن عفان إلى مقتل المستعصم ونهاية الخلافة العباسية (سنة ٦٥٦هـ). وهو مخطوط فى كمبردج فى ٢٧٣ ورقة كبيرة كتب بعد عهد المؤلف بقليل دون خاتمة وبه تزيينات.

١٥ - **«الضوء السارى فى خبر تميم الدارى»**: وهو أحد الصحابة الأولين. استقر فى أرض الخليل بفلسطين (وتوفى سنة ٤٠ هـ) وله وقف كبير استمر طول التاريخ الإسلامى. ضمن مجموع رقمه٣١٩٥ فى مكتبة ولى الدين باستامبول، ونسخة أخرى ضمن مجموع رقم ٤٦٥٧ فى باريس، وثالثة فى المتحف البريطانى، ورابعة فى ليدن ضمن مجموع رقم ٢٥٠٨.

وقد نشرها شارل د. ماتيوس سنة ١٩٤١ فى مجلة. Jour pal oz soc (المجلد ١٩ ص ١٤٧ - ١٧٩ مع المقدمة).

وتحت الطبع ضمن مجموعة رسائل المقريزى بدار الكتب العلمية.

١٦ - **«درر العقود الفريدة فى تراجم الأعمال المفيدة»** (ثلاثة مجلدات): ترجم فيه لأعيان عصره البارزين ومنهم علماء اليمن. وقد نقل عنه السخاوى فى الضوء اللامع عددًا من التراجم وبخاصة المتصوفة من أهل اليمن وعدد تراجمه ٥٥٦ ترجمة.

ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة فريدة فى مجلدين نقلت عن نسخة بخط المؤلف سنة ٨٧٨هـ وتقع فى ٢٩٢ ورقة و١٥٠ ورقة، وهى فى مكتبة آل الجليلى الخاصة فى الموصل. وثمة قطعة فى حرف الألف وأخرى فى حرف العين بخط المؤلف فى مكتبة غوطا.

١٧ - **«عقد جواهر الأسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط» (أو فى ذكر ملوك مصر والفسطاط)**: وهو أول كتاب كتبه المقريزى فى تاريخ مصر الإسلامى الأول ثم أتبعه بكتاب **«اتعاظ الحنفا»** فى تاريخ مصر زمن الفاطميين ليأتى من بعدهما **«السلوك»**

فيغطى العهدين الأيوبى والمملوكى.

وثمة من هذا الكتاب نسخة مخطوطة فريدة فى برلين ضمن مجموعة خطية تحمل رقم ٩٨٤٥.

١٨ - **«منتخب التذكرة فى التاريخ»**: ويصفه المقريزى بأنه كتاب عديم المثال فى جمل التاريخ، انتخبه من كتابه المسمى بـ**«التذكرة»** وذكر فيه تاريخ الملوك والأعيان ومدة كل منهم ووقت انقضائه وأنسابهم وتلخيص أحوالهم.

وقد بقى من هذا الكتاب مجلد واحد مخطوط هو المجلد الأول من آدم إلى سنة ٢٧٠هـ. فى ١٦٦ ورقة مع بعض الأوراق الأخرى وهو فى المكتبة الوطنية فى باريس برقم ١٥١٤.

١٩ - **«نبذ تاريخية»**: وهو مجموعة معلومات، أولها نبذة عن الروك الحسامى والروك الناصرى، ثم تراجم مختلفة لبعض الأعيان، ثم وزراء الدولة السلجوقية، ثم من ولى حلب من سنة ٣٠٠هـ، ثم من ولى دمشق من الترك. ولعل هذه النبذ لم تكتب بوصفها مؤلفا ولكنها مما كان المقريزى يجمعه من المصادر لمؤلفاته التاريخية.

وهذه النبذ موجودة بخط المقريزى فى ٥٢ ورقة، والمخطوط فى بلدية الإسكندرية رقم ٢١٢٥ د.

٢٠ - **«مختصر الكامل فى الضعفاء»** وهو الكامل فى معرفة ضعفاء المحدثين لعبد الله بن عدى الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٥هـ. وقال المقريزى فى مقدمته: «إن ابن عدى شحنه بكثرة الأسانيد فأحببت أن ألخص منه ما قيل فى الرواة على سبيل الإيجاز وحذفت علل الحديث والأسانيد إلا أن تدعو الضرورة ....» ومن الكتاب نسخة بخط المقريزى كتبت (سنة ٧٩٥هـ) فى مكتبة مراد ملا باستامبول رقم ٥٦٩ فى ٣١٥ ورقة.

٢١ - **«رسالة فى الموازين والمكاييل»** (أو الأوزان والأكيال) الشرعية، ومنها مخطوط فى ليدن وآخر فى دار الكتب فى ١٨ صفحة وقد ترجمت إلى الإيطالية وطبعت سنة ١٨٠٠م فى روستك بعناية المستشرق رنك.

٢٢ - **«تراجم ملوك الغرب»**: وقد ذكر فيه أخبار أبى حمو ومن خلفه على تلمسان من بنى زيان. ومن هذا الكتاب نسخ مخطوطة عديدة منها واحدة فى ليدن، وأخرى فى فيينا وكل ضمن مجموعة تحوى بضعة عشر مؤلفًا (رسالة) للمقريزى.

٢٣ - **«ذكر ما ورد فى بنى أمية وبنى العباس من الأقوال»**: ومن هذه الرسالة نسخة مخطوطة فى فيينا.

٢٤ - **«معرفة ما يجب لآل البيت من الحق على من عداهم»**: وهي رسالة كتبها (سنة ٨٤١هـ) ومنها مخطوط في فيينا (ضمن مجموع) وأخرى في باريس (ضمن مجموع ٤٦٥٧).

٢٥ - رسالة في الغناء، عنوانها **«إزالة التعب والعناء في معرفة حال الغناء»**. ومنها مخطوط في باريس ذكره زيدان و لم أجده في فهارس المكتبة الوطنية هناك.

٢٦ - **«ذكر بناء الكعبة والبيت»**: وهو مخطوط في الظاهرية بدمشق في ٧٨ ورقة رقمه ٤٨٠٥. وللمقريزي كتابان في هذا الموضع مطول ومختصر ذكرهما السخاوي وهذا أحد الكتابين.

٢٧ - كتاب **«البيان المفيد في الفرق بين التوحيد والتلحيد»** (وقد يسمى تجريد التوحيد المفيد) ومنه نسخ عديدة في تشيستربتي رقم ١٤٩٦، وفي ليدن رقم ٤٥١، وفي باريس برقم ٤٦٥٧، وفي دار الكتب بمصر.

وثمة عدا هذه المؤلفات مجموعة أخرى ضاعت أو فقدنا آثارها حتى الآن:

٢٨ - كتاب **«مجمع الفرائد ومنبع الفوائد»**: وهو كالتذكرة التي تجمع ألوانًا من الأخبار والمواضيع، أكمل المقريزي منه كما ذكر ابن تغري بردي نحو الثمانين مجلدة. وأما السخاوي فيذكر أنه يشتمل على «علمي العقل والنقل المحتوي على فني الجد والهزل بلغت مجلداته نحو المائة». ومن الهام أن نلاحظ أن ابن قطلوبغا (المتوفى سنة ٨٧٩) جمع كتابه تاج التراجم في طبقات الحنفية من تذكرة أستاذه المقريزي ومن الجواهر المضية لابن أبي الوفا (المتوفى سنة ٧٧٥هـ).

٢٩ - **«شارع النجاة»**: ويشتمل على جميع ما اختلف فيه البشر من أصول ديانتهم وفروعها مع بيان أدلتها ووجه الحق فيها. ذكره السخاوي وانفرد بذكره.

٣٠ - كتاب **«ما شاهده وما سمعه مما لم ينقل في كتاب»**. ذكره السخاوي أيضا وحده.

٣١ - كتاب **«الإشارة والإعلام ببناء الكعبة والبيت الحرام»**: وهو الكتاب الآخر الضائع من الكتابين (الأصل والمختصر) اللذين ذكرهما السخاوي.

وهناك بعد هذا أربعة كتب ذات شجون:

٣٢ - **«جنى الأزهار من الروض المعطار»**: وهو موجز الروض المعطار للحميري (المتوفى سنة ٩٠٠هـ) وهو منسوب للمقريزي، ويظهر أنه لأحد أحفاده فالنسخة المخطوطة الموجودة منه في ٥٨ ورقة برقم ٤٥٨ جغرافيا في دار الكتب المصرية تلقب صاحب الكتاب بشهاب الدين المقريزي لا بتقي الدين. وثمة نسختان مخطوطتان أخريان

من الكتاب فى باريس برقم ٤٧٩٧ و ٥٩١٠.

٣٣ - ذكر السخاوى فى الضوء اللامع أن المقريزى **«قرض سيرة المؤيد»** شعرًا لمحمد بن ناهض. وقد ذكر الخبر نفسه فى ترجمة القلقشندى، فإن لم يكن ذلك سهوًا منه، فإن هذا قد يعنى أن السلطان المؤيد شيخ (المتوفى آخر سنة ٨٢٤هـ) بعد سنة أو نحوها من السلطنة أو بعض أمرائه الكبار قد طلب من الاثنين أو أوقع التنافس بينهما فى نظم السيرة التى كتبها ابن ناهض.

٣٤ - نشر للمقريزى كتابان عن تاريخ الأقباط، وهما كتاب واحد مستخرج من كتاب المواعظ والاعتبار (الخطط) نشر أولا بعنوان «دخول قبط مصر فى دين النصرانية» ترجمة لاتينية بعناية المستشرق ونزر فى سالباشى سنة ١٨٢٨م، ونشر باسم أخبار قبط مصر بعناية هماكر فى أمستردام سنة ١٨٢٤م، ثم طبع بعناية وستنفيلد فى غوطا سنة ١٨٤٥م.

٣٥ - **«تاريخ الجراكسة»** وهو مخطوط فى أكسفورد ينسب للمقريزى. ذكره زيدان واستظهر أنه قد يكون مقتطفًا من «واسطة السلوك» المخطوط هناك أيضا.

وأخيرًا نذكر للمقريزى:

٣٦ - كتاب **«نحل عبر النحل وما فيه من غرائب الحكمة»**: وهو مخطوط فى كمبردج، وقد نشره الشيال فى القاهرة سنة ١٩٤٦م. وهو نموذج لاهتمامات المقريزى العلمية التى تمثلت فى كتب أخرى مثل: «المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية» و«الإشارة والأسماء إلى حل لغز الماء». ومنها نسخ خطية موجودة بالإضافة إلى كتب ذات طابع دينى أو ما يشبهه كـ «السير فى سؤال خاتمة الخير» و«الإخبار عن الإعذار»، ومقالة فى حرص النفوس الفاضلة على بقاء الذكر.

٣٧ - لخص كتاب عجائب المقدور فى وقائع (أو أخبار أو نوائب) تيمور لابن عربشاه (المتوفى سنة ٨٥٤هـ) والمقريزى بهذا التراث كله واحد من ثلاثة أو أربعة رجال كانوا أسياد علم التاريخ فى العصر المملوكى أجمع.

ثانيًا: ابن حجر العسقلانى

شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن أحمد العسقلانى الأصل المصرى المولد والنشأة والدار، وقد اشتهر بابن حجر لقب بعض آبائه: ولد سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٦١ م. وتوفى سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م. وهو واحد من أكابر تلك السلسلة الطويلة من المحدثين المؤرخين التى كان منها الطبرى وابن الأثير والبغدادى وابن عساكر والذهبى... وإنما دخل علم التاريخ من باب الحديث، وما

يجب لعلومه من المعرفة بالرجال والأحداث والرواية، فكان مؤرخا كبيرًا بقدر ما كان محدثًا كبيرًا.

فقد ابن حجر أبويه وهو طفل فنشأ كالمقريزى يتيمًا فى وصاية أحد كبار التجار من أصدقاء أبيه، وقد صحب هذا الوصى إلى الحج وهو فتى فدرس فى مكة، ثم عاد فدرس فى مصر على أعلام العصر. وكان من شيوخه الزين العراقى، والسراج ابن الملقن، والشهاب البوصيرى، والبدر البشتكى، والعز ابن جماعة، والشمس القطان، والمجد الفيروزآبادى، والشمس الغمارى، والسراج البلقينى، والبرهانه الأبناسى، وغيرهم...

وعن هؤلاء أخذ الفقه وعلوم القرآن واللغة، لكنه انصرف بكليته للحديث منذ كان فى العشرين من عمره. وأكثر من الرحلة فى طلبه فى مصر وفى الشام والحجاز واليمن حتى اجتمع له من الشيوخ ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره، «كما بز غيره علوم الحديث مطالعة قراءة وتصنيفا وإفتاء» فصار فيه المفرد العلم. وبلغت مصنفاته فيه وحده أكثر من مائة وخمسين مصنفا. «وانتهت إليه الرحلة فى الحديث فى الدنيا بأسرها، فلم يكن فى عصره حافظ سواه» على حد قول السيوطى.

وقد عمل ابن حجر فى التدريس كغيره من العلماء فى العديد من مدارس القاهرة كالصالحية والمنصورية والجمالية والصلاحية والبيبرسية والشيخونية والمؤيدية. وتولى أيضا منصب القضاء أكثر من مرة، ولمدة تزيد على إحدى وعشرين سنة (عين وعزل خلالها تسع مرات). فلما زهد فى القضاء، وصرف عنه سنة ٨٥٢هـ كان العمر أيضا قد انتهى به، فقد مات بعد أشهر قليلة!

ترك ابن حجر من التراث العلمى ما تنوء به العصبة أولو العزم. ونستطيع أن نحصى من إنتاجه حوالى سبعين ومائتين كتابًا ورسالة، عدا ثلاثة دواوين من الشعر وثلاث عشرة فتوى جوابية. ولا يدخل فى ذلك خمسة وثلاثين مؤلفا نسبت أيضا إليه، أو ثمة شك فى نسبتها إليه. وإذا كان ما يهمنا من هذا التراث هو الجانب التاريخى، فإنه بدوره ليس بالجانب الهين ولا القليل. ونستطيع أن نحصى فيخ حوالى اثنين وثمانين كتابًا ورسالة ضاع منها النصف (٤١) ومعظم الباقى محفوظ (٢٩) ولم يطبع سوى السبع أو أقل (١٢). وإن كان هذا الذى طبع هو الأضخم فى الحجم والأثقل فى الوزن العلمى. وبعضه تاريخى خالص، وبعض حديثى يتصل خاصة بالحفاظ والرواة. والمجموعة الأولى المطبوعة هى:

١ - «**الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة**»: هو أكبر معجم للرجال فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) «وفيات سنة ٧٠١هـ حتى سنة ٨٠٠هـ من

الأعيان والعلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والآدباء والشعراء» فى مصر وفى البلاد الإسلامية على السواء. وإن توجت عناية ابن حجر إلى الحفاظ «رواة الحديث النبوى» بصورة خاصة. ولم يهمل النساء فترجم للمحدثات والعابدات وكسب كتابه شأنا تاريخيا خاصا بما أورد من تراجم ملوك المغول وأمراء التتر وسلاطين الترك ومن أحداث السياسة فى مصر والشام.

نظم ابن حجر التراجم التى أوردها - وهى فى الغالب قصيرة مركزة - على حروف المعجم، وكان يأمل أن يكون الكتاب فى أربعة مجلدات، ولكن تلميذه السخاوى بيضه فى مجلدين فقط. وقد فرغ المؤلف منه سنة ٨٣٧هـ.

وقد أدرك ابن حجر عددًا من أصحاب التراجم، ولكنه اعتمد فى معظم الكتاب على موارد أخرى ذكرها - وكانت هذه عادته فى مؤلفاته - فى مقدمة الكتاب، ومنها «**أعيان العصر**» للصفدى، و«**مجانى العصر**» لأبى حيان، و«**ذهبية القصر**» لابن فضل الله، و«**تاريخ مصر**» للقطب الحلبى، و«**ذيل سير النبلاء**» للذهبى، و«**الوفيات**» للدمياطى، والذيل عليه للعراقى، «**وتاريخ ابن خلدون**» و«**تاريخ غرناطة**» للخطيب، و«**الوفيات**» لابن رافع، وذيله لابن حجى، وعلى عدد من معاجم الشيوخ.

وليست هذه أول مرة يعتبر فيها القرن وحدة تاريخية للتأليف، فقد سبق ابن حجر فى هذا كل من الأدفوى فى كتابه «**البدر السافر**» والبرزالى فى «**تاريخ مختصر المائة السابعة**» والصلاح الصفدى فى «**أعيان العصر**» الذى بدأه من مطلع القرن الثامن حتى وفاته (سنة ٧٦٤هـ) كما اتبع الطريق نفسه ابن أبى عذيبة المعاصر لابن حجر فى كتابه «**إنسان العيون فى مشاهير سادس القرون**» ولكن كتاب «**الدرر**» كان أشهرها، وبدأ سلسلة مماثلة استمرت بعده عدة قرون فى السخاوى (القرن التاسع) ثم العيدروس والغزى (القرن العاشر) والمحبى (القرن الحادى عشر) والمرادى (القرن الثانى عشر) والبيطار (القرن ١٣).

ثمة عدة نسخ محفوظة من «الدرر» منها نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٠٢، ونسخة التيمورية رقم ١٣١٢، ونسخة ولى الدين باستامبول رقم ١٣٤، ونسخة المتحف البريطانى، والأهلية فى باريس، وفيينا، وغيرها. وقد طبع الكتاب لأول مرة فى الهند (سنة ١٩٢٩م) فى أربع مجلدات ضخمة، وطبع فى السنة نفسها فى القاهرة (المطبعة الرحمانية) فى أربعة مجلدات أيضا، ثم طبع فى حيدر آباد بالهند سنة ١٣٤٩م - ١٣٥٠هـ. ثم طبع فى القاهرة سنة ١٩٦٦م فى خمسة أجزاء (تحقيق محمد سيد جاد الحق). وأخيرًا ظهرت طبعة مصورة عن طبعة الهند الأخيرة فى بيروت (دار الجيل). وقد اختصر كتاب «**الدرر**» كل من جلال الدين السيوطى (٩١١هـ) ومعاصره ابن عبد الهادى (٩٠٩هـ).

٢ - **«ذيل الدرر الكامنة»**: ويتضمن تراجم **«الأعيان المختصة بالمائة التاسعة»** كما قال صاحبه وقد رتبه على السنين «استجابة لرغبة أصحابه ليتحقق له الاستيعاب، ولم يتبسط فى تراجم الشاميين»، ونظم التراجم على سنى الوفاة بالفعل، ولكنه جعلها فى كل سنة على حروف المعجم. واستعان بمؤلفه «إنباء الغمر» فى تأليفه. وقد ذكر السخاوى أنه رأى الكتاب فى دمشق فى مجلد لطيف عند الشهاب اللبودى، وأن ابن حجر وصل به إلى سنة ٨٣٢هـ.

ولم يطبع الذيل. وثمة نسخة مخطوطة منه فى دار الكتب المصرية برقم ٦٤٩ تاريخ تيمورية، وهى مسودة بخط ابن حجر نفسه وفيها شطب وتعديل واستدراك فى ٢٢٢ ورقة تنتهى سنة ٨٣٢هـ. ومع أن المخطوط يحمل عنوان «ذيل الدرر» إلا أنه كما نلاحظ- ليس بذيل عليه، ولا سماه صاحبه ولا تلميذه السخاوى بذلك، ولكنه كتاب خاص بتراجم أعيان المائة التاسعة وإن كان يتابع فيه كتاب **«الدرر الكامنة»** فى ترجمة رجال العصر.

٣ - **«أنباء الغمر بأبناء العمر»**: هو مؤلف حافل فى أكثر من ألف صفحة كبيرة. وإذا كان **«الدرر»** و**«ذيله»** فى الرجال فهذا فى التاريخ وأحداثه، وهو الصورة المكملة للدرر فى إعطاء صورة العصر الذى عاشه ابن حجر مع رجاله، جمع فيه الأحداث التى أدركها منذ ولادته سنة ٧٧٣هـ حتى انتهى إلى سنة ٨٥٠هـ نظمه على السنين وأورد فى كل سنة أحوال الدول ووفيات الأعيان مستوعبًا - طبق اهتماماته - لرواة الحديث النبوى خصوصًا - كما قال - لمن لقيه وأجازه.

اعتمد ابن حجر فى **«الإنباء»** على ما سمعه ورآه فى عصره، كما اعتمد على عدد من المصادر ذكرها - على عادته - فى مقدمة الكتاب، منها: ابن الفرات، وابن دقماق، وابن حجى، والمقريزى، والتقى الفاسى، والبدر العينى، والصلاح الأقفهسى، وابن خطيب الناصرية من مؤرخى مصر والشام الذين سبقوا عصره بقليل أو عاصروه.

ويبدو أن ابن حجر، حين قرر الشروع فى الكتاب، كان فى خاطره أن يجعله إكمالاً لبعض عمل السابقين فى التاريخ والرجال؛ لهذا قال المقدمة: «وهذا الكتاب يحسن من حيث الحوادث أن يكون ذيلا على تاريخ الحافظ ابن كثير، فإنه انتهى فى ذيل تاريخه **«البداية والنهاية»** إلى هذه السنة (٧٧٣هـ) ومن حيث الوفيات أن يكون ذيلا على وفيات ابن رافع (توفى سنة ٧٧٤هـ) فإنها انتهت إلى أوائل هذه السنة». وآثر ابن حجر شديد الدقة فى التسجيل فلم يكتف بالتاريخ الحولى، ولكنه كان يقيد الأحداث بالشهور والأيام فى الغالب. ومعظم ما دوَّنه خاص بتاريخ مصر فى تلك الحقبة، ولكنه دوَّن بجانبه أيضا ما وقع فى عدد من الأقطار الإسلامية من تركستان إلى

المغرب الأقصى، ومن مملكة الروم العثمانية إلى اليمن وهو يتبع الحوادث بذكر الوفيات حسب التقليد التاريخى الذى استقر فى تلك الفترة. ويسجل وفيات كبريات النساء أيضا. ومقام ابن حجر واتصالاته العليا ودقته العلمية تجعل الكتاب سجلا لتاريخ البلاد الإسلامية على مدى ثلاثة أرباع قرن وبخاصة فى مصر.

وقد ذيل على «**الإنباء**» البرهان البقاعى (المتوفى سنة ٨٨٥هـ) حتى سنة ٨٧٠هـ فى «**إظهار العصر**» كما كتب عليه ذيل آخر بعنوان «**أنباء المصر فى أنباء العصر**» من سنة ٨٥١هـ إلى سنة ٨٨٦هـ. وللسيوطى كتاب «**تاريخ العمر**» أراده ذيلا على «**إنباء**» ابن حجر.

وثمة من «**الإنباء**» نسخ عديدة مخطوطة تزيد على عشرين. وأهمها نسخة المؤلف الموجودة فى دار الكتب الظاهرية (رقم ٢٤١ تاريخ)، وثمة نسخة فى الأزهر (٧١٠ تاريخ) المتحف البريطانى وحيدر آباد واستامبول وفاس والمدينة المنورة (حتى سنة ٨٣٨هـ). وقد طبع الكتاب بتحقيق حسن حبشى فى القاهرة سنة ١٩٦٩م – سنة ١٩٧٣م، فى ثلاثة أجزاء (حتى سنة ٧٣٨هـ) كما طبع قبيل ذلك سنة ١٩٦٧م فى حيدر آباد بتحقيق عبد المعيد خان.

٤ – «**رفع الإصر عن قضاء مصر**»: وهو فى تراجم رجال القضاء الكبار فى مصر منذ الفتح الإسلامى حتى بداية القرن التاسع، حتى إنه ترجم فيه لنفسه، فقد كان هو واحدًا منهم (إذ ولى وعزل تسع مرات) وقد جمع فيهم مجلدًا ضخمًا رتبه على الطبقات، غير أن تلميذه العز الحنبلى رتبه بعد وفاته على حروف المعجم، وأجرى عليه بعض التنقيح. وكان اعتماد ابن حجر على من سبقه فى هذا الموضوع كالكندى وابن زولاق، وقد اعتبر كتابه ذيلا على ابن زولاق، كما استقى مادته من تاريخ ابن ميسر والقطب الحلبى وكتب المقريزى. ويذكر ابن حجر فى المقدمة أنه وقف على أرجوزة لشمس الدين ابن دانيال نظمها لقاضى القضاة ابن جماعة فى من ولى قضاء الديار المصرية، ثم طلب إليه أن يترجم لمن تضمنه الرجز فاستجاب وكان هذا الكتاب.

وقد ذيل عليه السخاوى (**فى بغية الوعاة فى الذيل على شيخى فى القضاة**) واختصره ابن شاهين سبط ابن حجر فى «**النجوم الزاهرة بتخليص أخبار قضاة مصر والقاهرة**» كما اختصره أيضا على بن عبد اللطيف المقدسى (توفى سنة ٩٠٠هـ).

وثمة من «**رفع الإصر**» نسخ مخطوطة عديدة منها فى مكتبة فيض الله باستامبول (رقم ١٤٥٥) فى ١٤٠ ورقة، وفى دار الكتب المصرية (رقم ١٠٥) وفى الأهلية بباريس (رقم ٥٨٩٣).

طبع قسم من «**رفع الإصر**» فى أعقاب كتاب ولاة وقضاة مصر للكندى (لجنة

جب التذكارية سنة ١٩٠٨م) ثم طبع كاملاً فى قسمين: الأول بتحقيق حامد عبد المجيد وأبى ستة والصاوى (طبعة وزارة التربية - القاهرة ١٩٥٧م) والثانى بتحقيق حامد عبد المجيد أيضًا (وزارة الثقافة - القاهرة ١٩٦١م).

٥ - **«الإصابة فى تمييز الصحابة»**: وهو أشهر كتب ابن حجر وأهمها فى التاريخ الحديثى، رتب فيه الصحابة على حروف المعجم، ثم داخل كل حرف على أربعة أقسام: من وردت عنه رواية، ومن رأى الرسول ﷺ فقط، ومن لم يره ولكنه من مخضرمى الجاهلية والإسلام، وأخيرًا ورد اسمه عن خطأ أو ذهول فى كتب مصنفى الصحابة. وهذا القسم الأخير هو أهم ما فى الكتاب لما فيه من التحقيق التاريخى الذى لم يسبق إلى غالبه. وقدم ابن حجر لكتابه بمقدمة من ثلاثة فصول عرف فيها الصحابى، وطريقة معرفته، وبيان عدالته، وخصص بابًا للصحابة المعروفين بالكنى وبابًا للصحابيات.

وقد سبق ابن حجر كثير من المؤلفين فى الصحابة، بل سبق أيضًا إلى الاسم الذى استخدمه ابن الجوزى والمقدسى والذهبى والخليلى (محمد بن يعقوب) ولكن كتاب ابن حجر احتل مكانه الخاص وصار واحدًا من ثلاثة أو أربعة كتب معتمدة مشهورة فى موضوعه رغم قصر ترجماته، لأنه استوعب الكتب التى سبقته، واستدرك عليها، ونفى وأثبت الصحبة وفق أسس منهجية ثابتة.

بدأ ابن حجر فى جمع كتابه سنة ٨٠٩هـ، واستمر فى عمله حوالى أربعين سنة، وأعاد كتابة مسودته ثلاث مرات، وبقيت الثالثة مسودة قيد التصحيح أيضًا. ومجموع التراجم فيه (١٢٣٠٤) تراجم بما فى ذلك المكرر، استند فى جمعها إلى ما يزيد على ٩٤٠ مصنفا وقد جاء الكتاب فى خمسة مجلدات ضخمة.

بلغ من شهرة كتاب **«الإصابة»** أن انتشرت منه نسخ مخطوطة فى أعداد كبيرة من المكتبات. فى استامبول منه أكثر من اثنتى عشر نسخة، وفى مصر بدار الكتب، ودمشق (الظاهرية) وتونس (الأحمدية) وبغداد (الأوقاف) نسخ أخرى متعددة.

كما طبع كتاب **«الإصابة»** أكثر من ست طبعات: أولها فى الهند (سنة ١٨٥٣م) فى ثمانية مجلدات، ثم فى كلكوتا (١٨٦٠ - ١٨٧٣م) فى أربعة، ثم فى القاهرة سنة ١٩٠٧م فى ثمان طبعات وتكرر طبعه فى القاهرة بعد ذلك أربع مرات كان آخرها طبعة دار نهضة مصر الطبعات السابقة تصويرًا.

٦ - **«تهذيب التهذيب»**: هو مصنف ضخم فى رجال الحديث فى مختلف العصور. اختصر فيه ابن حجر كتاب **«تهذيب الكمال فى أسماء الرجال»** للحافظ المزى الدمشقى (المتوفى سنة ٧٤٢هـ). وكتاب **«الكمال»** هو فى الأصل للحافظ عبد الغنى

المقدسى الدمشقى (المتوفى سنة ٦٠٠هـ./١٢٠٤م.). لكن ابن حجر أضاف إلى تهذيب المزى ما يعادل ثلث حجمه من المعلومات الإضافية، ومع ذلك فقد أخرجه فى ثلث حجم الكتاب المهذب، أى كتاب المزى. فقد حذف التطويل فى المرويات، واقتصر على أشهر شيوخ الرجال، ولم يحذف التراجم الصغيرة، ولكنه زاد فيها ما يدخل فى شرط الكتاب مما وجده فى المراجع الأخرى. وانتهى منه سنة ٨٠٧هـ راضيًا عنه.

جاء الكتاب فى ثلاثة مجلدات بخط المؤلف (وفى ستة من خط غيره). ثمة نسخة فى خمسة مجلدات فى طوبقابو (من رقم ٦٢١٤٥٣ إلى ٦٣٢٥٤٥٨) ونسخة تشستربتى (رقم ٣٢٨٩ و ٣٣٤٥) ومخطوط ولى الدين رقم ٣٢٥ - ٣٢٧، ومخطوط القرويين فى فاس رقم ٦٢٧ - ٦٢٨ وغيرها.

وقد طبع **«تهذيب التهذيب»** فى دلهى سنة ١٨٩١م، وفى حيدر آباد الدكن سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧ فى ١٢ مجلدًا. وأعيد طبعه مصورًا سنة ١٩٦٨م (دار صادر فى بيروت) عن النسخة الأخيرة.

٧ - **«تقريب التهذيب»**: هو مختصر الكتاب السابق ولا تزيد الترجمة على سطر فكأنه فهرس للتذكرة. ويحوى رجال الكتب الستة مع زيادات كثيرة، منها فصل فى بيان المبهمات من النساء.

ومنه نسخ مخطوطة كثيرة، ومنها نسخة بخط المؤلف فى دار الكتب المصرية - التيمورية رقم ٥٣٣ تاريخ فى ٤٣٠ ورقة، بالإضافة إلى نسخ أخرى فى الدار (أرقام ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥)، وفى الأزهرية، ونسخ عديدة فى استامبول (ينى جامع ٤٣ - ٤٤، ولى الدين ٢٧، وعاطف أفندى ١٠٦، وأسعد أفندى ٢٠، وثلاث نسخ فى طوبقابو أرقامها ٤٥٩ ٦٣١٨ فى ٢٥٧ ورقة، و ٤٦٠ ٦٣١٩ فى ٩١٧ ورقة، و ٥٠٥ ٦٣٢٠ فى ٢٢١ ورقة) عدا ما فى بغداد والموصل غيرها.

وقد طبع **«التقريب»** بتحقيق وتعليق وتقديم عبد الوهاب عبد اللطيف (دار الكتاب العربى - القاهرة) سنة ١٩٦٠م، وكان قد طبع من قبل فى دلهى سنة ١٨٩١م. وطبع حديثا بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا بدار الكتب العلمية .بيروت.

وعلى كتاب **«التقريب»** بنة ابن عبد الهادى كتابه **«ضبط من غير فى من قيده ابن حجر»**.

٨ - **«لسان الميزان»**: وقد بناه ابن حجر على أساس اختصار كتاب **«ميزان الاعتدال فى نقد الرجال»** للذهبى (وهو فى التعديل والتجريح) ولكنه بجانب الاختصار اقتصر فقط على ذكر التراجم التى وردت فى الميزان، ولم ترد فى تهذيب

الكمال، وأضاف فى الوقت نفسه من عنده زيادات كثيرة جدا سواء فى التراجم نفسها، أو فى تجريح وتعديل المترجمين، مما جعله يقول فيما بعد: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أتقيد بالذهبى ولجعلته كتابًا مبتكرًا...» وقد بلغ من اهتمام ابن حجر بهذا الكتاب أن ظل يتابعه بعد الفراغ منه بالتعديل والإضافة فى كتب أخرى، وهكذا نجد له:

٩ - **«تحرير الميزان»** وفيه تصحيح ما وقع له من وهم فيه، وإضافة ما فاته من تراجم.

١٠ - **«تقويم اللسان»** وفيه أورد من ضعفه الذهبى، ولم يذكر مستنده فى تضعيفه.

١١ - **«ذيل الميزان»** وقد جمع فيه ابن حجر نحوًا من ألفى ترجمة إضافية وبيض قسمًا منه. وثمة من لسان الميزان نسخة كاملة فى ثلاثة أجزاء فى مكتبة أحمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٤٤، الأول إلى آخر حرف الزاى، والثانى إلىآخر اللام والثالث حتى نهاية الكتاب. وثمة فى مكتبة «لاله» الجزء الثانى منه فقط رقم ٦٣١. وفى أيا صوفيا نسخة. وقد طبع الكتاب بحيدر آباد سنة ١٩١١م - ١٩١٢م فى ستة أجزاء.

١٢ - **«تبصير المنتبه بتحرير المشتبه»**: وهو فى المشتبه من أسماء الرجال الرواة، وما يتصل بذلك من المؤتلف والمختلف، قصد به ابن حجر التحرير والضبط لكتاب المشتبه للذهبى والاستدراك عليه. وقد بلغت زيادات ابن حجر مرة ونصف المرة من الكتاب الأصلى، وجاء كتاب التبصير فى مجلد كبير فرغ منه سنة ٨١٦هـ وهو مرتب على حروف المعجم.

ومنه نسخة كتبت فى عصر المؤلف وعليها خط ابن الشحنة وولده موجودة فى مكتبة مراد ملا باستامبول رقم ٣٤٣ فى ٢٥٨ ورقة. وثمة نسخة خزائنية كتبها البوصيرى (سنة ٨٢٠هـ) وقرأها على المؤلف موجودة فى رضا رامبور رقم ١٠٢٠، وثالثة فى حيدر آباد رقم ١٠ رجال، ورابعة فى خدابخش رقم ٢٤١٢، وخامسة فى شهيد على رقم ٣٧٧ وغيرها. وقد طبع **«تبصير المنتبه»** بتحقيق على محمد البجاوى فى القاهرة سنة ١٩٦٤ - ١٩٦٥م فى أربعة اقسام.

١٣ - **«تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس»**: ألفه ابن حجر سنة ٨١٥هـ، وجعل المدلسين خمس مراتب أو طبقات. وثمة منه نسخ عديدة منها ثلاث فى دار الكتب المصرية أرقامها ١٤٤ مجاميع، ١٧٥ مجاميع، و٥٢ مجاميع، وفى التيمورية مثل ذلك، عدا نسخ الأزهرية وكوبريللى فى استامبول رقم ١٥٩١. وقد طبع الكتاب بمصر سنة ١٩٠٤.

١٤ - **«المرحمة الغيثية فى الترجمة الليثية»** أو **«مرحمة الغيث بترجمة الليث»**: هو

الليث بن سعد قاضى مصر وصاحب المذهب الفقهى المعروف باسمه (ولد سنة ٩١ وتوفى سنة ١٧٥هـ).

والمؤلف رسالة كتبها ابن حجر فى يومين (سنة ٨٣٤هـ) فى أوراق، ومنها نسخة فى ١٣ ورقة مخطوطة (خدابخش بتنة رقم ٢٣٨٢).

وقد طبعت الرسالة مرة فى بولاق سنة ١٣٠١هـ./١٨٨٤م.، وطبعت مع مجموعة من «الرسائل المنيرية» ببيروت سنة ١٩٧٠ ج٢ ٢٣٥ - ٢٦٥.

١٥ - **«توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس»**: وهو بدوره رسالة فى مناقب الإمام الشافعى مرتبة فى بابين فرغ منها ابن حجر سنة ٨٣٥هـ. وثمة نسخة مخطوطة لها فى الظاهريه بدمشق رقم ٩٢٢٤ عام فى أربع وعشرون ورقة، وأخرى فى أياصوفيا (٣٥٠٨) وقد طبعت الرسالة مع الرسالة السابقة فى بولاق سنة ١٣٠١هـ./١٨٨٤م.

١٦ - **«الزهر النضر فى أبناء الخضر»**: وقد تتبع ابن حجر فى هذه الرسالة أخبار الخضر فى الأقوال المختلفة، وفحص أسانيدها جامعًا ما سبقه إليه الباحثون الآخرون فى هذا الموضوع كابن الجوزى، والرواة الباقون كالقشيرى، والماوردى، وأبى نعيم...

ومن الرسالة مخطوط فى دار الكتب المصرية رقم ١٧٥ مجاميع فى ١٥ ورقة. وهى مطبوعة مع مجموعة الرسائل المنيرية فى بيروت سنة ١٩٧٠م.

١٧ - **«غبطة الناظر فى ترجمة عبد القادر الكيلانى»**: ولعله ملخص عن كتاب «بهجة الأمراء» لابن الملقن فقد ذكر السخاوى فى «الجواهر والدرر» (ورقة ٢٩٦ ظهر) أنه لخصه. ومن **«غبطة الناظر»** نسخة فى الرباط ذكرها بروكلمان (رقم ٧٥). وقد طبع الكتاب فى كلكوتا سنة ١٩٠٣م، وله مختصرات بدوره منها مخطوطات فى تونس وغيرها.

وتأتى بعد هذا مجموعة كتب ابن حجر التاريخية الثانية التى ما تزال مخطوطة وقد تقدم بعضها فى مواضعها، ويبقى:

١٨ - **«تجريد الوافى بالوفيات للصلاح الصفدى»**: والمعجم الوافى ضخم جدًا فى أصله (تسعة وعشرين مجلدًا) ولكن ابن حجر أوجزه فى مجلد كأنه الفهرس، كتبه قبيل وفاته بقليل بحيث لا تزيد الترجمة عامة على سطر. ومنه نسخة مخطوطة بخط ابن فهد المكى فى مكتبة فيض الله باستامبول رقم ١٤١٣ فى ٢٦٩ ورقة.

١٩ - **«المجمع المؤسس للمعجم المفهرس»**: وهو يضم تراجم ومرويات حوالى ٤٥٠ شيخًا من شيوخ ابن حجر بالسماع والإجازة والإفادة، وقد رتبهم على حروف المعجم فى قسمين: الأول لمن روى عنه، والثانى للباقين، وجعلهم من حيث علو

الأستاذ خمس مراتب أو طبقات. بدأ ابن حجر جمع الكتاب فى عدن سنة ٨٠٦، وفرغ منه سنة ٨١٩هـ فى القاهرة، وقد جاء فى ١٦٢ ورقة.

ومسودة هذا الكتاب الأولى ما تزال مخطوطة، وهى فى المكتبة الأزهرية برقم ١٣٦٠/١٧٨ مصطلح الحديث. وهناك فى الأزهرية نسخة أخرى برقم ٩٣٤ حديثية، وفى دار الكتب المصرية نسخة ثالثة برقم ٧٥ مصطلح (فى قسمين من ١٢٧٧ ورقة). وثمة أيضًا نسخة فى الأحمدية بحلب رقم ٣٤٥ (٣٧٥ ورقة). وفى مكتبة مراد ملا نسخة بخط المؤلف كتبت سنة ٨١٦هـ ورقمها ٦٠٣ (وتمثل مشروع المؤسس قبل استكماله) وهناك أيضًا نسخ أخرى فى الحرم الشريف واستامبول وغيرهما.

٢٠ - **«المعجم الفرس أو تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة»**. ويبدو أنه غير الذى سماه ابن حجر أيضًا - حسب رواية السخاوى - **«المقاصد العليات فى فهرست المرويات»** أو **«المقاصد العلية فى فهرست الكتب والأجزاء المروية»**: وهو فى مجلد يحوى ما رواه ابن حجر بالأسانيد من مطولات الكتب والمختصرات والجوامع فيها والمفرقات والشيوخ والمعاجم والمشيخات والتواريخ وفنون الحديث والتصانيف فى القرآن والفضائل والزهد والفقه والرقائق والمناقب والنوادر وغيرها، مع بيان محتوى بعضها وحجمها وطريق قراءتها... فهو عرض للمكتبة الثقافية التى استوعبها قطب من أقطاب العلم فى ذلك العصر. ومن هنا الشأن التاريخى لهذا المعجم بوصفه إطلالة عالية على ثقافة العصر. ومنه نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية رقم اثنين وثمانين مصطلح وتقع فى ١٨٥ ورقة رويت مباشرة عن ابن حجر. ونسخة أخرى فى المتحف البريطانى رقم ٩٦٧٧.

٢١ - **«الإيثار بمعرفة رواة الآثار»**: وهو فى رواة كتاب الآثار لمحمد بن الحسن الشيبانى (قاضى الرشيد المعروف المتوفى سنة ١٨٩هـ) وفى ما رواه عن أبى حنيفة. وقد رتب ابن حجر تراجم هؤلاء الرواة على حروف المعجم فى الأسماء والكنى ثم المبهم، وعقد فى النهاية فصلا فى النساء. وقد فرغ منه أواخر سنة ٨٣٣هـ.

وثمة نسخة مخطوطة بخط ابن حجر فى دار الكتب المصرية رقم ١٥٦ مصطلح.

٢٢ - **«تسمية من عرف ممن أبهم فى العمدة»**: (أى عمدة الأحكام لعبد الغنى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠هـ) ويستوفى فيه ابن حجر تراجم أولئك المغمورين المذكورين فى الكتاب بترتيب أبوابه. وهناك نسخة مخطوطة منه فى المكتبة الأزهرية ضمن مجموع (١٠٩ مجاميع).

٢٣ - **«تعجيل المنفعة برجال الأئمة الأربعة»**: ترجم فيه ابن حجر لمن خرج له فى كتاب من كتب الأئمة الأربعة (دون الكتب الستة) فهو فى تاريخ الرواة الثقات. ومنه

نسخة خطية فى الظاهرية بدمشق ضمن مجموع رقم ١٤٦ حديث (من ورقة ٣١ إلى ١٢٤).

٢٤ - **«نزهة الألباب فى الألقاب»**: استوعب فيه ابن حجر واختصر الكتب السابقة فى هذا الموضوع، وأضاف واستدرك وصحح الكثير، وجعل الكتاب فى ثلاثة أبواب، ونظم كل باب على حروف المعجم. وللكتاب شأنه الهام فى التاريخ وعلم الرجال والحديث.

ومنه نسخ مخطوطة عديدة: أهمها نسخة بخط ابن حجر فى دار الكتب المصرية برقم ٣٣٦ مصطلح بخط المؤلف. وهناك نسخة أخرى برقم ١٦٦ وثالثة فى فيض الله باستامبول رقم ١٥٤٨ وغيرها. والكتاب مطبوع.

٢٥ - **«إتحاف إخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفا»**. وهو مخطوط.

٢٦ - **«تاريخ المدينة المنورة»**: ذكر بروكلمان أنه مخطوط فى مكتبة رضا رامبور، ومنه نسخة أخرى فى المدينة، وليس فى المصادر القديمة ذكر له.

٢٧ - **«رحلة ابن حجر من مصر إلى دمشق»** وتسمى أحيانًا: **«اتباع الأثر فى رحلة ابن حجر»**. وثمة شك فى نسبتها لابن حجر. ومنها مخطوط الظاهرية برقم ١٠٢٢٦ وهى مخرومة الأول وتقع فى ١٣ صفحة.

٢٨ - **«المعنى فى ضبط الأسماء والأنساب»**: وقد ذكر بروكلمان وجود نسخة مخطوطة منه فى رضا رامبور.

٢٩ - **«تحفة أهل الحديث عن شيوخ التحديث»**: ومنه مخطوطان فى المكتبة المركزية بالموصل رقم ١٩٤ و ٢٣٨ وذكرهما بروكلمان وذكر أن الكتاب فى ثلاث مجلدات.

٣٠ - **«منتقى مغازى الواقدى»**: (ويسمى أحيانا تعاليق منها أو تلخيصها). وفى دار الكتب المصرية نسخة منها برقم ٥٢٢ تاريخ تضم أيضًا تلخيص البداية والنهاية. (من الورقة ٣٨ حتى ١٥٠) بخط ابن حجر نفسه.

٣١ - **«تعليق من تاريخ ابن عساكر (تاريخ دمشق)»**: ومنه نسخة فى المخطوط السابق نفسه فى دار الكتب المصرية ٥٢٢ تاريخ من الرقم ١٥٠ إلى ١٩٤ مختارات من تراجم المحدثين بخطه.

٣٢ - **«ما ورد من الرواية فى البداية والنهاية لابن كثير»**: لخص فيه ابن حجر من هذا الكتاب أخبار الأنبياء وغيرهم، دون الرسول. ونص فى المقدمة على أنه كتبه لنفسه ولمن ينتفع به. ولعل هذا حال الكتابين اللذين نجدهما مع هذا الكتاب فى

مخطوطة واحدة بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٢ تاريخ بخط ابن حجر. وكتاب ابن كثير من الورقة الأولى حتى ٧٧.

٣٣ - **«الخيرات الحسان من مناقب أبى حنيفة النعمان»**: ومنه نسخة مخطوطة فى طوبقابو رقم ٢٨٢١ و ٦٥٢٢ (ومعها كتاب الشقائق النعمانية لطاش كبرى زاده).

٣٤ - **«ترجمة ابن تيمية»**: (المتوفى سنة ٧٢٨هـ) ولعلها مستلّة من كتاب «الدرر الكامنة» وثمة من هذه الرسالة نسختان مخطوطتان: إحداهما فى دار الكتب المصرية رقم ٢٠٥٤٥ ب (ضمن مجموعة من الورقة ٢٣ إلى ٣١) ونسخة فى مكتبة الأوقاف ببغداد ضمن مجموع (رقم ٦٠١٩) فى ١٣ ورقة.

٣٥ - **«الفتح الذهبى فى مناقب الشاطبى»**: ومنه نسخة مخطوطة فى أيا صوفيا ضمن مجموع رقم عدد عمومى رقم ٥٩.

٣٦ - **«ترجمة السيد أحمد البدوى»**: ومنه نسخة فى الظاهرية بدمشق ضمن مجموع رقم ٣٧٥٤ فى ورقة وبعض الورقة ذكر أنها منقولة من خط ابن حجر.

٣٧- **«المعجم للحرة مريم»**: (وهى بنت الأذرعى، المحدثة المعمرة المتوفاة سنة ٨٠٥هـ) من مشايخ ابن حجر. ومن **«المعجم»** نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٤٢١ حديث فى ٨٠ ورقة بخط ريطة بن شاهين.

٣٨ - **«بذل الماعون فى فصل الطاعون»**: وهو مجلد صغير جمع فيه أشياء كثيرة من الأحاديث والأحكام والآداب المتعلقة بالطاعون مع بعض أخباره. فرغ منه سنة ٨٣٣هـ، ويبدو أنه عاد إليه بالإضافة سنة ٨٤٨هـ. ومن هذا الكتاب نسختان فى التيمورية رقم ١٩٨ ورقم ٣١٢ مجاميع ونسخة فى الظاهرية بدمشق رقم ٢٣. وفى مكتبات أسعد أفندى وعاشر أفندى وكبريللى وأيا صوفيا فى استامبول نسخ أخورى، وكذلك فى ليدن. وقد اختصر الكتاب كل من الشيخ المناوى (المتوفى سنة ٨٧١هـ) والسيوطى (المتوفى سنة ٩١١هـ) والأنصارى (المتوفى سنة ٩٢٦هـ). وثمة من هذه المختصرات نسخ مخطوطة أيضًا. وفى بلدية الإسكندرية مخطوط لابن حجر عنوانه **«خلاصة ما رواه الواعون من الأخبار الواردة فى الطاعون»** فيه سرد لحوادث الطاعون حتى سنة ٨٤٨هـ، وقد أكمله بعض العلماء المجهولين حتى سنة ١٠٥٣م.

٣٩ - ويمكن أن نعدًّا أخيرًا من كتب التاريخ كتاب ابن حجر **«أسباب نزول القرآن»** فهو متصل بالمناسبات التاريخية أيام الرسالة وهو فى مجلد ضخم. ومنه نسخ مخطوطة لعلها مسودة المؤلف فى جامع القرويين فى فاس.

وتأتى بعد هذا المجموعة الثالثة من أعمال ابن حجر وهى القسم الضائع أو المفقود

حتى الآن على الأقل. وفيها من الكتب الحديثية:

٤٠ - **«ترتيب طبقات الحفاظ للذهبى»**: مرتبة على حروف المعجم وقد بيض ابن حجر منه النصف فى مجلد.

٤١ - **«رونق الألفاظ بمعجم الحفاظ»**: جمعة وهيأ مادته ابن حجر مختصرًا فيه **«تذكرة الحفاظ»** للذهبى مع الاستدراك، وأعطاه لسبطه يوسف بن شاهين الذى أتمه بعد موت جده، ونظمه وبيضه فهو مشترك بينهما ويحسب فى تراث السبط. وثمة نسخة من المجلد الأول من «الرونق» فى مكتبة المدينة رقم ٢٧٢. وهناك نسخة من المجلد الثانى (من حرف الغين حتى آخر الكتاب أثناء فصل النساء) فى المكتبة الخالدية فى القدس (رقم ١١ تراجم) فى ٣٥٠ ورقة وعليه خطوط بعض العلماء المعروفين كابن قطلوبغا والصدفى وغيرهم.

٤٢ - **«ثقات الرجال ممن لم يذكر فى تهذيب الكمال»**: فى خمسة أسفار كتب منها ابن حجر نحو ثلاثة ولم يكمل.

٤٣ - **«فوائد الاحتفال ببيان أحوال الرجال»** (المذكورين فى البخارى): وهو فى مجلد مسودة.

٤٤ - **«أسماء رجال الكتب التى عمل أطرافها فى إتحاف المهرة»**: ولم يكمله ابن حجر ولو كمل لجاء فى خمسة مجلدات.

٤٥ - **«المهمل من شيوخ البخارى»**.

٤٦ - **«ترتيب المبهمات على الأبواب»** (ولعله الكتاب السابق رقم ٢٢).

٤٧ - **«التعريف الأجود بأوهام من جمع رجال المسند»**.

٤٨ - **«ذيل التبيان لمنظومة الحفاظ بديعة الزمان»**: وقد ذيل بها ابن حجر على شرح الحافظ ابن ناصر الدين لهذه المنظومة التى تجمع أسماء الحفاظ. واشتمل «الذيل» على ٢٨ حافظًا إضافيًا. وفى المجموعة الضائعة من المؤلفات التاريخية العامة ومعظمها رسائل محدودة الحجم.

٤٩ - **«أرجوزة فى وفيات الأعيان للذهبى»**: وصل فيها إلى سنة ٢٠١.

٥٠ - **«الإعلام فى من سمى محمدًا قبل الإسلام»**.

٥١- **الإعلام بمن ولى مصر فى الإسلام»**.

٥٢ - **«تعريف الفئة فى معرفة من عاش مائة»**: ولعله هو الذى يذكر باسم كتاب المعمرين فى الإصابة ويذكره السخاوى باسم كتاب المعمرين والشبان أيضًا.

٥٣ - **«إقامة الدلائل على معرفة الأوائل»**.

٥٤ - **«النبأ الأنبه فى بناء الكعبة»** كتبه ابن حجر بطلب من السلطان المؤيد سنة ٨٢٢هـ.

٥٥ - **«القصد الأحمد فى من كنيته أبو الفضل واسمه أحمد»**: ظل مسودة.

٥٦ - **«الجواب الجليل عن حكم بلد الخليل»**: وابن حجر يسميه **«البناء الجليل بحكم بلد الخليل»**.

٥٧ - **«جزء فى أسماء المدلسين»**.

٥٨ - **«جلب حلب»**: وهو صدى رحلته إلى حلب، وما علق من نوادر وفوائد حين رحل إليها سنة ٨٣٦هـ. فى حوالى أربعة أجزاء حديثية (٤٠ ورقة).

٥٩ - **«الدرة المضية من فوائد الإسكندرية»**: وهى صدى رحلته سنة ٧٩٧هـ إلى الإسكندرية وطابعها أدبى.

والمجموعة الثالثة المفقودة تتصل بالمشيخات والفهارس وفيها:

٦٠ - **«الثبت الحديثى»** الذى أثبت فيه شيوخه ومروياته ومسموعه والمشاركين معه وكان فى مجلدين فى المسودة.

٦١ - **«فهرس كتب المحمودية»** التى بناها جمال الدين محمود بن على سنة ٧٩٧هـ فى القاهرة واشترى لها مكتبة البرهان ابن جماعة من ورثته، وكانت مكتبة ضخمة تحوى حوالى أربعة آلاف مجلد فى مختلف الفنون، وحين كانت المكتبة فى عهد ابن حجر كانت تزيد على عشرة الآف فعمل لها فهرسين: الأول على أبواب العلم، والثانى على الحروف.

٦٢ - **فهرس نفسه** وكان فى مجلداته: ضخم يسمى **«المقاصد العليات فى فهرست المرويات»** ويبدو أنه غرق فى رحلته إلى اليمن.

٦٣ - **فهرس مرويات جلال الدين البلقينى بالإجازة** (توفى سنة ٨٢٤هـ).

٥٤ - **فهرس (أخيه) علم الدين البلقينى بالإجازة** (توفى سنة ٨٦٨هـ).

٦٥ - **فهرس الشرف بن الكويك** (محمد بن محمد بن عبد اللطيف الربعى التكريتى المصرى ٧٣٧ - ٨٢١هـ).

٦٦ - **مشيخة البرهان الحلبى**.

٦٧ - **مشيخة ابن أبى المجد**.

٦٨ - **منتقى من مشيخات ابن عساكر** (٥٧١هـ) وابن السرارى والفخر بن البخارى (ت ٦٩٠).

٦٩ - **مشيخة الشرف أبى الطاهر بن الكويك.**

٧٠ - **«معجم التنوخى»**: (أو المعجم الكبير للشامى) وكان فى مجلدة ضخمة (٢٤ جزءًا حديثيًا) عن أكثر من ٤٠٠ شيخ.

٧١ - **«المنتقى من معجم السبكى».**

٧٢ - **«تعقيب على ابن الجزرى فى مشيخة شيخه الجنيد»** (فى جزء).

وتأتى بعد ذلك مجموعة من كتب المناقب:

٧٣ - **«الأنوار فى خصائص المختار»**: وهو نوع من السيرة النبوية.

٧٤ - **«الإيناس بمناقب العباس»**: وهو نوع من المديح للخليفة العباسى فى القاهرة.

٧٥ - **«مناقب الشيخ أبى العباس أحمد الجرار».**

٧٦ - **«ترجمة الإمام النووى»**: (المتوفى سنة ٦٧٧هـ) ولعله برهان الدين إبراهيم (المتوفى سنة ٨٥٥هـ).

وهناك كتب التخليص التاريخى:

٧٧ - **«منتقى من تاريخ ابن خلدون».**

٧٨ - **«تلخيص المتفق والمتفرق»** للخطيب البغدادى.

٧٩ - **«توضيح المشتبه»** (فى الأنساب) للأزدى.

٨٠ - **«قصة هاروت وماروت».**

٨١ - **«منتخب رحلة ابن رشيد».**

ونضيف بعد هذا كله أن علم التاريخ أثار فى عصر ابن حجر إشكالاً فقهيا يتعلق بتحريمه أو تحليله بوصفه نوعًا من الغيبة. واستفتى كبار العلماء فى ذلك ومنهم ابن حجر الذى دافع عن التاريخ بدقة وسداد. وقد نشر فؤاد سيد خمسًا من هذه الفتاوى ومنها فتوى ابن حجر الذى قسم التاريخ قسمين: قسم يقصد ضبط الوقائع ويلزمه التحرى فى النقل، وقسم يتقصر على تراجم الناس. وهنا لا تكشف مساوئ المشهور بالخير والدين لأنه غير معصوم. وأما المجاهر بالفسق فيجوز ذكر ذلك عنه لكى يرتدع. وأما المحدِّث فالأصل فى فنه بيان الجرح والتعديل ولا يجوز كتمان ذلك. وأما الزعم بأن ذلك غيبة فمرفوض وإن أصر الزاعم عليه فليعلم أو يؤدب... ذلك منهج ابن حجر

فى تراثه كله.

ثالثا: البسطامى

زين عبد الرحمن بن على أحمد بن محمد البسطاى الأنطاكى الحنفى: ولد فى أنطاكية. وتوفى بمدينة بروسة (بالأناضول) سنة ٨٥٨ هـ. /١٤٥٣ م. سنة فتح القسطنطينية. وفيما بين هذا وذاك قضى فترة الدراسة والتكون العلمى فى الشام والقاهرة، ورحل إلى المغرب فى نشدان الروحانيات، وشارك فى أنواع عديدة من علوم الحديث والفقه والتاريخ والتصوف وبرع فى اللغتين العربية والتركية. وكان له ولع بالروحانيات والأسرار الغيبية فانصرف لدراستها والتأليف فيها فله فى خواص الحروف السحرية وفى علم الجفر (التنبؤ للمستقبل من خلال كتب ذات أسرار خاصة) والمكاشفات الروحانية بمجموعة من المؤلفات يمازجها الطابع الصوفى الذى كان سيد الفكر فى تلك الحقبة. وطاشكبرى زاده يلقبه بالشيخ العارف با لله ويذكر أنه كان له تصرف عظيم بخواص الحروف وتأثير عظيم بالاشتغال بأسماء ا لله تعالى، وكان له فى ذلك حكايات غريبة...

ويبدو أن تألق الدولة العثمانية استهوى البسطامى فهاجر قبل سنة ٨١٦هـ إلى الأناضول حيث عمل في التدريس فى آق شهر، ثم فى مدارس بروسة حيث استقر وتوطن وتوفى تاركًا تراثًا من المؤلفات -رأى طاشكبرى زاده - أكثرها بخطة الذى كان فى غاية الإحكام والإتقان، وعددها يزيد على خمسين كتابًا أكثر من خمسها فى التاريخ الذى كان الهواية الثانية له. و لم تحظ أعمال البسطامى بالعناية المناسبة لانقراض الاهتمام بموضوعاتها، فضاع معظمها. والمؤلفات التاريخية منها لا تعد حوالى عشرة كتب، ولكنها مع المؤلفات الأخرى شبه التاريخية تقارب العشرين:

١ - **«نظم السلوك فى مسامر الملوك»**: وهو مختصر من الهجرة إلى سنة ٧٠٠هـ، أنهاه البسطامى سنة ٨٠٦هـ. ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة فى أيا صوفيا رقم ٣٥٠٣، ونسخة أخرى فى عاشر رئيس رقم ٧٢١، وثمة نسخة ثالثة فى المتحف البريطانى تحمل عنوان **«جواهر السلوك فى سياسة الخلفاء والملوك»**. إلا أن تكون هذه المخطوطة كتابًا آخر للبسطامى.

٢ - **«مختصر جهينة الأخبار فى ملوك الأمصار»**: ولعله مختصر كتاب «جهينة الأخبار» لبدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبى الشافعى المتوفى سنة ٧٧٩هـ، والمؤلف بأسلوب السجع.

ومنه نسخة فى سوهاج بمصر رقم ١٤٩ تاريخ فى ١٤٦ ورقة.

٣ - **«صيحة البوم فى حوادث الروم»**: وهى منظومة طويلة فى كتاب يجمع بين

علم الجفر والتاريخ وينسب الكتاب خطأ لابن عربي. والبسطامى يتنبأ فيه بانهزام الروم البيزنطيين. وقد كتبه سنة ٨١٦هـ بمدرسة فرخ شاه بآق شهر.

٤ - «**مباهج الأعلام فى مناهج الأقلام**»: ولم يتيسر لنا الاطلاع عليه لنعرف موضوعه وإن كان عنوانه (الذى قد يخدع) يوحى بأنه فى التعليم الديوانى وفى التراجم.

ومن هذا الكتاب نسخة فى المتحف البريطانى رقم ٧٥٢٨.

٥ - «**الفوائح المسكية والفواتح المكية**»: وهو هواجس صوفية روحانية أوحاها له الحج، كتبها فى مكة سنة ٨٨٤هـ فى مجلد صغير. ومنه نسخة مخطوطة فى الحرم المكى برقم ١٢٢. وأخرى فى فيض الله باستامبول رقم ١٥٠١ فى ١٩٤ ورقة.

٦ - «**درة تاج الرسائل وغرة منهاج الوسائل**»: ويبدو أنه يذكر فيه بعض تجاربه. ومخطوطة الدرة موجودة فى مكتبة نور عثمانية رقم ٥٩٠٤.

وله عدا هذا بعض المؤلفات التاريخية، أو التى يرجح أنها من التاريخ وهى ضائعة.

٧ - «**روضة العباد فى مناقب الصوفية الزهاد**»: والكتاب قد تكون نسخة منه فى بعض مكتبات تركيا. ولكنه فى جمعه بين التاريخ والتصوف والكرامات يمثل الجو الفكرى العام للمؤلف وللعصر الذى عاش فيه.

٨ - «**الدرر فى الحوادث والسير**»: ويصفه حاجى خليفة بأنه مختصر على ترتيب السنين من وفاة الرسول إلى سنة ٧٠٠هـ. ويذكر أسطرًا من مقدمته، وهو غير معروف المصير حتى الآن، ولكنه يماثل كتابه «**نظم السلوك**» فى الموضوع. ولسنا نستطيع أن نجزم فيما إذا كان الكتابان واحدًا أم أن أحدهما مختصر الآخر.

٩ - «**التواريخ اللطيفة والآثار العجيبة**»: فرغ من تأليفه سنة ٨٣٥هـ ولا يعرف مصيره.

١٠ - «**جواهر الدرر وفواخر الغرر**».

١١ - «**خرائد الملوك فى فوائد السلوك**»: ألفه للقاضى خضر بن إلياس، وذكر فيه ما قيل فى الخضر وفى إلياس.

١٢ - «**مصباح السلوك فى مسامرة الملوك**»: (وقد ينظر هذا الكتاب إلى المؤلف الأول فى القائمة).

١٣ - «**الفوائد السنية فى تهذيب الأسماء النووية**»: وهو مختصر تهذيب الأسماء واللغات للإمام محيى الدين بن شرف النووى المتوفى سنة ٦٧٦هـ.

١٤ - «**درة من ظهر بالغرائب وأتى من بحر العجائب**»: ولعله ليس فى التاريخ، أو

أنه تراجم لمن عملوا بالروحانيات وأتوا فيها بالخوارق.

١٥ - **«درة الفوائد وغرر العوائد»** وهى رسالة فى مناقب الأقطاب من الصوفية.

١٦ - **«توضيح مناهج الأنوار وتنقيح مباهج الأسرار»**: وهو تاريخ مرموز كتبه سنة ٨٣٩هـ.

١٧ - **«مفاتيح الأسرار ومصابيح الأكوار»**: وهى فى خمسة أبواب وفيه تواريخ ووقائع وحكايات.

١٨ - **«روضة العباد فى مناقب الصوفية والزهاد»**.

١٩ - **«مناهج التوصل فى مباهج التوسل»** بناه على ٤٦ لطيفة. فى كل لطيفة سر مكتوم ثم أورد عقبه نكته وحكاية.

٢٠ - **«ترجمة الإمام البخارى»** (محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٢٥٦ هـ. /٨٦٩ م).

ومنه مخطوط الظاهرية رقم ١٠٧٦ فى ٢٦ ورقة بخط المؤلف كتبه سنة ٨٤٩هـ.

٢١ - كتاب فى موضوعات العلوم يقول حاجى خليفة إنه «أورد فيه عجائب وغرائب... حتى بلغت مائة علم وذكر فيه أقسام العلوم الشرعية والعربية».

ونلاحظ أخيرًا أن هذا المؤرخ يمثل بوضوح انحراف الثقافة والعلوم فى عصره نحو الغيبيات الروحانية والمزج بينها وبين التاريخ. وقد ضاعت معظم مؤلفاته عدا النزر منها.

رابعا: ابن تغرى بردى

أبو الحسام جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغرى بردى (والصحيح تنكرى ويردى والكلمة الثانية تركية تعنى عطا الله) الأتابكى اليشبقاوى الظاهرى: ولد سنة ٨١٣ هـ. /١٤١٠ م. وتوفى سنة ٨٧٤هـ. وأبوه مملوك رومى الأصل، صار من كبار الأمراء المماليك لدى الملك الظاهر برقوق، ثم لدى الناصر ابنه، وقد توفى سنة ٨١٥ هـ. م١٤١٢ م بدمشق، لابنه يوسف سنتان وهو أصغر أبنائه. ولما كان الطفل موصول النسب بالسلطان وبأكابر الأمراء عن طريق أخواته المتزوجات، فقد عادوا به إلى القاهرة فتربى لدى إحدى هاته الأخوات هناك. وكانت زوجة لقاضى القضاة ناصر الدين بن العديم. فلما توفى تزوجها قاضى القضاة جلال الدين البلقينى. وعلى يدى هذا الرجل أولاً وعلى كبار مشايخ العصر أمثال ابن حجر العسقلانى وبدر الدين العينى وابن ظهيرة وابن عربشاه نشأ ابن تغرى نشأته العلمية الدينية. ثم لازم مجلس المقريزى فأخذ عنه التاريخ وشغف به حتى أضحى هوايته الكبرى. لكنه درس الثقافة العسكرية أيضا على يدى مماليك أبيه. وهكذا كبر ابن تغرى بردى وهو ينتمى

إلى طبقتى أهل السيف وأهل العمائم فى وقت معا. على أن ابن تغرى بردى كان من أكابر «أولاد الناس» ومعنى ذلك بلغة العصر: أولاد الأمراء المماليك. وقد كان لديه من موارد الرزق ما يسمح له بأن يعيش فى سعة كاملة، واستغناء عن عمل. وإذ اتقن ابن تغرى بردى العربية بجانب التركية وبرع فى الفروسية براعته فى الضرب والإيقاع والنغم وعرف الفقه وقرض الشعر... فإن دراسة التاريخ هى التى استولت عليه... وهذه الهواية مع التفرغ جعلت منه المؤرخ الكبير. ويضاف إلى ذلك ما استطاع الاطلاع عليه من معلومات وأخبار عصره نتيجة صلاته الواسعة مع البلاط السلطانى (وقد توالى عليه فى عصره عشرة سلاطين) وعدد من كبار الأمراء وصانعى السياسة.

قدم ابن تغرى بردى فى ميدان التاريخ اثنى عشر مؤلفًا، وقد دخل هذا الميدان من باب التراجم. وكان أول مؤلف له:

١ - **«المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»**: وقد سجل تراجم أعيان عصره. وأراده أن يكون تكملة للمعجم الضخم «كتبه لنفسه» وبنفسه «ولم يكن بأمر أو طلب من سلطان أو أمير» وابتدأ فيه من أوائل الدولة التركية (المملوكية) بترجمة المعز أيبك أول سلاطين المماليك (وصرح فى بعض المواضع أنه بدأه بسنة ٦٥٠ هـ. / ١٢٥٢م). ولكنه اتبع فيه بعد ذلك طريقة الصفدى وابن خلكان قبله، فجعله على حروف الهجاء، ووصل به إلى أيامه، أواسط القرن التاسع. وقد ضم الكتاب نحوًا من ثلاثة آلاف ترجمة فيها ما هو للأمراء والسلاطين وما هو للعلماء والوجهاء، وحتى للمغنين فى مصر والشام، كما تضم بعضًا من مشاهير المشرق والمغرب من المسلمين وغير المسلمين. وقد حرص ابن تغرى بردى فى كتابه على الحيدة والتعفف فى التراجم دون الإسراف فى ذكر المحاسن أو محاولة تسجيل المثالب.

وثمة من هذا الكتاب عدة نسخ خطية بعضها فى ثلاثة مجلدات، وبعض فى خمسة أو ستة، ومن ذلك نسخة دار الكتب الوطنية فى باريس رقم ٢٠٦٨ حتى ٢٠٧٢ وهى منقولة عن خط المؤلف، ونسخة نفيسة فى مكتبة نور عثمانية فى استامبول رقم ٣٤٢٨ - ٣٤٢٩ نقلت عن نسخة أحمد التركمانى تلميذ المؤرخ، وثمة نسخة أخرى فى طوبقابو، وأخرى فى فيينا وفى مكتبة عارف حكمة بالمدينة رقم ٦٣٠ تاريخ وهى فى ٣ مجلدات (١٠٧٦ ورقة) وفى آخرها ترجمة المؤلف بقلم تلميذه التركمانى. وفى الخزانة التيمورية بالقاهرة نسخة برقم ١٢٠٩ تاريخ.

طبع من هذا الكتاب جزء أول بتحقيق أحمد يوسف نجاتى (القاهرة سنة ١٩٥٦م).

٢ - وقد وضع ابن تغرى بردى مختصرًا لهذا الكتاب سماه **«الدليل الشافى على المنهل الصافى»** لا ينقص من التراجم واحدة، ولكنه يختصرها الاختصار الشديد. ومنه

مخطوط قره جلبى فى استامبول رقم ٢٦٦ فى ١٣٨ ورقة.

٣ - كتاب (منتجات من) **«حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور»**: وهو الخطوة الثانية التى خطاها ابن تغرى بردى فى التاريخ أراد أن يذيل به على كتاب **«السلوك»** للمقريزى. وقد نص فى مقدمته على ذلك قائلاً بعد أن امتدح أستاذه: «إنه انتهى فيه إلى أواخر سنة ٨٤٤ هـ. /١٤٤١ م ولم يأت بعده من نعول عليه فى هذا الفن... إلا الشيخ بدر الدين العينى....» ولكن اختلاط ذهنه مع كبر السن جعله غير قادر على ذلك... فلما رأيت ذلك أحببت أن أحيى هذه السُّنة بكتابة تاريخ يعقب موت الشيخ... المقريزى... وجعلته كالذيل ورتبته على السنين... ولم أسلك فيه طريق الشيخ فى تطويل الحوادث وقصر التراجم على الوفيات، بل أطنبت فى الحوادث وأوسعت فى التراجم لتكثر الفائدة من الطرفين. وما وجدته مختصرًا من التراجم فى التعليق فراجع فيه كتابنا «المنهل الصافى» فإنى هناك شفيت الغلة...». وقد انتهى المؤلف بحوادث سنة ٨٦٠ هـ. /١٤٥٦ م.

وثمة من هذا الكتاب مخطوطات عدة، منها مخطوط الجزء الأول فى أيا صوفيا رقم ٣١٧٥ فى ٤٠٠ ورقة كبيرة، ومخطوط برلين رقم ٩٤٦٢.

٤ - ويأتى بعد هذا تاريخ ابن تغرى بردى الأشهر والأكبر شأنًا وضخامة وهو كتاب **«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»** وهو سرد لتاريخ مصر منذ الفتح العربى سنة ٢٠ هـ حتى سنة ٨٧٢هـ قبيل وفاة المؤلف. وبالرغم من أنه نص فى مقدمته أنه كتبه لنفسه غير مستدعى من ملك أو سلطان، إلا أنه اعترف فى أواخره أنه ألفه من أجل صديقه الأمير محمد بن السلطان جقمق (الذى توفى سنة ٨٤٧ هـ. /١٤٤٣ م). والذى كان ابن تغرى بردى ينتظر له أن يصل السلطنة، ويأمل أن يختم الكتاب بحكم هذا الأمير وعدله. ولكن الأمير مات قبل ذلك.

انتهج ابن تغرى بردى فى تاريخه منهجًا خاصا خالف فيه أستاذه المقريزى، فقد جعل كل فترة من فترات الملوك والسلاطين فصلا قائمًا بذاته، ثم ذكر السنين وحوادثها تباعًا داخل الفصل حتى إذا توفى الحاكم أتى على أخباره فى مجموعة واحدة بشكل ترجمة منفصلة، ثم أعقب ذلك بترتيب سنوات العهد ترتيبًا عدديًا، وذكر وفيات كل منها فى فصل واحد، وربما ذكر بعض الحوادث ضمن التراجم.

وإذا لم يكن فى الأقسام الأولى من **«النجوم الزاهرة»** وحتى القرن السادس للهجرة من خبر لا نجده فى المراجع الكبرى الأخرى، فإن ابن تغرى بردى قد توسع حتى الإفاضة فى التاريخ الفاطمى ولعله ورث حبه وتقديره والعلم الواسع به عن أستاذه المقريزى. ويبلغ ابن تغرى بردى الغاية فى الإفاضة حين يصل العصر المملوكى، وهكذا

حتى يصل عصره، وإذ ذاك يتخذ الكتاب شكل السجل اليومى من عهد الناصر فرج تقريبًا إلى عهد الأشرف قايتباى.

أما الميزة التى تجعل من ابن تغرى بردى لامؤرخ مصر، ولكن مؤرخ النيل، أيضًا، فهو العناية التى بذلها لإحصاء تقلبات هذا النهر العظيم وفاء وشحا سنة بعد سنة منذ الفتح العربى حتى عهده، ذكر ذلك فى ختام السنوات. لقد سبقه ابن أيبك إلى ذلك، ولكن سجل ابن تغرى بردى كان أكمل وأتم. وقد عنى إلى هذا بتسجيل النشاط العمرانى فى مصر خلال مختلف عهودها، فلا ينسى ذكر الجوامع والمبانى والميادين ومقياس النيل وغيرها أولا بأول، كما قال: «أذكره فى يوم مبناه، وفى زمان سلطانه، مستوعبًا لهذا المعنى ضابطًا لشأنه». إن هذا الوعى فى تسجيل التاريخ الحضارى مع السياسى كان إحدى ميزات هذا المؤرخ.

طبع كتاب «النجوم الزاهرة» كله فى ستة عشر مجلدًا (طبعة دار الكتب بالقاهرة) وقد امتد طبعه أكثر من أربعين سنة. بدأ سنة ١٩٣٠م وانتهى سنة ١٩٧٢م. وقبل ذلك كان قد عنى به وبنشر عدة أقسام منه عدد من المستشرقين، ومن هؤلاء جوينبل وماتس (سنة ١٨٥٢م) ثم المستشرق بوبر الذى استأنف عمل سابقيه سنة ١٩٠٩م، حتى أتم النشر سنة ١٩٣٠م، مستعينًا بعدد من أعلام الاستشراق (نولدكه، غوتهايل، سيبولد) وغيرهم.

٥ - وقد لخص ابن تغرى بردى تاريخه الواسع هذا فى كتاب صغير سماه: **«الأنوار الظاهرة والكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة»**.

ومن هذا الكتاب نسختان مخطوطتان فى سراى أحمد الثالث رقم ٢٩٧٦ و٢٩٧٧ وهما فى مجلدين وفى مجلد.

٦ - **«مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة»**: وهو تاريخ اقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين إلى آخر أيام الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق.

ومنه مخطوط فى مكتبة فيض الله فى استامبول رقم ١٤٠٦ فى ١١٠ ورقات، ثلاثة مخطوطات فى أحمد الثالث برقم ٣٠٣٨ فى استامبول أيضًا فى ١٥٠ ورقة وبرقم ٣٠٣٥ ورقم ٣٠٣٦، ومخطوط فى قره جلبى زاده رقم ٢٨٥ تاريخ. وقد طبع فى كمبردج ذات مرة سنة ١٧٩٢، نشره كارليل.

٧ - **«البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر»**: وهو تاريخ عام واسع من آدم إلى عهده، عارض فيه تاريخ ابن الصيرفى: **«نزهة النفوس والأبدان»**. ومنه مجلد مخطوط فى المكتبة الوطنية فى باريس رقم ١٥٥١. وكان فى العراق منه المجلد الثالث فى مخطوط ضخم اشترته دار الكتب فى مصر وفيه مباحث هامة حول خطط مصر.

٨ - **«نزهة الرأى فى التاريخ»**: وهو تاريخ مفصل على السنين والشهور والأيام فى عدة مجلدات تصل العشرة أو تزيد. ومنها الجزء التاسع لحوادث سنة ٦٧٨هـ - سنة ٧٤٧ مخطوط فى أكسفورد.

ولابن تغرى بردى إلى هذا تواريخ أخرى مفقودة حتى الآن إلا أسماءها:

٩ - **«منشأ اللطافة فى من ولى الخلافة»**.

١٠ - «البشارة فى تكميل الإشارة» ذيل به على الذهبى من سنة ٧٠٠هـ إلى سنة ٨٧٠هـ.

١١ - **«حلية الصفات فى اختلاف الأسماء والصناعات»**: هى مجموعة أدبية تاريخية معظمها شعر.

١٢ - **«الأنوار الظاهرة فى الكواكب الطاهرة»**.

١٣ - **«نزهة الألباب فى اختلاف الأسماء والألقاب»**.

ولابن تغرى بردى بعد هذا كتاب فى الرياضة والموسيقى، وآخر سماه **«الانتصار للغة التتار»**.

خامسا: الكنانى

عز الدين أبو البركات أحمد بن البرهان إبراهيم بن نصر الله القاضى من ولد ناصر الدين الكنانى العسقلانى الأصل القاهرى الصالحى: ولد سنة ٨٠٠ هـ/١٣٩٧م فى القاهر، وتوفى فيها سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م. مات أبوه وهو فى سن الرضاع فكلفته أمه وكانت على بعض الغنى، فنشأ يطلب العلوم على كبار عصره من علماء القرآن والفقه والنحو واللغة والحديث والفرائض وعلم الوقت. وأخذ التاريخ ونحوه عن المقريزى والعينى، ولازم العز بن عبد السلام، ولبس خرقة التصوف مع تلقين الذكر من الزين أبى بكر الخوافى، ولبسها من خاله الجمال عبد الله وأمه عائشة. وكان ابن حجر يبجله جدًّا. وقد ناب فى القضاء عن شيخه المجد سالم وهو ابن سبع عشرة سنة ... واستنابه ففى التدريس بمدارس الجمالة والحسنية والحاكم وأم السلطان. وتولى القضاء إنابة وأصالة وهو مرغم، وصار قاضى القضاة ثم ترك القضاء جملة، وحج مرتين سنة ٨١٥هـ وسنة ٨٥٣هـ، وزار القدس والخليل والرملة، ودخل الشام مرتين، لقى فى الأولى ابن ناصر الدين حافظ الشام، وفى الثانية البرهان الباعونى. ودخل دمياط والملحة وغيرهما. «وأكثر من الجمع والتأليف والانتقاء والتصنيف حتى إنه قل فن إلا وصنف فيه إما نظمًا، وإما نثرًا، ولا أعلم الآن من يوازيه فى ذلك... وصار بيته مجمعًا لكثير من الفضلاء... ولم يتجاوز طريقته فى التواضع... وحدث بالكثير. بيته يجمع

طائفة من الأرامل ونحوهن... وترجمته تحتمل مجلدًا...» وكان عالم الحنابلة جميعًا فى عصره.

أورد السيوطى فى معجم شيوخه أسماء مؤلفاته، والكثرة العظمى منها فى الفقه والحديث والعربية حتى ما كان منها تاريخيًا، فإنه لا يبعد عن الظل الدينى. ومن تلك المؤلفات التاريخية التى أوردها السيوطى فى معجم شيوخه:

١ - «**طبقات الحنابلة الكبرى**»: ذكر أنها كانت فى عشرين مجلدًا أو ١٤ مجلدًا.

٢ - «**الطبقات الوسطى**»: وهى مختصر الأولى فى ثلاثة مجلدات.

٣ - «**الطبقات الصغرى**»: وهى مختصر الثانية فى مجلد.

وليس من أثر لهذه الطبقات جميعًا ولعلها ضاعت، أو لم يعرف بوجودها بعد.

٤ - «**شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب**»: ألفه للملك العادل أحد بقايا الأيوبيين صاحب حصن كيفا (وهو الملك العادل سليمان بن غازى وابنه أحمد) وهو كتاب تراجم لا حوليات يقسم ملوك بنى أيوب طبقات، ويترجم لهم طبقة طبقة فى عشر طبقات، ترجم فيها ١٦٧ شخصا جمع حتى بقاياهم فى حماة وحصن كيفا فى القرنين الثامن والتاسع. وقد نشر الكتاب بتحقيق ناظم رشيد مع مقدمة (من وزارة الثقافة - بغداد ١٩٧٨م) ويتبين منه أنه نقل الكثير عن ابن واصل فى «**مفرج الكروب**» كما نقل عن العماد الأصفهانى والقادسى وابن شداد وسبط ابن الجوزى وابن الأثير وابن خلكان والدوادارى واليونينى وأبى الفداء والذهبى، وفصل فى سيرة العادل وابنه أحمد، ونقل شعرًا من دواوينهما. وفى الكتاب وثائق وخطب ورسائل ومراسيم تقليد وقطع تهانٍ وتعاز.

٥ - وله فتوى فى شرعية كتابة التاريخ نشرها فؤاد سيد فى مجلة معهد المخطوطات العربية فى القاهرة (المجلد ٢ لسنة ١٩٥٦ ص ١٧٣ - ١٧٧).

أما الكتاب الذى يجعله فى طليعة المؤرخين، لو لم يفقد، فهو:

٦ - كتاب «النشر فى التاريخ» وكان فى ٤١ مجلدًا جعل فيه لكل قرن تصنيفان: واحد على الحروف وآخر على السنين. ولو بقى هذا الكتاب لجعل صاحبه فى مقدمة مؤرخى العصر.

٧ - وله أخيرًا أرجوزة فى قضاة مصر ضاعت بدورها.

سادسا: ابن الصيرفى الجوهرى

على بن داوود بن إبراهيم الإسرائيلى المصرى الحنفى المعروف بابن الصيرفى وبابن

الخطيب الجوهرى: ولد فى القاهرة سنة ٨١٩هـ وتوفى فيها سنة ٩٠٠هـ. ولقب الرجل يوحى بعكس واقعه، فقد كسب لقب الصيرفى من أبيه الذى كان صيرفى الدولة وديوان المفردة فى فترات متقطعة من أيام المؤيد شيخ، وبرسباى ثم أواخر عهد السلطان جقمق. وكان يتكسب - حين يصرف من الخدمة - بسوق الجوهريين، فكسب الابن اللقبين عن أبيه، وإن لم يكسب معناهما، فقد كانت حياته منذ صغره أقرب إلى الإملاق. ومع أنه مؤرخ وعاش فى عصر كثر فيه المؤرخون، إلا أنك لا تدرى كيف ضن على نفسه وضن عليه الآخرون بترجمة وافية، إلا بضعة أسطر كتبها عنه السخاوى معاصره فى «**الضوء اللامع**» مليئة بالنقد المرير، وإلا أسطرًا مثلها فى المرارة كتبها ابن إياس، معاصره الآخر. على أن الإشارات والنتف الأخرى التى يذكر بها الرجل فى بعض المراجع تكشف عكس ما ذكره الرجلان. فقد كان ابن الصيرفى قليل البضاعة من العلم وقد درس على كبر. ولكنه ظل يجتهد ويجد حتى صار أحد نواب الحكم. وكان إلى هذا من أعيان الحنفية فى عصره، ويصفه السيوطى فى «**نظم العقيان**» قائلاً: «انتهت إليه رياسة الحنفية فى عصره مع الدين المتين والصلاح المفرط... والقيام فى نصرة الدين، وإبطال المظالم، ومراجعة الملوك، وهم يعظمونه ويقبلون قوله...». وقد ذكروا أن ابن حجر - وهو أستاذه - صلى مرة خلفه. أما أستاذه الآخر أبو زكريا الأقصرائى فأجازه وأثنى عليه تأليفه وقال فى مؤلفه نزهة الأبدان: (سيرة الرسول الكريم) إنه «نظر فى هذا المصنف البديع والعقد الفريد وتبصر واستفاد». وشكر مؤلفه، وكذلك فعل أستاذه الآخر الكافيجى الذى كتب له عن الكتاب نفسه: أنه قد اعترف بفضله وكماله وبحسن ترتيبه الحاضر والبادى والدانى والقاصى، واغترف من بحره العذب الرائح والغادى، وأنه أتى بأمر يحيى ذكره فى الآخرين أبد الآبدين. ويبدو أن فى انتقاص السخاوى من ابن الصيرفى شيئًا كبيرًا من المزاحمة بين التلميذين على الأولية عند أستاذهما ابن حجر ومن بعده. كما أن لفقره وكثرة عياله أثرهما فى عدم بروزه فى المكان اللائق به، فقد فشل - على ما يظهر - فى سوق الجواهر بعد أن كسب منها ما ساعده فى بناء بعض الدور فترك العمل بها، ثم نفد غالب ما معه. فانصرف إلى النسخ بالأجرة يعيش عليه باقى حياته.

ولم يذهب اجتهاد ابن الصيرفى عبثًا، فقد زاحم المؤرخين فى عصر غص بكبار المؤرخين كالمقريزى وابن حجر والعينى وابن تغرى بردى والسخاوى والسيوطى وابن إياس الذين قلما اجتمع مثلهم فى قرن آخر. وما فيهم إلا المؤرخ العلم فى كتابة التاريخ. وانتصر الجد الدؤوب، واقتحم ابن الصيرفى المجال ليكتب عددًا من المؤلفات التاريخية، على الرغم من ركاكة أسلوبه التى تقترب أحيانا من العامية، والتى كان يعيبها عليه الآخرون، وعلى الرغم مما ذكره ابن إياس من أنه «كان يكتب التاريخ

مجازفة لا عن قائل ولا راو... وله فى تاريخه خباطات كثيرة، وجمع من ذلك عدة كتب من تأليفه فكان كما قال فى المعنى:

يا من يقول جمعت فى التاريخ كتبًا كامله
لك فى الأباعر نسبة لم تدر ما هى حامله

وهو تهجم مرير من ابن إياس شعر هو نفسه به فأضاف قائلاً: «وكان لا يخلو من فضيلة». ومؤلفات ابن الصيرفى فى التاريخ ليست كثيرة ولكنها - لولا ضعف أسلوبه - لا تقل شأنا عما كتبه المؤرخون الكبار الآخرون وهى:

١ - **«سيرة الملك الأشرف قايتباى»**: وقد أشار إليها السخاوى فى «الضوء اللامع» وبها نسخة فى المتحف البريطانى.

٢ - **«الدر المنظوم فيما ورد فى مصر موجودًا ومعدوم»**: وهو فى فضائل مصر وخطوطه فى باريس.

٣ - **«أنباء الهصر فى أبناء العصر»**: وقد قلد فيه الصيرفى فى كتاب أستاذه حجر: «أنباء الغمر بأبناء العمر». وهو فى أحداث عصره وتراجم معاصريه فى القرن التاسع. ومن هذا الكتاب جزء مخطوط فى باريس يبدأ من سنة ٧٨٣هـ إلى آخر سنة ٨٧٧هـ وفيه بعض أحداث ووفيات سنتى ٨٥ و٨٦ فى ٢٠٨ ورقات. وهو مصور فى التيمورية فى القاهرة برقم ٢٢٨٥ تاريخ. وقد نشره حسن حبشى فى القاهرة سنة ١٩٧٠م (دار الفكر العربى) فى مجلد.

٤ - أما الكتاب الذى يفخر به ابن الصيرفى والذى كان مشروعًا ضخمًا يستغرق التاريخ كله من آدم حتى عصره فهو كتاب: **«نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان»** وقد أراده صاحبه أن يكون موسوعة تاريخية بخاصة منذ صدر الإسلام إلى زمنه. ويبدو أن الجزء الأول منه كان خاصًا «بأنساب الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتصل بنسب آدم الى أن نصل إلى نسب سيد الأنام ومصباح الظلام» كما يقول هو نفسه فى الجزء الثانى من الكتاب المحفوظ بخطه فى مكتبة رضا رامبور بالهند تحت رقم ٣٥٣٧ ويقع فى ٤٠٠ ورقة. وهذا الجزء الثانى هو الذى سماه المؤلف بـ«الجوهرية فى سيرة الرسول».

٥ - وبعض المؤلفين يفرد هذه **«السيرة النبوية الشريفة»** ويجعلها كتابًا برأسه مختلفا عن **«نزهة النفوس والأبدان»**. وقد كان ابن الصيرفى يبرزها لوحدها وقد أخذ بها آراء ابن تغرى بردى، والكافيجى، والأقسرائى وغيرهم من كبار أهل العصر فقرظوها وامتدحوه عليها. لكن الأرجح أنها جزء من النزهة، وأن عنوان نزهة النفوس كان «العنوان العام الشامل لسلسلة من المؤلفات التاريخية متصلة الحلقات تعطى الفترة

الإسلامية بأكملها». وما السيرة النبوية سوى جزء منها. ويوجد منها نسخة مصورة يذكر ابن الصيرفى فى ختامها «كمل الجزء الثانى من كتاب نزهة النفوس والأبدان... على يد مؤلفه عام سبع وستين وثمانمائة من الهجرة النبوية ويتلوه إن شاء الله تعالى فى أول الجزء الثالث ذكر الخلافة وأيام الراشدين». ولكن هذا الجزء لم يصلنا، كما لم تصلنا الأجزاء التالية له، ولعل المؤلف لم يكتبها وبقيت مشروعا فى خاطره، ولكن وصلنا منها الجزء الخاص بدولة الجراكسة فى مصر. وهو مخطوط فى المكتبة الأهلية فى باريس بخط المؤلف، وعليه قراءات وتعليقات بالعربية والفارسية. ومنه نسخة مصورة فى دار الكتب بالقاهرة (رقم ١٢٨٦١ ح) وأخرى منسوخة حديثا فى الأزهر كثيرة التصحيف. ومخطوطة باريس تبدأ بالورقة ٢ ب بتولية السلطان برقوق سنة ٧٨٤هـ، وتنتهى فى الواقع بالورقة ٢٠٧ أ، وفيها أحداث ذى الحجة سنة ٨٤٩هـ. أما الورقة التالية فتحوى سطرًا لا علاقة له بالموضوع مع تعليق لبعض القراء. ويبدو أن بعض أجزاء المخطوط قد ضاع، ولعله كان يصل إلى سنة ٨٥٤ بدليل السطر الموجود فى الورقة الأخيرة. وقد كتبه المؤلف على الطريقة الحولية التقليدية ذاكرًا الحوادث فى كل سنة متبوعة بالوفيات. وقد نشر الكتاب حسن حبشى فى القاهرة فى ثلاثة مجلدات (١٩٧٠ - ١٩٧٣م).

ولعل ما يسميه صاحب «هدية العارفين» بتاريخ مصر وينسبه إلى ابن الصيرفى هو هذا الكتاب.

سابعا: السخاوى

شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان السخاوى المصرى الشافعى: ولد فى القاهرة سنة ٨٣١ هـ./١٤٢٨م وتوفى بالمدينة سنة ٩٠٢هـ./١٤٩٧م.

هو محدث كبير ومؤرخ كبير، ولكنه فى هذا وذاك من كبار الأواخر. كان مع معاصره السيوطى آخر الأنوار اللامعة فى علم الحديث وفى التاريخ، كما كانا آخر الشخصيات الفكرية البارزة التى صنعت النهضة الثقافية الثانية فى التاريخ الإسلامى، فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة وآخر الممثلين لهذه النهضة.

والسخاوى من القلائل الذين كتبوا فى التاريخ الإسلامى، تراجمهم بأقلامهم. وهو يكشف لنا أن الصدفة وضعت مسكنه، وهو لما يزل فى الرابعة من العمر، بجوار دار ابن حجر العسقلانى علامة العصر فكان ذلك الجوار قدره الذى حدد مصيره، فقد تتلمذ عليه السخاوى الفتى منذ سنة ٨٣٨هـ (وهو فى السابعة) وظل ملازما له دون انقطاع ١٤ سنة... إلى أن توفى ابن حجر (سنة ٨٥٢هـ). وقد تركت هذه السنوات

أعمق الانطباع فى نفس السخاوى بقية عمره، فكان فى الجهد العلمى وفى أوان الاهتمام الثقافى استمرارًا لابن حجر على مدى نصف قرن.

قرأ السخاوى على أستاذه ابن حجر الكتب والمتون الكثيرة فى الحديث خاصة، وفى التاريخ والتراجم، ولكنه لم يهمل الأخذ عن شيوخ العصر بعده، فقد أخذ وأكثر عن حوالى أربعمائة شيخ فى مصر نفسها، وفى دمياط ومكة والمدينة والقدس والخليل ونابلس ودمشق وحمص وحماه وحلب... وحصل فى رحلاته التى استمرت عدة أعوام مع الحديث والتاريخ علوم القراءة والنحو والفقه والبلاغة والتصوف... فلما عاد إلى القاهرة كان قد نضج النضج كله فجلس للإقراء والتدريس فى أعظم مدارسها: الكاملية والظاهرية والصرغتمشية والبرقوقية والفاضلية... وخاصة بخانقاه سعيد السعداء، وكانت يومذاك أبرز الدور الصوفية فى مصر.

وقد أكثر السخاوى من الحج حين تقدم به العمر (حج ست مرات وكان ينتهز الحج ليجاور ويقرئ ويدرس حتى غدت مكة أشبه بالوطن الثانى له. وقد نأى بنفسه عن الأعمال العامة فى السنوات الأربع الأخيرة من عمره، وإن تكاثر عليه الدارسون والطلاب فى منزله. وحين سافر لحجته السابعة وتنقل على عادته بين مكة والمدينة فى الإقراء والتدريس وافاه الأجل فى المدينة وهو فى الحادية والسبعين.

والسخاوى محدث كبير، فتراثه الغزير ينصب بخاصة فى علوم الحديث. ولكنه ضمن هذا الإطار أيضًا كان المؤرخ الكبير، لأنه فى هذا الميدان الكثير والهام من المؤلفات التاريخية. وقد عدد السخاوى بنفسه مؤلفاته فى ترجمته التى كتبها لنفسه وهى تستغرق عدة صفحات، وتبلغ زهاء المائتين. وبين الكتب والرسائل فى الفنون والعلوم المختلفة نجد فى التاريخ ربعها، أى حوالى خمسين مؤلفا، منها ما طبع، ومنها ما لا يزال مخطوطا، ومنها ما هو ضائع. ومجمل الموجود منها لا يكاد يبلغ الثلث، فله:

١ - كتاب **«الضوء اللامع فى علماء القرن التاسع»** وهو موسوعة حافلة. وقد نهج فيه نهج شيخه ابن حجر فى **«الدرر الكامنة»** وإن كان رتبه على الحروف. وهو مطبوع أكثر من مرة منذ سنة ١٣٥٤هـ./١٩٣٦م. فى اثنى عشر جزءًا مع الفهارس، ولا نجد ضرورة لذكر مخطوطاته مع وجود المطبوع. ويمكن أن يعتبر دائرة معارف عصره فى علماء هذا القرن.. غير أنه كان شديد الصراحة والقسوة أحيانا فيه، فلم يسلم من نقده سوى شيخه ابن حجر، وأنحى به على مجموع أعلام عصره كالسيوطى والبقاعى والمقريزى وابن تغرى بردى وابن خلدون. وقد اختصم بسبب قلمه المرير مع الكثيرين. وهذا ما دفع السيوطى إلى التشنيع عليه فى مقالة سماها **«الكاوى فى تاريخ السخاوى»** ثم عاد عليه كرة أخرى فى كتابه «نظم العقبان» (ص ١٥٢).

وقد انتخب منه مجموعة من التراجم اثنان من رجال القرن العاشر:

• زين الدين عمر بن أحمد الشماع المتوفى سنة ٩٣٦هـ./١٥٣٥م. فى كتاب سماه **«القبس الحاوى لغرر ضوء السخاوى»**.

• شهاب الدين أحمد بن العز الشهير بابن عبد السلام المتوفى سنة ٩٣١هـ وسماه: **«البدر الطالع فى الضوء اللامع»** وهو مخطوط فى الأحمدية بتونس تحت رقم ٥٠٣٦ - ف٨.

• ثم اختصر الكتاب الأخير أحمد القسطلانى وسماه **«النور الساطع فى مختصر الضوء اللامع»**.

٢ - **«الإعلان بالتوبيخ لمن ذم (أهل) التاريخ»**: وهو الكتاب الوحيد الذى ظهر فى جميع التراث الإسلامى بعدد المؤرخين ويذكر ما ألفوا فى هذا العلم. لكنه كتبه من وجهة نظر دينية، أى كتبه كمحدث لا كمؤرخ فغلب فيه المحدثون الذين عملوا فى التاريخ. كما أنه جعله مختصرًا، يكتفى أحيانًا باسم الشهرة للرجل ويمضى إلى غيره. وقد أبان فيه عن علم غزير على أى حال، وسد ثغرة ما سدها غيره من قبل إلا بشكل جزئى جدا. ومنه مخطوطات عديدة فى القاهرة وحلب واستامبول وليدن. وقد طبع الكتاب فى مطبعة الترقى بدمشق (سنة ١٣٤٩هـ./ ١٩٣١م)، ثم طبعه الدكتور صالح أحمد العلى أثناء ترجمته لكتاب روزنتال **«علم التاريخ عند المسلمين»**. وأفرده لوحده كذلك، ذاكرًا الشروح الواسعة التى أتى بها روزنتال عليه.

٣ - **«التبر المسبوك فى ذيل السلوك»** وقد ذيل فيه على كتاب السلوك للمقريزى فى عدة مجلدات. ومن المجلد الأول نسخة ملكية هامة ومشكلة فى أيا صوفيا باستامبول برقم ٣١١٣ كتبت سنة ٨٨٠هـ./١٤٤٦م. فى منزل السخاوى نفسه، ونقلا عنه، وتبدأ بحوادث ووفيات سنة ٨٤٥هـ التى توفى فيها المقريزى. والكتاب مطبوع.

٤ - **«الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر»**: ومنه نسخة بخط السخاوى فى مكتبة أحمد برقم ٢٩٩١ فى ٣٤٥ ورقة، ونسخة أخرى فى باريس رقم ٢١٠٥ فى مجلدين، وثمة نسخة مصورة فى دار الكتب بمصر تحت رقم ٤٧٦٨ تاريخ فى مجلدين صورت عن نسخة باريس، وثمة نسخة أخرى فى الأحقاف بتريم (مجموعة الكاف ٣٩٦) فى ٢٥٣ ورقة. وقد نشر قسمًا منها صالح أحمد العلى أثناء ترجمته لكتاب روزنتال. والقطعة ثبت مفصل بالسير وكتابها فى التاريخ الإسلامى.

٥ - **«بغية العلماء والرواة فى الذيل على كتاب شيخى فى القضاة»** أو **«ذيل رفع الإصر»** ومنه نسخة خدابخش فى بتنه رقم ٣٠٨٨ وهى مجلدان، وثمة نسخة أخرى

برقم ٩٣٠ تاريخ، ومنه مخطوط المدينة رقم ٥٠٢ فى ١٣٢ ورقة، ومخطوط دار الكتب بمصر رقم ٥٢٨٩ تاريخ وهو مصور عن مخطوط آخر فى سوهاج هو بخط السخاوى نفسه فى مجلد.

٦ - **«التحفة اللطيفة فى تاريخ (أو فضلاء) المدينة الشريفة»**: منه الجزء الأول (من إبراهيم إلى محمد بن مبارك) فى مخطوط طوبقابو ٥٢٧، ٦٤٨١ كتب سنة ٩٥٢هـ فى ٨٥١ ورقة. ومنه الثلث الثالث والأخير (من محمد بن محمد حتى النهاية) فى المكتبة ذاتها برقم ٦٤٨٢،٥١٢ فى ٤٠٧ ورقات كتب سنة ٨٨٢هـ وسنة ٩٠٤هـ، ومنه نسخ مخطوطة أخرى فى المدينة تحت رقم ٥٢٧ فى ٨١٥١ ورقة .

وقد نشره حامد الفقى فى ثلاثة أجزاء فى القاهرة ما بين سنتى ١٩٥٧-١٩٥٨، وفى كل فهرس لمن ترجم السخاوى له : الأول ٥٤١ ترجمة، والثانى ٤٨٣، والثالث ٤٨٣ (مطبعة السنة المحمدية).

٧- **«الذيل على دول الإسلام» (الذهبى)** : ومنه مخطوط فى أكسفورد رقم ٣٤٩،٦١١ وآخر فى برلين رقم ٦٤٦٣، وعنوانه **«وجيز الكلام فى الذيل على الإسلام»**، وثالثة فى دار الكتب الوطنية فى تونس فى ٢٧٤ ورقة برقم ٦٨٥٦ (ضمن مجموع من ورقة ٧٨-٣٦١ ورابعة فى مكتبة كوبر يللى باستامبول (رقم ١١٨٩) وعليها خط المؤلف فى مواضع عدة كأنه صححها، وقد كتبت فى حياته فى ٢٢٨ ورقة ونسخة فى العبدلية الصادقية بتونس رقمها ٢٩١٦ فى ٢٨٢ ورقة «باسم الذيل التام على دول الإسلام»، وهو يبدأ من سنة ٧٤٥) باختصار جدا إلا فى السنين المتأخرة.

٨- **«تاريخ خلفاء وسلاطين مصر»** : ألفه سنة ٩٠٠هـ وهو مختصر منه مخطوط فى أيا صوفيا تحت رقم ٣٢٦٦.

٩- **«الشذور فى أسماء الرجال»** : وأوله «هذا جزء رتبت فيه أسماء جماعة أجازوا للرضى الطبرى وللصلاح ابن أبى عمر وعائشة ابنة عبد الهادى و...و... غير ملتزم الاستيعاب ولا أن بعضهم لم يسمع عن بعض...» والأسماء مرتبة فيه على حروف المعجم . ومنه مخطوط نقل عن خط المؤلف فى ٢٥ ورقة فى مكتبة خدابخش فى بتنه رقم ٢٨٩٥.

١٠- **كتاب «تراجم الشيوخ الذين لقيتهم فى الشام ومصر»** : ولعلها طبعة من أحد أثباته التى دونها فى رحلاته، وهى كثيرة، ذكرها الكتانى فى فهرس الفهارس (٣٣٧/١) ومنه مخطوط رواق الشوام فى الأزهر رقم ٤٨ تاريخ فى تسع ورقات .

١١- **«المنهل العذب الروى فى ترجمة قطب الأولياء النووى»**: ذكر فيه سيرة

النووى وشيوخه ومصنفاته وتلاميذه . ومنه مخطوط كتب فى حياة المؤلف نقلا عن خطه فى المدرسة النظامية فى حيدر آباد رقم ١٣١ سير (خمسين ورقة).

١٢- «**رجحان الكفة فى أخبار أهل الصفة**»: ومخطوطته لدى الجمعية الأسيوية فى كلكتا تحت رقم ١٣٢١-ف٣١٤١.

١٣- «**بغية العلماء والرواة فى ذيل الطبقات**» لابن الجزرى : مخطوط فى ٦٨ ورقة فى مكتبة فيض الله باستومبول رقم ١٥١٤.

١٤- «**إرشاد الغاوى بل إسعاد الطالب والرواى للإعلام بترجمة السخاوى**»: ومنه مخطوط ليدن رقم ١١٠٦.

١٥- «**معجم من حملت عنه (شيوخه)**»: ومنه مخطوط فى باريس فى ثلاث مجلدات ضخمة .

١٦- «**ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون**» : وهو مخطوط ضمن رسائل فى مكتبة يحيى باشا فى الموصل تحت رقم ٢٥٦ س ى ر.

١٧- «تلخيص تاريخ اليمن»

١٨- «**مسيرة الإمام ابن عربى**» : وهو حافل لا مزيد عليه . وقد كتب هذه السيرة أيضا كل من النقى الفاسى والعلاء البخارى والكمال إمام الكاملية وبرهان الدين البقاعى وهو يسميه «القول المنبى عن ترجمة ابن عربى».

١٩- **شرح سيرة مغلطاى المنظومة** «وتممت عليه وأرجو تحريره وإبرازه» .

٢٠- «**التاريخ المحيط**» فى نحو ٣٠٠ رزمة.

٢١- كتاب «**طبقات المالكية**» وقد جرده من المدارك ورتبه ترتيبا معتبرا.

٢٢- «**الشفاء (أو الشافى) من الألم فى وفيات الأمم**» : (ثبت وفيات فى القرنين الثامن والتاسع مرتب على السنين) ويسميه السخاوى : «الشفاء من الألم فى وفيات القرنين الأخيرين من العرب والعجم».

٢٣- «**منتقى تاريخ مكة**».

٢٤- «**ختم السيرة لابن هشام**».

٢٥- «**القول النافع فى بيان المساجد والجوامع**».

٢٦- «**كتاب الكنى**» مجلد .

٢٧- «**كتاب الألقاب**» مجلد باسم «**عمدة الأصحاب**».

٢٨- «بهجة الناظر فى الحكايات والنوادر».

٢٩- «الاهتمام بترجمة الكمال بن همام».

٣٠- «أحسن المساعى فى إيضاح حوادث البقاعى».

٣١- «الاهتمام بترجمة النحوى جمال بن هشام».

٣٢- «الإيناس بمناقب بنى العباس».

٣٣- «بغية الرواى فى من أخذ عنه السخاوى»(وهو معجم شيوخه) ولعله «معجم من حملت عنه» الموجود فى باريس.

٣٤- «التحصيل والبيان فى قصة السيد سليمان».

٣٥- «التذكرة» فى مجلدات

٣٦- «الجواهر المجموعة والنوادر المسموعة».

٣٧- «دفع الالتباس فى ختم سيرة سيد الناس».

٣٨- «الرحلة الإسكندرية».

٣٩- «الرحلة الحلبية».

٤٠- «رفع الشكوك فى مفاخر الملوك».

٤١- «رفع القلق والأرق لجمع المبتدعين من الفرق».

٤٢- «السيف القاطع فى التاريخ من كتب الوفيات على الأسماء».

٤٣- «عمدة الناس فى مناقب سيدنا العباس».

٤٤-«العقد الثمين فى مشيخة خطيب المسلمين».

٤٥- «فتح القربى فى مشيخة الشهاب القربى».

٤٦- «الفخر العلوى فى المولد النبوى».

٤٧- «القول المبين فى ترجمة القاضى عضد الدين».

٤٨- «القول المرتقى فى ترجمة البيهقى».

٤٩- «القول المرتقى فى ختم دلائل النبوة للبيهقى» (ولعله السابق نفسه).

٥٠- «القول المعهود فى ما على أهل الذمة من اليهود».

٥١- «المفاخرة فيما بين دمشق والقاهرة».

ثامنا: السيوطى

جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد الخضيرى الأسيوطى المصرى الشافعى: ولد سنة ٨٤٩هـ وتوفى بالقاهرة ٩١١هـ. كان سليل أسرة موسرة، فقد أباه مبكرا ونشأ يتيما. وكان دون الثامنة حين كان يحفظ القرآن، وألفية ابن مالك، والعمدة، ومنهاج الفقه والأصول. وقد شرع فى الاشتغال بالعلم سنة ٨٦٤، فدرس الفقه والنحو والفرائض. كانت سنه فى السابعة عشرة حين وضع أول مؤلف له: «**شرح الاستعاذة والبسملة**». وقرأ على كبار الشيوخ الفقه والحديث والعربية. ووثق به شيوخه ومنهم تقى الدين الشلى وشرف الدين المناوى وعلم الدين البلقينى ومحيى الدين الكافيجى. ولم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين حين أفتى وحين جلس لإملاء الحديث. ورزق التجد فى علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع تبحرا ما وقف عليه أحد من شيوخه على حد قوله. كما أحاط بالجدل والتصريف والإنشاء والترسل والفرائض والقراءات والطب واستعصى عليه الحساب!! وكره المنطق!.. وسافر خلال ذلك إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب وبلاد التكرور لكنه استقر حين وصل الأربعين فى القاهرة فى بيت على شاطئ النيل محجوب المناظر بالكتب، واشتغل بالتدريس والتأليف، وقد استغرق التأليف حياته. فله فيما يعد الباحثون ما بين ستمائه إلى سبعمائه كتاب ورسالة مما وضعه فى طليعة المكثرين من المؤلفين الذين لم يعرف مثلهم التراث إلا عددا يعد على الأصابع. كان موسوعى الثقافة والاطلاع وانعكس ذلك فى مجموعة تراثه فهو يشمل متنوعات لا تنتهى من جميع المعارف المتاحة فى عصره، فهو خاتمة الأئمة الذى يمثلون الثقافة الإسلامية الشاملة فى عصر غروبها. وكان الإمراء والكبراء يأتون لزيارته ويقدمون له الهدايا فيردها، ويطلبه السلاطين لزيارتهم فيعتذر، وعبر عن ذلك فى كتاب سماه «**ما وراء الأساطين فى عدم التردد إلى السلاطين**». وقد أعانه على كثرة المؤلفات انقطاعه الكامل للعلم وكثرة مكتبته وسعة علمه وحفظه وسرعة كتابته. ولو وزع عمره على الأوراق التى كتبها لأصاب اليوم ٤٠ ورقة. على أن القسم الأعظم مما ألف كان جمعا، وتلخيصا وتذييلا على مؤلفات غيره فنصيبه من الإبداع الذاتى جد قليل .

ذكر السيوطى نفسه كتبه فى التاريخ (يوم ألف كتابه حسن المحاضرة وفى هذا الكتاب) فهى تزيد على خمسة وثلاثين كتابا عدا كتبه فى الفنون والعلوم الأخرى من الأدب وفن التفسير والقراءات والحديث الذى يستغرق الكثير، والفقه ومتعلقاته، والعربية ومتعلقاتها، وعدا الأجزاء المفردة فى مسائل مخصوصة وعدا فن الأصول والبيان والتصوف. وتستغرق أسماؤها قرابة ست صفحات من ترجمته لنفسه، غير أنه

زاد فى كتبه التاريخية حتى وفاته، كما زاد الكثير فى غيرها. فعدة كتبه فى التاريخ ومتعلقاته تزيد على مائة مؤلف وإن يكن الكثير منها مما يتصل بالحديث النبوى والتاريخ الدينى. وهذه المؤلفات التاريخية بقى منها:

١- «حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة»: وهو مؤلف ضخم فى مجلدين ضمنه بعد ذكر مصر فى القرآن والحديث تاريخها الغابر وفتحها فى الإسلام وخططها، ثم ذكر تراجم من جاءها من الصحابة والتابعين ومن نبغ فيها من الحفاظ والأئمة والقراء والفقهاء والنحويين وأهل الفكر والوعظ والقصص والتاريخ والأدب، وذكر سلاطين مصر وقضاتها وجوامعها ومدارسها والنيل وأحواله، وختم بمختارات من الشعر حول أشجار وفواكه مصر. فهو يشبه فى الخطط المقريزى وإن كان أقل منه بكثير، ويجمع تراجم رجال مصر على الاختصار بشكل شامل. والكتاب مطبوع (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - بالقاهرة ١٣٨٧هـ./١٩٦٧م).

٢- **«تاريخ الخلفاء»** وهو بدوره مؤلف واسع ذكر فيه تراجم الخلفاء وتبسط فى ذكر الخفاء الراشيدين وخلفاء بنى العباس فى بغداد ثم فى مصر. ويختم الكتاب بقصيدة من نظمه. والكتاب مطبوع بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد بالقاهرة سنة ١٩٦٤هـ بعد أن طبع فى كلكتا سنة ١٨٩٧هـ وفى لاهور سنة ١٨٨٦هـ وفى القاهرة سنة ١٣٠٥م وفى دلهى سنة ١٣٠٦م وترجم إلى الإنكليزية وطبع سنة ١٨٨١م.

٣- **«نظم العقيان فى أعيان الأعيان»**: وهو معجم تراجم لرجال عصره، يوازى ويقلد ابن حجر فى **«الدرر»** والسخاوى فى **«الضوء اللامع»** والبقاعى فى **«عنوان الزمان»**. ويذكر فى مطلعه الشروط التى يجب أن تتوفر فى المؤرخ كأنه يريد التعريض بالسخاوى. وفى الكتاب مائتا ترجمة فحسب لأعلام مختلفين فيهم التتر وفيهم من الشام والعراق وبعض النساء كما أن فيهم ترجمة أقرانه من العلماء. وتناول السخاوى بأقسى النقد. وفى التيمورية مخطوطة منه وأخرى فى ليدن رقم ٢/٤١٦،٨٧٣ وفى برلين رقم ٤٢/٩٩١٣ وفى الظاهرية بدمشق رقم ٤٥٨٦ وفى الأزهر رقم ٦١٣٥ وعارف حكمة ٩٦ مجاميع. وعلى أساس الأولين طبع فى نيويورك سنة ١٩٢٧بتحقيق فيليب حتى فى حوالى مائتى صفحة.

٤- **«الشماريخ فى علم التاريخ»**: وهى رسالة صغيرة فى ١٥ صفحة جعلها السيوطى من ثلاثة أبواب يتناول فى الأول مبدأ التاريخ، أى مبدأ تاريخ العالم حتى الهجرة، وفى الباب الثانى فوائد التاريخ، وفى الثالث فوائد شتى، منها طريقة احتساب التاريخ بالشهور والأيام. وقد نشر هذه الرسالة المستشرق زايبولد (سنة ١٨٩٤م) فى

ليدن وتقع فى ١٥ صفحة متوسطة. ثم نشرت فى مصر والعراق (سنة ١٩٧١م) ومنها مخطوطات بدار الكتب بمصر وفى برلين والظاهرية ١٤٠ وبرلين وغيرها .

٥- «**بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة**»: وهو كتاب تراجم لهؤلاء تبلغ ٢٣٠٠ ترجمة فيها إيجاز وتركيز، ومنه مخطوطات عديدة موزعة منها واحدة بخط المؤلف فى لينينغراد. لا نجد ضرورة لذكر الباقى بعد أن طبع الكتاب مرات منها فى ليدن بعناية المستشرق مرسنجه سنة ١٨٣٩م وأخرى فى مصر (الخانجى) سنة ١٣٢٦م ثم فى مصر بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم سنة ١٩٦٤م. وقد نشره محمد أبو الفضل إبراهيم فى القاهرة فى سنتى ١٩٦٤و١٩٦٥م فى جزءين ضخمين، وهذا الكتاب هو الموجز الأخير من كتاب ضخم سماه السيوطى طبقات النحويين وضعه فى سبع مجلدات وهو «**الطبقات الكبرى**» ثم لخصه فى مجلد ضخم هو «**الطبقات الوسطى**» ثم اختصره ثانية فى كتاب «**البغية**» المطبوع. وقد ضاعت الطبقات والوسطى .

٦- «**الحبائك فى أخبار الملائك**»: منه مخطوط بدار الكتب بمصر وأخرى فى الرباط وقد نشره عبد الله الصديق (دار التأليف - القاهرة ١٩٦٤م) فى ٢٣٢ صفحة .

٧- «**طبقات المفسرين**»: وهو مرتب على حروف الهجاء، علقه أبو بكر الداودى تلميذ المصنف (سنة ٩٧٣هـ)، ومنه مخطوط ينى جامع فى استامبول (رقم ١/٨٧٢) فى ٢٢ ورقة وأخرى فى الحميدية (١٧٩) فى ٧٢ورقة. وهو غير تام فقد ذكر أن المؤلف لم يتمه. طبع الكتاب فى ليدن سنة ١٨٢٩م ثم طبع مصورا بطهران سنة ١٩٦٠م.

٨- «**طبقات الحفاظ**» لخصه عن الذهبى وذيل عليه من جاء بعده . ومنه مخطوط الحرم المكى فى ١٥٠ ورقة (رقم ٨١ تراجم) ومخطوط عارف حكمة فى المدينة (رقم ٤٣٣ تاريخ) فى ١٣٠ ورقة. وثمة نسخة فى دار الكتب بمصر ونسخة رابعة فى فيض الله باستامبول رقم ١٤٧٣ فى ٢٦٣ ومعها نسخة رقم ١٤٧٤ فى ٢٦٩ ورقة. نشره المستشرق وستنفلد (سنة ١٨٣٤م).

٩- «**المستظرف من أخبار الجوارى**»: وقد نشره صلاح الدين المنجد فى بيروت سنة ١٩٦٢ فى ثمانين صفحة. ضمن سلسلة رسائل ونصوص الصادرة عن دار الكتاب الجديد ومنه مخطوط فى الظاهرية بدمشق وآخر فى الأحمدية بتونس.

١٠- «**نزهة الجلساء فى أشعار النساء**»: نشره المنجد نفسه مع مقدمة وفهارس فى ١٣٧ صفحة (دار المكشوف فى بيروت ١٩٥٨) ومنه مخطوط فى الظاهرية بدمشق رقم ٤٥٦٨ ومخطوط آخر فى الخزانة العامة بالرباط.

١١- «**تحفة الأريب فى نجاة مغنى اللبيب**»: ومنه المجلد الثانى مخطوط فى فيض الله

فى استامبول رقم ١٤١٣ فى ٣٣٦ ورقة. وبعض منه مخطوط فى الأحمدية بتونس رقم ٤٧٦٣.

١٢- «المنجم فى المعجم»: وهو معجم شيوخه الذين أخذ عنهم أو أجازوه وقد جعلهم ٣ طبقات ورتبهم على حروف المعجم. ومنه مخطوطة لعلها مسودة المؤلف فى دار الكتب بالقاهرة رقم ٥٢٦ تاريخ .

١٣- «كوكب الروضة فى تاريخ جزيرة الروضة بالقاهرة»: وهو مقامة فيها تاريخ وأشعار وذكر لنهر النيل وما فيه. فرغ منه سنة ٨٩٥هـ ومنه نسخة فى مكتبة الخالدى فى القدس رقم ٢٩٢ فى ٣٠ ورقة وأربع نسخ فى طوبقابو باستامبول منها نسخة قوبلت على نسخة المؤلف (رقمها ٦٥٥،٢٤٠٨ فى ٢٤٧ورقة) والأخرى برقم (٦١٥٣،٢٩٧٨) والثالثة برقم ٦١٥٤،١٤٠٢ ورقة والرابعة برقم ٦١٥٦،٧١٣ فى ٢٨٣ ورقة.

١٤- «لب اللباب فى تحرير الأنساب»: اختصر فيه لباب ابن الأثير وزاد عليه. ومنه مخطوط خدابخش بتنه رقم ٢٤٢٧ فى ٧٠ ورقة ومخطوطات أخرى عديدة فى ليدن (١٣٦-١٣٨) وفى باريس الأول منه رقم ٢٨٠٠ وفى تشيستربتى تحت رقم ٣٩٥٧ فى ١٢٦ ورقة . وفى القاهرة الثانى منه (رقم ٣١٥/٥) وفى سليم آغا باستامبول رقم ١٢١٥، ١١٢٥٢ وفى رضا رامبور الأول (رقم ٦٤٥:٢١٧) وفى بنكيبور (١٧٤٧/١٢) وفى بتنه (٢/٣٠٨:٢٤٢١) ويختصر فيه السيوطى كتاب الأنساب للسمعانى ويذكر حوالى ٩ آلاف اسم مع تفسيرها .

وقد نشره ليدن المستشرق ب.ج. فيث سنة ١٨٣٠-١٨٣٢م والهولندى بطرس فوت سنة ١٨٥١م وأعيد طبعه مصورا فى مكتبة المثنى ببغداد .

١٥- «ذيل على العقود الدرية فى الأمراء المصرية»: للجزار وهى تكملة الأرجوزة وتكملة التكملة . ومنه مخطوط باريس فى المكتبة الأهلية (أول ١٦٠٨). وآخر فى فلورنسا رقم ٣٠١٢ (وهو بشعر الرجز).

١٦- كتاب « الوسائل فى معرفة الأوائل»: وهو مختصر كتاب الأوائل لأبى هلال العسكرى (الحسن بن عبد الله المتوفى سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م). منه ثلاث مخطوطات فى طوبقابو رقم ٥٧٢٦،٢٣٤٣ فى ٣١ ورقة. ورقم ٥٧٢٧،٣٠٥٤ ورقم ٥٧٢٨،٢٤٣٧. ومخطوط بدار الكتب فى مصر وآخر بمكتبة البريدى فى القدس, وقد نشره المستشرق جوخيا سنة ١٨٧٦م ونشره أسعد طلس فى العراق سنة ١٩٥٤م.

١٧- «ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون»: ومنه مخطوط كمبردج (٨)١٧٢.

١٨- كتاب **«تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة»**: ومنه مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٤٧٦٨ في ٢٦ ورقة. وقد طبع في حيدر آباد سنة ١٣١٧.

١٩- **«در السحابة في من دخل مصر من الصحابة»**: وقد لخص فيه كتاب ابن الربيع الجيزي وزاد عليه ما وجده في المصادر الأخرى ورتبه على حروف المعجم. ومنه مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم ٣٣١٨ في ٨٦ ورقة ومخطوط آخر في دار الكتب بمصر وثالث في باريس، وقد طبع بمصر ضمن كتاب «حسن المحاضرة» (سنة ١٣٢١م).

٢٠- **« أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب (الرسول الأعظم)»**: ومنه مخطوطتان في الظاهرية رقم ١٨٥٧ في ٢٤ ورقة ورقم ٣٨٦١ في ١٣ ورقة ومخطوطة في ليبيا - مكتبة الأوقاف بطرابلس رقم ٢٣ في ٣١٠ ورقات . ومخطوطة في مكتبة شستربتي رقم ٣١٦١ في ١١ ورقة، وثمة نسخة في فيض الله ضمن مجموع .

٢١- **«مسالك الحنفا في والدى المصطفى»** ومنه مخطوط الرباط ١١٩٤ في مجموع من الورقة٣٨ب إلى ٦٣ب. وقد اختصره السيوطي في كتاب أصغر ثم عاد فاختصر الأصغر في موجز هو :

٢٢- **« الدرج المنيفة في الآباء الشريفة»**: يقول فيه إنه ثالث كتاب ألفه في والدى الرسول ﷺ وهو أخصرهما وأوجزهما. ومنه مخطوط الرابط ١٦٣٨ في مجموع من الورقة ٢٠٣ب إلى ٢٠٧أ.

٢٣- **«نسب بعض الصحابة والأشراف وغيرهم من ملوك لمتونة والموحدين»**: ومنه مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٢٤ تاريخ في ٤٠ ورقة. وآخر برقم ٢٠٢٠ ويحمل الاسم نفسه ولكنه ينسب لابن أبي زيد. ونسخة أيضا في الخزانة العامة بالرباط. ويشك في نسبة هذا الكتاب للسيوطي .

٢٤- **« تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك (ابن أنس)»**: ومنه مخطوط دار الكتب الوطنية في تونس رقم ٩٨٣٠ وفي المكتبة التيمورية في القاهرة .

٢٥- **« الأساس في مناقب بني العباس»**: ومنه مخطوط الأزهرية ٤٠٢٢ تاريخ (٥٣٥٥٥) في ١١ ورقة. ومخطوط بالتيمورية وثالث في الخزانة العامة في الرباط بمجموع ١١/١٠٢٧ وعارف حكمت ١٠٨ مجاميع وبرلين ١٥١٨.

٢٦- **«التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة»**: ومنه مخطوط الرباط رقم ٤٨٦ك في ١٣ ورقة ومخطوط في الأسكوريال وثالث في دار الكتب بمصر.

٢٧- **« أسماء المدلسين من رجال الحديث»**: ومنه مخطوط الأزهر رقم ٦٠٣

مصطلح الحديث فى ٥ ورقات .

٢٨- «وثمة من ضمن مجموع واحد فى مكتبة فيض الله رقم ١٤١٣ فى ٣٣٦ ورقة كل من : **«العجاجة الزرنبية فى السلالة الزينبية»** من ورقة ١٦١ حتى ١٦٨، وهى موجودة أيضا فى عارف حكمت بالمدينة ١٦٢ مجاميع وفى دار الكتب بمصر ٩٢٠٧ح وفى أسعد أفندى باستامبول مجموع ١٦٩٤ وبرلين ٩٤٠١ وشستربتى رقم ٥٥٠٠.

٢٩- «العرض الوردى فى أجبار المهدى» من ورقة ١٧٢ حتى ١٨٣.

٣٠- **«إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء»** من ورقة ٢٠٨ حتى ٢١١.

٣١- **«مسالك الحنفا فى والدى المصطفى»** من ورقة ٢٣٣-٢٤٧.

٣٢- **«الإعلام بحكم عيسى عليه السلام»** من ورقة ٢٠٤ حتى ٢٠٨ (ومنه مخطوط بالتيمورية ٢٨١٩،٢٤٦٧ ومخطوطات أخرى فى برلين ٣٥٣٩ وجامع صنعاء مجموع ١٨٧ وأسعد أفندى مجموع ٢٦٠ وشستربتى ٥٥٠٠،٥١١٢ وفى الموصل وغيرها) وفى المجموع نفيه، فى آخره نسخة أنموذج اللبيب فى خصائص الحبيب .

٣٣- وينسب إليه **«إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى»**: وهو ينسب أيضا إلى شمس الدين محمد المنهاجى السيوطى (طلس: الكشاف صـ٢٢٠) وحاجى خليفة ينسبه إلى كمال الدين بن أبى شريف. وقد طبع المستشرق لامنغ سنة ١٨١٧ قطعة منه. وهو مخطوط بالحرم المكى رقم ١٩٢ وليدن ١٠٣٢ والمتحف البريطانى (ذيل ٥٧٢.

٣٤- وينسب للسيوطى أيضا كتاب **«تاريخ السلطان قايتباى»** (٨٧٢-٩٠١هـ) والدولة الأيوبية ودول المماليك. ومع أن طريقة الكتاب قريبة من منهاج السيوطى إلا أن أحدا لم يذكر هذا الكتاب له سوى المخطوطة التى تحمل اسمه عليها. وهى فى دار الكتب المصرية بالقاهرة فى ٥٧ لوحة مزدوجة متوسطة ورقمها ٦١ تاريخ .

٣٥- **«الرتب المنيفة فى فضل السلطنة الشريفة»**: وهو مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٦٥ مجاميع فى ثلاث ورقات .

٣٦- **«التعريف بآداب التأليف»**: وهو رسالة صغيرة منها مخطوط دار الكتب بمصر رقم ٣٢ مجاميع فى ٥ ورقات. ومخطوط آخر فى الخزانة العامة بالرباط طبع بعناية إبراهيم السامرائى فى بغداد ثم طبع محققا بعناية عبد الصبور مرزوق سنة ١٩٧٠.

٣٧- **« طبقات الأصوليين»**: نسبة لنفسه فى **«حسن المحاضرة»**، ومنه مخطوط فى برلين رقم ٤٣/٩٩١٣.

٣٨- « **طبقات البيانيين**»: نسبة لنفسه فى «**تاريخ الخلفاء**» ومنه مخطوط برلين ١٠٠٦٣/٢٩.

٣٩- «**طبقات الخطاطين**»: نسبة لنفسه فى «**تاريخ الخلفاء**» ومنه مخطوط برلين ١٠٠٦٣/٣٠

٤٠- «**طبقات التابعين**».

٤١- «**طبقات الشعراء**: نسبه لنفسه فى «**حسن المحاضرة**».

٤٢- **طبقات الفرضيين**»: نسبة لنفسه فى «**تاريخ الخلفاء**».

٤٣- «**ذيل الإنباء عن قبائل الرواة**» الأصلى من تأليف ابن عبد البر التمرى القرطبى المتوفى (سنة ٤٦٣).

٤٤- «**الرحلة الفيومية**» نسبها لنفسه فى «**حسن المحاضرة**» ومنها مخطوط فى برلين رقم ٦١٥٧/١٥.

٤٥- «**الرحلة المكية**»: نسبها السيوطى لنفسه فى «**حسن المحاضرة**» وهى مع المخطوط السابق فى برلين .

٤٦- «**الرحلة الدمياطية**»: نسبها بدورها لنفسه فى «**حسن المحاضرة**» ومنها مخطوط برلين (مع السابقتين) رقم ٦١٥٧/١٥.

٤٧- «**رفع الباس عن بنى العباسى**»: نسبه السيوطى لنفسه فى «**حسن المحاضرة**» وتحدث عنه .

٤٨- «**مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**»: وهو مختصر «**معجم البلدان**» لياقوت .

٤٩- «**روائد الرجال على تهذيب الكمال**»: نسبه لنفسه فى «حسن المحاضرة» والتهذيب فى الأصل لابن الزكى المتوفى سنة ٦٠٠هـ.

٥٠- «**الزوائد على المال فى معرفة الرجال**».

٥١- «**السماح فى أخبار الرماح**»: ومنه مخطوط مصور فى معهد المخطوطات العربية فى القاهرة رقم ٢٣ فروسية .

٥٢- «**إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء**»: منه مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر وآخر بالأحمدية بتونس ٤٩٥١، وأوقاف الموصل ٢٤/٨٤ بجاميع وبرلين ٥٥٧٩ وليدن ٤٧٤/١٤، ٢٧٧٢.

٥٣- **«إحياء الميت بفضائل أهل البيت»**: ومنه مخطوطات عديدة فى الظاهرية ١١١٢ حديث، ٥٢٩٦ مجموع وعارف حكمت ١٠٨ مجاميع وخزانة الرباط مجموع ٢/٩٣٦ وجامع صنعاء ٢ تصوف، وكمبردج ٢٠/٢ ودار الكتب بمصر ٢١ مجاميع، و٣٧ مجاميع. وقد طبع فى الهند وفى القاهرة سنة ١٣١٢ وفى فاس.

٥٤- **«الازدهار فيما عقد الشعراء من الآثار»**.

٥٥- **«إزهار العروش فى أخبار الجيوش»**: وهو مختصر كتابه «رفع شأن الحبشان» ومنه مخطوط التيمورية رقم ٧٢٦ تاريخ وشهيد على بتركيا ٢٨٠٣ وشستربتى ٤٧١٣ و ٥٤٩١ وثمة مخطوطان آخران أحدهما فى غوطا والثانى فى الأسكوريال ومخطوط فى كوبر يللى ٤٥٨ وفى قورشوتلى رقم ٤/١٤٣.

٥٦- **«إسبال الكساء على النساء»**: ومنه مخطوط الظاهرية ١١١٧ حديث ومخطوط التيمورية ضمن مجموع.

٥٧- **«إسعاف المبطا برجال الموطأ»**: وقد طبع فى حيدر آباد سنة ١٣١٦هـ. وله مخطوطات بدار الكتب بمصر رقم ٢٣٣، ٣٤١، ٣٤٢ وفى برلين ٩٩٥٨ ومكتبة عارف حكمت بالمدينة ١٩١٩ مجاميع .

٥٨- **«أعلام النصر فى إعلام سلطان العصر»**.

٥٩- **«آكام العقيان فى أحكام الخصيان»**: ومنه مخطوطات عديدة فى دار الكتب بمصر (٢٧ مجاميع ٥٢١ مجاميع حديث) وفى خضر موت ٣٢٨ وفى الظاهرية ١٠٧ حديث وفى شستربتى ٥١١٢، ٥٤٩١، ٥٥٠٠ وليدن ٢٧١٦ وبرلين ٢٢٦٤/٤٨١٠ وفى خزانة الرباط .

٦٠- **«إنجاز الوعد المنتقى من طبقات ابن سعد»**: نسبه إليه صاحب الكشف.

٦١- **«إنشاب الكثب فى أنساب الكتب»**: ذكر فيه مروياته ومنه مخطوط برلين ٣/٣٠.

٦٢- **«الأوج من أخبار عوج»**: ومنه نسخة مخطوط آخر فى التيمورية ضمن مجموع، وقد طبع ضمن كتاب السيوطى «الحاوى فى الفتاوى».

٦٣- **«الأنوار السنية فى تاريخ الخلفاء والملوك فى مصر السنية»**: ومنه مخطوطات برلين ٩٨٧٩، ٩٨٢٥، ٩٨٢٦.

٦٤- **«بدائع الزهور فى وقائع الدهور»**: وهو تاريخ كبير انتقاه من ٣٢ تاريخا ذكر فيه نوادر الوقائع، ذكره حاجى خليفة فى «كشف الظنون»، من مبدأ الخلق إلى زمانه،

وقد قدم الأنبياء ثم الخفاء ثم الملوك لكنه لم يكمله .

٦٥- **«بذل المجهود لخزانة محمود»**: نشره فؤاد سيد فى مجلة معهد المخطوطات (المجلد ٤ سنة ١٩٥٨ ص ١٣٤-١٣٦).

٦٦- **«بلوغ الأمنية فى الخانقاه الركنية»**: نسبه إليه صاحب كشف الظنون .

٦٧- **«بهجة الناظر ونزهة الخاطر»**: (جمع فيه ما قيل فى مصر ونيلها ومتنزهاتها) من مخطوط دار الكتب المصرية ٣٢ مجاميع .

٦٨- **«تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء»**: وهى قصيدة رائية نظم فيها أسماء الخلفاء وسنى وفاتهم، ومنها نسخة بدار الكتب فى القاهرة ضمن مجموع يضم **«بلبل الروضة»** أيضا وطبعت ضمن « تاريخ الخلفاء» للسيوطى.

٦٩- **«تحفة الكرام بأخبار الأهرام»**: ومنه مخطوط بجامعة بيل فى نيوهافن بالولايات المتحدة وفى برلين ٦١١٢ ودار الكتب بمصر ٧٤٢ مجاميع والأحمدية بتونس/٦١٨٢ وجامعة كمبردج ٢٢٧/١، وخزانة الجليلى بالموصل ٢١/٥ج ١ج٤.

٧٠- **«تحفة المذاكر المنتخب من تاريخ ابن عساكر»**: نسبه لنفسه فى **«حسن المحاضرة»**. ومنه محطوط فى برلين ٥/٩٧٨٨.

٧١- **«تحفة المهتدين بأسماء المجددين»**: وهى أرجوزة فى ٢٧ بيتا منها مخطوط دار الكتب بمصر ضمن مجموع، وقد أكملها الجرجاوى المراغى فى مخطوط بدار الكتب أيضا بخط مؤلفه .

٧٢- **«التحفة الظريفة فى السيرة الشريفة»**: نسبها إليه البغدادى فى «هدية العارفين».

٧٣- **«المنهاج السوى فى ترجمة النووى»** (الإمام أبى زكريا يحيى بن شرف محيى الدين المتوفى (سنة ٦٧٦هـ) وقد نشرت فى مصر بتحقيق محمد عيد الخطراوى. ومنها نسخة مخطوطة فى مكتبة توبنغن فى ألمانيا برقم ١٩ فى ٢٣ ورقة ونسخة أخرى فى التيمورية وثالثة فى الأسكوريال .

٧٤- **«ترجمة البلقينى»** (الإمام قاضى القضاة صالح بن عمر الشافعى المتوفى سنة ٨٦٨هـ): ذكره فى «حسن المحاضرة» .

٧٥- **«تنبيه الغبى فى تبرئة ابن عربى»**: ومنه مخطوط فى رواق الأتراك بالأزهر رقم ٣٦٩٨ وآخر فى دار الكتب فى مصر.

٧٦- **«الثغور الباسمة فى مناقب السيدة فاطمة»**: ومنه مخطوط ضمن مجموع فى دار الكتب بمصر .

٧٧- **«حاطب ليل وجارف سيل فى معجم الشيوخ»**: (وقد ذكرنا برقم ١٢ معجما آخر) ومنه مخطوط عارف حكمت بالمدينة رقم ٢٤٢ تاريخ وعدد صفحاته ٧٢.

٧٨-**«الحجج المبينة فى التفضيل بين مكة والمدينة»**: من مخطوط فى دار الكتب بمصر وآخر فى الخزانة العامة بالرباط (بمجموع ١٠٢٧) وثالث فى برلين ٣/٩٧٥٦ وفى الظاهرية ١١٣٤ حديث عام ٧٦٦٤ فى شستربتى رقم ٥١١٢ وفى بلدية الإسكندرية ٣٧٣٥ح وله طبعة فى الهند .

٧٩- **«حلية الأولياء فى طبقاتهم»** (أو طبقات الأولياء): نسبه لنفسه فى تاريخ الخلفاء.

٨٠- **«الدرارى فى أولاد السرارى (أو النجوم الدرارى)»**: ويدافع فيه عن جدته الشركسية. ومنه مخطوط فى دار الكتب بمصر وآخر فى برلين.

٨١- **«شد الرحال فى ضبط الرجال»**: نسبه إليه صاحب كشف الظنون .

٨٢- **«شد المطية للفضل بن غياث وعطية»**: نسبه إليه صاحب الكشف .

٨٣- **«شرح الإضافة فى منصب الخلافة»**: نسبه إليه صاحب الكشف.

٨٤- **«العرف الوردى فى أخبار المهدى»**: وهو مخطوط فى دار الكتب بمصر ٣٢ مجامع ومطبوع ضمن الحاوى للفتاوى .

٨٥- **«عين الإصابة فى مختصر أسد الغابة»** (ولعله عين الإصابة فى معرفة الصحابة نفسه).

٨٦- **«الفاشوش فى أحكام قراقوش»**: ومنه مخطوطان بدار الكتب المصرية كتب أحدهما سنة ١٠٧٧ ضمن بمجموع ١٩٤ وبمجموع ٤١٦ . وفى برلين ٨٤١١ وفى شستربتى ٥٤٩١ وقد طبع فى مصر سنة ١٣١١.

٨٧- **«القول المشيد فى وقف المؤيد»**: طبع ضمن كتاب الحاوى للفتاوى .

٨٨- **«الكاوى فى تاريخ السخاوى»**: (وهى إحدى مقاماته).

٨٩- **«كشف الصلصة عن وصف الزلزلة»**: منه مخطوط بالتيمورية فى مصر وآخر فى المكتبة الأهلية فى باريس (رقم ٤٦٥٩) وثالث فى برلين. ورابع فى غوطا وخامس فى المتحف البريطانى وسادس فى كمبردج وثمة نسخة سابعة فى الخزانة العامة بالرباط. ترجمه شيرانجر إلى الإنكليزية باختصار سنة ١٨٤٣م ثم طبع فى لاهور سنة ١٨٩٠م وترجمه إلى الإنكليزية أيضا أمبراسى سنة ١٩٦١م وحققه وطبعه فى المغرب أخيرا عبد اللطيف السفدانى .

٩٠- «**كشف النقاب عن الألقاب**»: نسبه لنفسه فى «**حسن المحاضرة**».

٩١- «**اللمع فى أسماء من وضع**»: نسبه لنفسه فى «**حسن المحاضرة**».

٩٢- «**مختصر الأحكام السلطانية**»: للماوردى نسبه لنفسه فى «**حسن المحاضرة**».

٩٣- «**المضبوط فى أخبار أسيوط**»: ومنه مخطوط فى برلين رقم ٥٧/٩٨٤٥.

٩٤- «**المكنون فى ترجمة ذى النون**»: ذكره صاحب كشف الظنون . ومنه مخطوط تشستربتى ٤٨٦٥.

٩٥- «**الملتقط من الدرر الكامنة**»: منه مخطوط عارف حكمت بالمدينة رقم ٢١٧ تاريخ وعدد صفحاته ٢٧٢ فى نسخة جيدة .

٩٦- «**مسألة أولاد على بن أبى طالب**»: وهى مقاله فى ثلاث ورقات مخطوطة برواق الأتراك بالأزهر رقم ٣٦٩٨ .

٩٧- «**المنى فى الكنى**»: وهو تلخيص المرصع لابن الأثير. ومنه مخطوط برلين ٧٠١٨.

٩٨- «**نثر الهميان فى وفيات الأعيان**»: منه مخطوط فى برلين رقم ٤١/٩٩١٣.

٩٩- «**النفحة المسكية والتحفة المكية**: ومنه مخطوط الأوقاف بالموصل مجاميع ١٩/٣٢ والظاهرية ٤٢٥٥ وفى الأسكوريال ومكتبة فيينا .

١٠٠- «**والوجيز فى طبقات الشافعية**»: منه مخطوط فى ليدن رقم ٢٦٣٩

١٠١- «الأخبار المستفادة فى من ولى مكة من آل قتادة» : نسبه إليه صاحب كشف الظنون .

١٠٢- «**الهيئة السنية فى المئة السنية فى الأخبار**»: ومنها نسخ جامعة كمبردج ١٢٤٣/١، برلين ٥٦٩٧، الظاهرية ١١٦٥ حديث مجموع ١٢٦ عام ٦٦١٩ وعارف حكمت ١٠٨ مجاميع وتشستربتى ٥٤٩١،٤٢٠٥ وفى خزانة الرباط بمجموع ١٠٠١ وبشير آغا باستامبول بمجموع ٦٥٥.

١٠٣- «**الذيل على المغنى فى الضعفاء**»: والكتاب الأصلى للذهبى .

١٠٤- «**شرح تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش لابن الجوزى**»: ومنه مخطوط فى باريس .

١٠٥- «**ديوان الحيوان خلاصة حياة الحيوان للدميرى**»: ومنها مخطوط فى باريس وآخر فى المكتب الهندى .

١٠٦- **«الدرارى فى أبناء السرارى**: وفيه أسماء الخلفاء المولدين من الجوارى والمخطوطة فى برلين وفى دار الكتب بمصر فى بضع ورقات .

١٠٧- **«تحذير الخواص من أكاذيب القصاص**: مخطوط عارف حكمت بالمدينة (وهو الثالث ضمن مجموع رقمه ١٢٠ قديم/١٨٨ جديد من ورقة ١٥٢ إلى ١٩٣) وعلى النسخة تعاليق .

١٠٨- **«قصيدة لامية فى من ولى الخلافة والملك منذ كانت الخلافة إلى زمن الأشرف برسباى**: منها مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٤٧٦٥.

١٠٩- **«تاريخ الصحابة**: نسبه لنفسه فى «حسن المحاضرة» .

١١٠- **«عين الإصابة فى معرفة الصحابة»**: نسبه لنفسه فى «حسن المحاضرة». وذكر فى «كشف الظنون» أنه يتمه .

١١١- **«رفع شأن الحبشان»**: ومنه مخطوط فى الخزانة التيمورية وآخر فى الأسكوريال وفى كوبريللى باستامبول رقم ٤٥٨ وفى قورشوتلى هناك أيضا برقم ٤/١٤٣.

١١٢- **«ريح النسرين فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين»**: ومنه مخطوط فى الأسكوريال وآخر فى الخزانة العامة فى الرباط. وفى شستربتى رقم ٥٤٩١،٥١١٢ ودار الكتب المصرية ٥٢١ مجاميع ٥٣٠ مجاميع.

١١٣- **«من وافقت كنيته كنية زوجه من الصحابة»**: منه مخطوطة ضمن مجموع فى الخزانة العامة بالرباط.

١١٤- **«الأقوال المتبعة فى مناقب الأئمة الأربعة»**: ومنه مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

١١٥- **«تحفة النابه بتلخيص المتشابه»**: نسبه لنفسه فى **«حسن المحاضرة»**.

١١٦- **«طبقات الكتاب»**: نسبه لنفسه فى **«حسن المحاضرة»**.

١١٧- **«حسن التلخيص لتالى التلخيص»**: وهو ذيل على التالى والأصل كتاب **«وتلخيص المتشابه»** للخطيب البغدادى .

١١٨- **«تاريخ العمر»** نسبه السيوطى فى **«حسن المحاضرة»** وهو ذيل على **«إنباء الغمر»** لابن حجر .

١١٩- **«ذيل (حياة) الحيوان للدميرى**: فرغ منه السيوطى سنة ٩٠١.

١٢٠- **«الزبرجد فى التاريخ»**: نسبه إليه حاجى خليفة فى كشف الظنون .

١٢١- **«سبل الهدى فى السير»**: نسبة إليه حاجى خليفة فى الكشف .

١٢٢- **«تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك»**: ومنه مخطوط فى التيمورية وآخر فى الأسكوريال . وقد طبع فى المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٥هـ.

١٢٣- **«نسب البوصيرى»**: ومنه نسخة مخطوطة فى دار الكتب بمصر .

١٢٤- **«العجائب فى تفضيل المشارق على المغارب»**: نسبه إليه حاجى خليفة فى «كشف الظنون» ومنه مخطوط برلين ٦٠٥٨/٤.

١٢٥- **«فضائل الشام»**: ومنه مخطوط فى مكتبة جامعة برنستون فى الولايات المتحدة.

١٢٦- **«حسن النية فى الخانقاه البيبرسية»**: نسبه إليه حاجى خليفة فى الكشف .

١٢٧- **«المزدهى فى روضة المشتهى»**: نسبه إليه حاجى خليفة (ولعله تاريخه للروضة الجزيرة فى النيل).

١٢٨- **«طبقات الكتاب»**: ومنه مخطوط برلين ١٠٠٦٣/٣١.

١٢٩- **«طبقات النحاة الكبرى»**: ومنه مخطوط فى مكتبة رئيس الكتاب باستامبول رقم ١١٦١.

١٣٠- **«فريدة التبيان ونزهة الحفاظ والإخوان»**: وقد طبع فى مصر سنة ١٣٢٢ ونسخته فى دار الكتب رقم ٢١٣٦.

١٣١- «الدر الثمين فى أسماء المصنفين» : ومنه مخطوط برلين ٣٠/٤.

١٣٢- **«الأخبار المروية فى سبب وضع العربية»**: ومنه مخطوطتان ضمن مجموعين فى الخزانة العامة بالرباط . وهو مطبوع ضمن مجموعة «التحفة البهية والطرفة الشهية» الصادرة عن مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢هـ.

١٣٣- **«دقائق الأخبار المروية فى سبب وضع العربية»** (ولعله المؤلف السابق).

١٣٤- **«نثر الهميان فى وفيات الأعيان»**: ذكره السيوطى فى فهرست مؤلفاته فى التاريخ ذكر ذلك صاحب الكشف.

١٣٥- **«ورقات الوفيات»**: ذكره السيوطى فى فهرست مؤلفاته فى التاريخ.

١٣٦- **«تحفة العجلان فى فضل عثمان»**: وهو أربعون حديثا فى فضل عثمان ومناقبه ومزاياه، منه مخطوط التيمورية ومخطوط أوقاف بغداد.

١٣٧- **«ساجعة الحرم»**: ومنه مخطوط الخزانة فى الرباط (مجموع ١٠٢٧) ودار

الكتب فى مصر ٣٦٠ وبرلين ٨٥٦١.

١٣٨- **«الدرر فى فضل عمر»**: وهو أربعون حديثا فى فضله ومزاياه منه مخطوط فى الخزانة التيمورية بمصر.

١٣٩- **«الروض الأنيق فى فضل الصديق»**: نسبه لنفسه فى **«حسن المحاضرة»**.

١٤٠- **«القول الجلى فى فضل على»**: وهو أربعون حديثا فى مناقبه، منه مخطوط فى التيمورية بمصر.

١٤١- **«مقامات السيوطى»**: وهى ٣٧ مقامة بعضها بطل على التاريخ كالكاوى فى تاريخ السخاوى. ومنها مخطوطات فى مكتبات عديدة عامة وخاصة. وقد طبع بعضها مفردا وطبعت منها مجموعات غير كاملة فى مصر والهند وتركيا.

١٤٢- **«طبقات المفسرين»** ولم يتمه على ما ذكر صاحب **«كشف الظنون»**.

١٤٣- **«بذل المجهود فى خزانة محمود»**: وقد نشره فؤاد فى مجلة معهد المخطوطات (مجلد ٤ سنة ١٩٥٨ ص ١٣٤).

تاسعا: ابن إياس

أبو البركات زين العابدين (أبو شهاب الدين) محمد بن أحمد إياس الجركسى الأصل الناصرى القاهرى: ولد فى القاهرة سنة ٨٥٢هـ./١٤٤٨م وتوفى بها سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٣م. مؤخر عصر الانهيار المملوكى والسنوات الأولى من الحكم العثمانى وهو سليل أسرة من القواد الشراكسة الأمراء (كانوا قديما من أجناد الحلقة) ثم صاروا من **«أولاد الناس»** ولا نجد أى ترجمة وافية لابن إياس لدى المعاصرين له، ولعلهم لم يكونوا يعيرونه أى اهتمام. كما أن الأدب التاريخى كان قد أدركه الانحطاط فلم يكن لما كتب ابن إياس أى رونق أدبى، ولم تحظ كتابته الشبيهة بالعامية بأى تقدير. ومعلوماتنا عن أسرته وعنه إنما نأخذها من ثنايا كتبه نفسها والإشارات التى فيها. ومنها أن لابن إياس خمسة وعشرين أخا لم يبق منهم سوى ثلاثة: هو وأخوه وأخته وكان أخوه يشغل وظيفة الزردكاش (خازن الأسلحة). وقد نشأ ابن إياس بهذا الشكل فى أسرة ذات يسار، ودرس على اثنين من كبار علماء عصره: السيوطى وعبد الباسط ابن خليل الحنفى المؤرخ والفقيه (توفى سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م). وقد اتجه إلى التاريخ لأنه كان على ما يبدو المركب الأسهل الخالى من ضرورات الإسناد كالحديث وتعقيدات الفقه، وقسوة اللغة وفهم أسرارها.

وعلى الرغم من أن ابن إياس لم يكن يملك الحس التاريخى المرهف كسابقيه، ولا اللغة الصحيحة اللازمة للكتابة الحسنة المتينة، ولا الثقافة الضرورية للدقة والمتانة، إلا أنه

كان المخطوط الوحيد بين جميع من سبقه فى أن جميع كتبه قد حفظت وبقيت، وفى أنه كان الشاهد المعاصر الوحيد على الانقلاب التاريخى الذى جرى بين انهيار المماليك وبين العصر العثمانى. ولذلك اعتمده المستشرقون كثيرا وأبرزوا اسمه رغم قلة تراثه التاريخى بالنسبة إلى تراث الآخرين ممن سبقوه، ورغم أسلوبه الضعيف المفكك ولجوئه إلى تكرار النعوت والأوصاف وإلى العامية أحيانا فى التعبير بسبب ضعفه الأصيل فى البيان واللغة.

كتب ابن إياس خمسة كتب فى التاريخ هى:

١- «**بدائع الزهور فى وقائع الدهور**» ويبدو أنه كان يخطط فيه لعمل تاريخ عام وإسلامى لمصر حتى عهده، فإنا نجده يذكر فى خطبته أنه لخصه من نحو سبعة وثلاثين كتابا وذكر فيه فضائل مصر وأخبارها منذ البدء حتى سنة ٩٢٨هـ، كما نجد أيضا فى المخطوطات المحفوظة منه فى متحف الأوقاف باستامبول الأجزاء التالية وهى جميعا بخط المؤلف:

المخطوط الاول رقم ٢١٤٩: من مبدأ التاريخ حتى ذكر طرف يسيرة من أخبار ملوك العرب فى الجاهلية، فى ٢٨٢ ورقة .

المخطوط الثانى رقم ٢١٥٠: جزء من أول سيرة النبى إلى أواسط الدولة العبيدية، فى ٢١١ ورقة .

المخطوط الثالث رقم ٢١٥١ : جزء من أول حوادث سنة ٧٨٩هـ إلى أول ذكر سلطنة الملك المنصور عز الدين، فى ٢٣٨ ورقة .

المخطوط الرابع رقم ٢١٥٢: الجزء السابع من أول ذكر عود الملك الناصر فرج بن برقوق إلى السلطنة الثانية فى رجب (سنة ٩٠٢) فى ٢١٢ ورقة .

المخطوط الخامس رقم ٢١٥٣: من أول حوادث سنة ٨٩١هـ إلى ١٥ محرم سنة ٩١٤هـ، فى ٢١٨ ورقة .

المخطوط السادس رقم ٢١٥٤: الجزء العاشر من أول حوداث سنة ٩١٣هـ إلى آخر الكتاب فى ٢٣٣ ورقة .

وثمة بخط المؤلف مجلدان فى مكتبة فاتح باستامبول :

الجزء الرابع: وينتهى بآخر سنة ٧٤٢هـ بمكتبة فاتح رقم ٤١٩٧، فى ٢٥٤ ورقة.

الجزء الخامس: ويبدأ بذكر سلطنة علاء الدين بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٢ إلى آخر سنة ٧٨٨، فى ٢٢١ ورقة برقم ٤٢٠٠.

والعرض التاريخى فى الأجزاء الأولى منها سطحى مقتضب، وقد يتبسط أحيانا دون مناسبة، لكنه يظل يتوسع كلما اقترب من عصره دون تعمق، ولكن مع ازدياد فى التفاصيل وينقلب إلى الإسهاب منذ بدء القرن التاسع فإذا كانت أواخر هذا القرن - وهو العصر الذى عاش فيه ابن إياس وشهد حوادثه - ألفيته يجعل من التاريخ نوعا من السجل اليومى كأنه صحيفة يومية تجمع الحوادث العامة مع الخاصة. وتملأ مجلدين كبيرين أو أكثر، وفى هذا يتميز ابن إياس عن سابقيه من المؤرخين .

وثمة من هذا الكتاب مجلد مخطوط يبدأ بسلطنة الأشرف إينال العلائى (سنة ٧٥٨هـ) وينتهى إلى سنة ٩٠٦هـ فى ٢٩٣ ورقة . وهو مخطوط خدا بخش ٢٣١٩. كما أن ثمة المجلد الأخير من نسخة أخرى، مخروم الآخر يبدأ بحوادث سنة ٩٢٢هـ فى عهد السلطان الغورى، وينتهى أثناء حوادث ذى العقدة سنة ٩٢٧هـ وهو فى الآصفية بحيدر آباد رقم ٣٠٨ تاريخ، فى ٢٢٤ ورقة .

وكانت مطبعة بولاق قد أصدرت سنة ١٣١١هـ./ ١٨٩٤م طبعة من **«بدائع الزهور»**، يعالج الجزء الأول منها تاريخ مصر كله حتى (سنة ٨١٥هـ.) فى حين يعالج الجزء الثانى ما بين سنة ٨١٥ وسنة ٩٠٦هـ أى حتى نهاية حكم العادل طومان باى وفى الثالث من سنة ٩٢٢هـ إلى سنة٩٢٨هـ/ ١٥١٦-١٥٢٢م. أى حتى نهاية حكم المملوكى الأخير الأشرف طومان باى. وسقطت من الطبعة فترة السلطان الغورى (٩٠٦-٩٢١هـ/١٥٠١-١٥١٥م.). وظلت هذه الفجوة قائمة حتى تبين بعد ذلك أمران:

الأول - أن ما نشرته بولاق باسم «بدائع الزهور» كان ناقصا ومشوها فكأنه مختصر سيىء للكتاب أو موجز له نفسه وضعه ابن إياس نفسه بدليل أنه يشير فى هذه الطبعة إلى أن من شاء أن ينظر ما وقع فى الديار فينظر إلى الجزء الخامس من تاريخنا بدائع الزهور ...

الثانى - أن الفجوة الناقصة موجودة فى مخطوطات أخرى فى ليننغراد وباريس تمتد ما بين سنة ٨٧٢ وسنة ٩٢٨هـ./١٤٦٧ حتى ١٥٢٢م أى تضم الفترة التى كان ابن إياس فيها شاهد العصر المباشر. وقد نشرت هذه القطعة من البدائع بعناية جمعية المستشرقين الألمان . نشرها باول كاله، الأستاذ بجامعة بون بمعونة محمد مصطفى مدرس العربية هناك والمستشرق سوبر نهايم فى مجلد من ٥٠٠ صفحة كبيرة (استامبول ١٩٣١) وبين فى مقدمة له وبمقارنة النصوص أن هذا المجلد هو الجزء المكمل لطبعة بولاق، وهو يستند إلى مخطوط باريس رقم ١٨٢٤ ومخطوط لينغراد رقم ٤٦ فى المتحف الأسيوى. ويضم الأول ما بين سنتى ٩١٣-٩٢١هـ، وهو منقول عن نسخة

المؤلف، فى حين يضم الثانى ما بين سنتى ٩٢٢ ونهاية الكتاب .

وقد عاد المستشرق كاله وزميلاه فنشروا فى استامبول سنة ١٩٣٢م نصا جديدا لهذا القسم نفسه وصفوه بأنه الجزء الخامس . وفى النص الجديد فروق عديدة عن السابق سواء من حيث الاستيعاب أو المدى أو الترتيب، ثم قام العلماء أنفسهم بنشر نص آخر يتضمن تاريخ ما بين سنتى ٨٧٢-٩٠٦ أى من السنة التى توقف عندها ابن تغرى بردى إلى مطالع القرن التالى (استامبول ١٩٣٦) وسموا هذا الجزء بالجزء الثانى .

ويلاحظ أنه فى حين كتبت الأحداث فى الجزء الخامس وحتى سنة ٩٢٢هـ بأسلوب مفكك أشبه بالعامى كتب القسم الأخير بعناية وبلغة مزخرفة، مما دعا المستشرق ك. فولرز إلى التشكك فى أن يكون ابن إياس هو كاتب القسم الأخير . ولكن المستشرق سوبر نهايم عزا ذلك إلى امتزاج نصين: أحدهما كتب على أنه صحيفة شخصية، والثانى كنت ليكون النص الرسمى. وهو يتضمن الكثير عن حياة الحكام فى القاهرة والبلاط فى تلك الآونة مما يعطيه قيمة تاريخية كبيرة. ومن الملاحظ أن موقفه من الفتح التركى العثمانى تغير. ففى حين كان يسهب فى مظالم الأتراك حين فتحوا مصر ويصف مذابحهم ونهبهم، يعود فى أواخر كتابه فيهدئ من لهجته إن لم يكن يمدح السلطان ويشر به.

٢- «**جواهر السلوك فى أخبار الأمم والملوك**»: وهو مختصر الكتاب السابق . ومنه مخطوطات عدة فى : كمبردج ٧٤ وهى مخرومة الآخر فى ٤٢٩ ورقة، وفى دار الكتب المصرية ٦٢٠٣/ تاريخ ف ٦٤٨، ومخطوط طوبقابو ٣٠٢٦،٦١٦٢ فى ١٦٠ ورقة، (فى أحمد الثالث) ومخطوط المتحف البريطانى رقم ٦٨٥٤. وفى الأزهر نسخة كتبت سنة ٩١٦، وأخرى فى باريس رقم ٦٧٣٩. وفى الكتاب تاريخ عام لمصر منذ الفتح الإسلامى حتى سلطنة الظاهر (أبى سعيد قانصوه سنة ٩٠٤هـ) ووفاة المتوكل على الله سنة ٩٠٣هـ، وبلوغ المستمسك بالله (أبى النصر يعقوب بن عبد العزيز بن يعقوب) .

ومن الجدير بالذكر أنه ثمة كتابا بالعنوان نفسه مجهول المؤلف فى المتحف البريطانى رقم٦٨٥٤.

٣- «**نشق الأزهار فى عجائب الأقطار**»: يقول فى مطلعه: «... لما طالعت كتب تواريخ الأمم الخالية ورأيت ما فيها من العجائب المتوالية فأجبت أن أجمع كتابا أذكر فيه من أعجب ما سمعته وأغرب ما رأيته قاصدا فيه الاختصار لكى لا يطول التأليف ...» ولكنه ذكر فيه عجائب مصر وسير ملوكها، وطلاسم اليرابى فيها، وأخبار النيل والأهرام، وخطط مصر وما قيل فيها وأقاليمها ... وله مخطوطات عديدة : فى الرباط تحت رقم ١٢٣د فى ٢٢١ ورقة وفى مكتبة المسجد الأقصى رقم ٥٧٩ عام فى ٣٠٠

ورقة تقريبا . وفى المتحف البريطانى رقم ٧٥٠٣ فى ٢٩٤ ورقة . ومنه فى المكتبة الأهلية بباريس أربع نسخ تحمل الأرقام : ٢٢٠٨ فى ٤١٠ ورقات، و٢٢٠٩ فى ٣٨٠ ورقة، و٢٢١٠ فى ٥٤ ورقة، و٢٢١١ فى ٤٨ ورقة . وقد استخدم هذا الكتاب بشكل واسع فى القرن التاسع عشر فى أوروبا . ومنه فى استامبول أربع نسخ، وفى تركيا:

- نسحة مكتبة رئيس الكتاب رقم ١٠١١ كتبت سنة ١٠٢٤ فى ٣٣٥ ورقة .
- نسخة مكتبة كوتاهية وحيد باشا رقم ٢٢٣٠ متبت سنة ١٠٢٤ فى ٣١٦ ورقة.
- نسخة نور عثمانية رقم ٣٠٣٩ كتبت سنة ١٠١١ فى ٢٤٤ ورقة .
- نسخة حكيم أوغلى رقم ٨١٥ كتبت فى القرن العاشر فى ٣٩٤ ورقة .

٤- **«نزهة الأمم فى العجائب والحكم»**: وقلما عرفه الباحثون. ومنه نسخة نقلت عن خط المؤلف (سنة ٨٠١هـ) تليها أوراق فى ذكر مدينة الفسطاط، مخطوطة فى أيا صوفيا رقم ٣٥٠٠، فى ٢٨٠ورقة، ومصور فى جامعة القاهرة تحت رقم ٢٢٩٦٣.

٥- **«المنتظم فى بدء الدنيا وتاريخ الأمم»**: فى ثلاثة مجلدات كاملة مخطوطة فى أحمد الثالث باستامبول نحن رقم ٢٩٠٩، ويشكك بعض المؤرخين فى نسبتها إليه لأنه مطابق لكتاب البدء والتاريخ وينتهى مثله سنة ٣٥٥.

٦- وثمة كتاب **«مرج الزهور فى وقائع الدهور»**: وهو تاريخ شعبى للأنبياء والرسل. وقد لا يكون من تأليفه.

عاشرا: ابن أبى السرور البكرى

محمد بن محمد بن أبى السرور شمس الدين البكرى سليل الأسرة البكرية : ولد سنة ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م بالقاهرة وتوفى بها سنة ١٠٦٠هـ./١٦٥٠م. وقد كان آخر أضواء المدرسة المصرية المملوكية وإن عاش فى العصر العثمانى وأرخ له. ويبدو أنه درس فى القاهرة، وكان على صلة بأولياء الحكم العثمانى وبالولاة منهم مما سمح له أن يكتب فى تاريخ الفتح العثمانى لمصر، وفى سير الولاة والقضاة.

* * *

ذكر حدود أرض مصر وجهاتها وأقطارها على سبيل الاختصار

اعلم أن التحديد هو صفة المحدود وهو نهاية الشىء. قال أبو الصلت أمية الأندلسى: إن حد مصر فى الطول من مدينة برقة التى فى جنوب البحر الرومى إلى أيلة من ساحل الخليج، الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين، ومسافة ذلك قريب من أربعين يومًا، وحدها فى العرض من مدينة أسوان وأعمالها من الصعيد الأعلى المزاحم لأرض النوبة إلى الرشيد وما حاذاها من مسافة النيل فى البحر الرومى، ومسافة ذلك من ثلاثين يومًا ويكتنفها فى العرض إلى منتهاها جبلان أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل وهو من المقطمة والآخر من الضفة الغربية وضيعهما من لدن أسوان أن ينتهيا إلى الفسطاط، إلى حين ويمر بسبع مسافة ما بينهما، وينفرج قليلاً تأخذ المقطمة منها شرقًا والآخر مغربًا، ثم يتسع فى أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرما وتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية، ومن هنا ينقطع فى عرضها الذى هو مسافة ما بين أولها فى الجنوب وأوغلها فى الشمال.

* * *

ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعداد أسماءها

ويقال كان اسمها فى الدهر الأول قبل الطوفان «جزله»، ثم سميت «مصر»، وقد اختلف أهل العلم عن المعنى الذى من أجله سميت هذه الأرض بمصر. فقال: قوم سميت بمصر بن مركابيل بن دوابيل بن عريان بن آدم عليه السلام، وهو مصر الأول، وقيل: بل سميت بمصر الثانى وهو مصرام بن نقراوش الجبار بن مصريم بن تيصر بن حام بن نوح عليه السلام وذلك بعد الطوفان وهو اسم أعجمى لا ينصرف.

وقال آخرون: هو اسم عربى مشتق فأما من ذهب إلى أن مصر اسم أعجمى فإنه استدل إلى ما رواه أهل العلم بالأخبار من نزول مصريم بن بنيصر بهذه الأرض، وقسمها بين أولاده فعرفت به.

وذكر أبو الحسن المسعودى فى كتاب أخبار الزمان: أن بنى نوح عليه السلام لما تحاسدوا وبغى بعضهم على بعض، ركب نقراوش فى نيف وسبعين من كبار قومه جبابرة، وكلهم يطلبون موضعًا من الأرض يقطنون فيه، فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل، فلما طالوا فى المشى رأوا سعة البلد وحسنها أعجبهم، قالوا: هذا بلد زرع وعمارة أقاموا فيه واستوطنوه وبنوا فيه الأبنية المحكمة والمصانع العجيبة، وبنى نقراوش مصر، ونزل بها فلم يزل مطلعا.

وقد كان وقع إليه من العلوم التى كان رواميل قد علمها لآدم عليه السلام، فلم يزل يقهر الجبابرة الذين كانوا قبله وملوكهم، ثم أمر أن تبنى له مدينة مكان خيمته، فقطعوا

الصخور من الجبال وآثار معادن الرصاص، وبنوا وزرعوا الأرض، ثـم أمـر ببنـاء المدائـن والقرى وأسكن كل ناحية من الأرض أقاربه وأصحابه، ثم أمر بحفر النيل حتى أخرجـوا ماء إليهم و لم يكن قبل ذلك معتدل بجريانه، وإنما كان ينبطح ويتفـرق فـى الأرض حتـى وجه إلى النوبة، وهندسوه وساقوا منه أنهارًا إلى مواضع كثيرة من المدن.

وقيل أن قليمون الكاهن خرج من مصـر وألحق بنـوح عليـه السـلام، وأمـن بـه هـو وأهله وولده وتلاميذه، وركب معه فى السفينة وزوج ابنته بنيصر بن حام بن نوح عليـه السلام، فلما خرج نوح من السفينة وقسم الأرض بين أولاده وكـانت ابنـة قليمـون قـد ولدت لبنيصر ابنا سماه مصرايم، فقال قليمون لنوح: ابعث معى يـا نبـى الله ولـد ابنتـى حتى أمضى به بلدى «يعنى مصر»، وأظهره على كنـوزه وأوقفـه علـى علومـه ورمـوزه، فأرسله نوح عليه السلام مع جماعته من أهل بيته، فلما قرب مـن مصـر بنـى لـه عريشًـا من أغصان الشجر وستره بحشيش الأرض، ثم بنى له بعد ذلك فـى هـذا الموضـع مدينـة سماها درسان أى الجنة، وزرع وغـرس فيهـا الأشـجار فصـارت هنـاك زروع وعمـارة، وكان الذى مع مصرايم جبابرة فقطعوا الصخـور وبنـوا المعـالم والمصـانع وأقـاموا أرغـد عيش، ويقال أنه لما غرست الأشجار بمصر فكانت ثمارها عظيمـة بحيـث تشـق الأترجـة نصفين البعير نصفها، وكان القثاء فى طول أربعة عشر شبرًا.

وقيل أن مصرايم أول من صنع السفن بالنيل، وأن سفينته كانت طولها ثلاثمائـة ذراع فى عرض مائة ذراع، ويقال أن مصرايم نكح امرأة من بنات الكهنـة فولـدت لـه ولـدًا، يقال له قبطيم، ونكح قبطيم بعد سبعين سـنة مـن عمـره امـرأة فولـدت لـه أربعـة نفـر: قبطيم وأشمون وأتريب وصا، فكثروا وعمروا الأرض وبورك فيها، وقيل إنـه كـان عـدد من وصل معهم ثلاثين رجلا، فبنوا مدينة سموها ناقة، ومعنـى ناقة يعنى مدينـة ثلاثـون بلغتهم وهى منف، وكشف أصحاب قليمون الكاهن عن كنـوز مصـر وعلومهـا وآثـار المعادن وعمل الطلسمات وعمل الكيمياء، ثم أن مصرايم أمرهم عند موته أن يحفروا لـه فى الأرض سربًا، وأن يفرشوه بالمرمر الأبيض، ويجعلوا فيه جسده ويدفنوا معه جميـع مـا فى خزائنه من الذهب والجوهر، وكتبوا عليه أسمـاء الله المانعـة تمنـع مـن أخـذه فحفـروا سربًا طوله مائة وخمسون ذراعًا، وجعلوا فى وسـطه مجلسًـا مصحفـا بصفـائح الذهـب، وجعلوا لـه أربعـة أبـواب علـى كـل بـاب منهمـا تمثـال مـن ذهـب، عليـه تـاج مرصـع بالجواهر، وهو يجلس على كرسى من ذهب قوائمه من زبرجد، وكتبوا فـى صـدر كـل تمثال آيات مانعة وجعلوا جسده فى جرن مرمر مصفحة بالذهب، وكتبـوا علـى مجلسـه مات مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام بعد سبعمائة عام مضـت مـن أيـام الطوفـان، ومات و لم يعبد الأصنام و لم يصل إلى هذا المكان أحدًا إلا من يكون ولدته سـبعة ملـوك تدين بدين الملك الديان وذلك آخر الزمان، وجعلوا معه فى ذلك المجلس ألف قطعة مـن

الزبرجد المخروط وألف تمثال من الجوهر النفيس وألف برينة مملوءة من الدر الفاخر والصنعة الإلهية، ومن العقاقير والطلمسات العجيبة وسبائك الذهب وسقفوا ذلك الصخور وهالوا فوقها الرمال وذلك عند دير أبى هرمس غربى الأهرام، وهو أول قبر بأرض مصر، وولى ابنه قبطيم الملك.

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فى كتاب «فتوح مصر وأخبارها» عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه أنه كان لنوح عليه السلام ثلاثة من الولد وهم: سام وحام ويافث وأن نوحًا رغب إلى الله تعالى وسأله أن يرزقه الإجابة فى ولده وذريته حين تكاملوا بالنماء والبركة فوعده بذلك، فنادى نوح ولده فلم يجبه أحد منهم إلا ولده سام فانطلق به معه حتى أتى الجبل فوضع نوح عليه السلام يمينه على سام وشماله على أرفخشد بن سام وسأل الله تعالى أن تبارك فى سام أفضل البركة وأن يجعل الملك والنبوة فى ولده أرفخشد، ثم نادى حامًا وتلفت يمينا وشمالاً فلم يجبه ولم يقيم إليه هو ولا أحد من ولده فدعا الله تعالى أن يجعل أولاده أذلاء، وأن يجعلهم عبيد لولد سام، وكان مصر بن بنيصر بن حام نائمًا إلى جنب جده، فلما سمع دعاء نوح عليه السلام قام يسعى إليه.

وقال: يا جدى قد أجبتك إذ لم يجبك جدى، ولا أحد من ولده فاجعل لى دعوة من دعائك ففرح نوح بذلك ووضع يده على رأسه، وقال: اللهم أنه قد أجاب دعوتى فبارك فيه وفى ذريته وأسكنه الأرض المباركة التى هى أم البلاد وغوث العباد التى نهرها أفضل الأنهار فيها أفضل البركات وسخر له ولولده الأرض وذللها وقوهم عليها. ثم دعا ولده يافث فلم يجبه ولا أحد من ولده فدعا الله عليهم أن يجعلهم شرار الخلق، وعاش سام مباركًا حتى مات، وكان الملك والنبوة والبركة فى ولده أرفخشد ابن سام، وكان أكبر ولده.

* * *

ذكر النيل وانبعاثه

أعلم أن البحر المحيط بالمعمور إذا خرج منه بحر الهند، افترق قطعا كما تقدم، وكان منه قطعة تسمى بحر الزنج وهى مما يلى بلاد اليمن وبحر بربر.

وفى هذه القطعة عدة جزائر منها جزيرة القمر بضم القاف وإسكان الميم ثم راء مهملة يقال لهذه الجزيرة أيضا جزيرة ملاى وطولها أربعة أشهر فى عرض عشرين يوما إلى أقل من ذلك. وهذه الجزيرة تحاذى جزيرة سرنديب وفيها عدة بلاد كثيرة منها قمرية، وإليها نسب الطائر القمرى، ويقال أن بهذه الجزيرة خشب منحوت من خشب طول ساقه ستون ذراعا بحذف على ظهر مائة وستون رجلاً، وأن هذه الجزيرة ضاقت

بأهلها فبنوا على الساحل محلات يسكنونها فى سطح جبل يعرف بهم ويقال جبل القمر.

واعلم أن ذلك الجبال متسعة من الجبل بغالب معمور الأرض وهو المسمى بجبل قاف وهو أم الجبال كلها متشعبة منه فتتصل فى موضع وتنقطع فى آخر، وهو كالدائرة لا يعرف لها أول إذا كانت الحلقة مستديرة لا يعرف طرفاها، وإن لم تكن استدارته كرية، ولكنها استدارة إحاطة.

وزعم قوم أن أمهات الجبال جبلان: خرج أحدهما من البحر المحيط بالغرب وأخذ جنوبا، وخرج الآخر من البحر الرومى وأخذ شمالا حتى تلاقيا عند السد، وسموا الجنوبى قاف، فيعرف بذلك فى الجنوب ويعرف فى الشمال بجبل قاقونا. ومبدأ هذا الجبل المحيط من كتف السد أخذا من وراء صنم الخط المسجوج إليه إلى شعبته الخارجة منه المعمول بها باب الصين أخذ على غربى صين الصين ثم ينعطف على جنوبه مستقيما فى نهاية المشرق على جانب البحر المحيط مع الفرجة المنفرجة بينه وبين البحر الهندى الداخلة، ثم ينقطع عند مخرج البحر الهندى المحيط مع خط الاستواء حيث الطول مائة وسبعون درجة ثم يتصل مع شعبة البحر الهندى الملاقى لشعبة المحيط الخارجة على بحر الظلمات من المشرق بجنوب كثيرة من وراء مخرج البحر الهندى فى الجنوب، ويبقى الظلمات بين هاتين الشعبتين شعبة المحيط الجائية على جنوب الظلمات شرقا ويخرج البحر الهندى الجائية على الظلمات حتى تتلاقا الشعبتان عند مخرج هذا الجبل كتفصيل السراويل ثم ينفرج برأس البحرين المتلاقيان [illegible]ان على مبدأ هذا الجبل، ويبقى هذا الجبل بينهما كأنه خارج من نفس الماء.

ومبدأ هذا الجبل هنا وراء قبة عن شرقها وبعده منها خمس عشر درجة يقال لهذا الجبل فى أوله المجرد ثم يمتد حتى ينتهى فى القسم الغربى إلى طول خمس وستون درجة من أول المغرب، وهناك يتشعب من الجبل المذكور جبل القمر، وينصب منه النيل وبه أحجار براقة كالفضة تتلألأ تسمى ضحكة الباهت، كل من نظرها ضحك والتصق بها حتى يموت، ويسمى حجر مغناطيس الناس ويتشعب منه شعب يسمى أسيفى، أهله كالوحوش ثم ينفرج منه فرجة ويمر منه شعب إلى نهاية المغرب فى البحر المحيط يسمى جبل وحشية به سباع لها قرون طوال الأنفاق وينعطف دون ذلك تلك الفرجة من جبل قاف شعب منها شعبتان إلى خط الاستواء يلتقيان بمجرى النيل من المشرق والمغرب، فالشرقى يعرف بجبل قاقول، وينقطع عند خط الاستواء والغرب يعرف بادمرية يجرى عليه نيل السودان المسمى ببحر الدمادم وينقطع بتلقاء مجالات الحبشة ما بين مدينتى سمغرة وحيمى وراء هذه الشعبة، ويمتد شعبة منه هى الأم من الموضع المعروف فيه الجبل بأسيفى المذكور إلى خط الاستواء حيث الطول هناك عشرون درجة ويعرف هناك كرسقانة وبه وحوش ضاربة.

ثم ينتهى إلى المحيط وينقطع دونه بفرجة وذلك وراء التكرور عند مدينة قلمتبورا ووراء هذا الجبل سودان ناس يقال لهم تمتم يأكلون الناس يتصل الأم من ساحل البحر الشامى فى شماله شرقى رومية كبرى مسامتا للشعبة المسماة أدمدمة المنقطعة بين سمغرة وجيمى لا يكاد يخطها حيث الطول خمس وثلاثون درجة عند أخذها ما بين سردانية وبلنسية وتتناهى وصلة هذه الأم إلى البحر والمحيط على نهاية الشمال قبالة جزيرة بركانية وتبقى منه بقية داخل الجبل ثم تمتد هذه الأم بعد انقطاع لطيف وينعطف مع انعطاف خرجه البحر المحيط فى الغرب بشماله على الصقلب المسماة ببحر الأنفلشين ممتدًا إلى غاية المشرق ويسمى هناك فاقونا ويبقى وراء البحور الجامدة لشدة البرد، ثم ينعطف من الشمال المشرق جنوبا بتغريب إلى كتف السد الشمالى، فيتلاقى هناك الطوفان وبينهما فى الفرجة المنفرجة سوى ذو القرنين بين الصدفين.

وفى جزيرة القمر ثلاثة أنهار أحدهما فى شرقيها أخذ من قنطورا ومعلا، ويأتيها من غربيها، وينصب من جبل فيه قدم آدم عليه السلام. وفى مدينة سبأ ويأخذ مارًا على مدينة فردًا تجرى هناك بحيرة وفى جنوبها مدينة كيما حيث محل السودان الذين يأكلون الناس ويأتيها فى غربيها أيضا، ويخرج من الجبل المسمى محذوفة الذيل يطوف بمدينة دهما بينه وبين البحر الهندى فى جزيرة بينهما يكون هو محيطا بها شرقا وغربا وجنوبا ويصير لذلك الجزيرة ويتصل شمالها بالبحر الهندى، وينتفع مدينة قوارة فى غربيه حيث يصب فى البحر الهندى.

ومن جبل القمر يخرج نهر النيل وقد كان يتبدد على وجه الأرض، فلما قدم نقراوش الجبار بن مصريم الأول بن مركابيل بن دوابيل بن غرباب بن آدم عليه السلام إلى أرض مصر ومعه عدة بنى غرباب واستوطنوا بها، وبنوا بها مدينة أمسوس وغيرها من المدائن، حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم.

ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى بل ينبطح ويتفرق فى الأرض حتى وجه إلى النوبة الملك نقراوش فهندسوه وساقوا منه أنهار إلى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنوها وساقوا منه نهرا إلى مدينة أمسوس ثم لما خربت، ثم خربت أرض مصر بالطوفان وكانت أيام البودشير بن قفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، عدل جانبى على النيل تعديلا ثانيا بعد ما أتلفه الطوفان.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فملك البودشير وتجبر وهو أول من تكهن وعمل بالسحر واحتجب عن العيون وقد كان أعمامه أشمن وأتريب وصا ملوك على أحيازهم، إلا أنه قهرهم بجبروته وقوته فكان الذكر له كما تجبر عليهم أبوه من قبله لأنه كان أكبرهم ولذلك أغضوا عنه.

فيقال أنه أرسل هرمس الكاهن المصرى إلى جبل القمرى الذى يخرج النيل من تحته حتى عمل هناك هيكل التماثيل النحاس وعدل البطيحة التى ينصب فيها ماء النيل. ويقال أنه الذى عدل جانبى النيل وقد كان يقبض وربما انقطع فى مواضع.

وهذا القصر الذى فيه التماثيل النحاس يشتمل على خمس وثمانين صورة، وجعلها هرمس جامعة لما يخرج من ماء النيل بمعاقد مدبرة وقنوات تجرى الماء فيها، وينصب إليها إذا خرج من تحت جبل القمر حتى يدخل من تحت الصورة ويخرج من حلوقها، وجعل لها قياسا معلوما بمقاطع وأذرع مقدرة وجعل ما يخرج من هذه الصورة من الماء ينصب إلى الأنهار ثم يصير منها إلى بطيحتين ويخرج منها حتى ينتهى إلى البطيحة الجامعة للماء الذى يخرج من تحت الجبل وعمل لتلك الصورة مقادير بين الماء يكون معه الصلاح بأرض مصر، وينتفع به أهلها دون الفساد وذلك الانتهاء المصلح ثمانية عشر بالذراع الذى مقداره اثنان وثلاثون إصبعا، وما فضل عن ذلك عدل يمنى تلك الصورة وشمالها إلى مسارب تخرج وتصب فى رمال وغياض لا ينتفع بها من خلف خط الاستواء، ولولا ذلك لغرق ماء النيل البلدان التى يمر بها.

قال: وكان الوليد بن دومع العمليقى قد خرج فى جيش كثيف ينتقل فى البلدان ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها، فلما صار إلى الشام نتهى إليه خبر مصر وعظم قدرها، وأن أمرها قد صار إلى النساء وباد ملوكها، فوجه غلاما له يقال عون إلى مصر وسار إليها بعده واستباح أهلها وأخذ الأموال وقتل جماعة من كهنتها ثم بدا له أن يخرج ليقف على مصب النيل ويعرف ما بناحيته من الأمم، فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه وخرج فى جيش كثيف، فلم يمر بأمة إلا أبادها ومر على أمم السودان وجاورهم ومر على أرض الذهاب فرأى قصابا نابتة من الذهب و لم يزل يسير حتى بلغ البطيحة التى ينصب النيل فيها من الأنهار التى يخرج من تحت جبل القمر، وسار حتى بلغ هيكل الشمس وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر وهو جبل عال إنما سمى بجبل القمر، لأن القمر لا يطلع إلا عليه لأنه خارج من تحت خط الاستواء ونظر إلى النيل يخرجه من تحته حتى ينتهى إلى خطرتين ثم يخرج منهما إلى نهرين حتى ينتهى إلى خطيرة أخرى، فإذا خط الأستواء مدته يمكن تجرى بناحية نهر مكران بالهند وتلك العين أيضا تخرج من تحت جبل القمر إلى ذلك الوجه، ويقال أن نهر مكران قبل النيل يزيد وينقص وفيه التماسيح والأسماك التى مثل أسماك النيل ووجد الوليد بن دومع العمليقى القصر الذى فيه التماثيل النحاس التى عملها هرمس الأول فى وقت البودشير بن قفطريم بن مصرايم، وقد ذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهار الأربعة تخرج من أصل واحد من قبله فى أرض الذهب التى من وراء البحر المظلم وهى سيحون وجيحون والفرات والنيل، وأن وتلك الأرض من أرض الجنة، وأن تلك القبة من أزبرجد، وأن الماء قبل أن يسلك

البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور وممن وصل إلى هذا المكان رجل من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ووصل إلى تلك القبة وقطع البحر المظلم وكان يقال له حايد.

وقال آخرون: هذه الأنهار تنقسم هذه الأنهار على اثنين وسبعين قسما حذاء اثنين وسبعين لسانا للأمم.

وقال آخرون هذه الأنهار من ثلوج تتكاثف ويذيبها الحر فتسيل إلى هذه الأنهار ويشقى من عليها لما يريد الله عز وجل من تدبير خلقه قالوا: ولما بلغ الوليد جبل القمر راق جبلا عظيما عاليا إلى الحلية إلى أن صعد إليه ليرى ما خلفه فأشرف على البحر الأسود الزفتى المنتن، ونظر إلى النيل يجرى عليه كالخيوط الرقاق فأتته من ذلك البحر روائح منتنة، هلك كثيرًا من أصحابه من أجلها فأسرع النزول بعد أن كان يهلك.

وذكر قوم أنهم لم يروا هناك شمسًا ولا قمرًا إلا نورًا أحر كنور الشمس عند غيابها.

وأما ما ذكروه عند حايد وقطعة البحر المظلم ماشيا عليه لا يلصق بقدميه منه شيء، وأنه سأل الله تعالى أن يريه منتهى النيل فأعطاه قوة على ذلك فيقال أنه أقام يمشى عليه ثلاثين سنة فى عمران، وعشرين سنة فى خراب، قالوا: وأقام الوليد فى غيبته أربعين سنة وعاد ودخل منف وأقام بمصر واستعبد وأهلها واستباح حرمهم وأموالهم وملكهم مائة وعشرة سنين فابغضوه وسيموه إلى أن ركب فى أيامه متصيدا فألقاه فرسه فى وهدة فقتله واستراح الناس منه.

وقال قدامة بن جعفر فى كتاب الخراج: انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الأستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار، كل خمسة منها تصب إلى بطيحة ثم يخرج من كل نهران، وتجرى الأنهار الأربعة إلى بطيحة كبيرة فى الأقليم الأول، ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل.

وقال فى كتاب «**نزهة المشتاق فى اختراق الأوفاق**» أن هذه البحيرة تسمى بحيرة كورى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولهما متوحشين يأكلون من وقع إليهم من الناس، ومن هذه البحيرة يخرج نهر غانة وبحر الحبشة، فإذا خرج النيل منها يشق بلاد كورى ولهم طائفة من السودان بين كاتم والنوبة، فإذا بلغ دنقلة بمدينة النوبة - عطف من غربيها وانحدر إلى الأقليم الثانى، فيكون على شيطه عمارة النوبة، وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى، ثم تشرق إلى الجنادل.

وقال المسعودى: رأيت فى كتاب جعرافيا: أن النيل مصورًا ظاهرا من تحت القمر ومنبعه ومبدًا ظهوره اثنى عشر عينا، فتصب تلك المياه إلى بحيرتين هنالك كالبطائح، ثم يجتمع الماء منهما جاريا فيمر برمال هنالك وجبال، ويخرق أرض السودان فيما يلى بلاد

الزنج فيتشعب منه خليخ يصب فى بحر الزنج، ويجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ فى عامر وغامر من عمران وخراب، حتى يأتى أسوان من صعيد مصر.

وقال فى كتاب هروشيش: أن نهر النيل مخرجه من ريف بحر القلزم ثم يميل إلى ناحية الغرب، فيصير فى وسطه جزيرة، وآخر ذلك يميل إلى ناحية الشمال فيسقى أرض مصر. وقيل أن مخرجه من عين فيما يجاور الجبل ثم يغيب فى الرمال، ثم يخرج غير بعيد فيصير له محبس عظيم، ثم يساير على قفار البشة، ثم يميل على اليسار إلى أرض. قال: ونهر النيل وهو الذى يسمى بأوان مخرجه خفى ولكن ظاهرا إقباله من أرض الحبشة ويصير له هناك محبس عظيم بجراه إليه مائتا ميل. وذكر مخرجه حتى ينتهى إلى البحر.

وقال: وكثيرا ما يوجد فى نهر النيل التماسيح. وإقبال النيل من بحر الحبشة ليس يختلف فيه أحد، وعدة أميال من مخرجه المعروف إلى موقعه مائة ألف وتسعون ألفا وتسعمائة وثلاثون ميلا وماء النيل يجرى على مر كل وهو عذب دفىء والنيل إذا وصل إلى الجنادل كان عند انتهاء مراكب النوبة انحدار، ومركب الصعيد أقلاعا وهناك حجارة مضرسة لمرور المراكب عليها إلا فى أوان زيادة النيل ثم يأخذ على الشمال فيكون على شرقية أسوان من الصعيد الأعلى، ويمر بين الجبلين يكتفيان أعمال مصر. أحدهما شرقى، والآخر غربى، حتى يأتى مدينة فسطاط مصر فيكون بره الشرقى، فإذا تجاوز فسطاط مصر بمسافة يوم صار فرقتين تمر حتى تصب فى بحر الروم عند دمياط وتمسى هذه الفرقة بحر الشرق، والفرقة الأخرى هى عمود النيل ومعظمه يقال لها بحر العرب تمر حتى تصب فى بحر الروم أيضا عند رشيد، وكانت مدينة كبيرة قديم الزمان.

ويقال أن مسافة النيل من منبعه إلى أن يصب فى البحر عند رشيد سبعمائة وثمانية وأربعون فرسخا، وأنه يجرى فى الخراب أربعة أشهر، وفى بلاد السودان شهرين وفى بلاد الإسلام مسافة شهر.

وذهب بعضهم إلى أن ماء النيل إنما تكون بسبب المد الذى يكون فى البحر، فإذا فاض ماؤه تراجع النيل وفاض على الأراضى، ووضع فى ذلك كتابا حاصله أن حركة البحر التى يقال لها المد والجزر - توجد فى كل يوم وليلة مرتين، وفى كل شهر مرتين، وفى كل سنة مرتين كالمد والجزر اليومى تاع لقرص القمر، ويخرج الشعاع عنه من جنبتى جرم الماء... فإذا كان القمر وسط السماء كان البحر فى غاية المد وإذا كان القمر فى وتد الأرض، فإذا بزع القمر طالعا من الشرق أو الغرب كان الجزر والمد الشهر يكون عند استقبال القمر للشمس فى نصف الشهر، ويقال له الامتلاء أيضا عند الاجتماع، ويقال له السرار.

والجزر يكون أيضا فى وقتين: عند تربيع القمر للشمس فى سابع الشهر، وفى ثامن عشريه. والمد السنوى يكون أيضا فى وقتين أحدهما عند حلول الشمس بآخر برج السنبلة والأخرى عند حلول الشمس بآخر برج الحوت.

فإن اتفق أن يكون ذلك فى وقت امتلاء أو الاجتماع فإنه حينئذ يجمع الامتلاء الشهرى والسنوى، ويكون عند ذلك البحر فى غاية الفيض، لاسيما أن وقع الاجتماع والامتلاء فى وسط السماء، ووقع مع النيرين أو مع أحدهما أحد الكواكب السيارة فإنه يعظم الفيض.

فإن وقع كوكبان فصاعدًا مع أحد النيرين تزايد عظم الفيض، وكانت زيادة النيل تلك السنة عظيمة جدًا، وزاد أيضا نهر مهران لا يبلغان غاية زيادتهما لعدم الأنوار التى تثير المياه، ويكون بمصر تلك السنة الغلاء والجزر السنوى يكون حلول الشمس برأسى الجدى والسرطان.

فأما المد اليومى الدافع من البحر المحيط فإنه لا ينتهى فى البحر الخارج من المحيط أكثر من درجة واحدة فلكية، ومساحتها من الأرض نحو من ستين ميلا، ثم ينصرف وانصرافه هو الجزر. وكذلك فى الأودية إذا كانت الأرض.

وهذا المد الشهرى ينتهى إلى أقاصى البحار وهو يمسكها حتى لا تنصب فى البحر المحيط، وحيث المد الشهرى فهناك منتهى ذلك البحر وطرفه.

وأما المد السنوى فإنه يزيد فى البحار الخارجة عند البحر والمحيط زيادة بينة، وعن هذه الزيادة تكون زيادة النيل وامتلاؤه وامتلاء نهر النيل مهران والديتلو الذى ببلاد السند.

قال: ولما جاء أرسطو إلى مصر مع الإسكندر ورأى مصب النيل، وعلم أنه من المحال أن يكون النيل فى أسوان واديا من الأودية، وما انتحل اتسع حتى أن عرضه فى أسفل ديار مصر لينتهى إلى مائة ميل عند غاية الفيض، وله أفواه كثيرة شارعة فى البحر تسع كل ما يهبط من الميزان فى ذلك الصقع. فرأى محالاً أن يكون الوادى بحيث يضيق أسفله عن حمل ما يأتى به أعلاه مع ضيق أعلاه وسعة أسفله.

فلما رأى ذلك قال: أن ريا ما تستقبل جرية الماء وتردعه فيفيض لذلك قال الإسكندر الأفردوسى: أن المحال أن يكون الريح يردع الماء السائل فى الوادى حتى يفيض أكثر من مائه ميل، ولو كانت الريح تفعل ذلك لكان الماء ينفلت من أسفل الوادى، ويسيل إلى البحر لأن الريح لا تمسك إلا أعلاه ولكن الرياح تقذف الرمل فى أفواه تلك الشوارع التى تقضى إلى البحر، فيعتريها شبه الردم، فيفيض.

قال: وأغفل أن الرمل متخلخل، فالماء يتخلله وينفده سائلا إلى البحر مع أن الرمل لم يعتل اعتلاء يظهر للحسن، والماء فى كل حين سائل على حلق تنيس ودمياط، وحلق رشيد وحلق إسكندرية، ففطنوا لاستحالة كونه سائلا عن سيل حامل ونسبوا توقفه إلى الريح والرمل وهما استقص الهواء واستقص الأرض وأغفلوا الاستقصاء الثالث الذى هو الماء لأنهم لم يعرفوا حركة البحر السنوية لأنها لا تبلغ الغاية إلا فى ثلاثة أشهر، فلا يظهر مقدار صعودها فى يوم للحس وكذلك وضع المقياس بديار مصر.

قال: والمد واحد، وهو أن القمر يقابل الماء، كما تقابل الشمس والأرض فنور القمر إذا قابل كرة الأرض سخنتها كما تسخن الشمس الهواء المحيط بالأرض فيعترى الهواد المحيط بالماء بعض تسخين يذيب الماء، ويتنفس وينمى بخاصته كالمرأة والمحرقة الملهبة للجو حتى تحرق القطنة الموضوعة بين المرأة والشمس الملهوبة، ما تلقى الشعاع إلى حلقها فتحترق القطنة أيضا، فالقمر جسم باكتسابه ذلك من الشمس فإذا حال بين الشمس والأرض فيسخن ما قابله فينمى الماء جسم شفاف تخرج عن جانبيه الشعاع كما يخرج عن جانبى الزجاجة فيحدث لها نور يسخن الهواء الذى يحيط بالزجاجة أو الأرض فيعترى الماء شبه تسخين ينمى به ويزيد وذلك قبالة القرص وقبالة مخرج الشعالة من قبالة وتد القمر فهذا هو المد دائما ويستدير باستدارة الفلك، وتدويره لفلك القمر وتدوير فلك القمر للقمر.

والمد الشهرى هو أن يقابل القمر الشمس أو يستتر تحتها، ليس إلا كون القمر قبالة الشمس لكونه فى تربيع الشمس أضعف، وفى المقابلة أقوى وكذلك إذا قابلها على وسط كرة الأرض، بحيث الحركة أشد والاكتناف للماء والأرض أعم فذلك هو المد السنوى.

* * *

فصل: فى الرد على من اعتقد أن النيل من سيل يفيض

أما العامة فليس عندهم ما يجىء عليه وجه الأرض إلا سيل. ومن تفطن إلى عظمه واتساعه فى أسفله وضيفة فى أعلاه، ولم ينظر إلى ماء ولا أرض ولا هواء، وينسب ذلك إلى الخيال المحض، كما فعل صاحب الكتاب «المسالك والممالك» الذى زعم أن الماء يسافر من كل أرض وموطن إلى النيل تحت الأرض فيمده لأن النيل إنما يفيض فى الخريف، والعيون والأبار فى ذلك الوقت يقل ماؤها، والنيل يكثر فرأوا كثرة وقلة فأضافوا أحدهما إلى الآخر بالخيال.

وقال آخر: إنما ذلك ملك يضع رجليه فى الماء فيكثر ويزيلها عن الماء فيقل ومما يدلك أنه ليس على سبيل الخيل أن السيل يكون فى غير وقت فيض البحر فلا يفيض

النيل لكون البحر فى الجزر فيصل السيل نحو البحر فلا يردعه راوع، ومنها أن فيض النيل على تدرج مدة ثلاثة أشهر من حلول الشمس برأس السرطان إلى حلولها آخر برج السنبلة والناس يحسنون به قبل فيضه بمدة شهرين، ولعامل مصر وسط النيل مقياس موضوع، وهو سارية فيها خطوط يسمونها أذرعا بعا مقدار صعوده فى كل يوم.

ومنها أن فيضه أبدا فى وقت واحد فلو كان بالسيل لاختلف بعض الإختلاف. ومنها أنه قد يجىء السيل فى غير هذا الوقت فلا يفيض. ومنها أن الحذاق بمصر إذا رأوا الحر يزيد علموا أن النيل سيزيد، لأن شدة الحر تذيب الهواء فيذوب الماء ولا يكون إلا عن زيادة كوكب ودنو نور.

ومنها أن موضع مصبه من أسوان إنما هو واد من الأودية وما استحل اتسع حتى يكون عرض اتساعه نحوا من مائة ميل، وأسوان إنما هى منتهى بلوغ الردع فما ظنك بسيل يسيل عرض اتساعه مسيرة نصف شهر لا نسبة بين مصب أعلاه وأسفله كيف كان يكون أعلاه أو كان امتلاء أسفله عن السيل.

ومنها أن أهل أسوان إنما يرقبون بلوغ الردع إليهم مراقبة ويحافظون عليه بالنهار محافظة فإذا جن الليل أخذوا حقه سحاقة خزف، فوضعوا فيها مصباحا ثم وضعوه على حجر معد عندهم لذلك، وجعلوا يرقبونه فإذا أطغى المصباح طفو الماء عليه، علموا أن الزدع قد وصل غاية المعهود عندهم بأخذه فى الجزر، فكتبوا بذلك إلى أمير مصر يعملون أن الدرع قد وصلت غاية المعهود عندهم وأنهم قد أخذوا بقسطهم من الشرب فحينئذ يأمر بكسر الأسداد التى على أفواه قرص المشارب فيفيض الماء على أرض مصر دفعة واحدة.

ومنها أن جميع تلك المشارب تسد عند ابتداء صعود النيل بالخشب والتراب ليجتمع ما يسيل من المياه العذبة فى النيل ويكثر فيهم بجميع أرضهم ويمنع بجملة دخول الماء الملح عليه فلو كان سيلا ما احتاج إلى ذلك ولفتحت له أفواه قرص المشارب عند ابتداء ظهوره.

ومنها أن الخلجان إذا سدت و لم يكن لها وادع فى البحر، كان السيل يمد من جنبه إلى البحر إذا أسفل النيل وانتفع وأخفض من أعلاه.

ومنها أن ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلا فى خلف رشيد وتنيس ودمياط كما يفعل فى سائر الأودية التى تدخلها المد والجزر فلو كان النيل خاليا من الماء العذب وصل البحر من أسوان إلى منتهى بلوغ الردع، لأن الماء يطلب بطبعه ما انخفض من الأرض وأن يكون صفحته كرة مستوية الخطوط الخارجة من النقطة إلى المحيط خطوطا متساوية. ومنها أنها إذا افتحت تلك الأسداد وكسرت الخلجان وفاض ماء

النيل على أرض مصر شعر بذلك أهل أسوان.

وقالوا: فى هذه الساعة كسر الخليج بمصر وفاض ماء النيل على أرض مصر لأن ذلك يتبين لهم بجزر الماء دفعة فلو كان سبيلا وهم على أعلا المصب، لقالوا: قد ارتفع المطر على الأرض التى يسيل منها السيل ومنها أن القسمة الذى يمر ببلاد الحبشة المنبعث وإياه من جبل القمر لا يفيض كمدة فيض النيل ثلاثة أشهر ولا يقيم على وجه الأرض مدة مقامه لكنه إذا كثر فيه السيل غمر جوانبه على قدر انبساطها فإذا قضيت مدته أردع عليه فلو كان فيض النيل على السيل وهما من شعب واحد لكان شأنهما واحدًا.

ولا نقول ِأن سبب فيض النيل البحر فقط إذ لولا كونه سيل ماء لما دخل ردع البحر إليه ولكان شاطئ ديار مصر كسائر السواحل المجاورة ولولا السيل السائل فيه لردمه البحر إذ عادة البحر ردم السواحل، وإنما دخل الشك على أهل مصر فى أمر النيل لأنهم لم يشاهدوا منشأه، ولا عاينوا مبدأه من جبل القمر فى موضع لا ساكن ولم يتحققوا المد السنوى الرادع فلم يتحققوا شىء من أمره لأنه بعيد من أذهان العامة أن يعلموا أن ماء البحر يعظم فى أيام الصيف لأن المعهود عندهم فى البحر أن يعظم فى أيام الشتاء وطموا البحر فى الشتاء إنما يكون عن الرياح الهابة عليه من أحد جانبيه، فقبض ويخرج إلى الجانب الآخر إلا ما كان من البحر المحيط فإنه يتحرك أبدا من دواخل البحر إلى البر، وهو أن المحيط يطلب بطبعه أن يكون على وجه الأرض ليست بسيطة فهى تمانعه بما فيها من التركيب فهو يطلب أبدا أن يعلوها ويركبها ببردها.

ومن ناظر النيل علم أن سيلاً سأل فيه ولابد، فإنه لا يزال أيام الشتاء وأوائل الربيع ماؤه صافيا من الكدرة، فإذا قربت أيام زيادته وكان فى غاية نقصه تغير طعمه ومال لونه إلى الخضرة، وصار بحيث إذا وضع فى إناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب. وسبب ذلك أن البطيحة التى فى أعالى الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش حتى يتغير ماؤها، فإذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف وعظمت السيول الهابطة فى هذه البطيحة فاض منها ما تغير من الماء، وجرى إلى أرض مصر، فيقال عند ذلك وتوحم النيل.

ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير ويزداد عكره بزيادة الماء، فإذا فإذا وضع فيه أيام الزيادة فى إناء رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة، وهذا الطين هو الذى تحمله السيول التى تنصب فى النيل حتى تكون زيادته منها. وفيه يكون الزرع بعد هبوط وإلا فأرض مصر سبخة لا تنبت منها إلا ما مر عليه. قال: والسبب فى عظم المد والجزر كثرة الأشعة فإذا زاحمت الشمس والقمر والكواكب السيارة عظيم

فيض البحر، وإذا عظم فيض البحر فاضت الأنهار، وكذلك إذا نهض القمر لمقابلة أحد السيارة ارتفع البخار وصعد إلى كورة الزمهرير، ونزل لمطر. فإذا فارق القمر والكواكب ارتفع القمر لكثرة التحليل، كما يكون فى نصف النهار عند توسط الشمس لرؤوس الخلق، وكما يكون عند حلول الكواكب الكثيرة على وسط خط أرين... وا لله أعلم..

قال بعضهم: الذى تحصل من هذا القول أن النيل مخرجه من جبل القمر، وأن زيادته إنما هى من فيض البحر عند المد.

فأما كون مخرجه من جبل القمر فمسلم إذ لا نزاع فى ذلك. وأما كون زيادته لا تكون إلا من ردع البحر له، بما حصل فيه من المد، فليس كذلك. نعم توالى هبوب الرياح الشمالية مغنية على وفور الزيادة وردع البحر له إعانة على الزيادة ماء النيل وركد منه هذا الطين.

وقوله «أن السيل يكون فى غير وقت فيض البحر، ولا يفيض النيل لكونه البحر فى الجزر، فيصل السيل ويمر نحو البحر فلا يردعه رادع» غير مسلم فإن العادة أن السيول التى عليها زيادة ماء النيل لا يكون إلا عن غزارة ماء الأمطار ببلاد الجنوب، لا يكون إلا فى أيام الصيف، ولم يعهد قط زيادة النيل فى الشتاء.

وأول دليل على أن كون زيادته عن سيل يسيل فيه إنما يزيد بتدرج على قدر ما يهبط فيه من السيول. وأما استدلاله يصب النيل فى أسوان وأتساعه أسفل الأرض، فإنما ذلك يصب من علوى فتخرج بين جبلين يقال لهما الجنادل وينبطح فى أراضى حتى يصب فى البحر... فاتساعه حيث لا يجد حاجزا يحجزه عن الانبساط.

وأما قوله: «أن الأسداد إذا كثرت فاض الماء على الأرض دفعة» فليس كذلك، بل يصير الماء عند كل سد من الأسداد فى كل خليج، ثم يفتح ترع من الخليج إلى الخليج إلى ماجانبيه من الأراضى حتى تروى، فمن تلك الأرض ما يروى سريعا، ومنها ما يروى بعد أيام. ومنها ما يروى لعلوه.

وأما قوله «أن جميع تلك المشارب تسند عند ابتداء صعود النيل، ليجتمع ما يسيل من الماء فى النيل ويكثر، فيعم جميع أرضهم وليمنع بجملته دخول الماء عليه». فغير مسلم أن تكون السداد كما ذكرنا بل أراضى مصر أقسام كثيرة، منها عال لا يصل الماء إلا من زيادة كثيرة، ومنها منخفض يروى من يسير الزيادة، والأراضى متفاوتة فى الارتفاع والانخفاض تفاوتا كثيرا، ولذلك احتيج فى بلاد الصعيد إلى حفر الترع، وفى أسفل الأرض إلى عمل الجسور حتى تحبس الماء ليتصرف فيه أهل النواحى على قدر حاجتهم إليه عند الاحتياج وإلا فهو يزيد أولا فى غير وقت سقى الأراضى، حتى إذا

اجتمع من زيادته المقدار الذى هو كفاية الأراضى فى وقت خلو الأرض من الغلال - وذلك غالبا فى أثناء شهر مسرى فيفتح حينئذ الخليج حتى يجرى فيه الماء إلى حد معلوم، ووقف حتى يروى ما تحت ذلك الحد الذى وقف عنده الماء من الأراضى، ثم فتح ذلك الحد فى يوم النيروز حتى يجرى الماء إلى آخر يقف عنده حتى يروى ما تحت هذا الحد الثانى من الأراضى، ثم يفتح هذا الحد فى يوم عيد الصليب بعد النيروز بسبعة عشر يوما حتى يجرى الماء، ويقف على حد ثالث حتى يروى ما تحت هذا الحد من الأراضى، ويصيب فى بحر المالح ... هذا هو الحال فى سدود وأراضى مصر.

وقول «أن ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلا فى رشيد وتنيس ودمياط، فلو كان خاليا من الماء العذب لوصل البحر من أسوان إلى منتهى بلوغ الردع» فيقول: هذا قول من لم يعرف أرض مصر، فإن النيل عندهم مصبه بأعمال أسوان يكون أعلا منه عند كونه أسفل الأرض بقامات عديدة فإذا فاض ماء البحر حبسه أن يتدافع هو وماء النيل فيما بين دمياط وفارسكور. وأما فى أيام زيادة النيل فإنه شوهد مصب النيل فى البحر من دمياط، وكل منهما يدافع الآخر فلا يطيقه، حتى صارا متمانعين وفى منظرهما حينئذ عبره لمن اعتبر.

وقوله «أن الأسداد إذا فتحت علم أهل أسوان بذلك فى الحال» غير مسلم بل لم نزل نشاهد النيل فى الأعوام الكثيرة إذا فتح منه الخليج أو انقطع مقطع فأغرق ماؤه أراضى كثيرة، لا يظهر النقص منه إلا فيما قرب من ذلك الموضع، وأما ما برح المفرد يخرج من قوص ببشارة وفاء النيل، وقد أوفى عندهم ستة عشر ذراعا، فلا يوفى ذلك بمقياس بمصر إلا بعد ثلاثة أيام أو بعدها.

وأما قوله «أن ما كان من النيل يمر ببلاد الحبشة يخالفه» فليس كذلك، بل الزيادة فى أيام زيادته تكون ببلاد النوبة وما وراءها فى الجنوب كما تكون فى أرض مصر، ولا فرق بينهما إلا فى شيئين: أحدهما أنه فى أرض مصر يجرى فى حدود وهناك يتبدد على الأرض. والثانى أن زيادة تعتبر بالقياس فى أرض مصر وهناك لا يمكن قياسه لتبدده ومن عرف أخبار مصر علم أن زيادة ماء النيل تكون عن أمطار الجنوب.

ويقال: أن النيل ينصب من عشرة أنهار من جبل القمر المتقدم ذكره، كل خمسة أنهار من شعبة، ثم تتبحر تلك الأنهار العشرة فى بحرين، كل خمس أنهار تبحر بحيرة بذاتها، ثم يخرج من البحيرة الشرقية بحر لطيف يأخذ شرقًا على جبل فاقول، ويمتد إلى مدن هناك ثم يصب فى البحر الهندى ويخرج من البحيرتين أيضا ستة أنهار من كل بحيرة ثلاثة أنهار. وتجتمع الأنهار الستة فى بحيرة متسعة تسمى البطيحة، وفيها جبل يفرق الماء نصفين يخرج أحدهما من غربى البطيحة وهو نيل السودان، ويصير نهرًا

يسمى بحر الدمادم، يأخد مغربا ما بين سمغرة وغانة على جنوبى سمغرة وشمالى غانة، ثـم ينعطف هنا منه فرقة ترجع جنوبا إلى غانة ثم تمر على مدينة برنسة، ويـأخذ تحت جبل فى جنوبها خارج خط الاستواء إلى زفيلة ثـم تتبحـر فـى بحيرة هنـاك، وتستمر الفرقـة الثانية مغربة إلى بلد مالى والتكرور حتـى تنصـب فـى البحـر المحيـط شمـالى مدينـة قلبتبـو ويخرج النصف متشاملا آخذا علـى الشمال إلى شرقى مدينـة جيمـى ثـم تتشعب منه هناك شعبة تأخذ شرقا إلى مدينة سحرته بكسر السين والحاء ثم ترجع جنوبا ثم تعطـف شرقا بجنوب إلى مدينة سحرته ثـم إلى مدينـة مركـة، وينتهـى إلى خـط الاستـواء حيث الطول خمس وستون درجة وتتبخـر هنـاك بحيرة ويستمر عمـود النيـل مـن قبالـة تلـك الشعبة شرقى مدينة شيمى متشاملا أخذًا على أطـراف بـلاد الحبشـة، ثـم يشـامل علـى بلاد السودان إلى مدينة دنقلة حتى يرمى على الجنادل إلى أسـوان، وينحـدر وهـو يشـق بلاد الصعيد إلى مدينة فسطاط مصر، ويمر حتى يصب فى البحر الشامى وقـد استقيض ببلاد السودان أن النيل فى أصله ينحدر فى جبال سوديين على بعـد كـأن عليهـا الغمـام ثم يتفرق نهرين يصب أحدهما فى البحر المحيط إلى جهة بحر الظلمـة الجنوبـى، والآخـر يصل إلى مصر حتى يصب فى البحر الشامى ويقال أنه فى الجنـوب يتفـرق سبعة أنهـار تدخل فى صحراء منقطعة ثم، تجتمع الأنهـار السبعة ويخرج مـن تلـك الصحـراء نهـرًا واحدًا فى بلاد السودان.

* * *

ذكر مقاييس النيل وزيادته

قال ابن عبد الحكيم: أول من قاس بمصر يوسف عليه السلام. وضـع مقياسـا بمنـف، ثم وضعت العجوز دلوكة ابنة زباء – وهى صاحبة حائط العجوز مقياسًـا بأنصنـا وهـو صغير الذراع «ووضع عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان وهو صغـير»، ووضـع أسـامة ابن زيد التنوخى فى خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة وهو أكبرها.

قال يحيى بن بكـير: أدركـت القيـاس يقـاس فـى مقيـاس منـف ويدخـل بزيادتـه إلى الفسطاط.

وقال القضاعى: كان أول من قاس النيـل بمصـر يوسـف عليـه السـلام وهـو مقيـاس بمنف، وهو أول مقياس وضعه عليه السـلام. وقيـل أن النيـل يقـاس بمصـر بـأرض علـوة كداء إلى أن بنى مقياس منف، وأن القبط كانت تقيس عليه إلى أن بطل.

ومن بعده دلوكة العجوز بنت مقياسـا بأنصنـا، وهـو صغـير الـذراع ومقياسـا آخـر بأخميم وهى التى بنت الحائط المحيط بمصر.

وقيل إنهم كانوا يقيسون الماء قبل أن يوضع بالمقيـاس بالرصاصـة، فلـم يـزل المقيـاس

فيما مضى قبل الفتح بقيسارية الأكسية ومعالمة هناك إلى بنى المسلمون بين الحصين والبحر أبنيتهم الباقية الآن.

وكان للروم أيضا مقياسا بالقصر خلف الباب يمنة من يدخل منه من داخل الزقاق أثره قائم إلى اليوم، وقد بنى عليه وحوله، ثم بنى عمرو بن العاص عند فتحه مصر قياسا بأسوان ثم بنى بموضع يقال له دندرة.

ثم بنى فى أيام معاوية مقياس بأنصنا، فلم يزل يقاس عليه إلا أن بنى عبد العزيز بن مروان مقياسًا بحلوان وكانت منزله، وكان هذا المقياس صغير الذراع.

فأما المقياس القديم الذى بنى فى الجزيرة فالذى وضعه أسامة بن زيد، وقيل أنه كسر فيه ألفى أوقية، وهو الذى بنى بيت المال بمصر ثم كتب أسامة بن زيد التنوخى عامل مصر لسليمان بن عبد الملك ببطلانه وكتب عليه سليمان بأن يبنى مقياسًا فى الجزيرة فبناه فى سنة وسبعة وتسعين.

ثم بنى المتوكل فيها مقياسا أول سنة سبع وأربعين ومائتين فى ولاية يزيد بن عبد ا لله التركى على مصر وهو المقياس الكبير المعروف بالجديد، وأمر بأن يعزل النصارى عن قياسه، فجعل زيد بن عبد ا لله على المقياس أبا الرداد المعلم واسمه عبد ا لله بن عبد السلام بن عبد ا لله بن أبى الرداد المؤذن كان يقول أصله من البصرة وقدم مصر وأقام بها، وجعل على القياس النيل وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ سبعة دنانير فى كل شهر، فلم يزل القياس منذ ذلك الوقت فى يد أبى الرداد وولده إلى اليوم وتوفى أبو الرداد فى سنة ست وستين ومائتين.

ثم ركب أحمد بن طولون فى سنة تسع وخمسين ومعه أبو أيوب صاحب خراجه وبكار بن قتيبة القاضى فنظر إلى المقياس وأمر بإصلاحه وقدر له ألف دينار فعمر بها وبنى الخازن فى الصناعة مقياسا وأثره باق لا يعتمد عليه.

وقال ابن عبد الحكم: ولما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو، حين دخل بؤونة من أشهر القبط، قالوا له: أيها الأمير أن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها. فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر من أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى النيل.

قال لهم عمرو: أن هذا لا يكون فى الإسلام، وأن الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى لا يجرى قليلا ولا كثيرًا حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب رضى ا لله عنه بذلك فكتب إليه عمر: ألم تعلم أن الإسلام يهدم ما قبله وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل.

فلما قدم الكتاب على عمر وفتح البطاقة فإذا فيها: «من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد: فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك».

فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ست عشر ذراعا فى ليلة، وقطع تلك السنة السوء من أهل مصر.

وقال زيد بن أبى حبيب: أن موسى عليه والصلاة والسلام دعا آل فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء، فطلبوا إلى موسى أن يدعو الله، فدعا الله رجاء أن يؤمنوا وذلك فى ليلة الصليب، فأصبحوا وقد أجرى الله فى النيل تلك الساعة ستة عشر ذراعا فاستجاب الله لعمر بن الخطاب، كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام.

قال القضاعى: ووجدت فى رسالة منسوبة إلى الحسن بن محمد بن عبد المنعم قال: لما فتحت العرب مصر عرف عمر بن الخطاب ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل، فضلا عن تقاصره وإن أفرطت الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار، وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار للقحط.

فكتب عمر إلى عمرو يسأله عن شرح الحال، فأجابه إنى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربع عشر ذراعا، والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ست عشر ذراعا، والنهايتان والمخوفتان فى الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار اثنا عشر ذراعا فى النقصان، وثمان عشر ذراعا فى القبط، وكمال العمارة فيه.

فاستشار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذلك، فأمره أن يكتب إلى عمرو أن يبنى مقياسا وأن ينقص ذارعين على اثنى عشر ذراعا، وأن يقر ما بعدها على الأصل، وأن تنقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعا إصبعين، ففعل ذلك وبناه بحلوان فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف، وزوال ما منه كان يخاف، بأن جعل الاثنى عشر ذراعا أربعة عشر لأن كل ذراع أربع وعشرون إصبعًا، فجعلها ثمانيا وعشرين من أولها إلى الاثنى عشر يكون مبلغ الزيادة على الاثنى عشر ثمانية وأربعين إصبعا، وهى الذراعان وجعل الأربع عشرة ست عشرة، والست عشرة ثمانى عشرة والثمانى عشرة عشرين.

قال القضاعى: وفى هذا الباب نظر فى وقتنا لزيادة الفساد الأنهار وانتقاض الأحوال وشاهد ذلك أن المقايس القديمة الصعيدية من أولها إلى أخرها أربع وعشرون إصبعا كل ذراع، والمقاييس الإسلامية على ما ذكر منها المقياس الذى بناه أسامة بن

يزيد التنوخى بالجزيرة وهو هدمه الماء، وبنى المأمون آخر بأسفل الأرض بالبروذات، وابن المتوكل آخر بالجزيرة وهو الذى يقاس عليه الماء الآن وقد تقدم ذره.

قال ابن عفير عن القبط المتقدمين: إذا كان الماء فى اثنى عشر يوما من مسرى اثنتى عشرة ذراعا، فهى سنة ماؤها ناقص، وإذا تم ستة عشر ذراعا قبل النوروز، فالماء يتم... فاعلم ذلك.

وقال أبو الصلت: وأما النيل وينبوعه، فهو من وراء خط الاستواء من جبل هناك يعرف بجبل القمر، فإنه يبتدئ فى التزايد فى شهر أبيب. والمصريون يقولون: إذا دخل أبيب كان للماء دبيب، وعند ابتدائه فى التزايد يتغير جميع كيفياته ويفسد، والسبب فى ذلك مروره بنفائع مياه يخالطها فيجتلبها معه إلى غير ذلك مما يحتمله.فإذا بلغ الماء خمسة عشرة ذراعا، وزاد فى السادس عشر أصابع، وكسر الخليج والكسر يوم معدود، ومقام مشهود، ويجتمع العام والخاص. فإذا كسر فتحت للترع، وهى فوهات الخلجان ففاض الماء وساح وغمر القيعان والبطاح، وانضم الناس إلى مساكنهم من الضياع والمنازل، وهى على آكام وربى لا ينتهى الماء إليها، ولا يتسلط السيل عليها فتعود أرض مصر بأسرها عند ذلك بحرًا غامرًا لما بين جبليها، ريثما يبلغ الحد المحدود فى مشيئة الله عز وجل وأكثر ذلك يحوم حول ثمانى عشرة ذراعا.

ثم يأخذ عائدا فى صبه إلى مجرى النيل ومسربه، فينصب أولا عما كان من الأرض عاليا، ويصير فيما كان منها متطامنا، فيترك كل قرارة كالدرهم، ويغادر كل ملقة كالبرد المسهم.

وقال القاضى أبو الحسن على بن محمد الماوردى فى كتاب «الأحكام السلطانية» وأما الذراع السوداء فهى أطوال من ذراع الدور بإصبع وثلثى إصبع، وأول من وضعها أمير المؤمنين هارون الرشيد، قدرها بذارع خادم أسود كان على رأسه قائما، وهى التى تتعامل الناس بها فى ذارع البز والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر.

وأكثر ما وجد فى القياس من النقصان فى سنة سبع وتسعين ومائة، وجد فى المقياس تسعة أذرع وأحد وعشرون إصبعًا، وأقل ما وجد فيه سنة خمس وستين ومائة فإنه وجد فيه ذراع وأحد عشر إصبعًا. وأكثر ما بلغ فى الزيادة فى سنة تسع وتسعين ومائة فإن بلغ ثمانية عشر ذراعا وتسعة عشر إصبعا. وأقل ما كان فى سنة ست وخمسين وثلاثمائة الهلالية فإنه بلغ اثنى عشر ذراعا وتسع عشر إصبعا، وهى أيام كافور الأخشيدى.

والمقياس عمود رخام أبيض مثمن، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا، كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين

قسما متساوية تعرف بالأصابع، ما عدا الاثنى عشر ذراعًا الأولى فإنها مفصلة على ثمان وعشرين إصبعا كل ذراع.

وقال المسعودى: قالت الهند: زيادة النيل ونقصانه بالسيول، نحن نعرف ذلك بتوالى الأنواء وكثرة الأمطار.

وقالت الروم: لم يزد قط و لم ينقص وإنما زيادته ونقصانه من عيوب كثرت فى شاطئه يراها من سافر ولحق بأعاليه.

وقيل لم يزد قط و لم ينقص وإنما زيادته بريح الشمال، إذا كثرت واتصلت تحبسه فيقبض على وجه الأرض.

وقال قوم: سبب زيادته هبوب ريح تسمى ريح الملتن، وذلك أنها تحمل السحاب الماطر من خلف خط الاستواء، فيمطر ببلاد السودان والحبشة والنوبة، فيأتى مدده إلى أرض مصر، ومع ذلك فإن البحر المالح يقف ماؤه فى وجه النيل، فيتوقف ماؤه حتى تروى البلاد وفى ذلك يقول:

فالنيل ذو فضل ولكنه ... الشكر فى ذلك للملتن
فاسمع فللسامع أعلى يدًا ... عندى وأسمى من يد المحسن

ويبتدئ النيل بالتنفس والزيادة بقية بؤونة وأبيب ومسرى فإذا كان الماء زائدًا زاد شهر توت كله إلى انقضائه. فإذا انتهت الزيادة إلى الذراع الثامن عشر ففيه تمام الخراج، وخصب الأرض وهو ضار بالبهائم لعدم الرعى والكلأ.

وأتم الزيادات كلها، العامة النفع للبلد كله، سبعة عشر ذراعا وفى ذلك كفايتها ورى جميع أراضيها، وإذا زاد على ذلك وبلغ ثمانية عشر ذراعا استبحر من أرض مصر الربع، وفى ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرنا فى الاستبحار، وإذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعا وغلقها، وإذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعا، كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء وأكثر الزيادات ثمانية عشر ذراعا.

وقد بلغ فى خلافة عمر بن عبد العزيز تسع عشرة ذراعا، ومساحة الذراع إلى يبلغ اثنى عشر إصبعا، ومن اثنى عشر ذراعا إلى ما فوق ذلك يكون يكون الذراع أربعا وعشرين أذرعٍ، وأقل ما يبقى فى قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع، فى تلك السنة يموت الماء قليلاً.

والأذرع التى يستسقى عليها بمصر هى ذراعان تسمى منكر ونكيرا، وهى الذراع الثالث عشر والذراع الرابع عشر، فإذا انصرف الماء عن هذين الذراعين وزاد نصف الذراع من الخمسة عشر استسقى الناس بمصر، وكان الضرر الشامل لكل البلدان وإذا

تم خمسة عش ذراع ودخل فى الستة عشر ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس، ولا يستقى فيه، وكان فى ذلك نقص خراج السلطان وأصفى ما يكون ماء النيل فى شهر طوبة بعد الغطاس لعشرة تمضى من طوبة، وأهل مصر يفتخرون بصفاء ماء النيل فى ذلك الوقت، وفيه يخزن الماء أهل تنيس وسائر قرى البحيرة.

وقد كانت مصر كلها تروى فى ستة عشر ذراعا، لما أحكموا من جسورها وبناء قناطرها وحفر خلجانها، وكانت الماء إذا بلغ فى زيادته تسع أذرع دخل خليجه المنهى خليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا.

وقد تغير فى زماننا هذا عامة ما تقدم ذكره لفساد حال الجسور والترع والخلجان وقنواته إنه يزيد فى القبط إذا دخلت الشمس برج السرطان وبرج الأسد وبرج السنبلة حين تنقص جميع الأنهار، وكذلك أن الأنهار تمده بمائها عند غيضها فيكون زيادته، فى خامس بؤونة وتظهر الزيادة فى ثانى عشر وأول دفعة فى الزيادة تكون فى ثانى أبيب، ومنتهى الزيادة فى الثامن من بابه، ومن هنا يأخذ فى النقصان وذلك فى العشرين من بابه فتكون مدة الزيادة من ابتدائها إلى أن ينقص ثلاثة أشهر وخمسة وعشرون يوما وهى شهر: أبيب ومسرى وتوت وعشرون يوما من بابه، ومدة مكثفة بعد زياته اثنا عشر يومًا، ثم يأخذ فى النقصان.

ومن العادة أن ينادى عليه دائما فى السابع والعشرين من بؤونة بعد ما يؤخذ قاعته وهو ما بقى من الماء القديم فى ثالث عشر بؤونة وبفتح الخليج الكبير إذا أكمل الماء ستة عشر ذراعا.

وكانوا يقولون: نعوذ با لله من إصبع من عشرين، وكان إذا بلغ النيل أصابع من عشرين ذراعا، فاض ماء النيل، وغرق الضياع والبساتين، وفارت البلاليع، والآن إذا بلغ الماء فى سنة إصبعا من عشرين لا يهم لما قد فسد من الجسور، وكان إلى بعد الخمسمائة من الهجرة قانون النيل ستة عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة، وهى فى الحقيقة ثمانية عشر ذراعا.

وكانوا يقولون: إذا زاد على ذلك ذراعا واحدًا زاد خراج مصر مائة ألف دينار ولما يروى من الأراضى العالية، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعا كانت الغاية القصوى فإن الثمانية عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة أثنا وعشرون ذراعا فى الصعيد الأعلى، فإن زاد على الثمانية عشر ذراعا واحدة، نقص من الخراج مائة ألف دينار لما يستجير من الأراضى المنخفضة.

قال ابن ميسر، فى حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة: وفيها بلغت زيادة ماء النيل تسعة عشر ذراعا وأربعين وخمسمائة. وفيها بلغت زيادة ماء النيل تسعة عشر

ذراعا وأربعة أصابع، فبلغ الماء الباب الجديد أول الشارع خارج القاهرة، وكان الناس يتوجهون إلى القاهرة فى مصر من ناحية المقابر، فلما بلغ الخليفة الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد أن الماء وصل إلى الباب الجديد، أظهر الحزن والانقطاع. فدخل عليه بعض خواصه وسأله عن السبب فأخرج لهم كتابا فإذا فيه «إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد» ثم قال: فكان الأمر كما ذكر ومرض فى آخر السنة، ومات أول سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

قال القاضى الفاصل فى متجددات سنة سبع وسبعين وخمسمائة: وفى يوم الإثنين السادس والعشرين من شهر ربيع الأول - وهو السادس عشر من مسرى - وفى النيل على ستة عشر ذراعا، وهو الوفاء، ولا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ فى زمن متقدم. وهذا أيضا مما تغير فيه قانون النيل فى زماننا، فإنه صار فى أوائل مسرى، ولقد كان الوفاء فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة فى اليوم التاسع والعشرين من أبيب قبل مسرى بيوم.

وهذا من أعجب ما يؤرخ فى زيادات النيل. واتفق أن فى الحادى عشر من جمادى الأولى سنة تسع وسبعمائة، وفى النيل كان ذلك فى اليوم التاسع عشر من بابه بعد النوروز بتسعة وأربعين.

وقال بعض المفسرين أن يوم وفاء النيل هو اليوم الذى وعد فرعون - موسى عليه السلام - بالاجتماع وذلك قول الله تعالى حاكيا عن فرعون ﴿**موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى**﴾ [سورة طه: ٥٩] وقد جرت العادة أن اجتماع العادة يكون فى هذا الوقت.

ومن أحسن السياسات فى أمر النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق فى سيرة المعز لدين الله، قال: وفى هذا الشهر يعنى شوال سنة اثنتين وستين وثلاثمائة منع المعز لدين الله من النداء بزيادة النيل، وألا يكتب بذلك إلا إليه وإلى القائد جوهر، فلما أباح النداء - يعنى لما تم ست عشرة ذارعا وكسر الخليج - فانظر وتأمل إلى حسن هذه السياسة، فإن الناس دائما إذا توقف النيل فى أيام زيادته يقلقون من ذلك ويحدثهم أنفسهم بعدم طلوع النيل فى تلك السنة، فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون من بيعها، ويجتهد كل من كان معه مال فى اختزان الغلال.

أما لطلب لربح أولاد خار قوت عياله فيحدث بذلك الغلاء فى البلد، فإن زاد المال انحل السعر، وأن توقف ونزل بالعياذ با لله وقع الغلاء والقحط فى البلد، فمن أجل ذلك كتم أمر زيادة النيل عن العامة خوفا مما ذكرنا فى اضطراب البلد وتشحط الغلات فكان فى أيامه لإلا يطلع على زياده النيل غيره، وهذا من أعظم فائدة وأجل عائد.

وقال المسبحي فى تاريخ مصر: وخرج الأمر من بعض الملوك مصر إلى ابن حيران بتحرير ما يستفتحون به القياسون فى كلامهم إذا نادوا على النيل فقال ابن حيران: أحسن ما يقولون: نعم لا تحصى من خزائن الله لا تغنى زاد الله فى النيل المبارك كذا وكذا.

وقال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى منادى البحر:

قد قلت لما أتى القياس فى يده ... عود بماء النيل قد عودى وقد نودى
أيام سلطاننا سعد السعود وقد ... صح القاس بجرى الماء فى العود

وقال المسعودى: ومن عادة نيل مصر إذا كان عند ابتداء زيادة النيل يخضر ماء النيل فتقول علمة أهل مصر قد توحم النيل، ويرون أن الشراب منه حتئنئذ مضر.

وفى ذلك يقول ابن خطيب داريا:

عجب لنيل ديار مصر لأنه ... عجب إذا فكرت فيه يعظم
يطاء الأراضى فهى تلقح دائما ... من مائة وهو الذى تتوحم

والسبب فى اخضراره أن الوحوش ترد البطيحات التى فى أعالى النيل وتستنقع فيها من كثرة عددها لشدة الحر هناك فيتغير ماء تلك البيطحات من ذلك الوحوش، ولا سيما الفيلة فإذا وقع فى الجبهة الجنوبية فى أوقات معلومة تكاثرت السيول هناك فيخرج من تلك البطيحات، ما كان فيها من الماء الذى منقطع بها وقد تغير بسبب ما ذكرناه من الوحوش فيمر إلى أرض مصر وهو مغير اللون والطعم ويجىء عقيبه الماء الجديد من كثرت السيول وهو الزيادة بمصر فحينئذ يكون محمر اللون لما يخالطه من الطين الحر الذى تاتى به السيول. فإذا تناهت زيادته غشى أرض مصر فتصير القرى التى فى الأقاليم فوق التلال والروابى قد أحاط بها الماء فلا يوصل إليها إلا فى المراكب أو على الجسور الممتدة المقدم ذكرها.

وكان للمقياس فى الدولة الفاطمية معلوم منها لكنس مجارى ماء النيل للمقياس فى كل سنة مائة دينار تصرف من الذخيرة لأبى الرداد، وكان يأتى من مدينة قوص مركب صغير تسمى المفرد تبشر بوفاء النيل قبل أن يبشر ابن أبى الرداد بثلاثة أيام، وكان لها على الذخيرة معلوم يسمى المفرد، وكان لها على أرباب الدولة معلوم فى كل سنة فبطل ذلك من مصر ما بطل، وللشعراء فى ذلك تغزلات كثيرة. فمن ذلك قول الأديب الفقيسى:

ليهن أحبابى وفى ... ومفرد وافى به مؤذنا
ما النيل إلا أدمعى بعدكم ... كلا ولا المفرد إلا أنا

وقال الشيخ زين الدين بن الخراط فى النيل:

يا نيل مصر لك بالوفا أوليتنا بالكسر جبرًا دائما
أوقت قبل الكسر خمس أصابع كرمًا فكانت للوفاء خواتما

* * *

ذكر الخلجان الذى شقت بأرض مصر من مجرى النيل

اعلم أن النيل إذا انتهت زيادته فتحت منه خلجان وترع يتحرق الماء فيها يمينًا وشمالا إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل، وأكثر الخلجان والترع والجسور والأخوار بالوجه البحرى.

أما الوجه القبلى - وهى بلاد الصعيد فإن ذلك قليل فيه، وقد ذهبت معالمه ودرست رسومه من هنا.

والمشهور من الخلجان: خليج سخا ومنف والنهى وأشموم طناح وسردوس والإسكندرية ودمياط والقاهرة وأبى المنجا والناصرى.

قال ابن عبد الحكم عن أبى رهم السماعى قال: كانت مصر ذات قناطر وجسور بتقدير حتى أن الماء البحرى يجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحسبونه كيف شاءوا وذلك قول الله تعالى عما حكم عن قوم فرعون ﴿**أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون**﴾ [سورة الزخرف: ٥١].

قيل لم يكن فى الأرض يومئذ ملك أعظم من ملك مصر، وكانت الجنات بحافتى النيل من أوله إلى آخره فى الجانبين جميعًا - ما بين أسوان إلى رشيد وسبع لجان متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزرع من بين الجبلين من أول مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء.

وكان جميع أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا، لما قدروا وديروا من قناطرها وخلجانها وجسورها فذلك قوله عز وجل ﴿**كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم**﴾ [سورة الدخان:٢٥،٢٦] قيل المقام الكريم أن قام بها ألف منبر، وقيل المقام الكريم هو الفيوم.

* * *

خليج سخا

فأما فخليج سخا فقد حفر تدارس بن صا ين قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، وهو آخر ملوك القبط القدماء الذين ملكوا مصر فى الدهر الأول.

قال ابن وصيف شاه: تدارس الملك أول من ملك الأحياز كلها بعد أبيه صا، وصفا له ملك مصر وكان تدارس محكما وقوة معرفة بالأمور فأظهر العدل، وأقام الهياكل قيامًا حسنا ودبر جميع الأحياز، ويقال أنه الذى حفر خليج سخا، وقرر الأموال على

البلاد وهابته الملوك، وسار إلى بلاد السودان من الزنج والنوبة فى ثلاثة آلاف ووجه فى النيل ثلاثمائة سفينة، فى كل سنة كاهن يعمل أعجوبة من العجائب فهزم الزنج وقتل أكثرهم وأسر منهم خلقًا كثيرة، ثم اتبعهم بجيوشه حتى وصلوا إلى أرض الفيلة من أعلى بلاد الزنج، فأخذوا منها عدة من النمور والوحوش والفيلة وساقوها إلى أرض مصر، ثم مات بمصر ودفن فى ناووس ونقل إليه شيئا كثيرًا من الذهب والجوهر والصنعة والتماثيل، وكتب على ناوسه باسمه وتاريخ هلاكه وجعل عليه طلمسان المنيعة وعهد إلى ابنه ماليق بن تدارس.

* * *

خليج سردوس

حفره هامان، قال: بن وصيف شاه: جلس فرعون على سرير الملك، وحاز جميع ما كان فى خزائن من كان قبله من الملوك، وقيل هو الذى يذكر القبط أنه فرعون موسى، فأما أهل الأثر فيزعمون أن اسمه الوليد بن مصعب، وأنه من العمالقة وذكروا أن الفراعنة سبعة وقيل عن فرعون موسى أنه كان قصيرًا، طويل اللحية أشهل العين، ضيف العين اليسرى فى جبينه شامة، وكان أعرج.

وزعم قوم أنه القبط ونسب أهل بيته مشهور عنة وذكر آخرون أنه دخل منف ليبيع نطرون، وكانوا قد اضطربوا فى تولية الملك فرضوا أن يملكوا عليهم أول من ينظروا من الناس، فلما رأوه ملكوه عليهم لما جلس فى الملك بدل الأموال وأرغب من أطاعه وقتل من خالفه، فاعتدل أمره إلى أن استخلف هامان وكان يقرب منه فى نسبه وأثار له بعض الكنوز وصرفها فى بناء المدائن والعمارات وحفر خلجانا كثيرة، ويقال أنه حفر خليج سردوس وكان عرجه إلى قرية من قرى الجوف، فحمل إليه أهلها مالا، فاجتمع له من ذلك شىء كثير، فأمر برده على أهله.

وقال ابن عبد الحكم بن عبد الله بن عمرو بن عبد العاص رضى الله عنه: إن فرعون استعمل هامان على حفر خليج سردوس فلما ابتدأ حفره أتاه أهل كل قرية يسألونه أن يجرى الخليج تحت قريتهم يعطونه مالا، قال: وكان يذهب به إلى هذه القرية من نحو المشرق، ثم يرده إلى أهل القرية من نحو دبر القبلة ثم يرده إلى قرية فى الغرب ويأخذ من أهل كل قرية مالا جزيلا حتى اجتمع له فى ذلك مائة ألف ألف دينار، فأتى بذلك كله إلى فرعون فسأله عن ذلك فأخبره بما فعل فى حفر الخليج، فقال له فرعون: ويحك أنه ينبغى للسيد أن يعطف على عبيده، ويفيض عليهم الرزق ولا يرغب فيما بأيديهم، فرد كلما أخذت على أهله.

وقيل لا يعلم بمصر خليج أكثر نفعا منه لما فعل هامان فى حفره.

* * *

خليج الإسكندرية

قال ابن عبد الحكم: يقال أن الذى بنى منارة الإسكندرية الملكة قلبطرة وهى التى ساقت خليجها حتى أدخلته إلى الإسكندرية، ولم يكن يبلغها الماء قبل ذلك، فحفرته حتى أدخلته إلى الإسكندرية وهى التى بلطت قاعة الرخام.

قال الأسعد بن مماتى فى كتاب قوانين الدواوين: خليج الإسكندرية عليه نزاع وطوله من فم الخليج ثلاثون ألف قصبة وستمائة قصبة وعرضه من قصبتين ونصف إلى ثلاث قصبات ونصف ومقام الماء فيه بالنسبة إلى النيل فإن كان مقصرا قصرت مدة إقامته فيه، وأن كان عاليا أقام فيه ما يزيد عن شهرين، ويقال أنه إذا عملت من قباله سح إلى سح زلاقة استقر الماء فيه صيفا وشتاء، ورويت البحيرة جميعًا ورزع عليه القصب والقلقاس والنيلة وجرى مجرى بحر الشرق والمحلة وغيره من البلاد، ويقال أنه كان يجرى فيه الماء بطول النسبة وكان السمك فيه غاية الكثرة بحيث تصيده الأطفال بالحرق.

* * *

خليج الفيوم والمنهى

مما حفره نبى الله يوسف عليه السلام عندما عمر الفيوم وهو مشتق من النيل لا ينقطع جريه أبدا وهو الآن يعرف ببحر يوسف لا ينقطع جريانه بطول السنة فيسقى الفيوم دائما ثم يتحصل فاضل ماءه فى بحيرة هناك، ومن العجب أن ينقطع ماءه من فوهبه، ثم يكون له نهرًا لطيفا فى وسطه لا ينقطع جريانه بطول السنة، يعم الفيوم وقراه ومزارعه وبساتينه دائما.

* * *

خليج القاهرة

هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربى، فيما بينها وبين المقسم، عرف فى أول الإسلام بخليج أمير المؤمنين، وتسميه العامة اليوم بالخليج الحاكمى وبخليج اللؤلؤ، وهو خليج قديم أول من حفره طوطيس بن ماليا أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف، وهو الذى دخل إبراهيم الخليل ﷺ، ووهب لإبراهيم هاجر أم ولده إسماعيل بعثت هاجر إلى طوطيس تقول له: إنه بمكان مجدب وتطلب منه حنطة فعند ذلك أمر بحفر هذا الخليج وبعث إليها فيه السفن تحمل الحنطة وغيرها من الغلال إلى جده، فأحيا أرض الحجاز ثم اندرومانوس الذى يعرف بايليا أحد ملوك الروم بعد الإسكندر بن فلبس المجدوبى جدد حفر هذا الخليج، وسارت فيه السفن وذلك قبل الهجرة بنيف وأربعمائة سنة، ثم إن عمرو بن العاص رضى الله عنه جدد حفره لما فتح مصر وأقام

فى حفره ستة أشهر ودخلت السفن فسمى خليج أمير المؤمنين - يعنى عمرو بن الخطاب - فإنه الذى أشار بحفره و لم يزل يجرى فيه السفن من فسطاط مصر إلى مدينة القلزم التى كانت على شاطئ البحر الشرقى حيث الموقع الذى يعرف اليوم بالسويس، وكان يصب ماء النيل فى البحر عند مدينة القلزم إلى أن أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بطمه فى سنة خمسين ومائة فطم وبقى منه ما هو موجود الآن.

* * *

خليج أبى المنجا

هذا الخليج يسميه العامة بحر أبو المنجا والذى حفره الأفضل ابن أمير الجيوش فى سنة ست وخمسمائة، وكان على حفره أبو المنجا بن شعيا اليهودى فعرف به.

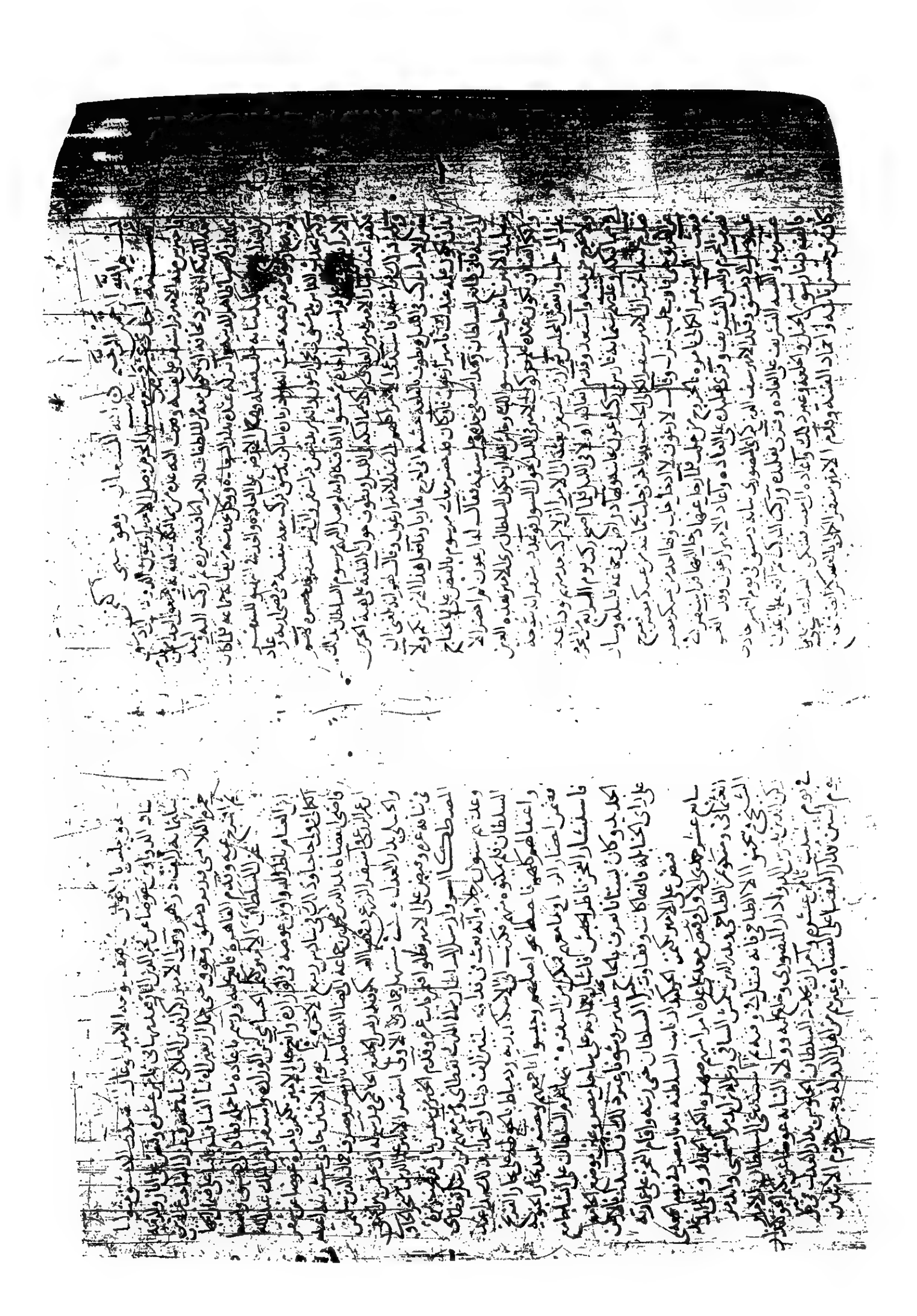
* * *

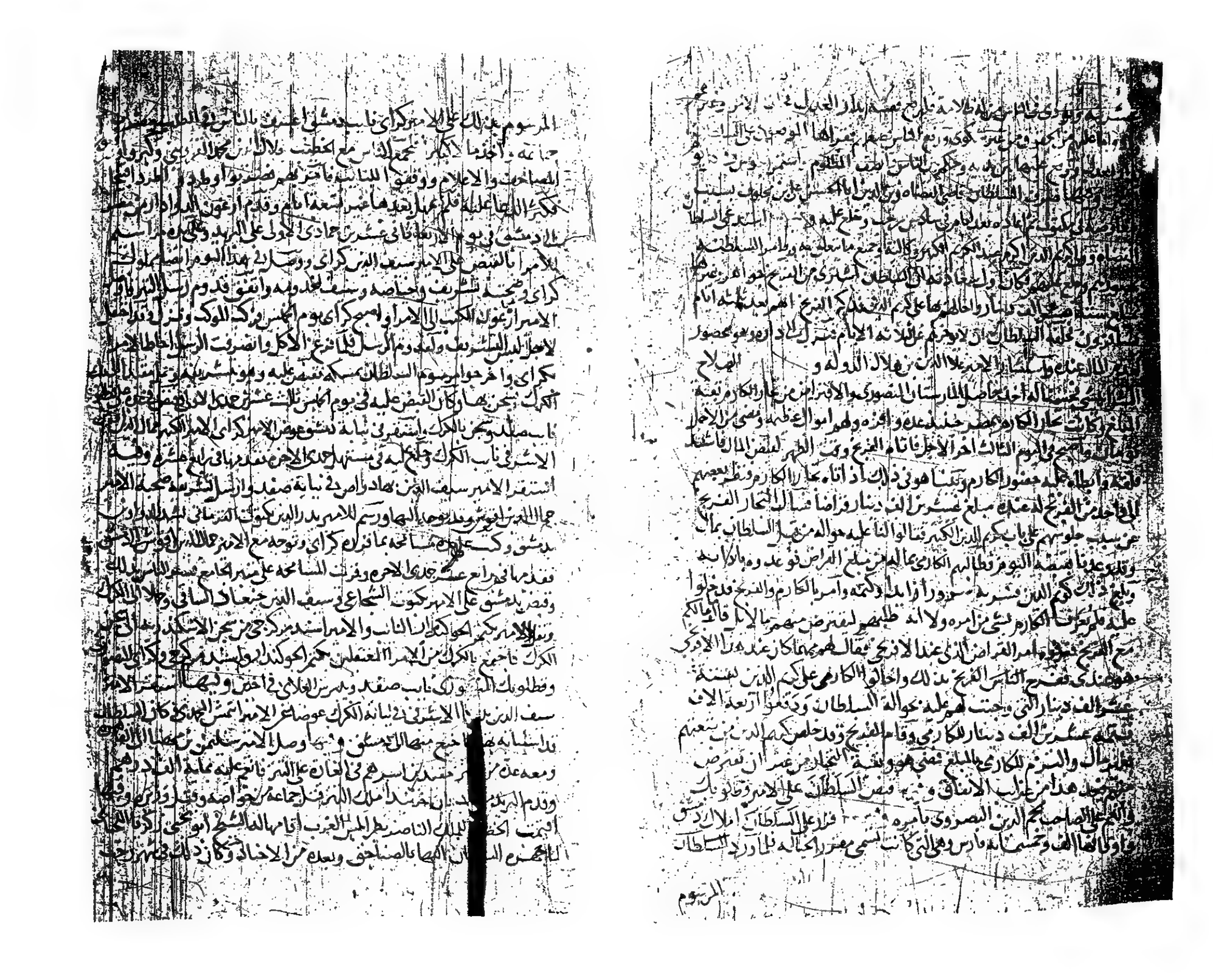
خليج الناصرى

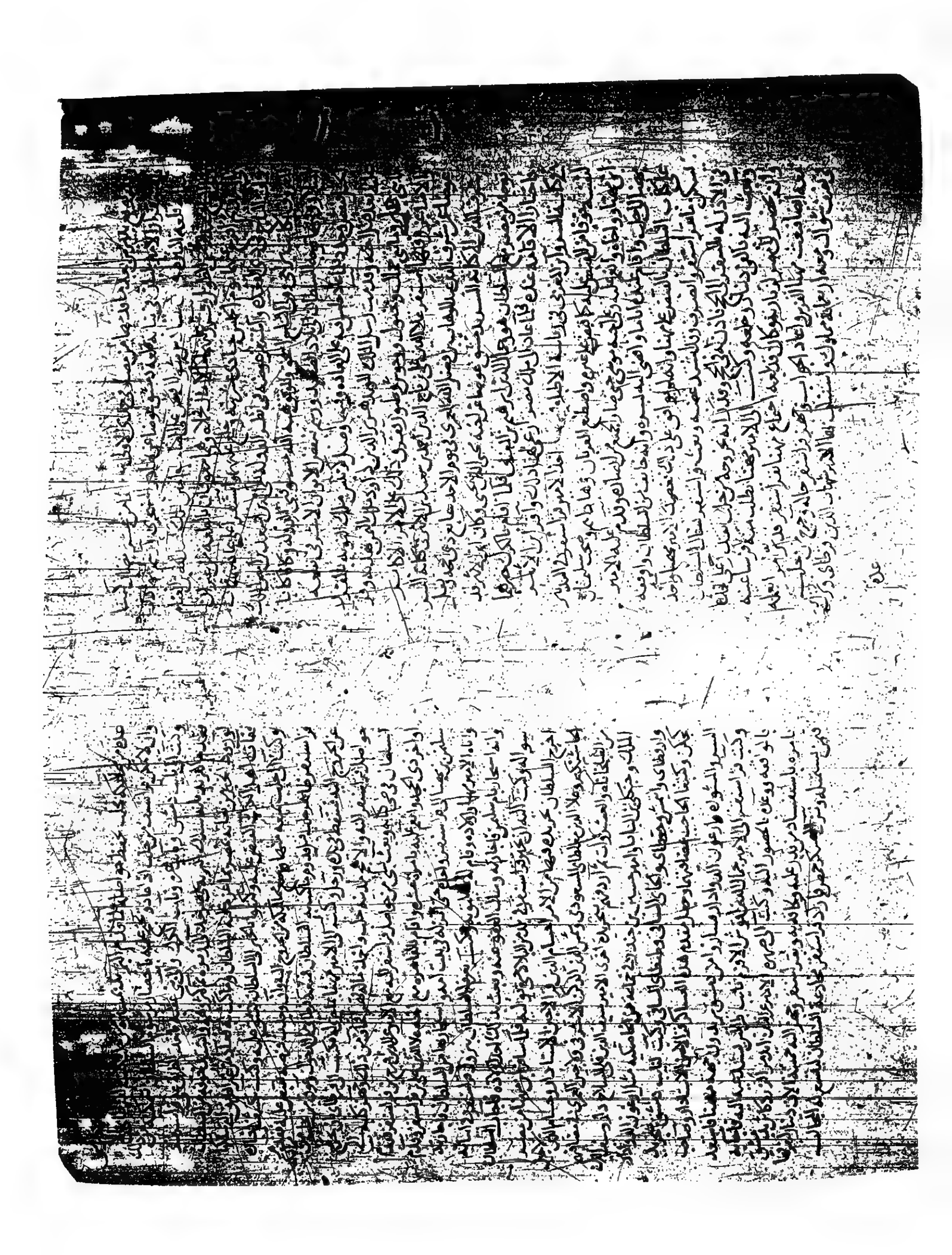
هذا الخليج فى ظاهر المقسم حفره الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرون وسبعمائة.

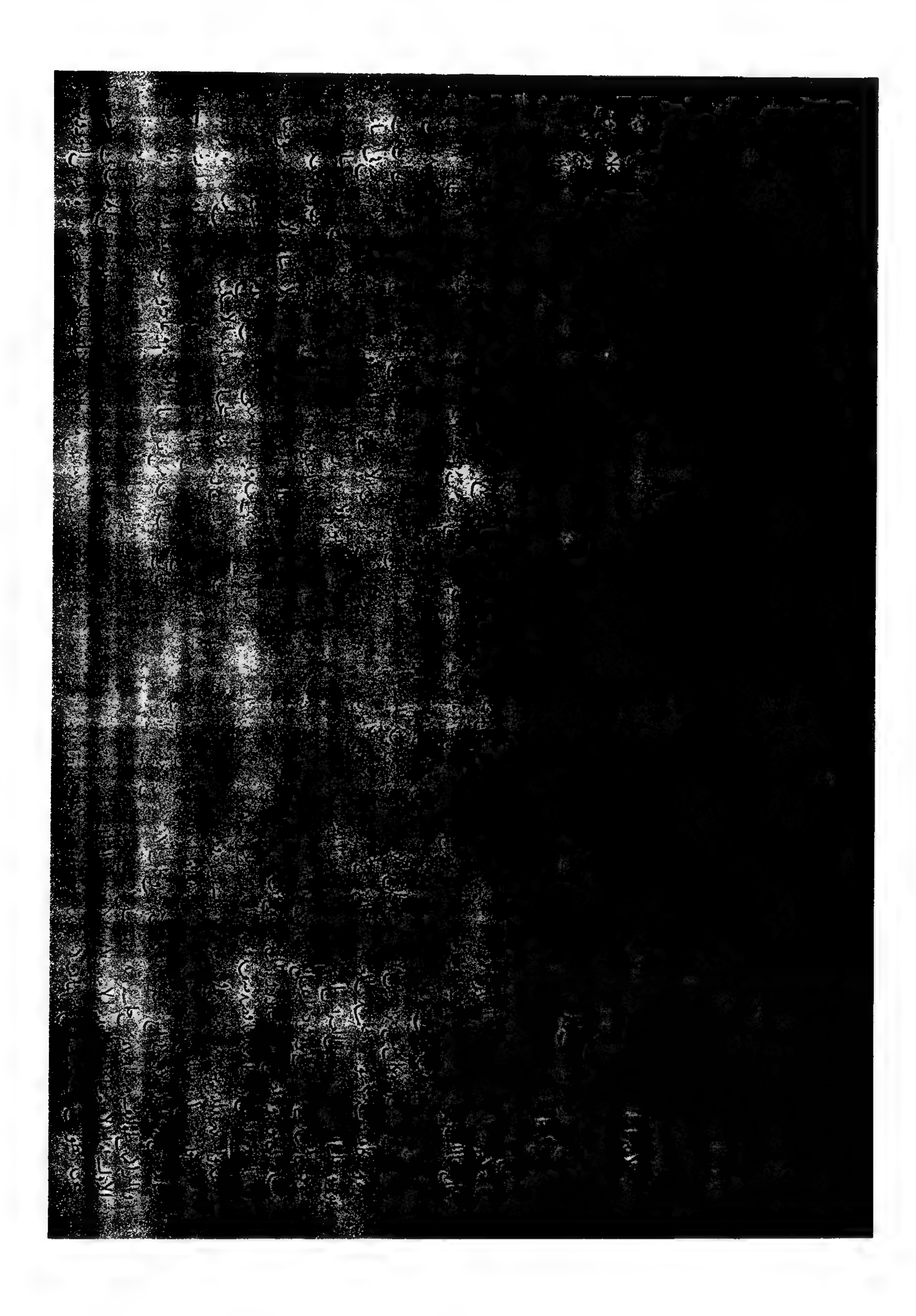
* * *

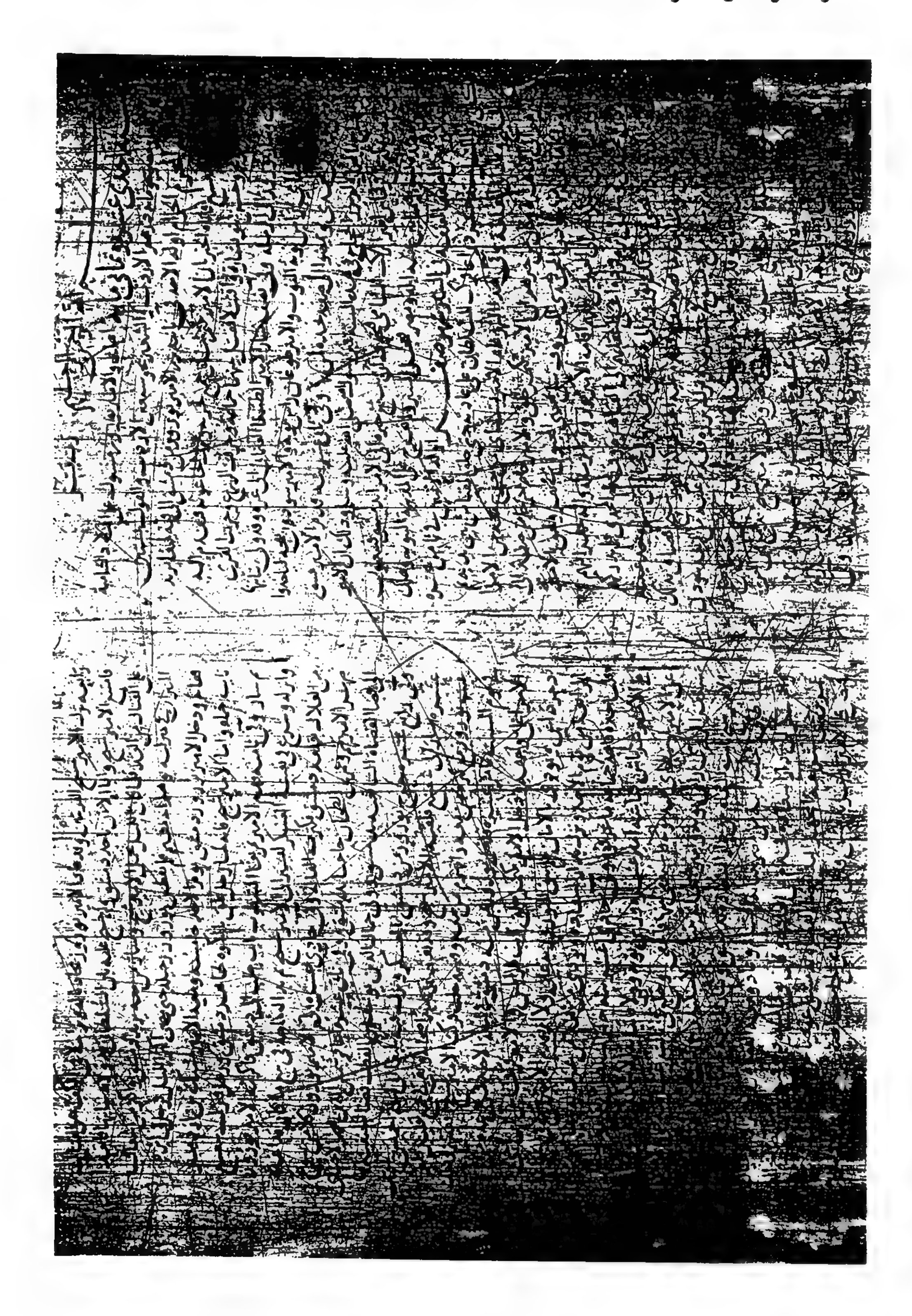
صور المخطوطات

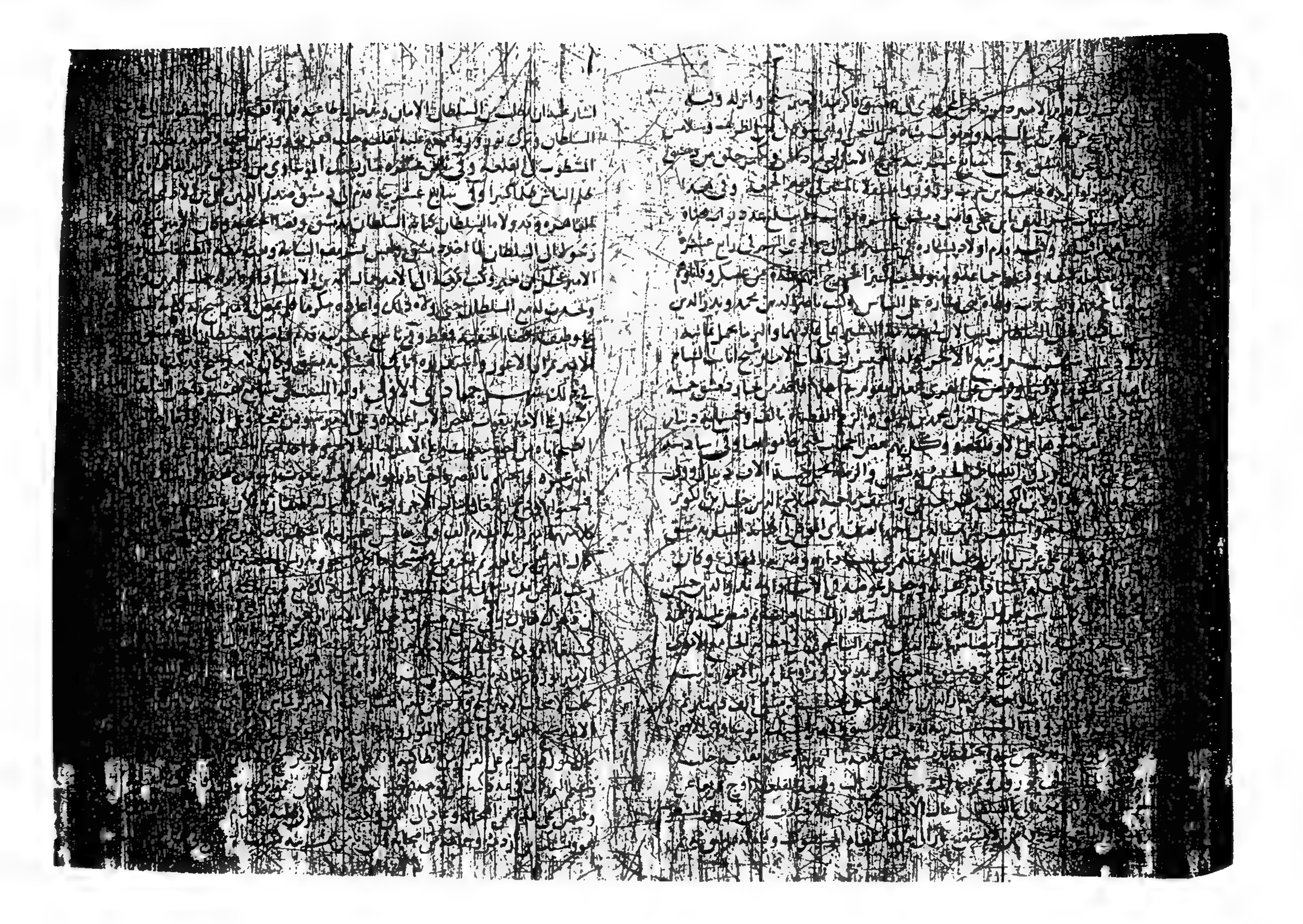


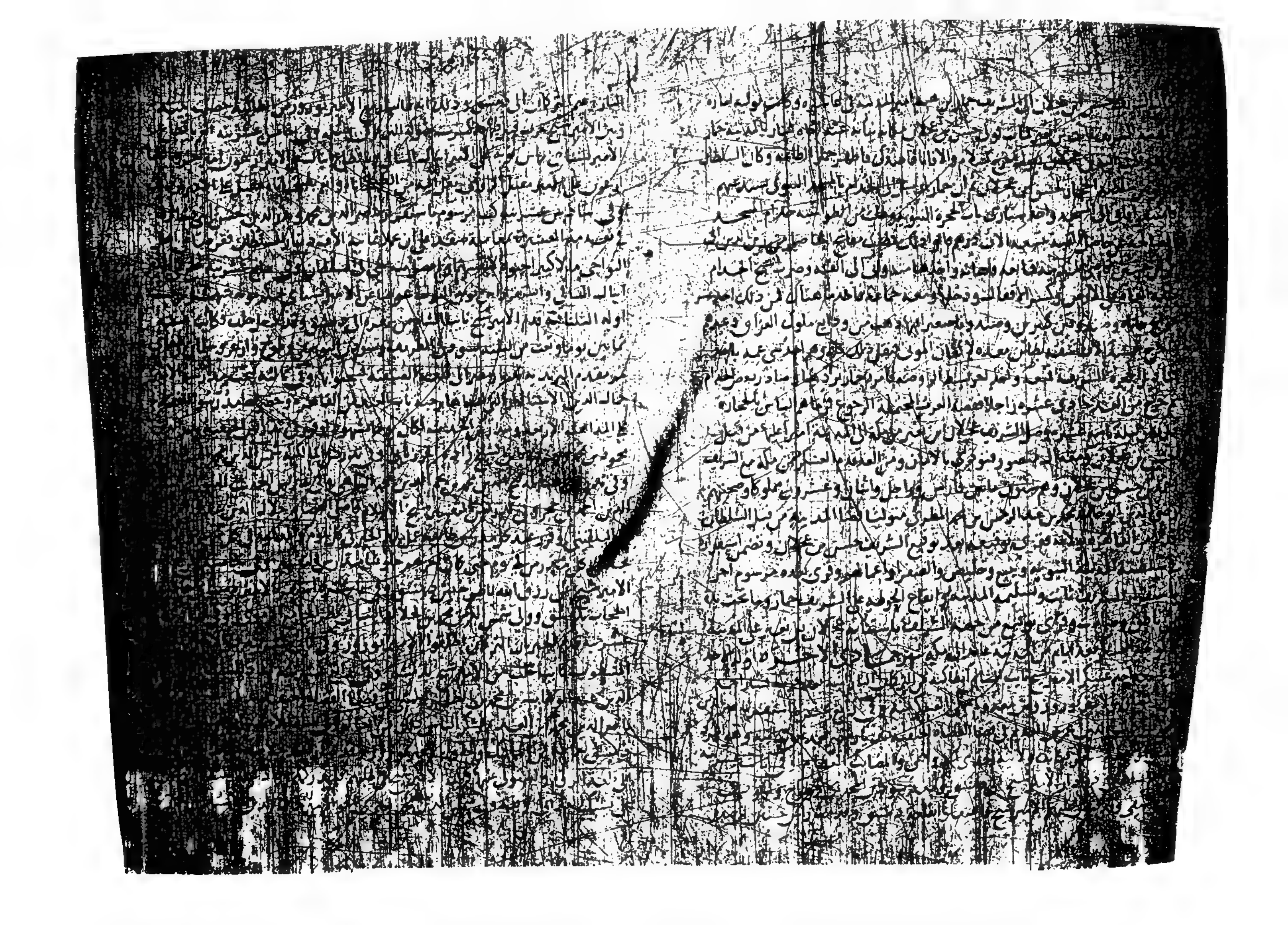












بسم الله الرحمن الرحيم الله المستعان

مقدمة المؤلف[1]

---

(١) الجزء الأول مقدمة الناسخ من كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك». جمع فقير عفو الله أحمد ابن على بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبى الحسن بن عبد الصمد بن تميم، الشهير حده بالمقريزى الشافعى، غفر الله له وتغمد زللـه بمنّه:

سطره لنفسه قائله وحامعه
فليعف عن زلاته ناقله وسامعه

لا أحوجك الله إلى اقتضاء ثمن معروف أسديته، ولا ألجأك إلى قبض عوض عن جميل أوليته، ولا حعل يدك السفلى لمن كانت عليه هى العليا، وأعاذك من عز مفقود وعيش مجهود، وأحياك ما كانت الحياة أجمل بك، وتوفاك إذا كانت الوفاة أصلح لك، بعد عمر مديد وسمو بعيد، وختم بالحسنى عملك، وبلغك فى الأولى أملك، وسدد فيها مضطربك، وأحسن فى الأخرى منقلبك، إنه سميع قريب حواد مجيب.

الأكراد ينسبون إلى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن وقيل هم من ولد عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء. وقيل إنهم من بنى حميد بن طارق الراجع، إلى حميد بن زهير ابن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب وهم قبائل: منهم الكَوْرَانيَّة بنو كَورَان، والهذبانية، والبَشْنَوية، والشاهنحانية، والسِّرلجية، واليَزْوُلية، والمهرانية، والزرزارية، والكيكانية، والجَاك، واللُو، والدنبلية، والروادية، والدَيْسَنية، والهكارية، والحُميدية، والوركحية، والمَروانية، والجلالية، والشنبكية، والجُوبى.

وتزعم المروانية أنها من بنى مروان بن الحكم بن أبى العاص، وتزعم بعض الهكارية أنهم من ولد عتبة بن أبى سفيان صخر بن حرب.

وأحياء الأكراد تكثر عن الإحصاء، غير أنهم بجميع أحيائهم كانوا مقيمين بفارس، فكانوا يزيدون على خمسمائة ألف بيت شَعر، يخوج من البيت الواحد نحو العشرين، وكانوا ينتجعون المراعى فى الشتاء والصيف، وبجبال كوران[....].

أولا – العُمَريين بمصر وأعمالها، ينتسبون إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب.

قال الشريف النسابة محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب «الجوهر المكنون فى القبائل والبطون»: وهم يكذبون فى ذلك لأن أنسابهم لا تتصل به، وقد لقيت منهم جماعة وعرفتهم كذبهم بطرائق علمية وغيرها، وعلى قدر اتساع الأوقات.

و قال: وأمر هؤلاء المنتمين إلى ولد عبد الله بن عمر يحتاج إلى دليل، وإلا فهو قول من الأقاويل الداخلة فى الأباطيل.

ثانيا – الحمد لله، وبه أكتفى من عوادى الدهر فى نُوَبِه، أقل عبيد الله تعالى محمد بن أحمد بن أينال العلائى الدوادار الحنفى، عامله ربه بخفى لطفه الجلى والخفى.

ثالثا – بليت بحظ ما ارتفع إلا اتضع، ولا قام إلا خرَّ سريعا ووقع، ولا استوى إلا التوى ولا ارتفع إلا انحط وهوى ولا تيسَّر إلا تعذر، ولا تنبه إلا وعن قليل رقد، ولا نشط إلا تخبط وهبط:

لعمرك ما عدمت لواء مجد ولا كَل الجواد عن السباق
ولكننى بُليت بحظ سوء كما تبلى المليحة بالطلاق

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب﴾(١).

فسبحان الله من إله حكيم قادر، ومليك مقتدر قاهر، يعطى العاجز الحقير، ويمنع البطل الأيِّد الكبير، ويرفع الخامل الذليل، ويضع ذا العز المنيع والمجد الأثيل، ويعز المحتقر الطريد المجفو الشريد، ويذل أولى الحد الحديد، والعدِّ العديد، وأرباب الألوية والبنود، ومالكى أزِمَّةِ العساكر والجنود، ويؤتى ملكه من لم يكن شيئا مذكورا، ولا عرف له أبا نبيها وجدا مشهورا، بل نشأ كَلاًّ على مولاه وخادما لسواه، تمجبهه وتشنؤه الناس، ولا يرعاه سائر الأجناس، لا يقدر على نفع نفسه فضلا عن الغير، ولا يستطيع دفع ما ينزل به من مساءة وضير، عجزا وشقاء وخمولا واختفاء، وينزع نعت الملك ممن تهابه أسد الشرى فى غِيلها، وتخضع لجلالته عتاة الأبطال بقَظِّها وقِظيظها(٢)، وتخنع لخُنْزُوانة(٣) سلطانه حماة الكماة بجمعها وجميعها، وتذل لسطوته ملوك الجبابرة وأقيالها، ويأتمر بأوامره العساكر الكثيرة العدد، ويقتدى بعوائده الخلائق مدى الأبد.

والحمد لله على حالتى منعه وعطائه، وابتلائه وبلائه، وسرائه وضرائه، ونعمه وبأسائه، أهل الثناء والمجد، ومستحق الشكر والحمد، **﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾** (٤) **﴿بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون﴾** (٥) ولا إله إلا الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى **﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد﴾**(٦) والله أكبر

=رابعا – ملكه محمد المقريزى.

خامسا – قَيْدِ شُدَّ فى سنة ١١٣٧ هـ.

سادسا – الحمد لله على نعمه، أنهاه وكذلك ما بعده، مطالعة، داعيا لمؤلفه بالرحمة والرضوان، ولمالكه بالسيادة وطول العز، محمد المدعو عمر بن فهد الهاشمى، إلى رابعه سنة ٨٤٦.

(١) آل عمران الآية ٢٦، ٢٧.

(٢) الوارد فى معاجم اللغة: قضها وقضيضها بالضاد، والقض الحصى الصغار، والقضيض الكبار، والمعنى أنهم يخضعون جميعا.

(٣)الخنزوانة. خنز اللحم بالكسر يخنز خنزا، أى أنتن، مثل خنز على القلب. والخنزوانة: التكبر يقال: هو ذو خنزوانات. قال الشاعر: لئيم نزت فى أنفه خنزوانة.انظر الصحاح (خنز).

(٤) الأنبياء الآية ٢٣.

(٥) يس الآية ٨٣.

(٦) الإخلاص الآية ٣/٤.

﴿لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء﴾ [١] ولا تدرك من عظمته العقول إلا ما أخبر به عنه الرسل والأنبياء . وصلى الله على نبينا محمد الذى أذهب الشرك من الأكاسرة، ومحا بشريعته عظماء الروم القياصرة، وأزال بملته الأصنام والأوثان، وأخمد بظهوره بيوت النيران، وجمع له أسود العرب وقد كانت فى جزيرتها متفرقة، ولم ببركته شعثها بعدما غبرت زمانا وهى متمزقة، وألف قلوبها على موالاته وطاعته، وحبب إليها المبادرة إلى مبايعته على الموت ومتابعته، فتواصلوا بعد القطيعة والتدابر، وتحابوا فى الله كأن لم ينشئوا على البغضاء والتنافر، حتى صاروا باتباع ملته، والاقتداء بشريعته، من رعاية الشاء والبعير، إلى سياسة الجم الغفير، وبعد اقتعاد سنام الناقة والقعود، وملازمة بيت الشعر والعمود، وأكل القيصوم[٢] والشيح، ونزول القفر الفسيح، إلى ارتقاء المنابر والسرير، وتوسد الأرائك على الحرير، وارتباط المسوَّمة الجياد، واقتناء ما لا يحصى من الخدم والعتاد، بما فتح الله عليهم من غنائم ملوك الأرض، الذين أخذوهم بالقوة والقهر، وحووا ممالكهم بتأييد الله لهم والنصر، وأورثوها أبناء أبنائهم، وأحفادهم وأحفاد أحفادهم. فلما خالفوا ما جاءهم به رسولهم من الهدى، أحلهم الرزايا المجيحة والردى، وسلط عليهم من رعاع الغوغاء وآحاد الدهماء من ألحقهم بعد الملك بالهلك، وحطهم بعد الرفعة، وأذلهم بعد المنعة، وصيرهم من رتب الملوك إلى حالة العبد المملوك، جزاء بما اجترحوا من السيئات، واقترفوا من الكبائر الموبقات، واستحلوا من الحرمات، واستهواهم به الشيطان من اتباع الشهوات، وليعتبر أولو البصائر والأفهام، ويخشى أهل النهى مواقع نقم الله العزيز ذى الانتقام، لا إله إلا هو سبحانه.

أما بعد، فإنه لما يسر الله وله الحمد، بإكمال كتاب **«عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط»**، وكتاب **«اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء»**، وهما يشتملان على ذكر من مَلَكَ مصر من الأمراء والخلفاء، وما كان فى أيامهم من الحوادث والأنباء، منذ فتحت[٣] إلى أن زالت الدولة الفاطمية[٤] وانقرضت، أحببت أن أصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية[٥]، والسلاطين المماليك التركية

---

(١) البقرة الآية ٢٥٥.

(٢) القيصوم القاف والصاد والميم أصل صحيح يدل على الكسر. يقال قصمت الشىء قصما. والقصيمة والقيصوم: نبتان. انظر مقاييس اللغة مادة (قصم).

(٣) كان فتح مصر سنة ٢٠ هـ انظر النجوم الزاهرة ٤/١ نقلا عن الحافظ الذهبى .

(٤) زالت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ انظر النجوم الزاهرة ٦/١.

(٥) قامت الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ هـ.انظر النجوم الزاهرة ٦/١.

والجركسية[١]، فى كتاب يحصر أخبارهم الشائعة، ويستقصى أعلامهم الذائعة، ويحوى أكثر ما فى أيامهم من الحوادث والماجريات، غير معتن فيه بالتراجم والوفيات، لأنى أفردت لها تأليفا بديع المثال بعيد المنال، فألفت هذا الديوان، وسلكت فيه التوسط بين الإكثار الممل والاختصار المخل، وسميته كتاب «**السلوك لمعرفة دول الملوك**». وبالله أستعين فهو المعين، وبه أعتضد فيما أريد وأعتمد، فإنه حسبى ونعم الوكيل.

* * *

فصل

ذكر ما كان عليه الكافة قبل قيام ملة الإسلام

اعلم أن الناس كانوا بأجمعهم، قبل مبعث نبينا محمد ﷺ، ما بين عربى وعجمى، سبع أمم كبار هم: الصين وهم فى جنوب مشرق الأرض، والهند وهم فى وسط جنوب الأرض، والسودان ولهم جنوب مغرب الأرض، والبربر ولهم شمال مغرب الأرض، والروم وهم فى وسط شمال الأرض، والترك وهم فى شمال مشرق الأرض، والفرس وهم فى وسط هذه الممالك، قد أحاطت بهم هذه الأمم الست.

وكانت الأمم كلها فى قديم الدهر، قبل ظهور الشرائع الدينية، صفا واحد مُسَمَّين باسمين: سمنيين وكلدانيين، ثم صاروا على خمسة أديان، وهى الصابئة، والمجوس، والذين أشركوا، واليهود، والنصارى.

فأما الصابئة: فإنها التى تعبد الكواكب، وترى أن سائر ما فى العالم السفلى المعبر عنه بالحياة الدنيا ناشئ وصادر عن الكواكب، وأن الشمس هى المفيضة على الكل.

وهذا الدين أقدم هذه الأديان، وبه كان يدين أهل بابل من الكلدانيين، وإليهم بعث الله نوحا وإبراهيم، صلوات الله عليهما. وكانت الصابئة تتخذ التماثيل من الجواهر والمعادن على أسماء الكواكب وتعبدها، فتصلى إليها وتقرب لها القرابين، وتعتقد أنها تجلب النفع وتدفع السوء. وبقيت منهم بقايا بأرض السواد من العراق وبحران[٢]

---

(١) كان قيام دولتهم سنة ٦٤٨ هـ انظر النجوم الزاهرة ٧/٣.

(٢) البحرين هكذا يتلفظ بها فى حال الرفع والنصب والجر ولم يسمع على لفظ المرفوع من أحد منهم إلا أن الزمخشرى قد حكى أنه بلفظ التثنية فيقولون هذه البحران ... وهو اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان. قيل هى قصبة هجر وقيل هجر قصبة البحرين وقد عدها قوم من اليمن، وجعلها آخرون قصبة برأسها وفيها عيون ومياه وبلاد واسعة وربما عد بعضهم اليمامة من أعمالها. والصحيح أن اليمامة عمل برأسه روى ابن عباس البحرين من أعمال العراق وحده من عمان ناحية جرفار واليمامة على جبالها. انظر معجم البلدان (بحر).

والرها[١] أدركوا الإسلام وعُرفوا بالنبط وبالحرنانيين[٢] ولم يبق لهم إذ ذاك ملك منذ غلبهم فارس، فلما كانت أيام المأمون[٣] أسقطوا عن أنفسهم اسم الكلدانيين، وتسموا بالصابئين.

وأما المجوس: فإنهم الذين يقولون بإلهين اثنين، أحدهما فاعل الخير وهو النور، والآخر فاعل الشر وهو الظلام، ويقال لهم الثنوية أيضا، واتخذوا لهم بيوت نيران لا تزال تَقِد أبدا، وكانت إلى هذه النيران صلواتهم وقرابينهم، ويعتقدون فيها النفع والضر، وعلى هذا الاعتقاد كانت الأكاسرة ملوك فارس بالعراق.

---

(١) الرُّهاء: بضم أوله، والمد، والقصر: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ سميت باسم الذى استحدثها، وهو الراهاء بن البلندى بن مالك بن دعر... وقال قوم: إنها سميت بالرها بن الروم بن لنطى بن سام بن نوح، عليه السلام، قال بطليموس: مدينة الرها طولها اثنتان وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ... وقال يحيى بن جرير: الرها اسمها بالرومية أذاسا، بنيت فى السنة السادسة من موت الإسكندر، بناها الملك سلوقس. انظر معجم البدان ١٠٦/٣.

(٢) نسبة إلى بلدة حران، وهى تقع جنوب شرقى الرها.

(٣) المأمون (١٧٠ - ٢١٨ هـ = ٧٨٦ - ٨٣٣م).عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور ، أبو العباس سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق، وأحد أعاظم الملوك، فى سعة ملكه. نفذ أمره من إفريقية إلى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند وعرفه المؤرخ ابن دحية بالإمام العالم المحدث النحوى اللغوى ولى الخلافة بعد خلع أخيه الأمين (سنة ١٩٨هـ) فتم ما بدأ به جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة و أتحف ملوك الروم بالهدايا سائلا أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم، فاختار لها مهرة التراجمة، فترجمت وحث الناس على قراءتها، فقامت دولة الحكمة فى أيامه. وقرب العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والأنساب وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة، لولا المحنة بخلق القرآن فى السنة الأخيرة من حياته وكان فصيحا مفوها، واسع العلم، محبا للعفو. من كلامه: «لو عرف الناس حبى العفو لتقربوا إلى بالجرائم» وأخباره كثيرة جمع بعضها فى مجلد مطبوع صفحاته ٣٨٤ من تاريخ بغداد لابن أبى طيفوره، وكتاب عصر المأمون - ط لأحمد فريد الرفاعى. وله من التواقيع والكلم ما يطول مدى الإشارة إليه توفى فى بذندون ودفن فى طرسوس. انظر: تاريخ بغداد لابن الخطيب ١٠: ٨٣ والمسعودى ٤: ٢٤٣ :٢٦٩ والنبراس لابن دحية ٤٦ - ٦٣ وابن الأثير ٦: ١٤٤ - ٤٨، والطبرى ٧: ٢٩٣ واليعقوبى ٣: ١٧٢ وتاريخ الخميس ٢: ٣٣٤ وفيه : «كان أبيض ربعة حسن الوجه تعلوه صفرة وخطه الشيب أعين طويل اللحية رقيقها ضيق الجبين على خده خال». والبدء والتاريخ ٦: ١١٢ وفيه صفته المتقدمة إلا أنه يقول: «تعلوه حمرة ويزيد» على ذلك : «وأمه بادغيسية تسمى مراجل». وفوات الوفيات ١: ٢٣٩.الأعلام ١٤٢/٤

وولد رسول الله ﷺ في أيام كسرى أنوشِروان وأزال العرب ملكهم في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وملكوا منهم المدائن وجلولاء وغيرها، وقتل يزدجرد آخر ملوكهم في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، ولم يقم بعده قائم من الأكاسرة، وتمزق الفرس وذهب ملكهم إلى اليوم. وقد تقدم فى كتاب عقد جواهر الأسفاط ذكر ملوك الفرس فراجعه.

وأما الذين أشركوا فإنهم وإن وافقهم الصائبة والمجوس فى عبادة التماثيل والنار من دون الله، فإن العرب الذين بعث الله فيهم نبينا محمدا ﷺ يقال لهم المشركون سمة لهم، واسما لزمهم، وكانوا يعبدون الأصنام والأوثان والطواغيت من دون الله، فيسجدون ويصلون ويذبحون الذبائح لتماثيل عندهم، قد اتخذوها من الحجر والخشب وغيره، ويزعمون أنها تجلب لهم النفع، وتدفع عنهم الضر[١] ويعتقد المشركون مع ذلك أن الله سبحانه هو الذى خلقهم، وهو الذى أوجدهم ثم يميتهم، وهو الذى يرزقهم[٢]، وأن عبادتهم للأصنام وسيلة تقربهم إلى الله سبحانه[٣]. وكانوا إذا مسهم الضر فى البحر من شدة هبوب رياحه وعظم أمواجه، وأشرفوا على الهلاك، نسوا عند ذلك الأصنام التى كانوا يعبدونها، ودعوا الله يسألونه النجاة[٤] وقد محا الله- وله الحمد - بنبينا محمد ﷺ الشرك من العرب حتى دخلوا فى دين الله أفواجا، وجاهدوا فى الله حق جهاده، إلى أن ظهر دين الإسلام بهم على سائر الأديان، وملكوا مشارق الأرض ومغاربها مما تطؤه الدواب، وتمر فيه السفن. وقد ذكرنا أيضا فى كتاب عقد جواهر الأسفاط قبائل العرب وبطونها ذكرا شافيا فتأمله .

وأما اليهود: فإنهم أتباع نبى الله موسى بن عمران، صلوات الله عليه، وكتابهم التوارة. وكلهم أبناء إبراهيم الخليل، ويعرفون أيضا ببنى إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، صلوات الله عليهم، وكانوا اثنى عشر سبطا، وملكوا الشام بأسره

---

(١) حكى الله تعالى عنهم ذلك فقال: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ ١٨/يونس.

(٢) قال الله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله﴾ ٦١/العنكبوت.

وقال تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ ٩/الزخرف.

(٣) حكى الله تعالى عنهم ذلك فقال: ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ٣/الزمر.

(٤) حكى الله تعالى عنهم ذلك فقال: ﴿وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ ٦٧/الإسراء.

إلا قليلا منه إلى أن زالت دولتهم على يد بختنصر، ثم على يد طيطش، وجاء الله بالإسلام وليس لهم ملك ولا دولة، وإنما هم أمم متفرقون فى أقطار الأرض، تحت أيدى النصارى. وقد ذكرنا أيضا جميع ملوكهم فى كتاب عقد جواهر الأسفاط.

وأما النصارى: فإنهم أتباع نبى الله المسيح عيسى ابن مريم، صلوات الله عليه، وكتابهم الإنجيل. وجاء الله بالمسيح إلى بنى إسرائيل فكذّبوه إلا طائفة منهم، ثم انتشر دينه بعد رفعه بدهر، فدخل فيه الروم والقبط والحبشة وطائفة من العرب، وما زالوا على ذلك حتى جاء الله بالإسلام، فقاتل المسلمون من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم هرقل آخر الملوك القياصرة وأتباعه حتى ملكوا منه بلاد الشام وأرض مصر، وأخرجوه إلى جزائر البحر، ثم قاتل المسلمون القوط والجلالقة، وملكوا منهم إفريقية والأندلس وسائر بلاد المغرب، وتابعوا الحرب والقتال للروم حتى انقضى ملكهم، وقام من بعدهم الإفرنج. وقد ذكرنا فى كتاب عقد جواهر الأسفاط وفى كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جملة من حروب الروم والفرنج للمسلمين. وإلى وقتنا هذا ملوك الفرنج ورعيتهم، وملوك أكثر بلاد الحبشة ورعيتهم، يدينون بدين النصرانية.

فهذه - أعزك الله- ديانات أهل الأرض عند مبعث نبينا محمد ﷺ.

وكانت الممالك يومئذ على خمسة أقسام: مملكة فارس ويقال لمن ملك منهم كسرى، ومملكة الروم ويقال لملكها قيصر، وكانت الحرب لا تزال بين الروم وفارس وبيدهما أكثر المعمور، ومملكة الترك وكانت ملوكهم تحارب ملوك الفرس، ولم يكن لهم قط فيما بلغنا من أخبار الخليقة غلبة على الممالك، ومملكة الهند وحسب ملوكهم ضبط ما بيدها فقط، ومملكة الصين. وأما بنو حام من الحبشة والزنج والبربر فلم يكن لهم ملك يعتد به.



فصل

ذكر القائمين بالملة الإسلامية من الخلفاء

اعلم أن الله بعث نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ﷺ على رأس أربعين سنة من عمره، فدعا قومه من قريش بمكة ثلاث عشرة سنة، وهاجر من مكة إلى المدينة فأقام بها عشر سنين، وتوفاه الله وعمره ثلاث وستون سنة، وقد ذكرنا جملة سيرته فى أول كتاب عقد جواهر الأسفاط. فقام بعد وفاته ﷺ بأمر الإسلام والمسلمين الخلفاء الراشدون مدة ثلاثين سنة، وعدتهم خمسة هم:

أبو بكر الصديق رضى الله عنه[١] واسمه عبد الله بن عثمان أبى قحافة مدة سنتين وثلاثة أشهر غير خمس ليال، وعمر بن الخطاب بن نفيل العدوى[٢] مدة عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام وعثمان بن عفان بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف[٣] مدة اثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يوما، وقيل إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما، وقيل ثمانية عشر يوما. وعلى بن أبى طالب بن عبد المطلب ابن هاشم[٤] مدة أربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام، وقيل ثلاثة أيام، وقيل أربعة عشر يوما. والحسن بن على بن أبى طالب[٥] مدة خمسة أشهر ونحو نصف شهر، وقيل ستة

---

(١) انظر ترجمته طبقات ابن سعد (انظر فهارس الكتاب)، الإصابة ٤٨٠٨، ابن الأثير ١٦٠/٢، الطبرى ٤٦/٤، اليعقوبى ١٠٦/٢، صفة الصفوة ٨٨/١ الإسلام والحضارة العربية ١٠٧/٢، ٣٥١، حلية الأولياء ٩٣/٤، ذيل المذيل ١١٣ تاريخ الخميس ١٩٩/٢، البدء والتاريخ ٧٦/٥، الرياض النضرة ٤٤ - ١٨٧ منهاج السنة ١١٨/٣ وما بعدها.

(٢) انظر ابن الأثير ١٩/٣ ، الطبرى ١٨٧/١ - ٢١٧ ، ٢/٢ - ٨٢، اليعقوبى ١١٧/٢، الإصابة: ٥٧٣٨، صفة الصفوة ١٠١/١، حلية الأولياء ٣٨/١ تاريخ الخميس ٢٥٩/١، ٢٣٩/٢، أخبار القضاة لوكيع ١٠٥/١، البدء والتاريخ ٨٨/٥ ، ١٦٧، شذور العقود للمقريزى ٥، مورد اللطافة، الكنى والأسماء ٧/١، والإسلام والحضارة العربية ١١/٢، ٣٦٤.

(٣) عثمان بن عفان (٤٧ ق هـ - ٣٥ هـ=٥٧٧ - ٦٥٦م). انظر ابن الأثير: حوادث سنة ٣٥/غاية النهاية ٥٠٧/١، شرح نهج البلاغة ٦١/٢ وأماكن أخرى فيه. والبدء والتاريخ ٧٩/٥، ١٩٤ - ٢٠٨، اليعقوبى ١٣٩/٢، حلية الأولياء ٥٥/١، الطبرى ١٤٥/٥، صفة الصفوة ١١٢/١، تاريخ الخميس ٢٥٤/٢ المحبر ٣٧٧، الكنى والأسماء ٨/١، منهاج السنة ١٨٦/٢، الرياض النضرة ٨٢/٢، الإسلام والحضارة العربية ١٣٨/٢، ٢٧٣.

(٤) على بن أبى طالب (٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ= ٦٠٠ - ٦٦١م). انظر بن الأثير: حوادث سنة ٤٠ هـ والطبرى ٨٣/٦ البدء والتاريخ ٧٣/٥، صفة الصفوة ١١٨/١، اليعقوبى ١٥٤/٢، مقاتل الطالبيين ٢١٤ حلية الأولياء ٦١/١، شرح نهج البلاغة ٥٧٩/٢، منهاج السنة ٢/٣ والمسعودى ٢/٢ - ٣٩، والإسلام والحضارة العربية ١٤١/٢، ٣٧٩، الرياض النضرة ١٥٣/٢ - ٢٤٩، الأصاله: الترجمة ٥٦٩٠.الأعلام ٤/٢٩٦.

(٥) الحسن بن على بن أبى طالب الهاشمى القرشى، أبو محمد: خامس الخلفاء الراشدين وآخرهم، وثانى الأئمة الإثنا عشر عند الإمامية ولد فى المدينة المنورة، وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ﷺ) وهو أكبر أولادها وأولهم. كان عاقلا حليما محبا للخير، فصيحا من أحسن الناس منطقا وبديهة حج عشرين حجة ماشيا. وقال أبو نعيم: دخل أصبهان غازيا مجتازا إلى غزاة جرجان، ومعه عبد الله ابن الزبير وبايعه أهل العراق بالخلافة بعد مقتل أبيه سنة ٤٠ هـ وأشاروا عليه بالمسير إلى الشام لمحاربة معاوية بن أبى سيفان، فأطاعهم وزحف بمن معه. وبلغ معاوية خبره، فقصده بجيشه. وتقارب الجيشان فى موضع يقال له مسكن بناحية من الأنبار، فهال الحسن أن يقتتل المسلمون، ولم يستشعر الثقة بمن معه، فكتب إلى معاوية يشترط شروطا للصلح، ورضى معاوية، فخلع الحسن نفسه.

أشهر، وبه تمت أيام الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم.وصارت الخلافة ملكا عضوضا، أى فيه عسف وعنف، وانتقل الأمر إلى بنى أمية .

وأول من ولى منهم معاوية بن أبى سفيان،(١) واسمه صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ومدته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وقيل ثلاثة أشهر إلا أياما. وقام من بعده ابنه يزيد بن معاوية(٢) مدة ثلاث سنين وستة أشهر، وقيل ثمانية

---

(١) معاوية بن أبى سفيان (٢٠ ق هـ ٦٠ هـ =٦٠٣ ٠ ٦٨٠م). معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشى الأموى: مؤسس الدولة الأموية فى الشام، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار كان فصيحا حليما وقورا ولد بمكة، و أسلم يوم فتحها سنة ٨ هـ، وتعلم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله ﷺ فى كتابه، ولما ولى أبو بكر ولاه قيادة حيش تحت إمرة أخيه يزيد بن أبى سفيان، فكان على مقدمته فى فتح مدينة صيداء وعرقة وحبيل وبيروت، ولما ولى عمر حعله واليا على الأردن، ورأى فيه حزما وعلما فولاه دمشق بعد موت أميرها يزيد أخيه وحاء عثمان فجمع له الديار الشامية كلها وحعل ولاة أمصارها تابعين له وقتل عثمان، فولى على بن أبى طالب، فوجه لفوره بعزل معاوية وعلم معاوية بالأمر قبل وصول البريد، فنادى بثأر عثمان واتهم عليا بدمه، ونشبت الحروب الطاحنة بينه وبين على. وانتهى الأمر بإمامة معاوية فى الشام وإمامة على فى العراق ثم قتل على وبويع بعد ابنه الحسن فسلم إلى معاوية سنة ٤١ هـ ودامت لمعاوية الخلافة إلى أن بلغ سن الشيخوخة، فعهد بها إلى ابنه يزيد ومات فى دمشق. له ١٣٠ حديثا، اتفق البخارى ومسلم على أربعة منها وانفرد البخارى بأربعة ومسلم بخمسة، وهو أحد عظماء الفاتحين فى الإسلام، بلغت فتوحاته المحيط الاتلانطيقى، وافتتح عامله بمصر بلاد السودان (سنة ٤٣هـ) وهو أول مسلم ركب بحر الروم للغزو، وفى أيامه فتح كثير من حزائر يونان والدردنيل وحاصر القسطنطينية برا وبحرا (سنة ٤٨ هـ) .وهو أول من حعل دمشق مقر خلافة، وأول من اتخذ المقاصير، وأول من نصب الحرس والحجاب فى الإسلام وأول من نصب المحراب فى المسجد كان يخطب قاعدا ، وكان طويلا حسيما أبيضا، إذا ضحك انقلبت مشفته العليا، وضربت فى أيامه دنانير عليها صورة أعرابى متقلد سيفا.انظر ابن الأثير ٢/٤، تطهير الجنان، الطبرى ١٨٠/٦، منهاج ٢٠١/٢ اليعقوبى ١٩٢/٢، تاريخ الخميس ٢٩١/٢ ، ٢٩٦ البدء والتاريخ ٥/٦، شذرات العقود ٦، المرزبانى ٣٩٢، المسعودى ٤٢/٢، الإسلام والحضارة العربية ٢، ١٤٦ - ١٦١ الذهب المسبوك ٢٤، الأعلام ٢٦٢/٧

(٢) يزيد بن معاوية (٢٥ هـ - ٦٤ هـ = ٦٤٥م - ٦٨٣م). يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الأموى: ثانى ملوك الدولة الأموية فى الشام. ولد بالماطرون، ونشأ بدمشق وولى الخلافة بعد وفاة أبيه (سنة ٦٠هـ) وأبى البيعة له عبد الله بن الزبير والحسين بن على، فانصرف الأول إلى مكة والثانى إلى الكوفة، وفى أيام يزيد هذا كانت فاجعة المسلمين بالسبط الشهيد الحسين بن على سنة ٦١ هـ وخلع أهل المدينة طاعته (سنة ٦٣) فأرسل إليهم مسلم بن عقبة المرى، وأمره أن يستبيحها ثلاثة أيام وأن يباع أهلها على أنهم خول وعبيد ليزيد، ففعل بها مسلم الأفاعيل القبيحة، وقتل فيها كثيرا من الصحابة وأبنائهم وخيار التابعين وفى زمن يزيد فتح المغرب الأقصى على يد الأمير عقبة بن نافع

أشهر، وقيل غير ذلك، وليس بشيء، فولى بعده معاوية بن يزيد بن معاوية[1] ثلاثة أشهر وقيل أربعين يوما. وقام بعد يزيد أيضا عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بالحجاز[2] وخالف عليه مروان بالشام، فكانت مدة ابن

وفتح مسلم بن زياد بخارى وخوارزم ويقال إن يزيد أول خدم الكعبة وكساها الديباج الخسرواني= =ومدته في الخلافة ثلاث سنين وتسعة أشهر إلا أياما. توفي بحوارين (من أرض حمص) وكان نزوعا إلى اللهو، يروى له شعر رقيق، وإليه ينسب نهر يزيد في دمشق، وكان نهرا صغيرا يسقى ضيعتين، فوسعه فنسب إليه، ولابن تيمية سؤال في يزيد بن معاوية، رسالة نشرها المنجد، ولمحمد بن على بن طولون قيد الشريد من أخبار يزيد. انظر الطبرى: حوادث سنة ٦٤، تاريخ الخميس ٢/٣٠٠، منهاج السنة ٢/٢٣٧ - ٢٥٤، ابن الأثير ٤/٤٩، مختصر تاريخ العرب ٧١ - ٧٦، البدء والتاريخ ٦/٦ - ١٦، اليعقوبى ٢/٢١٥، جمهرة الأنساب ١٠٣، الوسائل إلى مسامرة الأوائل ٣٣، ٣٤، رغبة الأمل ٤/٨٣، ٥/١٢٩، الجهشيارى، تاريخ المانوزى ١٠٥، ١٠٦. الأعلام٨/١٨٩.

(١) معاوية بن يزيد (٤١ - ٦٤ هـ= ٦٦١ - ٦٨٤م). معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان: من خلفاء بنى أمية فى الشام. بويع بدمشق بعد وفاة أبيه (سنة ٦٤ هـ) فمكث أربعين يوما، أو ثلاثة أشهر، وشعر بالضعف وقرب الأجل، فأمر فنودى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فوقف خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجد، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجد، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم، وأومى أن يصلى الضحاك بن قيس بالناس حتى يقوم لهم خليفة، ودخل منزله. ومات بعد قليل وهو ابن ٢٣ سنة توفى بدمشق ولا عقب له، وكانت كنيته أبا ليلى. انظر ابن الأثير ٤/٥١، اليعقوبى ٢/٢٢٦، الطبرى ٧/١٧، البدء والتاريخ ٦/١٦، تاريخ الخميس ٢/٣٠١، نسب قريش ١٢٨، المسعودى ٢/٧٧، المحبر ٢٢/٤٥، ٥٨، بلغة الظرفاء ١٩.الأعلام ٧/٢٦٣.

(٢) عبد الله بن الزبير (١ - ٧٣ هـ =٦٢٢ - ٦٩٢ م). عبد الله بن الزبير بن العوام القريشى الأسدى، أبو بكر: فارس قريش في زمنه، وأول مولود فى المدينة بعد الهجرة. شهد فتح إفريقية زمن عثمان، وبويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ، عقيب موت يزيد بن معاوية فحكم مصر والحجاز واليمن وخرسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه المدينة. وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة، حتى سيروا إليه الحجاج الثقفى، في أيام عبد الملك بن مروان، فانتقل إلى مكة، وعسكر الحجاج فى الطائف ونشبت بينهما حروب أتى المؤرخون على تفصيلها انتهت بمقتل ابن الزبير فى مكة، بعد أن خذله عامة أصحابه وقاتل قتال الأبطال، وهو فى عمر الثمانين وكان من خطباء قريش المعدودين، يشبه فى ذلك بأبى بكر. مدة خلافته تسع سنين وكان نقش الدراهم فى أيامه: بأحد الوجهين: محمد رسول الله وبالآخر أمر الله بالوفاء والعدل وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة، له فى كتب الحديث ٣٣ حديثا.انظر ابن الأثير ٤/١٣٥، فوات الوفيات ١/٢١٠، تاريخ الخميس ٢/٣٠١ حلية الأولياء ١/٣٢٩، اليعقوبى ٣/٢، صفة الصفوة ١/٣٢٢، الطبرى ٧: ٤٠٢، تهذيب ابن عساكر ٧/٣٩٦، شذور العقود ٦/جمهرة الأنساب ١١٣، ١١٤.الأعلام ٤/٨٧.

الزبير إلى أن قتل بمكة تسع سنين. وقام بعد معاوية بن يزيد بالشام مروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف[1] مدة عشرة أشهر. وقام من بعده ابنه عبد الملك بن مروان، واستعمل الحجاج بن يوسف الثقفى[2] على حرب عبد الله

(١) مروان بن الحكم (٢ - ٦٥ هـ= ٦٢٣ - ٦٨٥م). مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف أبو عبد الملك: خليفة أموى، هو أول من ملك من بنى الحكم بن أبى العاصى، وإليه ينسب بنو مروان ودولتهم المروانية ولد بمكة ونشأ بالطائف، وسكن المدينة فلما كانت أيام عثمان خرج مروان إلى البصرة مع طلحة والزبير وعائشة، يطالبون بدمه فقاتل مروان فى وقعة الجمل قتالا شديدا وانهزم أصحابه فتوارى. وشهد صفين مع معاوية، ثم أمنه على، فأتاه فبايعه وانصرف إلى المدينة (سنة ٤٢ - ٤٩هـ) وأخرجه منها عبد الله بن الزبير، فسكن الشام ولما ولى يزيد ابن معاوية الخلافة وثب أهل المدينة على من فيها من بنى أمية فأجلوهم إلى الشام، وكان فيهم مروان ثم عاد إلى المدينة وحدثت فتن كان من أنصارها ، وانتقل إلى الشام مدة ثم سكن تدمر ومات يزيد وتولى ابنه معاوية بن يزيد ثم اعتزل معاوية الخلافة، وكان مروان قد أسن فرحل إلى الجابية (فى شمالى حوران) ودعا إلى نفسه، فبايعه أهل الأردن (سنة ٦٤هـ، ودخل الشام فأحسن تدبيرها وخرج إلى مصر وقد فشت فى أهلها البيعة لابن الزبير فصالحوا مروان، فولى عليهم ابنه عبد الملك وعاد إلى دمشق فلم يطل أمره، وتوفى فيها بالطاعون وقيل غطته زوجته «أم خالد» بوسادة وهو نائم، فقتلته. ومدة حكمه تسعة أشهر و ١٨ يوما وهو أول من ضرب الدنانير الشامية وكتب عليها «قل هو الله أحد» وكان يلقب خيط باطل لطول قامته واضطراب خلقه. وكان نقش خاتمه: «العزة لله» قاله الصاحب فى عنوان المعارف ١٤.الإصابة: ت ٨٣٢٠ وأسد الغابة ٤: ٣٤٨ وتهذيب ١٠: ٩١ والجمع ٥٠١ وابن الأثير ٤: ٧٤ والطبرى ٧: ٣٤ ، ٨٣ والبدء والتاريخ ٦: ١٩ . وفيه: هو أول من أخذ الخلافة بالسيف وأسماء المغتالين من الأشراف: فى نوادر المخطوطات ٢: ١٧٤ وفيه قصة موته خنقا. السالمى ١: ١٧٣ وتاريخ الخميس ٢: ٣٠٦ وفيه أدرك النبى (ﷺ) وهو حى وولى نيابة المدينة مرات، وهو قاتل طلحة بن عبد الله وكان كاتب السر لعثمان، وبسببه حرى على عثمان ما حرى وفيه أيضا يقال له ابن الطريد لأن النبى (ﷺ) طرد أبا الحكم إلى بطن وج بالطائف إذ كان يغمز عليه ويغشى سره، فقال لا ساكنتنى فلم يزل فيها إلى أيام عثمان فرده إلى المدينة وكان ذلك مما نقم على عثمان وفى معجم قبائل العرب ٣: ١٠٧٨ من نسله: المروانية كانوا فى صعيد مصر ومن منازلهم فى الشام دابق إحدى قرى حلب وفى معجم الشعراء للمرزبانى ٣٩٦ قطعتان من شعره. انظر الأعلام ص ٧ ص ٢٠٧.

(٢) الحجاج الثقفى (٣٤٠ - ٩٥ هـ ٦٦٠ - ٧١٤م). الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى، أبو محمد : قائد، داهية، سفاك خطيب. ولد ونشأ فى الطائف، وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان فى عديد شرطته، ثم مازال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبد الله وفرق جموعه، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى بغداد فى ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة وبنى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة وكان سفاكا سفاحا باتفاق معظم المؤرخين. انظر معجم البدان ٣٨٢/٨، وفيات الأعيان ١٢٣/١، المسعودى ١٠٣/٢ - ١١٩، تهذيب التهذيب ٢١٠/٢، تهذيب ابن عساكر

ابن الزبير فقتله، وأقام عبد الملك بعد قتله ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبع ليال. وقام بعده ابنه الوليد بن عبد الملك[١] مدة تسع سنين وسبعة أشهر. وقام بعده أخوه سليمان بن عبد الملك[٢] سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام، وقيل إلا خمسة أيام. وقام بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم[٣] سنتين وخمسة أشهر. ثم قام بعده يزيد

٤٨/٤، ابن الأثير ٢٢/٤ سير البنلاء، البدء والتاريخ ٢٨/٦. الأعلام ٢/١٦٨.

(١) الوليد بن عبد الملك (٤٨ - ٩٦ هـ ٦٦٨ - ٧١٥م). الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو العباس: من ملوك الدولة الأموية فى الشام. ولى بعد وفاة أبيه - سنة ٨٦هـ فوجه القواد لفتح البلاد، وكان من رجاله موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، وامتدت فى زمنه حدود الدولة العربية إلى بلاد الهند، فتركستان، فأطراف الصين شرقا، فبلغت مسافتها مسيرة ستة أشهر بين الشرق والغرب والجنوب والشمال وكان ولوعا بالبناء والعمران، فكتب إلى والى المدينة يأمره بتسهيل الثنايا وحفر الآبار، وأن يعمل فوارة، فعملها وأجرى ماءها. وكتب إلى البلدان جميعا بإصلاح الطرق وعمل الآبار. ومنع المجذومين من مخالطة الناس، وأجرى لهم الأرزاق وهو أول من أحدث المستشفيات فى الإسلام. وجعل لكل أعمى قائدا يتقاضى نفقاته من بيت المال، وأقام لكل مقعد خادما ورتب للمقراء أموالا وأرزاقا. وأقام منازل يأوى إليها الغرباء وهدم مسجد المدينة والبيوت المحيطة به، ثم بناه بناء جديدا، وصفح الكعبة والميزاب والأساطين فى مكة، وبنى المسجد الأقصى فى القدس، وبنى مسجد دمشق الكبير، المعروف بالجامع الأموى، فكانت نفقات هذا الجامع (...، ٢٠٠،. ١١) دينار، أى نحو ستة ملايين دينار ذهبى من نقود زماننا، بدأ فيه سنة ٨٨ هـ، وأتمه أخوه سليمان، وكانت وفاته بدير مران (من غوطة دمشق) ودفن بدمشق. ومدة خلافته ٩ سنين و٨ أشهر وكان خاتمه ياوليد إنك ميت. انظر ابن الثير ٣/٥ ، الطبرى ٨، ٩٧، بلغة الظرفاء ٢٣، اليعقوبى ٢٧/٣، تاريخ الخميس ٣١١/٢، ٣١٤، المسعودى ٢، ١١٩ - ١٢٧، النهب المسبوك ٢٩، عنوان المعارف ١٥. الأعلام ٨: ١٢١.

(٢) سليمان بن عبد لملك (الخليفة الأموى): (٥٤ - ٩٦ هـ، ٦٧٤ - ٧١٧م). سليمان بن عبد الملك بن مروان، أبو أيوب: الخليفة الأموى. ولد فى دمشق، وولى الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد (سنة ٩٦ هـ) وكان بالرملة، فلم يتخلف عن مبايعته أحد، فأطلق الأسرى وأخلى السجون وعفا عن المجرمين، وأحسن إلى الناس. وكان عاقلا فصيحا طموحا إلى الفتح، جهز جيشا كبيرا وسيره فى السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك، لحصار القسطنطينية. وفى عهده فتحت جرجان وطبرستان، وكانت فى أيدى الترك. وتوفى فى دابق (من أرض قنسرين - بين حلب ومعرة النعمان) وكانت عاصمته دمشق. ومدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أياما. انظر: ابن الأثير ٥: ١٤، والطبرى ٨: ١٢٦، وابن شاكر ١: ١٧٧ واليعقوبى ٣: ٣٦، وابن خلدون ٣: ٧٤.

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموى القرشى أبو حفص، الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيها له بهم، وهو من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام ولد ونشأ بالمدينة، وولى إمارتها للوليد ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام وولى الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ، فبويع فى مسجد دمشق وسكن الناس فى أيامه، فمنع سب على بن أبى طالب وكان من تقدمه من الأمويين يسبونه على المنابر، ولم تطل مدته، وقيل: دس له السم=

ابن عبد الملك بن مروان[١] مدة أربع سنين وشهر وأيام. وقام بعده أخوه هشام بن عبد الملك[٢] تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وواحدا وعشرين يوما، وقيل ثمانية أشهر

=وهو بدير سمعان من أرض المسرة، فتوفى به ومدة خلافته سنتان ونصف وأخباره فى عدله وحسن سياسته كثيرة وكان يدعى أشج بنى أمية مسحته دابة وهو غلام فشجته وقيل فى وصفه أنه كان نحيف الجسم، غائرا العينين بجبهته أثر الشجة، وخطه الشيب، أبيض رقيق الوجه مليحا وفى كتاب الإسلام والحضارة العربية كانت طريقته فى إدارة ولايته إطلاق الحرية للعامل، لا يشاور الخليفة إلا فى أهم المهمات مما تشكل عليه أمره ورثاه الشريف الرضى بقصيدة مطلعها يا ابن عبد العزيز، لو بكت العين فتى من أمية لبكيتك، ولابن الجوزى سيرة عمر بن عبد العزيز ط ولعبد الله بن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز ط، ولعبد الرءوف المسناوى سيرة عمر بن عبد العزيز ولأحمد زكى صفوت عمر بن عبد العزيز ط ولعبد العزيز سيد الأهل الخليفة الزاهد ط فى سيرته. انظر فوات الوفيات ٢: ١٠٥، تهذيب ٧. ٤٧٥ وسير النبلاء - خ وحلية الأولياء ٥: ٢٥٣ - ٣٥٣ واليعقوبى ٣: ٤٤، وصفة الصفوة ٥: ٦٣، وابن خلدون ٣: ٧٦ والطبرى ٨: ١٣٧، والأعيان ٩: ٢٥٤، والمعوذى ٢/١٣ - ١٣٧ والنجوم الزاهرة ١: ٢٤٦ وتهذيب الأسماء واللغات ٢: ١٩. انظر الأعلام ص ٥ ص٥٠

(١) يزيد بن عبد الملك (٧١ - ١٠٥ هـ ٦٩٠ - ٧٢٤م). يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبو خالد: من ملوك الدولة الأموية فى الشام. ولد فى دمشق، وولى الخلافة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك. وكانت فى أيامه غزوات أعظمها حرب الجراح الحكمى مع الترك، وانتصاره عليهم، وخرج عليه يزيد بن المهلب، بالبصرة، فوجه إليه أخاه مسلمة فقتله. وكان أبيض الجسم مدور الوجه، مليحه، فيه مروءة كاملة، مع إفراط فى الانصراف إلى اللذات. مات فى أربد (من بلاد الأردن) أو بالجولان، بعد موت قينة له اسمها حبابة بأيام يسيرة، وحمل على أعناق الرحال إلى دمشق، فدفن فيها وكان لحبابة، هذه أثر فى أحكام التولية والعزل، على عهده. انظر ابن الأثير ٤٥/٥، النجوم الزاهرة ٢٥٥/١ اليعقوبى ٥٢/٣ الطبرى ١٧٨/٨، الأغانى (انظر فهرس الكتاب)، تاريخ الخميس ٣١٨/٢ بلغة الظرفاء ٢٥، غاية الأمل ٦٠/١ ، ١٨١/٦، الوزراء والكتاب ٥٦ - ٥٨ مرآة الجنان ٢٢٤/١، المسعودى ١٣٧/٢، عنوان المعارف ١٧، زبدة الحلب ٤٧/١. الأعلام ٨/١٨٥.

(٢) هشام بن عبد الملك (٧١ - ١٢٥ هـ ٦٩٠ - ٧٧٣ م).هشام بن عبد الملك بن مروان: من ملوك الدولة الأموية فى الشام. ولد فى دمشق، وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد (سنة ١٠٥هـ) وخرج عليه زيد بن على بن الحسين (سنة ١٢٠) بأربعة عشر ألفا من أهل الكوفة، فوجه إليه من قتله وقل جمعه. ونشبت فى أيامه حرب هائلة مع خاقان الترك فيما وراء النهر، انتهت بمقتل خاقان الترك واستيلاء العرب على بعض بلاده . واجتمع فى خزائنه من المال ما لم يجتمع فى خزائن أحد من ملوك بنى أمية فى الشام وبنى الرصافة وهى غير رصافتى بغداد والبصرة، وكان يسكنها فى الصيف، وتوفى فيها وكان حسن السياسة، يقظا فى أمره، يباشر العمال بنفسه. انظر ابن الأثير ٩٦/٥، الطبرى ٢٨٣/٨، تاريخ الخميس ٣١٨/٢ ٣٢٠، اليعقوبى ٥٧/٣، ابن خلدون ٨٠/٣ ١٣٠، المسعودى ١٤٢/٢ - ١٤٥، الذهب المسبوك ٣٤، مرآة الجنان ٢٦١/١ - ٢٦٣، مختصر تايخ العرب لسيد أمير على ١١٨ - ١٣٥. الأعلام ٨٧: ٨ .

ونصف. وكان قد اتخذ طرازا له قدر، واستكثر منه حتى كان يحمل ما أثر فيه من طرازه على سبعمائة جمل فهذه ثيابه التي لبسها، فكيف بما كان عنده مما لم يلبسه؟ فقام من بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك[1] ويعرف بيزيد الناقص، وولى مدة سنة وثلاثة أشهر، وقيل وشهرين واثنين وعشرين يوما. فبويع بعده ابنه يزيد بن الوليد[2]، وفي أيامه اضطربت الدولة، وولى مدة خمسة أشهر وأياما. فقام بعده أخوه إبراهيم بن الوليد[3] مدة أربعة أشهر، وقيل سبعين يوما، ولم يتم له أمر. وقام بعده مروان بن محمد

---

(١) الوليد بن يزيد(٨٨ هـ - ١٢٦ هـ ٧٠٧ - ٧٤٤م). الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبو العباس: من ملوك الدولة المروانية بالشام. كان من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم، يعاب بالانهماك فى اللهو وسماع الغناء. له شعر رقيق وعلم بالموسيقا .. قال ابن خلدون: ساءت القالة فيه كثيرا، وكثير من الناس نفوا ذلك عنه وقالوا إنها من شناعات الأعداء ألصقوها به، ولى الخلافة (سنة ١٢٠هـ) بعد وفاه عمه هشام بن عبد الملك فمكث سنة وثلاثة أشهر، ونقم عليه الناس حبه للهو، فبايعوا سرًّا يزيد بن الوليد بن عبد الملك، انظر ابن الأثير ١٠٣/٥ ، اليعقوبى ٧١/٣، ابن خلدون ١٠٦/٣ ، الطبرى ٦٥/٨، ٢٨٨، ٢١٩، الأغانى ١/٧، ٢٧٤/٩، تاريخ خميس ٣٢٠/٢ المسعودى ١٤٥/٢، خزانة البغدادى ٣٢٨/١، تاريخ الإسلام ١٧٣/٥ - ١٧٩، بلغة الظرفاء ٢٧، أعمار الأعيان، الوزراء والكتاب ٦٨ عنوان المعرف ١٨، أمالى المرتضى ١٢٨/١ - ١٣١. الأعلام ١٢٣/٨.

(٢) يزيد الناقص (٨٦ - ١٢٦ هـ ٧٠٥ - ٤٤ م). يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو خالد : من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام مولده ووفاته فى دمشق ثار على ابن عمه الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك لسوء سيرته، فبويع بالمزة، واستولى على دمشق وكان الوليد بتدمر، فأرسل إليه يزيد من قاتله فى نواحيها وقتل الوليد، فتم ليزيد أمر الخلافة (فى مستهل رجب ١٢٦) ومات فى ذى الحجة بالطاعون، وقيل: مسموما انظر اليعقوبى ٧٤/٣، ابن خلدون ١٠٦/٣، البداية والنهاية ١١/١٠ ابن الأثير ١١٥/٥، والطبرى: حوداث سنة ١٢٦، تاريخ خميس ٣٢١/٢، ٣٢٢ الحور العين لنشوان ١٩٤، عنوان المعارف ١٩، النجوم الزاهرة ١٢٦/١ - ٣٠٠، بلغة الظرفاء ٢٧، ٢٨، تاريخ الإسلام ١٨٨/٥ - الوزراء والكتاب ٦٩ - ٧٠، مختصر تاريخ العرب لسيد أمير على ١٤٣ الأعلام ١٩١/٦.

(٣) إبراهيم بن الوليد ١٣٢ هـ (٧٤٩ م). إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المروانى الأموى، أبو إسحاق، كان مقيما فى دمشق ولما مات أخوه يزيد بن الوليد قام بعده بالأمر (سنة ١٢٦ هـ) وكان ضعيفا مغلوبا على أمره تارة يسلم عليه بالإمارة وتارة بالخلافة، فمكث سبعين يوما، فثار عليه مروان ابن محمد بن مروان وكان والى أذربيجان ودعا لنفسه بالخلافة وقدم الشام فاختفى إبراهيم فظهر وقد ضاعت خلافته. وقتل مع من قتل من بنى أمية حين زالت دولتهم. وقيل غرق بالزاب. انظر ابن الأثير فى الكامل ١١٤/٥ ، ١١٥، ١١٩ وما بعدها. واليعقوبى ٧٥/٣ وابن خلدون ١١٢/٣. و الطبرى ٤٦/٩. الأعلام ٧٨/١، ٧٩.

بن مروان بن الحكم[١] ويعرف بمروان الجعدى وبمروان الحمار. وفى أيامه ظهرت دولة بنى العباس، وحاربوه حتى قتلوه بأرض مصر، وله فى الخلافة منذ بويع خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوما. وانقرضت بمقتل مروان دولة بنى أمية.

وقامت من بعدها دولة بنى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف[٢] مدة خمسمائة سنة وثلاث وعشرين سنة وعشرة أشهر وأيام، فيها افترقت كلمة الإسلام، وسقط اسم العرب من الديوان، وأدخل الأتراك فى الديوان، واستولت على الديلم ثم الأتراك، وصارت لهم دول عظيمة جدا، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام، وصار

---

(١) مروان بن محمد بن مروان (مروان الجعدى، مروان الحمار، آخر خلفاء بنى أمية). أبو عبد الملك، القائم بحق الله، ويعرف بالجعدى وبالحمار:آخر ملوك بنى أمية فى الشام ولد بالجزيرة وأبوه متوليها، وغزا (سنة ١٠٥ هـ) فافتتح قونية وغيرها وولاه هشام بن عبد الملك على أذربيجان وأرمينية والجزيرة (سنة ١١٤) فافتتح فتوحات وخاض حروبا كثيرة، ولما قتل الوليد بن يزيد (سنة ١٢٦) وظهر ضعف الدولة فى الشام، دعا الناس وهو بأرمينية إلى البيعة له، فبايعوه فيها. وزحف بجيش كثيف فى أيام إبراهيم بن الوليد، قاصدا الشام، فخلع إبراهيم واستوى إلى عرش بنى مروان (سنة ١٢٧) وفى أيامه قويت . الدعوة العباسية، وتقدم جيش قحطبة بن شبي الطائى على طوس يريد الإغارة على الشام، فسار إليه مروان بعسكره، ونزل بالزاب (بين الموصل وإربل)، وتصاول الجمعان، فانهزم جيش مروان ففر إلى الموصل، ومنها إلى حران فحمص فدمشق ففلسطين، وانتهى إلى بوصير (من أعمال مصر) فقتل فيها (قتله عامر أو عمرو بن إسماعيل المرادى الجوجانى) وحمل رأسه إلى السفاح العباس وكان مروان حازما مدبرا شجاعا، إلا أن ذلك لم ينفعه عند إدبار الملك وانحلال السلطان. ويقال له الحمار أو حمار الجزيرة لجرأته فى الحروب انظر الكامل لابن الأثير ٥: ١١٩و ١٥٨ واليعقوبى ٣: ٧٦ وابن خلدون ٣: ١١٢ و ١٣٠ والطبرى ٩: ٥٤ و ١٣٣ والخميس ٢: ٣٢٢ والمسعودى ٢: ١٥٥ والأخبار الطوال ٣٥٠ وتاريخ الإسلام للذهبى ٥: ٢٩٨ والنجوم الزاهرة ١: ١٩٦ و ٢٥٤ و ٢٧٣ و٢٨٦ و ٣٠٢، ٣٢٢ وفى معجم البلدان ٨: ١٩٦ الدينورى الأخبار الطوال ١٧٨. انظر الأعلام ٢٠٨/٧ . ٤٠٩٠.

(٢) العباس جد العباسيين ٥١٦ ق هـ - ٣٢ هـ ٥٧٣ - ٦٥٣م. العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الفضل : من أكابر قريش فى الجاهلية والإسلام، وجد الخلفاء العباسين قال رسول الله ﷺ فى وصفه : أجود قريش كفا وأوصلها، هذا بقية آبائى وهو عنه وكان محسنا لقومه، سديد الرأى، واسع العقل، مولعا بإعتاق العبيد، كارها للرق، اشترى سبعين عبدا وأعتقهم وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ولا يقول قبيح أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، وفاته فى المدينة عن عشرة أولاد ذكور سوى الإناث وله فى كتب الحديث ٣٥ حديثا. انظر: أسد الغاية والجهشيارى. ونكت الهميان ١٧٥ والجمع بن رجال الصحيحين والإصابة. وابن سعد والمبرد وصفة الصفوة ١: ٢٠٣ وذيل المذيل ١٠ وابن عساكر ٧: ٢٢٦ والخميس ١: ١٦٥ والمرزبانى ٢٦٢ والمخبر ٦٣.

بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر. وكان أول من قام من خلفاء بنى العباس السفاح[(١)] واسمه عبد الله بن محمد بن على عبد الله بن عباس، مدة أربع سنين وثمانية أشهر ويوم، وكان سريعا إلى سفك الدماء، سفك ألف دم فاتبعه عماله فى الشرق والغرب فى فعله، وكان مع ذلك جوادا بالمال، فاقتدى به فى ذلك عماله أيضا. ثم ولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور[(٢)] واسمه أيضا عبد الله بن على، فأقام مدة إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا، وهو أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد على ابن أبى طالب، وكان قبل ذلك أمرهم واحدا، وهو أول خليفة قرب المنجمين، وعمل بأحكام النجوم، وأول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات، وأول خليفة استعمل مواليه

---

(١) أبو العباس السفاح (١٠٤ - ١٣٦ هـ ٧٢٢ - ٧٥٤ م). عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس: أول خلفاء الدولة العباسية وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب ويقال له المرتضى والقائم. ولد ونشأ بالشراة بين الشام والمدينة وقام بدعوته أبو مسلم الخراسانى مقوض عش الدولة الأموية، فبويع له بالخلافة جهرا فى الكوفة سنة ١٣٢ هـ وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد (آخر ملوك الأمويين فى الشام) وكافأ أبا مسلم بأن ولاه خراسان وكان شديد العقوبة، عظيم الانتقام تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتى لم يبق منهم غير الأطفال والجالين إلى الأندلس ولقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دمائهم. وكانت إقامته بالأنبار، حيث بنى مدينة سماها الهاشمية وجعلها مقر خلافته وهو أول من أحدث الوزارة فى الإسلام، وكان سخيا جدا، وهو أول من وصل بمليونى درهم من خلفاء الإسلام وكان يلبس خاتمه باليمين ويوصف بالفصاحة والعلم والأدب. انظر ابن الأثير ١٥٢/٥، الطبرى ١٥٤/٩، اليعقوبى ٨٦/٣، ابن خلدون ١٨٠/٣ تاريخ الخميس ٣٢٤/٢/والبدء والتاريخ ٨٨/٦، النبراس ١٩ - ٢٣، المسعودى ١٦٥/٢ - ١٨٠، تاريخ بغداد ٤٦/١٠، فوات الوفيات ٢٣٢/١ ، المحبر ٣٣، ٣٤. الأعلام ٤/١١٦.

(٢) المنصور العباس (٩٥ - ١٥٨ هـ ٧١٤ - ٧٧٥م). عبد الله بن محمد بن على بن العباس، أبو جعفر، المنصور: ثانى خلفاء بنى العباس، أول من عنى بالعلوم من ملوك العرب، وكان عارفا بالفقه والأدب، مقدما فى الفلسفة والفلك، محبا للعلماء ولد فى الحميمة من أرض الشراة (قرب عمان) وولى الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة ١٣٦ هـ وهو بانى مدينة بغداد أمر بتخطيطها سنة ١٤٥ هـ وجعلها دار ملكه بدلا من الهاشمية التى بناها السفاح. ومن آثاره مدينة المصيصة والرافقة بالرقة، وزيادة فى المسجد الحرام. وفى أيامه شرع العرب يطلبون علوم اليونانيين والفرس، صنعه محمد ابن إبراهيم الفزارى وكان بعيدا عن اللهو والعبث، كثير الجد والتفكير، وله تواقيع غاية فى البلاغة وهو والد الخلفاء العباسيين جميعا. وكان أكثرهم شجاعة وحزما إلا أنه قتل خلقا كثيرا حتى استقام ملكه توفى ببئر ميمونه (من أرض مكة) محرما بالحج، ودفن فى الحجون (بمكة) ومدة خلافته ٢٢ عاما.. وكان نقش خاتمه الله ثقة عبد الله وبه يؤمن. انظر ابن الأثير ١٧٢/٥، ٦/٦، الطبرى ٢٩٢/٩ - ٣٢٢، البدء والتاريخ ٩٠/٦، اليعقوبى ١٠٠/٣، تاريخ الخميس ٣٢٤/٢، ٣٢٩ النبراس لابن دحية ٢٤ - ٣٠، المسعودى ١٨٠/٢ - ١٩٤، تاريخ بغداد ٥٣/١٠، ابن الساعى ١١ - ٢٣، وفات الوفيات ٢٣٢/١. الأعلام ٤/١١٧.

وغلمانه فى أعماله، وقدمهم على العرب، فاقتدى به من بعده من الخلفاء، حتى سقطت قيادات العرب، وزالت رياستها، وذهبت مراتبها. كان قد نظر فى العلم، فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت علومهم، فقام بعده ابنه المهدى أبو عبد الله محمد[1] مدة عشر سنين وشهر ونصف، وكان سخيا جوادا، فسلك الناس فى ذلك مسلكه، واتسعوا فى معايشهم، وأمعن فى قتل الملحدين لظهورهم فى أيامه، وانتشار كتبهم، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين، فصنفت فى أيامه، وعمر مسجد مكة والمدينة والقدس. ثم ولى بعده ابنه الهادى با لله أبو محمد موسى[2] سنة وثلاثة أشهر، وكان جبارا، وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة، والأعمدة المشهرة، والقسى الموترة، فاقتدى به عماله، وكثر السلاح فى محضره فقام بعده أخوه هارون بن محمد الرشيد[3] مدة ثلاث وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر

---

(١) المهدى (١٢٧ - ١٦٩ هـ - ٧٤٤ - ٧٨٥م). محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن على العباسى، أبو عبد الله، المهدى با لله: من خلفاء الدولة العباسية فى العراق ولد بإيذج (من كور الأهواز) وولى بعد وفاة أبيه وبعهد منه (سنة ١٥٨ هـ) وأقام فى الخلافة عشر سنين وشهرا، ومات فى ماسبنذان، صريعا عن دابته فى الصيد، وقيل مسموما، كان محمود العهد والسيرة، محببا إلى الرعية، حسن الخلق والخلق، جوادا ، وهو أول من مشى بين يديه بالسيوف المتصلة والقسى والنشاب والعمد، وأول من لعب بالصوالجة فى الإسلام وهو الذى بنى جامع الرصافة، وتربته بها، وانمحى أثر الجامع والتربة بعد ذلك. انظر فوات الوفيات ٢/٢٢٥، دول الإسلام ٧/٨٦، البدء والتاريخ ٦/٩٥ اليعقوبى ٣/١٢٥، ابن الأثير ٦/٢٧، الطبرى ١٠/١١ - ٢١، النبراس ٣١ - ٣٥ المسعودى ٢/١٩٤ - ٢٠١، تاريخ بغداد ٥/٢٩١، الوافى بالوفيات ٣/٣٠٠ . الأعلام ٦/٢٢١.

(٢) الهادى (١٤٤ - ١٧٠ هـ ٧٦١ - ٧٨٦م). موسى الهادى بن محمد (المهدى) بن أبى جعفر المنصور، أبو محمد: من خلفاء الدولة العباسية ببغداد ولد بالرى وولى بعد وفاة أبيه (سنة ٢٦٩هـ) وكان غائبا بجرجان فأقام أخوه الرشيد بيعته واستبدت أمه الخيزران بالأمر وأراد خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر، فلم تر أمه ذلك، فزجزها فأمرت جواريها أن يقتلنه فخنقنه، ودفن فى بستانه بعيس آباذ ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر. انظر ابن الأثير ٦/٢٩ - ٣٦ ، اليعقوبى ٣/١٣٦، المرزبانى ٣٧٩ الطبرى ١٠/٢١، ٣٣ ، تاريخ الخميس ٢/٣٣١، بلغة الظرفاء ٤٨، النبراس ٣٥، مروج الذهب ٧/٢٠١، تاريخ بغداد ١٣/البدء والتاريخ ٦/٩٩، الأعلام ٧/٣٢٧.

(٣) هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣ هـ ٧٦٦- ٨٠٩م). هارون الرشيد بن محمد المهدى بن المنصور العباسى، أبو جعفر خامس خلفاء الدولة العباسة فى العراق، وأشهرهم، ولد بالرى، لما كان أبوه أميرا عليها وعلى خراسان ونشأ فى دار الخلافة ببغداد وولاه أبوه غزو الروم فى القسطنطينية، فصالحته الملكة: إيرينى. وافتدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار تبعث بها إلى خزانة الخليفة فى كل عام. وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادى (سنة ١٧٠هـ) فقام بأعبائها، وازدهرت الدولة= =فى أيامه

يوما، وقيل وشهر وستة عشر يوما وكان مواظبا على الحج، متابعا للغزو واتخذ المصانع والآبار والبرك والقصور بطريق مكة، وبمكة ومنى وعرفات والمدينة النبوية، وعم الناس إحسانه وعدله، وبنى الثغور ومدَّن المدن، وحصن فيها الحصون، مثل طرسوس وأدنه، وعمر المصيصة ومرعش وغير ذلك، فاقتدى الناس به، وهو أول خليفة لعب بالصوالجة فى الميدان، ورمى بالنشاب فى البرجاس، ولعب بالشطرنج، وقرب أرباب هذه الأمور، وأجرى لهم الأرزاق، فاقتدى به الناس. وكانت أيامه كأنها من حسنها أعراس. فبويع بعده ابنه الأمين محمد بن هارون، وأقام أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام، فقدم الخدم، ورفع منازلهم، وشغف بهم، فاتخذت له أمه الجوارى الغلاميات، فاتخذ الناس فى أيامه ذلك فقام من بعده أخوه المأمون عبد الله بن هارون مدة اثنتين وعشرين سنة منذ سلم عليه بالخلافة، ومدة عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام، وقيل وخمسة وعشرين يوما، بعد قتل أخيه. وكان أولا ينظر فى أحكام النجوم ويعمل بموجبها، ويكثر النظر فى كتب القدماء من الحكماء، فلما قدم بغداد أعرض عن ذلك كله، وقال بأقوال المعتزلة، وقرب أرباب العلوم، وطلبهم من الآفاق، وأجرى عليهم الأرزاق، فرغب الناس فى العلوم الجدلية، وصنف كل أحد فيها ما ينصر به مذهبه، وكان كريما عفوا، فاقتدى الناس به فى أحواله كلها. وقام بعد المأمون أخوه المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن هارون، مدة ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، وهو أول من أدخل الأتراك الديوان، وكان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وكان يغلب عليه الفروسية، ويتشبهه بالعجم فى عامة أحواله[......][1] وقام من بعده ابنه الواثق بالله أبو جعفر هارون بن محمد[2] مدة

واتصلت المودة بينه وبين ملك فرنسا كارلوس الملقب بشارلمان فكانا يتهاديان التحف وكان الرشيد عالما بالأدب وأخبار العرب والحديث و الفقه، فصيحا، له شعر أورد صاحب الديارات نماذج منه، وله محاضرات مع علماء عصره، شجاعا كثير الغزوات، يلقب بجبار بنى العباس، حازما كريما متواضعا، يحج سنة ويغزو سنة، لم ير خليفة أجود منه، ولم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على بابه من العلماء والشعراء والكتاب والندماء. وكان يطوف أكثر الليالى متنكرا... وهو أول خليفة لعب بالكرة والصولجان ولايته ثلاث وعشرين سنة وشهران وأيام توفى فى سنابا من قرى طوس، وبها قبره. انظر البداية والنهاية ٢١٣/١٠، اليعقوبى ١٣٩/٣، النهب المسبوك ٤٧ – ٥٨، ابن الأثير ٦٩/٦، الطبرى ٤٧/١٠ – ١١٠، تاريخ الخميس ٣٣١/٢ المرزبانى ٤٨٤، البدء والتاريخ ١٠١/٦، ثمار القلوب ٨٨، النبراس ٣٦ – ٤٢، المسعودى ٢٠٧/٢ – ٢٣١، تاريخ بغداد ٥/١٤، تراجم إسلامية ١١/الديارات ١٤٤ ، ١٤٦، بلغة الظرفاء ٤٩، هارون الرشيد لقلبى١، مختصر تاريخ الإسلام ابن على ٢٠٤ – ٢١٧ .الأعلام ٦٢/٨ .

(٢) الواثق بالله (٢٠٠ – ٢٣٢ هـ ٨١٥ – ٨٤٧م). هارون (الواثق بالله) بن محمد المعتصم=

خمس سنين وتسعة أشهر وستة أيام. وفى أيامه كانت المحنة وكان كثير الأكل، واسع الطعام. فقام من بعده المتوكل على الله جعفر بن المعتصم[1] مدة أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام، وقتله الأتراك، وتحكموا من حينئذ فى ممالك الدنيا. وهو الذى رفع المحنة، ونهى عن الجدل وعاقب عليه، وأمر بإظهار رواية الحديث. وأقام بعده ابنه المنتصر محمد بن جعفر[2]، فمات بعد ستة أشهر تنقص أياما. وأقيم بعده المستعين بالله أحمد بن محمد المعتصم[3] فأقام ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يوما، وخلعه

=بالله ابن هارون الرشيد العباس، أبو جعفر : من خلفاء الدولة العباسية بالعراق. ولد ببغداد، وولى الخلافة بعد وفاة أبيه (سنة ٢٢٧ هـ) فامتحن الناس فى خلق القرآن وسجن جماعة، وقتل فى ذلك أحمد بن نصر الخزاعى، بيده (سنة ٢٣١ هـ).. ومات فى سامراء، قيل: بعلة الاستسقاء. انظر ابن الأثير ٧/١٠، والطبرى ١١/٢٤، اليعقوبى ٣/٢٠٤، الأغانى ٩/٢٧٦ - ٢٠٠، تاريخ الخميس ٢/٣٣٧، المرزبانى ٤٨٤، البزاس ٧٣ ٠ ٨٠، مروج الذهب ٢/٢٧٨ - ٢٨٨، تاريخ بغداد ١٤: ١٥. الأعلام ٦٢، ٨/٦٣.

(١) المتوكل (٢٠٦ - ٢٤٧ هـ ٨٢١ - ٨٦١م). جعفر (المتوكل على الله) بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد، أبو الفضل: خليفة عباسى. بويع بعد وفاة أخية الواثق (سنة ٢٣٢ هـ) وكان جوادا امحبا للعمران، من آثاره المتوكلية بغداد، أنفق عليها أموالا كثيرة، وسكنها. ولما استخلف كتب إلى أهل بغداد كتابا قرئ على المنبر بترك الجدل فى القرآن، وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلقه أو غير خلقه. ونقل مقر الخلافة من بغداد إلى دمشق، فأقام بهذه شهرين، فلم يطب له مناخها، فعاد وأقام فى سامراء، إلى أن اغتيل فيها ليلا، بإغراء ابنه (المنتصر) ولبعض الشعراء هجاء فى المتوكل لهدمه قبر الحسين وما حوله، سنة ٢٣٦ هـ. انظر الدول الإسلامية ٢٠، تاريخ الخميس ٢/٣٣٧، تاريخ بغداد ٧/١٦٥، النبراس ٨٠ - ٨٥، ثمار القلوب ١٤٩، اليعقوبى ٣/٢٠٨، ابن الأثير ٧/١١، ٢٩، الطبرى ١١/٢٦، ٦٢، مروج الذهب ٢/٢٨٨. الأعلام ٢/١٢٧.

(٢) المنتصر العباسى (٢٢٣ - ٢٤٨ هـ - ٨٣٨ - ٨٦٢م). (المنتصر بالله) بن جعفر (المتوكل على الله) بن المعتصم، أبو جعفر: من خلفاء الدولة العباسية ولد فى سامراء، وبويع بالخلافة بعد أن قتل أباه (سنة ٢٤٧ هـ) وفى أيامه قويت سلطة الغلمان، فحرضوه على خلع أخويه المعتز والمؤيد (وكان أولى عهده) فخلعهما وهو أول من عدا على أبيه من بنى العباس ولم تطل مدته وكان إذا جلس إلى الناس يتذكر قتله لأبيه فترعد فرائضه. قيل: مات مسموما بمبضع طبيب. ووفاته بسامراء. ومدة خلافته ستة أشهر وأيام وهو أول خليفة من بنى العباس عرف قبره، وكانوا لايحفلون بقبور موتاهم، إلا أن أمه طلبت إظهار قبره وكان له خاتمان نقش على أحدهما محمد رسول الله وعلى الثانى المنتصر بالله. انظر بن الأثير ٧/٣٢/٣٦، النبراس ٨٥، الطبرى ١١/٦٩ - ٨١ اليعقوبى ٣/٢١٧ ، الأغانى ٩/٣٠٠، تاريخ خميس ٢/٣٣٩، المرزبانى ٤٤٦، تاريخ بغداد ٢/١١٩، المسعودى ٢/٣١١ - ٣١٩ فوات الوفيات ٢/١٨٤.الأعلام ٦:٧٠

(٣) المستعين بالله (٢١٩ - ٢٥٢ هـ ٨٣٤ - ٨٦٦م). أحمد بن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبوالعباس، أمير المؤمنين، المستعين بالله من خلفاء الدولة العباسية فى العراق ولد بسامراء،= وكانت إقامته فيها. بويع بها بعد وفاة المنتصر بن المتوكل (سنة ٢٤٨هـ) قال اليعقوبى : ولم يكن

الأتراك وعذبوه، ثم قتلوه بعد تسعة أشهر من خلعه. والمستعين أول من أحدث لبس الكِمام الواسعة، فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار، وصغّر القلانس وكانت قبله طوالا. وأقيم بعده المعتز با لله محمد بن المتوكل[(١)] ثم خلعه الأتراك وعذبوه بالضرب حتى مات، فكانت خلافته مدة ثلاث سنين وستة أشهر وواحد وعشرين يوما، وقيل وأربعة وعشرين يوما، وهو أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب - وكان من قبله من خلفاء بنى أمية وبنى العباس يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة فى المناطق - واتخاذ

يؤهل للخلافة ، ولكن لما توفى المنتصر استوحش الأتراك من ولد المتوكل ، فبايعوه وأنكر بعض القواد البيعة، ففرق أموالا كثيرة فاستقامت أموره وكان المتحكم فى الدولة على عهده «أوتامش» التركى ورحاله، فثارت عصبة من الأتراك والموالى على أوتامش بموافقة المستعين - فقتلوه وقتلوا كاتبه شجاع بن القاسم (سنة ٢٤٩ هـ) وكتب المستعين إلى الآفاق بلعنه. وفى أيامه ظهر يحيى بن عمر الطالبى بالكوفة وقتل وقامت ثورات فى الأردن وحمص والمعرة والمدينة والروذان بين فارس وكرمان، وانتقل إلى بغداد، فغضب القواد وطلبوا عودته إلى سامراء، فامتنع فنادوا بخلعه، واتصلوا بالمعتز - وكان سجينا بسامراء - فأطلقوا وبايعوه، وزحفوا لقتال المستعين ببغداد ، فانتشرت الفوضى فيها، فخلع نفسه واستسلم للمعتز لقاء مال معلوم يدفع إليه، ورحل إلى واسط بأمه وأهله أوائل سنة ٢٥٤، فأقام ١٠ أشهر، ونقله المعتز إلى القاطول فسلك فيها إلى حاجب يدعى سعيد بن صالح فضربه حتى مات وقال ابن شاكر كان قبل الخلافة خاملا يرتزق بالنسخ وأورد وله نظما وكان يلثغ بالسين يجعلها ثاء انظر: اليعقوبى ٣: ٢١٨ والطبرى ١١: ٨٢ و١٣٧ - ١٤٦ والمسعودى ٢: ٣١٩ . ٣٣٠ وابن الأثير ٧: ٣٧ - ٥٦ وتاريخ بغداد ٥: ٨٤ والنجوم الزاهرة ٢ - ٣٣٥ والنبراس ٨٦ وشذرات الذهب ٢: ١٢٤ وتاريخ الخميس ٢: ٣٤ وفوات الوفيات ١: ٦٨ والأعلام ١-٢٠٤، ٢٠٥.

(١) المعتز العباسى (٢٣٢ - ٢٥٥ هـ ٨٤٦ - ٨٦٠ م).محمد (المعتز با لله) بن جعفر (المتوكل على ا لله) بن المعتصم : خليفة عباسى (هو أخو المنتصر با لله) ولد فى سامراء وعقد له أبوه البيعة بولاية العهد سنة ٢٣٥ هـ، وأقطعه خراسان وطبرستان والرى و أرمينية وأذربيجان وكور فارس، ثم أضاف إليه خزن الأموال فى جميع الآفاق، ودور الضرب، وأمر أن يضرب اسمه على الدراهم، ولما ولى المستعين با لله (سنة ٢٤٨ هـ) سجن المعتز، فاستمر إلى أن أخرجه الأتراك بعد ثورتهم على المستعين وبايعوا له (سنة ٢٥١هـ) فكانت أيامه فتن وشغبا وجاءه قواده فطلبوا منه مالا لم يكن يملكه، فاعتذر، فلم يقبلوا عذره، ودخلوا عليه فضربوه، فخلع نفسه، فسلموه إلى من يعذبه، فمات بعد أيام شاب قيل اسمه الزبير وقيل طلحة وكان فصيحا له خطبة ذكرها ابن الأثير فى الكلام على وفاته وما زال يعذب بالضرب حتى مات بسر من رأى، وقيل: أدخل الحمام فأغلق عليه حتى مات مدة خلافته ثلاث سنوات وستة أشهر و ١٤ يوما. انظر ابن الأثير ٤٥/٧ - ٦٤، اليعقوبى ٢٢٢/٣، تاريخ بغداد ١٢١/٢، الديارات ١٠٤ : ١٠٩، الطبرى ١٦٢/١١ الأغانى ٣١٨/٩.تاريخ الخميس ٣٤٠/٢، المرزبانى ٤١٦، النبراس ٨٧، المسعودى ٣٣٠/٢ - ٣٣٨ ، فوات الوفيات ١٨٥/٢.

السيوف والسروج واللُّجَم، فلما ركب المعتز بحلية الذهب تبعه الناس فى فعل ذلك. وأقيم بعده المهتدى با لله محمد بن الواثق(١) ثم قتله الأتراك بعد أحد عشر شهرا وتسعة عشر يوما. وأقيم بعده المعتمد با لله أحمد بن المتوكل(٢) فغلبه الأتراك، واستبد عليه أخوه الموفق با لله أبو أحمد طلحة(٣) وخرج فى أيامه صاحب الزنج (٤)، فحاربه الموفق أعواما

---

(١) محمد بن هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، أبو عبد الله، المهتدى با لله، العباسى: من خلفاء الدولة العباسية ولد فى القاطول (بسامراء) وبويع له بعد خلع المعتز (سنة ٢٥٥هـ) ولم يلبث أن انتقض عليه الترك ببغداد، فخرج لقتالهم ونشبت الحرب فتفرق منه من كان معه من جنده (وهم من الترك أيضا) وانضموا إلى صفوف أصحابهم، فبقى المهتدى فى جماعة يسيرة من جنده أيضا فانهزم والسيف فى يده، ينادى: يامعشر المسلمين، أنا أمير المؤمنين، قاتلوا عن خليفتكم ! فلم يجبه أحد، وأصيب بطعنة مات على أثرها . وكان حميد السيرة، فيه شجاعة، يأخذ مأخذ عمر بن عبد العزيز فى الصلاح مدة خلافته أحد عشر شهرا وأيام.انظر ابن الأثير ٦٤/٧ . ٧٧، الفوات ٢٧٠/٢، تاريخ الخميس ٣٤/٢ المرزبانى ٤٤٧، الطبرى ١٦٢/١١ - ٢١٢، اليعقوبى ٢٢٧/٣، الأعلام ١٢٨/٧.

(٢) المعتمد على الله (٢٢٩-٢٧٩ هـ = ٨٤٣ - ٨٩٢ م). أحمد بن المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم، أبو العباس المعتمد على الله: خليفة عباسى ولد بسامراء، وولى الخلافة سنة ٢٥٦ هـ بعد مقتل المهتدى با لله بيومين وطالت أيام ملكة، وكانت مضطربة كثيرة العزل والتولية، بتدبير الموالى وغلبتهم عليه، فقام ولى عهده أخوه الموفق با لله (طلحة) فضبط الأمور، وصلحت الدولة وانكفت يد المعتمد عن كل عمل حتى أنه احتاج يوما إلى مائه دينار فلم ينلها. وكان من أسمح آل عباس، جيد الفهم، شاعرا، إلا أنه لما غلب على أمره انتقصه الناس، وكان مقام الخلفاء قبلة فى سامراء فانتقل المعتمد منها إلى بغداد ، فلم يعد إليها أحد منهم بعده . وكان موته ببغداد، وحمل إلى سامراء فدفن فيها. انظر ابن الأثير ٧٧/٧ - ١٥١، اليعقوبى ٢٢٨/٣، البدء والتاريخ ١٢٤/٦، الطبرى ٢١٤/١١ - ٣٤١، تاريخ الخميس ٣٤٢/٢. تاريخ بغداد ٦٠/٤، النبراس ٨٩/مروج الذهب ٣٤٥/٢، الديارات ٦٣ - ٦٩.الأعلام ١٠٧/١.

(٣) الموفق با لله (... - ٢٧٨ هـ - ... ٨٩١ م). طلحة (الموفق با لله) بن جعفر (المتوكل على الله) بن المعتصم، العباس، أبو أحمد أمير، من رجال السياسة والإدارة والحزم، لم يل الخلافة اسما، ولكنه تولاها فعلا، ولد ومات فى بغداد. ابتدأت حياته العملية بتولى أخيه المعتمد على الله الخلافة (سنة ٢٥٦ هـ) وآلت إليه ولاية العهد وظهر ضعف المعتمد عن القيام بأعباء الدولة، فنهض بها الموفق، وصد عنه غارات الطامعين بالملك، ثم حجر عليه، حتى كان المعتمد يتمن الشىء اليسير فلا يحصل عليه وكان شجاعا موفقا عادلا، عالما بالأدب والأنساب والقضاء له مواقف محمودة فى الحروب وغيرها، وتوفى فى أيام أخيه المعتمد. انظر الكامل: حوادث سنة ٢٧٨ هـ، الطبرى ١٥٨/٨، تاريخ بغداد ١٢٧/٢، النجوم الزاهرة ٧٩/٣. الأعلام ٢٢٩/٣.

(٤)صاحب الزنج (... ٢٧٠ هـ - ٨٨٣ م).على بن محمد الورزنينى العلوى، الملقب صاحب الزنج، من كبار أصحاب الفتن فى العهد العباسى وفتنته معروفة بفتنة الزنج لأن أكثر أنصاره منهم=

كثيرة ثم مات الموفق بعد قتله صاحب الزنج، فاختلت أمور المعتمد وقتل، وكانت مدته اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما، وهو أول خليفة قُهِرَ وحجر عليه ووكِّل به، فقام من بعده المعتضد أحمد بن الموفق طلحة[1] واستبد بالأمر، وخرجت القرامطة فى أيامه، ومات وله فى الخلافة مدة عشر سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام، وقيل تسع سنين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوما ولما مات كفن فى ثوبين قيمتهما ستة عشر قيراطا. فولى بعده ابنه المكتفى با لله على [2] وجَدَّ فى حرب القرامطة وهزمهم، وأزال دولة بنى طولون من مصر والشام، ومات وله مدة ست سنين وستة أشهر وستة عشر يوما وقيل تسعة عشر يوما. فأقيم من بعده أخوه المقتدر با لله جعفر بن المعتضد،

=ولد ونشأ فى ورزنين إحدى قرى الرى وظهر فى أيام المهتدى با لله، العباسى سنة ٢٥٥ هـ، وكان يرى رأى الأزارقة والتف حوله سودان أهل البصرة ورعاعها. فامتلكها واستولى على الأبلة. وتتابعت لقتاله الجيوش، فكان يظهر عليها ويشتتها ونزل البطائح، وامتلك الأهواز، وأغار على واسط، وبلغ عدد جيشه ثلاثمائة ألف مقاتل وجعل مقامه فى قصر اتخذه بالمختارة وعجز عن قتاله الخلفاء، حتى ظفر به الموفق با لله فى أيام المعتمد، فقتله وبعث برأسه إلى بغداد... وفى نسبه العلوى طعن وخلاف. انظر دول الإسلام ١٢٦/١، المرزبانى ٢٩١، الطبرى ١٧٤/١١ ابن خلدون ١٨/٤. الأعلام ٣٢٤/٤.

(١) المعتضد با لله(٢٤٢ - ٢٨٩هـ، ٨٥٧ - ٩٠٢م). أحمد بن طلحة بن جعفر أبو العباس المعتضد با لله بن الموفق با لله بن المتوكل: خليفة عباسى، ولد ونشأ ومات فى بغداد كان عون أبيه فى حياته أيام خلافة المعتمد، وأظهر بسالة ودراية فى حروبه مع الزنج والأعراب وهو فى سن الشباب وبويع له بالخلافة بعد وفاة عمه المعتمد (سنة ٢٧٩هـ) فحل عن بنى العباس عقده المتغلبين وظهر بمظهر الخلفاء العاملين. ثم جعل يتوجه بنفسه إلى أصحاب الشغب فى البلاد فيقمع ثائرتهم. وجعل أمراء الجند مسئولين عن أعمال أتباعهم وكان شجاعا ذا عزم، مهيبا عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن المظالم خوفا منه ومن المورخين من يقول: قامت الدولة بأبى العباس وحددت بأبى العباس. يريدون السفاح ولمعتضد.مدة خلافتة ٩ سنوات و ٩ أشهر و١٣ يوما وكان نقش خاتمه أحمد يؤمن با لله الواحد.انظر النجوم الزاهرة ١٢٨/٣، شذرات الذهب ١٢٩/٢، فوات الوفيات ٤٥/١، ابن الأثير ١٤٧/٧ - ١٦٩، والطبرى ٣٧٣/١١، الأغانى ٤١/١١ تاريخ الخميس ٣٤٢/٢، النبراس ٩٠ - ٩٤، المسعودى ٣٦١/٢ - ٣٨٢ تاريخ بغداد ٣٠٤/٤، المنتظم القسم الثانى من ج ١٢٣/٥ - ١٣٨ الأعلام ١/١٤.

(٢)المكتفى العباسى (٢٦٣ - ٢٩٥ هـ ٨٧٦ - ٩٠٨م). على (المكتفى با لله) بن أحمد المعتضد ابن الموفق بن المتوكل ، أبو محمد: من خلفاء الدولة العباسية فى العراق. وكان مقيما بالرقة، وجاءه نعى أبيه المعتضد (سنة ٢٨٩هـ) فبويع بها. وانتقل إلى بغداد، فقام بشئون الملك قياما حسنا. وظفر فى أكثر ما كان من الوقائع بينه وبين الثائرين عليه ... وتوفى سابًّا ببغداد. انظر بن الأثير ٣/٨، الطبرى ٤٠٤/١١، الخميس ٣٤٥/٢ النبراس ٩٤، مروج الذهب ٣٨٢/٢، ٣٩٠ تاريخ بغداد ٣١٦/١١، فوات الوفيات ٤١/٢. الأعلام ٢٥٣/٤.

وعمره ثلاث عشرة سنة وشهران وثلاثة أيام، لم يبلغ الحُلُم، وهو أول من ولى الخلافة من الصبيان، فغلبت على أموره النساء والخصيان، وأكثر من قتل الوزراء ومن قام وبتغييرهم، فاضطربت عليه الأمور، فلم يقم غير أربعة أشهر، وخلع بعبد الله بن المعتز[1] ثم قتل ابن المعتز بعد يوم وليلة وأعيد المقتدر، وخرجت القرامطة فى أيامه، وأخذوا الحجر الأسود من الكعبة إلى بلادهم، وخرج عليه أيضا الديلم، وظهر عبيد الله المهدى بإفريقية ودعا لنفسه، وقطع دعوة بنى العباس من بلاد المغرب وبرقة[2] ثم إن المقتدر خلع مرة ثانية، وأقيم بدله القاهر بالله محمد بن المعتضد، ثم أعيد المقتدر، وغلب عليه أصحاب الدواوين، ولم يجعلوا له أمرا ينفذ، وصارت ثُمْل القهرمانة إحدى جواريه تجلس للمظالم، ويحضرها الوزراء والقضاة والفقهاء، وفى أيامه انقطع الحج، وكثر الهزل والمجون، وآخر أمره أنه قتل بعدما أقام فى الخلافة أربعا وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام، وقيل وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما عندما خرج على الجند وقد شغبوا وهو متشح بالبردة النبوية، فقتل وتلوثت بالدم. فقام من بعده القاهر بالله محمد بن المعتضد، ثم خلع وكُحل بمسمار، وقد حمى فى النار مرتين، حتى سالت عيناه، بعد سنة وستة أشهر وثمانية أيام. وآل أمره أن كان يقوم يوم الجمعة بالجامع، ويسأل الناس فيقول: يا معاشر الناس، أنا بالأمس كنت خليفتكم، واليوم أسألكم ما فى أيديكم، فيتصدق عليه. وقام من بعده فى الخلافة الراضى بالله محمد بن المقتدر، وفى أيامه استولى الروم على عامة الثغور وكان مغلوبا عليه مع مواليه، لا يقدر على شىء، ومات بعد ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، وقيل وتسعة أيام من خلافته. والراضى آخر خليفة خليفة له شعر مدون، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال، وآخر بنى، وآخر خليفة

---

(١) عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسى ٢٤٧ - ٢٩٦ هـ ٨٦١ - ٩٠٩م). أبو العباس: الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة ولد فى بغداد، وأولع بالأدب فكان يقصد فصحاء العرب ويأخذ عنهم وجاءته النكبة من حيث يسعد الناس: آلت الخلافة فى أيامه إلى المقتدر العباسى واستصغره القواد فخلعوه وأقبلوا على صاحب الترجمة، فلقبوه المرتضى بالله وبايعوه بالخلافة، فأقام يوما وليلة، ووثب عليه غلمان وعاد المقتدر فقبض عليه وسلمه إلى خادم له اسمه مؤنس، فخنقه وفيه قال مغلقاى مكث فى الخلافه يوما وليلة ، وقتل بعضهم لم يذكره مع الخلفاء وسماه الأمير لا أمير المؤمنين ومذهب بعضهم أنه أمير المؤمنين ولو لم يل الخلافة فإنه كان أهلا لها تاريخ بغداد ١٠/ ٩٥ وأشعار أولاد الخلفاء ١٠٧ - ٢٩٦ وفيه كثير من شعره. ونماذج من نثره وفوات الوفيات ١: ٢٤١ ومفتاح السعادة: ١: ١٩٩انظر الأعلام ١١٩/٤.

(٢) برقة. بفتح أوله والقاف اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وأفريقية، واسم مدينتها انطابلس وتفسيره الخمس مدن. قال بطليموس طول مدينة برقة ثلاث وستون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقايق. انظر معجم البلدان (برقة).

خطب يوم جمعة، وآخر خليفة جالس الندماء، ووصل إليه العدماء، وآخر خليفة كانت نفقته وجوائزه، وعطاياه وخدمه وجراياته وخزائنه، ومطابخه وشرابه، ومجالسه وحجابه وأموره جارية على ترتيب الخلافة الأول، وآخر خليفة سافر بزى الخلفاء القدماء، وقد سافر بعده المتقى والطائع. ثم قام بعده أخوه المتقى لله إبراهيم بن المقتدر، وكان خيرًا عابدا، وفى أيامه تغلب بنو حمدان على الجزيرة والشام، وكثر الاختلاف عليه، فخلعه توزون التركى، وكحله كما كحل القاهر، ثم حبسه مع القاهر وهما مكحولان، فقال القاهر:

صرت وإبراهيم نخى عمى   لابد للنخين من صدر

مادام توزون له إمرة   مطاعة فالميل فى الجمر

وكان ذلك بعد ثلاث سنين وأحد عشر شهرا، ومات بعد خلعه بخمس وعشرين سنة. وقام من بعده لما خلع المستكفى با لله عبد ا لله بن المكتفى، فاستولت الديلم على البلاد، ووقع الاختلاف عليه، فقبض وكحل على يد معز الدولة أحمد بن بويه [١] فكانت أيامه سنة وأربعة أشهر ويومين. وأقيم من بعده المطيع لله الفضل بن المقتدر [٢] فأقام تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحدا وعشرين يوما، ليس له سوى الاسم، والمدبر للأمور معز الدولة، وقد فرض لنفقة المطيع فى كل يوم مائتى دينار، وفى أيامه قدمت عساكر المعز لدين ا لله أبى تميم [٣] معد إلى مصر، وانقطعت الدعوة العباسية من

---

(١) أحمد بن بويه (معز الدولة) (٣٠٣ - ٣٥٦ هـ ٩١٥ - ٩٦٧م). أحمد بن بويه بن فناخسرو ابن تمام، من سلالة سابور ذى الأكتاف الساسانى، أبو الحسن معز الدولة: من ملوك بنى بويه فى العراق. فارسى الأصل، مستعرب. كان فى أول أمره يحمل الحطب على رأسه، ثم ملك هو وأخواه عماد الدولة و ركن الدولة البلاد. انظر وفيات الأعيان ٢٥٦/١ تجارب الأمم ١٤٦/٦، ٢٣١ الأعلام ١٠٥/١.

(٢)المطيع لله (٣٠١ - ٣٦٤ هـ ٩١٣ - ٩٧٤م). الفضل (المطيع لله) بن جعفر (المقتدر با لله) ابن المعتضد العباسى، : أبو القاسم: من خلفاء الدولة العباسية. بويع بالخلافة بعد خلع المستكفى با لله (سنة ٣٣٤هـ). انظر ابن الأثير ١٤٨/٨ - ٢١٠، فوات الوفيات ١٢٥/٢، تاريخ الخميس ٣٥٣/٢، المسعودى ٤٢٩/٢، النبراس ١٢١ الأعلام ١٤٧،/٥ .

(٣) المعز الفاطمى (٣١٩؟ - ٣٦٥ هـ ٩٣١ - ٩٧٥/). سعد (المعز لدين ا لله) بن إسماعيل (المنصور) بن القاسم بن المهدى عبيد ا لله الفاطمى العبيدى، أبو تميم: صاحب مصر وأفريقية، وأحد الخلفاء فى هذه الدولة ولد بالمهدية وبويع له بالخلافة فى المنصورية بعد وفاة أبيه ٣٤١هـ. انظر الخلاصة النقية ٤١، وفيات الأعيان ١٠١/٢، المنتظم ٨٢ مورد اللطافة ١- ٣، ابن إياس ٤٥/١، أعمال الأعلام ٢٤، اتعاظ الحنفا ١٣٤، ابن خلدون ٤٦/٤، ابن الأثير ١٦٥/٨ - ٢٢٠، البيان المعرب ٢٢١/١ بلغة الظرفاء ٧٠، هدية العارفين ٤٦٥/٢، حلى القاهرة ٣٨ - ٤٥. الأعلام ٢٦٥/٧.

الشام. وأقام المطيع إلى أن خلع نفسه، وأقام ابنه الطائع لله عبد الكريم[١] فمكث الطائع سبع عشرة سنة وتسعة أشهر وستة أيام محكوما عليه ببنى بويه، ثـم خلـع وحبس فقيرا ذليلا حتى مات. وكان الطائع كثير الانحراف على آل على بـن أبـى طـالب، وسـقطت الهيبة فى أيامه حتى هجاه الشعراء وطولوا. وقام من بعده القادر با لله أحمد بـن إسـحاق ابن المقتدر[٢] فأقام إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وقيـل ثلاثـا وأربعـين سـنة وثلاثـة أشهر وأحد عشر يوما، وكان دينا بـارا بأهلـه وبالطـالبين. وفـى أيامـه عظمـت الديلـم والباطنية، واشـتهر مذهـب الاعتزال، ومذاهـب الباطنيـة والرافضـة، وانتشـر ذلـك فـى الأرض. وفى أيامه ظهر السلطان يمين الدولة محمود بن سَبُكْتَكِين[٣] وغـزا الهنـد. وقـام من بعده ابنه القائم بأمر ا لله عبد ا لله، فثار عليه أرسلان البساسيرى[٤]، وصار يدعى لـه

---

(١) الطائع لله (٣١٧ - ٣٩٣هـ ٩٢٩ - ١ - ٣م). عبد الكريم بن الفضل المطيع لله بن المقتدر العباسى، أبو الفضل، الطائع لله: من خلفاء الدولة العباسية بالعراق، أيام ضعفها ولد ببغداد، ونزل له أبوه (المطيع) عن الخلافة (سنة ٣٦٣هـ). انظر فـوات الوفيـات ٣/٢، تـاريخ بغـداد ٧٩/١١، نكـت الهميـان ١٩٦، بـن الأثير ٢١٠/٨، ٢٧/٩، ٦١، تـاريخ الخميـس ٣٥٤/٢، ٣٥٦. النـبراس ١٢٤، الأعلام ٥٣/٤.

(٢) القادر با لله (٣٣٦ - ٤٢٢هـ ٩٤٧ - ١٠٣١م). أحمد بن إسحاق بن المقتدر، أبو العبـاس، القادر با لله: الخليفة العباسى، أمير المؤمنين ولى الخلافة سنة ٣٨١ هـ وطالت أيامه . انظـر ابـن الأثير ٢٨/٩، ١٤٣، تاريخ الخميس ٣٥٥/٢، تاريخ بغداد ٣٧/٤، النبراسى ١٢٧. الأعلام ٩٥/١.

(٣) محمود الغزنـوى (٣٦١ - ٤٢١هـ ٩٧١ - ١٠٣١-م). محمـود بـن سبكتكين الغزنـوى، السلطان يمين الدولة أبو القاسم بن الأمير ناصر الدولة أبى منصور: فاتح الهند، وأحـد كبـار القـارءة. امتدت سلطنته من أقاصى الهند إلى نيسابور وكانت عاصمته غزنة بين خراسان والهند، وفيهـا ولادتـه ووفاته وقبره فى غزنة . وسيرته مدونة. وهو تركـى الأصـل، مستعرب كـان حازمـا صـائب الـرأى، يجالس العلماء ويناظرهم، وكان من أعيان الفقهاء فصيحا بليغا استعان بأهل العلم على تـأليف كتـب كثيرة فى فنون مختلفة، نسبت إليه، انظر. ابن الأثير ١٣٩/٩ وما قبلهـا و ابـن خلكـان ٨٤/٢ وفيـه: وفاته سنة إحدى وقيل اثنين وعشرين وأربعمائة قلت: عرفه ابن الجوزى فى كتاب أعمار الأعيـان خ بأمير خراسان، وقال: توفى وهو ابـن ثـلاث وسـتين سـنة وابـن خلـدون ٤/ ٣٦٣ والجواهـر المضيـة ١٥٨/٢ والبداية والنهاية ٢/ ٢٧. والأعلام ١٧١/٧.

(٤) أرسلان بن عبد ا لله، أبو الحارث البساسيرى، قائد، ثائر، تركى الأصل. كان من مماليك بنى بويه، وخدم القائم العباسى فقدمه على جميع الأتراك فى بغداد وقلده الأمور بأسرها، وخطب له علـى منابر العراق وخرسان، فعظم أمره وهابته الملوك، وتلقب بالمظفر. ثم خرج على القـائم وأخرجـه مـن بغداد، وخطب للمستنصر الفاطمى صاحب مصر (سنة ٤٥٠هـ) وأخـذ له بيعـة القضـاة والأشـراف ببغداد قسرا ولم يثق به المستنصر فأعمل أمره، فتغلب عليه أعوان القائم من عسكر السلطان طغرلبك، فقتلوه. وكانت ببغداد محلة كبيرة تنسـب إليـه. انظـر النجـوم الزاهـرة ٢/٥و ٦٤، ووفيـات الأعيـان ٦١/١، اللباب ١٢١/١. لأعلام ٢٨٨/١

على منابر العراق والأهواز[1] فكتب القائم إلى السلطان طُغْرِلْبَك بن مِيكائِيل بن سلجوق التركماني، أول ملوك بنى سلجوق، فقدم بغداد وفر منه البساسيرى بمن معه من الأتراك، وانتمى إلى المستنصر با لله مَعَد بن الظاهر الفاطمي صاحب مصر، فأمده بالأموال حتى أخذ بغداد، وقطع منها دعوة بنى العباس، وخطَب للمستنصر بها نحو سنة، والقائم محبوس، ثم قدم طغرلبك وأعاد القائم إلى الخلافة، وقتل البساسيرى، وتحكم فى سائر الأمور، فلم يزل القائم فى الخلافة حتى مات وله أربع وأربعين سنة وثمانية أشهر وكان ديِّنا خيِّرا كثير الصلاة، إلا أنه كان كثير الإصغاء إلى من يشير عليه، فاتفق أن وَزَرَ له رجل من سوقة بغداد يعرف بابن السلة، فحسن له مجيء الغُزِّ لأنه كان منحرفا عن الشيعة، فكاتبهم القائم، فلما جاءوا كان من أمرهم وأمر البساسيرى ما كان. وقام من بعده المقتدى بأمر ا لله عبد ا لله بن ذخيرة الدين محمد بن القائم، فلم يكن له سوى الاسم، لا يتعدى حكمه بابه، والتدبير إلى ملك شاه بن عضد الدولة، وأقام على ذلك تسع عشرة سنة وثمانية أشهر غير يومين، وقيل إلا خمسة أيام. وأقيم بعده ابنه المستظهر با لله أحمد [2] فأقام محكوما عليه خمسا وعشرين سنة، وقيل أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وواحدا وعشرين يوما، ومات. وفى أيامه أخذ الفرنجة بيت المقدس من المسلمين، واستمر ملكهم به. وقام من بعده ابنه المسترشد با لله الفضل بن أحمد [3] وقتل بعد سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوما. فقام بعده ابنه الراشد

---

(١) الأهواز: آخره زاى وهى جمع هوز وأصله حوز فلما كثر استعمال الفرس لهذه اللفظة غيرتها حتى أذهبت أصلها جملة. وكان اسمها فى أيام الفرس خوزستان وفى خوزستان مواضع يقال لكل واحد منها خوز كذا منها خوز بنى أسد وغيرها فالأهواز اسم للكورة بأسرها، وأما البلد الذى يغلب عليه هذا الاسم عند العامة اليوم فإنما هو سوق الأهواز انظر معجم البلدان.

(٢) المستظهر با لله (٤٧٠ - ٥١٢هـ ١٠٧٧ - ١١١٨م). أحمد المستظهر ينعبد ا لله المقتدى، بن محمد بن القائم، أبو العباس، ذخيرة الدين: خليفة عباس ولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٧هـ واتسق له الأمر على حداثة سنه وكان ممدوح السيرة، قال ابن الأثير: كان المستظهر لين الجانب، كريم الأخلاق يحب اصطناع الناس، ويفعل الخير ، لا يرد مكرمة تطلب منه، وقال فى أخلاقه السياسية: كان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ إلى سعاية ساع أو ملفت إلى قول واش، وله توقيعات تدل على فضل غزير. وكانت خلافته ٢٤ سنة و ٣ أشهر و ٢٠ يوما ومات ببغداد، ودفن فى حجرة له كان يألفها. انظر ابن الأثير ١٠: ٨٠ و١٨٨ وتاريخ الخميس ٢: ٦٣٠ والنبراس ١٤٠ ومرآة الزمان ٨: ٧٣ والأعلام ١٥٩/١.

(٣) المسترشد با لله الفضل بن أحمد.(٤٨٥ - ٥٢٩هـ - ١٠٩٢ - ١١٣٥م). الفضل المسترشد با لله، بن أحمد المستظهر با لله. بن المقتدى عبد ا لله بن محمد الهاشمى العباس، أبو منصور: من خلفاء الدولة العباسية، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه (سنة ٥١٢هـ) وكان عالى الهمة شجاعا، فصيحا، بليغ=

با لله منصور[(١)] وخلع ثم قتل، فكانت خلافته سنة تنقص عشرة أيام. وبويع بعده المقتفى لأمر الله محمد بن المستظهر[(٢)] فصفت له الدنيا، وسعد بوزيره عون الدين يحيى ابن محمد بن هبيرة، وقبض على جماعة من المتغلبين، وخرج بنفسه وحارب من ناوءه، وأقام أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وواحدا وعشرين يوما. فبويع بعده ابنه المستنجد با لله يوسف[(٣)] وأقام إحدى عشرة سنة وشهرا واحدا، ومات. فبويع بعده ابنه المستضىء بأمر الله الحسن[(٤)] وفى أيامه أعيدت الخطبة العباسية بالقاهرة ومصر، بعد

=التوقيعات له شعر جيد حديث فى أواخر أيامه فتنة بهمذان ، قام بها أمير أمرائه السلطان مسعود ابن ملكشاه السلجوقى فجرد المسترشد جيشا لقتاله، ودس له السلطان مسعود جمعا من رجاله، وأظهروا الطاعة، حتى نشبت الحرب فى موضع يقال له ما يمرج، فانقلبوا على الخليفة، وانهزم عسكره، وثبت وحده فى مقره فاعتقله السلطان مسعود وأخذه معه يريد دخول بغداد به فلما كانوا على باب مراغة دخل عليه جمع من الباطنية أرسلهم السلطان سنجر السلجوقى لقتله، فقتلوه ومثلوا به ودفن فى مراغة. انظر: فوات الوفيات ٢: ١٢٤ وابن الأثير ١٠: ١٨٩ ثم ١١: ١٠ وتواريخ آل سلجوق ١٧٨ وتاريخ الخميس ٢: ٣٧٦١ والنبراس ١٤٥ ومفرج الكروب ١: ٥ - ٦٠ و الإعلام لابن قاضى شهبة فى حوادث سنة ٥٢٩ ومرآة الزمان ٨: ١٥٦ وانظر الأعلام ١٤٧/٥.

(١) الراشد با لله (٥٠٤ - ٥٣٢ هـ ١١١٠ - ١١٣٨م). المنصور الراشد با لله، أو ابن جعفر بن الفضل المسترشد بن المستظهر: من خلفاء الدولة العباسية ببغداد ولى الخلافة بعد وفاة أبيه (سنة ٥٢٩هـ) وكان حسن السيرة يؤثر العدل ويكره الشر، أديبا شاعرا جوادا، خلف نيفا وعشرين ولدا. انظر: الكامل ١١/١٠- ٢٤، تواريخ آل سلجوق ١٧٨ - ١٨١، النبراس ١٥٦، مرآة الزمان ١٦٧/٨، الأعلام ٧/٣٠٢.

(٢) المقتفى لأمر الله (٤٨٩ - ٥٥٥ هـ ١٠٩٦ - ١١٦٠م). محمد بن أحمد، المقتفى بن المستظهر بن المقتدى العباسى: من أعاظم الخلفاء العباسيين، بويع سنة ٥٣٠ هـ، ودامت له الخلافة أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر، وتوفى ببغداد. انظر: النبراس ١٥٦، ابن الأثير ١٦/١١، ٩٦، تواريخ آل سلجوق ١٨٣ - ١٩٢، مفرج الكروب ١٣١/١ - ١٣٣. الأعلام ٣١٧/٥

(٣) المستنجد با لله (٥١٠ - ٥٦٦هـ ١١٦ ١١٧٠م) يوسف (المستنجد) بن محمد (المقتفى) بن المستظهر، أبو المظفر العباسى: من خلفاء الدولة العباسية ببغداد، بويع له بعد وفاه أبيه ٥٥٥هـ فأزال المكوس ورفع الضرائب عن الناس. انظر: ابن الأثير ٩٦/١١ ، ١٣٤، تاريخ الخميس ٣٦٣/٢، مرآة الجنان ٣، ٣٧٩، النبراس ١٥٨، مرآة الزمان ٢٨٤/٨ مفرج الكروب ١٣٤/١، ١٩٣ - ١٩٥ الأعرم ٨/٢٤٧ .

(٤) المستضىء با لله (٥٣٦ - ٥٧٥ هـ ١١٤٢ - ١١٨٠م). الحسن بن المستنجد با لله يوسف ابن المقتفى العباس الهاشمى، أبو محمد المستضىء با لله: خليفة من العباسيين فى العراق وكان جوادا حليما محبا للعفو، قليل المعاقبة على الذنوب، كريم اليد بويع بعد وفاة أبيه وبعهد منه (سنة ٥٦٦هـ) وصفت له الخلافة تسع سنين وسبعة أشهر وكانت أيامه مشرقة بالعطاء والعدل. قال ابن شاكر: لما تولى المستضىء با لله نادى برفع المكوس، ورفع المظالم الكبيرة وفرق مالا عظيما، ثم احتجب عن=

انقطاعها مائتين وخمس عشرة سنة، على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى الكردى[١] ومات المستضىء بعد عشر سنين تنقص أربعة أشهر، فقام بعده ابنه الناصر لدين الله أحمد، مدة ست وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما، وفى أيامه ابتدأ ظهور جنكيزخان. ورؤى الناصر مرة وعليه قباء أبيض برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من فنك أو نحوه يتشبه بملوك الأتراك. وقام من بعده ابنه الظاهر بأمر الله محمد، فأقام تسعة أشهر وأربعة عشر يوما، ومات. فقام بعده ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور[٢] مدة سبع عشرة سنة غير شهر، وقيل خمس عشرة سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام، وفى أيامه قصد التتار بغداد، فاستخدم الخليفة منهم العساكر، حتى بلغت عدتها نحو مائة ألف. وقام من بعده ابنه المستعصم بالله عبد الله، فجمع الأموال، وقطع كثيرا من العساكر، فقدم التتار بغداد، وقتلوه فى سادس

=الناس، ولم يركب إلا مع الخدم، وفى أيامه زالت الدولة العبيدية بمصر، وضربت السكة باسمه، وغلقت الأسواق وعملت القباب، وصنف ابن الجوزى فى ذلك كتاب النصر على مصر وخطب له بمصر وقراها والشام واليمن وبرقة، ودانت الملوك لطاعته. فوات الوفيات ١: ١٣٧ و ابن خلدون ٣: ٥٢٨ وما قبلها. انظر: مرأة الزمان ٨: ٣٥٦ وابن الأثير ١١: ١٧٣ وتاريخ الخميس ٢: ٣٦٦ والنبراس لابن دحية ١٥٩ - ١٦٤، والأعلام ٢/٢٢٧.

(١) انظر وفيات الأعيان ٢/٣٧٦، وتاريخ الخميس ٢/٣٨٧، ابن غياس ١/٦٩، ابن خلدون ٤/٧٩، ٥/٢٥٠ - ٣٣٠، ابن الأثير ١٢/٣٧ الإسلام والحضارة العربية ١/٢٨١، ٢٩٠، ٢/٢٨٩، طبقات لسبكى ٤/٣٢٥، الدارس ٢/١٧٨ - ١٨٨، مرآة الزمان ٨/٤٢٥، مفرج الكروب ١/١٦٨، تزويج المقلوب ٨٧، ٨٨، حلى القاهرة ١٠٧ - الأعلام لابن قاضى سكبة، النجوم الزاهرة ٦/٣ - ٦٣ شذرات الذهب ٤/٢٩٨، الفاطميون فى مصر ٣٠٨، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ٢٠٣ - ٣٢-، الأعلام ٨/٢٢٠.

(٢) المستنصر بالله (... - ٦٦- هـ - ..... - ١٢٦٢م). أحمد المستنصر بن محمد الظاهر بن الناصر المستضىء، أبو القاسم العباس: أول الخلفاء العباسيين بمصر دخلها بعد ثلاث سنين من انقراض عباسية العراق فأثبت نسبه فى مجلس الظاهر بيبرس البندقرارى أمام جمع من العلماء وأركان الدولة، فسر به الظاهر ووجد فيه قوة جديدة لملكه فجمع الناس وأعلن فيهم الأمر وبايعه بالخلافة، ولقبه بالمستنصر، وأمر أن يخطب باسمه على المنابر وأن ينقش اسمه على النقود وأقيمت له المظاهر وأنزل فى دار فخمة. وكان ذلك سنة ٦٥٩ هـ ولم يكن له ولا لمن ولى بعده عظيم أثر يذكر فى الملك، لأنهم إنما كان لهم من الخلافة اسمها وابنها - ودام لهم ذلك فى مصر مدة ٢٥٥، عاما - ولم تطل مدة أبى القاسم المستنصر، فإن الظاهر سيره فى حبس إلى العراق سنة ٦٥٩ لاسترداد بغداد من أيدى التتار فزحف وحارب التتر وانهزم حيشه، وفقد هو، وقيل: قتل فى المعركة قريبا من هيت. ويعدونه الثامن والثلاثين من خلفاء ابن العباس . انظر: ابن إياس ١: ١٠١ والنجوم ٧: ٢٠٦ والخميس ٢: ٣٧٨ . والأعلام ١/٢١٩. ٢٢٠.

صفر سنة ست وخمسين وستمائة، وله فى الخلافة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام. وانقرضت دولة بنى العباس بزواله، وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة، فأقيم فى تلك السنة خليفة بمصر قدم إليها من بغداد، لقب بالمستنصر بالله أحمد بن الظاهر بن الناصر، وسار يريد بغداد فحاربه التتار وقتلوه، قبل أن تتم له سنة منذ بويع بمصر، فصار من بعده ملوك مصر الأتراك يقيمون رجلا يسمونه الخليفة، ويلقبونه بلقب الخلفاء، وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة، بل يتردد إلى أبواب الأمراء وأعيان الكتاب والقضاة، لتهنئتهم بالأعياد والشهور، وسيأتى ذكرهم إن شاء الله.

* * *

ذكر دولة بنى بويه الديلم(١)

ويقال فى أصل الديلم إن باسل بن ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان خرج مغاضبا لأبيه، فوقع فى أرض الديلم، فتزوج امرأة من العجم، فولدت له ديلم بن باسل فهو أبو الديلم كلهم. وهم أفخاذ وعشائر، ومنهم ملوك بنى بويه. وكان سبب ظهورهم أن الحسن بن على بن الحسن بن زيد بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الزيدى الأطروش دخل الديلم، وأقام نحو أربع عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، ويقتصر منهم على العشر، ويدافع عنهم، فأسلم منهم خلق كثير، وتلقب بالناصر للحق، واجتمعوا عليه، وبنى فى بلادهم مساجد، وحثهم على الخروج معه إلى طبرستان حتى أجابوه، وقاتل بهم أبا العباس محمد بن إبراهيم صعلوك وهزمه، وقتل من أصحابه سبعة آلاف، وعاد إلى آمل ظافرا، واستولى على طبرستان فى جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثمائة، وعاد إلى بغداد. ومات الناصر - بعد أن ملك طبرستان ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأياما - فى شعبان سنة أربع وثلاثمائة، وله تسع وسبعون سنة. فبقيت بعده طبرستان فى أيدى العلوية اثنتى عشرة سنة، ثم انتقلت عنهم إلى أمراء الديلم. ولما مات الناصر ولى ابنه أبو الحسين، فقدم جرجان(٢) وأقام بها، وصاحب

---

(١) الديلم: تسمية للصقيع الجبلى من بلاد جيلان التى تقع فى الجنوب الغربى من بحر قزوين، ويحده فى شماله جيلان نفسها، وفى شرقه طبرستان، وفى جنوبه جهات قزوين، وفى غربه أذربيجان. انظر ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٨، ص ٩٧.

(٢) جرجان: بالضم، وآخره نون، قال صاحب الزنج: طول جرجان قانون درجة ونصف وربع، وعرضها ثمان وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة، فى الإقليم الخامس، وروى بعضهم أنها فى الإقليم الرابع... وجرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، فالبعض يعدها من هذه والبعض

جيشه سرخاب بن وهسوذان، فكانت له حروب وأنباء مع عساكر السعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان إلى أن مات سرخاب. فاستخلف أبو الحسين بن الناصر بعده ماكان بن كالى على أستراباذ [1] فاجتمع إليه الديلم، وقدموه وأمروه على أنفسهم، فكانت له بتلك النواحى أخبار كثيرة إلى أن قوى أبو الحجاج مرداويج بن زيار، وقيل مرداويج بن قافيج الجيلى الديلمى، وملك جرجان وغيرها مما كان، وعاد إلى أصفهان ظافرا، ودامت الحرب بينهما عدة سنين، فقوى مرداويج واستولى على بلد الجبل والرى، وأتته الديلم من كل ناحية، فعظمت جيوشه. وكان من الديلم رجل يقال له بُوَيه، وكنيته أبو شجاع، متوسط الحال، وله ثلاثة أولاد: أبو الحسين على أكبرهم، وأبو على الحسن أوسطهم، وأبو الحسين أحمد أصغرهم، وكان ينتسب إلى الفرس، ويزعم أنه أبو شجاع بويه بن فنا خسرو بن تمان بن كوهى بن شيرزيل الأصغر بن شيركذة بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرويه بن سناذر شاه بن سيس فيروز بن شيزوزيل بن سناذر بن بهرام جور الملك بن يزدجرد الملك. فبنو بويه من قبيلة من قبائل الديلم يقال لها شيرزيل أو ندازه. ثم إن أبا شجاع بويه رأى فى منامه كأنه يبول، فخرج من ذكره نار عظيمة استطالت وعلت حتى كادت تبلغ السماء، ثم انفرجت فصارت ثلاث شعب، وتولد من تلك الشعب عدة شعب، فأضاءت الدنيا بتلك النيران، ورأى البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران. فقصه على منجم، فقال له: إنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها، ويعلو ذكرهم فى الآفاق كما علت تلك النار، ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب .فقال له أبو شجاع: أتسخر بى وأنا رجل فقير، وأولادى هؤلاء فقراء مساكين يصيرون ملوكا؟ فقال المنجم: أخبرنى بوقت ميلادهم فأخبره، فجعل يحسب، ثم قبض على يد أبى الحسن على الذى لقب بعد ذلك عماد الدولة فقبلها، وقال: هذا والله يملك البلاد، ثم هذا من بعده، وقبض على يد أخيه أبى على الحسن، الذى لقب بعد ذلك ركن الدولة ثم هذا، وقبض على يد أخيهما أبى الحسين أحمد، الذى لقب معز الدولة. فاغتاظ منه أبو شجاع وقال لأولاده: اصفعوا هذا

يعدها من هذه .انظر معجم البلدان٢/١١٩وما بعدها.

(١) أستراباذ: بالفتح ثم السكون، وفتح التاء المثناة من فوق، وراء، وألف، وباء موحدة، وألف وذال معجمة، بلدة كبيرة مشهورة أخرجت خلقا من أهل العلم فى كل فن، وهى من أعمال طبرستان بين سارية وجرجان فى الإقليم الخامس، طولها تسع وسبعون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها ثمان وثلاثون درجة ونصف وربع. انظر معجم البلدان١/١٧٤، ١٧٥

فقد أفرط فى السخرية بنا، فصفعوه وهو يستغيث وهـم يضحكـون منه، ثـم أمسكوا. فقال لهم المنجم: اذكروا لى هذا إذا قصدتكم وأنتم ملوك، وأعطـاه أبـو شـجاع عشـرة دراهم، فلما خرج الديلم مع ماكان بن كالى كان أولاد أبى شجاع من جملة قـواده، إلى أن استولى مرداويج على ما بيد ماكان من طبرستان وجرجـان وانهـزم ماكـان، قـال لـه على والحسن ابنا أبى الشجاع بُوَيْه، وكانا ضَعَفَةً عجزة: نحـن فـى جماعـة، وقـد صرنـا ثقلا عليك وعيالا، وأنت مضيق، والأصلح لك أن نفارقك لنخفف عنـك مئونتنـا، فـإذا صلح أمرك عدنا إليك. فأذن لهما فسار إلى مرداويج، واقتدى بهما جماعة مـن قـواد مـا كان وتبعوهم. فأقبل عليهم مرداويج، وخلع على ابنىْ بويه، وقلد عماد الدولة على بـن بويه كرج[1]، فأحسن السيرة وافتتح قلاعـا ظفـر منهـا بذخائر كثيرة فاستمال الرجـال حتى شاع ذكره وقصده الناس واستوحش منه مرداويج واستدعاه فدافعه ثم سار عمـاد الدولة من كرج إلى أصبهان[2] وقاتل المظفر محمد بن يـاقوت وهزمـه، وملـك أصبهـان يوم الأحد الحادى عشر من ذى القعدة سنة إحـدى عشـرة وثلاثمائـة، فعظـم فـى أعـين الناس، لأنه كان فى تسعمائة رجل هزم بهم ما يقارب عشرة آلاف. وبلغ ذلك الخليفـة القاهر با لله محمد بن المعتضد فاسـتعظمه، وخـاف مرداويـج عاقبتـه، فـأخذ يتحيـل فـى أخذه. وأخذ ابن بويه أيضا أَرَّجَانَ[3] مـن أبـى بكـر بـن يـاقوت، فـى ذى الحجـة سنة

---

(١) كرج: بفتح الكاف والراء المفتوحـة وبـالجيم المعجمـة، أول حصـن مـن معـاقل الجبـل، فمـن همذان إلى نهاوند مرحلتان، ومن نهـاوند إلى الكـرج مرحلتـان، ولم تكـن فـى أيـام الأعـاجم مدينـة مشهورة، وإنما كانت فى عداد القرى العظام، وهذا الحصن هو حصن أبى دلـف القاسـم بـن عيسـى العجلى أحد أكابر قواد المأمون. انظر الروض المعطار ٤٩١، ومعجم البلـدان ٤/٤٤٦، وابـن حوقـل ٣١٣، والمقدسى ٣٩٤، وابن الوردى ٤٩، والمعلومات الإخبارية عن معجم ما اسـتعجم ٤/١١٢٤، وابن خلكان ٤/٧٩.

(٢) أصبهان منهم من يفتح الهمزة وهم الأكثر وكسرها آخرون منهم السمعانى وأبو عبد البكرى الأندلسى، وهى مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ويسـرفون فـى وصـف عظمهـا حتـى يتجاوز أحد الاقتصاد إلى غاية الإسراف. وأصبهان اسم للإقيم بأسره وهى من نواحى الجبل فى آخر الإقليم الرابع طولها ست وثمانون درجة وعرضها ست وثلاثون درجة. انظر معجم البلدان (أصبهان).

(٣) أرجان بالفتح أوله وتشديد الراء وجيم وألف ونون وعامة العجم يسمونها أرغان وقد خففـه المتنبى فقال : أرجان أيتها الجياد فإنه عزمى الذى يدع الوشيج مكرا .... وقال الاصطخرى: أرجان مدينة كبيرة كثيرة الخير بها نخيل كثير وزيتون وفواكه وهى بريـة بحريـة سـهلية جبلية ماؤهـا يسـيح، بينها وبين البحر مرحلة وبينها وبين شيراز ستون فرسخا وبينها وبين سـوق الأهـواز ستون فرسخا، وكان أول من أنشأها فيما حكته الفرس قياذ بن فيروز أبو شروان العادل لما استرجع الملك مـن أخيـه جاما سب وغزا الروم ففتح فى ديار بكر مدينتين متيافارقين وآمد وكانتا فى أيدى الـروم وأمر فبنـى

إحدى وعشرين وثلاثمائة، وقوى بها. وبعث أخاه ركن الدولة الحسن[١]، فأخذ كَازَرُون، ثم ملك عماد الدولة شيراز[٢] فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين، فلما ملك شيراز وفارس كتب إلى الخليفة الراضى با لله محمد بن المقتدر، وقد أفضت إليه الخلافة، وإلى وزيره أبى على محمد بن على بن مقلة[٣] يعرفهما أنه على الطاعة، ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد، وبذل ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك، وسيرت له الخلع واللواء، فلبس الخلع ونشر اللواء بين يديه، وغالط الرسول بالمال، فمات الرسول عنده سنة ثلاث وعشرين، وعظم شأنه، وقصده الرجال من الأطراف فقام مرداويج وقعد، فقدر ا لله قتله على يد غلمانه، يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وسارا أكثر أصحابه إلى ابن بويه، ومضى كثير منهم إلى بُجْكم فقدم بهم بغداد، ثم سار عماد الدولة بن بويه إلى كرمان[٤] فى سنة أربع وعشرين، وكانت

فيما بين حد فارس والأهواز مدينة وسماها أبزقباد وهى التى تدعى أرجان وأسكن فيها سبى هاتين ١٣البلدان (أرجان).

(١)ركن الدولة (٢٨٤ - ٣٦٦ هـ - ٨٩٧ - ٩٧٦م). الحسن بن بويه بن فناخسرو الديلمى، ركن الدولة، من كبار الملوك فى الدولة البويهية. كان صاحب أصبهان والرى وهمذان وجميع عاق العجم استوزر أبا الفضل بن العميد، ثم ابنه أبا الفتح. واسنمر فى الملك ٤٤ سنة وشهرا و ٩ أيام. وهو والد عضد الدولة فناخسرو ومؤيد الدولة بويه وفخر الدولة على قسم عليهم الممالك فى حياته. وتوفى بالدرى.انظر ابن خلكان ١٤١/١، الأعلام ١٨٥/٢.

(٢) شيراز: بالكسر، وآخره زاى : بلد عظيم مشهورة معروف مذكور، وهو قبضة بلاد فارس فى الإقليم الثالث، طولها ثمان وسبعون درجة ونصف، وعرضها تسع وعشرون درجة ونصف، قال أبو عون: طولها ثمان وسبعون درجة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة. وقيل: سميت بشيراز بن قيل: أول من تولى عمارتها محمد بن القاسم بن أبى عقيل بن عم الحجاج. انظر معجم البلدان٣/ ٣٨٠

(٣) ابن مقلة. ٢٧٢ - ٣٢٨ هـ ٨٦٦ - ٩٤٠م. محمد بن على بن الحسين بن مقلة، أبو على: وزير، من الشعراء الأدباء ، يضرب بحسن خطه المثل، ولد فى بغداد، وولى جباية الخراج فى بعض أعمال فارس، ثم استوزره المقتدر العباسى سنة ٣١٦ هـ ولم يلبث أن غضب عليه فصادره ونفاه إلى فارس (سنة ٣١٨) واستوزره القاهر با لله سنة ٣٢٠ هـ فجىء به بلاد فارس فلم يكد يتولى الأعمال حتى اتهمه القاهر بالمؤامرة على الإهمال، فاختبأ (سنة ٣٢٠هـ) واستوزره الراضى با لله سنة ٣٢٢ هـ ونقم عليه سنة ٣٢٤ فسجنه مدة، وأخلى سبيله ثم علم أنه كتب إلى أحد الخارجين عليه يطمعه بدخول بغداد، فقبض عليه وقطع يده اليمنى، فكان يشد القلم على ساعده ويكتب به، فقطع لسانه (سنة ٣٢٦هـ) وسجنه، فلحقه فى حبسه شقاء شديد حتى كان يستقى الماء بيده اليسرى ويمسك الحبل بفمه. ومات فى سنة ٣٢٨هـ . انظر وفيات الأعيان ٦١/٢ ثمار القلوب ١٦٧، الأعلام ٢٧٣/٦.

(٤) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون، وربما كسرت والفتح أشهر بالصحة، وكرمان فى

له بها حروب ظفر فيها، ثم قدم عليه أبو عبد الله أحمد بن محمد البريدى فى سنة ست وعشرين، وأطمعه فى العراق والاستيلاء عليه، فسار وملك عدة بلاد، وسير أخاه ركن الدولة على عساكر، وكانت لهما أنباء وقصص. وجرت فى بغداد حوادث عظيمة آلت إلى مسير معز الدولة أبى الحسين أحمد بن بويه[1] إلى بغداد فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، فحاربه أمير الأمراء توزون فى ذى القعدة، وهزمه عن بغداد فلما مات توزون قدم معز الدولة بغداد، واستولى عليها فى يوم السبت حادى عشر جمادى الأول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. قال الوزير أبو على محمد بن على بن مقلة: «إننى أزلت دولة بنى العباس وأسلمتها إلى الديلم، لأنى كاتبت الديلم وقت إنفاذى إلى أصبهان، وأطمعتهم فى سرير الملك ببغداد، فإن اجتنيت ثمرة ذلك فى حياتى، وإلا فهى تجتنى بعد موتى»، فكان كما قال. ولما ملك معز الدولة بغداد خلع الخليفة المستكفى بالله عبد الله، ونهب الديلم دار الخلافة حتى لم يبق فيها شىء، وأقام المطيع لله الفضل بن المقتدر، ولم يجعل له أمرا ولا نهيا ولا رأيا، ولا مكنه من إقامة وزير، بل صارت الوزارة إليه يستوزر لنفسه من يريد، وشنّع هو والديلم على بنى العباس، بأنهم غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها، وأراد معز الدولة إبطال دعوة بنى العباس، وإقامة دعوة المعز لدين الله أبى تميم معز الفاطمى، حتى رجعه أصحابه عن ذلك. وبعث نوابه فتسلموا العراق، ولم يبق بيد الخليفة منه شىء ألبتة، إلا ما أقطعه مما لا يقوم ببعض حاجته، وملك البصرة فناخسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه، فكانت مدة إمارته ست عشرة سنة،

الإقليم الرابع، طولها تسعون درجة، وعرضها ثلاثون درجة: وهى ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وخراسان، فشرقيها سكران ومفازة ما بين= =مكران والبحر من وراء البلدوس، وغربيها أرض فارس، وشماليها مفازة وخراسان، وجنوبيها بحر فارس، ولها فى حد السيرجان دخلة فى حد فارس وهى بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشى والضرع تشبه بالبصرة فى كثرة التمور وجودتها وسعة الخيرات. انظر معجم البلدان ٤/٤٥٤

(١) معز الدولة (٣٠٣ - ٣٥٦ هـ - ٩١٥ - ٩٦٧م). أحمد بن بويه بن فناخسرو بن تمام، من سلالة سابور ذى الأكتاف الساسانى، أو الحسن، معز الدولة: من ملوك بنى بويه فى العراق فارسى الأصل مستعرب. كان أول أمره يحمل الحطب على رأسه، ثم ملك هو وأخوه. عماد الدولة وركن الدولة البلاد وكان أصغر منهما سنا ويقال له الأقطع لأن يده اليسرى قطعت فى معركة مع الأكراد، تولى فى صباه كرمان وسجتان والأهواز ، تبعا لأخيه عماد الدولة، ثم امتلك بغداد سنة ٣٣٤ هـ فى خلافة المستكفى، ودام ملكه فى العراق ٢٢ سنة إلا، شهرا. وتوفى ببغداد. انظر وفيات الأعيان ٥٦/١ ، تجارب الأمم ١٤٦/٦، ٢٣١. الأعلام ١٠٥/١

ولم يترك غير بنت واحدة. وكان عماد الدولة في حياته هو أمير الأمراء فلما مات صار أخوه ركن الدولة أبو على الحسن بن بويه أمير الأمراء . وكان معز الدولة أبو الحسن أحمد هو المستولى على العراق والخلافة، وهو كالنائب عنهما إلى أن مات ببغداد، لثلاث عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمائة، فكانت مدة ملكه لبغداد إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ويومين. وقام من بعده ابنه عز الدولة أبو منصور بختيار[١] فسار إليه ابن عمه عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة في سنة أربع وستين، وقبض عليه ثم أطلقه، وضرب عليه الجند، وعاد من بغداد، فمات ركن الدولة لخمس بقين من المحرم سنة ست وستين وثلاثمائة، واستخلف على ممالكه ابنه عضد الدولة[٢] فسار إلى العراق ثانيا وأخذ بغداد من بختيار، وخطب له بها، ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد سوى الخليفة وضرب عضد الدولة أيضا على بابه الطبول ثلاث نوبات، ولم تجر بذلك عادة من تقدمه، ونعت الملك السيد شاهنشاه الأجل المنصور ولى النعم تاج الملة عضد الدولة أبا شجاع فناخسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن بن أبى شجاع سبويه بن فناخسرو بن تمان بن كوهى، وقتل بختيار في الحرب لاثنتى عشرة بقيت من شوال سنة سبع وستين وثلاثمائة، فكانت مدته إحدى عشرة سنة وستة أشهر، وعظم أمر عضد الدولة إلى أن مات لثمان خلون من شوال سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة، ومدته منذ مات عمه عماد الدولة بفارس أربع وثلاثون سنة، ملك منها بغداد خمس سنين وستة أشهر وأربعة أيام. فقام من بعده ابنه صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان ببغداد، أربع سنين وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوما، وغلبه أخوه شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل[٣] في رمضان سنة ست وسبعين وثلاثمائة، ثم سَمَلَه وقام

---

(١) عز الدولة (٣٣١ - ٣٦٧ هـ - ٩٤٣ - ٩٧٨م). بختيار، ابو منصور، عز الدولة بن معز الدولة أحمد بن بويه: أحد أساطين العراق من بنى بويه، ديلمى الأصل، مولده بالأهواز. كان شديد البأس يمسك الثور بقرنيه ويصرعه. تسلطن بعد أبيه (سنة ٣٥٦ هـ). انظر سير النبلاء، يتيمة الدهر ٤/٢، تلخيص مجمع الآداب ٤٢/١، الأعلام ٤٤/٢.

(٢) عضد الدولة البويهى (٣٢٤ - ٣٧٢ هـ ٩٣٦ - ٩٨٣م). فناخسرو، الملقب ركن الدولة ابن بويه الديلمى، أبو شجاع: أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية بالعراق. تولى ملك فارس ثم الملك الموصل وبلاد الجزيرة. وهو أول من خطب له على المنابر بعد الخليفة، وأول من لقب في الإسلام شاهنشاه... توفى ببغداد وحمل في تابوت، فدفن في مشهد النجف. انظر ابن الأثير ج ٨، ٩، بغية الوعاة ٣٧٤، سير النبلاء ، ابن الوردى ٣٠٥/١، ابن خلكان ٤١٦/١، البداية والنهاية ٢٩٩/١١، مرآة الجنان ٣٩٨/٢، يتيمة الدهر ٢/٢، روض الأخبار المختصر من ربيع الأبرار، الأعلام ١٥٦/٥.

(٣) شرف الدولة (٣٤٥ - ٣٧٩ هـ - ٩٥١ - ٩٨٩م). شيرويه بن عضد الدولة بن بويه الديلمى، أبو الفوارس ، الملقب شرف الدولة: سلطان بغداد وابن سلطانها. تملك، وظفر بأخيه=

بالأمر، فلقبه الخليفة الطائع بشرف الدولة وزين الملة. ومات شرف الدولة بعد سنتين وثمانية أشهر وأيام ببغداد، فى ثاني جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة. فملك بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر خُرَّه فيروز[١] بن عضد الدولة، ولقبه الطائع بهاء الدولة وضياء الملة، ثم زاد القادر فى ألقابه غياث الأمة شاهنشاه، ثم زاده قِوام الدين ونقله عن مولى أمير المؤمنين إلى صفى أمير المؤمنين، ومات بأرجان فى خامس جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة، فكانت مدته اثنتين وأربعين سنة وتسعة أشهر وثمانية عشر يوما وقام من بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع فناخسرو، فكانت أيامه ببغداد - سنة واحدة وستة أشهر تنقص ثلاثة أيام - على انزعاج، لكثرة مطالب الأتراك، فخرج منها وقد رتب أخاه مشرف الدولة أبا على الحسن، وسار إلى الأهواز، واستقر مشرف الدولة فى ملك العراق خمس سنين وشهرين وأياما. ومات سلطان الدولة بفارس، لأربع بقين من شوال سنة خمس عشرة وأربعمائة، فكانت إمارته اثنتى عشرة سنة وأربعة أشهر وأياما. ومات بعده أخوه مشرف الدولة ببغداد، لثمان بقين من ربيع الأول سنة ست عشرة وأربعمائة، فسار أخوهما جلال الدولة أبو طاهر فيروز خره بن بهاء الدولة من البصرة إلى بغداد، باستدعاء الخليفة القادر، لما حصل فى بغداد من مصادرات الأتراك للناس، فلما قدمها تلقاه القادر ولقبه ركن الدين جلال الدولة وفى أيامه انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد، وانطلقت الأيدى، وعجز جلال الدولة عن إقامة الأمر إلى أن مات، فى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، فكانت مدته ست عشرة سنة وأحد عشر شهرا فاستدعى الجند ابنه الملك العزيز أبا منصور خره فيروز، فلم ينتظم له أمر، واستنجد الملوك فلم ينجدوه، فكاتب عسكر بغداد عز الملوك أبا كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة أبى شجاع فناخسرو بن بهاء الدولة أبى نصر خره فيروز بن عضد الدولة، ولقبه الخليفة القائم بأمر الله شاهنشاه عز الملوك، وحملت إليه الخلع واللواء وخطب له ، فسار وقدم بغداد، ومات سنة أربعين وأربعمائة. وملك بعده ابنه الملك الرحيم أبو نصر خره فيروز بن عز الملوك، وكان عز الملوك قد سار إلى كرمان، فهلك فى طريقه لأربع سنين

=صمصام الدولة فحبسه وكان فيه خير وقلة ظلم، أزال المؤامرات واعتل بالاستسقاء، فمات شابا وكانت أيامه سنتين وثمانية أشهر. انظر سير النبلاء، مرآة الجنان ٤٠٨/٢، النجوم الزاهرة ١٤٨/٤، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٦، ابن الأثير: حوادث سنة ٣٧٩. الأعلام ٣/١٨٣.

(١) بهاء الدولة (٣٦٠ - ٤٠٣ هـ- ٩٧١ - ١٠١٢م).بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه: السلطان أبو نصر. من ملوك الدولة البويهية تولى نحو سنة ٣٨٠ هـ ومات بأرجان. انظر الفتح الوهبى ٢٠١/٢، شذرات الذاهب ١٦٦/٣، ابن خلكان . الأعلام ٧٥/٢.

من ولايته. فقام من بعده ببغداد الملك الرحيم بمبايعة الجند له، وثار في أيامه الأمير أرسلان البساسيري وملك بغداد، ثم قدم طغرلبك والسلجوقية، وقبض على الملك الرحيم وسجنه حتى مات. فكانت عدة من ملك بغداد من بني بويه أحد عشر، ومدتهم ببغداد إلى أن انقرضوا على يد السلجوقية مائة وثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما، أولها يوم وصل معز الدولة إلى بغداد وآخرها يوم وصول طغرلبك إلى بغداد، ومدتهم منذ ملك عماد الدولة بلاد فارس مائة وخمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة أيام.

* * *

ذكر دولة السلجوقية

وكان ابتداء أمر السلجوقية أنهم أخلاط من الترك، كانوا يصيفون في بلاد البلغار[١] ويشتون في تركستان[٢] وينهبون ما طرقوه. وكان من مقدميهم رجل يقال له دقاق، فولد له سلجوق فنجب، وقدمه بيغو ملك الترك، فقوى وكثر جمعه فخافه بيغو، فخرج سلجوق بجموعه مهاجرا من دار الحرب إلى ديار الإسلام وأسلم وأقام بنواحي بخارى[٣] وصار يغزو الترك، وكان له من الولد أرسلان وميخائيل وموسى. ومات سلجوق بجند وراء بخارى، عن مائة وسبعة أعوام، وبقى ولده على ما كان عليه من غزو الترك، فقتل ميخائيل شهيدا. وخلف ميخائيل بيغو وطغرلبك وينال وجغرى بك داود. ثم إنهم قربوا من بخارى فأساء أميرها جوارهم، فرجعوا إلى بغراخاني ملك تركستان وجاوروه، وتعاهد طغرلبك وأخوه داود ألا يجتمعا عند بغراخان. وحاول على بجتمعهما فلم يطق، فقبض على طغرلبك وأرسل عسكره إلى أخيه داود، فانهزم العسكر وأتبعوه وخلصوا طغرلبك من أسره، وعادوا إلى جَنْد، وأقاموا بها إلى انقراض الدولة السامانية وملك أيلك خان بخارى، فعظم عنده محل أرسلان بن سلجوق.

---

(١) بلغار : بالضم والغين مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال شديدة البرد لا يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفا ولا شتاء انظر معجم البلدان (بلغار).

(٢) تركستان: هو اسم جامع لجميع بلاد الترك. انظر معجم البلدان ٢/٢٢ وما بعدها.

(٣) بُخَارَى: بالضم من أعظم مُدُن ما وراء النهر وأجلها يعبر إليها من أمل الشط وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه وكانت قاعدة ملك السامانية... وهى مدينة قديمة كثيرة البساتين واسعة الفواكه مهدى بفواكهها تُحمل إلى مرو وبينهما اثنتا عشرة مرحلة وإلى خوارزم وبينهما أكثر من خمس عشرة يوما وبينها وبين سمرقند سبعة أياما أو سبعة وثلاثون فرسخا بينهما بلاد القُغْد.انظر معجم البلدان (بخارى).

ولما رجع أيلك خان عن بخارى ولى عليها عليّ تِكين فبقى معه أرسلان إلى أن عبر محمود بن سبكتكين [١] النهر إلى بخارى، وهرب عليُّ تِكين فدخل أرسلان وقومه المفازة، وكاتبه محمود ولاطفه حتى قدم عليه، فقبضه ونهب أحياءه، وأجازهم النهر وفرقهم فى نواحى خراسان، ووضع عليهم الخراج، فلحقهم جور العمال. فسار منهم جماعة أرسلان إلى أصبهان، وحاربهم علاء الدين بن كاكويه حروبا كثيرة، إلى أن ساروا إلى أذربيجان[٢] وكانوا يعرفون بين الترك بالغز. وسار طغرلبك وأخوه داود وبيغو من خراسان[٣] إلى بخارى، وجمع على تكين عسكره وأوقع بهم، فعادوا إلى

---

(١) السلطان الغزنوى (٣٦١ - ٤٢١ هـ = ٩٧١ - ١٠٣٠م). محمود بن سبكتكين الغزنوى، السلطان يمين الدولة أبو القاسم بن الأمير ناصر الدولة أبى منصور: فاتح الهند، وأحد كبار القادة. امتدت سلطنته من أقاصى الهند إلى نيسابور وكانت عاصمته غزنة (بين خراسان والهند) وفيها إلى نيسابور وكانت عاصمته غزته (بين خراسان والهند) وفيها ولادته ووفاته.انظر ابن الأثير ١٣٩/٩، ابن خلكان ٨٤/٢، ابن الجوزى أعمال الأعيان، ابن خلدون ٣٦٣/٤، الجواهر المضيئة ١٥٨/٢. البداية والنهاية ٢٧/٢. الأعلام ٧/١٧١.

(٢) أذربيجان: بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة وجيم هكذا جاء فى شعر الشماخ.

تذكرتها وهنا وقد حال دونها ... قرى أذربيجان المسالح وبحال

وقد فتح قوم الذال وسكنوا الراء، ومد آخرون الهمزة مع ذلك، وروى عن المهلب.. هذا آذربيجان بمد الهمزة وسكون الذال فيلتقى ساكنان وكسر الراء، ثم ياء ساكنة وباء موحدة مفتوحة وجيم وألف ونون... قال ابن المقفع: أذربيجان مسماة بأذربا ذين إيران بن الأسود بن سام بن نوح وقيل: أذربيجان بيوراس، وقيل: بل أذرا سمر النار بالفهلوية. وبايكان معناه الحافظ والخازن فكان معناه بيت النار أوخازن النار وهذا أشبه بالحق وأجدى، لأن بيوت النار فى هذه الناحية كانت كثيره جدا. وحد أذربيجان من برذعة مشرقا إلى أرزنجان مغربا، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم والجيل والطرم وهو إقليم واسع ومن أشهر مدنها تبريز وهى اليوم قصبتها وأكبر مدنها، وكانت قصبتها قديما المراغة، ومن مدنها خوى وسلماس وأرمية وأردبيل ومرند وغير ذلك. وهو صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وفيه خيرات واسعة وفواكه جمة.انظر معجم البلدان (أذربيجان).

(٣) خراسان: بلاد واسعة، أول حدودها ممايلى العراق أزاذوا قصبة جوين وبيهى، وآخر حدودها مما يلى الهند طخارستان وغزنة وسجتان وكرمان، وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها، وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو، وهى كانت قصبتها، وبلخ وطالقان ونيسابور وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التى دون نهر جيحون، ومن الناس من يدخل اعمال خوارزم فيها ويعد ما وراء النهر منها وليس الأمر كذلك، وقد فتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحا. انظر معجم البلدان ٣٥٠/٢ وما بعدها.

خراسان وخيموا بظاهر خوارزم[١] فـي سنة خمس وعشرين وأربعمائة، واتفقوا مع خوارزم شاه هارون بن التونتاش، ثم غدر بهم وكبسهم، فساروا إلى جهة مرو، فأرسل إليهم مسعود بن محمود بن سبكتكين[٢] جيشا فهزمهم، واشتغل أصحابه بالغنائم فرجع الغز وهزموهم ونهبوهم، فاستمالهم مسعود بعدها وكان ببلخ، فطلبوا منه إطلاق عمهم أرسلان الذى قبضه محمود بن سبكتكين، فشرط حضورهم فأبوا. وعادت الحرب وهزموا عساكره، وقوى أمرهم واستولوا على غالب خراسان، وفرقوا العمال وخطب لطغرلبك فى نيسابور. وسار داود إلى هراة، ففرت عساكر مسعود، وتركوا خراسان حتى أتوا غزنة[٣] وسار مسعود من غزنة إلى خراسان فى جيوشه، ففروا أمامه وهو

(١) خوارزم: أوله بين الضم والفتحة، والألف مسترقة مختلسة ليست بألف صحيحة، هكذا= =يتلفظون به، ... قال بطليموس فى كتاب الملحمة: خوارزم طولها مائة وسبع عشرة درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها خمس وأربعون درجة، وهى فى الإقليم السادس،... وخوارزم ليس اسما للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها، فأما القصبة العظمى فقد يقال لها اليوم الجرجانية. انظر معجم البلدان ٣٩٥، ٢ وما بعدها.

(٢) مسعود بن سبكتكين (... ٠ ٤٣٢ هـ - ... - ١٠٤٠م). مسعود بن محمود بن سبكتكين من ملوك الدولة الغزنوية. ولد بغزنة (بين خراسان والهند) ونشأ فى بيت سلطنة وجهاد وعدل وولى أصبهان فى أيام أبيه وتوفى أبوه (سنة ٤٢١ هـ). وبويع لأخ له اسمه محمد بغزنة، فأقبل مسعود يريدها، فثار الجند على محمد وقيدوه وخلعوه ونادوا بشعار مسعود وكتبوا إليه بما فعلوا، فدخل غزنة (سنة ٤٢٢) وبايعه الناس وأتته رسل الملوك، واجتمع له ملك خراسان وغزنة وبلاد الهند والسند وسجستان وكرمان ومكران والرى وأصبهان وبلاد الجبل. وعظم سلطانه وفتح قلاعا فى الهند كانت ممتنعة على أبيه. ودخل السلاجقة خراسان، فقاتلهم وأجلاهم عنها، وعاد إلى غزنة ثم خرج منها يريد أن يستوفى الهند على عادة والده، وأخذ معه أخاه محمدا الذى كان قد بويع قبله وخلع، فلما عبر سجون ائتمر به بعض عسكره وأكرهوا أخاه على موافقتهم فقبضوا على مسعود واعتقلوه فى قلعة كيكى ثم قتلوه وكان شجاعا كريما، كثير الصدقات، محبا للعلماء، وصنفوا له كتبا كثيرة فى علوم مختلفة، وله آثار فى العمران، وصنف عدة كتب فى سيرته. انظر: ابن الأثير ٩: ١٣٨ - ١٦٨ وأخبار الدولة السلجوقية ١٣ وابن العبرى ٣١٥ - ٣٢٠. والأعلام ٧/ ٢٢٠.

(٣) غزنة: بفتح أوله، وسكون ثانيه ثم نون، هكذا يتلفظ بها العامة، والصحيح عند العلماء غزنين ويعربونها فيقولون جزنة، ويقال لمجموع بلادها زابلستان، وغزنة قصبتها، وغزن فى وجوهه الستة مهمل فى كرم العرب، وهى مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان، وهى الحد بين خراسان والهند فى طريق به خيرات واسعة إلا أن البرد فيها شديد جدا، بلغنى أن بالقرب منها عقبة بينهما مسيرة يوم واحد إذا قطعها القاطع وقع فى أرض دفينة شديدة الحر، ومن هذا الجانب برد كالزمهرير، وقد نسب إلى هذه المدينة من لا يعد ولا يحصى من العلماء، وما زالت آهلة بأهل الدين ولزوم طريق أهل الشريعة والسلف الصالح، وهى كانت منزل بنى محمود بن سبكتكين إلى أن انقرضوا. انظر: معجم البلدان ٤/ ٢٠١.

يتبعهم، حتى قلت الأزواد وطال الأمد، ودخلوا البرية ومسعود فى إتْبَاعهم مدة ثلاث سنين، فانتقض عليه عسكره، ورجع السلجوقية وهزموهم أقبح هزيمة، وولى مسعود وغنموا منه ما لا يحصى، وعادوا إلى خراسان فملكوها، وثبتت أقدامهم بها، وخطب لهم على منابرها، ووصل مسعود إلى غزنة، واختلف عليه أمراؤه حتى قتل وملك طغرلبك جرجان وطبرستان[١] وملك بعد ذلك خوارزم، ثم سار إلى بلد الجبل واستولى عليها، فأسلم من الترك خمسة آلاف خركاه[٢] وتفرقوا فى بلاد الإسلام، ولم يتأخر عن الإسلام سوى الخطا والتتار بنواحى الصين. وبعث طغرلبك أخاه إبراهيم ينال بن ميخائيل فملك همذان[٣] والدِّيْنَوَر[٤]، ثم استوحش منه وقاتله وأخذه، فبعث ملك الروم يطلب الهدنة من طغرلبك وهاداه، وعمَّر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك. ثم سار طغرلبك وحاصر أصبهان حتى أخذها صلحا، ونزلها ونقل إليها ذخائره، وأتاه ملك الأكراد فأقره على بلاده شهرزور[٥] وغيرها، ثم أنفذ رسوله إلى الخليفة القائم بأمر الله بالهدايا، وسار يريد بغداد، فدخلها لخمس بقين من رمضان

---

(١) طبرستان: بفتح أوله وثانيه، وكسر الراء، والطبر: هو الذى يشقق به الأحطاب وما شاكله بلغة الفرس، واستان: الموضع أو الناحية كأنه يقول: ناحية الطبر... وهى بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الأسم، خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه، والغالب على هذه النواحى الجبال، فمن أعيان بلدانها دمستان و جرجان واستراباذ وأمل، وهى قصبتها، وسارية، وهى مثلها، وشالوس، وهى مقاربة لها، وربما عدت جرجان من خراسان إلى غير ذلك من البلدان، وطبرستان فى البلاد المعروفة بمازندران... انظر معجم البلدان ١٣/٤وما بعدها.

(٢) كلمة فارسية بمعنى خيمة أو نجع.انظر المعجم الفارسى الكبير.

(٣) كانت همذان أكبر مدينة بالجبال وكانت أربعة فراسخ فى مثلها، انظر معجم البلدان٥/٤١٠وما بعدها.

(٤) الدينور: مدينة من كور الجبل ما بين الموصل وأذربيجان، وهى فى قبلة همذان، وهى كثيرة الثمار والزروع والبساتين والمياه حصينة، وأهلها أكرم جبلة من أهل همذان، وعلى القرب منها مدينة الصيمرة والشيروان، وابن قتيبة من أهل الدينور، وأبو حنيفة الدينورى اللغوى الإمام صاحب كتاب «النبات». انظر الروض المعطار ٢٤٩، وبمعجم البلدان (دينور) ٢/٥٤٥، والكرخى ١١٧، وابن حوقل ٣٠٨، ٣٠٩.

(٥) شهرزور: فى جهة حلوان، ومعنى شهرزور نصف الطريق، وكان منتصف طريقهم إلى بيت نار لهم، وكانت شهرزور مضمومة إلى الموصل حتى فرقت فى آخر خلافة الرشيد، وبشهرزور توفى الإسكندر بعد أن غزا الهند ومشارق الأرض، وشهرزور مشهورة بالعقارب، ولذلك قال ابن الرومى:

فقرطها بعقرب شهرزور ذا غنت وطوّقها بأفعى

انظر: الروض المعطار ٣٥٠، ٣٥١، ومعجم البلدان ٣٧٥/٣ وما بعدها، والكرخى١١٨.

سنة سبع وأربعين وأربعمائة. ونعت بالسلطان ركن الدين أبي طالب محمد طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق بن قِنِق بن جبريل بن داود بن أيوب بن دقاق بن إلياس بن بهرام ابن يوسف بن عزيز بن أحمد بن دهقان، وقبض على الملك الرحيم أبى نصر وعلى قواده، وأزال دولة بنى بويه . ثم توجه إلى نصيبين[١] وديار بكر[٢] واستولى على الموصل، وترك عليها أخاه ينال إبراهيم، فخالف على طغرلبك، وتوجه إلى همذان، فسار إليه طغرلبك وقتله، ثم عاد إلى بغداد، وقد ملكها أبو الحارث أرسلان البساسيرى، فأعاد القائم إلى الخلافة وقتل البساسيرى، ثم سار إلى بلاد الجبل فمات بالرى [٣] فى ثامن شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة، فكانت مدة ملكه ثمانية وثلاثين سنة تنقص عشرين يوما، و لم يخلف ولدا، فملك بعده ابن أخيه عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان بن جغرى بك بن داود ميخائيل بن سلجوق، وسار إلى

---

(١) نصيبين: مدينة فى ديار ربيعة العظمى، وهى من بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات، وهى قديمة عظيمة كثيرة الأنهار والجنات والبساتين، ولها نهر عظيم يقال له الهرماس عليه قناطر حجارة، وأهلها قوم من ربيعة من بنى تغلب، وهى فى مستو من الأرض، ذات سور حصين وأسواق عامرة، وتجارات، وبها مياه كثيرة وعقارب قتالة. وافتتحها غياض بن غنم الفهرى فى خلافة عمر رضى الله عنه سنة ثمان عشرة، وكانت مدينة رومية، فلما افتتحها غياض أسكنها المسلمين، وهى كبيرة، ومنها إلى دارا خمسة فراسخ، ويمتد أمام نصيبين بسيط أخضر مدّ البصر، وفيها مدرستان ومارستان واحد. انظر الروض المعطار ٥٧٧، ومعجم البلدان ٥/٢٨٨ وما بعدها، واليعقوبى ٣٦٢، ونزهة المشتاق ١٩٩، ورحلة ابن جبير ٢٣٩، والكرخى ٥٢، وابن حوقل ١٩٣، ١٩٤، والمقدسى ١٤٠، وآثار البلاد ٤٦٧، وابن الوردى ٢٨.

(٢) ديار بكر: هى بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وحدها من الغرب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، ومنه حصن كيفا وآمد وميافاوقين، وقد يتجاوز إلى سعرت وحيزان وحينى وما تخلل ذلك من البلاد ولا يتجاوز السهل. انظر معجم البلدان ٢/٤٩٤.

(٣) الرى: بفتح أوله، وتشديد ثانيه... وهى مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهى محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخا وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخا ومن قزوين إلى أبهر اثنا عشر فرسخا ومن أبهر إلى زنجان خمسة عشر فرسخا، ... قال العمرانى: الرى بلد بناه فيروز بن يزدجرد وسماه رام فيروز، ثم ذكر الرى المشهورة بعدها وجلعها بلدين، ولا أعرف الأخرى، فأما الرى المشهورة فإنى رأيتها، وهى مدينة عجيبة الحسن مبنية بالآجر المنمق المحكم الملمع بالزرقة مدهون كما تدهن الضفائر فى فضاء من الروض، وإلى جانبها مشرق عليها أقرع لا ينبت فيه شىء، وكانت مدينة خرب أكثرها... وقد حكى الاصطخرى: أنها كانت من أكبر أصبهان. انظر معجم البلدان ١١٦/٣ وما بعدها.

حلب وأقر صاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس[١] عليها، ولقى ملك الروم وهزمه، وبعث جيوشه فأخذت القدس والرملة[٢] من خلفاء مصر الفاطمين وحصرت دمشق. ومات ألب أرسلان بعدما رجع من حلب إلى ما وراء النهر، فى ربيع الأول سنة خمس وستين. وملك بعده ابنه السلطان جلال الدولة أبو الفتح محمد ملك شاه بن عضد الدولة أبى شجاع ألب أرسلان بن داود بن ميخائيل بن سلجوق تسع عشرة سنة وشهرا، ومات فى نصف شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وعمره سبع وثلاثون سنة وخمسة أشهر، وكان يخطب له من أقصى بلاد الترك إلى بلاد اليمن، وفى أيامه ملك دمشق أتسز، ثم أخذها منه تُتُش بن ألب أرسلان، فاستمرت بأيدى الترك، وبعث ملك شاه أيضا آقسنقر قسيم الدولة فملك الموصل، وآقسنقر هذا هو والد عماد الدين زنكى[٣] . ثم قدم ملك شاه إلى حلب وسلمها إلى آقسنقر، وعاد إلى بغداد. وملك بعد ملك شاه ابنه محمود[٤] وعمره أربع سنين، فقامت أمه تركان خاتون بتدبيره، فثار عليه أخوه بركياروق بن ملكشاه واستبد بالأمر، وكانت له أيضا حروب مع أخويه محمد وسنجر إلى أن مات ثانى شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين، عن خمس وعشرين سنة،

---

(١) ابن شبل الدولة (... - ٤٦٧ هـ - ... - ١٠٧٥ م). محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابى، عز الدولة بن شبل الدولة: أحد الأمراء المرداسيين أصحاب حلب. وليها سنة ٤٥٢ هـ وكان شجاعا فيه حزم. انظر دول الإسلام ٢/٢ ، الإسلام ٢/٢ ، الأعلام، شذرات الذهب ٣٢٩/٣، المنتظم ٢٠٠/٨، الكامل ٣٦/١٠، المختصر ١٩٢/٢ - ١٩٣ زبيدة النصرة ٣٧ - ٣٨ . الأعلام ١٨٩/٧

(٢) الرملة: واحدة الرمل: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها قد خربت الآن، وكانت رباطا للمسلمين، وهى فى الإقليم الثالث، طولها خمس وخمسون درجة وثلثان، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وثلثان، وقال المهلبى: الرملة فى الإقليم الرابع، وقد نسب إليها من أهل العلم. انظر معجم البدان ٦٩/٣.

(٣) الأتابك زنكى (٤٧٨ - ٥٤١ هـ - ١٠٨٥ - ١١٤٦ م).

زنكى (عماد الدين) بن قسيم الدلوة الحاجب آقسنقر: أبو غازى ومردود ومحمود كان من كبار الشجعان. انظر التاريخ الباهر ٣، ٢٦، ٥٥، ٥٦، ٧٤ - ٨٤، العبر ٤٩/٤ - ٢١٥، شذرات ١٢٨/٤. الأعلام ٣/٥٠.

(٤) العادل نور الدين (٥١١ - ٥٦٩ هـ - ١١١٨ - ١١٧٤م). محمود بن زنكى (عماد الدين) ابن آقسنقر، أبو القاسم، نور الدين، الملقب بالملك العادل: ملك الشام وديار الجزيرة ومصر ، وهو أعدل ملوك زمانه وأحلهم وأفضلهم. انظر كتاب الروضتين ٢٢٧/١ - ٢٢٩، ابن الأثير ١٥١/١١، ابن خلدون ٢٥٣/٥، ابن الوردى ٨٣/٢، ابن شقدة، ابن خلكان ٨٧/٢، مرآة الزمان ٣٠٥/٨، مفرج الكروب ١٠٩/١، الدارس ٩٩/٤، ٣٣١ ٣٦١، ٤٤٧، ٦٠٧ - ٦١٥، النجوم الزاهرة ٧١/٦، أمراء دمشق ١٤٧ . الأعلام ١٧٠/٧.

منها مدة وقوع اسم السلطنة عليه اثنتا عشرة سنة وأربعة أشهر، قاسى فيها من الحروب واختلاف الأمور ما لم يقاسه غيره. وأقيم بعده ابنه ملكشاه بن بركياروق، وعمره أربع سنين وثمانية أشهر، ولقبه جلال الدولة، وقام بأمره الأمير أياز الأتابك إلى أن قتل فى ثالث عشر جمادى الآخرة، بعدما سلم أمر الدولة إلى السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان. فقام محمد بأمر المملكة إلى أن مات، فى رابع عشرى ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، عن ست وثلاثين سنة وأربعة أشهر، منها مدة اجتماع الناس عليه اثنتا عشرة سنة وستة أشهر، ولقى مشاق وأخطارا كثيرة فأقيم بعده ابنه محمود بن ملكشاه[1] وعمره أربع عشرة سنة، فنازعه عمه السلطان ناصر الدين معز الدولة أبو الحارث سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان وقاتله، فانهزم منه محمود، خطب لسنجر ببغداد فى سادس عشرى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقطعت خطبة محمود، ثم اصطلحا وجعل سنجر ابن أخيه محمودا ولى العهد بعده، وكتب إلى جميع الأعمال التى بيده بأن يخطب للسطان محمود بعده، وأعاد جميع ما أخذ من البلاد، فخطب لهما ببغداد وغيرها. وعاد سنجر إلى ولايته، واستمر محمود فى السلطنة، فتنكر الحال بينه وبين الخليفة المسترشد بالله واقتتلا، ثم اصطلحا فى عاشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وسار محمود عن بغداد، وولى عماد الدين زنكى بن آقسنقر شِحْنَكِيتها، ثم نقله إلى الموصل، وأضاف إليه الجزيرة، فاشتدت وطأته بها حتى ملك حلب أول المحرم سنة اثنتين وعشرين، ثم ملك حماة وعدة حصون بالشام. ومات السلطان محمود فى شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة بهمذان عن سبع وعشرين سنة، منها ولايته السلطنة اثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما، فأقعد بعده فى

---

(١) محمود بن محمد بن ملكشاه اللحوتى، أبو القاسم، الملقب بمغيث الدنيا والدين، يمين أمير المؤمنين: من سلاطين السلاجقة. خلف أباه فى السلطنة بالرى وهو فى سن الحلم (سنة ٥١١هـ) وكانت أواخر أيام المستظهر بالله العباس. وتولى المسترشد بالله، فجدد له التقليد بالسلطنة، وانتهز وزراؤه فرصة صغر سنه فتصرفوا فى الأمور وأساءوا الساسية وأتوا بمفاسد، وأوقعوا بينه وبين عمه السلطان سنجر (صاحب خراسان) فزحف عليه هذا، فخضع. وكان يتنقل فى الإقامة بين الرى وبغداد. وعاجلته الوفاة وهو شاب. مات بهمذان، وعمره نحو ٢٧ سنة. قال عماد الدين الأصفهانى: كان قوى المعرفة بالعربية، حافظا للأشعار والأمثال، عارفا بالتواريخ والسير. وقال ابن قاضى شهبة: خطب له على منابر بغداد وغيرها وهو أمرد. ومدحه الشاعر «حيص بيص» بقصيدة دالية. انظر الأعلام لابن قاضى شهبة –خ. وأخبار الدولة السلجوقية: انظر فهرسته وتاريخ دولة آل سلجوق ١٠٩ – ١٤٢ والكامل لابن الأثير ١٨٤/١٠ و١٨٧ و١٩٣ و١٩٩ و٢٢٦ و٢٣٣ وابن خلكان ٨٧/٢ وزبدة النصرة: انظر فهرسته، انظر الأعلام ١٨١/٧.

السلطنة ابنه داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه، فنازعه عمه السلطان مسعود، وقاتله ثم اصطلحا، وطلب مسعود من الخليفة المسترشد أن يخطب له ببغداد، فأجاب بأن الحكم فى الخطبة ينبغى أن تكون له وحده، فوافق ذلك غرض سنجر، فاشتد ذلك على مسعود، وعزم على أخذ السلطنة، فسبقه أخوه السلطان سلجوق شاه بن السلطان محمد إلى بغداد، وكانت أمور آلت إلى أن يكون مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه سلطانا، وسلجوق شاه ولى عهده، وقطعت خطبة سنجر من العراق جميعه. وكان عماد الدين زنكى قد قدم نصرة لمسعود، فهزمه أصحاب سلجوق شاه هزيمة قبيحة، فلما وصل تكريت أقام [1] له نجم الدين أيوب بن شادى الدزدار [2] بها المعابر حتى خلص إلى بلاده، فشكر ذلك لنجم الدين وقربه، فكان ذلك سببا لاتصال نجم الدين به والمصير فى جملته، حتى آل بهم الأمر إلى ملك مصر والشام وغيرهما. واقتتل مسعود وسنجر، فانهزم مسعود وقتل أصحابه، ثم أحضر إلى سنجر فعاتبه، وأعاده إلى كنجة[3] وأجلس ابن أخيه الملك طغرل بن السلطان محمد فى السلطنة، وخطب له فى جميع البلاد، وذلك فى ثامن رجب سنة وعشرين فلما كان فى رمضان اقتتل الملك طغرل بن محمد هو وابن أخيه الملك داود بن محمود، فانهزم داود، فلما سمع ذلك السلطان مسعود بن محمد سار

---

(١) تَكْرِيت: بفتح التاء والعامة يكسرونها: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهى إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخا، وهى قلعة حصينة فى طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهى غربى دجلة، وكان أول من بنى هذه القلعة سابورين بن أردشير بن بابك لما نزل المد، وهو بلد قديم مقابل تكريت فى البداية،.. وقيل: سميت بتكريت بنت وائل،... وافتتحها المسلمون فى أيام عمر ابن الخطاب فى سنة ١٦هـ، وأرسل إليها سعد ابن أبى وقاص جيشًا عليه عبد الله بن المعتصم فحاربهم حتى فتحها عنوة، وقال فى ذلك:

ونحن قتلنا يوم تكريت جمعها   فا لله جمع يوم ذاك تتابعوا

انظر معجم البلدان ٣٨/٢،٣٩

(٢) أيوب بن شاذى (... ٦٥٨ هـ = ... ١١٧٣ م). أيوب بن شاذى بن مروان، أبو الشكر، الملك الأفضل نجم الدين: والد صلاح الدين الأيوبى، وإليه نسبة الأيوبيين كافة. أصله من دوين وولى أبوه قلعة تكريت، فكان أيوب معه فيها إلى أن مات وولى مكانه، ثم عزل عنها فرحل إلى الموصل، فأقام مدة وولى قلعة بعلبك، ثم انتقل إلى دمشق فأقام فى خدمته نور الدين محمود بن زنكى مات ودفن فى القاهرة ثم نقل إلى المدينة المنورة. انظر وفيات الأعيان ٨٤/١، خطط مبارك ٤٧/٦، كتاب الروضتين ٢٠٩/١، مرآة الزمان ٢٩٥/٨، الأعلام ٣٨/٢.

(٣) كَنْجَةُ: بالفتح ثم السكون، وجيم: مدينة عظيمة وهى قصبة بلاد أران، وأهل الأدب يسمونها جنزة، بالجيم والنون والزاى، وكنجة: من نواحى لُرستان بين خوزستان وأصبهان. انظر معجم البلدان ٤٨٢/٤.

إلى بغداد، فلقيه داود ودخل معه إليها، فى صفر سنة سبع وعشرين، وأعيدت له الخطبة بها ولداود معه، وخلع عليهما الخليفة. ثم سارا لمحاربة طغرل، فحارباه وهزماه فى شعبان، فامتدت الحرب بينهم إلى شوال. ثم عاد طغرل بن محمد، وأجلى أخاه مسعودا عن بلاده فى رمضان سنة ثمان وعشرين، فقدم بمسعود بغداد فى نصف شوال، فأكرمه الخليفة المسترشد وأنزله وأنعم عليه. ثم قدم الخبر بوفاة طغرل بن محمد، فى المحرم سنة تسع وعشرين، فسار مسعود إلى همذان واستولى عليها، وكان قبل ذلك قد نافر الخليفة، فقطع المسترشد خطبته من بغداد وسار لقتاله، فبرز إليه مسعود وقاتله فى عاشر رمضان وأخذه أسيرا، وبعث إلى بغداد فقبض على أملاك الخليفة، وكسر منبره وشباكه. ثم قتل الخليفة بيد الباطنية، وأقيم بعده الراشد خليفة، فسار الملك داود بن السلطان محمود فى عسكر أذربيجان إلى بغداد، فقدمها رابع صفر سنة ثلاثين وخمسمائة، وأقام برنقش على شحنكيتها. وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب لداود، فسار مسعود إلى بغداد وحصرها نيفا وخمسين يوما، فكانت أمور آلت إلى عود الملك داود إلى بلاده فى ذى القعدة، وإلى تفرق الأمراء الذين كانوا معه، وسار الخليفة الراشد من بغداد إلى الموصل فى نفر يسير مع عماد الدين زنكى فلما سمع السلطان مسعود بمفارقة الخليفة وزنكى بغداد سار إليها ودخلها فى نصف ذى القعدة، وخلع الراشد وأقام المقتفى لأمر الله أبا عبد الله محمد بن المستظهر فى الخلافة، وزوجه أخته فاطمة على مائة ألف دينار صداقا. فسار الراشد بالله من الموصل[1] إلى مراغة[2] فأتاه الملك داود فى جماعة ليرده

---

(١) المَوْصِلُ: بالفتح، وكسر الصاد: المدينة المشهورة العظيمة إحدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النظير كبرًا وعظمًا خلق وسعة رقعة فهى محط رحال الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان فهى باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان، وكثيرًا ما سمعتُ أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة: نيسابور لأنها باب الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب، والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قل ما لا يمر بها، قالوا: وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل: وصلت بين دجلة والفرات، وقيل: لأنها وصلت بين بلد سنجار والحديثة، وقيل: بل الملك الذى أحدثها كان يسمى الموصل، وهى مدينة قديمة الأس على طرف دجلة ومقابلها من الجانب الشرقى نينوى، وفى وسط مدينة الموصل قبر جرجيس النبى. انظر معجم البلدان ٥/٢٢٣وما بعدها.

(٢) مَرَاغَةُ: بالفتح، والغين المعجمة، بلدة مشهورة عظيمة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان، طولها ثلاث وسبعون درجة وثلث، وعرضها سبع وثلاثون درجة وثلث، قالوا: وكانت المراغة تدعى أفرازمروذ فعسكر مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وهو والى إرمينية وأذربيجان منصرفه من غزو موقان وجيلان بالقرب منها وكان فيها سرجين كثير فكانت دوابه ودواب أصحابه تتمرغ فيها فجعلوا يقولون بنوا قرية المراغة، وهذه قرية المراغة، فحذف الناس القرية وقالوا مراغة. انظر معجم البلدان ٥/٩٣وما بعدها.

إلى الخلافة، فسار السلطان مسعود من بغداد فى شعبان سنة اثنتين وثلاثين، وحاربهم وهزمهم، فحمل عليه بعض من انحاز منهم إلى تل فلم يثبت لهم وانهزم، ومازال حتى صار إلى أذربيجان، وقصد داود همذان ومعه الراشد، وسار سلجوق شاه بن محمد إلى بغداد ليملكها فمنع منها، وسار مسعود ليمنع داود من أخذ الراشد ومسيره به إلى العراق، فترك داود الراشد، وعاد إلى فارس، فقتل الراشد بيد الباطنية أيضا. وضاقت الأمور على السلطان مسعود، وكثرت الخوارج عليه وسار عماد الدين زنكى إلى دمشق، وحصرها مرتين وملك بعلبك، [١] وحارب السلطان سنجر بن ملكشاه خوارزم شاه أتسز بن قطب الدين محمد بن أنوشتكين، فقتل ابن خوارزم شاه، فبعث خوارزم شاه إلى الخطا وهم بما وراء النهر فأطمعهم فى البلاد وتزوج منهم، فساروا فى ثلاثمائة ألف فارس، فحاربهم سنجر، فقتلوا منه نحو مائة ألف، وهزموه فى صفر سنة ست وثلاثين، فأخذ خوارزم شاه مدينة مرو[٢]. فسار السلطان مسعود إلى الرى، وقد استقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر، وأخذ خوارزم شاه نيسابور [٣] أيضا، وقطع خطبة السلطان سنجر أول ذى القعدة، وخطب باسمه، وعاث أصحابه فى خراسان وعملوا أعمالا قبيحة. ثم آل أمر أتسز خوارزم شاه إلى مصالحة السلطان سنجر، فى سنة ثمان وثلاثين، وأقام بخوارزم على ما كان عليه، وأقام سنجر بمرو.

---

(١) بَعْلَبَكُّ: بالفتح ثم السكون وفتح اللام والباء الموحدة والكاف مشددة مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها فى الدنيا بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وقيل: اثنا عشر فرسخا من جهة الساحل... وهو اسم مركب من بَعْل اسم صنم بك أصله من بَكَّ عُنقَه أى دقها وتباك القوم أى ازدحموا فأما أن يكون نسب الصنم إلى بك وهو اسم رجل أو جعلوه يك الأعناق هذا إن كان عربيًا وإن كان عجميًا فلا اشتقاق. انظر معجم البلدان (بعلبك).

(٢) مَرْوُ الشاهجان: هذه مرو العظمى أشهر مُدُن خراسان وقصبتها، نص عليها الحاكم أبو عبد الله فى تاريخ نيسابور... وبين مرو ونيسابور سبعون فرسخا ومنها إلى سرخس ثلاثون فرسخا وإلى بلخ مائة واثنان وعشرون فرسخا واثنان وعشرون منزلاً. انظر معجم البلدان ١١٢/٥وما بعدها.

(٣) نَيْسَابور: بفتح أوله، والعامة يسمونه نَشَاوُور: وهى مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها... وأكثر شرب أهل نيسابور من قنى تجرى بالأرض ينزل إليها فى سراديب مُهيأة لذلك فيوجد الماء تحت الأرض ينزل إليها فى الحلاوة، وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات، وبها يابس ليس فى الدنيا مثله تكون الواحدة منه منا وأكثر... وكان المسلمون قد فتحوها فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه، والأمير عبد الله بن عامر بن كريز فى سنة ٣١ هـ عقد صلحا وبنى بها جامعًا، وقيل: إنما فتحت فى أيام عمر، رضى الله عنه، على يد الأحنف بن قيس وإنما انتقضت فى أيام عثمان فأرسل إليها عبد الله بن مرفقتها ثانية. انظر معجم البلدان ٣٣١/٥.

ومات أتابك عماد الدين زنكى آقسنقر صاحب الموصل والشام، قتله بعض مماليكه فى خامس ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فسار ابنه نور الدين محمود بن زنكى[١] إلى حلب فملكها، وملك سيف الدين غازى بن زنكى الموصل. ومات السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان، أول رجب سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وماتت معه سعادة بنى سلجوق، فلم يقم بعده لهم راية يعتد بها.

فقام بعده ملكشاه بن السلطان محمود، وخطب له، فلما بلغ الخليفة المقتفى لأمر الله موت السلطان مسعود أحاط بداره ودور أصحابه، وأخذ كل ما لهم، وجمع الرجال والعساكر وأكثر من الأجناد، وجهز إلى الحلة[٢] والكوفة وواسط العساكر فأخذوها. ثم إن الأمير خاص بك قبض على ملكشاه وبعثه إلى خوزستان[٣] واستدعى أخاه محمد بن محمود من خوزستان، وأجلسه على تخت السلطنة، فى أوائل صفر سنة ثمان وأربعين، فقتل محمد خاص بك ثانى يوم قدومه. وملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق فى صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة، واستولى شملة التركمانى على خوزستان فى سنة خمسين وخمسمائة، وأزاح عنها ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد.

---

(١) العادل نور الدين (٥١١ - ٥٦٩ هـ = ١١١٨ - ١١٧٤ م). محمود بن زنكى (عماد الدين) ابن آقسنقر، أبو القاسم، نور الدين، الملقب بالملك العادل: ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه وأحلهم وأفضلهم. كان من المماليك جده من موالى السلجوقيين. ولد فى حلب، وانتقلت إليه إمارتها بعد وفاة أبيه (٥٤١ هـ). انظر الروضتين ٢٢٧/١ - ٢٢٩، ابن الأثير ١٥١/١١، ابن خلدون ٢٥٣/٥، ابن الوردى ٨٣/٢، ابن خلكان ٨٧/٢، مرآة الزمان ٣٥/٨، مفرج الكروب ١٠٩/١، الدارس ٩٩/١، ٣٣١، ٣٥٦١، ٢٤٧، ٦٠٧ - ٦١٥ منتخبات من كتاب التاريخ ٢٦٨، النجوم الزاهرة ٧١/٦، أمراء دمشق ١٤٧ الأعلام ١٧٠/٧.

(٢) الحِلَّة: بالكسر ثم التشديد، وهو فى اللغة القوم النزول وفيهم كثرة والحِلَّة: علم لعدة مواضع، وأشهرها حِلة بنى مزيد، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تسمى الجامعين، طولها سبع وستون درجة وسدس، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة... والحلة أيضا: حلة بنى قيلة بشارع ميسان بين واسط البصرة. والحلة أيضا: حلة بنى دبيس بن عفيف الأسدى قرب الحويذة من ميسان واسط والبصرة، والأهواز فى موضع آخر. انظر معجم البلدان ٢٩٤/٢، ٢٩٥.

(٣) خوزسْتانُ: بضم أوله، وبعد الواو الساكنة زاى، وسين مهملة، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: وهو اسم لجميع الخوز... واستان كالنسبة فى كلام الفرس... قال أبو زيد: وليس بخورستان جبال ولا رمال إلا شيء يسير وأما أرض خوزستان فأشبه بأرض العراق وهوائها وصحتها، فإن مياهها طيبة جارية ولا أعرف بجميع خوزستان بلدًا ماؤهم من الآبار لكثرة المياه الجارية بها، وأما تربتها فإن ما بَعُدَ عن دجلة إلى ناحية الشمال أيبس وأصح، وما كان قريبا من دجلة فهو من جنس أرض البصرة فى السبخ وكذلك فى الصحة. انظر معجم البلدان ٤٠٤/٢ وما بعدها.

وضعفت يد السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، حتى لم يبق له إلا اسم السلطنة، وأخذ الغز نيسابور بالسيف، ففر منهم سنجر فى رمضان سنة إحدى وخمسين إلى ترمذ [(١)] ثم إلى جيحون يريد خراسان، ثم عاد إلى دار ملكه بمرو. وسار السلطان محمد شاه بن محمود من همذان، وحصر بغداد فى ذى الحجة منها، لامتناع الخليفة من الخطبة له، إلى أن عاد إلى همذان فى أخريات ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين، و لم ينل طائلا من بغداد. ومات السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان فى ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين، وقد خطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة، وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة. واستخلف بعده على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخته. ومات السلطان محمد شاه ابن محمود بن محمد فى ذى الحجة سنة أربع وخمسين بهمذان، عن اثنتين وثلاثين سنة، وترك ولدا صغيرا، فاختلف الأمراء بعده، فمنهم من أراد أن يملك ملكشاه بن محمود، ومنهم من طلب سليمان شاه بن محمد وطلب قوم أرسلان شاه بن طغرل.

فسار ملكشاه من خوزستان إلى أصفهان وملكها، فخالف عليه أهل همذان وطلبوا سليمان شاه، فسار من الموصل أول سنة خمس وخمسين يريد همذان، فقبض عليه بها فى شوال سنة ست وخمسين، وخطب لأرسلان شاه بن الملك طغرل بن محمد. ومات ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصبهان فى أثناء السنة، وخطب بعده لأرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن جغرى بك داود بن ميخائيل بن سلجوق بهمذان وأعمالها. وطلب أرسلان شاه من الخليفة المستنجد با لله أن يخط له ببغداد، كما كانت العادة فى أيام السلطان مسعود، فأهين رسوله وأعيد إليه على أقبح حالة، فكثر الخلاف والقتال بين عساكر السلجوقية، فمات أرسلان فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة. وأقيم من بعده ابنه طغرل بن أرسلان آخر السلاطين السلجوقية، وكان تحت أمر قزل أرسلان إيلدكز، ثم استبد بسلطنته، وفارق قزل أرسلان، فأقام عوضه معز الدين سنجر بن سليمان بن محمد بن ملكشاه، وطرده ثم ظفر به وسجنه، ثم خلص وقتل فى محاربة خوارزم شاه قريبا من الرى، فى رابع عشرى

---

(١) تَرْمِذ: قال أبو سعد: الناس مختلفون فى كيفية هذه النسبة، بعضهم يقول بفتح التاء وبعضهم بضمها وبعضهم يقول بكسرها، والمتداول على لسان أهل تلك المدينة بفتح التاء وكسر الميم، والذى كنا نعرفه قديما بكسر التاء والميم جميعًا، والذى يقوله المتأنقون وأهل المعرفة بضم التاء والميم، وكل واحد يقول معنى لما يدعيه. وترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقى، متصلة العمل بالطغانيان، يحيد بها سور، وأسواقها مفروشة بالآجر، ولهم شرب من الصغانيان لأن جيحون يستقل من شراب قواصم. انظر معجم البلدان ٢٦/٢ وما بعدها.

ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة، وحمل رأسه إلى بغداد فكان آخر السلجوقية، وملك بعده خوارزم شاه. فكانت مدتهم، من سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة إلى سنة تسعين وخمسمائة، مائة وثمانية وخمسين سنة. وكان أسد الدين شيركوه بن شادى قد تقدم عند نور الدين محمود بن زنكى، وبعثه أمير الحاج من دمشق، ثم سيره مع شاور بن مجير السعدى وزير الخليفة العاضد الفاطمى على عسكر من الغز إلى مصر.

وكان شيركوه هذا وأخوه نجم الدين من بلد دَوِين[1] أحد بلاد أذربيجان، وأصلهما من الأكراد، فخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد، فجعل أيوب مستحفظا لقلعة تكريت، فسار إليها ومعه أخوه شيركوه، وهو أصغر منه سنا، فخدم الشهيد زنكى لما انهزم، فشكر له ذلك. ثم إن شيركوه قتل رجلا بتكريت، فطرد هو وأخوه من القلعة، فسارا إلى زنكى فأحسن إليهما، وأقطعهما إقطاعا حسنا، ثم جعل أيوب مستحفظا لقلعة بعلبك، ثم ترقى وصار من أمراء دمشق. واتصل شيركوه بنور الدين محمود بن زنكى، وخدمه فى أيام أبيه، فلما ملك حلب بعد أبيه، كان لنجم الدين أيوب عمل كبير فى أخذه دمشق، فزادت مكانتهما عنده، ولم ير أحدا يليق به أن يسير مع شاور إلى مصر سوى شيركوه، فبعثه إليها ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف، فكان من أمره ما ذكر فى أخبار العاضد، فلما مات شيركوه قام من بعده صلاح الدين يوسف، كما سنقف عليه فيما يأتى إن شاء الله تعالى.

* * *

السلطان الملك الناصر صلاح الدين

يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان بن أبى على بن عنترة الحسن بن على بن أحمد ابن أبى على بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة ابن عوف. ومن هنا اختلف النسابون: فقيل عوف بن أسامة بن نبهش بن الحارثة صاحب الحمالة بن عوف بن أبى حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ويقال إن على بن أحمد يعرف بالخراسانى، مدحه المتنبى بقصيد منها:

شرق الجو بالغبار إذا ... سار على بن أحمد القمقام

وقيل إن مروان من أولاد بنى أمية، زعم ذلك إسماعيل بن طغتكين بن أيوب، وأنكر

---

(١) دَوِينُ: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وياء مثناه من تحت ساكنة، وآخره نون: بلدة من نواحى أران فى آخر حدود أذربيجان بقرب من تفليس، منها ملوك الشام بنى أيوب. انظر معجم البلدان ٢/٤٩١.

ذلك عمه العادل أبو بكر. وذكر ابن القادسى أن شادى كان مملوكا لبهروز الخادم.والحق أنه من الأكراد الروادية أحد بطون الهذبانية، من بلد دوين فى آخر أذربيجان من جهة أران[1] وبلاد الكرج. وكان له ابنان، أكبرهما أيوب ثم شيركوه، قدم بهما العراق فخدما عند بهروز، فجعل أيوب على قلعة تكريت وكانت فى إقطاعه، وقيل جعله بعد أبيه شادى، فخدم أيوب وشيركوه عماد الدين زنكى لما انهزم إليها، ثم قتل شيركوه رجلا فأخرجه بهروز من تكريت هو وأخاه أيوب، وقد ولد يوسف بن أيوب تلك الليلة. فلحقا بزنكى، واتصل أيوب بولده غازى بن زنكى، وخدم شيركوه محمود بن زنكى.فأقام عماد الدين غازى أيوب بن شادى على قلعة بعلبك، وما زال يترقى حتى صار من أمراء دمشق.

ولد صلاح الدين يوسف بقلعة تكريت فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وكان أبوه نجم الدين أيوب واليا بها، ثم انتقل بابنه يوسف إلى الموصل، وصار منها إلى الشام، فأعطى بعلبك، فأقام بها مدة. ونشأ يوسف وعليه لوائح السعادة، وجالس مشايخ أهل العلم، فجمع له الشيخ الإمام قطب الدين أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى عقيدة تحوى جميع ما يحتاج إليه، فمن شدة حرصه عليها كان يعلمها صغار أولاده ويأخذها عليهم. وكان يواظب الصلاة مع الجماعة، حتى قال يوما: «لى سنين ما صليت إلا فى جماعة». وكان إذا مرض استدعى الإمام وحده، وصلى خلفه.وصار فى خدمة نور الدين محمود بن زنكى، فخرج مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر، فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وقدمها.ثم عاد إلى الشام، وقدمها ثانيا مع عمه، وحضر وقعة البابين، وحصره الفرنجة بالإسكندرية. ثم خرج مع عمه إلى الشام، وسار معه فى الكرة الثالثة على كره منه فى المسير إلى مصر، فقدمها فى سنة أربع وستين. ولما تقاعد شاور عن إجابة شيركوه، وإعطائه ما تقدم به الوعد لنور الدين وللعسكر، تشاوروا على الإحاطة به والقبض عليه، فلم يجسر عليه أحد منهم إلا صلاح الدين، فإنه لما قدم عليهم شاور على عادته فى كل يوم، وساروا معه لقصد أسد الدين، سار صلاح الدين إلى جانبه وأخذ بتلابيبه، وأمر العسكر بأخذ أصحابه، ففروا عن شاور، ونهب الغز ما كان معهم، وسيق شاور إلى المخيم وقتل. فاستقر أسد الدين شيركوه بعده فى وزارة

---

(١) أَرّان: بالفتح وتشديد الراء وألف ونون: اسم أعجمى لولاية واسعة وبلاد كثيرة، منها جنزة، وهى التى تسميها العامة كنجة، وبرذعة، وسمكور، وبيلقان. وبين أذربيجان وأَرّان نهر يقال له الرس، كل ما جاوره من ناحية المغرب والشمال، فهو من أَرّان، وما كان من جهة المشرق فهو من أذربيجان، قال نصر: أران من أصقاع إرمينية، يذكر مع سيسجان، وهو أيضا اسم لحَرَّان، البلد المشهور بين ديار مضر. انظر معجم البلدان ١/١٣٦.

العاضد إلى أن مات، فى ثانى عشرى جمادى الآخرة من سنة أربع وستين. ففوض العاضد وزراته إلى صلاح الدين، ونعته بالملك الناصر، فمشّى الأحوال، وبذل الأموال، واستعبد الرجال، وتاب عن الخمر فترك معاقرته، وأعرض عن اللهو ودبر الأمر فى نوبة نزول الفرنج على دمياط[١] أحسن تدبير، حتى رحلوا عنها خائبين، فنهبت آلاتهم، وأحرقت مجانيقهم، وقتل منهم خلق كثير، وتمكن صلاح الدين فى مصر، فقدم عليه أبوه نجم الدين أيوب وأخوته وأهله ثم إنه دأب فى إزالة الدولة الفاطمية وقطع دابرها ومحو آثارها، فأعانه الله على ذلك، ومات العاضد وقد قطع صلاح الدين خطبته، وأمر الخطباء بالدعاء للمستضىء بنور الله العباسى فاستولى على القصر وما يحويه من عاشر المحرم سنة سبع وستين. وأخذ يتأهب لغزو الفرنجة، وقد انفرد بسلطنة ديار مصر. وكتب العماد الأصفهانى بشارة تقرأ فى سائر بلاد الإسلام بإقامة الخطبة العباسية بمصر، وبشارة ثانية تقرأ بحضرة الخليفة المستضىء بنور الله فى بغداد، على يد القاضى شهاب الدين المطهر بن شرف الدين بن عصرون، فسار القاضى ولم يترك مدينة ولا قرية إلا وقرأ فيها المنشور، حتى وصل بغداد، فخرج الناس إلى لقائه، ودخل يوم السبت ثانى عشريه، فعلقت أسواق بغداد بالزينة، وخلع عليه.

وفى يوم الجمعة رابع عشره: أخرج الكامل شجاع بن شاور، من المكان الذى قتل فيه بالقصر ودفن فيه، فوجدت الجثة مختلطة بجثتى عمه وأخيه، فجمعوا فى تابوت حمل إلى قبر شاور، فنبش عنه وأخرج منه، وكان فى مكان غامض، وحمل فى تابوت وساروا بالتابوتين إلى تربة طى بن شاور فدفنوا بها.

وفى تاسع عشره: رحل السلطان الملك الناصر من القاهرة، ونزل البئر البيضاء يريد بلاد الشام، فوصل إلى الشوبك[٢] فواقع الفرنج، وعاد على أيلة[٣] وهلك منه نحو الخمسة آلاف رأس، ما بين جمل وفرس، فى هذه السفرة.

---

(١) دِمْيَاط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زواية بين بحر الروم الملح والنيل، مخصوص بالهواء الطيب وعمل ثياب الشرب الفائق، وهى ثغر من ثغور الإسلام. انظر معجم البلدان ٢/٤٧٢ وما بعدها.

(٢) الشَّوْبَكُ: بالفتح ثم السكون ثم الباء الموحدة المفتوحة، وآخره كاف، إن كان عربيا فهو مرتجل، قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك. انظر معجم البلدان٣/ ٣٧٠.

(٣) أَيْلَة: بالفتح مدينة على ساحل بحر القُلْزم مما يلى الشام، وقيل: هى آخر الحجاز وأول الشام، قال أبو زيد: أيلة مدينة صغيرة عامرة بها زرعٌ يسيرٌ، وهى مدينة لليهود الذين حرَّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمسخوا قردة وخنازير، وبها فى يد اليهود عهد لرسول الله - صلى الله عليه وسلام - وقال أبو المنذر: سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام. انظر معجم البلدان ١/٢٩٢ وما بعدها.

وفيها فرقت الزكوات فى ثالث ربيع الأول على الفقراء والمساكين، وأبناء السبيل والغارمين، ورفع إلى بيت المال سهم العاملين والمؤلفة وفى سبيل الله وفى الرقاب. وأخذت الزكاة من البضائع، وعلى ما اقتدر عليه من المواشى والنخل والخضراوات، وقررت السكة باسم المستضىء بأمر الله، وباسم الملك العادل نور الدين، فنقش اسم كل منهما فى وجه، وذلك فى سابع شهر ربيع الآخر. وفيه قلعت المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة التى فيها أسماء الخلفاء الفاطميين، وكان وزنها خمسة آلاف درهم فضة نقرة.

وفيه أنزل الغز بالقصر الغربى، وأخرج من كان ساكنا فيه، وورد الخبر بأن الخمور - بعد تعطيلها، وغلق حاناتها وقطع ذكرها، بالإسكندرية - أعيدت ببذل مال لديوان نجم الدين أيوب، ففتحت مواضعها وظهرت مناكرها.

وفى جمادى الآخرة: قُرِّر دينار الأسطول بنصف وربع دينار، بعد أن كان بنصف وثمن دينار.

وفى سابعه: ولد عثمان الملك العزيز.

وفى ثالث عشريه: كشف حاصل القصر بالخزائن الخاصة، فوجد فيها مائة صندوق كسوة فاخرة، ما بين موشح ومرصع، وعقود ثمينة، وذخائر فخمة، وجواهر نفيسة، وغير ذلك من ذخائر عظيمة. وكان الذى تولى كشفها بهاء الدين قراقوش.

وفيها كثرت عادية الفار فى أكل ثمار النخل والأقصاب والأشجار، وانتهى الحال إلى أن اعتصر من مائة فدان مزروعة قصبا ستون أبلوجا. ومع هذا بالأسعار رخيصة، والغلة كل ثلاثة أرادب من القمح بدينار، والشعير كل ثمانية أرادب بدينار، والفول كل أربعة عشر أردبا بدينار، والسكر كل قنطار بثلاثة دنانير .

وفى تاسع رجب: وصلت الخلع التى نفذت إلى نور الدين من الخليفة ببغداد، وهى فرجيَّة سوداء وطوق من ذهب، فلبسها نور الدين، وسيرها إلى الملك الناصر ليلبسها، وكانت نفذت له خلعة ذكر أنه استقصرها واستصغرها دون قدره. فبات الواصل بالخلع برأس الطابية، فلما كان العاشر منه خرج قاضى القضاة صدر الدين بن درباس والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمة الواصل بالخلعة، وهو من الأصحاب النجمية، وزينت البلد.

وفيه ضربت نوب الطبلخاناه بالباب الناصرى ثلاث مرات فى كل يوم، وضربت بدمشق خمس مرات كل يوم بالباب النورى.

وفى حادى عشره: ركب السلطان بالخلع، وشق بين القصرين والقاهرة، فلما بلغ باب زويلة[1] نزعها وأعادها إلى داره، وبرز للعب الكرة.

وفيها عمت بلوى الضائقة بأهل مصر، لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا، وعدما فلم يوجدا، ولهج الناس بما عمهم من ذلك، وصاروا إذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكرت حرمة الغيور له، وإن حصل فى يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له. ومقدار ما يحدس أنه خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وطبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يفى به ملك الأكاسرة، ولا تتصوره الخواطر، ولا تشتمل على نيله الممالك، ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق فى الآخرة.

وفيها عرض السطان العربان الجذاميين، وكانت عدتهم سبعة آلاف فارس، فاستقرت على ألف وثلاثمائة فارس لا غير، وأخذ بهذا الحكم عشر الواجب، وكان أصله ألف ألف دينار، وكُلِّف الثعالبة مثل ذلك فامتعضوا، ولوحوا بالتحيز إلى الفرنج.

وفى ثانى عشرى رجب: أقيمت الخطبة فى صلاة الجمعة بمصر والقاهرة، وقد نصبت على المنابر الأعلام السود، ولبس الخطباء ثيابا سودا أرسل بها من بغداد. وجرس فى البلد بألا يتأخر أحد عن الجمعة وحضورها، والفريضة وأدائها، ومن عثر عليه عومل بالحبس والتقييد واللوم والتفنيذ، فحضر من لا يريد الحضور.

وفى ثالث عشريه: خلع على الوفد الشامى خلع مذهبات من بقايا ما أخذ من القصر، وأقيمت ضيافاتهم وأدرت أنزلاتهم.

وفى شعبان: وقع برد فى الدقهلية والمرتاحية كأنه الأحجار المدورة، فاستهلك الغلات، وأصاب منها واحد رأس ثور فمات من ساعته. وبلغ وزنها ما بين رطل كل بردة إلى رطلين.

---

(١) باب زويلة: كان باب زويلة عندما وضع القائد جوهر القاهرة بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف اليوم بسام بن نوح، فلما قدم المعز إلى القاهرة دخل من أحدهما، وهو الملاصق للمسجد الذى بقى منه اليوم عقد، ويعرف بباب القوس، فتيمن الناس به، وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه، وهجروا الباب المجاور له حتى جرى على الألسنة أن من مر به لا تقضى له حاجة. قال المقريزى: وقد زال هذا الباب ولم يبق له أثر اليوم. فلما كانت سنة خمس وثمانين وأربعمائة بنى أمير الجيوش بدر الجمالى باب زويلة الكبير، الذى هو باق إلى الآن، ثم قال: وقد أخبرنى من طاف البلاد ورأى مدن المشرق أنه لم يشاهد فى مدينة من المدائن عظم باب زويلة، ولا يرى مثل بدنيته اللتين عن جانبيه ومن تأمل الأسطر التى كتبت على أعلاه من خارجه فإنه يجد فيها اسم أمير الجيوش والخليفة المستنصر، وتاريخ بنائها وقد كانت البدنتان أكبر مما هما الآن بكثير هدم أعلاهما الملك المؤيد لما بنى الجامع داخل باب زويلة، وعمل على البدنتين منارتين. انظر الخطط التوفيقية لمصر ٣/٢٠٢.

وفيه سارت الرسل من القاهرة إلى نور الدين بلبس الخلع، وبتقرير ما أمر بـه صـلاح الدين من المال فى كل سنة.

وفيه أمر السلطان بصرف أهل الذمـة والمنع مـن استخدامهم فـى أمـر سلطانى ولا شغل ديوانى، فصـرف جماعـة، ولم ينصـرف واحـد منهـم مـن كتابـة الغـز، وأرجـف بإخراجهم من البلد وأخذ مساكنهم. فلما كان الخامس عشـر منه صرفـت جماعـة مـن وجوه أهل الذمة من الأشـغال السـلطانية، وبقـى بعضهـم، وكتـاب الغـز علـى حـالهم، وامتنعوا من صرفهم بأنهم قد دبروا أمرهم، ويخشون بإخراجهم ضياع أمورهم.

وفى حادى عشريه: خرج السـلطان إلى الإسـكندرية، وسـبب خروجـه إليهـا كـثرة رجاله وقلة أمواله بحيث ضاق به التدبير، فقيل له إن فى بلاد برقة أموالا متسـعة، وليـس بها إلا عربان غير مانعة، فخرج لذلك. وعقد بالإسكندرية منشـورا، حضـره أبـوه نجم الدين أيوب وشهاب الدين الحارمى وتقى الديـن عمـر بسـبب المسير إلى بـلاد الغـرب، ومبادرة زرعها قبل حصاده. وكوتب من بمصر والقـاهرة مـن الجنـد بـالحضور، وتجهيز الأسواق من السقطين والبياطرة وغيرهم، وكوتـب العربـان بطلـب الزكـوات والإنكـار عليهم فى قطع الطريق على الجلابين. واتضح أنه عدم فى هذه السنة مائة ألف رأس مـن الغنم. واستقر الرأى على أن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بـن نجـم الديـن أيـوب يتوجـه بعسكره ومعه خمسمائة فارس أخر، وتقـررت حوالتهـم فـى النفقـة عليهـم علـى كـورة البحيرة.

وفـى ذى القعـدة: كـثرت المناسـر، وهجمـوا علـى الـدروب بالسـلاح والشـموع، وحاربوا الناس، وأخذوا المنازل، وأحرقوا الدور بمصر.

وفى ذى الحجة: وصل رسول متملك الحبشـة بهدية وكتـاب إلى الخليفـة العـاضد، فقـرئ كتابـه وأخـذت هديتـه. ووصـل عسـكر ملـك النوبـة إلى القـرى المتاخمـة لثغـر أسوان[1] وفيها ابتـدأت الوحشـة والنفـرة بـين الملـك العـادل نـور الديـن محمـود وبـين السلطان صلاح الدين يوسف وذلك لأن نور الدين بعث إلى صلاح الديـن يـأمره بجمع العساكر المصرية، والمسير بها إلى بلاد الفرنجة ومحاصرة الكرك، ليجتمع هـو وإيـاه علـى ذلك. فبرز صلاح الدين وكتب إلى نور الدين بذلـك، فخوفـه أصحابـه مـن الاجتمـاع

(١) أسوان: بالضم ثم السكون، وواو، وألف، ونون، ووجدته بخط أبـى سـعيد السـكرى سُوَانُ بغير الهمزة، وهى مدينة كبيرة وكورة فى آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبـة علـى النيـل فـى شـرقيه، وهى فى الإقليم الثانى، طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها اثنتان وعشرون درجة وثلاثـون دقيقـة. انظر معجم البلدان ١/١٩١ وما بعدها.

بنور الدين. وكان نور الدين قد جمع عساكره، وأقام ينتظر الخبر، فلما أتاه الخبر بأنه قد برز رحل عن دمشق، ونازل الكرك وهو ينتظر قدوم صلاح الدين، فأتاه كتابه يعتذر عن الوصول باختلال بلاد مصر والخوف عليها، ويعلمه أنه عاد إلى القاهرة، فعظم ذلك على نور الدين، وعزم على دخول مصر وقلع صلاح الدين منها. فبلغ ذلك صلاح الدين، فخاف وجمع أهله وخواصه واستشارهم، فقال تقى الدين عمر بن أخيه[1]: «إذا جاء قابلناه كلنا، وصددناه عن البلاد»، ووافقه جماعة من أهله على ذلك. فسبهم نجم الدين أيوب، وأنكر عليهم، وكان ذا رأى ومكر، وقال لابن ابنه تقى الدين: «اقعد»، وسبه. والتفت إلى ولده السلطان صلاح الدين وقال: «أنا أبوك، وهذا شهاب الدين الحارمى خالك! أتظن فى هؤلاء من يحبك ويريد لك الخير أكثر منا؟» قال: «لا». فقال نجم الدين: «والله لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكنا إلا أن نترجل له، ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا. فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر، ولو رأى السلطان نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات فى سرجه، وما يسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه، هذه البلاد له، وقد أقامك فيها نائبا عنه، فإن أراد عزلك فأى حاجة إلى المجىء؟ يأمرك بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته، ويولى البلاد من يريد». وقال للجماعة كلهم: «قوموا عنا، فنحن مماليك السلطان نور الدين وعبيده، يفعل بنا ما يريد». فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بهذا الخبر. ثم إن نجم الدين خلا بابنه صلاح الدين وقال له: «أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد، جعلك أهم أموره وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا لعسكر، وأسلموك إليه. وأما بعد هذا المجلس فإنهم سيكتبون إليه بقولى، فاكتب أنت إليه أيضا فى المعنى وقل له: أى حاجة إلى قصدى؟ نجاب يجىء فيأخذنى بحبل يضعه فى عنقى، فإنه إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله عز وجل كل يوم هو فى شأن». ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه، فانخدع نور الدين وعدل عن قصده، واندرجت الأيام كما قال نجم الدين، ومات نور الدين.

---

(١) المظفر الأيوبى (٥٨٧ هـ = ١١٩١م). عمر بن شاهنشاه بن أيوب، تقى الدين، الملقب بالمظفر: أمير كان صاحب حماة، وهو ابن أخى السلطان صلاح الدين. وكان شجاعًا مظفرًا، له مواقف مع الإفرنج. انظر وفيات الأعيان ٢٨٣/١، خطط مبارك ١٥/٦، ابن الوردى ١٠٣/٢، النعيمى ٢١٦/١، أبو الفداء ٨٠/٣، الأعلام ٤٧/٥

وفيها اتخذ نور الدين محمود بالشام الحمام الهوادى لنقل البطائق.

وفيها ولى أمير الينبع خطابة الجامع العتيق، بعد موت الشـريف تـاج الشـرف حسـن ابن أبى الفتوح ناصر فى المحرم.

* * *



سنة ثمان وستين وخمسمائة[1]

فيها خرج السلطان صلاح الدين بعساكره يريد بلاد الكرك والشوبك، فإنه كان كلما بلغه عن قافلة أنها خرجت من الشام تريد مصر خرج إليها ليحميها من الفرنج، فأراد التوسيع فى الطريق وتسهيلها، وسار إليها وحاصرها، فلم ينل منها قصدا وعاد.

وفيها جهز صلاح الدين الهدية إلى السلطان نور الدين، وفيها من الأمتعة والآلات الفضية والذهبية والبلور واليشم أشياء يعز وجود مثلها، ومن الجواهر واللآلئ شيء عظيم القدر، ومن العين ستون ألف دينار، وكثير من الغرائب المستحسنة، وفيل وحمار عتابى، وثلاث قطع بلخش فيها ما وزنه نيف وثلاثون مثقالا، وكان ذلك فى شوال .

وفيها خرج العبيد من بلاد النوبة لحصار أسوان، وبها كنز الدولة، فجهز السلطان الشجاع البعلبكى فى عسكر كبير فسار إلى أسوان، وقد رحل العبيد عنها، فتبعهم ومعه كنز الدولة، وواقعهم وقتل منهم كثيرا، وعاد إلى القاهرة.

وفيها سار الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين تورانشاه بن أيوب[2] أخو السلطان صلاح الدين، إلى بلاد النوبة، وفتح قلعة إبريم وسبى وغنم، وعاد إلى أسوان، وأقطع إبريم رجلا يعرف بإبراهيم الكردى، فسار إليها فى عدة من الأكراد، وانبثوا يشنون الغارات على بلاد النوبة، حتى امتلأت أيديهم بالأموال والمواشى بعد فقر وجهد فوافى

---

(١) سنة ٥٦٨ هـ انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢١/٦، الكامل ٣٧/١١وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١١٦/٢، ١١٧

(١) تورانشاه بن أيوب بن شادى، شمس الدولة، فخر الدين: أمير، من الأيوبيين، وهو أخو السلطان صلاح الدين لأبيه، نشأ فى دمشق وسيره صلاح الدين إلى اليمن ومعه الأمراء «بنو رسول» سنة ٥٦٩ هـ. فأخضع عصاتها، وعاد منها، وصلاح الدين على حصار حلب، فوصل إلى دمشق (سنة ٥٧١ هـ) فاستخلفه صلاح الدين فيها، فأقام مدة وانتقل إلى مصر (سنة ٥٧٤ هـ) فمات فيها. وكان شجاعًا فيه كرم وحزم. وذكر سبط ابن الجوزى أنه كان أكبر من صلاح الدين ويرى نفسه أحق بالملك منه، وكانت تبدر منه كلمات فى حال سكره، ولذلك أبعده صلاح الدين إلى اليمن فسفك الدماء ولما عاد أعطاه بعلبك ثم أبعده إلى الإسكندرية فعكف بها على اللهو ولم يحضر حروب صلاح الدين، ومات بالإسكندرية، فأرسلت أخته «ست الشام» وكانت شقيقته، فحملته فى تابوت إلى دمشق فدفنته فى تربتها. انظر العقود اللؤلؤية ١: ٢٦ووفيات الأعيان ١: ٩٩وبلوغ المرام ٤١ وابن الأثير ١١: ١٤٨ ومرآة الزمان ٨: ٣٦٢.

كتاب ملك النوبة إلى شمس الدولة وهو بقوص[١] مع هدية، فأكرم رسوله وخلع عليه، وأعطاه زوجين من نشاب، وقال له: «قل للملك مالك عندى جواب إلا هذا» وجهز معه رسولا ليكشف له خبر البلاد، فسار إلى دمقلة[٢] وعاد إليه، فقال: «وجدت بلادا ضيقة، ليس بها من الزرع سوى الذرة ونخل صغير منه أدامهم، ويخرج الملك وهو عريان على فرس عرى، وقد التف فى ثوب أطلس، وليس على رأسه شعر. فلما قدمت عليه وسلمت ضحك وتغاشى، وأمر بى فكويت على يدى هيئة صليب، وأنعم على بنحو خمسين رطلا من دقيق وليس فى دمقلة عمارة سوى دار الملك، وباقيها أخصاص». وفيها عظم همّ السلطان نور الدين بأمر مصر، وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد، وأكثر من مراسلته بحمل الأموال، ثم بعث بوزيره الصاحب موفق الدين خالد بن محمد بن نصر بن صغير[٣] القيسرانى إلى مصر، لعمل حساب البلاد، وكشف أحوالها، وتقرير القطيعة على صلاح الدين فى كل سنة، واختيار طاعته، فقدم إلى القاهرة وكان من أمره ما يأتى ذكره إن شاء الله.

---

(١) قوص: بالضم ثم السكون، وصاد مهملة، وهى قبطية: وهى مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوما، وأهلها أرباب ثروة واسعة. انظر معجم البلدان ٤١٣/٤، وقال ابن إياس فى ذكر مدينة قوص: أعلم أن قوص من أعظم مدائن الصعيد وهى على شاطئ النيل بنيت أيام شدات بن عديم: قال ابن وصيف شاه: وهو الذى بنى الأهرام الدهشورية وغيرها من البرابى. انظر نزهة الأمم ٢٢٥، وفى الروض المعطار مدينة كبيرة فى البلاد المصرية فى الجهة الشرقية من النيل، وهى كبيرة بها منبر وأسواق جامعة وتجارات ودخل وخرج، وشرب أهلها من ماء النيل، وهى أزلية قديمة فيها آثار كثيرة للأوائل، وبينها وبين أسوان غيران منحوتة فى جبال منها قبور الأموات لا يعلم لها عهد تستخرج منها المومياء الطبية، وهم يجدونها فى رممهم وبين أكفانهم. انظر الروض المعطار ٤٨٤، ٤٨٥، والإدريسى ٤٩، والاستبصار ٨٥.

(٢) دمقلة - وتكتب أيضًا دنقلة -: فى غربى النيل على ضفته، وهى قاعدة ملك النوبة، وأهلها سودان، ومن النيل يشرب أهلها، وبينها وبين مصر مسيرة أربعين يومًا، وتسير من دمقلة فى جبال وشعاب حتى تنتهى إلى صورا وهو آخر بلادهم. ولما افتتحت مصر أمر عمر رضى الله عنه أن تغزى النوبة فوجدهم المسلمون يرمون الحدق فذهبوا إلى المصالحة فأبى عمرو بن العاص رضى الله عنه من مصالحتهم حتى صرف عن مصر ووليها عبد الله بن سعد بن أبى السرح سنة إحدى وثلاثين فقاتلوه قتالاً شديدًا فأصيبت عين معاوية بن حديج رضى الله عنه وعيون جماعته، فحينئذ سموا رماة الحدق. انظر الروض المعطار ٢٣٦، ٢٣٧، ومعجم البلدان ٤٧٠/٢ الإدريسى ١٩، وصبح الأعشى ٢٧٥/٥، والبكرى ٥٩توران‌شاه (شمس الدولة) - (الملك المعظم). (.. - ٥٧٦ هـ = .. ١١٨٠ م).

(٣) موفق الدين (... ٥٨٨ هـ - ١١٩٢م). خالد بن محمد بن نصر بن صقر القريشى المخزومى، أبو البقاء، موفق الدين، ابن القيسرانى: وزير من أعيان الكتاب، أصله من قيسارية الشام، ومولده بحلب. استوزره نور الدين الشهيد بدمشق ومات بها فى أيام صلاح الدين. انظر البداية والنهاية ٣١/١٤ الأعلام ٢٩٨/٢.

وفيها مات أيوب بن شادى بن مروان بن يعقوب نجم الدين الملقب بالملك الأفضل أبى سعيد الكردى، والد السلطان صلاح الدين يوسف وذلك أنه خرج من باب النصر[(١)] بالقاهرة، فألقاه الفرس إلى الأرض يوم الثلاثاء ثامن عشر ذى الحجة، فحمل إلى داره فى تاسع عشره وقيل لثلاث بقين منه، فقبر عند أخيه أسد الدين شيركوه، ثم نقلا إلى المدينة النبوية فى سنة ثمانين وخمسمائة.

* * *

(١) قال المقريزى: وكان أولا دون موضعه اليوم: قال: وأدركت قطعة من أحد جانبيه كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربى، بحيث تكون الرجعة التى فيما بين المدرسة القاصدية وبين بابى جامع الحاكم القبليين خارج القاهرة. فلما كان أيام المستنصر، وقدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا، وتقلد وزارته، وعمر سور القاهرة، نقل باب النصر من حيث وضعه القائد جوهر إلى حيث هو الآن، فصار قريبا من مصلى العيد. انظر خطط التوفيقية ١٩٥/٢.



سنة تسع وستين وخمسمائة[1]

فيها وصل إلى القاهرة موفق الدين أبـو البقـاء خـالد بـن محمـد بـن نصـر بـن صغير المعروف بابن القيسرانى من عند السلطان الملك العادل نور الدين، مطالبا لصلاح الديـن بالحساب عن جميع ما أخذ من قصور الخلفاء وحصَّل من الارتفاع.

فشق ذلك عليه وقال: «إلى هذا الحد وصلنا ؟» وأوقفه على مـا تحصـل لـه، وعـرض عليه الأجناد، وعرفه مبالغ إقطاعاتهم وجامكياتهم[2]، ورواتب نفقاتهم، ثم قال: «ومـا يضبط هذا الإقليم العظيم إلا بالمال الكبير، وأنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها، وأنهـم معتادون بالنعمة والسعة، وقد تصرفوا فى أماكن لا يمكن انتزاعها منهـم، ولا يسـمحون بأن ينقص من ارتفاعها»، وأخذ يجمع المال.

وفيها سار الأمير شمس الدولـة تورانشـاه، أخـو السـلطان صـلاح الديـن، إلى اليمن وذلك لشدة خوف صلاح الدين وأهله من الملك العادل نور الدين أن يدخـل إلى مصر وينتزعهم منها، فأحبوا أن يكون لهم مملكة يصيرون إليها. وكان اختيارهم قد وقع علـى النوبة[3]، فلما سار إليها لم تعجبه وعـاد. وكـان الفقيـه عمـارة اليمـانى قـد انقطـع إلى الأمير شمس الدولة، ومدحه واختص به، وحدثه عـن بـلاد اليمـن وكـثرة الأمـوال بهـا، وهون أمرها عنده، وأغراه بأن يستبد بملك اليمن، وتعرض لذلك فى كلمته التى أولها:

العلْـمُ مـذ كان محتاج إلى العَلَـمِ ... وشفـرة السيف تستغنى عن القلم

ومنها:

فاخلق لنفسك ملكا لا تضاف به ... إلى سـواك وأور النـار فـى العلـم

هـذا ابن تومرت قد كانت بدايته ... كما يقول الورى لحما على وضم

---

(١) انظر أحداث تلك السنة فـى النجـوم الزاهـرة ٦/٦٣ - ٦٧الكـامل١١/٣٩٦٦ومـا بعدهـا، تاريخ بن الوردى ٢/١١٧: ١١٩

(٢)الجامكية: وتجمع على جوامك وجامكيات وهى الرواتب عامة، صبح الأعشى ٣/٤٥٧.

(٣)النوبة: بضم أوله، وسكون ثانيه، وباء موحدة...

وهو فى عدة مواضع : النوبة بلاد واسعة عريضة فى جنوبى مصـر وهـم نصـارى أهـل شـدة فـى العيش، أول بلادهم بعد أسوان يجيئون إلى مصر فيباعون بها... ومدينة النوبة: اسمها دمقلة وهى منزل الملك على ساحل النيل، وطول بلادهم مع النيل ثمانون ليلة. انظر معجم البلدان ٥/٣٠٨: ٣٠٩.

وكان شمس الدولة مع ذلك جوادا كثير الإنفاق، فلم يقنع بما له من الإقطاع بمصر، وأحب الوسع، فأستأذن صلاح الدين في المسير، فأذن له واستعد لذلك، وجمع وحشد، وسار مستهل رجب. فوصل إلى مكة فزار، ثم خرج منها يريد اليمن، وبها يومئذ أبو الحسن على بن مهدى[١] ويقال له عبد النبى. فاستولى على زبيد[٢] فى سابع شوال، وقبض على عبد النبى، وأخذ ما سواها من مدائن اليمن، وتلقب بالملك المعظم، وخطب له بذلك بعد الخليفة المستضىء بأمر الله فى جميع ما فتحه، وبعث إلى القاهرة بذلك. فسير السلطان صلاح الدين إلى الملك العادل يعلمه بذلك، فبعث بالخبر إلى الخليفة المستضىء ببغداد.

وفى سادس شعبان: قبض على أولاد العاضد وأقاربه، وأخرجوا من القصر إلى دار المظفر بحارة برجوان، فى العشر الأخير من رمضان .

وفيها اجتمع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضد، وأن يفتكوا بصلاح الدين، وكاتبوا الفرنج، منهم القاضى المفضل ضياء الدين نصر الله بن عبد الله ابن كامل القاضى، والشريف الجليس، ونجاح الحمامى، والفقيه عمارة بن على اليمانى، وعبد الصمد الكاتب، والقاضى الأعز سلامة العوريس متولى ديوان النظر ثم القضاء، وداعى الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى[٣] والواعظ زين الدين بن نجا،

---

(١) على بن مهدى (.... - ٥٥٤ هـ= ... ٠ ١١٥٩م). على بن مهدى بن محمد الحميرى الرعينى: القائم فى اليمن. كان فى بداءة أمره من رجال الصلاح والإرشاد والوعظ من أهل قرية تدعى العنبرة من سواحل زبيد وكان يحج كل سنة ولقى بعض علماء العراق والشام والحجاز، فاستمال إليه القلوب واتبعه خلق، فكانت تأتيه الهدايا والصدقات فيردها، إلى أن كانت سنة ٥٤٥هـ. فبايعه بالإمامة عدد كبير من أهل اليمن. ورقى أمره، فارتفع إلى الجبال وسمى ومن ارتفع معه من المهاجرين وأخذ يغير على قرى تهامة، ويعود إلى بجال ، فملك كثيرا من التهائم... واستولى على زبيد قبل وفاته بشهرين، ورأيه رأى الخوارج. انظر بلوغ المرام ١٧، بهجة الزمن ٧١، تاريخ اليمن لعمارة ١٢٠، الأعلام ٢٥/٥.

(٢) زبيد: بفتح أوله، وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت ، المراد به مدينة يقال لها الحصيب ثم غلب عليها اسم الوادى فلا تعرف إلا به، وهى مدينة مشهورة باليمن أحدثت فى أيام المأمون.

(٣) ردا على الدعاة (... - ٥٦٩ هـ - ... - ١١٧٤م). عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى، الملقب بداعى الدعاة، ويقال له الحاج بن عبد القوى من هايا أنصار الفاطميين بمصر، بعد ذهاب دولتهم. اتفق مع جماعة من الباطنية الإسماعيلية، وغيرهم، وبينهم عمارة اليمين، على اغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبى، وعلم السلطان بخبرهم، فأحاط بهم، وشنقهم فى أماكن متفرقة بالقاهرة، وعبد الجبار فى جملتهم. انظر النجوم الزاهرة ٧٠/٦. الأعلام ٢٧٤/٣

فوشى ابن نجا بخبرهم إلى السلطان، وسأله فى أن ينعم عليه بجميع ما لابن كامل الداعى من الدور والموجود كله، فأجيب إلى ذلك، فأحيط بهم وشنقوا فى يوم السبت ثانى شهر رمضان بين القصرين، فشنق عمارة وصلب فيما بين بابى الذهب وباب البحر، وابن كامل فى رأس الخروقيين التى تعرف اليوم بسوق أمير الجيوش، والعوريس على درب السلسلة، وعبد الصمد وابن سلامة وابن المظبى ومصطنع الدولة والحاج ابن عبد القوى بالقاهرة، وشنق ابن كامل القاضى بالقاهرة يوم الأربعاء تاسع عشر شوال، وشنق أيضا شبرما وأصحابه وجماعة من الأجناد والعبيد والحاشية وبعض أمراء صلاح الدين. وقبض صلاح الدين سائر ما وجد عندهم من مال وعقار، ولم يمكن ورثتهم من شىء ألبتة، وتتبع من له هوى فى الدولة الفاطمية، فقتل منهم كثيرا وأسر كثيرا، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد.وقبض على رجل يقال له قديد بالإسكندرية، من دعاة الفاطميين، يوم الأحد خامس عشرى رمضان، وقبض على كثير من السودان، وكووا بالنار فى وجوههم وصدورهم.

وفيها جهز السلطان مع الوزير ابن القيسرانى ما تحصل عنده من المال، وأصحبه هدية لنور الدين، وهى خمس ختمات إحداها فى ثلاثين جزءا، مغشاة بأطلس أزرق ومضببة بصفائح ذهب، وعليها أقفال من ذهب مكتوبة بخط ذهب، وأخرى فى عشرة أجزاء مغشاة بديباج فستقى، وأخرى فى جلد بخط ابن البوّاب بقفل ذهب وثلاثة أحجار بلخش، منها حجر زنته اثنان وعشرون مثقالا، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا، وآخر عشرة مثاقيل ونصف وست قصبات زمرد إحداها وزنها ثلاثة مثاقيل، وحجر ياقوت أحمر، وزنه سبعة مثاقيل، وحجر ياقوت أزرق وزنه ستة مثاقيل، ومائة عقد جوهر زنتها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا، وخمسون قارورة دهن بلسان، وعشرون قطعة بلور، وأربع عشرة قطعة جزع[1] ما بين زبادى وسكارج، وإبريق يشم وطشت يشم، وسقرق مينا مذهب، بعروة فيها حبتا لؤلؤ وفى الوسط فص ياقوت أزرق، وصحون وزبادى وسكارج من صينى عدتها أربعون قطعة، وعود قطعتين كبارا، وعنبر منه قطعة زنتها ثلاثون رطلا، وأخرى عشرون رطلا، ومائة ثوب أطلس، وأربعة وعشرون بقيارا مذهبا وأربعة وعشرون ثوبا وشيا حريرية بيضاء، وحلة خلفى مذهب، وحلة مرايش أصفر مذهب، وحلة مرايش أزرق بذهب، وحلة مرايش بقصب أحمر وأبيض، وحلة فستقى بقصب مذهبة، وقماش كثير، قدر قيمتها بمائتى ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار. وساروا بذلك، فبلغهم موت نور الدين، فأعيدت وهلك بعضها.

---

(١) الخرز اليمانى فيه سواد وبياض.

وفيها مات السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكى، فى يوم الأربعاء حادى عشر شوال، بعلة الخوانيق، وكان قد تجهز لأخذ مصر من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد خطب له بالشام ومصر والحرمين واليمن. وقام من بعده ابنه الصالح إسماعيل وعمره إحدى عشرة سنة، فخطب له السلطان صلاح الدين بمصر، وضرب السكة باسمه وفيها نزل أسطول الفرنج بصقلية على ثغر الإسكندرية، لأربع بقين من ذى الحجة بغتة، وكان الذى جهز هذا الأسطول غليالم بن غليالم بن رجار متملك صقلية[١]، ولى ملك صقلية بعد أبيه فى سنة ستين وخمسمائة وهو صغير، فكفلته أمه، وتولى التدبير خادم اسمه باتر مدة سنة، ثم فر إلى السيد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن صاحب البلاد المغربية.

ثم استبد غليالم بتدبير ملكه، واحتفل فى سنة إحدى وسبعين بعمارة هذا الأسطول، فاجتمع له ما لم يجتمع لجده رجار، وحمل فى الطرائد ألف فارس. وقدم على الأسطول رجلا من دولته يسمى أكيم موذقة، وقصد الإسكندرية، ومات غليالم فى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. ولما أرسى هذا الأسطول على البر، أنزلوا من طرائدهم ألفا وخمسمائة فرس، وكانت عدتهم ثلاثين ألف مقاتل، ما بين فارس وراجل، وعدة طرائدهم ستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل، ومائتى شينى فى كل شينى مائة وخمسون رجلا، وعدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار ست سفن، والتى تحمل الأزواد والرجال أربعين مركبا، فكانوا نحو الخمسين ألف راجل. ونزلوا على البر مما يلى المنارة، وحملوا على المسلمين حتى أوصلوهم إلى السمور، وقتل من المسلمين سبعة. وزحفت مراكب الفرنجة إلى الميناء، وكان بها مراكب المسلمين فغرقوا منها. وغلبوا على البر وخيموا بها فأصبح لهم على البر ثلاثمائة خيمة، وزحفوا لحصار البلد، ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها، وثلاثة مجانيق كبارا تضرب بحجارة سود عظيمة.

وكان السلطان على فاقوس [٢] فبلغه الخبر ثالث يوم نزول الفرنجة، فشرع فى تجهيز العساكر، والقتال والرمى بالمجانيق مستمر. فوصلت العساكر، وفتحت الأبواب،

---

(١) صقلية: بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء أيضا مشددة، وبعض يقول بالسين، وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام. من جزائر بحر المغرب مقابلة أفريقية، وهى مثلثة الشكل بين كل زاوية والأخرى مسيرة سبعة أيام. انظر معجم البلدان ٤١٦/٣.

(٢) فاقوس: بالقاف، وآخره سين مهملة: اسم مدينة فى حوض مصر الشرقى، من مصر إلى مشتول ثمانية عشر ميلا، ومن مشتول إلى سقط طرابية ثمانية عشر ميلا، وإلى مدينة فاقوس ثمانية عشر ميلا. انظر معجم البلدان ٢٣٢/٤.

وهاجم المسلمون الفرنجة، وحرقوا الدبابات، وأيدهم الله بنصره، واستمر القتال يوم الأربعاء إلى العصر، وهو الرابع من نزول الفرنجة. ثم حملوا حملة ثانية عند اختلاط الظلام على الخيام، فتسلموها بما فيها، وقتلوا من الرجالة عددا كثيرا ومن الفرسان. فاقتحم المسلمون البحر، وأخذوا عدة مراكب خسفوها فغرقت، وولت بقية المراكب منهزمة، وقتل كثير من الفرنجة، وغنم المسلمون من الآلات والأمتعة والأسلحة ما لا يقدر على مثله إلا بعناء وأقلع باقى الفرنجة مستهل سنة سبعين.

وفيها، - أعنى سنة تسع وستين وخمسمائة - وقف السلطان صلاح الدين ناحية نقادة من عمل قوص بناحية الصعيد الأعلى، وثلث ناحية سندبيس من القليوبية، على أربعة وعشرين خادما لخدمة الضريح الشريف النبوى، وضمن ذلك كتابا ثابتا تاريخه ثامن عشرى شهر ربيع الآخر منها، فاستمر ذلك إلى اليوم.

وكان قاع النيل ستة أذرع وعشرين أصبعا، وبلغ سبعة عشر ذراعا وعشرين أصبعا.

* * *



[سنة سبعين وخمسمائة][1]

وفيها جمع كنز الدولة والى أسوان العرب والسودان، وقصد القاهرة يريد إعادة الدولة الفاطمية، وأنفق فى جموعه أموالا جزيلة، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هواهم، فقتل عدة من أمراء صلاح الدين. وخرج فى قرية طود[2] رجل يعرف بعباس بن شادى، وأخذ بلاد قوص، وانتهب أموالها. فجهز السلطان صلاح الدين أخاه الملك العادل فى جيش كثيف، ومعه الخطير مهذب بن مماتى، فسار وأوقع بشادى وبدد جموعه وقتله، ثم سار فلقيه كنز الدولة بناحية طود، وكانت بينهما حروب فر منها كنز الدولة، بعدما قتل أكثر عسكره، ثم قتل كنز الدولة فى سابع صفر، وقدم العادل إلى القاهرة فى ثامن عشريه.

وفيها ورد الخبر على السلطان بسير الملك الصالح مجير الدين إسماعيل بن نور الدين[3] إلى حلب، ومصالحته للسلطان سيف الدين غازى[4] صاحب الموصل، فأهمه وخرج يريد المسير إلى الشام فنزل ببركة الجب أول صفر، وسار منها فى ثالث عشر ربيع الأول، على صدر وأيلة، فى سبعمائة فارس، واستخلف على ديار مصر أخاه الملك العادل. ونزل بصرى وخرج منها، فنزل الكسوة يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأول، وخرج الناس إلى لقائه، فدخل إلى دمشق يوم الإثنين أول شهر ربيع الآخر، وملكها من غير مدافع.وأنفق فى الناس مالا جزيلا، وأمر فنودى بإطابة النفوس وإزالة

---

(١) ٥٧٠ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٦٧ - ٦/٦٩، الكامل ١١/٤١٢ وما بعدها، تاريخ بن الوردى ١١٩: ٢/١٢٣.

(٢) طود: بفتح أوله، وسكون ثانية ، والدال: بليدة بالصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسوان، لها مناظر وبساتين.انظر معجم البلدان ٤/٤٧.

(٣) الملك الصالح (٥٥٨- ٥٧٧ هـ = ١١٦٣ - ١١٨١م). إسماعيل بن محمود بن زنكى: من ملوك بنى زنكى فى الشام والجزيرة. بويع له بدمشق بعد وفاة أبيه (سنة ٥٦٩ هـ) وهو ابن إحدى عشرة سنة. فقام بأمور دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم بن خلدون. مرآة الزمان ٨، ٣٦٦. الأعلام ١/٣٢٦.

(٤) غازى بن زنكى (٤٩٠ - ٥٤٤ هـ= ١٠٩٧ - ١١٤٩م). غازى بن زنكى بن آق سنقر، سيف الدين، أخو نور الدين الشهيد. أمير، كان صاحب الموصل. أقام فى الملك ثلاث سنين وشهورا. وهو أول من حمل السنجق على رأسه من الأتابكية. انظر اللماعات البرقية ١٢، مفرج الكروب ١/١١٦، النجوم الزاهرة ٥/٢٨٦، مرآة الزمان ٨/٢٠٣. الأعلام ٥/١١٢.

المكوس، وإبطال ما أحدث بعد نور الدين محمود من القبائح والمنكرات والضرائب، وأظهر أنه إنما جاء لتربية الصالح بن نور الدين، وأنه ينوب عنه ويدبر دولته، وكاتب الأطراف بذلك. وتسلم قلعة دمشق بعد امتناع، فأنزل بها أخاه ظهير الإسلام طغتكين ابن أيوب[١]، وبعث بالبشارة إلى القاهرة، وخرج مستهل جمادى الأولى، فنازل حمص حتى تسلمها فى حادى عشره، وامتنعت عليه قلعتها، فأقام على حصارها طائفة، وسار إلى حماة فنزل عليها فى ثالث عشريه، وبها عز الدين جرديك، فسلمها إليه.

وفى جمادى الأولى: ولى ابن عصرون القضاء بديار مصر.

وسار صلاح الدين إلى حلب، وبعث إلى الصالح إسماعيل فى الصلح مع جرديك، فأبى أصحابه ذلك، وقبضوا على جرديك وقيدوه، فبلغ ذلك صلاح الدين، وقد سار عن حماة[٢] يريد حلب، فعاد إليها .ثم سار منها إلى حلب، ونزل جبل جوش ثالث جمادى الآخرة، واستعد أهل حلب وخرجوا لقتاله، وقاتلوه قتالا شديدا إلى أول رجب. فرحل صلاح الدين يريد حمص، وقد بلغه مسير القومص ملك الفرنج بطرابلس، بمكاتبة أهل حلب، وأنه منازل لحمص. فلما قرب من حمص عاد القومص إلى بلاده، فنازل صلاح الدين قلعتها، ونصب المجانيق عليها إلى أن تسلمها بالأمان، فى حادى عشرى شعبان، وسار إلى بعلبك، فحاصرها حتى تسلم قلعتها فى رابع رمضان، وعاد إلى حمص. وكانت بينه وبين أصحاب الصالح وقعة على قرون حماة، فى يوم الأحد تاسع عشره، انتصر فيها صلاح الدين، وهزمهم وغنم كل ما معهم، ولم يقتل فيها أكثر من سبع أنفس، وسار حتى نزل على حلب، وقطع الخطبة للصالح، وأزال اسمه عن السكة فى بلاده، فبعث أهل الصالح إليه يلتمسون منه الصلح، فأجاب إليه

---

(١) طغتكين (٥٩٣ هـ - ١١٩٧م). طغتكين، سيف الإسلام، بن أيوب بن شاذى: صاحب اليمن ، الملقب بالملك العزيز. كان شجاعا أديبا عاقلا بعثه أخوه الناصر صلاح الدين إلى اليمن، فدخل مكة ٥٧٩ هـ، ودخل وبيدا، فتعز وملك اليمن كله، طوعا وكرما. وكان فقيها . انظر العقود اللؤلؤية ٢٩/١، الوفيات ٢٣٧/١، العبر ٢٨١/٤. الأعلام ٢٢٧/٣.

(٢) حماة: من كور حمص بالشام، وهى مدينة طيبة فى وسطها نهر يسمى العاصى، وفيه قيل:

ولما جرى العاصى وطيع أدمعى ... لدى الناس قال الناس أيهما النهر

وهذا النهر عظيم عليه جسور يعبر عليها، وعليه نواعير كثيرة تخرج الماء إلى ما على جانبيه من غيطان المدينة، وبينها وبين كفرطاب أربعون ميلاً، ومن حمص إلى حماة مثلها، وهى قديمة البناء، وربضها كبير، والعاصى سمى بذلك لأن ظاهر انحداره من أسفل إلى علو ومجراه من الجنوب إلى الشمال وهو يجتاز على قبلى حمص وبمقربة منها. انظر الروض المعطار ١٩٩، ومعجم البلدان ٣٠٠/٢، وصبح الأعشى ١٤٠/٤.

على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها، واستزاد منهم المعرة وكفر طاب، وكتبت نسخة يمين وعليها خط صلاح الدين، بعدما حلف وعاد إلى حماة.

وكان صلاح الدين قد كتب إلى بغداد يعدد فتوحاته وجهاده للفرنج، وإعادته الخطبة العباسية بمصر، واستيلاءه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب وعلى بلاد اليمن كلها، وأنه قدم إليه فى هذه السنة وفد سبعين راكبا، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدا. وطلب صلاح الدين من الخليفة تقليد مصر واليمن والمغرب والشام، وكل ما يفتحه بسيفه. فوافته بحماة رسل الخليفة المستضىء بأمر الله، بالتشريف والأعلام السود، وتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها. فسار ونزل على بعرين ويقال بارين، وحاصر حصنها حتى تسلمه فى العشرين منه، ورجع إلى حماة.

وفيها تقرر العماد الأصفهانى نائبا فى الكتابة عن القاضى الفاضل[١] بسعاية نجم الدين محمد بن مصال. وسار صلاح الدين إلى دمشق ثم رحل عنها، فنزل مرج الصفر[٢] ووافته به رسل الفرنج فى طلب الهدنة، فأجابهم إليها بشروط اشترطها. وأذن للعساكر فى المسير إلى مصر لجدب الشام فساروا، ورجع هو إلى دمشق فى محرم سنة إحدى وسبعين، وفوض أمرها إلى ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب.

* * *

---

(١) القاضى الفضل (٥٢٩ - ٥٩٦ هـ = ١١٣٥ - ١٢٠٠م). عبد الرحيم بن على بن السعيد اللخمى، المعروف بالقاضى الفاضل: وزير، من أئمة الكتاب. ولد بعسقلان، وانتقل إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة وتوفى فيها، كان من وزراء السلطان صلاح الدين، ومن مقربيه، وكان سريع الخاطر فى الإنشاء، كثير الرسائل. انظر النجوم الزاهرة ١٥٦/٦، ابن خلكان ٢٨٤/١، خطط مبارك ٦: ١٢ كتاب الروضتين ٢٤١/٢، الكتبخانة ٢٩٠/٤، النعيمى ٩٠/١، النويرى ١/٨ - ٥١ ،السبكى ٢٥٣/٤ ، كشف الظنون ١٠١٦/٢. الأعلام ٣/٣٤٦.

(٢) مرج الصفر: بالضم، وتشديد الفاء: بدمشق .

سنة إحدى وسبعين وخمسمائة [(١)]

وفيها سار شرف الدين قراقوش - أحد أصحاب تقى الدين عمر - إلى بلاد المغرب فى حادى عشر محرم فى جيش، فأخذ من صاحب أوجلة[(٢)] عشرين ألف دينار فرقها فى أصحابه، وعشرة آلاف دينار لنفسه، وسار منها إلى غيرها، ثم بلغه موت صاحب أوجلة، فعاد إليها وحاصر أهلها، وقد امتنعوا عليه حتى أخذها عنوة، وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وغنم منها غنيمة عظيمة، وعاد إلى مصر.

وفيها تجهز الحلبيون لقتال صلاح الدين، فاستدعى عساكر مصر، فلما وافته بدمشق فى شعبان سار فى أول رمضان، فلقيهم فى عاشر شوال. وكانت بينهما وقعة تأخر فيها السلطان سيف الدين غازى صاحب الموصل، فظن الناس أنها هزيمة، فولت عساكرهم، وتبعهم صلاح الدين، فهلك منهم جماعة كثيرة، وملك خيمة غازى، وأسر عالما عظيما، واحتوى على أموال وذخائر وفرش وأطعمة وتحف تجل عن الوصف. وقدم عليه أخوه الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من اليمن، فأعطاه سرادق السلطان غازى بما فيه من الفرش والآلات، وفرق الإسطبلات والخزائن على من معه، وخلع على الأسرى وأطلقهم. ولحق سيف الدين غازى بمن معه، فالتجأوا جميعا لحلب، ثم سار إلى الموصل وهو لا يصدق أنه ينجو، وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل. ورحل صلاح الدين ونزل على حلب فى رابع عشر شوال، فأقام عليها إلى تاسع عشره، ورحل إلى بزاعة، وقاتل أهل الحصن حتى تسلمه. وسار إلى منبج، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشريه، ولم يزل يحاصرها أياما حتى ملكها، وأخذ من حصنها ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية والأسلحة ما يناهز ألفى ألف دينار. ورحل إلى عزاز، وحاصرها من يوم السبت رابع ذى القعدة إلى حادى عشر ذى الحجة، فتسلمها وأقام فيها من يثق به، وعاد إلى حلب.

---

(١) سنة ٥٧١ هـ انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٦/٢٣، ٦٩ - ٦/٧١، الكامل ١١/٤٢٧ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٢٣.

(٢) أوجلة: مدينة بينها وبين برقة فى البر عشر مراحل، وهى مدينة صغيرة متحضرة، وهى فى ناحية البرية يطيف بها نخل وغلات لأهلها، ومنها يدخل إلى كثير من أرض السودان، والوارد عليها والصادر عنها قليل، وأرض أوجلة وبرقة واحدة، وشرب أهلها من المراحل. انظر الروض المعطار ٦٤، ومعجم البلدان، والإدريسى ١٢٣/٩٩).

وفي يوم الثلاثاء رابع عشرة: وثب عدة من الإسماعيلية على السلطان صلاح الدين، فظفر بهم بعدما جرحوا عدة من الأمراء والخواص. ثم سار إلى حلب فنزل عليها في سادس عشره، وأقطع عسكره ضياعها، وأمر بجباية أموالها، وضيق على أهل حلب من غير قتال، بل كان يمنع أن يدخلها أحد أو يخرج منها.

* * *

[سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة][1]

فلما كان رابع المحرم سنة اثنتين وسبعين: ركب العسكران وكانت الحرب، فقتل جماعة من أصحاب صلاح الدين. ثم تقرر الصلح بينه وبين الملك الصالح، على أن يكون للصالح حلب وأعمالها. ورحل صلاح الدين فى عاشره، فنازل مصياب، وفيها راشد الدين سنان بن سلمان بن محمد، صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الباطنية، وإليه تنسب الطائفة السنانية، ونصب عليها المجانيق والعرادات من ثالث عشريه إلى أيام، ثم رحل و لم يقدر عليهم، وقد امتلأت أيدى أصحابه بما أخذوه من القرى. وفوض صلاح الدين قضاء دمشق لشرف الدين أبى سعد عبد الله بن أبى عصرون، عوضا عن كمال الدين الشهرزورى بعد وفاته.

وفيه أغار الفرنج على البقاع[2] فخرج إليهم الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم من بعلبك، فأوقع بهم وقتل منهم وأسر. وخرج إليهم المعظم شمس الدولة من دمشق فلقيهم بعين الحر، وأوقع بهم، ثم سار إلى حماة وبها صلاح الدين، فوافاه فى الثانى من صفر. ثم سار السلطان منها ودخل دمشق سابع عشره، فأقام بها إلى رابع شهر ربيع الأول، وخرج منها إلى القاهرة، واستخلف على دمشق أخاه الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، فوصل إليها لأربع بقين منه.

وفيها أمر السلطان ببناء السور على القاهرة والقلعة ومصر، ودوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة وذراعان بذراع العمل. فتولى ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى، وشرع فى بناء القلعة، وحفر حول السور خندقا عميقا، وحفر واديه وضيق طريقه. وكان فى مكان القلعة عدة مساجد منها مسجد سعد الدولة، فدخلت فى جملة القلعة، وحفر فيها بئرا ينزل إليها بدرج منحوتة فى الحجر إلى الماء.

وفيها أمر السلطان ببناء المدرسة بجوار قبر الشافعى بالقرافة، وأن تعمل خزانة الأشربة التى كانت للقصر مارستانا للمرضى، فعمل ذلك. وسار السلطان إلى الإسكندرية فى ثانى عشرى شعبان، ومعه ابناه الأفضل على [3] والعزيز عثمان، فصام

---

(١)سنة ٥٧٢ هـ .انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٦/٢٤، ٧١ - ٦/٧٤، الكامل ١١/٤٣٦ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٢٤.

(٢) أرض واسعة بين دمشق وبعلبك وحمص، فيها قرى كثيرة انظر معجم البلدان ٦٩٩/١.

(٣) الأفضل الأيوبى (٥٦٦ - ٦٢٢ هـ= ١١٧١ - ١٢٢٥ م). على (الملك الأفضل نور الدين) ابن يوسف (صلاح الدين) بن أيوب: صاحب الديار الشامية. استقل بمملكة دمشق بعد وفاة أبيه=

بها شهر رمضان، وسمع الحديث على الحافظ أبى الطاهر أحمد السلفى(١) وأمر بتعمير الأسطول بها، ووقف صادر الفرنج على الفقهاء بالإسكندرية.ثم عاد إلى القاهرة، فصام بها بقية رمضان.

وفيها عاد شرف الدين قراقوش غلام تقى الدين إلى بلاد المغرب، وعاد فأخذ جماعة من الجند، وخرج إلى المغرب، فأمر العادل الأمير خطلبا بن موسى والى القاهرة بالقبض عليه، فسار إلى الفيوم وأخذه محمولا إلى القاهرة.

وفيها أبطل السلطان المكس المأخوذ من الحجاج فى البحر إلى مكة على طريق عيذاب(٢) وهو سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان، وكانوا يؤدون ذلك بعيذاب أو بجدة، ومن لم يؤد ذلك منع من الحج، وعذب بتعليقه بأنثييه، وعوض أمير مكة عن هذا المكس بألفى دينار، وألف أردب قمح، سوى إقطاعات بصعيد مصر وباليمن، وقيل إن مبلغ ذلك ثمانية آلاف أردب قمح تحمل إليه إلى جدة.

* * *

=سنة ٥٨٩ هـ وأخذها منه أخوه العزيز وعمه العادل سنة ٥٩٣ هـ وأعطياه صرخد ثم دعى إلى مصر بعد وفاة صاحبها العزيز (أخيه) وولاية ابنه المنصور (محمد بن العزيز) وكان صغيرا، فتولى الأفضل شئون مصر سنة ٥٩٥ مساعدا للمنصور إلى أن أخرجه منها العادل وأعطاه سميساط. فأقام فيها إلى أن توفى. انظر ابن الأثير ١٢/١٦٤، وفيات الأعيان ١/٣٧١، حلى القاهرة ١٩٩، الأعلام ٥/٣٣.

(١) السلفى (٤٧٨ - ٥٧٦ هـ = ١٠٨٥ - ١١٨٠م).أحمد بن محمد بن سلفة (بكسر السين وفتح اللام) الأصبهانى، صدر الدين، أبو طاهر السلفى: حافظ مكثر، من أهل أصبهان. رحل فى طلب الحديث، وكتب تعاليق وأمالى كثيرة، وبنى له الأمير العادل (وزير الظافر العبيدى) مدرسة فى الإسكندرية ، سنة ٥٤٦ هـ، فأقام إلى أن توفى فيها له معجم مشيخة أصبهان ومعجم شيوخ بغداد - خ ومعجم أسفاره - خ نشرت منه نسخة كثيرة النقص باسم أخبار وتراجم أندلسية وله الفضائل الباهرة فى مصر والقاهرة - خ فى الخزانة الحميدية بالأستانة وللمعاصر محمد محمود زيتون، الإسكندرى الحافظ السلفى أشهر علماء الزمان .

(٢) عيذاب: مدينة فى أعلى الصحراء المنسوبة إليها فى ضفة البحر الملح، ومنها المجاز إلى جدة، وعرضه مجرى يوم وليلة، ومرسى عيذاب جزيرة ليست بكبيرة وماسكنها من حجارة، والماء العذب يجلب إليها على مسيرة يوم، وهى محط السفن من جدة من التجار وغيرها، وهى تقابل على الصعيد الأعلى مدينة قوص وقفط، وبينها وبين قفط فى البر خمس مراحل لا ماء فيها إلا فى موضعين. انظر الروض المعطار ٤٢٣، ٤٢٤، ومعجم البلدان ٤/١٧١، ونزهة المشتاق ٤٩، وابن الوردى ٣٦.

[سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة][1]

وخرج السلطان من القاهر، لثلاث مضين من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، لجهاد الفرنج. وسار إلى عسقلان[2] فسبى وغنم وقتل وأسر ومضى إلى الرملة، فاعترضه نهر تل الصافية فى يوم الجمعة ثانى جمادى الآخرة، فازدحم الناس بأثقالهم عليه وأشرف الفرنج عليهم، ومقدمهم البرنس أرناط صاحب الكرك فى جموع كثيرة، فانهزم المسلمون وثبت السلطان فى طائفة، فقاتل قتالا شديدا، واستشهد جماعة وأخذ الفرنج أثقال المسلمين، فمر بهم فى مسيرهم إلى القاهرة من العناء ما لا يوصف، ومات منهم ومن دوابهم كثير، وأسر الفرنج جماعة منهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى. ودخل السلطان إلى القاهرة منتصف جمادى الآخرة، لا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج، وقطع أخباز جماعة من الأكراد، من أجل أنهم كانوا السبب فى هذه الكسرة.

وفيها نزل الفرنج على حماة، فقاتلهم الناس أربعة أيام حتى رحلوا عنها، ونزلوا على حارم فحاصروها أربعة أشهر، ثم رحلوا إلى بلادهم.

وفيها أطلق شرف الدين قراقوش التقوى، وسار إلى أوجلة وغيرها من بلاد المغرب.

وخرج السطان فى سادس عشرى شعبان سنة ثلاث وسبعين من القاهرة يريد الشام، واستخلف بديار مصر أخاه العادل، فلم يزل مقيما على بركة الجب إلى أن صلى صلاة عيد الفطر. فبلغه نزول الفرنج على حماة، فأسرع فى المسير حتى دخل دمشق فى رابع عشرى شوال، فرحل الفرنج عن حماة. ووافته بدمشق رسل الخليفة بالتشريفات.

وفيها سار الفرنج إلى قلعة صدر، وقاتلوا من بها فلم ينالوا قصدا، فساروا يريدون الغارة على ناحية فاقوس، ثم عادوا بنية الحشد والعود.

---

(١) ٥٧٣ هـ انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٧٤ - ٦/٧٦ الكامل ١١/٤٤٢ وما بعدها، تاريخ بن الوردى ٢/١٢٥.

(٣) عسقلان: بفتح أوله، وسكون ثانية ثم قاف، وآخره نون وهى مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام. انظر معجم البلدان ٤/١٢٢.

وفيها عصى شمس الدين بن المقدم بمدينة بعلبك على السلطان.

وفيها ولد الملك الزاهد مجير الدين داود، شقيق الظاهر غياث الدين غازى بن السلطان صلاح الدين، لسبع بقين من ذى القعدة.

وفيها غلت الأسعار ببلاد الشام لكثرة الجدب، واشتد الأمر بحلب.

وفيها سار الأمير ناصر الدين إبراهيم، سلاح دار تقى الدين عمر فى عسكر إلى بلاد المغرب، فوصل إلى قراقوش التقوى، وسارا إلى مدينة الروحان، فنازلاها أربعين يوما، حتى فتحت وقتل حاكمها، وقررا عليها أربعة عشر ألف دينار، وملكا مدينة غدامس [١] بغير قتال، وتقرر على أهلها اثنا عشر ألف دينار، وسار إبراهيم إلى جبال نفوسة [٢]، فملك عدة قلاع، وصار إليه مال كثير ورجال، وسار البعث من عند قراقوش إلى بلاد السودان، فغنموا غنيمة عظيمة.

وفيها ظهر العمل فى سور القاهرة، وطلع البناء وسلكت به الطرق المؤدية إلى الساحل بالمقس [٣].

وفيها مات الأمير شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى، خال السلطان صلاح الدين ونائب حماة، فى سابع عشرى جمادى الآخرة بحماة، وحمل إلى حلب فدفن بها، وكان شجاعا عاقلا سيوسا ممدحا.

* * *

---

(١) غدامس: فى الصحراء على سبعة أيام من جبل نفوسة، وهى مدينة لطيفة قديمة أزلية إليها ينسب الجلد الغدامسى، وبها دواميس وكهوف كانت سجونًا للملكة الكاهنة التى كانت بإفريقية، وهذه الكهوف من بناء الأولين، وفيها غرائب من البناء والآزاج المعقودة تحت الأرض يحار الناظر فيها إذا تأملها، تبين أنها آثار ملوك سالفة وأمم دارسة، وأن تلك الأرض لم تكن صحراء وأنها كانت خصيبة عامرة. وأكثر طعامهم التمر والكمأة، وتعظم الكمأة فى تلك البلاد حتى تتخذ فيها اليرابيع والأرانب أحجارًا، ومن غدامس يدخل إلى بلد تادمكة وغيرها من بلاد السودان، وبينهما أربعون مرحلة، وأهلها بربر مسلمون وملثمون على عادة بربر الصحراء من لمتونة ومسوفة وغيرهم. انظر الروض المعطار ٤٢٦، ٤٢٧، ومعجم البلدان ٤/١٨٧، والاستبصار ١٤٥، والبكرى ١٨٢.

(٢) تقع فى أقصى الشمال الشرقى من غدامس.

(٣) فرصة فى القاهرة منذ عصر الفاطميين. انظر المواعظ ولا عتبار ٢/١٢١، ١٣٠.

[سنة أربع وسبعين وخمسمائة][1]

وفى أوائل شهر ربيع الآخر سنة أربع وسبعين، هجم العدو من الفرنج على مدينة حماة، فنهض إليهم المسلمون وأسروا مقدمهم فى جماعة، وبعثوا بهم إلى السلطان بدمشق، فضرب أعناقهم.

وفيها جهز السلطان أخاه شمس الدولة تورانشاه إلى محاربة شمس الدين بن المقدم ببعلبك، فى جيش كثيف، فحاصرها مدة، ثم سار إليه السلطان، وأقام على الحصار حتى دخل الشتاء، فوقع الصلح وتسلمها السلطان، وسلمها لأخيه تورانشاه فى شوال، فبنى الفرنج فى مدة اشتغال السلطان ببعلبك حصنا على مخاضة بيت الأحزان، وهو بيت يعقوب عليه السلام، وبينه وبين دمشق نحو يوم، ومنه إلى طبرية وصفد نصف يوم. فعاد السطان إلى دمشق، وقدم عليه من الديوان العزيز خادم اسمه فاضل فأصحبه معه للغزو، حى وقف على الحصن، وتخطف من حوله من الفرنج، ثم عاد إلى دمشق، فتواترت الأخبار باجتماع الفرنج لغزو بلاد المسلمين، فأخرج السلطان ابن أخيه الأمير عز الدين فرخشاه أمامه، فواقعه الفرنج وقعة قتل فيها جماعة من مقدمى الفرنج وغيرهم، منهم الهنفرى وصاحب الناصرة، فانهزموا وأسر منهم جماعة. فبرز السلطان من دمشق إلى الكسوة[2] لنجدة عز الدين، فوافته الأسرى والرءوس، فسر بذلك وعاد إلى دمشق.

وفيها أغار أبرنس مالك الفرنج بأنطاكية على شيزر، وغدر القومص ملك طرابلس بالتركمان.

وفيها سار شمس الدولة إلى مصر بعدة من العسكر لجدب الشام فى سادس عشرى ذى القعدة، وأغار السلطان على حصن بيت الأحزان وعاد بالغنائم والأسرى، ووالى الغارة والبعث إلى بلاد الفرنج.

وفيها قوى قراقوش التقوى وإبراهيم السلاح دار ببلاد المغرب، وأخذا عدة حصون.

---

(١) سنة ٥٧٤ هـ. انظر: أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٧٦ - ٦/٧٨. الكامل ١١/٤٥٠ وما بعدها ، تاريخ بن الوردى ٢/١٢٦.

(٢) الكسوة: قرية هى أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. انظر معجم البلدان ٤/٤٦١.



ودخلت سنة خمس وسبعين [وخمسمائة][1]

والسلطان مواصل الإغارة على بلاد الفرنج، وكان نازلا على بانياس، وسرح العساكر ومقدمها عز الدين فرخشاه بن أيوب، فأكثر من قتلهم وأسرهم. وفتح بيت الأحزان في رابع عشرى ربيع الآخر، بعد قتال وحصار، فغنم منهم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة، وشيئا كثيرا من الأقوات وغيرها، وأسر عدة نحو السبعمائة، وخرب الحصن حتى سوى به الأرض، وسد البئر التى كانت به، وعاد بعدما أقام عليه أربعة عشر يوما، فأغار على طبرية[2] وصور[3] وبيروت ثم رجع إلى دمشق، وقد مرض كثير من العسكر ومات عدة من الأمراء.

وفي يوم الأحد ثامن المحرم: ركب السلطان ومعه صمصام الدين أجك والى بانياس فى عسكره، فلقيه الفرنج فى ألف رمح وعشرة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل، فاقتتلوا قتالا كثيرا انهزم فيه الفرنج، وركب المسلمون أقفيتهم يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل، وعاد السلطان إلى مخيمه، وقد مضى أكثر الليل، وعرض الأسرى، فقدم أولهم بادين بن بارزان، ثم أود مقدم الداوية، وابن القومصية، وأخو صاحب جبيل فى آخرين، فقيدوا بأجمعهم وهم نحو المائتين وسبعين، وحملوا إلى دمشق فاعتقلوا بها، وعاد السلطان إلى دمشق، ففدى ابن بارزان بعد سنة بمائة وخمسين ألف دينار وألف أسير من المسلمين، وفدى ابن القومصية بخمسة وخمسين ألف دينار صورية، ومات أود فأخذت جيفته بأسير أفرج عنه.

وقدم الخبر بأن الملك المظفر تقى الدين أوقع بعسكر قلج أرسلان صاحب الروم السلجوقية فهزمهم وأسر منهم جماعة، فكتب السلطان البشائر بظفره بالفرنج على

---

(١) سنة ٥٧٥ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٧٨ - ٦/٧٩ الكامل ١١/٤٥٥ وما بعدها، تاريخ ابن الودى ٢/١٢٧.

(٢) فى الإقليم الثالث، وفتحت طبرية على يد شرحبيل بن حسنة فى سنة ١٣ هـ صلحا على إنصاف منازلهم وكنائسهم. انظر معجم البلدان ٤/١٧.

(٣) صور: بضم أوله، وسكون ثانية، وآخره راء، وهى فى الإقليم الرابع، وهى مدينة مشهورة سكنها خلق من الزهاد والعلماء، وكان من أهلها جماعة من الأئمة، كانت من ثغور المسلمين، وهى مشرفة على بحر الشام داخلة فى البحر مثل الكف على الساعد، يحيط بها البحر من جميع جوانبها.انظر معجم البلدان ٣/٤٣٣.

مرج عيون[1] وبظفر أخيه بعسكر الروم وسيرها إلى الأقطار فأتته تهانى الشعراء من الأمصار، ثم اهتم السلطان بأمر بيت الأحزان، وكتب إلى الفرنج يأمرهم بهدمه فأبوا، فراجعهم مرة ثانية فطلبوا منه ما غرموا عليه، فبذل لهم حتى وصلهم إلى مائة ألف دينار فلم يقبلوا. فكتب حينئذ إلى التركمان وأجناد البلاد يستدعيهم، وحمل إليهم الأموال والخيول والتشاريف، فقدم إليه خلق كثير، وسار الملك المظفر من حماة، فقدم دمشق أول شهر ربيع الآخر، وقد تلقاه السلطان، ثم سار السلطان من دمشق يوم الخميس خامسه، فى عسكر عظيم، ونزل على حصن بيت الأحزان يوم الثلاثاء حادى عشره، وكانت قلعة صفد للداوية، فأمر بقطع كروم ضياع صفد، وحاصر الحصن ونقبه من جهات، وحشاه بالحطب وأحرقه، حتى سقط فى رابع عشريه، وأخذه فقتل من فيه وأسرهم، ووجد فيه مائة أسير من المسلمين، فقتل عدة من أسرى الفرنج، وبعث باقيهم فى الحديد إلى دمشق، وأخرب الحصن حتى سوى به الأرض، فكانت إقامته عليه أربعة عشر يوما وعاد إلى دمشق، فمدحه عدة من الأمراء والشعراء وهنأوه بالفتح.

وفى صفر: ظهر قدام المقياس بمصر وسط النيل الحائط الذى كان فى جوفه قبر يوسف الصديق وتابوته، ولم ينكشف قط منذ نقله موسى عليه السلام إلا حينئذ، عند نقصان الماء فى قاع المقياس، فإن الرمل انكشف عنه وظهر للناس، وأكثر الناس ما علموا ما هو .

وفيها نافق جلدك الشهابى بالواحات، فأخذه العادل بالأمان وسيره إلى دمشق.

وفيها أغار عز الدين فرخشاه على صفد [2] فأكثر من القتل والسبى وأحرق الربض[3] فى رابع عشر ذى القعدة، وعاد إلى دمشق.

وفيها مات الخليفة المستضىء بأمر الله أبو المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله محمد، يوم الجمعة لاثنتى عشرة مضت من شوال، وكانت خلافته عشر سنين غير أربعة أشهر. واستخلف من بعده ابنه الناصر لدين الله أبو العباس أحمد، فخرج الشيخ صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل من بغداد رسولا إلى الملوك وإلى السلطان صلاح الدين وسار معه إلى مصر شهاب الدين بشير الخاص كما يأتى ذكره.

---

(١) مرج عيون: بسواحل الشام. انظر معجم البلدان ٥/١٠١.

(٢) صفد: مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهى من جبال لبنان. انظر معجم البلدان ٣/٤١٣.

(٣) الرَّبَضُ: ما المدينة، وقيل: هو الفضاء حول المدينة، قال بعضهم: الرُّبْضُ بالضم نواحيه، وجمعها: أرباض. انظر: لسان العرب (ربض).

وفيها ختن السلطان ابنه الملك العزيز عثمان، وسلمه إلى صدر الدين بن المجاور معلما له.

وفيها فشا الموت بمصر والقاهرة وعامة أعمال مصر ، وتغيرت رائحة الهواء، ومات بالقاهرة ومصر فى أيام يسيرة سبعة عشر ألف إنسان.

* * *

ودخلت سنة ست وسبعين [وخمسمائة][1]

وفيها سار السلطان إلى حرب عز الدين قلج أرسلان بـن مسعود بن قلـج أرسـلان السلجوقى صاحب قونية[2] وعاد بغير قتال، فدخل دمشق أول شهر رجب .

وفيها مات السلطان سيف الدين غازى بن السلطان قطب الديـن مـودود بـن عمـاد الدين زنكى بن آقسـنقر صـاحب الموصـل فـى ثـالث صفـر، وجلـس أخـوه عـز الديـن مسعود مكانه، فكتب السلطان صلاح الدين إلى الخليفة النـاصر يسـأل أن يفـوض إليـه، فوصل شيخ الشيوخ صدر الدين أبو القاسم عبد الرحمن وشهاب الديـن بشـير الخـاص، بالتفويض والتقليد والتشـريف فـى رجـب، فتلقـاهم السـلطان وترجـل لهـم، ونزلـوا لـه وبلغوه سلام الخليفة، فقبل الأرض، ودخل دمشـق بـالخلع، وأعـاد الجـواب مـع بشـير، وصحبته ضيـاء الديـن الشـهرزورى. وسـار السـلطان إلى بـلاد الأرمـن لقمـع ملكهـم، فأوغل فيها وأطاعه ملكهم، ثم عـاد بعدمـا وصـل إلى بهسنا وأحـرق حصنـا وخربـه، وخرج من دمشق يريد مصر فى ثامن عشر رجب، ومعـه شـيخ الشـيوخ صـدر الديـن، فوصل إلى القاهرة ثالث عشر شعبان، وخرج شيخ الشيوخ إلى مكـة فـى البحـر، وعـاد منها إلى بغداد.

وفيها مات الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بـن سـلفة السلفى فى يوم الجمعة خامس ربيع الآخر بالإسكندرية عن نحو مائة سنة.

ومات الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بـن أيـوب بـن شـادى فـى خـامس صفـر بالإسكندرية، وحمل إلى دمشق فدفن بها.

وفيها ولدت امرأة غرابا.

وفيها كان قاع النيل ثلاثة أذرع وعشرين إصبعا، وبلغت الزيادة سـتة عشـرة ذراعـا وثلثى ذراع.

* * *

---

(١) سنة ٥٧٦هـ. انظر أحداث تلك السـنة فـى النجـوم الزاهـرة ٦/٢٥، ٧٩ - ٦/٨٠،الكـامل ٤٦٢، ١١ وما بعدها ، تاريخ ابن الوردى ٢/١٢٩.

(٢) قونية: بالضم ثم السكون، ونون مسكورة، ويـاء مثنـاة مـن تحـت خفيفـة: مـن أعظـم مـدن الإسلام بالروم وبها وبأقصرى سكنى ملوكها. انظر معجم البدان ٤/٤١٥.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

فى محرم خرج الأمر بالحوطة على مستغلات العربان بالشرقية، وأمروا بالتعدية إلى البحيرة، ووقعت الحوطة على إقطاع جذام وثعلبة، لكثرة حملهم الغلال إلى بلاد الفرنج، وكثر الفار بالمقاثى والغلال بعد حصادها، فأتلف شيئا كثيرا، واحترق النيل حتى صار يخاض، وتشمر الماء عن ساحل المقس ومصر، وربى جزائر رملة خيف منها على المقياس أن يتقلص الماء عنه، ويحتاج إلى عمل غيره، وبعد الماء عن السور بالمقس، وصارت قوته من بر الغرب، وخيم السلطان فى بركة الجب للصيد ولعب الأكرة، وعاد بعد ستة أيام وورد الخبر بأن الأبرنس أرناط ملك الفرنج بالكرك جمع وعزم على المسير إلى تيماء[1] ودخول المدينة النبوية، فخرج عز الدين فرخشاه من دمشق بعساكره إلى الكرك، ونهب وحرق، وعاد إلى أطراف بلاد الإسلام فأقام به، وورد الخبر من نائب قلعة أيلة بشدة الخوف من الفرنج.

وفى صفر: قدم رسول ملك القسطنطينية إلى القاهرة، فوقع الصلح مع صاحبها، وأطلق فى جمادى الآخرة مائة وثمانين أسيرا من المسلمين، وسار صارم الدين خطلبا إلى الفيوم، وقد أضيفت إليه ولايتها، وأفردت برسمه الخاص، ونقل عنها مقطوعها، ثم صرف عن ولاية الفيوم بابن شمس الخلافة، وأحضر خطلبا ليسير إلى اليمن، وكتب إلى دمياط بترتيب المقاتلة على البرجين، وسد مراكب السلسلة وتسييرها ليقاتل عليها، ويدافع عن الدخول من بين البرجين بها.

وفى ربيع الأول: طرق الفرنج ساحل تنيس وأخذوا مركبا للتجار، ووصلت مراكب من دمياط كانت استدعيت من خمسين مركبا لتكون فى ساحل مصر وكمل بناء برج بالسويس يسع عشرين فارسا، ورتب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد، التى يجلب منها الشب إلى بلاد الفرنج، وأمر بعمارة قلعة تنيس، وورد تجار الكارم من عدن، فطلب منهم زكاة أربع سنين. وكثرت بيوت المزر بالإسكندرية، فهدم منها مائة وعشرون بيتا.

ووصل المفرد فى حادى عشرين ربيع الأول بالوفاء فى سابع عشره، فأوفى النيل بمصر فى سادس عشريه الموافق يوم السادس عشر من مسرى، ولا يعرف وفاؤه بهذا

---

(١)تيماء: بالفتح والمد: بليدة فى أطراف الشام، بين الشام ووادى القرى، على طريق حاج الشام ودمشق. انظر معجم البلدان ٢/٦٧.

التاريخ فى زمن متقدم، فركب السلطان لتخليق المقياس فى غده، وخلع على ابن أبى الرداد فى سلخه، وفتح الخليج فى رابع ربيع الآخر، والماء على خمسة عشر إصبعا من سبعة عشر ذراعا، بمحضر والى القاهرة.

وفيه أنفق السلطان فى الأجناد البطالين وجردهم إلى الثغور، وأنفق فى رجال الشوانى وجردهم للغزو، وورد الخبر بكثرة ولادة الحيوان الناطق والصامت للتوأم، وأن ذلك خرج عن الحد فى الزيادة على المعهود، وأن الغزال فى البرية كله أتآم، وكذلك النسوان أتأمن أكثر من الإفراد، وكذلك الطير فإنه كثر ظهوره كثرة ظهرت.

وفيه ماتت امرأة الصالح بن رزيك عن سن كبيرة وضعف حال وعمى، بعد الدنيا والملك الذى كانت فيه.

وركب السلطان فى أول جمادى الأولى لفتح بحر أبى المنجا، وعاد إلى قلعة الجبل، وركب منها إلى المخيم بالبركة. وسار متسلم الأمير صارم الدين خطلبا إلى اليمن، وانتصب السلطان ليلا ونهارا فى ترتيب أحوال الأجناد، واقتطع من إقطاعات العربان الثلثين، وعوض به مقطعو الفيوم، وصارت أعمال الفيوم كلها للسلطان.

وفيه قرر ديوان الأسطول وفيه الفيوم والحبس الجيوشى والخراجى والنطرون، وضمن الخراج بثماينة آلاف دينار.

وفى هذه السنة: رتبت المقاتلة على البرجين بدمياط وجهزت خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر فى السلسلة التى بين البرجين، وعمل تقدير برسم ما يحتاج إليه سور تنيس وإعادته كما كان فى القديم، فجاء ثلاثة آلاف دينار، وكتب إلى قوص بإبطال المكوس التى تستأدى من الحجاج وتجار اليمن.

وورد كتاب إبراهيم السلاح دار من المغرب أنه فتح بلاد هوارة، وزواوة[١] ولواتة[٢]، وجبل نفوسة، وغدامس، وأعمالا طولها وعرضها خمسة وعشرون يوما، وأنه خطب على منابرها للسلطان وضربت السكة باسمه، وأنه إذا أنعم عليه بتقوية بلغ أغراضا بعيدة، وسير أموالا عتيدة. وأنشئت أربع حراريق بصناعة مصر برسم من تجرد إلى بلاد اليمن وجردت أمراء العسكر السائرين إلى اليمن، وكبر فى بحر تنيس تعدى العربان على المراكب، وعمرت عليهم حراريق فيها، فلم يظفر بهم لإيوائهم إلى الهيش.

---

(١) زواوة: بفتح أوله، وبعد الألف واو أخرى: بلد بين إفريقية والمغرب. انظر معجم البلدان ٣/١٥٥.

(٢) لواتة: بالفتح، وتاء مثناة: ناحية بالأندلس من أعمال قريش: ولواته قبيلة من البربر.انظر معجم البدان ٥/٢٤.

وفى جمادى الآخرة: قطع الفرنج أكثر نخل العريش وحملوه إلى بلادهم، وسيرت مراكب بالزاد والعلوفات والأسلحة إلى اليمن، وأسند أمر الجسور إلى والى الغربية ووالى الشرقية، ليتوفروا على عمارتها، وكتب إلى الأمير فخر الدين نشر الملك بن فرحون والى البحيرة ومشارفها بذلك.

وفى رجب: استقرت عدة الأجناد ثمانية آلاف وستمائة وأربعين، وأمراء مائة أحد عشر، وطواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعين، وقرا غلامية[1] ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين. والمستقر لهم من المال ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف وسبعون ألفا وخمسمائة دينار، خارج عن المحلولين وعن العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة، والكنانيين والمضريين والفقهاء والقضاة والصوفية والدواوين، ولا يقصر ما معهم عن ألف ألف دينار. ووصل الإبرنس أرناط إلى أيلة، وسار عسكره إلى تبوك[2].

وفى شعبان: كثر المطر بأيلة حتى تهدمت قلعتها، وشرع فى بناء سور دمياط، وذرعه أربعة آلاف وستمائة وثلاثون ذراعا، و شرع أيضا فى بناء برج بها.

وفى شوال :مات منكورس الأسدى أحد الأمراء المماليك، وأخذ إقطاعه يازكج الأسدى، وقبض على سيف الدولة مبارك بن منقذ بن كامل الكنانى، نائب شمس الدولة ببلاد اليمن، وأخذ منه ثمانون ألف دينار وأفرج عنه. وسار خطلبا والى مصر واليا على زبيد، وصحبته خمسمائة رجل، ومعهم الأمير باخل، وقد بلغت النفقة فيهم عشرين ألف دينار، وكتب للطواشية بنفقة عشرة دنانير لكل منهم على اليمن، إن كان من الإقطاعية، وللبطالين والمترجلة فى الشهر ثلاثة وثلاثون دينارا، وسيرت الحراريق - وهى خمس - وقد شحنت بالرماة.

وفى سابع عشره :سار السلطان إلى الإسكندرية، فدخل خامس عشرى شوال، وشرع فى قراءة الموطأ يوم الخميس - ثانى يوم دخوله - على الفقيه أبى الطاهر بن عوف، وأنشا بها مارستانا ودارا للمغاربة، ومدرسة على ضريح المعظم توران شاه، وشرع فى عمارة الخليج، ونقل فوهته إلى مكان آخر، وسار منها أول ذى القعدة إلى دمياط، وعاد إلى القاهرة فى سابعه.

وفى تاسعه: أمر بفتح المارستان الصلاحى، وأفرد برسمه من أجرة الرباع الديوانية مشاهرة مبلغها مائتا دينار، وغلات جهتها الفيوم، واستخدم له أطباء وغيرهم.

---

(١) هى جماعات وعملهم المراقبة أثناء سير الجيوش.

(٢) تبوك: بالفتح ثم الضم، ووار ساكنة، وكاف: موضع بين وادى القرى والشام. انظر معجم البلدان.

وفى حادى عشره: خرج السلطان إلى بركة الجب، لتجريد العساكر والمسير إلى الشام، وخرج الملك العادل فى ثالث عشره إلى المخيم، ونزل ناحية بركة الجب وسومح برسوم الولاة بمصر والقاهرة، ورسوم الفيوم ورسوم الصعيد الأعلى، وأخرجت منجنيقات إلى الخيام برسم الغزاة.

وفى حادى عشره: سار سيف الإسلام طغتكين أخو السلطان صلاح الدين إلى أخميم، لجباية الجوالى والنظر فى أمر الشب.

وظفر والى قوص برجلين من أهل إسنا[1] يدعوان إلى مذهب الباطنية.

وفى ثالث عشريه: عقد نكاح بنات العادل على أبناء السلطان صلاح الدين، وهم: غياث الدين غازى، ومظفر الدين خضر، ونجم الدين مسعود، وشرف الدين يعقوب، والصداق فى كل كتاب عشرون ألف دينار.

وعقد السلطان الهدنة مع رسول القومص ملك الفرنج بطرابلس، ونودى بمنع أهل الذمة من ركوب الخيل والبغال، من غير استثناء طبيب ولا كاتب.

ومات الملك الصالح مجير الدين إسماعيل بن العادل نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر الأتابكى صاحب حلب فى يوم الجمعة خامس عشرى رجب، فقام من بعده ابن عمه السلطان عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى[2]. وكان موت الصالح هو المحرك للسلطان صلاح الدين على السفر، وكتب لابن أخيه المظفر تقى الدين عمر صاحب حماة وغيره من النواب بالتأهب، وكاتب الخليفة الناصر يسأل ولاية حلب.

* * *

---

(١) إسنا بالكسر ثم السكون ونون وألف مقصورة: مدينة بأقصى الصعيد وليس وراءها غير أسوان ثم بلاد النوبة وهى على شاطئ النيل من الجانب الغربى. انظر معجم البلدان.

(٢) مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر، أبو الفتح وأبو المظفر عز الدين صاحب الموصل وسنجار فى أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى ولد ونشأ بالموصل. انظر بن خلكان ٩٤/٢. الإعلام، حوادث سنة ٥٨٩ هـ، والنجوم الزاهرة ١٢٣/٦. الإعلام ٢٢٠، ٢٢١/٧.

[سنة ثمان وسبعين وخمسمائة](1)

وأهلت سنة ثمان وسبعين، والسلطان مبرز بظاهر القاهرة، فلما خرج الناس لوداعه، وقد اجتمع عنده من العلماء والفضلاء كثير، وهم يتناشدون ما قيل في الوداع، فأخرج بعض مؤدبي أولاد السلطان رأسه من الخيمة، وقال:

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

فتطير الحاضرون من ذلك، وصحت الطِّيرة، فإن السلطان رحل من ظاهر القاهرة في خامس المحرم من هذه السنة، ولم يعد بعد ذلك إلى القاهرة، فسلك في طريقه على أيلة، فأغار على بلاد الفرنج، وسار على سمت الكرك، وبعث أخاه تاج الملوك بالعسكر على الدرب، وخرج عز الدين فرخشاه من دمشق، فأغار على طبرية وعكا، وأخذ الشقيف أرنُون، وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم، وأنزل فيه طائفة من المسلمين وألقى الريح بُطْسَةً للفرنج إلى بر دمياط، فأسر منها ألف وستمائة وتسعون نفسا سوى من غرق، فدخل السلطان إلى دمشق، يوم الإثنين لثلاث عشرة بقيت من صفر، فأقام بها يسيرا، ثم أغار على طبرية، واشتد القتال مع الفرنج تحت قلعة كوكب، واستشهد جماعة من المسلمين، وعاد إلى دمشق في رابع عشر ربيع الأول، وخيم بالفوَّار من عمل حوران، وأقام به حتى رحل إلى حلب .وخرج سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب بن شادى، من القاهرة إلى اليمن، بعد مسير السلطان، ووصل إلى زبيد فملكها، وأخذ منها ما قيمته ألف ألف دينار، واحتوى على عدن أيضا.

وخرج السلطان من دمشق يريد حلب، فنزل عليها يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى، ونازلها ثلاثة أيام، ثم رحل إلى الفرات، فخيم على غربي البيرة، ومد الجسر، وكاتب ملوك الأطراف، ورحل إلى الرها(2) فتسلمها، وسار عنها إلى حران(3) فرتبها،

---

(1) سنة ٥٧٨ هـ . انظر أحداث هذه السنة فى النجوم الزاهرة ٨٣ - ٦/٨٦ الكامل ١١/٤٧٨ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٣٠ وما بعدها.

(2) الرها: بضم أوله، والمد، والقصر، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ سميت باسم الذى استحدثها .انظر معجم البلدان ٣/١٠٦.

(3) حران: بالضم، تثنية الحر، واديان بنجد ووايان بالجزيرة أو على أرض الشام. انظر معجم البلدان ٢/٢٣٦.

وانفصل عنها إلى الرقة [1] فملكها وما حولها، ونازل نصيبين حتى ملكها وقلعتها، فورد الخبر بقصد الفرنج دمشق ونهبهم القرى، فسار ونازل الموصل فى يوم الخميس حادى عشر رجب، وألح فى القتال فلم ينل غرضا، ورحل يريد سنجار، فنازلها وضايقها من يوم الأربعاء سادس عشرى شعبان.

ودخل رمضان: فكف عن القتال، ثم تسلمها بالأمان يوم الخميس ثانيه، وأعطاها ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر، ورحل إلى نصيبين فأقام بها لشدة البرد، وسار عنها إلى حران، ثم رحل ونزل على آمد، لثلاث عشرة بقيت من ذى الحجة.

وفيها قصد الفرنج بلاد الحجاز، وأنشا البرنس أرناط صاحب الكرك سفنا، وحملها على البر إلى بحر القلزم، وأركب فيها الرجال، وأوقف منها مركبين على حرزة قلعة القلزم، لمنع أهلها من استقاء الماء.

وسارت البقية نحو عيذاب، فقتلوا وأسروا، وأحرقوا فى بحر القلزم نحو ست عشرة مركبا وأخذوا بعيذاب مركبا يأتى بالحجاج من جدة، وأخذوا فى الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب، وقتلوا الجميع، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين، وأحدثوا حوادث لم يسمع فى الإسلام بمثلها، ولا وصل قبلهم رومى إلى ذلك الموضع، فإنه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم واحد، ومضوا إلى الحجاز يريدون المدينة النبوية. فجهز الملك العادل، وهو يخلف السلطان بالقاهرة، الحاجب حسام الدين لؤلؤ إلى القلزم فعمر مراكب بمصر والإسكندرية، وسار إلى أيلة، وظفر بمراكب للفرنج، فحرقها وأسر من فيها، وسار إلى عيذاب، وتبع مراكب الفرنج، فوقع بها بعد أيام واستولى عليها، وأطلق من فيها من التجار المأسورين، ورد عليهم ما أخذ لهم، وصعد البر، فركب خيل العرب حتى أدرك من فرَّ من الفرنج وأخذهم، فساق منهم اثنين إلى منى ونحرهما بها كما تنحر البدن، وعاد إلى القاهرة بالأسرى فى ذى الحجة، فضربت أعناقهم كلهم. وعاد الأسطول من بحر الروم بعد نكاية أهل الجزائر، ومعه بطسة للفرنج كانت تريد عكا، بها أخشاب ونيف وسبعون رجلا.

ومات عز الدين فرخشاه الملقب بالملك المنصور فى دمشق فى أول جمادى الآخرة.

ومات الشيخ الزاهد روزبهار بن أبى بكر بن محمد أبى القاسم الفارسى الصوفى، يوم الأربعاء الخامس من ذى القعدة، ودفن بقرافة مصر.

---

(١) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديد الثانى، وهى مدينة مشهورة على الفرات الشرقى. انظر معجم البلدان ٣/٥٩.

وفيها انقرضت دولة آل سبكتكين، وكان ابتداؤها سنة ست وستين وثلاثمائة، فملكوا مائتى سنة وثلاث عشرة سنة. وأولهم محمود بن سبكتكين، وآخرهم خسرو شاه بن بهرام بن شاه بن مسعود بن مسعود بن إبراهيم بن محمود بن سبكتكين. وقام بعدهم الغورية وأولهم عز الدين حسن، صاحب بلاد الغور.

وفيها ورد الخبر بأن الماء الذى فى زقاق سبتة قلَّ، حتى ظهرت القنطرة التى كا يعبر الناس عليها فى قديم الدهر إلى أن غلب عليها البحر وطمَّها، فلما قل الماء فى هذه السنة عنها لم يبق عليها منه سوى قامتين، ورأى الناس آثار بنيانها، وأن مركبا انكسر عليها.

* * *

[سنة تسع وسبعين وخمسمائة][1]

وأهلت سنة تسع وسبعين والسلطان على آمد، فتسلمها فى أوئل المحرم، فقدمت عليه رسل ملوك الأطراف يطلبون الأمان. وخرج الفرنج إلى نواحى الداروم ينهبون، فبرز إليهم عدة من المسلمين على طريق صدر وأيلة، فأظفرهم الله، وقتلوا وغنموا وعادوا سالمين.

وفيه سار الأسطول من مصر، فظفر ببطسة فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجاً، قدموا بهم فى خامس المحرم إلى القاهرة، وتوجه سعد الدين كمشبه الأسدى وعلم الدين قيصر إلى الداروم، فأوقعوا بالفرنج على ماء، وقتلوهم جميعا، وقدموا بالرءوس إلى القاهرة فى رابع عشريه. ورحل السلطان عن آمد، وعبر الفرات يريد حلب، فملك عين تاب وغيرها، ونزل على حلب - بكرة يوم السبت سادس عشرى المحرم - وقد خرب السلطان عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى قلعته فى جمادى من سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة. وتسلمها صلاح الدين بصلح، يوم السبت ثامن عشر صفر، على أن تكون لعماد الدين منجار.

ومات تاج الملوك بُورى بن أيوب بن شادى [2] فى يوم الخميس ثالث عشريه بحلب. وسار عماد الدين إلى سنجار، فولى السلطان قضاء حلب محيى الدين محمد بن الزكى على القرشى [3] قاضى دمشق، فاستناب بها زين الدين ندا بن الفضل بن سليمان البانياسى، وولى يازكج قلعتها، وجعل ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى

---

(١) سنة ٥٧٩ هـ انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٦/٢٦، ٨٦ - ٦/٨٨ ، الكامل ١١/٤٩٣، وما بعدها ، تاريخ ابن الوردى ٢/١٣٣.

(٢) تاج الملوك (٥٥٦ - ٥٧٩ هـ = ١١٦١ - ١١٨٣م). بورى بن أيوب بن شادى بن مروان، مجد الدين، أبو سعيد: أخو السلطان صلاح الدين: كان أصغر أولاد أبيه. وهو فاضل، له ديوان شعر وفى شعره رقة وكان مع أخيه صلاح الدين لما حاصر حلب، فأصابته طعنة بركبته مات منها بقرب حلب. انظر وفيات الأعيان ١/٩٤، مرآة الزمان ٨/٣٧٨.

(٣) ابن الزكى (٦٤٠ - ٦٨٥ هـ= ١٢٤٣ - ١٢٨٧م). يوسف بن يحيى بن محمد بن زكى الدين على القرشى الدمشقى: أبو الفضل، بهاء الدين: آخر القضاة من بنى الزكى من فقهاء الشافعية. ولى القضاء بدمشق ٦٨٢ إلى أن توفى. كان أديبا إخباريا، كثير المحفوظ، علامة، مليح الفتاوى. انظر شذرات الذهب ٥/٣٩٤ الطبقات الوسطى للسبكى، الفرق الإسلامية ٨. الأعلام ٨/٢٥٧ .

ملكا بها، ورحل عنها لثمان بقين من ربيع الآخر. فدخل دمشق ثالث جمادى الأولى، وأقام بها إلى سابع عشريه، وبرز وسار إلى بيسان، فعبر نهر الأردن فى تاسع جمادى الآخرة، وأغار على بيسان فأحرقها ونهبها وفعل ذلك بعدة قلاع، وأوقع بكثير من الفرنج واجتمع بعين(١) جالوت من الفرنج خلق كثير، ثم رحلوا، وأسر السلطان منهم كثيرا، وخرب من الحصون حصن بيسان وحصن عفر بلا وزرعين، ومن الأبراج والقرى عشرة، وعاد إلى دمشق لست بقين من جمادى الآخرة، ثم خرج فى يوم السبت ثالث رجب يريد الكرك، فنازله مدة و لم ينل منه غرضا، فسار إلى دمشق، وقد وصل إليه أخوه الملك العادل من مصر فى رابع شعبان. فاجتمع السلطان بأخيه الملك العادل على الكرك، وقد خرج إليه بعسكر مصر.

وفى يوم الخميس خامس عشره: رحل الملك المظفر تقى الدين من الكرك إلى مصر عوضا عن العادل، وارتجع عن العادل إقطاعه بمصر، وهو سبعمائة ألف دينار فى كل سنة، فجهز إليها الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ومعه القاضى الفاضل، وأنعم على تقى الدين بالفيوم وأعمالها مع القايات وبوش (٢) وأبقى عليه مدينة حماة وجميع أعمالها.

ووصل السلطان إلى دمشق لثمان بقين من رمضان، وبعث بالملك العادل إلى حلب فى ثانى رمضان.فقدم الظاهر على أبيه بدمشق ومعه يازكج، وقدم شيخ الشيوخ صدر الدين وشهاب الدين بشير من عند الخليفة الناصر، ليصلحا بين السلطان وبين عز الدين صاحب الموصل، ومعهما القاضى محيى الدين أبو حامد بن كمال الدين الشهرزورى، وبهاء الدين بن شداد(٣)، فأقاموا مدة ورحلوا بغير طائل، فى سابع ذى الحجة.

---

(١) عين جالوت: اسم أعجمى لا ينصرف: وهى بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، كان الروم قد استولوا عليها مدة ثم استنقذها منهم صلاح الدين الملك الناصر يوسف أيوب فى سنة ٥٧٩ هـ. انظر معجم البلدان ٤/١٧٧.

(٢)بوش كورة ومدينة بمصر من نواحى الصعيد الأدنى فى غربى النيل بعيدة عن الشاطئ. انظر معجم البلدان.

(٣) ابن شداد (٥٣٩ - ٦٣٢ هـ = ١١٤٥ - ١٢٣٤م). يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدى الموصلى، أبو المحاسن بهاء الدين شداد: مؤرخ، من كبار القضاة ولد بالموصل، ولاه صلاح الدين قضاء العسكر ببيت المقدس والنظر على أوقافه، وله مؤلفات منها: فضل الجهاد، الموجز الباهر وغيرهم. انظر وفيات الأعيان ٢/٣٥٤، طبقات الشفاعية ٥/١١٥ ذيل الروضيتن ١٦٣، غاية النهاية ٣٩/٥٢، ابن الوردى ٢/١٦٠ الأنس الجلل ٢/٤٤٧، ٤٦٣، مرآة الجنان ٤/٨٢، مفتاح الكنوز ٢/٥١٦. الأعلام ٨/٢٣٠ .

وفيها ظهر بقرية بوصير بيت هرمس، فخرج منه أشياء، منها كباش وقرود وضفادع بازهر ودهنج وأصنام من نحاس.

وفيها قتل شرف الدين برغش على الكرك فى ثانى عشرى رجب، فحمل إلى زرع ودفن فى تربته.

وفى سنة تسع وسبعين هذه وقعت بالوجه البحرى قطع برد كبيض الأوز أخربت ما صادفته من العامر، ودمرت الزروع، وأهلكت كثيرا من الماشية والناس.

* * *

سنة ثمانين وخمسمائة[1]

فى خامس المحرم: توجهت قافلة بغلات وسلاح وبدل مجرد إلى قلعتى أيلة وصدر، وخرج من الشرقية جماعة يخفرونها مع قيصر والى الشرقية، فأوصلها إلى أيلة وصدر. وعاد فى خامس عشريه، وكان العدو قد نهض إليها وعاد عنها.

وأهلت هذه السنة: والسلطان بدمشق، فبعث إلى الأطراف يطلب العساكر، فقدم عليه ابن أخيه تقى الدين بعساكر مصر، ومعه القاضى الفاضل.و خرج السلطان من دمشق يوم الثلاثاء النصف من ربيع الأول إلى جسر الخشب، وقدم الملك العادل من حلب ومعه نور الدين بن قرا أرسلان إلى دمشق يوم الخميس رابع عشريه، وخرجا إلى الكسوة، فرحل السلطان فى ثانى ربيع الآخر من رأس الماء يريد الكرك، وخرج تقى الدين فى عسكر مصر، ومعهم أولاد الملك العادل وأهله، يوم الأربعاء مستهله، فساروا إلى أيلة، ووصلوا إلى السلطان فى تاسع عشره وهو على الكرك.

وسارت أولاد العادل فى حادى عشريه، فلقوا العادل وهو على الفوار فى خامس عشريه ووصل معهم زرافة، فاجتمعوا به وساروا إلى حلب، ومعهم بكمش بن عين الدولة الياروقى، وعلى بن سليمان بن جندر، ونزل العسكر الحلبى على عَمَّان مدينة البلقاء فى ثامن جمادى الأولى، ورحل عنها فى ثانى عشره إلى الكرك، وقدم العادل وابن قرا أرسلان إلى الكرك فى سابع عشره، وعملت المجانيق إلى ليلة الخميس حادى عشريه ثم رميت تلك الليلة، ورحل العسكر كله لخبر ورد عن اجتماع الفرنج، وساروا إلى اللجون، ونزل الفرنج بالواله. ثم سار العسكر إلى ناحية البلقاء، فنزلوا حسبان تجاه الفرنج، إلى نصف نهار الإثنين سادس عشريه. فرحل الفرنج إلى الكرك، والعسكر وراءهم إلى نابلس، فهاجمها العسكر يوم الجمعة سلخه، وحرقوها ونهبوها، وساروا فأخذوا أربعة حصون، ونزلوا على جينين[2] ونقبوا قلعتها حتى وقعت، وقتل تحتها من النقابين عدة، وأخذت عنوة وغنم منها شىء كثير. ورحلوا فى ليلتهم إلى زرعين وعين جالوت، وأحرقوهما فى الليل، وعبروا الأردن يوم الأحد ثانى جمادى الآخرة، ونزلوا الفوار رابعه.

---

(١) سنة ٥٨٠ هـ انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٨٨ - ٦/٩٠ .الكامل ١١/٥٠٤ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٣٤.

(١) جينين: بكسر الجيم، وسكون ثانيه، ونون مسكورة أيضا، وياء أخرى ساكنة أيضا، ونون أخرى: بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن، بها عيون ومياه. انظر معجم البلدان ٢/٢٠٢.

ودخل السلطان دمشق يوم السبت سابعه، ومعه عساكره كلها، وقدم أخوه العادل من حلب، وأتته العساكر المشرقية وعساكر الحصن وآمد، وسار بهم يريد الكرك لأخذها من الفرنج، فنازلها فى رابع عشر جمادى الأولى ونصب عليها تسعة مجانيق رماها بها.

وقدمت الأمداد من الفرنج، فرحل السلطان إلى نابلس، ونهب كل ما مر به من البلاد، وأحرق نابلس وخربها ونهبها، وقتل وسبى وأسر، واستنقذ عدة من المسلمين كانوا أسرى، وسار إلى جينين، وعاد إلى دمشق، فقدم عليه رسل الخليفة، وهما الشيخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبى سعد أحمد، وشهاب الدين بشير الخادم، ومعهما خلع للسلطان والملك العادل، فلبساها. وطلب الرسولان تقرير الصلح بين السلطان وبين عز الدين صاحب الموصل، فلم يتقرر بينهما صلح، وخرجا من دمشق، فماتا قبل وصولهما إلى بغداد.

وخلع السلطان على جميع العساكر، وأذن لهم فى المسير إلى بلادهم، بعدما أعطاهم شيئا كثيرا، فساروا.

وفى نصف شعبان: سار المظفر تقى الدين بعساكر مصر يريد العود إلى القاهرة، وقرئت وصية سلطانية، تضمنت ولاية الملك العزيز عثمان ابن السلطان لمصر بكفالة ابن عمه تقى الدين عمر، وولاية الملك الأفضل أكبر أبناء السلطان على الشام بكفالة عمه العادل صاحب حلب، وأن مدة الكفالة إلى أن يعلم المسلمون باستقلال كل واحد بالأمر، ويستقر الكافلان فى خبزيهما وما بأيديهما، ومن عدم من الولدين قام الأمثل من إخوته مقامه، أو من الكافلين قام الباقى منهما مقام الآخر، واستحلف الحاضرون من الأمراء، وولى قراءة العهد بذلك القاضى المرتضى بن قريش. وسومح بهلالى البهسنا[(١)]، وهو ألف ومائتا دينار، وسومح بالأتبان، وما تقصر عن ألفى دينار، ومنع من ضمان المزر والخمر والملاهى، وترك ما كان يؤخذ من رسم ذلك للسلطان بديار مصر.

---

(١) بهسنا بفتحيتين وسكون السين ونون وألف: قلعة حصينة عجيبة بقرب مرعش وسميساط ورستاقها. انظر معجم البلدان. قال ابن إياس فى ذكر مدينة البهسنا: هذه المدينة بناها ملك من ملوك القبط يقال له مناوش بن منقاوش، وقال ابن وصيف شاه: وهو أول من عبد البقر من أهل مصر وكان السبب فى ذلك أنه اعتل علة حتى أيس منه فيها رأى فى منامه صورة روحانى عظيم يقول له أنه لا يخرجك من علتك إلا عبادتك للبقر ففعل ذلك، فبرئ من علته، فأمر أهل مملكته بعبادة البقر وفى زمانه بنيت البهسنا ويقال إنه عاش ثمانمائة سنة، وكان بالبهسنا من العجائب والحكم ما ليس فى غيرها من البلاد. انظر نزهة الأمم ٢٢٦.

وخرج السلطان من دمشق يريد البلاد الشرقية، فأقام بحماة بقية السنة، وكان نزوله عليها. فى عشرى ذى القعدة.

وفى هذه السنة: أقيمت خطبة فى سابع المحرم عند قبر سارية بلحف الجبل، فى غير بنيان وبغير سكان، وتم ذلك بعصبية جماعة، ثم أحدث جامع عند قبة موسك وبقيت سنين.

وبلغ النيل ثلاث عشرة إصبعا من تسع عشرة ذراعا، فأضر ذلك بالقرى، وخرج أهلها منها لسقوط جدرانهم، وغرقت البساتين والأقصاب، وفاضت الآبار، وانقطعت الترع، وكثر الضرر، كما حصل فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

وفى هذه السنة: مات السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على[1] ملك المغرب، لسبع خلون من رجب.

ومات إيلغازى بن نجم الدين بن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق الأرتقى قطب الدين، صاحب ماردين، فى جمادى الآخرة.

وفيها مات آقسنقر الساقى، صهر قراجا الهمام، بحلب فى يوم الجمعة حادى عشر رجب .

وفيها رسم السلطان بتقييد أولاد الخليفة العاضد الفاطمى ومن بقى من أقاربه.

* * *

تتمة سنة ثمانين وخمسمائة

أول المحرم يوم الإثنين: فيه ابتدئ بالتدريس فى المدرسة الفاضلية بدرب ملوخيا من القاهرة.

وفى خامسه: توجهت القافلة بالبدل المجرد إلى قلعتى صدر وأيلة مع قيصر والى الشرقية.

---

(١) يوسف بن عبد المؤمن (٥٣٣ - ٥٨٠ هـ = ١١٣٨ - ١١٨٤م).

يوسف بن عبد المؤمن بن على القيسى الكومى، أبو يعقوب ، أمير المؤمنين: من ملوك دولة الموحدين بمراكش. وهو الثالث فيهم مولده فى يتنمل، بويع له وهو بإشبيلية بعد وفاة أبيه سنة (٥٨٨ هـ) ثم بويع البيعة العامة فى مراكش، سنة ٥٦٠ هـ . انظر الاستقصا ١٥٩/١ - ١٦٤، أعمال.الأعلام ابن خلدون ٢٣٨/٦، الأنيس المطرب ١/١٩، ابن خلكان ٣٧٣/٢ الحلل الموشية ١٣١، ١٣٢. الأعلام ٨/٢٤١.

وفى سابعه: أقيمت الخطبة عند قبر سارية بلحف الجبل فى غير بنيان ولا سكان.

وفى ثامنه: وردت كتب السلطان من دمشق، باستدعاء العساكر، وجمع الأموال والأسلحة والأمتعة.

وفى حادى عشره: كانت فتنة بين العرب الجذاميين، فخرج عسكر إلى الشرقية، وعدى الملك المظفر إلى الجيزة بأولاده، لدعوة عملها الطواشى قراقوش عند قناة طرة، وعاد من الغد.

وفى ثامن عشره: وردت كتب السلطان من دمشق، لاستنهاض العساكر لغزاة الكرك، وأن يستصحبوا من الراجل ما قدروا عليه، فبرزت الخيام إلى بركة الجب فى عشريه، وخرج من الغد الملك المظفر تقى الدين النائب بمصر.

وفى ثانى عشريه: ورد الخبر من ناظر قوص بغرق أربع جلاب، بها ألف وثلاثمائة رجل من الحجاج، هلكوا كلهم.

وفى خامس عشريه: عاد قيصر والى الشرقية من صدر، بعد أن أوصل القافلة إلى أيلة، وعاد بالقافلة العائدة، وكان العدو قد نهض إليها، ثم عاد عنها.

وفى سلخه: ورد الخبر بأن المؤيد سيف الإسلام مَلَكَ بلاد اليمن، واعتقل خطاب ابن منقذ بزبيد.

وأهلَّ صفر:

فى رابعه: ورد الخبر بوصول تابوتى نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، إلى المدينة النبوية، ودفنهما بها، وكان قد حمل بهما إلى قوص، وعدى بهما من بحر عيذاب إلى المدينة، وكان سيرهما فى أول السنة الماضية.

وفى سادسه: سار الأسطول، وهو أحد وثلاثون شينيا وحراقة.

وفى سابعه: جرت فتنة بين الأشاعرة والحنابلة، سببها إنكار الحنابلة على الشهاب الطوسى تكلمه فى مسألة من مسائل الكلام فى مجلس وعظه، وترافعوا إلى الملك المظفر بمخيمه، فرسم برفع كراسى وعظ الفريقين، وقد أطلق كل من الفريقين لسانه فى الآخر.

وفى ثامنه: وقع مطر عظيم، ورعد قاصف وريح عاصف، وبرق خاطف وبرد كثير كبار، فحل بالعسكر المبرز بلاء شديد، وعطبت الثمار، وتفسخت الأشجار، وانقعر النخل، وعمت الجائحة الثمار والزروع، التى لم تحصد وما حصد، وتلفت المقاثى.

وفى عاشره :عقد مجلس لأصحاب الدواوين للمفاضلة ما بين ابن شكر [١] وابن عثمان، فتسلم ابن عثمان الدواوين، بعد أن أخذ خطه بزيادة خمسة عشر ألف دينار على الارتفاع، ثم صرف بابن شكر فى ثالث عشره.

وأهل شهر ربيع الأول:

فى ثانى عشره: سار المظفر تقى الدين من بركة الجب، يريد السلطان بدمشق، وعاد ابن السلار إلى القاهرة نائبا عن المظفر.

وعاد ابن شكر ناظر الدواوين إلى القاهرة فى خامس عشره، ومعه ولد المظفر، فخرج الناس لتلقيه.

وأهل شهر ربيع الآخر:

فى عشريه: قدم المظفر على السلطان صلاح الدين بالقرب من الكرك.

و فى عاشر جمادى الآخرة: أخلت أهل بلبيس بلدتهم فى ليلة واحدة، وقد سمعوا بمسير الفرنج إلى فاقوس، واضطرب الناس بالقاهرة ومصر والجيزة، فسميت الهجة الكذابة.

وقدم الخبر بأن سيف الإسلام قتل خطاب بن منقذ ومثل به، واستصفى أمواله باليمن، وقبض على ألزامه. وكان العسكر عقيب الهجة خرج إلى بلبيس، فنهبها الغلمان، وأخذ الفرنج نحو مائتين وعشرين أسيرا، وساقوا أغناما لا تدخل تحت حصر.

---

(١) ابن شكر ٥٤٨ - ٦٢٢ هـ = ١١٥٣ - ١٢٢٥م. عبد الله بن على بن الحسين، أبو محمد ، صفى الدين الشيبى الدميرى، المعروف بالصاحب بن شكر: وزير مصرى من الدهاة ولد فى دميرة البحرية (من إقليم الغربية بمصر) ونشأ نشأة صالحة ، فتفقه فى القاهرة، وصنف كتابا فى الفقه على مذهب مالك واتصل بالملك العادل أبى بكر بن أيوب فولاه مباشرة ديوانه سنة ٥٨٧ هـ ثم استوزره، فعمد إلى سياسة العنف والمصادرة واستبد بالأعمال، فعزله العادل، فخرج إلى آمد وإقام عند أزق إلى أن مات العادل سنة ٦٥١ هـ فطلبه الكامل محمد بن العادل ، وهو فى نوبة قتال مع الإفرنج على دمياط، فجأة، فكاشفه بما هو عليه من الاضطراب بثورة العرب فى مصر ومحاربة الفرنج وعصيان بعض الأمراء، فنهض بن شكر بالأمر عنيفا على سابق عادته، فخافه الناس وهابوه، فاستقر الملك، وعظم أمره عند الملك الكامل. واستمر على ذلك إلى أن مات بالقاهرة قال مؤرخوه: كان طلق المحيا، حلو اللسان، حسن الحينة، صاحب دوهاء مع هوج، شديد الحقد، منتقما لا ينام عن محدوه ولا يقبل معذرة أحد.فوات الوفيات ٢١٩/١.الأعلام لابن قاضى شقبة، خطط مبارك ٥٧/١١. الأعلام ٤/١٠٦.

وفى رابع عشرى شعبان: قدم المظفر تقى الدين إلى القاهرة بالعسكر، بعد شدة لحقتهم فى طريقهم.

وفى ذى القعدة: ورد كتاب سيف الإسلام بأنه فتح باليمن مائة وثلاثة وسبعين حصنا، وقدم أهل خطاب بن منقذ وأخوه محمد إلى مصر. وخرج تقى الدين ابن أخى صلاح الدين إلى البحيرة ليكشف أحوالها.

وكان معه كاتبه الرضى بن سلامة، فاستدفع من الدواوين حساباتهم، وسار بها على بغل صحبة تقى الدين، فأرسل الله صاعقة من السماء أحرقت البغل وما عليه من الحساب، وعاد تقى الدين.

* * *

سنة إحدى وثمانين وخمسمائة[(١)]

وأهلت سنة إحدى وثمانين فسار السلطان وبلغ حران، فى يوم الجمعة ثامن عشرى صفر فقبض على صاحبها مظفر الدين كوكبرى، واستولى عليها.ورحل عنها فى ثانى ربيع الأول فوافته رسل الملك قلج أرسلان بن مسعود السلجوقى صاحب الروم باتفاق ملوك الشرق بأجمعهم على قصده، إن لم يعد عن الموصل وماردين، فسار يريد الموصل، وكاتب الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل، ونزل عليها وحاصر أهلها وقاتلهم. فورد الخبر بموت شاه أرمن بن سقمان الثانى ناصر الدين محمد بن إبراهيم صاحب خلاط فى تاسع ربيع الأول، فرحل صلاح الدين فى آخره يريد خلاط، ثم عاد ولم يملكها، وسار إلى ميَّافارقين فتسلمها، ثم عاد إلى الموصل، ونزل على دجلة فى شعبان، وأقام إلى رمضان، فمرض مرضا مخوفا، فرحل فى آخر رمضان، وهو لما به وقد أيس منه، فنزل بحران، فتقرر فيها الصلح بينه وبين المواصلة فى يوم عرفة، وخطب له بجميع بلاد الموصل، وقطعت خطبة السلجوقية، وخطب له فى ديار بكر وجميع البلاد الأرتقية، وضربت السكة باسمه، وأمر بالصدقات فى جميع ممالكه.

وفى يوم الثلاثاء سابع ربيع الأول: حدثت بمصر زلزلة، وفى مثل تلك الساعة كانت زلزلة فى بعلبك أيضا.

وفيه كانت بالإسكندرية فتنة بين العوام، نهبوا فيها المراكب الرومية، فقبض على عدة منهم ومثل بهم.

ومات فى هذه السنة

الملك القاهر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، ليلة عيد الأضحى. واتهم السلطان بأنه سمه فإنه لما اشتد مرض السلطان تحدث بأنه يملك من بعده.

ومات فخر الدولة إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن نصر الأسوانى ابن أخت الرشيد والمهذب ابنى الزبير فيها. وهو أول من كتب الإنشاء للسلطان، ثم كتب لأخيه العادل.

ومات سعد الدين بن مسعود بن معين الدين بآمد.

---

(١) سنة ٥٨١ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٩٠ - ٦/٩٢، الكامل ١١/٥١١ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٣٥.

ومات الأمير مالك بن ياروق فى منبج ليلة السبت مستهل رجب، فحمل إلى حلب ودفن بها.

وماتت آمنة خاتون بنت معين الدين أنار التى تزوجها السلطان صلاح الدين بعد نور الدين محمود لما ملك دمشق، وكانت وفاتها يوم الإثنين ثالث ذى القعدة.

وفيها خرج المظفر تقى الدين عمر إلى كشف أحوال الإسكندرية، وشرع فى عمل سور على مدينة مصر بالحجر، فلم يبق فقير ولا ضعيف إلا خط فيه ساحة من درب الصفا إلى المشهد النفيسى، واتصلت العمارة فى خط الخليج إلى درب ملوخيا بمصر حتى بين الكومين وبجوار جامع ابن طولون والكبش، فعمر أكثر من خمسة آلاف موضع بشقاف القنز والخرشتف وتراب الأرض، وتحول الناس لجهة جامع ابن طولون والبركة وجانب القلعة.

وفى شعبان ورمضان: وقع وباء بأرض مصر وفشا موت الفجأة، وكثر الوباء فى الدجاج أيضا.

* * *

سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة[1]

وأهلت سنة اثنتين وثمانين: وقد أبل السلطان من مرضه، فرحل من حران، و نزل حلب فى رابع عشر المحرم، ومر من حلب إلى حمص، فرتب أمورها وأسقط المكوس منها. ودخل إلى دمشق فى ثانى ربيع الأول، واستدعى ابنه الأفضل عليا من مصر، لمنافرة كانت بينه وبين ابن عمه المظفر تقى الدين، فقدم عليه بأهله وحشمه، لسبع بقين من جمادى الأولى، وصرف العادل عن حلب، وتقرر عوضه بها الملك الظاهر غياث الدين غازى ابن السلطان، وعوض العادل الشرقية بديار مصر.

وصرف المظفر تقى الدين عمر من ديار مصر ونيابتها، فغضب لذلك، وعبر بأصحابه إلى الجيزة يريد اللحاق بغلامه شرف الدين قراقوش التقوى، وأخذ بلاد المغرب، وجعل مملوكه بورى فى مقدمته، فبلغ ذلك السلطان ، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه، فقبح الأكابر عليه مشاقته السلطان وحذروه، فأجاب وتوجه إلى دمشق، فوصلها ثالث عشرى شعبان، واستمر على ما بيده من حماة والمعرة ومنبج وأضيف إليه ميافارقين، وكتب إلى أصحابه فقدموا عليه من مصر، ماخلا زين الدين بورى مملوكه، فإنه سار إلى المغرب، وملك هناك مواضع كثيرة. ثم قصده صاحب المغرب وأسره، ثم أطلقه وقدمه.

ووصل الأفضل على ابن السلطان من القاهرة إلى دمشق يوم الخميس سابع عشر جمادى الأولى، وهو أول قدومه إليها، وسار الملك العزيز عثمان إلى ملك مصر، ومعه عمه العادل أتابكا.

وكان خروج العادل من حلب ليلة السبت رابع عشرى صفر، فدخلا إلى القاهرة فى خامس رمضان.

ووقع الخلف بين الفرنج بطرابلس، فالتجأ القومص إلى السلطان، وصار يناصحه، واستولى الإبرنس ملك الفرنج بالكرك على قافلة عظيمة، فأسر من فيها وامتنع من إجابة السلطان إلى إطلاقهم، فتجهز السلطان لمحاربته، وكاتب الأطراف بالمسير لقتاله.

وفيها مات بمصر عبد الله بن أبى الوحش برى بن عبد الجبار بن برى النحوى، ليلة

---

(١) سنة ٥٨٢ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٩٢ - ٦/٩٥، الكامل ١١/٥٢٣ وما بعدها، تاريخ بن الوردى ٢/١٣٧.

السبت لثلاث بقين من شوال، ومولده بدمشق في خامس رجب سنة تسع وتسعين وأربعمائة.

* * *

سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة[١]

وأهلت سنة ثلاث وثمانين وقد برز السلطان من دمشق لجهاد الفرنج يوم السبت أول المحرم، وأقر ابنه الأفضل على رأس الماء، ونزل بصرى، فأقام لحفظ الحاج حتى قدموا فى آخر صفر. فسار إلى الكرك، فى اثنى عشر ألف فارس، ونازلها وقطع أشجارها، ثم قصد الشوبك، ففعل بها مثل ذلك. وخرج الحاجب لؤلؤ على الأسطول من مصر، وهو خمسة عشر شينيا، ليسير إلى الإسكندرية. وخرج العادل من القاهرة فى سابع المحرم إلى بركة الجب، وسار إلى الكرك، فمر على أيلة، والتقى مع السلطان على القريتين، وعادا إلى الكرك، فنازلاها فى ربيع الأول، وضايق السلطان أهلها، ثم رحل عنها، ونازل طبرية، فاجتمع من الفرنج نحو الخمسين ألفا بأرض عكا، ورفعوا صليب الصلبوت، فافتتح السلطان طبرية عنوة فى ثالث عشرى ربيع الآخر، وغاظ ذلك الفرنج وتجمعوا، فسار إليهم السلطان، وكانت وقعة حطين، التى نصر الله فيها دينه، فى يوم السبت رابع عشريه. وانهزم الفرنج بعد عدة وقائع ، وأخذ المسلمون صليب الصلبوت، وأسروا الإبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك، وعدة ملوك آخرين وقتل وأسر من سائر الفرنج ما لا يعد كثرة.

ثم قدم الإبرنس أرناط، وضرب السلطان عنقه بيده، وقتل جميع من عنده من الفرنج الداوية والإسبتارية[٢] ورحل السلطان إلى عكا، فنازلها سلخ ربيع الاخر، ومعه عالم عظيم.

قال العلامة عبد اللطيف بن يوسف البغدادى [٣]: كان السوق الذى فى عسكر

---

(١) سنة ٥٨٣ هـ انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٧ - ٦/٣٤، ٩٥ - ٦/٩٧، الكامل ١١/٥٢٩ وما بعدها، تاريخ بن الوردى ٢/١٣٨. وما بعدها .

(٢) الاستبار أوالاستبارية، أو استبارية هو تعريب لكلمة LES HOS PITO LIERS الفرنسية. وقد أنشأ الفرنجة فى القدس مشافى يشرف عليها الرهان، ونجم عنها تأسيس ثلاث منظمات رهبانية عسكرية هدفها إيواء ومداواة المرضى والجرحى من الجنود والحجاج المسيحين، وهذه المنظمات هى: منظمة فرسان القديس يوحنا، ومنظمة فرسان الهيكل وهما فرنستيان، ومنظمة الفرسان التوترنبين وهم من الألمان. أما منظمة فرسان القديس يوحنا أو فرنسان بيك المقلس، وأسماهم العرب الاسبتارية، فقد تأسست فى السنة التى استولى فيها الصليبيون على القدس سنة ٤٩٣ هـ/١٠٩٩م .انظر الموسوعة الفلسطينية : ٢٠٥/١ - ٢٠٦، وهامش النجوم الزاهرة ٦/٢٩.

(٣) عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على البغدادى ٥٥٧ - ٦٢٩ هـ - ١١٦٢ - ١٢٣١م). عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على البغدادى، موفق الدين، ويعرف بابن اللباد=

السلطان على عكا عظيما، ذا مساحة فسيحة، فيه مائة وأربعون دكان بيطار، وعددت عند طباخ واحد ثمانيا وعشرين قدرا، كل قدر تسع رأس غنم.

وكنت أحفظ عدد الدكاكين، لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق، وأظنها سبعة آلاف دكان، وليست مثل دكاكين المدينة، بل دكان واحد مثل مائة دكان، لأن الحوائج فى الأعدال والجوالقات، ويقال إن العسكر أنتنت منزلتهم لطول المقام، فلما ارتحلوا غير بعيد، وزن سمان أجرة نقل متاعه سبعين دينارا، وأما سوق البز العتيق والجديد، فشيء يبهر العقل. وكان فى العسكر أكثر من ألف حمام، وكان أكثر ما يتولاها المغاربة، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا، ويسترونه بحطب وحصير، ويقطعون حطبا من البساتين التى حولهم، ويحمون الماء فى قدور، وصار حماما يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر.

فلم يزل صلاح الدين على محاصرة عكا إلى أن تسلمها بالأمان، فى ثانى جمادى الأولى، واستولى على ما فيها من الأموال والبضائع، وأطلق من كان بها من المسلمين

=وبابن نقطة: من فسقة الإسلام، وأحد العلماء المكثرين من التصنيف فى الحكمة وعلم النفس والطلب والتاريخ والبلدان والأدب مولده ووفاته ببغداد أقام مدة بحلب، وزار مصر والقدس ودمشق وحران وبلاد الروم وملطية والحجاز وغيرها. وحظى عند الملوك والأمراء وكان دميم الخلقة قليل لحم الوجه، قوى الحافظه من كتبه الإفاده والاعتبارلما فى مصر من الآثار - ط رسالة وقوانين البلاغة والإنصاف بين ابن برى وابن الخشاب، فى كرمها على المقامات، والجامع الكبير فى المنطلق الطبيعى والإلهى، عشر مجلدات، وبلغة الحكيم والكلمة والإهى، عشر مجلدات، وبلغة الحكيم، والكلمة فى الربوبيه، والحكمة الكلاميه، و تهذيب كلامة أفلاطون، والقياس أربع مجلدات، والسماع الطبيعى، وغريب الحديث، و المعتنى الجلى فى الحساب والتجريد - خ فى اللغة، وملخص مقالات التاج - ح فى الحل البتويه، وذيل الصبح - ط الثعلب و شرح أحاديث بن مساحة المتعلقة بالطلب واختصارات كثيرة منها الحيوان للجاحظ وكتاب فى البنات ، وكتب رحلات وصف بها أسفاره والبلدان التى زارها. وله رسائل صغيرة سماها مقالات منها النفس والعلم الإلهى والماء والحركات وحقيقته الدواء والغذاء والحواس والنفس والصون و الكلام، والمدينة الفاضلة، العلوم الضارة، وتزييف ما يعتقده ابن سينا، وإبطال الكمياء، واللغات وكيفية تولدها، والقدر. فوات الوفيات ٢: ٧ وبغية الوعاة ٣١١ والسبكى ٥: ١٣٢ وآداب اللغه ٣: ٩٠، وخزائن الكتب ٨٩ وخطط مبارك ١٥: ٧٩ وطبقات الأطباء ٢: ٢٠١ - ٢١٣ وبن شقده - ح و الشذرات ٥: ١٣٢ ومعجم المطبوعات ١٢٩٢ وإنباه الرواة ٢: ١٩٣، والإعلام لا بن قاضى شهبه - خ - وفى مذكرات الميمنى - ح، ما يفيد اطلاعه على مخطوطة من كتاب المجرد فى غريب الحديث لصاحب الترجمة أوراقها ٧١ كتبت سنة ٦١٦هـ فى خزانه لا له لى -باستنبول الرقم ٤٠٧ - قلت لعلها الوارد ذكرها فى الترجمة باسم غريب الحديث أو هى نسخة أخرى من التجريد. انظر الأعلام ص ٤ ٦١ .

مأسورا، وكانوا أربعة آلاف نفس، ورتب فى كنيستها العظمى منبرا، وأقيم فيها الجمعة. وأقطع عكا لابنه الأفضل على، وأعطى جميع ما للداوية من إقطاع وضياع للفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى. وسار العادل بعساكر مصر إلى مجدليابا[١] فحصره وفتحه وغنم ما فيه. وافتتحت عدة حصون حول عكا: وهى الناصرة[٢] وقيسارية وحيفا[٣] وصفورية[٤] ومعليا والشقيف والتولع[٥] والطور [٦] ونهب ما فيها، وسبيت النساء والأطفال، فقدموا بما سد الفضاء. وأخذت سبسطية ونابلس، وكتب السلطان للخليفة بخبر فتح هذه البلاد. ونزل العادل على يافا، حتى ملكها عنوة ونهبها، وسبى الحريم وأسر الرجال، ونازل المظفر تقى الدين عمر تبنين، وأدركه السلطان فوصل إليها فى حادى عشر جمادى الأولى ومازال محاصرًا لها حتى تسلمها فى ثامن عشره بأمان، وجلا أهلها عنها إلى صور، وتسلم السلطان العدد والدواب والخزائن، وسار فأخذ صرخد[٧] بغير قتال، ثم رحل إلى صيداء، ففر أهلها وتركوها، فتسلمها السلطان فى حادى عشريه. ونازل بيروت وضايقها ثمانية أيام، إلى أن طلب أهلها الأمان، فأجابهم واستولى عليها فى تاسع عشريه، وأخذ جبيل [٨] فكان من استنقذ ا لله من المسلمين المأسورين عند الفرنج، فى هذه السنة، ما يزيد على عشرين ألف إنسان، وأسر المسلمون من الفرنج مائة ألف أسير.

---

(١) مجدليابا: بعد اللام ياء مثناة من تحتها، وبعد الألف باء موحدة: قرية قرب الرملة فيها حصن محكم. انظر معجم البلدان ٥/٥٧.

(٢) الناصرة: فاعلة من النصر: قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا، فيما كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ومنها اشتق اسم النصارى. انظر معجم البلدان ٥/٢٥١.

(٣) حيفا: غير ممدود: حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا ولم يزل فى أيدى المسلمين إلى ان تغلب عليه كندفرى الذى ملك بيت المقدس فى سنة ٤٩٤ هـ، وبقى فى أيديهم إلى أن فتحه صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة ٥٧٣ هـ وخربه. انظر معجم البلدان ٢/٣٣٢.

(٤) صفورية: بفتح أوله، وتشديد ثانية، وواو ، وراء مهملة ثم ياء مخففة: كورة وبلدة من نواحى الأردن بالشام وهى قرب طبرية . انظر معجم البلدان.

(٥) تولع: بالعين المهملة: قرية بالشام فى قول عبد الله بن سليم. لمن الديار بتولع فيحوس. انظر معجم البلدان ٢/٥٩.

(٦) الطور: جبل بعينه مطل على طبرية الأردن . انظر معجم البلدان ٤/٤٧.

(٧) صرخد: بالفتح ثم السكون، والخاء معجمة، والدال مهملة بلدل ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، ينسب إليها الخمر. انظر معجم البلدان ٣/٤٠١.

(٨) جبيل : بلد فى سواحل دمشق فى الإقليم الرابع. انظر معجم البلدان ٢/١٠٩.

وهلك فى هذه السنة القومص صاحب طرابلس، وقدم المركيس - أكبر طواغيت الفرنج - إلى صور، وقد اجتمع بها أمم من الفرنج، فتملك عليهم، وحصن البلد، فسار السلطان بعد فتح بيروت، وتسلم الرملة والخليل وبيت لحم، واجتمع بأخيه العادل، ونازلا عسقلان، فى سادس عشر جمادى الآخرة، ونصبا المجانيق عليها، ووقع الجد فى القتال، إلى أن تسلم السلطان البلد فى سلخه، وخرج منه الفرنج إلى بيت المقدس، بعد أن ملكوه خمسا وثلاثين سنة. وتسلم السلطان حصون الداوية وهى غزة والنطرون وبيت جبريل[1] وقدم عليه بظاهر عسقلان ابنه العزيز عثمان من مصر، ووافته الأساطيل وعليها الحاجب لؤلؤ. وكانت الشمس قد كسفت، قبل أخذ عسقلان بيوم، حتى أظلم الجو وظهرت الكواكب فى يوم الجمعة ثامن عشريه.

وسار السلطان - وقد احتمعت إليه العساكر - يريد فتح بيت المقدس، فنازله يوم الأحد خامس عشر رجب، وبه حشود الفرنج وجميعهم، فنصب المجانيق، واقتتل الفريقان أشد قتال، استشهد فيه جماعة من المسلمين، وأيد الله بنصره المسلمين، حتى تمكنوا من السور ونقبوه، وأشرفوا على أخذ البلد فسأل الفرنج حينئذ الأمان، فأعطوه بعد امتناع كثير من السلطان، على أن يعطى كل رجل من الفرنج عن نفسه عشرة دنانير مصرية، سواء كان غنيا أو فقيرا، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل طفل من الذكور والإناث دينارين. ثم صولح عن الفقراء بثلاثين ألف دينار وتسلم المسلمون القدس يوم الجمعة سابع عشرى رجب، وأخرج من فيه من الفرنج، وكانوا نحو الستين ألفا، بعدما أسر منهم نحو ستة عشر ألفا، ما بين رجل وامرأة وصبى، وهم من لا يقدر على شراء نفسه.

وقبض السلطان من مال المفاداة ثلاثمائة ألف دينار مصرية، سوى ما أخذه الأمراء، وما حصلت فيه الخيانة.

والتحق من كان بالقدس من الفرنج بصور، وتسامع المسلمون بفتح بيت المقدس، فأتوه رجالا وركابنا من كل جهة لزيارته، حتى كان من الجمع ما لا ينحصر، فأقيمت فيه الجمعة يوم الرابع من شعبان، وخطب القاضى محيى الدين بن الزاكى بالسواد خطبة بليغة، دعا فيها للخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين، وانتصب بعد الصلاة زين

---

(١) بيت جبريل: لغة فى جبرين: بليدة بين بيت المقدس وغزة، وبينه وبين القدس مرحلتان وبين غزة أقل من ذلك، وكانت فيه قلعة حصينة خربها صلاح الدين لما استنقذ من الإفرنج وبين بيت جبرين وعسقلان واد يزعمون أنه وادى النمل التى خاطت سليمان بن داود وعليه السلام. انظر معجم البلدان.

الدين بن نجا، فوعظ الناس. وأمر السلطان بترميم المحراب العمرى القديم، وحمل منبر مليح من حلب، ونصب بالمسجد الأقصى، وأزيل ما هناك من آثار النصرانية، وغسلت الصخرة بعدة أحمال ماء ورد، وبخرت وفرشت، ورتب فى المسجد من يقوم بوظائفه، وجعلت به مدرسة للفقهاء الشافعية، وغلقت كنيسة قمامة، ثم فتحت، وقرر على من يرد إليها من الفرنج قطيعة يؤديها. وخرجت البشائر إلى الخليفة بالفتح، وإلى سائر الأطراف. ورحل السلطان عن القدس لخمس بقين من شعبان يريد عكا، وسار العزيز عثمان إلى مصر فكان آخر العهد به. وسار العادل مع السلطان، فنزلا على عكا أول شهر رمضان، ثم رحل السلطان منها، ونزل على صور فى تاسعه، وكانت حصينة، وقد استعد الفرنج فيها، فتلاحقت العساكر بالسلطان، ونصب على صور عدة من المجانيق وحاصرها، واستدعى السلطان الأسطول من مصر، فقدم عليه عشر شوانى، وصار القتال فى البر والبحر فأخذ الفرنج خمس شوانى ووردت مكاتبة الخليفة على السلطان، وفيها غلظة وإنكار أمور، فأجاب بالاعتذار، ورحل عن صور فى آخر شوال. وعادت العساكر إلى بلادها، وأقام السلطان بعكا، وسار العادل إلى مصر، فطرق الفرنج قلعة كوكب، وقتلوا بها جماعة من المسلمين، ونهبوا ما كان بها، وأتته على عكا رسل الملوك بالتهنئة من الروم والعراق وخراسان بفتح بيت المقدس.

وفى هذه السنة: – أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة –: اجتمع الشمس والقمر والمريخ والزهرة وعطارد والمشترى وزحل وأظفار الذئب، فى برج الميزان، أربع عشرة ساعة، فاجتمع المنجمون كلهم، وحكموا بكون طوفان الريح، وأنه كائن وواقع ولابد، فتنقلب الأرض من أولها إلى آخرها، وأنه لا يبقى من الحيوان شىء إلا مات، ولا شجرة ولا جدار إلا سقط. وكان معظم هذه الحكومة عن بلاد الروم، وأرجفوا بأنها هى القيامة، فاتخذ قوم الكهوف والمغائر فى الجبال، وبالغوا فى الاعتداد لهول ذلك اليوم. وقال القوم: «كتب القدماء كلها أحالت على هذا الاجتماع، وإن فيه دمار الدنيا». وكان ذلك فى مسرى، وفى جمادى الآخرة للسابع والعشرين منه، وهو يوم الثلاثاء مع ليلة الأربعاء إلى يوم الأربعاء. فلم تهب ريح، ولا تحرك نيل مصر، وهو فى زيادته فى مسرى، ومن العادة أن تهب الريح من العصر إلى العشاء فى وجه الماء، ليقف بإذن الله، فتكون فيه الأمواج، فلم يحدث تلك الليلة، ولا ثانى يوم ولا قبلها بيوم شىء من ذلك، وطلع الناس بالسرج الموقدة على السطوحات لاختبار الهواء، فلم تتحرك نار ألبتة. وكان أشد الناس إرجافا بهذه الكواكب الروم، فأكذبهم الله، وسلط عليهم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فأخذ كبارهم، وملأ الأرض من

الأسرى شرقا وغربا، وأخذ القدس، وأصاب جماعة ممن كان يرجف بهذه الريح آفات، ما بين موت بعضهم واعتلال بعضهم.

وفيها خرج فى سادس عشر جمادى الآخرة قفل شامى إلى مصر، وهو أول قفل سلك بلاد الساحل، بلا حق يدفعه ولا مكس يؤديه.

وفيها سار قراقوش التقوى، واستولى على القيروان، وحاربه ابن عبد المؤمن سلطان المغرب على ظاهر تونس فانكسر منه، وأقيمت الخطبة فى ربيع الأول بتلك البلاد للسلطان صلاح الدين. فجمع ابن عبد المؤمن، وواقع قراقوش وهزمه، ففر قراقوش فى البرية.

وفيها أمر السلطان بأن تبطل النقود التى وقع الاختلاف فيها وتضرر العامة بها، وأن يكون ما يضرب من الدنانير ذهبا مصريا، ومن الدراهم الفضة الخالصة، وأبطل الدراهم السود لاستثقال الناس الميزان، فسر الناس ذلك.

* * *

سنة أربع وثمانين وخمسمائة[1]

فيها نازل السلطان حصن كوكب أياما، و لم ينل منها شيئا، فأقام الأمير صارم الدين قايماز النجمى فى خمسمائة فارس عليها، ووكل بصفد الأمير طغرل الخازندار فى خمسمائة فارس، وبعث إلى الكرك والشوبك الأمير سعد الدين كمشبه الأسدى، واستدعى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى من مصر، فاستخلف على عمارة سور القاهرة، وقدم والسلطان على كوكب، فندبه لعمارة عكا، فشرع فى تجديد سورها وتعلية أبراجها، بمن قدم به معه من مصر من الأسرى والأبقار والآلات والدواب، وسار السلطان يريد دمشق، فدخلها سادس ربيع الأول، وقد غاب عنها سنة وشهرين وخمسة أيام، كسر فيها الفرنج، وفتح بيت المقدس، فلازم الجلوس فى دار العدل بحضرة القضاة، وكتب إلى الجهات باستدعاء الأجناد للجهاد، وخرج بعد خمسة أيام على بعلبك، فوافاه عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار على أعمال حمص، فنزلا على بحيرة قدس. وبعث السلطان ابنه الظاهر وابن أخيه المظفر صاحب حماة لحفظ طريق أنطاكية، وسار أول ربيع الآخر وشن الغارات على صافيتا وتلك الحصون المجاورة. وسار فى رابع جمادى الأولى على تعبية لقاء العدو، فأخذ أنطرسوس، واستولى على ما بها من المغانم، وخرب سورها وبيعتها، وكانت من أعظم البيع، ووضع النار فى البلد فأحرق جميعه، وسار يريد جبلة، فنازلها لاثنتى عشرة بقيت منه، وتسلمها بغير حرب، ثم أخذ اللاذقية[2] بعد قتال، وغنم الناس منها غنيمة عظيمة. وسار إلى صهيون[3]، فقاتل أهلها إلى أن ملكها فى ثانى جمادى الآخرة، واستولى على قلعتى الشغر وبكاس وعدة حصون، وأسر من فيها، وغنم شيئا كثيرا.

فلما فتح بغراس[4] بعث الإبرنس ملك أنطاكية يسأل الصلح، فأجيب إلى ذلك، على

---

(١) سنة ٥٨٤ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٣٥ ، ٦/٣٨، ٩٧ - ٦/٩٩، الكامل ١٢/٥ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٤٢ وما بعدها .

(٢) اللاذقية: بالذال معجمة مكسورة، وقاف مكسورة، وياء مشددة: مدينة فى ساحل بحر الشام تعد فى أعمال حمص وهى غربى حبلة بينها و بين حبلة ستة فراسخ. انظر معجم البلدان ٥/٥.

(٣) صهيون: موضع معروف ببيت المقدس: محلة فيها كنيسة صهيون وصهيون أيضا حصن من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص انظر معجم البلدان ٤٣٦/٣.

(٤) بغراس: بالسين مكان الراء مدينة فى لحف. حبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب فى البلاد المطلة على نواحى طرسوس. انظر معجم البلدان.

شريطة أن يطلق من عنده من الأسارى المسلمين، وهم ألف إنسان، وعاد صاحب سنجار إلى بلده، وسار السلطان إلى حلب، فأقام بها ثم سار عنها، ودخل إلى دمشق فى آخر شعبان وما زال كمشبه محاصرا للكرك حتى تسلم قلعتها، ومعها الشوبك والسلع، وعدة حصون هناك، فى رمضان. فلما وردت البشرى بذلك على السلطان سار من دمشق، ونازل صفد حتى ملك قلعتها بالأمان فى رابع عشر شوال ولحق من كان فيها من الفرنج بصور ثم سار إلى كوكب[1] وضايقها حتى تسلمها، فى نصف ذى القعدة بأمان، وأرسل أهلها إلى صور. فكثر بها جموع الفرنج، وكاتبوا إفرنج صقلية والأندلس، وكتب السلطان إلى الخليفة الناصر بخبر هذه الفتوح، ورحل فنزل فى صحراء بيسان.

وفيها ثار بالقاهرة اثنا عشر رجلا من الشيعة فى الليل، نادوا: «يال على.. يال على». وسلكوا الدروب وهم ينادون كذلك، ظنا منهم أن رعية البلد يلبون دعوتهم، ويقومون فى إعادة الدولة الفاطمية، فيخرجون من فى الحبوس، ويملكون البلد. فلما لم يجبهم أحد تفرقوا.

وسار السلطان إلى القدس، فحل به فى ثامن ذى الحجة، وسار بعد النحر إلى عسقلان، وجهز أخاه العادل إلى مصر لمعاضدة الملك العزيز، وعوضه بالكرك عن عسقلان، وكان قد وهبها له، ثم نزل بعكا.

* * *

---

(١) كوكب: اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة تشرف على الأردن افتتحها صلاح الدين فيما افتتحه من البلاد ثم خربت بعد. انظر معجم البلدان ٤٩٤/٤.

سنة خمس وثمانين وخمسمائة[1]

ودخلت سنة خمس وثمانين: فسار السلطان عن عكا، ودخل دمشق أول صفر، فورد عليه فى ثانى عشره ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينة، رسول الخليفة الناصر، بالخطبة لابنه ولى العهد ، عدة الدنيا والدين أبى نصر محمد، فأقيمت له. وجهز الرسول، ومعه ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزورى، وبعث معه بهدايا وتحف وأسارى من الفرنج للخليفة، ومعهم تاج ملك الفرنج والصليب الذى كان فوق صخرة بيت المقدس، وأشياء كثيرة. فدفن الصليب تحت عتبة باب النوبى ببغداد وديس عليه، وكان من نحاس مطلى بالذهب.

وخرج السلطان من دمشق فى ثالث ربيع الأول ونازل شقيف أرنون[2] وهو منزعج، لانقضاء الهدنة مع صاحب أنطاكية، ولاجتماع الفرنج بصور، واتصال الأمداد بهم. فكانت للمسلمين مع الفرنج فى بلادهم الساحلية عدة وقائع، قتل فيها من الفريقين عدة، وكثر القتل فى المسلمين، واشتدت نكاية الفرنج فيهم، فرحل السلطان إلى عكا، وقد سبقه الفرنج ونزلوا عليها. ونزل السلطان بمرج عكا وصار محاصرا للفرنج، والفرنج محاصرين للبلد. وتلاحقت به العساكر الإسلامية، والأمداد تصل إلى الفرنج من البحر. فلم يقدر السلطان على الوصول إلى البلد، ولا استطاع أهل عكا أن يصلوا إلى السلطان. وشرع السلطان فى قتال الفرنج من أول شعبان، إلى أن تمكن من عكا، ودخلها فى ثانيه، فما زالت الحرب قائمة إلى رابع رمضان. فتحول إلى الخروبة[3]، وأغلق من فى عكا من المسلمين أبوابها، وحفر الفرنج خندقا على معسكرهم حول عكا من البحر إلى البحر، وأداروا حولهم سورا مستورا بالستائر، ورتبوا عليه الرجال، فامتنع وصول المسلمين إلى عكا.

وقدم العادل بعسكر مصر فى نصف شوال، وقدم الأسطول من مصر إلى عكا فى

---

(١) سنة ٥٨٥ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٣٩، ٦/٤٠ ٩٩ - ٦/١٠١، الكامل ١٢/٢٧ وما بعدها ، تاريخ ابن الوردى ٢/١٤٤.

(٢) شقيف أرنون: بفتح أوله، وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت، وفاء، وبعد الراء الساكنة نون ثم واوساكنة، ونون أخرى، وهو قلعة حصينة جدا فى كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. انظر معجم البلدان ٣/٣٥٦.

(٣) الخروبة : حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا . انظر معجم البلدان ٢/٣٦٢.

خمسين قطعة، وعليه الحاجب لؤلؤ فى منتصف ذى القعدة، فبدد شمل مراكب الفرنج، وظفر ببطستين للفرنج. فاستظهر المسلمون الذين بعكا، وقوى جأشهم بالأسطول، وكانوا نحو العشرة آلاف.

وبعث السلطان إلى الأطراف يحث الناس على الجهاد، وأرسل إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين باليمن، يطلب منه الإعانة بالمال، وإلى مظفر الدين قر أرسلان صاحب العجم، وكتب إلى الخليفة. ووصلت الأمداد إلى الفرنج، وورد الخبر من حلب بخروج ملك الألمان من القسطنطينية، فى عدة عظيمة تتجاوز الألف ألف، يريدون البلاد الإسلامية، فاشتد الأمر على السلطان ومن معه من المسلمين.

وتوفى فى هذه السنة حسام الدين سنقر الخلاطى ليلة الإثنين سابع عشرى رجب، والأمير حسام الدين طمان يوم الأربعاء ثالث عشر شعبان، والأمير عز الدين موسك ابن جكو فى شعبان، وهو ابن خال السلطان صلاح الدين.

ومات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبى عصرون بدمشق، يوم الثلاثاء حادى عشر رمضان، ومولده أول سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة.

ومات ضياء الدين عيسى الهكارى، يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة بمنزلة الخروبة.

* * *

سنة ست وثمانين وخمسمائة(١)

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان بالخروبة على حصار الفرنج، وقدمت عساكر المسلمين من الشرق ومن بقية البلاد، فرحل من الخروبة لاثنتى عشرة بقيت من ربيع الأول إلى تل كيسان(٢) وتتابع مجىء العساكر. وكملت أبراج الفرنج الثلاثة، التى بنوها تجاه عكا فى مدة سبعة أشهر، حتى علت على البلد، وامتلأت بالعدد والعدة، وطموا كثيرا من الخندق، وضايقوا البلد. واشتد خوف المسلمين، واشتدت الحرب بين الفريقين، حتى احترقت الأبراج الثلاثة، وخرج أهل عكا منها، فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر، وغنموا ما كان فى الأبراج من الحديد، فتقووا به.

وكان بين أسطول المصريين وبين مراكب الفرنج عدة معارك، قتل فيها كثير من الفرنج. ودخل ملك الألمان بجيوشه إلى حدود بلاد الإسلام، وقد فنى منهم كثير، فواقعهم الملك عز الدين قلج بن أرسلان السلجوقى، فانكسر منهم، فلحق به الفرنج إلى قونية (٣) وهاجموها، وأحرقوا أسواقها، وساروا إلى طرسوس(٤) يريدون بيت المقدس، واسترجاع ما أخذ منهم السلطان من البلاد والحصون، فمات بها ملكهم. وقام من بعده ابنه، فسار إلى أنطاكية. وندب السلطان كثيرا ممن كان معه على حرب

---

(١) سنة ٥٨٦ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٠١، ٦/١٠٢، الكامل ١٢/٤٤ وما بعدها، تاريخ الوردى ٢/١٤٦.

(٢) تل كيسان: الكاف مفتوحة، وياء ساكنة موضع فى مرج عكا من سواحل الشام.

(٣) قونية: سبق ترجمتها. انظر الروض المعطار ٤٨٤، ومعجم البلدان ٤/٤١٥، ونزهة المشتاق ٢٦١.

(٤) طرسوس: مدينة بالشام حصينة، عليها سوران بينهما فصيل وخندق، ويجرى الماء حواليها. وفى سنة سبعين ومائة بنى سور طرسوس على يد مسلم فرج الخصى التركى، وجهه مولاه هارون الرشيد لذلك، وأنزلها الناس عام ولى الخلافة، فى جيش كثيف وعسكر ضخم إلى الثغور، وأمره أن يبنى مدينة طرسوس فى المرج الذى فى سفح الجبل، ولم يكن هناك بناء قط، وأن يجعل النهر يشق وسطها، فابتداء بناءها فى جمادى سنة سبعين ومائة، فكمل بناؤها فى سنة اثنتين وسبعين ومائة، فلما نزل الرشيد طرسوس أفرد الثغور من الجزيرة والشام، وسمى الثغور الشامية والثغور الجزرية، ونهرها يأتى من جبل الروم حتى يشق وسطها، وطرسوس مدينة كبيرة كثيرة المتاجر، والعمارة والخصب الزائد، وبينها وبين البحر اثنا عشر ميلاً. انظر الروض المعطار ٣٨٨، ٣٨٩، ومعجم البلدان ٤/٢٨، وصبح الأعشى ٤/١٣٣. انظر معجم البلدان ٢/٤٣.

عكا إلى جهة أنطاكية، ووقع فيمن بقى معه مرض كثير، وأمر بتخريب سور طبرية ويافا وأرسوف[١] وقيسارية وصيدا وجبيل فخرب ذلك، ونقل من كان فيها إلى بيروت وطمع الفرنج فى السلطان لقلة من بقى معه، فركبوا لحربه ونهبوا وطاق الملك العادل. وكانت للمسلمين معهم حرب، انكسر فيها الفرنج إلى خيامهم، وقتل منهم آلاف، فوهت قواهم. غير أن المدد أتاهم، ونصبوا المجانيق على عكا، فتحول السلطان إلى الخروبة، فوافى كتاب ملك الروم بقسطنطينية، يخبر بوصول المنبر من عند السلطان، وكذلك الخطيب والمؤذنين والقراء، وأن الخطبة أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين ا لله.

وسار ابن ملك الألمان عن أنطاكية إلى طرابلس فى جيوشه، وركب منها البحر إلى عكا، فوصل إليها سادس رمضان، فأقام عليها إلى أن هلك ثانى عشر ذى الحجة، بعدما حارب المسلمين فلم ينل منهم كبير غرض. ودخل الشتاء وقد طالت مدة البيكار، وضجرت العساكر من كثرة القتال، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل.

وفيها تولى سيف الدولة أبو الميمون مبارك بن كامل بن منقذ[٢] شد الدواوين بديار مصر، وباشر الأسعد بن مماتى [٣] معه الديوان فى محرم.

* * *

---

(١) أرسوف بالفتح ثم السكون وضم السين المهملة وسكون الواو وفاء: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. انظر معجم البلدان.

(٢) سيف الدولة بن منقذ (٥٢٦ - ٥٨٩ هـ - ١٣٢ - ١١٩٣م). المبارك بن كامل بن على ابن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى، أبو الميمون، سيف الدولة، مجد الدين من أمراء الدولة الصلاحية بمصر، ومن بيت كبير ولد بقلعة شيزر وذهب مع تورانشاه إلى اليمن، وناب عنه فى زبيد سنة ٦٦٩هـ ثم فارقها، وأناب عنه أخا له اسمه حطان، وذهب إلى دمشق، ومنها إلى مصر، مع تورانشاه. انظر وفيات الأعيان ٤٤١/١، الروضتين ٢٥/٢، النجوم الزاهرة ٨٩/٦. الأعلام ٢٧١/٥.

(٣) ابن مماتى (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ ١١٤٩ - ١٢٠٩ م). أسعد (أبو المكارم) بن مهذب (الملقب بالخطير أبى سعيد) بن مينا بن زكريا، بن مماتى: وزير أديب. كان ناظر الدواوين فى الديار المصرية. ومولده بمصر ووفاته بحلب. وكان نصرانيا، فأسلم هو وجماعته فى ابتداء الدولة الصلاحية. انظر معجم البلدان ٢٤٤/٢، وفيات الأعيان ٦٨/١، قوانين الدواوين مقدمته، أداب اللغة ٣/ى ١٠٩، إنباء الرواة ٢٣١/١، حريدة القصر: قسم شعراء مصر ١٠٠، النجوم الزاهرة ١٧٨/٦، كشف الظنون ١٢١٥، مرآة الجنان ١٣/٤، الشذرات ٢٠/٥، حسن المحاضرة. ٣٢٥/١ .الأعلام ٣٠٢/١.

سنة سبع وثمانين وخمسمائة [1]

ودخلت سنة سبع وثمانين: فسار الظاهر صاحب حلب إليها، وسار المظفر إلى حماة. وبقى السلطان فى جمع قليل، والحرب بين أهل عكا وأميرهم بهاء الدين قراقوش وبين الفرنج. ودخل فصل الربيع، فوافت العساكر السلطان، ووصل إلى الفرنج مددهم، فضايقوا عكا وجدوا فى حصارها، ونصبوا عليها المجانيق. وتوالت الحروب إلى أن ملكها الفرنج، يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، وأسروا من فيها من المسلمين وكانوا ألوفا. وخرجوا يريدون الحرب، فواقعهم السلطان وكسرهم، ووقع كلامه فى الصلح وإطلاق الأسرى ولم يتم.

فلما كان فى سابع عشرى رجب برز الفرنج بخيامهم، وأحضروا أسارى المسلمين، وحملوا عليهم حملة واحدة قتلوا فيها بأجمعهم فى سبيل الله صبرا، واليزك الإسلامى ينظر إليهم. فحمل المسلمون عليهم، وجرت بينهما حرب شديدة، قتل فيها عدة من الفريقين.

ولما أهل شعبان: سار الفرنج إلى عسقلان، ورحل السلطان فى اثرهم، وواقعهم فى رابع عشره بأرسوف، فانهزم المسلمون، وثبت السلطان إلى أن اجتمع عليه المسلمون، وعاد إلى القتال، حتى التجأ الفرنج إلى جدران أرسوف.

ورحل السلطان فى تاسع عشره، ونزل على عسقلان يريد تخريبها، لعجزه عن حفظها، ففرق أبراجها على الأمراء، ووقع الضجيج والبكاء فى الناس أسفا وغما لخرابها، وكانت من أحسن البلاد بناء، وأحكمها أسوارا، وأطيبها سكنا، فلم يزل التخريب والحريق فيها إلى سلخ شعبان.

قال الحافظ عبد العظيم المنذرى فى المعجم المترجم: «سمعت الأمير الأجل أياز بن عبد الله - يعنى أبا المنصور البانياسى الناصرى - يقول: لما هدمنا عسقلان أعطيت أنا برج الداوية، وهدم خطلج برجا وجدنا عليه مكتوبا عمر على يدى خطلج، وهذا من عجيب الاتفاق. وشبيه بذلك ما أخبرنى به القاضى الأجل أبو الحسن على بن يحيى الكاتب قال: رأيت بعسقلان برج الدم، وخطلج المعزى يهدمه يعنى فى شعبان.

---

(1) سنة٥٨٧ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٤١ - ٦/٤٣، ١٠٢ - ٦/١٠٥، الكامل ١٢/٦٠ وما بعدها ، تاريخ ابن الوردى ٢/١٤٧ وما بعدها

ورأيت عليه مكتوبا: مما أمر بعمارته السيد الأجل أمير الجيوش[١] - يعنى بدرا الجمالى- على يد عبده ووليه خطلج فى شعبان فعجبت من هذا الاتفاق، كيف عمر فى شعبان على يد خطلج، وهدم فى شعبان على يد خطلج».

ثم رحل السلطان عن عسقلان وقد خربت فى ثانى رمضان، ونزل على الرملة فخرب حصنها، وهدم كنيسة لُدّ، وركب إلى القدس جريدة، ثم عاد وهدم حصن النطرون.

وكانت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع فى البر والبحر، فعاد السلطان إلى القدس فى آخر ذى القعدة. وقدم أبو الهيجاء السمين بعسكر مصر، ووقع الاهتمام فى عِمارة سور بيت المقدس وحفر الخندق.

وفيها مات علم الدين سليمان بن جندر[٢] فى آخر ذى الحجة.

ومات الملك المظفر تقى الدين عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب بن شادى صاحب حماة، وهو الذى أوقف منازل المعز بمصر مدرسة، فى ليلة الجمعة تاسع رمضان، ودفن بحماة.

ومات نجم الدين محمد بن الموفق بن سعيد بن على بن حسن بن عبد الله الخبوشانى[٣] الفقيه الشافعى الصوفى، يوم الأربعاء ثانى عشرى ذى القعدة، ودفن بالقرافة.

---

(١) بدر الجمالى (أمير الجيوش) (٤٠٥ - ٤٨٧ هـ - ١٠١٤ - ١٠٩٤م). بدر بن عبد الله الجمالى، أبو النجم: أمير الجيوش المصرية، ووالد الملك الأفضل شاهنشاه. أصله من أرمينية اشتراه جمال الدولة بن عمارة غلاما ، فتربى عنده، ونسب إليه، وتقدم فى الخدمة حتى ولى إمارة دمشق للمستنصر صاحب مصر (سنة ٤٥٥ هـ). ثم استدعاه إلى مصر واستعان به على إطفاء فتنة نشبت، فوطد له أركان الدولة، فقلده وزارة السيف والقلم وأصبح الحاكم فى دولة المستنصر والمرجوع إليه وكان حازما شديدا على المتمردين وافر الحرمة. توفى فى القاهرة. انظر ابن الأثير ١٠: ٨١ والنجوم الزاهرة٥: ١٤١ وما قبلها. وفى شذرات النهب ٣: ٣٨٣. انظر الأعلام ص ٢/١٣.

(٢) ابن جندر (٥٨٧ هـ ١١٩٢م). سليمان بن جندر ، علم الدين: أمير من رجال الدولة الصلاحية فى بلاد الشام كان من أكابر أمراء حلب، وخدم السلطان صلاح الدين بالقدس، حتى صار شيخ الدولة وكبيرها وظهيرها ومشيرها وهو الذى أشار بتخريب عسقلان لتتوفر العناية بالقدس. توفى فى قرية عباغب على مرحلة من دمشق، فى طريق من القدس إلى حلب. انظر الروضيتن ١٩٥/٢، النجوم لزاهرة ١١٣/٦. الأعلام ٣/١٢٢.

(٣) نجم الدين الخبوشانى (٥١٠ - ٥٨٧ هـ - ١١١٦ - ١١٩١م). محمد بن الموفق بن سعيد ابن على، أبو البركات نجم الدين الخبوشانى: فقيه شافعى، نسبته إلى خبوشان من نواحى نيسابور، ومولده بقربها، انتقل إلى مصر، وحظى عند السلطان صلاح الدين، وصنف تحقيق المحيط فى الفقة. انظر ابن خلكان ٤٧١/١، اللباب ٣٤٤/١، لب اللباب ٨٨، معجم البلدان ٣٩٨/٣، خطط مبارك ٢٨/٥، مفتاح السعادة ٢١٠/٢. الأعلام ٧/١٢٠.

وفيها سلم أمر الأسطول بمصر للملك العادل، فاستخدم فيه من قبله، وأفرد برسمه الزكاة بمصر والحبس الجيوشى بالبرين والنطرون والخراج وما معه من ثمن القرظ وساحل السنط والمراكب الديوانية وإشنين[1] وطنبذة[2] فاستناب العادل فى مباشرة ذلك، واستخدم فى ديوان الأسطول صفى الدين عبد الله بن على بن شكر. وأحيل الورثة الجيوشية على غير الحبس الذى لهم.

وعظمت زيادة النيل وغرق النواحى، وكثر رخاء الأسعار بمصر، فأبيع القمح كل مائة أردب بثلاثين دينارا، والخبز البائت ستة أرطال بربع درهم، والرطب الأمهات ستة أرطال بدرهم، والموز ستة أرطال بدرهم، والرمان الجيد مائة حبة بدرهم، وحمل الخيار بدرهمين، والتين ثمانية أرطال بدرهم، والعنب ستة أرطال بدرهم فى شهر بابه بعد انقضاء موسمه المعهود بشهرين، والياسمين خمسة أرطال بدرهم، وثمر الحناء عشرة أرطال بدرهم، والبسر الجيد عشرة أرطال بدرهم، وما دونه خمسة عشر رطلا بدرهم. وكثر بمصر والقاهرة التجاهر بمعاصى الله، وظفر الأسطول بمركب فيه اثنتان وعشرون ألف جبنة، كل جبنة قدر الرحى لا يقلها الراجل. وحصلت بمصر زلزلة، وهبت سموم حارة فيها إعصار ثلاثة أيام، أتلفت الخضروات التى فضلت من الغرق. وانشقت زريبة جامع المقس لقوة الزيادة، وخيف على الجامع أن يسقط، فأمر بعمارتها.

* * *

(١) إشنين بالشين و النون وياء ساكنة ونون أخرى والعامة تقول إشنى قرية بالصعيد إلى جنب طنبذى على غربى للنيل وتسمى هذه وطنبذى العروسين لحسنهما وخصبهما وهما من كورة البهنسى. انظر معجم البلدان

(٢) طنبذة: ثانيه ساكن، والباء مفتوحة موحدة، وآخره ذال معجمة قرية من أعمال بهنسا من صعيد مصر. انظر معجم البلدان ٣/٤٢.



سنة ثمان وثمانين وخمسمائة[1]

وأهلت سنة ثمان وثمانين: والسلطان بالقدس مجتهد فى عمارته.

وفى ثالث المحرم: نزل الفرنج على ظاهر عسقلان، لقصد عمارتها فما مكنوا، وواقعهم جماعة من الأسدية منهم يازكج وغيره، وتوالت الوقائع بينهم.

وفى صفر: سار الملك الأفضل نور الدين على بن السلطان إلى البلاد الشرقية، على ما كان بيد الملك المظفر تقى الدين عمر من البلاد التى هى قاطع الفرات، وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى الخلع والتشريفات. ثم نزل الملك العادل أبو بكر عن كل ماله فى الشام، ماخلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف خاصة بديار مصر، وعوض البلاد الشرقية.

وسار السلطان من القدس فى أوائل جمادى الأولى، وكتب بعود الملك الأفضل، فعاد منكسر القلب إلى السلطان. ولحق العادل بحران والرها وقرر أمرهما، ثم عاد إلى السلطان فى آخر جمادى الاخرة.

وفى جمادى الآخرة: ملك الفرنج قلعة الداروم، وخرج العسكر المصرى يريدون السلطان، فكبسهم الفرنج وأخذوا جميع ما معهم، وتبدد الناس فى البرية. وأسر الفرنج منهم خمسمائة رجل، وأخذوا نحو ثلاثة ألاف جمل، وعادوا إلى خيمهم وقد طمعوا، فقصدوا المسير إلى القدس، ثم اختلفوا ونزلوا بالرملة، وبعثوا رسلهم فى طلب الصلح، فبرز السلطان من القدس فى عاشر رجب، وسار إلى يافا فحاصرها، و لم يزل يقاتل من فيها من الفرنج إلى أن أخذ البلد عنوة، وغنم الناس منها شيئا عظيما. وتسلم السلطان القلعة، وأخرج من كان فيها من الفرنج، فقدم من الفرنج نجدة كبيرة فى خمسين مركبا، فغدر أهل يافا بجماعة من المسلمين، وعاد القتال والمراكب فى البحر لم تصل إلى البر، فسارع أهل المراكب إلى البر، وحملوا على السلطان، فرحل إلى يازور[2] وأمر بتخريبها، وسار إلى الرملة ومنها إلى القدس، وعزم على لقاء الفرنج، فاختلف عليه أصحابه، وأسمعه بعضهم كلاما جافيا، فانثنى عن ذلك. وقدم عسكر مصر فخرج إلى

---

(١) سنة ٥٨٨ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٤٤ - ٦/٤٦، ١٠٦ - ٦/١٠٩ الكامل ١٢/٧٨ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٥٠ وما بعدها.

(٢) يازور: بالزاى، والواو ساكنة ثم راء: بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين بالشام. انظر معجم البلدان ٥/٤٢٥.

الرملة، ووقع الصلح بين السلطان والفرنج لثمان بقين من شعبان. وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها حادى عشر شعبان - وهو أول شهر أيلول- على أن يكون للفرنج من يافا إلى عكا إلى صور وطرابلس وأنطاكية. ونودى فى الوطاقات وأسواق العسكر: ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل. وكان يوم الصلح يوما مشهودا، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور، لما نالهم من طول الحرب. فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين، ورحل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة، ودخل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة، فأكرمهم السلطان ومد لهم الأطعمة وباسطهم. ورحل ملوك الفرنج إلى ناحية عكا، ورحل السلطان إلى القدس، وسار منها إلى دمشق، فلقيه الأمير بهاء الدين قراقوش - وقد تخلص من الأسر - على طبرية.

ودخل السلطان إلى دمشق، لخمس بقين من شوال، فكانت غيبته عنها أربع سنين. وأذن للعساكر فى التفرق إلى بلادهم فساروا إليها، وبقى عند السلطان ابنه الأفضل على والقاضى الفاضل.

وفيها انتقل سعر الفول بديار مصر من خمسة عشر دينارًا إلى ثلاثين دينارًا المائة أردب، بحكم أن المشترى لعلوفة الوسية العادلية خمسون ألف أردب.

وفيها عثر على رجل اسمه عبد الأحد، من أولاد حسن ابن الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله، وأحضر إلى الملك العزيز بالقاهرة، فقيل له: «أنت تدعى أنك الخليفة؟» قال: «نعم». فقيل له: «أين كنت فى هذه المدة؟» فذكر أن أمه أخرجته من القصر فتاه، ووصل إلى طنبذة فاختفى بها، ثم خرج إلى مصر، فأواه رجل وشرع يتحدث له فى الخلافة، وأنه وقع بعدة بلاد وأقطع أناسا ممن بايعه، فسجن. وعثر على بعض أقارب الوزير شاور، وقد ثار بالقاهرة، فسجن هو وجماعته.

وفيها انعقد ارتفاع الديوان الخاص السلطانى على ثلاثمائة ألف وأربعة وخمسين ألف دينار وأربعمائة وأربعة وأربعين دينارا.

ومات فيها جمال الملك موسى بن المأمون البطائحى جامع السيرة المأمونية - وهو بقية بيته - فى سادس عشر جمادى الأولى بالقاهرة.

وفيها وقع الشروع فى حفر الخندق من باب الفتوح إلى المقس.

وكتب بنقل جماعة من أتباع الدولة الفاطمية المحبوسين فى الإيوان ودار المظفر ليلا،

بحيث لا يشعر بهم أحد، حتى يوصلهم المكلف بذلك إلى صرخد.

وفيها كتب بإخلاء مدينة تنيس، ونقل أهلها إلى دمياط، وقطع أشجار بساتين دمياط وإخراج النساء منها. فخلت تنيس إلا من المقاتلة، وحفر خندق دمياط[1] وعمل جسر عند سلسلة البرج بها.

وفيها كثرت الأراجيف بالقاهرة ومصر، وعظمت الشناعات، وارتفعت الأسعار.

وفيها ورد الخبر فى كتاب من اليمن بأن ثلاثة أنهار بالحبشة تغيرت بعدما كانت عذبة، فصار أحدها أجاجا، والآخر لبنا، والآخر دما.

وفيها مات قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان صاحب قونية، وقد تغلب عليه ابنه قطب الدين - صاحب سيواس وأقصرا - وزاد فى أن حجر عليه. وكان موته فى شعبان، فولى قونية بعده ابنه غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان، وبقيت أخوته على ولاياتهم من عهد أبيهم، فاختلفوا، وثار عليه أخوه ركن الدين سليمان صاحب ووقاط[2] وملك سيواس وأقصرا وقيسارية[3] وهى أعمال أخيه قطب الدين ثم ملك قونية من غياث الدين، ففر غياث الدين ونزل حلب.

* * *

---

(١) دمياط: سبق ترجمتها. انظر الروض المعطار ٢٥٧، ٢٥٨، والإدريسى ١٥٧، وابن الأثير ٣٢٠/١٢، ٣٣١، وابن خلكان ٨٠/٥، ٩٠، ٩١، ٢٥٨/٦، وخطط المقريزى ٢١٥/١ وما بعدها. ومعجم البلدان ٤٧٢/.

(٢) لعلها توقات وهى بلدة فى أرض الروم بين قونيا وسيواس ذات قلعة حصينة وأبنية مكينة. انظر معجم البلدان ٥٩/٢.

(٣) قيسارية: بالفتح ثم السكون، وسين مهملة، وبعد الألف راء ثم ياء مشددة: مدينة كبيرة عظيمة فى بلاد الروم وهى كرسة ملك بنى سلجوق ملوك الروم أولاد قلج أرسلان. انظر معجم البلدان ٤٢١/٤.



سنة تسع وثمانين وخمسمائة[1]

أهلت: والسلطان بدمشق، فخرج العادل إلى الكرك، وقدم من اليمن الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين[2] فى نصف صفر، فسربه السلطان.

فلما كانت ليلة السبت سادس عشره: نزل بالسلطان مرض، فأمر يوم السبت ولده الفضل أن يجلس على الطعام، فجلس فى موضع السلطان. وتزايد به المرض إلى اليوم الحادى عشر من مرضه، فحلف الأفضل الناس، واستمر السلطان فى تزايد من المرض إلى ليلة الأربعاء سابع عشرى صفر - وهى ليلة الثانى عشر من المرض - فاحتضر ومات بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء المذكور. فركب الأفضل، ودار فى الأسواق، وطيب قلوب العامة.

وكان رحمه الله كثير التواضع، قريبا من الناس، كثير الاحتمال، شديد المداراة، محبا للفقهاء وأهل الدين والخير محسنا إليهم، مائلا إلى الفضائل، يستحسن الشعر الجيد ويردده فى مجلسه. ومدحه كثير من الشعراء، وانتجعوه من البلدان. وكان شديد التمسك بالشريعة، سمع الحديث من أبى الحسن على بن إبراهيم بن المسلم بن بنت أبى سعد، وأبى محمد بن برى النحوى، وأبى الفتح محمود بن أحمد الصابونى، وأبى الطاهر السلفى، وابن عوف، وجماعة غيرهم. وكان كريما: أطلق من الخيل بمرج عكا لمن معه اثنى عشر ألف رأس، سوى أثمان الخيل التى أصيبت فى الجهاد. ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه ملازم فى طلبه، وتأخر عنه الأمير أيوب بن كنان فى بعض سفراته لدين لزمه، فتقبل لغرمائه باثنى عشر ألف دينار مصرية. وكان ورعا، رأى يوما العماد الكاتب يكتب من دواة محلاة بالفضة فأنكرها، وقال هذا حرام، فلم يعد يكتب منها عنده. وكان لا يصلى إلا فى جماعة، وله إمام راتب ملازم، وكان يصلى قبيل الصبح ركعات إذا استيقظ، وكان يسوى فى المحاكمة بين أكبر الناس وبين

---

(١) سنة ٥٨٩ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٤٧ - ٦/٥٧، ١١٩ - ٦/١٢١، الكامل ١٢/٩٥ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٥٢.

(٢) المعز فتح الدين أبو الفداء (٥٩٨هـ - ١٢٠٢م). إسماعيل بن طغتكين بن أيوب: سلطان اليمن . خرج فى زمان أبيه عن مذهب أهل السنة فى اليمن، واتبع مذهب الإسماعيلية، فطرده أبوه، فخرج من زبيد يريد بغداد فتوفى أبوه عقب خروجه فعاد قبل أن يبتعد، ودخل زبيدا فمكث يوما وخرج إلى تعز فأظهر فيها مذهبه، وقويت به الإسماعيلية. انظر تاريخ ثغر عدن، بلوغ المرام ٤١ . الأعلام ١/٣١٦.

خصمه. وكان شجاعا فى الحروب، يمر فى الصفوف وليس معه سوى صبى. وقرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين، وهو على ظهر فرسه، وكان ذاكرا لوقائع العرب وعجائب الدنيا، ومجلسه طاهر من المعايب، رحمه الله وغفر له.

ولما مات جلس الأفضل للعزاء، وكثر بكاء الناس عليه. وغسله الفقيه خطيب دمشق، وأخرج بعد صلاة الظهر، وصلى الناس عليه أرسالا، ودفن بداره التى مرض فيها بالقلعة، ثم نقل فى يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة إلى تربة بنيت له بجوار جامع بنى أمية. وكتب بوفاته إلى العزيز بمصر، وإلى العادل بالكرك. وكان عمره يوم مات نحوا من سبع وخمسين سنة، منها مدة ملكه بعد موت العاضد اثنتان وعشرون سنة وأيام. وترك من الأولاد سبعة عشر ذكرا وبنتا واحدة صغيرة، ولم يخلف فى خزائنه سوى سبعة وأربعين درهما، ولم يترك دارا ولا عقارا. وكان القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى صاحب سره، وبمنزلة الوزير منه.

وفيها قتل طغرل بن أرسلان بن طغرل بن السلطان محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان بن جغرى بك داود بن ميكائيل بن سلجوق فى رابع عشرى شهر ربيع الأول، وهو آخر من ملك بلاد العجم من السلاطين السلجوقية، وابتداء دولتهم فى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وأولهم طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق، فتكون مدة دولتهم مائة سنة وثمانيا وخمسين سنة.

* * *

السلطان الملك العزيز عماد الدين

أبو الفتح عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد بالقاهرة فى ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة. ومات أبوه بدمشق وهو على سلطنة ديار مصر مقيم بالقاهرة، وعنده جل العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد. فلما بلغه موت أبيه جلس للعزاء وأخذ بالحزم، وقرر أمور دولته، وخلع على الأمراء وأرباب الدولة بعد انقضاء العزاء. فقام أخوه الأفضل نور الدين على بدمشق، وكتب إلى الخليفة الناصر يطالعه بوفاة أبيه، من إنشاء العماد الكاتب. وبعث بذلك مع القاضى ضياء الدين أبى الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزورى، ومعه عدد والده وملابسه وخيله، وهدية نفيسة. وسار العادل من الكرك إلى بلاد المشرق، فأقام بقلعة جعبر[1] وبعث نوابه إلى حران والرها، واستوزر الأفضل الوزير

---

(١) قلعة جعبر: على الفرات مقابل صفين التى كانت فيها الوقعة بين معاوية وأمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنهما. انظر معجم البلدان ٤/٣٩٠.

ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير، وفوض إليه أموره كلها، فحسن له إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه، وأن يستجد أمراء غيرهم، ففارقه جماعة منهم الأمير فخر الدين جهاركس، وفارس الدين ميمون القصرى، وشمس الدين سنقر الكبير، وكانوا عظماء الدولة، فصاروا إلى الملك العزيز بالقاهرة فأكرمهم، وولى فخر الدين أستاداره، وفوض إليه أمره، وجعل فارس الدين وشمس الدين على صيداء وأعمالها، وكان ذلك لهما، وزادهما نابلس وبلادها، وسار القاضى الفاضل أيضا من دمشق ولحق بالقاهرة، فخرج العزيز إلى لقائه وأجل قدومه وأكرمه، فشرع القوم فى تقرير قواعد ملك العزيز والأفضل فى شغل عنهم، وكانت مدينة القدس مضافة للأفضل، فكتب إلى أخيه العزيز يرغب عنها له. وكان ذلك من تدبير وزيره ابن الأثير، لأنها كانت تحتاج حينئذ إلى أموال ورجال لمدافعة الفرنج، فسر العزيز بذلك، وجهز عشرة آلاف دينار إلى عز الدين جرديك النورى متولى القدس، لينفقها فى عسكر القدس، فخطب له به. وخشى العزيز من نقض الهدنة بينه وبين الفرنج، فبعث عسكرا إلى القدس احترازا من الفرنج. ثم بدا للأفضل أن يعود فيما رغب عنه لأخيه من القدس، ورجع عن ذلك، فتغير العزيز من هذا، وأخذ الأمراء فى الإغراء بينهما، وحسنوا للعزيز الاستبداد بالملك والقيام مقام أبيه، فبلغ ذلك الأفضل.

* * *



سنة تسعين وخمسمائة

ودخلت سنة تسعين: وقد تنافرت القلوب، وقويت الوحشة بين الأخوين، واجتمعت الأمراء الصلاحية على أن يكون الأمر كله للعزيز، فاضطربت أحوال الأفضل. وخرج العزيز من القاهرة بعساكر مصر، من الصلاحية والأسدية والأكراد وغيرهم، يريد الشام وانتزاعها من أخيه الأفضل، من أجل أمور منها أن جبيل - وهو من جملة الفتوح الصلاحية - كان مع رجل كردى فقيه أقامه صلاح الدين مستحفظا بها، فأرغبه الفرنج بمال حتى سلمه لهم. وخرج الأفضل من دمشق ليستنقذه من الفرنج، فتعذر عليه، وظهر العجز عن استخلاصه، فامتعض الأمراء لذلك، وخوفوا العزيز من عاقبة أمر الفرنج، فسار فى صفر واستخلف أخاه الملك المؤيد نجم الدين مسعود، وترك بالقاهرة بهاء الدين قراقوش الأسدى وصيرم وسيف الدين يازكج وخطلج فى تسعمائة فارس. واتفق أن الأمير صارم الدين قايماز النجمى - أحد أكابر الأمراء الصلاحية - استوحش من الأفضل لإعراضه عنه، فخرج من دمشق يريد إقطاعه، ولحق بالعزيز فأكرمه ورفع محله. وهم الأفضل بمراسلة أخيه العزيز واستعطافه، فمنعه من ذلك وزيره ابن الأثير وعدة من أصحابه، وحسنوا له محاربته، فمال إليهم. وبعث إلى عمه العادل وهو بالشرق، وإلى أخيه الظاهر بحلب، وإلى المنصور بحماة، وإلى الأمجد صاحب بعلبك وإلى المجاهد شيركوه صاحب حمص، يستنجدهم على أخيه العزيز. فوردت رسلهم فى جمادى الآخرة، يعدون بالقدوم عليه. ثم إنه برز من دمشق، ونزل برأس الماء. فلما وصل العزيز إلى القصير[1] من الغور ضاق الأفضل، ورجع من الفوار إلى رأس الماء، فأدركت مقدمة العزيز ساقته، وكادوا يكبسونه فانهزم إلى دمشق، ودخلها لخمس مضين منه. ونزل العزيز فى غده على دمشق فى قوة قوية، ونازل البلد. وكان الأفضل قد استعد لقتاله، فقدم العادل والظاهر والمنصور والمجاهد والأمجد إلى دمشق. وبعث العادل إلى ابن أخيه الملك العزيز يشفع فى الأفضل، ويستأذنه فى الاجتماع به، فأذن له. وخرج العادل فاجتمع بالعزيز - وكل منهما راكب - وتحدث معه فى الصلح، وأن ينفس الخناق عن البلد، وكان قد اشتد الحصار، وقطعت الأنهار، ونهبت الثمار، والوقت زمن المشمش. فوافق العزيز عمه، وتأخر إلى

(١) القصير: بلفظ تصغير قصر، فى عدة مواضع، منها: قصير معين الدين بالغور من أعمال الأردن يكثر فيه قصب السكر. انظر معجم البلدان ٤/٣٦٧.

داريا [1] ونزل على العوج، وسير الأمير فخر الدين جهاركس الأستادار - وهو يومئذ أجل الصلاحية - إلى العادل، فقرر الصلح على شروط، وعاد إلى العزيز. فرحل ونزل مرج الصفر فحدث له مرض شديد، وأرجف بموته، ثم أبل منه. وأمر بعمل نسخة اليمين، وهى جامعة لمقترحات جميع الملوك، وحسم مواد الخلاف، وأن الملك الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه، والملك المجاهد شيركوه، يكونان مؤازرين للملك الأفضل وتابعين له، وأن الملك المنصور صاحب حماة يكون فى حيز الملك الظاهر صاحب حلب ومؤزرا له. وبعث كل من الملوك أميرا من أمرائه ليحضر الحلف، فاجتمعوا يوم السبت ثانى عشر شهر رجب، وجرت أمور آلت إلى الحلف على دخن. وتزوج العزيز بابنة عمه العادل، وقبل العقد عنه القاضى المرتضى محمد بن القاضى الجليس عبد العزيز السعدى. ووكل العادل القاضى محيى الدين محمد بن شرف الدين ابن عصرون فى تزويج ابنته من ابن عمها الملك العزيز، وعقد بينهما قاضى القضاة محيى الدين. وكتب العماد الكاتب الكتاب فى ثوب أطلس، وقرئ بين يدى الملك الظاهر، وعقد العقد عنده.

فلما كان يوم الجمعة أول شعبان: خرج الملك الظاهر غازى صاحب حلب لوداع أخيه، فركب العزيز إلى لقائه وأنزله معه، وأكلا ثم تفرقا، بعد ما أهدى كل منهما لأخيه هدية سنية. ثم خرج العادل لوداع العزيز فى خواصه، ثم خرج الأفضل فودعه أيضا، وهو آخر من ودعه. ورحل العزيز من مرج الصفر فى ثالث شعبان يريد مصر، فلما كان ثالث عشره عمل الأفضل دعوة عظيمة لعمه وبقية الملوك ووادعهم، ثم رحلوا من الغد إلى بلادهم إلا العادل، فإنه أقام إلى تاسع شهر رمضان، ثم رحل إلى بلاده بالشرق.

وقدم العزيز إلى القاهرة فى يوم [......] [2] وأما الأفضل فإنه هم بمكاتبة العزيز بما يؤكد أسباب الصلح، فأماله عن ذلك خواصه، وأغروه بأخيه، ورموا جماعة من أمرائه بأنهم يكاتبون العزيز، فاستوحش منهم، وفطنوا بذلك فتفرقوا عنه. وسار الأمير عز الدين أسامة صاحب كوكب وعجلون عن الأفضل، ولحق بالعزيز فأكرمه غاية الإكرام، وأخذ يحرضه على الفضل، ويحثه على المسير إلى دمشق وانتزاعها منه، ويقول له: «إن الأفضل قد غلب على اختياره، وحكم عليه وزيره الضياء ابن الأثير الجزرى، وقد افسد أحوال دولته برأيه الفاسد، ويحمل أخاك على مقاطعتك، ويحسن له نقض اليمين، فإن

---

(١) داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة .انظر معجم البلدان ٢/٤٣١.
(٢) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

من شرطها صفو الوداد وصحة النية، و لم يوجد ذلك، فحنثهم فى اليمين قد تحقق، وبرئت أنت من العهدة، فاقصد البلاد فإنها فى يدك، قبل أن يحصل فى الدولة من الفساد ما لا يمكن تلافيه»، وبينا هو فى ذلك إذ فارق الأفضل الأمير شمس الدين أيدمر ابن السلار، وصل إلى العزيز، فساعد الأمير أسامة على قصده، ثم وصل أيضا إلى العزيز القاضى محيى الدين أبو حامد محمد بن الشيخ شرف الدين عبد الله بن هبة الله بن أبى عصرون، فاحترمه وولاه قضاء الديار المصرية، وضم إليه نظر الأوقاف.

وأقبل الأفضل بدمشق على اللعب ليله ونهاره، وتظاهر بلذاته، وفوض الأمور إلى وزيره، ثم ترك اللعب من غير سبب، وتاب وأزال المنكرات وأراق الخمور، وأقبل على العبادة، ولبس الخشن من الثياب، وشرع فى نسخ مصحف بخطه، واتخذ لنفسه مسجدا يخلو فيه بعبادة ربه، وواظب على الصيام، وجالس الفقراء، وبالغ فى التقشف، حتى صار يصوم النهار ويقوم الليل.

وأما العزيز فإنه قطع خبز الفقيه الكمال الكردى من مصر، فأفسد جماعة على السلطان، وخرج إلى العرب فجمع ونهب الإسكندرية، فسار إليه العسكر فلم يظفروا به. وقطع العزيز أيضا خبز الجناح وعلكان ومجد الدين الفقيه وعز الدين صهر الفقيه، فساروا من القاهرة إلى دمشق، فأقطعهم الملك الأفضل الإقطاعات.

وفى شهر رمضان: كسر بحر أبى المنجا بعد عيد الصليب بسبعة أيام، وتجاهر الناس فيه بالمنكرات من غير نكر عليهم.

وفيه وقعت الآفة فى البقر والجمال والحمير، فهلك منها كثير.

وفيه كثر حمل الغلة من البحيرة إلى بلاد المغرب، لشدة الغلاء بها، وكثرت بين الأمراء إشاعة أن إقطاعاتهم تؤخذ منهم، فقصروا فى عمارة البلاد. وارتفع السعر بالإسكندرية، ونقص ماء النيل بعدما بلغ اثنين وعشرين إصبعا من سبعة عشر ذراعا، فرفعت الأسعار، وشرقت البلاد، وبلغ القمح كل أردب بدينار، وأخذ فى الزيادة وتعذر وجود الخبز، وضج الناس، وكثرت المنكرات، وغلا سعر العنب لكثرة من يعصره. وأقيمت طاحون لطحن الحشيش بالمحمودية، وحميت بيوت المزر، وجعل عليها ضرائب، فمنها ما كان عليه فى اليوم ستة عشر دينارا، ومنع من عمل المزر البيوتى، وتجاهر الكافة بكل قبيح، فترقب أهل المعرفة حلول البلاء.

وفيها قدم رسول متملك القسطنطينية يطلب صليب الصلبوت، فأحضر من القدس،

وكان مرصعا بالجوهر، وسلم إليه على أن يعاد ثغر جبيل من الفرنج. وتوجه الأمير شمس الدين جعفر بن شمس الخلافة بذلك.

* * *

تتمة سنة تسعين وخمسمائة[1]

في يوم الخميس رابع محرم: عقد مجلس بحضرة السلطان، حضره أصحاب الدواوين.

وفي عاشره: قدم الأمير حسام الدين ببشارة من عند الملك العادل وبقية الأولاد الناصرية، فتلقاه السلطان والأمراء، وحمل إليه سماط السلطنة، فطلب الموافقة بين الأهل.

وفي سادس عشره: ركب السلطان للصيد بالجيزة، ومر بباب زويلة، فأنكر بروز مصاطب الحوانيت في الأسواق، ورسم بهدمها، فهدمت بمباشرة محتسب القاهرة. ومر بصناعة العمائر، فرسم بسد طاقات الدور المجاورة للنيل فسدت.

وفي صفر: غيرت ولاة الأعمال.

وفي عاشره: حلف العزيز لعمه العادل.

وفي ثالث عشريه: عاد العزيز من الصيد بالجيزة.

وفي هذا الشهر: غلت الأسعار، فبلغ كل مائة أردب ثمانين دينارا.

وفي خامس عشره: قدم فارس الدين ميمون القصري مقطع صيداء، وسيف الدين سنقر المشطوب، وشمس الدين سنقر الكبير مقطع الشقيف، مفارقين الملك الأفضل، فدفع العزيز لميمون خمسمائة دينار، ولسنقر أربعمائة دينار، وللمشطوب ثلاثمائة دينار .

وفي ربيع الأول: اشتد الأمر في الزحام على الخبز لقلته في الأسواق، ووقع الحريق في عدة مواضع بالقاهرة.

وفي عاشره: أخرجت خيمة السلطان للسفر.

وفي ثالث عشره: انحل السعر قليلا، ووجد الخبز في الأسواق .

وفي نصفه: ورد كتاب علم الدين قيصر بأنه تسلم القدس من جرديك في تاسعه، وتسلم صليب الصلبوت، وقرر أيضا إعادة جبيل من الفرنج.

---

(١) سنة ٥٩٠ هـ .انظر أحداث تلك السنة في النجوم الزاهرة ١٢١ - ٦/١٢٣ الكامل ١٢/١٠ وما بعدها، تاريخ ابن الوردي ٢/١٥٦ وما بعدها

وفى سادس عشره: قدم بدر الدين لولو[1] بكتاب الأفضل بخبر جبيل، وسبب قدوم ميمون ورفيقيه.

وفيه نزع السعر، وبلغ كل مائه أردب إلى مائة وخمسة وسبعين دينارا، وعظم ضجيج الناس من الجوع.

وفى سابع عشريه: وصل صليب الصلبوت من القدس، وهو خشبة مرصعة بجواهر فى ذهب .

وفى ثامن عشريه: ولى زين الدين على بن يوسف الدمشقى قضاء القضاة بديار مصر، عوضا عن صدر الدين بن درباس، بعناية جماعة من المماليك به، وخلع عليه.

وفى سلخه: قدم رسول الملك العادل.

وفى تاسع ربيع الآخر: هدم المحتسب حوانيت وإصطبلا كان صدر الدين بن درباس أنشاها فى زيادة الجامع الأزهر بجوار داره، ورفع صدر الدين نقض ذلك إلى داره.

وقوى عزم السلطان على السفر، وبعث بهرام يقترض له مالا من تجار الإسكندرية، وطلب من قاضى القضاة زين الدين أن يقرضه مال الأيتام، وكان يبلغ أربعة عشر ألف دينار، فحملت إلى الخزانة. وكتب السلطان خطه بذلك وأشهد عليه، وأحال به على بيت المال، وقرر استخراجه منه وأمر بحمله إلى القاضى. هذا وقد تأخر القرض الذى كان السلطان صلاح الدين أُقرضه فى نوبة عكا، وهو ثلاثون ألف دينار، فلم يوف منه إلا يسيرا.

وفى سادس عشره: توجه جعفر بن شمس الخلافة إلى الفرنج لإعادة جبيل.

وفى يوم الخميس تاسع عشره: خرج السلطان إلى مخيمه ببركة الجب، واستناب فى غيبته بهاء الدين قراقوش، ومعه ثلاثة عشر أميرا، ونحو سبعمائة فارس. وتوجه مع السلطان سبعة وعشرون أميرا، فى ألفى فارس وألف من الحلقة.

---

(١) لولو الأتابك (الملك الرحيم بدر الدين لولو). الملك الرحيم (٥٧٠ - ٦٥٧ هـ - ١١٧٤ - ١٢٥٩م). لولو بن عبد الله الأتابكى، أبو الفضائل. بدر الدين، الملقب بالملك الرحيم: صاحب الموصل. طالت أيامه بها، وكان من أحل الملوك ومن أعلاهم همة، وأسهرهم على رعاياه. قال ابن تغرى بردى: « ما أحوج الناس إلى ملك مثله، يملك الدنيا بأسرها!».وتوفى بالموصل. النحوم الزاهرة ٧: ٧. انظر الأعلام ١١/٥.

وفى ثالث جمادى الأولى: استقل السلطان بالمسير، ونزل على دمشق فى تاسع جمادى الآخرة، ورحل عنها فى ثامن عشريه بشفاعة عمه الملك العادل.

وفى تاسع رجب: دخل الأفضل دمشق، بعد أن تقرر الصلح بينه وبين أخيه الملك العزيز فى سادسه.

وفى رابع شعبان: دقت البشائر بالقاهرة، فرحا بالصلح بين الأولاد الناصرية، وزينت الأسواق.

وفيه انحط السعر.

وقدم السلطان الملك العزيز إلى القاهرة سلخ شعبان.

وفى سابع رمضان: وصل الملك المعظم توران شاه وإخوته وعيالهم من دمشق، والديوان فى ضائقة شديدة، فعجزوا عن إقامة وظائفهم ومطابخهم وجراياتهم، فنزلوا فى الدار العزيزية. ونزعت الأسعار فى المأكولات كلها.

وفى تاسع عشره: وصل عز الدين أسامة مفارقا للأفضل.

* * *

سنة إحدى وتسعين وخمسمائة[1]

ودخلت سنة إحدى وتسعين، والعزيز على عزم المسير إلى الشام، فاستشار الأفضل أصحابه ، فمنهم من أشار عليه بمكاتبة العزيز واسترضائه، وأشار الوزير ابن الأثير عليه بالاعتصار بعمه العادل، واستنجاده على العزيز، فأصغى إليه، وكثرت الإشاعة بقصد العزيز إقامة الخطبة فى دمشق باسمه، وضرب السكة له. فانزعج الأفضل، وخرج من دمشق فى رابع عشر جمادى الأولى، وسار جريدة إلى عمه العادل، فلقيه بصفين[2]، فلما نزلا ألحف الأفضل في المسألة له أن ينزل عنده بدمشق، ليجيره من أخيه العزيز، فأجابه وأنزله بقلعة جعبر[3]، ثم سار معه إلى دمشق أول جمادى الآخرة، فوصل إليها فى تاسعه، ودخل الأفضل إلى حلب على البرية، مستصرخا بأخيه الملك الظاهر، فتلقاه وحلف له على مساعدته، ثم رحل عنه إلى حماة، فتلقاه ابن عمه الملك المنصور محمد ابن المظفر، وحلف له، ثم سار عنه إلى دمشق، فدخلها فى ثالث عشره وبها العادل،

---

(١) سنة ٥٩١ هـ . انظر حداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٢٣ - ٦/١٢ الكامل ١٢/١١ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٥٨.

(٢) صفين: موضع بالعراق معروف على الفرات، ويقال فيه صفون أيضًا.فهو يقال صفين فى حال الرفع والنصب والجر، ومنهم من يقول صفون فى الرفع، والغالب على صفين التأنيث. وقيل لأبى وائل شقيق بن سلمة: «أشهدت صفين؟ قال: نعم، وبئست صفون»، وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني:

كما بلغت أيام صفين نفسه تراقيه والشامتى شهود

وهى صحراء ذات كدى وأكمات، وبها كانت الوقيعة العظيمة بين على ومعاوية رضى الله عنهما، وأهل العراق وأهل الشام، والتى جاء فيها الحديث المتفق على صحته: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة»، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين، وقيل فى ربيع الآخر، وأقام على ومعاوية رضى الله عنهما بصفين سبعة أشهر، وكان أهل الشام خمسة وثلاثين ألفًا ومائة ألف، وكان أهل العراق عشرين أو ثلاثين ألفًا ومائة ألف. قال الإمام عبد القاهر فى كتاب «الإمامة» من تأليفه: أجمع فقهاء الحجاز والعراق من فريقى أهل الحديث والرأى، منهم مالك والشافعى وأبو حنيفة والأوزاعى والجمهور الأعظم من المتكلمين أن عليًا رضى الله عنه مصيب فى قتاله لأهل صفين، كما قالوا بإصابته فى قتاله لأهل الجمل، وقالوا أيضًا: إن الذين قاتلوه بغاة ظالمون له، ولكن لا يجوز تكفيرهم ببغيهم. قال إمام الحرمين: كان على رضى الله عنه إمامًا حقا ومقاتلوه بغاة وحسن الظن بهم يقتضى أن يظن بهم قصد الخير وإن أخطأوه. انظر: الروض المعطار ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ومعجم ما استعجم ٣/٨٣٧.

(٣) قلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين .

فأفضى إليه بأسراره. وعلم العادل اختلال أحوال الأفضل، وسوء تدبيره وقبيح سيرته، فانحرف عنه ونهاه فلم ينته إلا أنه مبالغ فى كرامة عمه، حتى أنه ترك له السنجق. وصار العادل يركب بالسنجق السلطانى فى كل يوم، ويركب الأفضل فى خدمته.

فما هو إلا أن استقر ذلك إذ حدث بين الظاهر صاحب حلب وبين أخيه الأفضل وعمه العادل وحشة، من أجل ميل الملك المنصور صاحب حماة إلى العادل. فسير الظاهر إلى أخيه العزيز يحرضه على قصد الشام، ووعده بالمساعدة له على الأفضل، فوافق ذلك غرضه، وخرج من القاهرة بعساكره فى [....](١).

فلما قارب العزيز دمشق كاتب الملك العادل الأمراء سرا واستمالهم، وكان الأمراء الصلاحية قد وقع بينهم وبين الأمراء الأسدية تنافس، لتقديم العزيز الصلاحية على الأسدية. فعملت حيل العادل حتى وقعت الوحشة بين الطائفتين، ونفرت الأسدية من الملك العزيز. وكاتب العادل العزيز سرا يخوفه من الأسدية، ويحثه على إبعادهم عنه، وكاتب الأسدية، يخوفهم من العزيز ويستميلهم إليه. فحاق ما مكره وتم له ما دبره، وعزموا على مفارقة العزيز، وحسنوا للأكراد والمهرانية موافقتهم، فانقادوا إليهم. وكان مقدم أمراء الأكراد الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين، فاجتمع بالأكراد مع الأسدية، واتفقوا بأجمعهم على مفارقة العزيز والانضمام إلى العادل والأفضل، ومضايقة العزيز وعقدوا النية على مكاتبة من بقى منهم بمصر، أن يستقبلوا العزيز ويحولوا بينه وبين القاهرة، فيصير بذلك بين الفريقين، ويؤخذ باليد.

فلما كان فى عشية الرابع من شوال: رحل الأمير أبو الهيجاء بالأكراد والمهرانية والأسدية، وهم لابسون لامة الحرب، ولحقوا بالعادل فسر بهم، لأنهم معظم الجيش. فلما أصبح نهار الخامس من شوال رحل العزيز يريد مصر، وهو متخوف من الأسدية المقيمين بالقاهرة. وكان نائبه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى، فلم يتغير على العزيز، ووصل إلى القاهرة فى [......](٢) فاستقر بها. ثم إن العادل خرج بالأفضل من دمشق، ومعه العساكر يريد أخذ القاهرة، لما داخله من الطمع فى العزيز، واتفق مع الأفضل على أن يكون للعادل ثلث البلاد المصرية، ويكون ثلثاها للأفضل. فأجابه إلى ذلك ورحلا من دمشق، وخرج معهم أيضا المنصور صاحب حماة، وعز الدين بن

---

(١) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

(٢) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

المقدم[1] وسابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر واستخلف الأفضل بدمشق أخاه الملك الظافر خضر صاحب بصرى وانضم إليهم عز الدين جرديك النورى نائب القدس، فلما وصلوا تل العجول، أخلع الأفضل على جميع الأسدية، وعلى الأكراد الأفضلية، وأعطاهم الكوسات. وسار الأفضل إلى القدس، وتسلمه من جرديك، وأعطاه بيسان وكوكب والجولان[2] والمنيحة[3] ثم سار العسكر حتى نزل على بلبيس، وبها جموع الصلاحية والعزيزية، ومقدمهم فخر الدين جهاركس على الصلاحية، والأمير هكدرى بن يعلى الحميدى على طائفة الأكراد، فنازلهم العادل والأفضل .

وكانت أيام زيادة ماء النيل، والأسعار غالية والعلف متعذر، فبلغ العسكر الواصل الجهد، وندم أكابرهم على ما كان منهم، هذا والعزيز يمد أهل بلبيس بالمراكب المشحونة بالرجال والعدد، فبلغ ذلك الأسدية، فركبوا إلى المراكب، وأخذوا بعضها وغرقوا بعضها، وأسروا خلقا، وسلم ثمانية مراكب عادت إلى القاهرة، واشتد الحصار على بلبيس حتى كادت تؤخذ، وضاق العزيز بالقاهرة، وقلت الأموال عنده، وكان محببا إلى الرعية، لما فيه من حسن السيرة، وكثرة الكرم والرفق، فلما نازل العادل والأفضل بلبيس احتاج إلى استخدام الرجال، فلم يجد عنده مالا، فبذل له الأغنياء جملة أموال، فلم يقبلها، وكان القاضى قد تنزه عن ملابسة الدولة ومخالطة أهلها، واعتزل لما رأى من اختلال الأحوال، وكان عبد الكريم بن على البيسانى يتولى الحكم والإشراف فى البحيرة مدة طويلة، فحصل من ذلك مالا جما. ثم حدثت بينه وبين أخيه القاضى الفاضل مشاجرة اقتضت اتضاع حاله عند الناس بعد احترامهم إياه، فصرف عن عمله. وكان متزوجا بامرأة موسرة من بنى ميسر، فسكن بها فى ثغر الإسكندرية، وأساء عشرتها، لسوء خلق كان فيه، فسار أبوها إلى الإسكندرية، وأثبت عند قاضيها ضرر ابنته، فمضى القاضى بنفسه إلى الدار، فلم يقدر على فتح الباب الذى من داخله المرأة،

---

(١) ابن المقدم (٥٨٣ هـ - ١١٨٨م). محمد بن عبد الملك ، المعروف بابن المقدم، الأمير شمس الدين: قائد من الولاة المقدمين فى العهدين النورى والصلاحى، تمرس على القيادة فى أيام أبيه المقدم مستحفظ سنجار فى أيام نور الدين الشهيد. واستخلفه أبوه على قلعتها قبل أن يدخلها نور الدين سنة ٥٤٤ هـ ثم كان شمس الدين بن المقدم من قادة الجيش النوى . انظر ابن الأثير ٢١٢/١١، كتاب الروضتين ١٢٣/٢ . الأعلام ٦/٢٤٩.

(٢) الجولان بالفتح ثم السكون : قرية وقيل جبل من نواحى دمشق ثم من عمل حوران، قال ابن دريد: يقال للجبل حار الجولان. انظر معجم البلدان ٢/١٨٨.

(٣) منيحة: بالفتح ثم الكسر ثم ياء، وحاء مهملة، واحدة المنايح، وهو كالهبة والعطية، والمنيحة: من قرى دمشق بالغوطة. انظر معجم البلدان ٥/٢١٧.

فأمر بنقب الدار، وأخرج المرأة وسلمها لأبيها وأعاد بناء النقب، فغضب عبد الكريم وسار إلى القاهرة، وبذل للأمير فخر الدين جهاركس خمسة آلاف دينار مصرية، ووعد خزانة الملك العزيز بأربعين ألف دينار على ولاية قضاء الإسكندرية، وحمل ذلك بأجمعه إلى فخر الدين جهاركس. فأحضره جهاركس إلى العزيز، وهو حينئذ فى غاية الضرورة إلى المال، وقال: «هذه خزانة مال قد أتيتك بها من غير طلب ولا تعب»، وعرفه الخبر. فأطرق العزيز مليا، ثم رفع رأسه وقال: «أعد المال إلى صاحبه، وقل له إياك والعود إلى مثلها، فما كل ملك يكون عادلا، وعرفه أنى إذا قبلت هذا منه أكون قد بعت به أهل الإسكندرية، وهذا لا أفعله أبدا». فلما سمع هذا جهاركس وجم، وظهر فى وجهه التغير. فقال له العزيز: «أراك واجما، أظنك أخذت على الوساطة شيئا». قال: «نعم خمسة آلاف دينار». فأطرق العزيز، ثم قال: «أعطاك مالا تنتفع به، وأنا أعطيك فى قبالته ما تنتفع به مرات عديدة»، ثم وقع له بخطه إطلاق جهة طنبدة، ومغلها فى السنة سبعة آلاف دينار، فلامه أصحابه وألحوا عليه فى الاقتراض من القاضى الفاضل، فاستدعاه إلى مجلسه، بمنظرة من دار الوزارة كانت تشرف على الطريق، فعندما عاين القاضى الفاضل استحيا منه، ومضى إلى دار الحرم، احتراما له من مخاطبته فى القرض، فلم يزل الأمراء به حتى أخرجوه من عند الحرم. فلما اجتمع بالفاضل قال له، بعد أن أطنب فى الثناء عليه: «قد علمت أن الأمور قد ضاقت على، وقلت الأموال عندى، وليس لى إلا حسن نظرك، وإصلاح الأمر إما بمالك أو برأيك أو بنفسك». فقال القاضى الفاضل: «جميع ما أنا فيه من نعمتكم، ونحن نقدم أولا الرأى والحيلة، ومتى احتيج إلى المال فهو فى يديك».

واتفق أن العادل – لما اشتد على أصحابه الغلاء والضيق – استدعى القاضى الفاضل برسول قدم منه على العزيز، فسيره إليه. وقد قيل إن العزيز لما جرى على المراكب التى جهزها إلى بلبيس ما جرى، خاف على الملك أن يخرج من يده، فسير إلى عمه فى السر يعرفه أنه قد أخطأ، وأنه قد عزم على اللحاق ببلاد المغرب، ويسأله الاحتفاظ بحرمه وأولاده. فرق له العادل، واستدعى القاضى الفاضل، فلما قرب منه ركب إلى لقائه وأكرمه، ومازالا حتى تقرر الأمر على أن الأسدية والأكراد يرجعون إلى خدمة العزيز، من غير أن يؤاخذهم بشىء، ويرد عليهم إقطاعاتهم، ويحلف العزيز لهم ويحلفون له، وأن يكون العادل مقيما بمصر عند العزيز، ليقرر قواعد ملكه، وأن العزيز والأفضل يصطلحان، ويستقر كل منهما على ما بيده. فعاد القاضى الفاضل، وقد تقرر الأمر على ما ذكر، وحلف كل منهم لصاحبه على الوفاء.

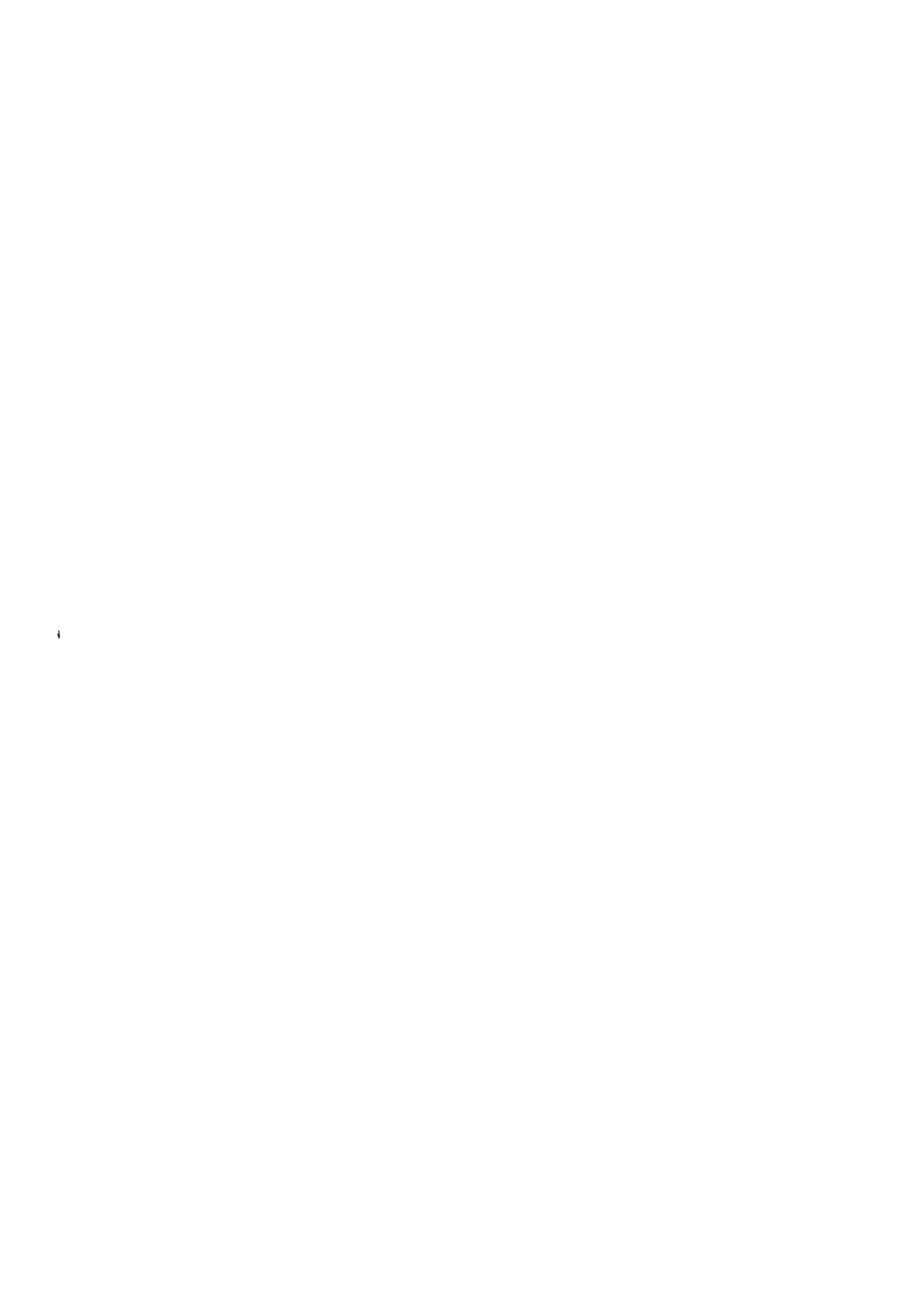
وخرج العزيز من القاهرة إلى بلبيس، فالتقاه عمه العادل وأخوه الأفضل، ووقع الصلح التام فى الظاهر. ورحل الأفضل يريد الشام، ومعه الأمير أبو الهيجاء السمين، وصار الساحل جميعه مع الأفضل، وعاد العزيز إلى القاهرة، وصحبته عمه العادل، فأنزله فى القصر من القاهرة. وأخذ العادل فى إصلاح أمور مصر، والنظر فى ضياعها ورباعها، وأظهر من محبة العزيز شيئا زائدا، وصار إليه الأمر والنهى والحكم والتصرف فى سائر أمور الدولة، جليلها وحقيرها، وصرف القاضى محيى الدين محمد بن أبى عصرون عن قضاء مصر، وولى زين الدين أبو الحسن على بن يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقى.

وفيها جدد العزيز الصلح بينه وبين الفرنج.

وفيها ورد كتاب ملك الروم، يتضمن أن كلمة الروم اجتمعت عليه، وأنه أحسن إلى المسلمين وأمرهم بإقامة الجامع، فأقيمت الصلاة فيه يوم الجمعة الصلاة مع الخطبة، وأنه عمر جانبا منه كان انهدم من ماله، فتمكن من فى القسطنطينية من المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة بها. والتمس ملك الروم الوصية بالبطرك والنصارى، وأن يمكنوا من إخراج موتاهم بالشمع الموقد، وإظهار شعائرهم بكنائسهم، وأن يفرج عن أسارى الروم بمصر.

وفيها عزل زين الدين على بن يوسف بن بندار عن القضاء، فى حادى عشر جمادى الأولى، بمحيى الدين أبى حامد محمد بن عبد الله بن هبة الله بن عصرون.

* * *



سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة[1]

وأهلت سنة اثنتين وتسعين:

ففى أولها: وصل الملك الأفضل إلى دمشق، وتفرقت العساكر إلى بلادها، ولزم الأفضل الزهد، وأقبل على العبادة، وصارت أمور الدولة بأسرها مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير، فاختلت به الأحوال غاية الاختلال، وكثر شاكوه. وضبط العادل أمور مملكة مصر، وغير الإقطاعات، ووفر الارتفاعات وعمال الأعمال، وثمر الأموال، وقرب إلى العزيز الأمير عز الدين أسامة، فصار صاحب سره وحاجبه، والواسطة بينه وبين عمه. واختص الأمير صارم الدين قايماز النجمى بالعادل، وصار صفوته.

وفى يوم السبت ثانى عشر المحرم: رفعت يد ابن أبى عصرون وأيدى نوابه من الحكم، وأمر أن يعتزل فى بيته، وأن يخرج عن مصر، فأغلق بابه، وشرع فى تجهيز نفسه، وتوسل فى إقامته.

وفى سابع عشريه: خلع على زين الدين على بن يوسف بن بندار وأعيد إلى القضاء، عوضا عن ابن أبى عصرون.

وفى أول صفر: حبس الملك العزيز ناحية الخربة[2] من المنوفية على زاوية الإمام الشافعى بالجامع العتيق بمصر، وفوض تدريسها إلى البهاء بن الجميزى.

وفى صفر وشهر ربيع الأول: كثرت الطرحى من الأموات على الطرقات، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة فى كل يوم عن مائتى نفس، وبقى بمصر من لم يوجد من يكفنه، وأكثرهم يموت جوعا.

وانتهى القمح إلى مائة وثمانين دينارا المائة أردب، والخبز إلى ثلاثة أرطال بدرهم، وعمد الضعفاء إلى شراء الجرار، وغدوا إلى البحر وترددوا إليه، ليستقوا منه فى الجرار، ويبيعوها بثمن درهم الجرة، وقد لا يجدون من يشتريها منهم، فيصيحون: «من يتصدق علينا بثمن هذه الجرة، ومن يشتريها منا بكسرة؟». وزاد السعر، وضاق الخناق، وهلك

---

(١) سنة ٥٩٢ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٢٥ - ٦/١٢٧، الكامل ١٢/١٢١ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٥٩.

(٢) الخربة: بالتحريك وخربة أرض به معدن يقال له معدن خربة.انظر معجم البلدان ٢/٥٧٠.

الضعفاء، وفشا الموت، وأكثره فى الجياع. وصارت الأقفاص التى يحمل فيها الطعام يحمل فيها الأموات، ولا يقدر على النعوش إلا بالنوبة، وامتدت الأيدى إلى خطف ألواح الخبز - ويضرب من ينهب، ويشج رأسه، ويسال دمه، ولا ينتهى ولا يرمى ما فى يده مما خطفه، وعدم القمح إلا من جهة الشريف ابن ثعلب، فإن مراكبه تتواصل وتبيع بشونه.

وورد الخبر فى تاسع صفر بأن تابوت الملك الناصر صلاح الدين نقل فى يوم عاشوراء، من قلعة دمشق إلى تربة عملت له، فكان يوما مشهودا.

وفى تاسع عشريه: قدم الملك الزاهر داود مجير الدين صاحب البيرة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وبهاء الدين بن شداد قاضى حلب، فخرج العادل لتلقيهم ببركة الجب، وقدم العماد الكاتب أيضا. وورد الخبر بأن عربان الغرب هبطوا إلى البحيرة، واشتروا القمح كل ويبة بدينار، وأن بلاد الغرب قد عدمت فيها الأقوات فى السنة الخالية، وانقطعت عنها الأمطار السنة الحاضرة، وزاد الجراد بالشام ، وعظم خطبه، وكثرت بمصر والقاهرة الأمراض الحادة والحميات المحرقة، وزادت وأفرطت. وغلت الأشربة والسكر وعقاقير العطار، وبيعت بطيخة بأربعة وعشرين درهما، وصار الفروج لا يقدر عليه، وانتهى سعر القمح إلى مائتى دينار كل مائة أردب، وغلظ الأمر فى الغلاء، وعدم القوت، وكثر السؤال، وكثرت الموتى بالجوع. وخطف الخبز متى ظهر، وشوهد من يستف التراب، ومن يأكل الزبل.

وازدحم الناس على الطير الذى يرمى من مطابخ السكر. وكثرت الأموات أيضا بالإسكندرية، وتزايد وجود الطرحى بها على الطرقات، وعدمت المواساة، وعظم هلاك الأغنياء والفقراء وانكشاف الأحوال وشوهد من يبحث المزابل القديمة على قشور الترمس، وعلى نقاضات الموائد وكناسات الآدر، ومن يقفل بابه ويموت، ومن عمى من الجوع ويقف على الحوانيت ويقول: أشمونى رائحة الخبز.واستخدم رجل فى ديوان الزكاة، وكتب خطه بمبلغ اثنين وخمسين ألف دينار، لسنة واحدة من مال الزكاة، وجعل الطواشى ببهاء الدين قراقوش الشاد فى هذا المال، وألا يتصرف فيه، وأن يكون فى صندوق مودعا للمهمات التى يؤمر بها.ووقع لابن ثعلب الشريف الجعفرى بخبز مبلغه فى السنة ستون ألف دينار، ودفع له كوس وعلم. وآل الأمر إلى وقوف وظيفة الدار العزيزية عليه من لحم وخبز، وإلى أن يتمحل فى بعض الأوقات لا كلها، لبعض ما يتبلغ به أهلها من خبز، وكثر ضجيجهم وشكواهم، فلم يسمع.

وفى شهر ربيع الآخر: صرف صارم الدين خطلج الغزى عن شد الأموال بالدواوين، وسلم الشد إلى بهاء الدين قراقوش، مضافا إلى شد الزكوات، فكمل شد المال له.

وفيه كثر الموت، بحيث لم تبق دار إلا وفيها جنازة أو مناحة أو مريض، واشتد الأمر، وغلت العقاقير، وعدم الطبيب، وصار من يوجد من الأطباء لا يخلص إليه من شدة الزحام، وصار أمر الموتى أكثر أشغال الأحياء، وما ينقضى يوم إلا عن عدة جنائز من كل حارة.وعدم من يحفر، وإذا وجد لم يعمق الحفر، فلا يلبث الميت أن تظهر له رائحة وصارت الجبانات لا يستطاع مقالتها، ولا زيارة قبورها، وأخذت الأسعار فى الانحلال.

وفى جمادى الأولى: تواترت الأخبار باختلال الحال بدمشق، فوقع العزم على المسير إلى الشام، ووقع الشروع فى الإنفاق فى الحاشية، فقبضوا شهرا واحدا، وكان قد استحق لهم أربعة عشر شهرا، فإن المادة قصرت عن نفقة ذلك لهم، فأحيل بعضهم على جهات. وامتنع الجاندارية[1] من قبض شهر، وأنهى ذلك إلى العزيز، فكتب إلى خطلبا بإخراجهم إلى المخيم، ومن تقاعد عن الخروج قيده الطواشى قراقوش، واستخدمه فى السور، فخرجوا بأنفس غير طيبة، وألسنة بالشكوى معلنة، وكان المال الذى أنفق فى الحاشية قد افترض من الأمراء، وأحيل به على الجوالى لسنة ثلاث وتسعين، وخرج العزيز إلى المخيم، وحرك الأمراء تحريكا قويا، وسير الحجات إلى البلاد تحت الأجناد، فتتابع خروج الناس، ووقع الرحيل من بركة الجب فى ثامنه، فرحل السلطان العادل والعزيز، وجميع الأسدية والمماليك. وفشت الأمراض الحادة، فما ينقضى وقت إلا عن عدد كثير من الجنائز. وغلت الأدوية، وبلغ الفروج إلى ثلاثين درهما، والبطيخة إلى مائة درهم. وورد الخبر بأن قوص وأعمالها فيها أمراض فاشية، وأموات لا تتلاحق.وكثر الوباء والموت بالإسكندرية.

وفى آخره: انحلت الأسعار، ونزلت الغلة إلى ثمانين دينارا كل مائة أردب، وأبيع الخبز سبعة أرطال بدرهم. وقل السؤال، وارتفع الموتان، بعد أن جلب من قوص فراريج أبيع كل عشرة فراريج بسبعة دنانير، وهذا لم يسمع بمثله فى مصر قبل ذلك. وفيه نودى فى القاهرة ومصر بأن الشريف ابن ثعلب مقدم على الحاج، فليتجهز أرباب النيات.

---

(١) الجاندارية: فئة من مماليك السلطان أو الأمير ، ومثلها الخاصكية، وهى مركبة من لفظين فارسيين أحدهما جان ومعناه سلاح، والثانى دار ومعناه ممسك ووظيفة الجاندار أنه يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان (صبح الأعشى: ٢/٤).

وفى جمادى الآخرة: وقف الحال فيما ينفق فى دار السلطان، وفيما يصرف إلى عياله، وفيما يقتات به أولاده، وأفضى الأمر إلى أن يؤخذ من الأسواق ما لا يوزن له ثمن، وما يغصب من أربابه، وأفضى هذا إلى غلاء أسعار المأكولات، فإن المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون فى الأسعار العامة بقدر ما يؤخذ منهم للسلطان، فاقتضى ذلك النظر فى المكاسب الخبيثة. وضمن باب المزر والخمر باثنى عشر ألف دينار، وفسح فى إظهاره وبيعه فى القاعات والحوانيت، ولم يقدر أحد على إنكار ذلك، وصار ما يؤخذ من هذا النيحت ينفق فى طعام السلطان وما يحتاج إليه، وصار مال الثغور والجوالى إلى من لا يبالى من أين أخذ المال.

وفيه وصل العادل والعزيز إلى الداروم[1] وأمر بإخراب حصنها، فقسم على الأمراء والجاندارية فشق على الناس تجريبه، لما كان به من الرفق للمسافرين، وانتهى الملكان إلى دمشق - وقد استعد الأفضل للحرب فى أول شهر رجب - فحاصراها إلى أن ملكاها فى العشرين منه، بعد عدة حروب، خان الأفضل فيها أمراءه، فلما أخذ المدينة نزل الأفضل من القلعة إليهما، فاستحيا العادل منه، لأنه هو الذى حمل العزيز على ذلك، ليوطئ لنفسه، كما يأتى.وأمره العادل أن يعود إلى القلعة، فلم يزل بها أربعة أيام، حتى بعث إليه العزيز أيبك فطيس أمير جاندار، وصارم الدين خطلج الأستادار، فأخرجاه عياله وعيال أبيه.

وأنزل الأفضل فى مكان، وأوفى ما كان عليه من دين، وما للحواشى من الجوامك.فبلغ ذلك نيفا وعشرين ألف دينار، بيع فيها بركه وجماله وبغاله وكتبه ومماليكه وسائر ماله، فلم توف بما عليه، وقسا عليه أخوه وعمه لسوء حظه، ثم بعث إليه عمه العادل يأمره أن يسير إلى صرخد، فلم يجد عنده من يسير بأهله، حتى بعث إليه جمال الدين محاسن عشرة أوصلوه إلى صرخد.وأخذت من الملك الظافر مظفر الدين خضر[2] بصرى وأعطيت للملك العادل، وأمر الظافر أن يسير إلى حلب، فلحق بأخيه الظاهر صاحبها. ويقال إن العادل كان قد قرر مع الملك العزيز - وهو بالقاهرة - أن الملك العزيز إذا غلب أخاه الأفضل على دمشق وأخذها منه أن يقيم بها ويعود العادل

---

(١) الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر.انظر معجم البلدان ٢/٤٢٤.

(٢) الظافر الأيوبى (٥٦٨ - ٦٢٧ هـ ١١٧٢ - ١٢٣٠م). خضر الظافر، مظفر الدين، أبو العباس بن يوسف بن أيوب، من أمراء الدولة الأيوبية ولد وأقام بمصر وروى الحديث وحدث، وسمع الكثير وهو شقيق الأفضل. ترويح القلوب ٩٤/الدارس ١٨٧/٢. الأعلام ٢/٣٠٨.

إلى مصر نائبا عن العزيز فلما ملك العزيز دمشق، وأخرجه أخاه الأفضل منها، انكشفت له مستورات مكائد عمه، فندم على ما قرره معه، وبعث إلى أخيه الأفضل سرا يعتذر إليه، ويقول له: لا تنزل عن ملك دمشق . ففطن الأفضل هذا من أخيه خديعة، وأعلم عمه العادل به، فقامت قيامته، وعتب على العزيز وأنبه. فأنكر العزيز أن يكون صدر هذا منه، وحنق على أخيه الأفضل، وأخرجه إلى صرخد على قبح صورة. واختفى الوزير ضياء الدين ابن الأثير الجزرى خوفا من القتل، ثم لحق بالموصل. واستقر الأمر بدمشق للعزيز فى رابع عشر شعبان، فأظهر العدل، وأبطل عدة مكوس، ومنع من استخدام أهل الذمة فى شيء من الخدم السلطانية، وألزموا لبس الغيار، ثم رحل عنها ليلة التاسع منه يريد القاهرة، واستخلف عمه العادل على دمشق، وسار إلى القدس، فملكها من أبى الهيجاء السمين وسلمها إلى الأمير شمس الدين سنقر الكبير، وسار أبو الهيجاء إلى بغداد.ووصل العزيز إلى القاهرة يوم الخميس رابع شهر رمضان، فصارت دمشق وأعمالها إقطاعا للملك العادل، وليس للعزيز بها سوى الخطبة والسكة فقط.

وفى ثامن عشره: ركب العزيز إلى مقياس مصر وخلقه، ونودى فيه بزيادة ثلاثة أصابع من الذراع السابعة عشرة.

وفى العشرين منه: فتح سد الخليج، فركب العزيز لذلك، وكثر المتفرجون وازدحم الغوغاء، وحملوا العصى وتراجموا بالحجارة، وقلعت أعين، وخطفت مناديل. وكانت العادة جارية بأن يوقر شهر رمضان من اعتصار الخمر، وألا يجهر بشراء العنب والجرار، ولا يحدث نفسه أحد بفسخ الحرمة وهتك الستر.

وفى هذا الشهر: غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها، وتظاهر به أربابه لتحكير تضمينه السلطانى، واستيفاء رسمه بأيد مستخدميه، وبلغ ضمانه سبعة عشر ألف دينار، وحصل منه شيء حمل إلى العزيز فصنع به آلات الشرب.

وفيه كثر احتماع النساء والرجال على الخليج - لما فتح - وعلى ساحل مصر، وتلوث النيل بمعاصى قبيحة.واستمر جلوس العزيز للمظالم فى يومى الإثنين والخميس.

وفى ثانى شوال: كان النوروز، فجرى الأمر فيه على العادة من رش الماء ، واستجد فيه التراجم بالبيض والتصافع بالأنطاع. وتوالت زيادة النيل، فأفحش الناس فى إظهار المنكرات، ولم ينههم أحد.

وفيه وقفت وجوه المال، وانقطعت جباية الديوان بمصر، وأحيل على الجهات

بأضعاف ما فيها، وبقيت وجوه قصرت الأيدى عن استخراجها، وانتمى العاملون إلى من حماهم، فلم يجسر صاحب الديوان على ذكر من يحميهم، فضلا عن أخذ الحق منهم، ورفع يده عن حماية من حماه. وآل الأمر إلى أن صار ما يقام برسم طوارئ السلطان وراتب داره من ضمان الخمر والمزر.

وكانت هذه سنة ما تقدمها أفحش منها، ولا علم أن همة من الهمم القاصرة انحطت إلى مثلها.

وفى رابع عشره: خرج الشريف ابن ثعلب سائرا بالحاج، وخيم على سقاية ريدان[١] وكثر القتل بالقاهرة بأيدى السكارى، وأعلن المنكر بها، فلم تنسلخ ليلة إلا عن جراح وقتل بين المعربدين. وكثر ذلك حتى خطفت الأمتعة والمآكل من الأسواق، نهارا نادرا وليلا راتبا.

واستقرت المظالم للطواشى قراقوش، يجلس فيها بظاهر الدار السلطانية، وحماية الديوان وشد الأموال لفخر الدين جهاركس، مع انقباضه عنها، وأستادارية الدار لصارم الدين خطلج.

وفى تاسع عشره: كسر بحر أبى المنجا، وباشر العزيز كسره، وزاد النيل فيه إصبعا، وهى الإصبع الثامنة عشرة، من ثمانى عشرة ذراعا، وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى.

وفى ثانى عشريه: رحل الحاج، وتجدد ما كان قد درس ذكره ونسى حكمه فى مصر، منذ عهد الخليفة الحافظ لدين الله[٢] من سنة أربعين وخمسمائة، من الرفايع التى كان القبط يختلقونها، ويتوصلون بها إلى المصادرات، وخراب البيوت، وعمارة الحبوس، وإساءة السمعة عن سلطان الوقت، فأجمع ابن وهيب وكاتب نصرانى وغيرهما على أوراق عملت، وانتدب الأسعد بن مماتى والشاد للكشف والرفع إلى فخر الدين جهاركس .

وفى ذى القعدة :كثر وثوب السكارى بمن يلقونه ليلا، وضربهم إياه بالسكاكين،

---

(١)سقاية ريدان: بالراء: بمصر بين القاهرة وبلبيس . انظر معجم البلدان ٣/٢٢٦.

(٢) الحافظ لدين الله (٤٦٧ - ٥٤٤ هـ - ١٠٧٤ - ١١٤٩م). عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله العبيدى، أبو الميمون الملقب بالحافظ لدين الله: من خلفاء الدولة الفاطمية (العبيدية) بمصر ولد فى عسقلان، وتملك الديار المصرية سنة ٥٢٤ هـ. انظر وفيات الأعيان ٣٠٩/١، شذرات الذهب ١٣٨/٤، ابن الأثير ٥٣/١١، ابن إياس ٦٣/١، ابن خلدون ٧١/٤، اتعاظ الحنفا ٢٨٤، حلى القاهرة ٨٦. الأعلام ١٥٠/٤.

فلا تخلو ليلة من قتيل أو قتيلين، ولم يؤخذ لأحد بثأر، ولا وقع كشف عن مقتول منهم، ولا تمكن والى القاهرة من منعهم.ووجد فى الخليج ستة نفر قتلى مربطين، فلم يسأل عنهم، ولا وقع إنكار لأمرهم.

وفى ذى الحجة: عزم العزيز على نقض الأهرام، ونقل حجارتها إلى سور دمياط، فقيل له إن المؤنة تعظم فى هدمها، والفائدة تقل من حجرها.فانتقل رأيه من الهرمين إلى الهرم الصغير - وهو مبنى بالحجارة الصوان - فشرع فى هدمه.

وفيه سار العزيز إلى الإسكندرية، واستخلف بالقاهرة بهاء الدين قراقوش، وفخر الدين جهاركس.

وتوفى فى هذه السنة

القاضى الأشرف أبو المكارم الحسن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحباب قاضى الإسكندرية، وولى عوضه الفقيه أبو القاسم شرف الدين عبد الرحمن بن سلامة فى سابع عشرى شوال. ومولد بن الحباب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وأقام حاكما بالإسكندرية ثمانيا وعشرين سنة. وكان كريم النفس صحيح المودة، وطالت مدته فى الحكم بالإسكندرية، من سنة أربع وستين إلى أن مات بها فى ثالث جمادى الآخرة.

وفى خامس ذى الحجة: مات القاضى الرشيد [......] (١) ابن سناء الملك. قال القاضى الفاضل فيه: «ونعم الصاحب الذى لا تخلفه الأيام، ولا يعرف له نظير من الأقوام: أمانة سمينة، وعقيدة ود متينة، ومحاسن ليست بواحدة، ومساع فى نفع المعارف جاهدة. وكان حافظا لكتاب الله، مشتغلا بالعلوم الأدبية، كثير الصدقات، نفعه الله، والأعمال الصالحات، عرفه الله بركاتها».

وفيها حج بالناس الشريف ابن ثعلب، وخرجت المراكب الحربية من مصر، فظفروا ببطس للفرنج، وفيها أموال فغنموها.

وفيها بنى الأمير فخر الدين جهاركس قيساريته بالقاهرة.

وفيها زلزلت مصر. ومات العلم عبد الله بن على بن عثمان بن يوسف المخزومى، يوم الجمعة حادى عشر جمادى الأولى، ومولده فى شهر رمضان سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقد قرأ على بن برى، وله شعر.

* * *

---

(١) مابين المعقوفتين بياض فى الأصل.



[سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة][1]

ودخلت سنة ثلاث وتسعين، وفيها أقيمت الخطبة للعزيز بحلب، وضربت السكة باسمه، بصلح وقع بين العزيز وبين أخيه الظاهر وقد تولاه القاضى بهاء الدين أبو المحاسن بن شداد، وغرس الدين قلج ، قدما من حلب إلى العزيز بالقاهرة بهدايا، فانعقد الصلح بين الأخوين على ذلك.

وعادا إلى الظاهر، فخطب للعزيز فى شهر ربيع الأول وضربت السكة باسمه.

وفيه تحرك الفرنج على بلاد الإسلام، فخرج العادل من دمشق، وسير جيشا إلى بيروت لهدم ربضها.

وفيها مات الملك العزيز ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب ملك اليمن فى شوال، وقام من بعده بمملكة اليمن المعز ابنه الملك فتح الدين أبو الفداء إسماعيل.

وفيها فتح الملك العادل صاحب دمشق يافا عنوة، وغنم وأسر كثيرا، يقال إنهم سبعة آلاف نفس، ما بين ذكر وأنثى.

وفيها سار العادل من يافا إلى صيداء وبيروت فأخربهما، ونهبت بيروت، وفر من كان بها. وبعث العادل إلى الملك العزيز يستنجده، فسير إليه عسكرا خرج من القاهرة أول شوال، وسار إلى بلبيس. ثم بدا للعزيز أمر ففرق العسكر و لم يسر.

* * *

---

(١) سنة ٥٩٣ هـ. انظر أحداث هذه السنة فى النجوم الزاهرة ١٢٧ - ١٢١/ ٦ الكامل ١٢/١٢٥ وما بعدها ، تاريخ ابن الوردى ١٦٠/ ٢.

سنة أربع وتسعين وخمسمائة(١)

ودخلت سنة أربع وتسعين، فانتشر من وصل فى البحر من الفرنج ببلاد الساحل، وملكوا قلعة بيروت، وقتلوا عدة من المسلمين فى أطراف بلاد القدس، وأسروا وغنموا شيئا كثيرا، فبعث الملك العادل إلى القاهرة يطلب من العزيز نجدة، فسارت إليه العساكر من مصر، ومن القدس وغيرها.ثم خرج الملك العزيز بنفسه، ومعه سائر عساكر مصر لقتال الفرنج، فنزل على الرملة فى سادس عشرى صفر، وقدم الصلاحية والأسدية، وعليهم الأمير شمس الدين سنقر الدوادار، وسرا سنقر وعلاء الدين شقير، وعدة من الأكراد، فلحقوا العادل وهو على تبنين.وسار العزيز فى أثرهم، فكانت بينهم وبين الفرنج وقائع شهيرة، آلت إلى رحيل الفرنج إلى صور، وركب العادل والعزيز أقفيتهم، فقتلوا منهم. وترك العزيز العساكر عند العادل، ورجع إلى القاهرة فى ثامن جمادى الآخرة، قبل انفصال الحال مع الفرنج، من أجل أن ميمون القصرى، وأسامة وسرا سنقر، والحجاف، وابن المشطوب، كانوا قد عزموا على قتله فلما بلغه ذلك رحل إلى القاهرة فخرج الناس إلى لقائه، وكان يوما مشهودا.

ووقعت الهدنة بين العادل وبين الفرنج لمدة ثلاث سنين، وعاد العادل إلى دمشق.

وفى رجب: تجدد للعادل والعزيز رأى فى تخريب عسقلان، وتعفية جدرانها وهدم بنيانها. فندب من القدس جماعة لتغليقها وحط أبرجة سورها؛ فتلفت مدينة لا مثل لها، وثغر لا نظير له فى الثغور، وعمارة لا تخلف الأيام ما تلف بها، لعجز الملوك عن ممانعة الفرنج بالسلاح، واضطرارهم إلى هدم المدن وتعفية رسومها.

وفى شعبان: ركب قاضى القضاة صدر الدين بن درباس لرقبة الهلال وكلف الشهود ما بين شمعتين كل شاهد إلى شمعة. فخرجوا بالشموع، وقد كثر الجمع والشمع، واحتفل الموكب، وثقلت على الشهود الوطأة.

وفيه أمر الملك العزيز بمنع البناء فى المواضع التى كان الأمراء قد شرعوا فى بنائها على النيل، واستولوا فيها على الساحل، فخرج الجاندارية وألزموا كل من حفر أساسا بردمه، فامتثل الأمر.

---

(١) سنة ٥٩٤ هـ. انظر أحداث هذه السنة فى النجوم الزاهرة ١٢٩ - ١٣١/ ٦ الكامل ١٢/١٣٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٦١/ ٢.

وفى شهر رمضان: أمر العزيز بقطع أشجار بستان البغدادية تجاه قصر اللؤلوة[1] وجعله ميدانا.

وفيه كثر التظاهر بعصير العنب واستباحة الحرمان، وعدم المنكر لهذا الأمر، فغلا العنب حتى بلغ أربعة أرطال بدرهم.

وفيه قصر مد النيل، وارتفعت الأسعار، وعدمت الأرزاق من جانب الديوان، وتعذرت وجوه المال حتى عم المرتزقة الحرمات. واستبيح ما كان محظورا من فتح أبواب التأويلات، وأخذ ما بأيدى الناس بالمصادرات: فأخذ خط شخص يعرف بابن خالد بمبلغ ألف دينار، وصودر جماعة آخرون وصار الإنفاق فى السماط السلطانى فى هذه الوجوه.

وفى يوم عيد الفطر: أقيمت سنة العيد بظاهر البلد، وحضر العزيز الصلاة والخطبة، وعم الأمراء وأرباب العمائم بخلعه، وقدم سماط توسعت الهمة فيه.

وفى ثالث عشره: وفى النيل ستة عشر ذراعا، فركب العزيز فى سادس عشره لتخليق المقياس، وفتح الخليج فى ثامن عشره، وتظاهر الناس فى هذه الأيام بالمنكرات من غير منكر.

وفى ثالث عشريه: كان النوروز، فجرى الرسم فى لعبه على العادة.

وفى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة: قتل ابن مرزوق بالقاهرة، قتله ابن المنوفى قاضى بلبيس غيلة، بدار سكنها بالفهادين، وحفر له فيها ودفنه، ومملوكا صغيرا معه، وبلط فوقه، وجعل عليه شعيرا، فشنق ابن المنوفى، بعدما طيف به على جمل مصر والقاهرة.

وفى هذه السنة: توجه العادل من دمشق إلى مدينة ماردين، ونازلها وأخذ ربضها. وفيها خرج الملك الكامل محمد بن العادل من حران، وقاتل عسكر المواصلة.

وفيها أغاز الفرنج، ونهبوا وأسروا خلقا، وانتهوا إلى عكا. فعاد العادل إلى دمشق فى رمضان، ثم خرج بعد شهر إلى الشرق يريد ماردين.

وفيها ادعى معز الدين إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين ملك اليمن الإلهية نصف نهار، وكتب كتابا وأرخه من مقر الإلهية. ثم رجع عن ذلك، وادعى الخلافة، وزعم

---

(١) سنة ٥٩٥ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٣٧ - ١٣٩/ ٦. الكامل ١٤٠/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٦٢/ ٢ وما بعدها .

أنه من بنى أمية، ودعا لنفسه فى سائر مملكته بالخلافة، وقطـع الدعـاء مـن الخطبـة لبنـى العباس، ولبس ثيابا خضرا وعمائم خضرا مذهبة، وأكره من كان فـى مملكتـه مـن أهـل الذمة على الإسلام، وخطب بنفسه، وعزم على قصد مكة، وجهز من بنى لـه بهـا دارا، فأسرهم الشريف أبو عزيز قتادة.

* * *



سنة خمس وتسعين وخمسمائة(١)

ودخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة والعادل مضايق مدينة ماردين، والمعز صاحب اليمن قد تجهز يريد مكة، والعزيز صاحب مصر قد سار إلى الإسكندرية، من آخر ذى الحجة. فتصيد العزيز إلى سابع المحرم، وركض خلف ذئب فسقط عن فرسه، ثم ركب وقد حم، فدخل القاهرة يوم عاشوراء فلم يزل لما به حتى مات، منتصف ليلة السابع والعشرين منه، ودفن بجوار قبر الشافعي، رحمة الله عليه. وكان عمره سبعا وعشرين سنة وأشهرا، ومدة ملكه ست سنين تنقص شهرا وستة أيام.

وكان ملكا كريما، عادلا رحيما، حسن الأخلاق شجاعا، سريع الانقياد مفرط السخاء. سمع الحديث من السلفى، وابن عوف، وابن برى، وحدث. وكانت الرعية تحبه محبة كثيرة، وكان يعطى العشرة آلاف دينار، ويعمل سماطا عظيما يجمع الناس لأكله، فإذا جلسوا للأكل كره منهم أكله، ولا يطيب له ذلك، وهذا من غرائب الأخلاق.

وفيها عظمت الفتنة فى عسكر غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام (٢) ملك الغورية، وسببها أن الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى الفقيه الشافعى المشهور، كان قد بالغ غياث الدين فى إكرامه، وبنى له مدرسة بقرب جامع هراة، ومعظم أهلها كرامية. فأجمعوا على مناظرته، وتجمعوا عند غياث الدين معه، وكبيرهم القاضى مجد الدين عبد المجيد بن عمر بن القدوة. فتكلم الإمام فخر الدين مع ابن القدوة، واستطال عليه وبالغ فى شتمه، وهو لا يزيده على أن يقول: «لا يفعل مولانا لا آخذك الله استغفر الله». فغضب الملك ضياء الدين له، ونسب الإمام الرازى إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة. وقام من الغد ابن عمر بن القدوة بالجامع، وقال فى خطبته: «ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين. أيها الناس إنا لا نقول إلا ما صح عندنا

---

(٢) ابن سام (٥٩٩ هـ - ١٢٠٣م). محمد بن سام بن الحسين بن الحسن المسعودى، أبو الفتح، السلطان غياث الدين: صاحب غزنة، كان عادلا، داهية، مظفرا فى حروبه، فيه فضل وأدب قرأ شيئا من الفقه على مذهب الشافعى، ونسخ بخطه عدة مصاحف ووقفها فى مدارس أنشأها بخراسان، كما بنى رباطات ومساجد وخانات فى الطرق والمفاوز، وكان إذا نزل ببلدة من بلاده عم أهلها بإحسانه ولاسيما الفقهاء والأدباء. ولم يكن يتعصب لمذهب. طالت أيامه ومات بالنقرس، فى هراة. انظر الإعلام لابن قاضى شهبة حوادث سنة ٥٩٩، الجامع المختصر ١٠٥ . الأعلام ١٣٥/ ٦.

عن رسول الله، وأما علم أرسطو، وكفريات ابن سينا، وفلسفة الفارابى، فلا نعلمها. فلأى حال يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام، يذب عن دين الله وسنة نبيه؟»، وبكى وأبكى، فثار الناس من كل جانب، وامتلأت البلد فتنة، فسكّتهم السلطان غياث الدين، وتقدم إلى الإمام فخر الدين بالعود إلى هراة، فخرج إليها، ثم فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية، وتقلد الشافعى رحمه الله.

* * *

السلطان الملك المنصور ناصر الدين

محمد ابن الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد بالقاهرة فى [......][1] جمادى الأولى، سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ومات أبوه وعمره تسع سنين وأشهر. وقد أوصى له أبوه بالملك من بعده، وأن يكون مدبر أمره الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى. فأجلس على سرير الملك فى غد وفاة أبيه، يوم الإثنين حادى عشرى المحرم، وجعل قراقوش أتابكا. وحلف له الأمراء كلهم، ماخلا عماه الملك المؤيد نجم الدين مسعود والملك المعز، فإنهما أرادا أن تكون الأتابكية لهما، وجرت منهما منازعة، ثم حلفا. ووقع الخلف بين أمراء الدولة، فطعن عدة منهم فى قراقوش، بأنه مضطرب الرأى ضيق العطن، ولا يصلح لهذا الأمر، وتعصب جماعة معه، ورأوا أنه أطوع من غيره. وكثر النزاع فى ذلك، وصاروا إلى القاضى الفاضل، ليأخذوا رأيه، فامتنع من المشورة عليهم، فتركوه.

وأقاموا ثلاثة أيام يمحصون الرأى، حتى استقر على مكاتبة الملك الأفضل، ليحضر أتابكا عوض قراقوش، بشرط ألا يرفع فوق رأسه السنجق، ولا يذكر له اسم فى خطبة ولا سكة، وأن يدبر أمر الملك المنصور مدة سبع سنين، فإذا تم هذا الأجل سلم إليه الأمر والتدبير، وسيروا إليه القصاد بذلك، وأقيم الملك الظافر مظفر الدين خضر ابن السلطان صلاح الدين مباشر نيابة السلطنة، حتى يقدم الأفضل. فخرج الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر، فى تسعة عشره نفسا، متنكرا، خوفا من العادل.

وكان الأمير فخر الدين جهاركس - لما قرر أمراء مصر أمر الأفضل، وكتبوا إليه بالحضور - كره ذلك، وكتب إلى الأمير فارس الدين ميمون القصرى صاحب نابلس، ينهاه عن الموافقة على إقامة الأفضل. فوقع الأفضل على القاصد، وأخذ منه الكتاب، وعلم ما فيه، وقال له: «ارجع فقد قضيت الحاجة»، وسار الأفضل، ومعه ذلك القاصد،

---

(١) مابين المعقوفتين بياض فى الأصل.

حتى وصل بلبيس، وقد خرج الأمراء إلى لقائه، فى خامس شهر ربيع الآخر. فنزل فى خيمة أخيه الملك المؤيد مسعود. وكان فخر الدين جهاركس يؤمل أنه ينزل فى خيمته، فشق ذلك عليه من فعل الأفضل، ولم يجد بدا من المجىء إلى عنده، فأكرمه الأفضل. ثم لما فرغ الأفضل من طعام أخيه، صار إلى خيمة فخر الدين وأكل طعامه، فحانت من فخر الدين التفاتة، فرأى القاصد الذى بعثه إلى نابلس، فدهش وخاف من الأفضل، وأخذ يستأذنه فى التوجه إلى العرب المخالفين ليصلح أمرهم، فأذن له. وللحال قام فخر الدين واجتمع بزين الدين قراجا وأسد الدين سراسنقر، وسار بهما مجدا إلى القدس، فإذا بشجاع الدين طغرل السلاح دار سائر إلى مصر، فألفتوه عن الأفضل، وساروا به إلى القدس، فاتفق معهم الأمير صارم الدين صالح نائب القدس، ووافقهم أيضا الأمير عز الدين أسامة وميمون القصرى، وقدما إلى القدس، ومع ميمون سبعمائة فارس منتخبة، وكاتبوا الملك العادل، يستدعونه لأتابكية الملك المنصور.

وأما الأفضل فإنه سار من بلبيس إلى القاهرة، فخرج المنصور وتلقاه، فى سابع ربيع الآخر وكانت مدته شهرين و[......][1] وتحكم الأفضل. ولما استقرا بالقاهرة كتب الأفضل إلى عمه الملك العادل، يخبره بوصوله إلى مصر، حفظا لدولة ابن أخيه، وأنه لا يخرج عما يأمره به، فورد جوابه بأن «العزيز إن كان مات عن وصية فلا يعدل عنها، وإن كان مات عن غير وصية، فيكتب الأعيان خطوطهم لك بذلك، حتى نرى الرأى». فاستولى الأفضل على أمر مصر كله ولم يبق للمنصور غير مجرد الاسم فقط. وعزم الأفضل على قبض من بقى من الأمراء الصلاحية بمصر ففر منهم جماعة، ولحقوا بفخر الدين جهاركس بالقدس. وقبض الأفضل على جماعة: منهم الأمير علاء الدين شقير، والأمير عز الدين البكى الفارس، والأمير عز الدين أيبك فطيس، وخطلبا، ونهب أموالهم، ثم برز إلى بركة الجب، فأقام أربعة أشهر، وحلف بها الأمراء والأجناد، فبلغه عن أخيه الملك المؤيد مسعود أنه يريد الوثوب عليه، فقبضه وسجنه.

وبعث الملك الظاهر غازى صاحب حلب إلى أخيه الأفضل يحثه على سرعة القدوم من مصر إلى دمشق، واغتنام الفرصة فى أمرها والملك العادل غائب عنها فى حصار ماردين. فقبض الصلاحية بالشام على القاصد، وأهانوه ثم أطلقوه، فسار إلى الأفضل، وبلغه رسالة أخيه الظاهر. فرحل الأفضل من بركة الجب ثالث شهر رجب، ومعه الملك المنصور، فأقام بالعباسة[2] خمسة أيام. واستخلف على القاهرة سيف الدين يازكج

(١) مابين المعقوفتين بياض فى الأصل .

(٢) العباسة: بفتح أوله، وتشديد ثانيه ، وبعد اللف سين مهملة؛ وهى بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية، ذات نخل طويل . انظر معجم البلدان ٧٥/ ٤، وقال ابن إياس-

الأسدى ثم سار إلى دمشق، فنزل عليها فى ثالث عشر شعبان، وقد بلغ العادل خروجه من مصر، وهو على حصار ماردين، فرتب ابنه الكامل محمدا [(١)] على حصارها، وسار فى مائتى فارس إلى دمشق فقدمها فى ثمانية أنفس، لكثرة ما أسرع فى السير، قبل منازلة الأفضل لها بيومين وتلاحق به أصحابه. وقدم الأفضل فنزل الشرفين والميدان الأخضر، وهجم بعض أصحابه على البلد وأحرقوا، وصاحوا: «يا أفضل يا منصور». فصاحت العامة معهم بذلك، لميلهم إلى الأفضل، فبرز إليهم العادل، وأخرجهم من البلد، وامتنع بها، ففر من أمراء الأفضل عدة، فتأخر حينئذ عن دمشق إلى نحو الكسوة. فدس العادل إلى جماعة ممن فى صحبة الأفضل بكلام منه: «إنى أريد الرجوع إلى الشرق، وأترك الشام ومصر لأولاد أخى»، ففندوا الأفضل عن الحرب. وبذل العادل لهم مالا، فمشى ذلك من مكره عليهم، وخذلوا الأفضل، بأن أشاروا عليه بترك القتال حتى يقدم أخوه الظاهر من حلب. فأمسك الأفضل عن الحرب مدة، والعادل يكاتب الأمراء ويستميلهم شيئا بعد شيء، وهم يأتونه فيبذل لهم المال، ويوسع عليهم، إلى أن قدم الظاهر من حلب فى آخر شعبان، فقوى به الأفضل، ورحلا إلى مسجد القدم، وحاربا العادل وحاصراه، حتى غلت الأقوات بدمشق لشدة الحصار. فقدمت الصلاحية من القدس نصرة للعادل، فاشتد عضد العادل بقدومهم، وجهز إلى القدس من يمنع الميرة

=فى ذكر العباسة: هذه القرية فيما بين بلبيس والصالحية ولم تزل متنزها لملوك مصر، وقيل أنها ولد بها العباس بن أحمد بن طولون فسماه وبذلك أبوه العباس وولد بها أيضًا الملك الأمجد تقى عباس ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، وكان الملك الكامل محمد يقيم بها كثيرًا ويقول هذه أحسن من مصر إذا قمت بها أصطاد الطير من السماء والسمك من الماء والوحش من الفضا ويصل إلينا الخبر من القلعة فى يومه. وبنى بها مناظر وبساتين ولم تزل العباسة على ذلك حتى إنشاء الملك الصالح مدينة الصالحية فحينئذ تلاشى فخربت تلك المناظر، فلما كانت دولة الملك الظاهر بيبرس مر عليها فأعجبته فبنى على فم الوادى قرية، وسماها الظاهرية وأنشأبها جامعًا وذلك فى سنة ست وستين وستمائة. وقيل إنما سميت العباسة باسم عباسة الست قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون ولما أمر المعتضد با لله بحملها ليتزوج بها فعند ذلك ضربت خيامها العباسة بتلك الأرض فسميت بها وبنيت قرية على اسمها. وا لله أعلم. انظر نزهة الأمم ٢٢٢.

(١) الملك الكامل (٥٧٦ - ٦٣٥ هـ - ١١٨٠ - ١٢٣٨ م). محمد الملك الكامل بن محمد العادل بن أيوب، أبو المعالى، ناصر الدين: من سلاطين الدولة الأيوبية كان عارفا بالأدب، له شعر، وسمع الحديث ورواه ولد بمصر وأعطاه أبوه الديار المصرية، فتولاها مستقلا بعد وفاته (سنة ٦١٥ هـ) وحسنت سياسته فيها. انظر الوافى ١/ ١٩٣، ابن إياس ١/ ٧٧، ابن الأثير ١٢/ ١٢٦، ١٣٥، ١٨٦، السلوك ١/ ١٩٤ - ٢٦٠، ابن خلكان ٢/ ٥٠ ، الدارس ٢/ ٢٧٧، مرآة الزمان ٨/ ٧٠٥. الأعلام ٢٨/ ٧

الواصلة من مصر إلى الأفضل، فوجدوا يازكج قد أخرج سبعمائة من عسكر مصر نجدة للأفضل، فقاتلوهم وكسروهم وغنموا ما معهم. وصارت أهل دمشق فى جهد من الغلاء، واحتاج العادل إلى القرض، فأخذ مالا من التجار. وقوى الزحف على البلد حتى أشرف على الأخذ، وهم العادل بالتسليم، فاتفق وقوع الخلف بين الظاهر وبين أخيه الأفضل.

* * *



سنة ست وتسعين وخمسمائة(١)

وأهلت سنة ست وتسعين والأخوان على حصار عمهما العادل بدمشق، وقد خربت البساتين والدور، وقطعت الأنهار، وأحرقت الغلال، وقلت الأقوات. وعزم العادل على تسليم دمشق، لكثرة من فارقه وخرج عنه إلى الأفضل، فكتب إلى ابنه الكامل يستدعيه، وكتب إلى نائب قلعة جعبر أن يسلمه ما يستدعيه من المال، وكانت أموال العادل بها، فسار إليه الكامل فى العسكر الذى معه، وأخذ من قلعة جعبر أربعمائة ألف دينار، وقدم على أبيه فقوى بقدومه قوة عظيمة، ووقع الوهن فى عسكر الأفضل والظاهر؛ لكثرة من خامر منهم، ودس العادل مكيدة بين الأخوين، وهى أن الظاهر كان له مملوك يقال له أيبك(٢) وقد شغفه حبا، ففقده وظن أنه دخل دمشق فعلق، وبلغ ذلك العادل، فبعث إليه بكلام فيه: «أن محمود بن الشكرى أفسد مملوكك، وحمله إلى الفضل»، فقبض الظاهر حينئذ على ابن الشكرى، وظهر المملوك عنده، فما شك فى صدق ما قاله عمه، ونفر من أخيه وامتنع من لقائه، وكان البرد قد اشتد، فرحلا إلى الكسوة، وسار إلى مرج الصفر، ثم سارا إلى رأس الماء، فغلت الأسعار، وقوى البرد، فرحل الظاهر على القريتين، ورحل الأفضل بعساكره يريد مصر، وتركوا من أثقالهم ما عجزوا عن حمله فأحرقوه، وهلك لهم عدة مماليك ودواب، ودخل الأفضل إلى بلبيس فى خامس عشرى شهر ربيع الأول، فأشير عليه بالإقامة بها.

وورد الخبر بأن العادل خرج من دمشق، ونزل تل العجول، وأنه كتب الإقامات للعربان، واستدعى الكنانية، فجمع الأفضل الأمراء، وركب ودار على سور بلبيس، وأمر قراقوش بحفظ قلعة الجبل، وأن يهتم بحفر ما بقى من سور مصر والقاهرة، وأنه يعمق الحفر حتى يصل إلى الصخر، ويجعل التراب داخل المدينة على حافة الحفر، ليكون

---

(١) سنة ٥٩٦ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى الكامل ١٥٣/ ١٢. تاريخ ابن الوردى ٢/١٦٥.

(٢) أيبك المعظمى (٦٤٦ هـ - ١٢٤٨م). أيبك، أبو المنصور، عز الدين المعظمى : أمير، من المماليك يعرف بصاحب صرخد. كان مملوكا للملك المعظم شرف الدين عيس الأيوبى فى دمشق، وأقطع مدينة صرخد وما جاورها. وعين أستادار اللمعظم ثم أخذ منه الصالح أيوب صرخد وعوضه عنها، فأقام بدمشق. ووشى به أنه يكاتب الصالح إسماعيل، فحجز عليه وعلى أمواله، ثم اعتقل بالقاهرة إلى أن مات، له آثار عمرانية كثيرة. انظر الدرر: ١/ ٥٥١، وفيات الأعيان ١/ ٣٩٧. الأعلام ٣٤/ ٢.

مثل الباشورة، ويستعمل الأبقار فيه، ويعمل ذلك فيما بين البحر وقلعة المقس، حتى لا يبقى إلى البلد طريق إلا من أبوابها.

وفى ثانى ربيع الآخر: نزل العادل قطية[١] فهم الفضل بتحريق بلبيس، فنفرت القلوب منه، وقطع أرزاق المرتزقة من جانب السلطان ، ومن الأحباس على مكة والمدينة والفقهاء وأرباب العمائم، ليغلق الذى للجند، فما سد المأخوذ، ولا انقطع الطلب من الأجناد، وثار الضجيج من المساكين. ووصل العادل فواقعه الأفضل ، فانكسر منه وانهزم، فتبعهم العادل إلى بركة الجب، فخيم بها وأقام ثمانية أيام، ولحق الأفضل بالقاهرة، فدخلها يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخِر، وخامر جماعة عليه، وصاروا إلى العادل، وألجات الضرورة الأفضل إلى مراسلة العادل، فطلب منه أن يعوضه عن ديار مصر بدمشق، فامتنع العادل، وقال: «لا تحوجنى أن أخرق ناموس القاهرة، وآخذها بالسيف، اذهب إلى صرخد، وأنت آمن على نفسك» فلم يجد الأفضل بدا من التسليم، لتخاذل أصحابه عنه. فتسلم العادل القاهرة، ودخلها يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر، وخرج منها الفضل منهزما فى ذلك اليوم، وكان الوزير ضياء الدين ابن الأثير قد قدم إلى مصر، وتمكن من الأفضل؛ فلما تسلم العادل القاهرة فر، ولحق بصرخد، وكانت مدة استيلاء الفضل على ديار مصر سنة واحدة وثمانية وثلاثين يوما، وخرج إلى بلاد الشرق فأقام بسميساط، وكان مدة إقامته بالقاهرة لا يقدر أن يخلو بنفسه فى ليل ولا نهار، وكان الأمراء قد حجروا عليه أن يخلو بأحد، وكانت الضرورة ملجئة إلى موافقتهم. وأقام العادل بالقاهرة على أتابكية الملك المنصور، وحلف له الأمراء على مساعدته، ليقوم بأتابكية المنصور إلى أن يتأهل للاستقلال بالقيام بأمور المملكة، فلم يستمر ذلك [........][٢] فانتقض الأمر فى الحادى والعشرين من شوال، وذلك أن الملك العادل أحضر جماعة من الأمراء وقال لهم: «إنه قبيح بى أن أكون أتابك صبى، مع الشيخوخة والتقدم، والملك ليس هو بالإرث، وإنما هو لمن غلب، وإنه كان يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر صلاح الدين، غير أنى تركت ذلك إكراما لأخى، ورعاية لحقه، فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم خفت أن يخرج الملك عن يدى ويد أولاد أخى، فسست الأمر إلى آخره، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامى فيه، ونهوضى بأعبائه، فلما ملكت هذه البلاد، وطنت نفسى على أتابكية هذا الصبى، حتى يبلغ

---

(١) قطية: كائن تصغير قطاة من الطير: وهو ما بين جبلى طيء وتيماء. انظر معجم البلدان ٤/٣٧٨.

(٢) مابين المعقوفتين بياض فى الأصل.

أشده، فرأيت العصبيات باقية، والفتن غير زائلة، فلم آمن أن يطرأ علىَّ ما طرأ على الملك الأفضل، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة إنسان آخر، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك، والرأى أن يمضى هذا الصبى إلى الكُتّاب، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه، فإذا تأهل وبلغ أشده نظرت فى أمره، وقمت بمصالحه». هذا والأسدية كلهم مع العادل على هذا الرأى، فلم يجد من عداهم بدا من موافقته، فحلفوا له، وخلعوا المنصور فى يوم الخميس، وخطب للعادل من الغد يوم الجمعة حادى عشرى شوال، فكانت سلطنة المنصور سنة واحدة وثمانية أشهر وعشرين يوما.

* * *

السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب

ولما حلف له الأمراء استولى على سلطنة مصر فى حادى عشرى شوال، وخطب له بديار مصر وأرض الشام وحران والرها وميافارقين، واستحلف الناس بهذه البلاد، وضربت السكة باسمه واستدعى العادل ابنه الملك الكامل ناصر الدين محمدا، فحضر إلى القاهرة فى يوم الخميس لثمان بقين من رمضان، ونصبه نائبا عنه بديار مصر، وجعل الأعمال الشرقية إقطاعه كما كانت إقطاعا للعادل فى أيام السلطان صلاح الدين، وجعله ولى عهده، وحلف له الأمراء.

وفيها أقيمت الخطبة للعادل بحماة وحلب، وضربت السكة باسمه.

وفيها توقفت زيادة النيل، فلم يجر إلا ثلاثة عشر ذراعا تنقص ثلاثة أصابع، وشرق معظم أرض مصر فارتفعت الأسعار.

وفيها استناب العادل بدمشق ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى[1] واستناب ببلاد الشرق ابنه الملك الفائز، وأقر بحلب ابن أخيه الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين، وبحماة الملك المنصور بن تقى الدين عمر.

---

(١) الملك المعظم (٥٧٦ - ١٢٤ هـ - ١١٨٠ - ١٢٢٧ م). عيسى الملك المعظم بن محمد الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، شرف الدين الأيوبى: سلطان الشام من علماء الملوك كان له ما بين بلاد حمص والعريش وكان وافر الحرمة، فارسا شجاعا، كثيرا ما كان يركب وحده لقتال الفرنج ثم تتلاحق به المماليك والجنود وكان عالما بفقه الحنفية والعربية. انظر مرآة الزمان ٨/ ٦٤٤ ، ٦٥٢، البداية والنهاية ١٣/ ١٢١، ابن خلكان، القلائد الجوهرية ١٤٣، ذيل الروضتين ١٥٢/ النجوم الزاهرة ٦/ ٢٦٧، ابن الأثير ١٢/ ١٨٣، الجواهر المضية ١/ ٤٠٢، هدية العارفين ١/ ٨٠٨. الأعلام ١٠٧/ ٥.

وفيها أخرج الملك العادل ابن ابن أخيه الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر، ومعه إخوته وأخواته ووالدته فساروا إلى الشام، ثم سيرهم إلى الرها، فهربوا منها إلى حلب وبقى الملك المنصور بمدينة الرها، حتى مات سنة عشرين وستمائة، وكان قد أصبح أميرا عند الظاهر صاحب حلب.

* * *

ومات فى هذه السنة

إبراهيم بن منصور بن المسلم أبو إسحاق المعروف بالعراقى، خطيب الجامع العتيق بمصر، فى حادى عشرى جمادى الأولى، عن ست وثمانين سنة.

ومات القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج ابن أحمد اللخمى، العسقلانى مولدا، البيسانى، أبو على محيى الدين، فى سابع ربيع الآخر.

ومات الأثير ذو الرياستين أبو الطاهر محمد بن ذى الرياستين أبى الفضل محمد بن محمد بن بنان الأنبارى فى ليلة الثالث من ربيع الآخر، ومولده بالقاهرة سنة سبع وخمسمائة.

وفى هذه السنة: ولد بالقاهرة مولود له جسد واحد، ورأس فيه وجهان، فى كل وجه عينان وأذنان وأنف وحاجب.

وولد أيضا بها مولود له غرة كغرة الفرس، ويداه ورجلاه محجلتان، وأليته ملمعة.

وولد بها أيضا مولود أشيب الرأس؛ ونعجة لها أربع أيادى، وأربع أرجل. ووجد فى بطن نعجة ذبحت خروف صدره ووجهه صورة إنسان، وله أظافير الآدمى.

* * *

سنة سبع وتسعين وخمسمائة[1]

فيها قبض الملك العادل على أولاد أخيه صلاح الدين وهما الملك المؤيد مسعود والملك المعز إسحاق، وسجنهما فى دار بهاء الدين قراقوش بالقاهرة،

وتسلم الأمير فخر الدين جهاركس بانياس من الأمير حسام الدين بشارة بعد حصار وقتال.

وفيها حدثت الوحشة بين الملك العادل وبين الصلاحية من أجل أنه خلع المنصور ابن العزيز، وكتب الأمير فارس الدين ميمون القصرى من نابلس إلى العادل بإنكار خلع المنصور، فأجابه العادل جوابا خشنا، وتكررت المكاتبة بينهما غير مرة، فكتب ميمون إلى الصلاحية يغريهم بالعادل، فلم يجد فيهم نهضة للقيام، وفى أثناء ذلك حدثت وحشة بين الظاهر صاحب حلب وبين عمه العادل، وسير إليه وزيره علم الدين قيصر ونظام الدين، فمنعهما العادل أن يعبرا إلى القاهر، وأمرهما أن يقيما ببلبيس، ويُحَمِّلا قاضى بلبيس ما معهما من الرسالة، فعادا مغضبين، واجتمعا بميمون القصرى فى نابلس، ومازالا به حتى مال إلى الفضل وإلى أخيه الظاهر، فلما وصلا إلى حلب شق على الظاهر ما كان من عمه، وكاتب الصلاحية ورغبهم، وكاتب ميمون القصرى، وشرع الأفضل أيضا فى مكاتبتهم وهو بصرخد، وانضوى إلى الأفضل الأمير عز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب، وحلف له، فبلغ ذلك العادل فتيقظ لنفسه، وكتب إلى ابنه المعظم صاحب دمشق بمحاصرة الأفضل فى صرخد، فجمع وخرج من دمشق، فاستخلف الأفضل على صرخد أخاه الملك الظافر خضر، وسار إلى أخيه الظاهر بحلب فى عاشر جمادى الأولى، فنزل المعظم على بصرى، وكاتب فخر الدين جهاركس وميمون القصرى، يأمرهما بالمسير إليه لحصار صرخد، فلم يجيبا، وجمعا من يوافقهما، وصارا إلى الظافر بصرخد. وكتبوا إلى الظاهر بحلب يحثونه على الحركة وأخذ دمشق، فوافته الكتب وعنده الأفضل، فجمع الناس وعزم على المسير، ثم سار الظاهر، فلم يوافقه المنصور صاحب حماة، فحاصره مدة، ثم رحل عنه بغير طائل، فنازل دمشق ومعه الأفضل، وأتته الصلاحية هناك، فخرج العادل من القاهرة بعساكره، واستخلف على القاهرة ابنه الملك الكامل محمدا، وسار حتى نازل نابلس.

وقدم العادل طائفة من العسكر، فساروا إلى دمشق، واستولوا عليها قبل نزول

---

(1) سنة ٥٩٧ هـ. انظر أحداث هذه السنة فى النجوم الزاهرة ١٥٦ - ١٦١/ ٦. الكامل ١٦٠/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٦٧/ ٢ وما بعدها.

الأفضل والظاهر عليها، فقدما بعد ذلك، وضايقا دمشق في رابع عشر ذى القعدة، واشتد القتال حتى كادا يأخذان البلد، فوقع بينهما الاختلاف بمكيدة دبرها العادل، ففترت الهمة عن القتال، وذلك أن العادل كتب إلى كل من الأفضل وإلى الظاهر سرا، بأن: «أخاك لا يريد دمشق إلا لنفسه، وقد اتفق معه العسكر في الباطن على ذلك» فانفعلا لهذا الخبر، وطلب كل منها من الآخر أن تكون دمشق له فامتنع، فبعث العادل في السر إلى الأفضل يعده بالبلاد التي عينت له بالشرق، وهي رأس عين[1] والخابور[2] وميافارقين، وغير ذلك، وبذل له مع ذلك مالا من مصر في كل سنة بمبلغ خمسين ألف دينار، فانخدع الأفضل وقال للأمراء الصلاحية ومن قدم إليه من الأجناد: «إن كنتم جئتم إليّ فقد أذنت لكم في العود إلى الملك العادل، وإن كنتم جئتم إلى أخي فأنتم به أخبر». وكانوا يحبون الفضل من أجل أنه لين العريكة، فقالوا كلهم: «لا نريد سواك، والعادل أحب إلينا من أخيك». فأذن لهم في العود إلى العادل، فسار إليه الأمير فخر الدين جهاركس، والأمير زين الدين قراجا، وعلاء الدين شقير، والحجاف، وسعد الدين بن علم الدين قيصر، فوقع الوهن والتقصير في القتال بعدما كانوا قد أشفوا على أخذ دمشق. وانقضت هذه السنة والأفضل والظاهر على منازلة دمشق.

---

(١) رأس عين: وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر، وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخا وقريب من ذلك بينها وبين حران، وهي إلى دنيسر أقرب، بينهما نحو عشر فراسخ، وفي رأس عين عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور. انظر معجم البلدان ١٤/ ، وفي الروض المعطار رأس عين: وبعضهم يقول رأس العين، واسمها عين الوردة، من كور الجزيرة وبمقربة من نصيبين، وبينها وبين الفرات أربعة فراسخ، وهي كلها بين الجزيرة والشام، وهي مدينة عليها سوران، وهذا الاسم لها صادق حدًّا، قالوا: وهذه المدينة للبداوة بها اعتناء وللحضارة عنها استغناء، لا سور يحصنها ولا دور أنيقة البناء فيها، وهي مع ذلك كاملة مرافق المدن، وبعين الوردة كانت الوقيعة بين سليما بن صرد وأصحابه التوابين الخارجين للطلب بدم الحسين رضي الله عنه مع أهل الشام وفيهم عبيد الله بن زياد، فقتل سليمان وأكثر أصحابه، وذلك سنة خمس خمسين وستين. انظر الروض المعطار ٢٦٤، ٢٦٥، وابن جبير ٢٤٢، ٢٤٤، ومعجم ما استعجم ٦٢٣/٢، وابن حوقل ٢٠٠، والكرخي ٥٣.

(٢) الخابور: بعد الألف باء موحدة، وآخره راء، فهو اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسمها. انظر معجم البلدان ٣٣٤/ ٢، وفي الروض المعطار الخابور نهر يمر بديار ربيعة حتى يصب في الفرات بعد مروره على وسط مدينة قرقيسيا، ويسمى الهرماس، وهو المذكور في قول عدى بن زيد:

أخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ـلة تجبى إليه والخابور

والخابور مدينة لطيفة على شاطىء الفرات لها بساتين وحدائق، وبها مات مسلمة بن عبد الملك، وكان يلقب بالجرادة الصفراء. انظر الروض المعطار ٢١١.

وفيها تعذرت الأقوات بديار مصر، وتزايدت الأسعار، وعظم الغلاء حتى أكل الناس الميتات، وأكل بعضهم بعضا، وتبع ذلك فناء عظيم، وابتدأ الغلاء من أول العام، فبلغ كل أردب قمح خمسة دنانير، وتمادى الحال ثلاث سنين متوالية، لا يمد النيل فيها إلا مدا يسيرا، حتى عدمت الأقوات، وخرج من مصر عالم كبير بأهليهم وأولادهم إلى الشام، فماتوا فى الطرقات جوعا. وشنع الموت فى الأغنياء والفقراء، فبلغ من كفّنه العادل من الأموات - فى مدة يسيرة - نحوا من مائتى ألف إنسان وعشرين ألف إنسان، وأكلت الكلاب بأسرها، وأكل من الأطفال خلق كثير، فكان الصغير يشويه أبواه ويأكلانه بعد موته، وصار هذا الفعل لكثرته بحيث لا ينكر ، ثم صار الناس يحتال بعضهم على بعض، ويؤخذ من قدر عليه فيؤكل، وإذا غلب القوى ضعيفا ذبحه وأكله، وفُقِدَ كثير من الأطباء؛ لكثرة من كان يستدعيهم إلى المرضى، فإذا صار الطبيب إلى داره ذبحه وأكله، واتفق أن شخصا استدعى طبيبا، فخافه الطبيب وسار معه على تخوف، فصار ذلك الشخص يكثر فى طريقه من ذكر الله تعالى، ولا يكاد يمر بفقير إلا ويتصدق عليه، حتى وصلا إلى الدار، فإذا هى خربة. فارتاب الطبيب مما رأى، وبينا هو يريد الدخول إليها إذ خرج رجل من الخربة، وقال للشخص الذى قد أحضر الطبيب: «مع هذا البطء جئت لنا بصيد واحد؟». فارتاع الطبيب، وفر على وجهه هاربا. فلولا عناية الله به، وسرعة عدوه، لقبض عليه، وخلت مدينة القاهرة ومصر من أكثر أهلها، وصار من يموت لا يجد من يواريه، فيصير عدة أشهر حتى يؤكل أو يبلى، واتفق أن النيل توقف عن الزيادة فى سنة ست وتسعين، فخاف الناس، وقدم إلى القاهرة ومصر من أهل القرى خلق كثير، فلما حلت الشمس برج الحمل تحرك هواء أعقبه وباء، وكثر الجوع، وعدم القوت حتى أكلت صغار بنى آدم، فكان الأب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا، وكذلك الأم، وظفر الحاكم منهم بجماعة، فعاقبوهم حتى أعياهم ذلك، وفشا الأمر: فكانت المرأة توجد وقد خبأت فى عبها كتف الصغير أو فخذه، وكذلك الرجل، وكان بعضهم يدخل بيت جاره فيجد القدر على النار، فينتظرها حتى تنزل ليأكل منها، فإذا فيها لحم الأطفال؛ وأكثر ما كان يوجد ذلك فى أكابر البيوت، ويوجد النساء والرجال فى الأسواق والطرقات، ومعهم لحوم الأطفال، وأُحرق فى أقل من شهرين ثلاثون امرأة وجد معهن لحوم الأطفال، ثم فشا ذلك حتى اتخذه الناس غذاء وعشاء وألفوه، وقل منعهم منه، فإنهم لم يجدوا شيئا من القوت، لا الحبوب ولا الخضروات.

فلما كان قبل أيام زيادة النيل - فى سنة ست وتسعين هذه - احترق الماء فى

برمودة، حتى صار فيما بين المقياس والجيزة بغير مـاء، وتغير طعم الماء وريحه، وكـان القاع ذراعين، وأخذ يزيد زيادة ضعيفة إلى سادس عشر مسرى، فزاد، إصبعا، ثم وقف، ثم زاد زيادة قوية أكثرها ذراع حتى بلغ خمسة عشر ذراعا وستة عشره إصبعا، ثم انحط من يومه فلم ينتفع به، وكان الناس قد فنوا بحيث بقى من أهل القرية الذين كانوا خمسمائة نفر إما نفران أو ثلاثة، فلم تجد الجسور من يقوم بها، ولا القرى من يعمل مصالحها، وعدمت الأبقار بحيث أبيع الرأس بسبعين دينارا، والهزيل بستين دينـارا. وجافت الطرقات بمصر والقاهرة وقراهما، ثم أكلت الدودة ما زرع، فلم يوجد من التقاوى ولا من العقر ما يمكن به رده.

ودخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة: والناس تأكل الأطفال، وقد صار أكلهم طبعا وعادة، وضجر الحكام من تأديبهم، وأبيع القمح - إن وجد - بثمانية دنانير الأردب، والشعير والفول بستة دنانير، وعدم الدجاج من أرض مصر، فجلبه رجل من الشام، وباع كل فروج بمائة درهم، وكل بيضتين بدرهم. هذا وجميع الأفران إنما تقد بأخشاب المساكن، حتى دخلت سنة ثمان وتسعين، وكان كثير من المساتير يخرجون ليلا، ويأخذون أخشاب الدور الخالية، ويبيعونها نهارا، وكانت أزقة القاهرة ومصر لا يوجد بها إلا مساكن قليلة، ولم يبق بمصر عامر إلا شط النيل، وكانت أهل القرى تخرج للحرث فيموت الرجل وهو ماسك المحراث.

وفى هذه السنة: قدم غلام سنه نحو عشر سنين - من عرب الحوف بالشرقية - إلى القاهرة، أسمر حلو السمرة، على بطنه خطوط بيض ناصعة البياض، متساوية القسمة من أعلاه إلى أسفله، كأحسن ما يكون من الخطوط.

وفيها مات الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى، فى غرة شهر رجب بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم.

* * *

سنة ثمان وتسعين وخمسمائة[1]

فى أول المحرم: رحل الأفضل والظاهر عن دمشق، فصار الظاهر إلى حلب ومعه جماعة من الأمراء الصلاحية، منهم فارس الدين ميمون القصرى، وسرا سنقر، والفارس البكى، فأقطعهم الإقطاعات وأكرمهم، وتوجه الأفضل إلى حمص، وبها أمه وأهله عند الملك المجاهد، وقدم العادل إلى دمشق، ونزل بالقلعة؛ ثم سار منها إلى حماة، ونزل عليها بعساكره، فقام له الملك المنصور بجميع كلفه ونفقاته، وأظهر أنه يريد حلب، فخافه الظاهر واستعد للقائه، وراسل العادل وبعث إليه بهدايا جليلة ولاطفه، فانتظم الصلح بينهما على أن يكون للعادل مصر ودمشق والسواحل وبيت المقدس وجميع ما هو فى يده ويد أولاده من بلاد الشرق، وأن يكون للظاهر حلب وما معها، وللمنصور حماة وأعمالها، وللمجاهد حمص والرحبة[2] وتدمر، وللأمجد بعلبك وأعمالها، وللأفضل سميساط وبلادها لا غير، وأن يكون الملك العادل سلطان البلاد جميعها، وحلفوا على ذلك. فخُطب للعادل بحلب فى يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة، وأُقطع الأفضل قلعة النجم مع سروج[3] وسميساط، وجهز العادل ابنه الأشرف مظفر الدين موسى إلى الجزيرة، ليتسلم حران والرها وما معهما، ويستقر بالجزيرة؛ ويستقر الأوحد أيوب أخوه فى ميافارقين وترتب بقلعة جعبر ابنه الحافظ نور الدين أرسلان. وأقر العادل ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى بدمشق، وعاد العادل من حماة إلى دمشق، وقد اتفقت كلمة بنى أيوب.

---

(١) سنة ٥٩٨ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٦١ - ١٦٣/ ٦. الكامل ١٢/١٧٣ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٧٠/ ٢.

(٢) رحبة مالك بن طوق: بينها وبين دمشق ثمانية أيام ومن حلب خمسة أيام وإلى بغداد مائة فرسخ وإلى الرقاة نيف وعشرون فرسخا، وهى بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات أسفل من قرقيسيا. انظر معجم البلدان ٣٤/ ٣، وفى الروض المعطار رحبة مالك بن طوق: هى مدينة فى شرقى الفرات حصينة عامرة عليها سور تراب ولها أسواق وعمارات وكثير من التمر، ومنها مع الفرات إلى الخابور مرحلتان. انظر ٢٦٨.

(٣) سروج: بلدة قريبة من حران من ديار مضر. انظر معجم البلدان ٢١٦/ ٣، وفى الروض المعطار: سروج: بلد من أرض الجزيرة وبمقربة من ملطية، وهى رستاق كثير القرى والكروم فى بطن بين جبال، ومن سروج إلى حصن كيفا ستة فراسخ، ثم إلى سميساط سبعة فراسخ، ثم إلى ملطية عشرة فراسخ، ثم إلى زبطرة خمسة فراسخ، وسروج كثيرة الفواكه، وهى التى نسبها الحريرى لأبى زيد تاج الغرباء وفيها البساتين والمياه المطردة. انظر الروض المعطار ٣١٥، ٣١٦، وابن حوقل ٢٠٧، والكرخى ٥٥.

وفيها قتل المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن نجم الديم أيوب، وذلك أنه لما ملك اليمن - بعد أبيه - خرج عليه الشريف عبد الله الحسنى، ثم خرج عليه نحو ثمانمائة من مماليكه، وحاربوه وامتنعوا منه بصنعاء، فكسرهم وجلاهم عنها، فادعى الربوبية، وأمر أن يكتب عنه ويكاتب بذلك، وكتب: «صدرت هذه المكاتبة من مقر الإلهية». ثم خاف المعز إسماعيل من الناس، فادعى الخلافة وانتسب إلى بنى أمية، وجعل شعاره الخضرة، ولبس ثياب الخلافة، وعمل طول كل كم خمسة وعشرين شبرا فى سعة ستة أشبار، وقطع من الخطبة الدعاء لبنى العباس، وخطب لنفسه على منابر اليمن، وخطب هو بنفسه يوم الجمعة، فلما بلغ ذلك عمه العادل سير بالإنكار عليه، فلم يلتفت إلى قوله، وأضاف إلى ذلك سوء السيرة وقبح العقيدة، فثار عليه مماليك أبيه؛ لهوجه وسفكه الدماء وحاربوه وقتلوه، ونصبوا رأسه على رمح، وداروا به بلاد اليمن، ونهبوا زبيد تسعة أيام، وكان قتله فى رابع عشر رجب، من سنة ثمان وتسعين، وقام من بعده أخوه الناصر أيوب - وقيل: محمد -، وترتب سيف الدين سنقر أتابك العساكر، ثم استقل سنقر بالسلطنة.

وفيها كان الغلاء بمصر، فلما طلع النيل رويت البلاد، وانحل السعر.

* * *

سنة تسع وتسعين وخمسمائة[1]

فيها وصل الفرنج إلى عكا، وتحرك أهل صقلية لقصد ديار مصر، فقدم من حلب خمسمائة فارس ومائة راجل نجدة إلى العادل وهو بدمشق، فورد كتاب ناصر الدين منكورس بن خمارتكين، صاحب صهيون، يخبر بنزول صاحب الأرمن على جسر الحديد لحرب أنطاكية، وأن أكثر الفرنج عادوا من عكا إلى البحر، ولم يبق بها إلا من عجز عن السفر، وأن بها غلاء عظيما.

وفيها نازل الأشرف موسى بن العادل ماردين مدة، ومعه الأفضل، ثم تقرر الصلح على أن يحمل ناصر الدين أرسلان الأرتقى صاحب ماردين للعادل مائة ألف وخمسين ألف دينار صورية، ويخطب له بها، ويضرب السكة باسمه، فعاد الأشرف إلى حران. وفيها جهز العادل الملك المنصور بن العزيز عثمان من صمر إلى الرها بأمه وإخوته، خوفا من شيعته.

وفيها شرع العادل فى بناء فصيل دائر على سور دمشق بالحجر والجير، وفى تعميق الخندق وإجراء الماء إليه، وقدم من عند العادل إلى القاهرة خلق لحفظ دمياط من الفرنج.

وفيها قصد الفرنج من طرابلس، ومن حصن الأكراد وغيرها، مدينة حماة، فركب إليهم المنصور فى ثالث رمضان، وقاتلهم فهزمهم، وأسر منهم وغنم، وعاد مظفرا، فورد الخبر بوصول الفرنج إلى عكا من البحر فى نحو سبعين ألفا، وأنهم يريدون الصلح مع الأرمن على حرب المسلمين، وخرج جمع من الإسبتار من حصن الأكراد والمرقب، فى شهر رمضان أيضا، فخرج إليهم المنصور، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر جماعة، وانهزم من بقى.

وفيها بلغ العادل أن الملك الأفضل علىّ ابن أخيه كاتب الأمراء، فأمر ابنه الأشرف موسى أن ينتزع منه رأس عين وسروج، وكتب إلى الظاهر أن يأخذ منه قلعة نجم، ففعلا ذلك، ولم يبق معه سوى سميساط لا غير، فسير الأفضل أمه إلى العادل لتشفع فيه، فقدمت عليه إلى دمشق، فلم يقبل شفاعتها وأعادها خائبة، وكان هذا عبرة، فإن صلاح الدين لما نازل الموصل خرجت إليه الأتابكيات، ومنهن ابنة نور الدين محمود بن

---

(1) سنة ٥٩٩ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٦٣/ ٦ وما بعدها الكامل ١٧٩/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٧١، ٢ وما بعدها.

زنكى، يستغثن إليه فى أن يبقى الموصل على عز الدين مسعود، فلم يجبهن وردهن خائبات، فعوقب صلاح الدين فى ولده الأفضل على بمثل ذلك، وعادت أمه خائبة من عند العادل، ولما بلغ الأفضل امتناع عمه عن إجابة سؤال أمه قطع خطبته، ودعا للسلطان ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان السلجوقى، صاحب الروم.

وفيها زاد ماء النيل زيادة كثيرة، ورخصت الأسعار.

وفيها انقضت دولة الهواشم بمكة، وقدم إليها حنظلة بن قتادة بن إدريس بن مطاعن من ينبع، فخرج منها مكثر بن عيسى بن فليتة إلى نخلة، فأقام بها ومات سنة ستمائة، ثم وصل محمد بن مكثر إلى مكة، فحاربوه وهزموه، ثم قدم قتادة أبو عزيز بن إدريس، فاستمر بمكة هو وولده من بعده أمراء إلى أعوام كثيرة.

* * *

سنة ستمائة[1]

فيها تقرر الصلح بين العادل وبين الفرنج، وانعقدت الهدنة بينهما، وتفرقت العساكر.

وفيها نازل ابن لاون أنطاكية حتى هجم عليها، وحصر الإبرنس بقلعتها، فخرج الظاهر من حلب نجدة له، ففر ابن لاون.

وفيها أوقع الأشرف موسى بن العادل بعسكر الموصل، وهزمهم ونازلها وبها السلطان نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى أتابك بن آقسنقر، ونهب الأشرف البلاد نهبا قبيحا، وبعث إلى أبيه العادل بالبشارة، فاستعظم ذلك وما صدقه، وسر به سرورا كثيرا.

وفيها ملك الإفرنج مدينة القسطنطينية من الروم.

وفيها تجمع الإفرنج بعكا من كل جهة يريدون أخذ بيت المقدس، فخرج العادل من دمشق، وكتب إلى سائر الممالك يطلب النجدات، فنزل قريبا من جبل الطور على مسافة يسيرة من عكا، وعسكر الفرنج بمرج عكا، وأغاروا على كفركنّا[2] وأسروا من كان هناك، وسبوا ونهبوا، وانقضت هذه السنة والأمر على ذلك.

وفيها مات ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قطلوش بن بيغو أرسلان بن سلجوق صاحب الروم، فى سادس ذى القعدة، وقام من بعده ابنه عز الدين قلج أرسلان، وكان صغيرا، فلم يستتب أمره.

وفيها عاد الأشرف موسى بن العادل إلى حران بأمر أبيه، وهم العادل برحيله إلى مصر، فقدم عليه ابنه الأشرف، ثم عاد إلى حران.

وفيها خرج أسطول الفرنج إلى مصر، وعبر النيل من جهة رشيد، فوصل إلى فوة، وأقام خمسة أيام ينهب، والعسكر تجاهه ليس له إليه وصول لعدم وجود الأسطول العادلى.

---

(١) سنة ٦٠٠ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٦٥/ ٦ الكامل ١٨٥/ ١٢ وما بعدها ، تاريخ ابن الوردى ١٧٤/ ٢.

(٢) كفركنا: بفتح الكاف، وتشديد النون: بلد بفلسطين. انظر معجم البلدان ٤٧٠/ ٤.

وفيها أوقع الأمير شرف الدين قراقوش التقوى المظفرى ببـلاد المغـرب، فقبـض عليـه وحمل إلى ابن عبد المؤمن.

وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت أكثر أرض مصـر والشـام، والجزيـرة وبـلاد الـروم، وصقلية وقبرس، والموصل والعراق؛ وبلغت إلى سبتة[1] ببلاد المغرب.

وفيها ملك الفرنج قسطنطينية من أيدى الروم، فلم يزالوا بهـا حتـى استعادها الـروم منهم، فى سنة ستين وستمائة.

* * *

---

(١) سبتة: هى بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب. انظر معجم البلدان ٣/ ١٨٢، وفى الـروض المعطار سبتة: مدينة عظيمة على الخليج الرومى المعروف بالزقاق وهو أوّل البحـر الشـامى المنتهـى إلى مدينة صور من أرض الشام، وهى تقابل الجزيرة الخضراء، والبحر يحيـط بسـبتة شـرقًا وجوفًـا وقبلـة، وليس لها على البر غير طريق واحدة من ناحية الغرب لو شـاء أهلهـا أن يقطعـوه قطعـوه، ولهـا بابـان أحدهما محدث، ولها من جهات البحر أبواب كثيرة، وفى آخر المدينة بشرقيها جبل كبـير فيـه شـعراء كثيفة يسمى جبل المينا، وسبتة سبعة أجبل صغار متصلة بعضها ببعض، معمـورة، طولهـا مـن المشـرق إلى المغرب نحو ميل، ويتصل بها من جهة المغرب وعلى ميلين منها جبل موسى، وهذا الجبل منسـوب إلى موسى بن نصير الذى على يديه افتتاح الأندلس فى صدر الإسـلام. انظـر الـروض المعطـار ٣٠٣، ٣٠٤، والبكرى ١٠٢، والاستبصار ١٣٧، ابن الوردى ١٤، وصبح الأعشى ٥/ ١٧٥.

سنة إحدى وستمائة[1]

فيها تم الصلح بين الملك العادل وبين الفرنج، وتقررت الهدنة مدة، وشرطوا أن تكون يافا لهم، مع مناصفات لد والرملة، فأجابهم العادل إلى ذلك، وتفرقت العساكر، وسار العادل إلى القاهرة، فنزل بدار الوزارة، واستمر ابنه الكامل بقلعة الجبل، وشرع فى ترتيب أمور مصر.

وفيها مات الأمير عز الدين إبراهيم بن الجوينى والى القاهرة، فى سلخ جمادى الأولى.

وفيها ورد الخبر بأن الفرنج أخذوا القسطنطينية من الروم.

وفيها غارت الفرنج الإسبتارية على حماة فى جمع كبير، لأن هدنتهم انقضت، فقتلوا ونهبوا، ثم عادوا.

وفيها قدم الملك المنصور صاحب حماة على عمه الملك العادل بالقاهرة، فسر به وأكرمه، ثم رجع بعد أيام.

وفيها أغار الفرنج على حمص، وقتلوا وأسروا، فخرج العادل من القاهرة إلى بركة الجب، ثم عاد.

وفيها أغار فرنج طرابلس على جبلة واللاذقية، وقتلوا عدة من المسلمين، وغنموا وسبوا شيئا كثيرا.

وفيها أخذ الصاحب صفى الدين عبد الله بن شكر يغرى الملك العادل بأبى محمد مختار بن أبى محمد بن مختار، المعروف بابن قاضى دارا، وزير الملك الكامل، حتى نقم عليه وطلبه، فخاف عليه الكامل، وأخرجه من مصر - ومعه ابناه فخر الدين وشهاب الدين - إلى حلب، فأكرمهم الملك الظاهر، ثم ورد عليه من الكامل كتاب يستدعيه إلى مصر، فخرج ونزل بعين المباركة ظاهر حلب.

فلما كان فى ليلة الرابع والعشرين من ذى القعدة: أحاط به نحو الخمسين فارسا فى أثناء الليل، وأيقظوه وقتلوه، ثم قالوا لغلمانه: «احفظوا أموالكم، فما كان لنا غرض سواه». فبلغ ذلك الظاهر فارتاع له، وركب بنفسه حتى شاهده، وبعث الرجال فى سائر الطرقات، فلم يقف لقتله على خبر، فكانت هذه القضية من أعجب ما سمع.

* * *

(1) سنة ٦٠١ هـ. انظر أحداث هذه السنة فى النجوم الزاهرة ١٦٦/ ٦ الكامل ٢٠٠/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٧٥/ ٢.



سنة اثنتين وستمائة[1]

فيها قبض على السعد أبى المكارم بن مهدى بن مماتى صاحب الديوان فى جمادى الآخرة، وعلق برجليه.

وفيها قبض على الأمير عبد الكريم أخى القاضى الفاضل، وأخذ خطه بعشرين ألف دينار وأداها، وأخذ من شرف الدين إبراهيم بن عبد الرحمن بن قريش خمسة آلاف دينار.

وفيها باشر التاج[......][2]بن الكعكى ديوان الجيش.

وفيها ضرب الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر الفقيه نصرا فى وجهه بالدواة، فأدماه.

* * *

(١) سنة ٦٠٢ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٦٨/ ٦ الكامل ٢٠٨/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٧٦/ ٢.

(٢) مابين المعقوفتين سقط فى الأصل.



سنة ثلاث وستمائة(١)

فيها كثرت الغارات من الفرنج على البلاد، فخرج الملك العادل إلى العباسة، ثم أغذّ السير إلى دمشق، ثم برز منها إلى حمص، فأتته العساكر من كل ناحية، فاجتمع عنده عشرات آلاف، وأشاع أنه يريد طرابلس، فلما انقضى شهر رمضان توجه إلى ناحية حصن الأكراد فنازله، وأسر خمسمائة رجل وغنم، وافتتح قلعة أخرى. ثم نازل طرابلس، وعاثت العساكر فى قراها، ولم يزل على ذلك إلى أيام من ذى الحجة ، ثم عاد إلى حمص - وقد ضجرت العساكر - فبعث صاحب طرابلس يلتمس الصلح، وسير مالا وثلاثمائة أسير وعدة هدايا، فانعقد الصلح فى آخر ذى الحجة.

وفيها حدثت وحشة بين العادل وبين ابن أخيه الملك الظاهر، صاحب حلب، فترددت بينهما الرسل حتى زالت، وحلف كل منهما لصاحبه.

وكثر فى هذه السنة تخريب العادل لقلاع الفرنج وحصونهم.

وفيها عزل الصاحب ابن شكر البدر بن الأبيض قاضى العسكر، وقرر مكانه نجم الدين خليل بن المصمودى الحموى.

وفيها قدم مانع بن سلمان شيخ آل دعيج من غزية(٢) التى فيما بين بغداد ومكة.

* * *

ومات فى هذه السنة

عبد الرحمن بن سلامة قاضى الإسكندرية بها، يوم الأربعاء ثامن صفر.

وفيها نفى الأشرف[...] بن(٣) عثمان الأعور، واعتقل أخوه علم الملك.

وفيها ماتت أم الملك المعظم بن العادل بدمشق، فى يوم الجمعة عشرى ربيع الأول، ودفنت بسفح قاسيون.

* * *

---

(١) سنة ٦٠٣ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٧٠/ ٦ الكامل ٢٤٤/ ١٢ ومابعدها، تاريخ ابن الوردى ١٧٧/ ٢.

(٢) غزية: بضم الغين، وفتح الزاى، وتشديد الياء، وقيل: بفتح الغين، وكسر الزاى، وقيل: بفتح الراء المهملة: موضع قرب فيد وبينهما مسافة يوم. انظر معجم البلدان ٢٠٣/ ٤.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط فى الأصل.



سنة أربع وستمائة[1]

فيها عاد الملك العادل إلى دمشق، بعد انعقاد الصلح بينه وبين ملك الفرنج بطرابلس.

وفيها بعث العادل أستاداره الأمير أَلْدَكُزْ العادلى، وقاضى العسكر نجم الدين خليل المصمودى إلى الخليفة فى طلب التشريف والتقليد بولاية مصر والشام والشرق وخلاط، فلما وصلا إلى بغداد أكرمهما الخليفة الناصر لدين الله، وأحسن إليهما وأجابهما، وسير الشيخ شهاب الدين أبا عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه السهروردى[2] ومعه التشريف الخليفتى والتقليد، وخلعة للصاحب صفى الدين بن شكر، وخلع لأولاد العادل: وهم الملك المعظم؛ والملك الأشرف، والملك الكامل، فعندما قارب بالشيخ أبو حفص حلب خرج الملك الظاهر بعساكره إلى لقائه، وأكرم نزله.

وفى ثالث يوم من قدومه أمر بكرسى فنصب له، وجلس عليه للوعظ، وجلس الظاهر ومعه الأعيان، فصدع بالوعظ حتى وجلت القلوب ودمعت العيون، وأخبر الشيخ فى وعظه بأن الخليفة أطلق - فى بغداد وغيرها - من المؤن والضرائب، ما مبلغه ثلاثة آلاف ألف دينار، ثم سار من حلب، ومعه القاضى بهاء الدين بن شداد، وقد دفع إليه الظاهر ثلاثة آلاف دينار، برسم النثار إذا لبس عمه العادل خلعة الخليفة، وبعث الملك المنصور من حماة أيضا مبلغا للنثار، وخرج العسكر من دمشق إلى لقائه، ثم خرج العادل بابنيه الأشرف موسى والمعظم عيسى، وبرز سائر الناس لمشاهدة ذلك، فكان يوما مشهودا، ولما دخل الشيخ أبو حفص دمشق جلس العادل فى دار رضوان، وأفيضت عليه الخلع، وهى جبة أطلس أسود واسعة الكم بطراز مذهب، وعمامة سوداء بطراز ذهب، وطوق ذهب بجوهر ثقيل، وقلد العادل أيضا بسيف محلى، جميع قرابه من ذهب، وركب حصانا أشهب بركب ذهب، ونُشر على رأسه علم أسود مكتوب فيه بالبياض ألقاب الخليفة، مركب فى قصبة ذهب، وتقدم القاضى ابن شداد فنثر الذهب، وقدم له خمسين خلعة؛ ونثرت رسل الملوك بعده، ثم لبس الأشرف والمعظم خلعتيهما،

---

(1) سنة ٦٠٤ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٧٢/ ٦ والكامل ٢٥٩/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٧٨/ ٢.

(2) نسبه إلى سهرورد: بضم أوله، وسكون ثانيه، وفتح الراء والواو، وسكون الراء، ودال مهملة: بلدة قريبة من زنجان بالجبال، خرج منها جماعة من الصالحين والعلماء. انظر معجم البلدان ٢٨٩/ ٣، وفى الروض المعطار سهرورد: بلدة بين زنجان وهمذان. انظر الروض المعطار ٣٢٨، ومعجم ما استعجم ٧٦٧/٣.

وهما عمامة سوداء، وثوب أسود واسع الكم، ثم خلع على الصاحب صفى الدين بن شكر الوزير كذلك، وركب العادل - ومعه ابناه ووزيره - بالخلع الخليفتية، وقد زينت البلد، ثم عادوا إلى القلعة، واستمرت زينة البلد ثمانية أيام، وقرأ التقليد الصاحب صفى الدين على كرسى ، وخوطب العادل فيه بشاهنشاه، ملك الملوك، خليل أمير المؤمنين، وكان الوزير فى حال قراءته قائما على الكرسى، والعادل وسائر الناس أيضا قياما، إجلالا للخليفة، ثم سار الشهاب السهروردى إلى مصر، فأفاض على الملك الكامل الخلعة الخليفتية، وجرى من الرسم كما وقع بدمشق، ثم عاد إلى بغداد.

وفيها أمر العادل بعمارة قلعة دمشق، وفرق أبراجها على الملوك، فعمروها من أموالهم.

وفيها اتسعت مملكه العادل، فلما تمهدت له الأمور قسم مملكته بين أولاده، فأعطى ابنه الملك الكامل ناصر الدين محمدا مملكة مصر، ورتب عنده القاضى الأعز فخر الدين مقدام بن شكر، وأعطى ابنه المعظم شرف الدين عيسى من العريش[1] إلى حمص، وأدخل فى ولايته بلاد الساحل الإسلامية، وبلاد الغور وأرض فلسطين، والقدس والكرك، والشوبك وصرخد، وأعطى ابنه الملك الأشرف مظفر الدين موسى البلاد الشرقية، وهى الرها وما معها من حران وغيرها، وأعطى ابنه الملك الأوحد نجم الدين أيوب[2] خلاط وميافارقين وتلك النواحى، وكان الأوحد قد بعث إليه أهل خلاط ليملكها، فسار من ميافارقين وملكها.

وفيها كمل الملك الكامل محمد بناء قلعة الجبل، وتحول إليها من دار الوزارة بالقاهرة، فكان أول من سكنها من ملوك مصر، ونقل إليها أولاد الخليفة العاضد

---

(١) العريش: بفتح أوله، وكسر ثانيه، ثم شين معجمة بعد الياء المثناة من تحت: وهى مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم فى وسط الرمل. انظر معجم البلدان ١١٣/ ٤، وفى الروض المعطار العريش: من ديار مصر فى أسفل الأرض، وهى أول مسالح مصر وأعمالها، وهى من سواحل البحر، ومن العريش تفترق الطريق فتصير طريقين: طريق الجفار وهو الرمل، وطريق الساحل على البحر، فأما طريق الجفار فمن العريش إلى الواردة إلى العذيبة إلى البقارة إلى الفرما، وأما طريق الساحل فمن العريش إلى الدقهلة إلى القيس إلى الفرما، وكانت مدينة العريش ذات جامعين مفترقى المبانى، والغالب على أرضها الرمال، ولها ثمار ونخل وفواكه. انظر الروض المعطار ٤١٠، وصبح الأعشى ٣٨٢/٣.

(٢) الأوحد الأيوبى (٦٠٩ هـ- ١٢١٢م). أيوب الأوحد بن محمد أبى بكر العادل بن أيوب: من ملوك الدولة الأيوبية. تملك مدينة خلاط بأرمينية خمس سنين وكان ظلوما سفاكا لدماء الأمراء. انظر العبر ٣١/٥، ترويح القلوب ٦٠، الأعلام ٣٨/ ٢.

الفاطمى وأقاربه فى بيت على صورة حبس، فأقاموا به إلى أن حولوا منه فى سنة إحدى وسبعين وستمائة.

وفيها توفى الأمير داود بن العاضد فى محبسه. وكانت الإسماعيلية تزعم أن العاضد عهد إليه، وأنه الإمام من بعده، فاستأذن أصحابُه الملك الكامل أن ينوحوا عليه ويندبوه، فأذن لهم، فبرزت النساء حاسرات، والرجال فى ثياب الصوف والشعر، وأخذوا فى ندبه والنياحة عليه، واجتمع معهم من كان فى الاستتار من دعاتهم، فلما تكامل جمعهم أرسل الكامل إليهم طائفة من الأجناد نهبوا ما عليهم، وقبضوا على المعروفين منهم، فملأ بهم السجون، واستصفى أموال ذوى اليسار منهم، ففر من بقى، وزال من حينئذ أمر الإسماعيلية من ديار مصر، ولم يجسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم.

* * *

سنة خمس وستمائة[1]

فيها سار الكرج ونهبوا أعمال خلاط، وأسروا وغنموا؛ فلم يجسر الأوحد أن يخرج إليهم من مدينة خلاط، فلما بلغ ذلك الملك العادل أخذ فى التجهيز لحرب الكرج، وسار الأشرف من دمشق يريد بلاده بالشرق.

وفيها قتل الملك معز الدين سنجر شاه بن غازى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر الأتابكى، صاحب الجزيزة، قتله ابنه محمود، وقام فى الملك من بعده.

وفيها بعث الأمير سيف الدين سنقر، أتابك اليمن عشرة آلاف دينار مصرية إلى الملك العادل، عليها اسمه.

وفيها مات القاضى مكين الدين مطهر بن حمدان، بقلعة بصرى فى شهر رجب، ومات هلال الدولة وشاب بن رزين، والى القاهرة، وعزل الأمير سيف الدين علىّ بن كهدان عن ولاية مصر، وعزل الأسعد بن حمدان عن الشرقية، وباشرها خشخاش الوراق.

وفيها توفى قاضى القضاة صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس المارانى، يوم الأربعاء خامس رجب، وكان قد قدم مصر فى رابع رجب سنة خمس وستين خمسمائة، فتكون مدة مقامه بديار مصر أربعين سنة.

* * *

(1) سنة ٦٠٥ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٦/١٧٤ الكامل ١٢/٢٧٩ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٨٠.

سنة ست وستمائة[1]

فيها خرج العادل من دمشق يريد محاربة الكرج، ومعه الملوك من بنى أيوب: وهم الملك المنصور صاحب حماة، والملك المجاهد صاحب حمص، والملك الأمجد صاحب بعلبك، وأرسل إليه الملك الظاهر غازى صاحب حلب جيشا، فنزل العادل حران، وأتته النجدات مع ولديه الملك الأوحد صاحب خلاط وميافارقين، والملك الأشرف موسى، وغيرهما ، فاستولى على نصيبين، ونازل سنجار، وبها الملك قطب الدين محمد ابن زنكى، فكانت بينهما عدة وقائع، بعث فى أثنائها صاحب سنجار إلى الخليفة الناصر لدين الله، وإلى الملك الظاهر غازى صاحب حلب، وإلى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب الروم، وغيرهم يستنجد بهم على العادل، فمال إليه عدة من الملوك، عونا على العادل، ففارقه عدة ممن كان معه على حصار سنجار، ودسوا إلى جماعة من أصحابه الدسائس، ففسدت أحواله، وقدم عليه رسول الخليفة، وهو هبة الله بن المبارك ابن الضحاك يأمره بالرحيل، فقال له عم الإمام الخليفة الناصر: «قال لك بحياتى ياخليلى ارحل». فعاد العادل إلى حران، وتفرقت العساكر عنه.

وفيها حصلت بين العادل وبين وزيره الصاحب ابن شكر منافرة أوجبت غضبه وسفره فى البرية فركب المنصور صاحب حماة، وفخر الدين جهاركس صاحب بانياس حتى لحقاه فى رأس عين، وقدما به على العادل فرضى عنه، ومن حينئذ انحطت منزلته.

وفيها مات الملك المؤيد نجم الدين مسعود بن صلاح الدين يوسف بن أيوب برأس عين، وقيل إنه سُمَّ، فحمل إلى حلب ليدفن بها.

وفيها عاد الملك العادل إلى دمشق.

وفيها ولى الأمير المكرم بن اللمطى قوص، فى ذى القعدة.

* * *

(1) ٦٠٦ هـ.(١٧٥ - ١٧٧ /٦). الكامل ٢٨٤/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٨١/ ٣.



سنة سبع وستمائة[1]

فيها ظفر الملك الأوحد بن العادل بملك الكرج، ففدى نفسه منه بمائة ألف دينار وخمسة آلاف أسير من المسلمين، وأن يلتزم الصلح ثلاثين سنة، وأن يزوجه ابنته بشرط ألا تفارق دينها، فأطلقه الأوحد، وردت على المسلمين عدة قلاع.

وفيها مات الأوحد، وملك خلاط بعده أخوه الأشرف.

وفيها تحرك الفرنج إلى الساحل، واجتمعوا فى عكا، فخرج الملك العادل من دمشق، فوقع بينه وبينهم صلح، وأخذ العادل فى عمارة قلعة الطور بالقرب من عكا، وسار إلى الكرك، فأقام بها أياما، ثم رحل إلى مصر، فدخل القاهرة، ونزل بدار الوزارة.

وفيها مات الأمير فخر الدين جهاركس.

وفيها تحرك الفرنج ثانيا، فتجهز العادل للسفر إلى الشام.

وفيها كفت يد الصاحب صفى الدين بن شكر عن العمل.

وفيها مات السلطان نور الدين أرسلان شاه بن السلطان مسعود الأتابكى صاحب الموصل، فى شهر رجب، وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا، وقام من بعده ابنه الملك القاهر عز الدين مسعود، وقام بتدبيره الأمير بدر الدين لؤلؤ الأتابك، مملوك أبيه.

وفيها شرب ملوك الأطراف كأس الفتوة للخليفة الناصر، ولبسوا سراويل الفتوة أيضا، فوردت عليهم الرسل بذلك؛ ليكون انتماؤهم له، وأمر كل ملك أن يسقى رعيته ويلبسهم؛ لتنتمى كل رعية إلى ملكها، ففعلوا ذلك، وأحضر كل ملك قضاة مملكته وفقهاءها وأمراءها وأكابرها، وألبس كلا منهم له، وسقاه كأس الفتوة، وكان الخليفة الناصر مغرما بهذا الأمر، وأمر الملوك أيضا أن تنتسب إليه فى رمى البندق، وتجعله قدوتها فيه.

وفيها قدم إلى القاهرة كليام الفرنجى الجنوى تاجرا، فاتصل بالملك العادل، وأهدى إليه نفائس، فأعجب العادل به، وأمره بملازمته، وكان كليام فى باطن الأمر عينا للفرنج، يطالعهم بالأحوال، فقيل هذا للعادل، فلم يلتفت إلى ما قيل عنه.

---

(١) سنة ٦٠٧ هـ. الكامل ٢٨٩/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/١٨٣.

ومات فيها يوسف بن الأسعد بن مماتى، فى الرابع من جمادى الأولى بالقاهرة.

ومات الأمير سياروخ فى خامس عشر رجب.

وفيها قتل غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقى صاحب قونية، وقد حدث ذلك فى أوائل السنة، وهو يواقع الأرمن حلفاء الروم، عند بلده خونا من أعمال أذربيجان، وكان قد غلبه أخوه ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان على قونية، وألجأه إلى الفرار منها سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة، وقام بعده فى قونية ابنه قلج أرسلان بن ركن الدين، وعند ذلك عاد كيخسرو إلى بلاده بعد فراره إلى حلب وغيرها، وملك كيخسرو قونية ثانيا، بعد خطوب جرت له، وقد قبض أهلها على قلج أرسلان بن ركن الدين، ثم قتل كيخسرو بعدما استفحل أمره، وولى ابنه عز الدين كيكاوس بن غياث الدين.

وفيها كانت وقعة بين حاج العراق وبين أهل مكة بمنى، قتل فيها عبد للشريف قتادة اسمه بلال، فقيل لها سنة بلال.

* * *

سنة ثمان وستمائة[1]

فيها قبض الملك العادل على الأمير عز الدين أسامة الصلاحي، نائب كوكب وعجلون واعتقله وأخذ ماله، وسيره إلى الكرك فاعتقل فيها هو وولده، وتسلم المعظم قلعة كوكب وعجلون، وهدم قلعة كوكب، وعفى أثرها.

وفيها توجه الملك العادل إلى الإسكندرية؛ لكشف أحوالها.

وفيها قدم بهاء الدين بن شداد من حلب إلى القاهرة يخطب صفية خاتون ابنة العادل شقيقة الكامل، لابن عمها الظاهر، فأجيب إلى ذلك، وعاد مكرما.

وفيها ماتت أم الملك الكامل، يوم الأحد خامس عشرى صفر، فدفنت عند قبر الإمام الشافعي، ورتب ابنها عند قبرها القراء والصدقات، وأجرى الماء من بركة الحبش[2] إلى قبة الشافعي، ولم يكن قبل ذلك، فنقل الناس أبنية القرافة الكبرى[3] إلى هذه القرافة من حينئذ، وعمروها.

وفيها خرج العادل من القاهرة، فسار إلى دمشق وبرز منها يريد الجزيرة، فوصل إليها ورتب أحوالها، وعاد إلى دمشق، ومعه كليام الفرنجي.

وفيها انقضى أمر الطائفة الصلاحية بانقضاء الأمير قراجا والأمير عز الدين أسامة، والأمير فخر الدين جهاركس، وصفت حصونهم للعادل وابنه المعظم.

وفيها نقل أولاد العاضد الفاطمي وأقاربه إلى قلعة الجبل في يوم الخميس ثاني عشرى رمضان، وتولى وضع القيود في أرجلهم الأمير فخر الدين ألطونبا أبو شعرة بن الدويك، والى القاهرة، وكانت عدتهم ثلاثة وستون نفسا.

وفيها كانت بمصر زلزلة شديدة هدمت عدة دور بالقاهرة ومصر، وزلزلت الكرك

---

(١) سنة ٦٠٨ هـ . انظر أحداث تلك السنة في النجوم الزاهرة ١٨٠ - ١٨٢/ ٦ الكامل ٢٩٦/ ١٢ وما بعدها، تاريخ بن الوردى ٢/١٨٦.

(٢) بركة الحبش أرض في وهدة من الأرض واسعة طولها نحو ميل مشرفة على نيل مصر خلف القرافة وقف على الأشراف تزرع فتكون نزهة خضرة لزكاء أرضها وريها وهي من أجل متنزهات مصر. انظر معجم البلدان.

(٣) القرافة: خطة بالفسطاط من مصر كانت لبني غصن بن سيف واثل بن المعافر، وهو اليوم مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحال واسعة وسوق قائمة. انظر معجم البلدان ٣١٧/ ٤.

والشوبك، فمات تحت الهدم خلق كثير، وسقط عدة من أبراج قلعتها، ورؤى بدمشق دخان نازل من السماء إلى الأرض، فيما بين المغرب والعشاء عند أرض قصر عاتكة.

وفيها مات الموفق بن أبى الكرم التنيسى فى يوم الأحد سابع عشر ربيع الأول.

ومات ظافر بن الأرسوفى بمصر فى سلخ رجب.

وفيها اجتمع بالإسكندرية ثلاثة آلاف تاجر وملكان من الفرنج، فسار العادل وقبض على التجار، وأخذ أموالهم، وسجن الملكين.

وفيها- أعنى سنة ثمان وستمائة - كانت فتنة بين حاج العراق وبين أهل مكة، سببها أن حشيشيا جاء لقتل الشريف قتادة، فقتل شريفا اسمه أبو هارون عزيز، ظنا منه أنه قتادة، فثارت الفتنة، وانهزم أمير الحاج، ونهب الحاج عن آخره، وفر من مكة من بمكة من نواب الخليفة، ومن المجاورين، فبعث الشريف قتادة ولده راجح بن قتادة[1] إلى الخليفة يعتذر له عما جرى، فقبل عذره وعفى عنه.

* * *

---

(١) راجح بن قتادة (٦٥٤ هـ - ١٢٥٦م). راجح بن قتادة بن إدريس بن مطاعن: شريف، ممن تولوا إمارة مكة. انتزعها من عمال مصر سنة ٦٢٧ هـ، واستعادها منه، وتوالى ذلك مرارا حتى وليها ثمانى مرات. انظر خلاصة الكلام ٢٥ - ٢٧/ حوادث الجامعة ٢٧٣. الأعلام ١٠/ ٣.

سنة تسع وستمائة[1]

فيها نزل العادل بعساكره حول قلعة الطور، وأحضر الصناع من كل بلد، واستعمل جميع أمراء العسكر فى البناء ونقل الحجارة، فكان فى البناء خمسمائة بنّاء، سوى الفعلة والنحاتين، ومازال مقيما حتى كملت.

وفيها قدم ابن شداد من حلب إلى دمشق بمال كثير وخلع، برسم عقد نكاح صفية خاتون ابنة العادل على ابن عمها الظاهر صاحب حلب، فخرج إلى لقائه عامة الأمراء والأعيان، وعقد النكاح فى المحرم على مبلغ خمسين ألف دينار، ونثر النثار على من حضر بقلعة دمشق، وذلك فى المحرم، ثم جهزت إليه بحلب فى تجمل عظيم، من جملة قماش وآلات ومصاغ يحمله خمسون بغلا، ومائة بختى، وثلاثمائة جمل؛ وجوارى فى المحامل على مائة جمل، منهن مائة مغنية يلعبن بأنواع الملهى، ومائة جارية يعملن أنواع الصنائع البديعة، فكان دخولها إلى حلب يوما عظيما، وقدم لها الظاهر تقادم: منها خمسة عقود جوهر بمائة وخمسين ألف درهم، وعصابة جوهر لا نظير لها، وعشر قلائد عنبر مذهب، وخمس قلائد بغير ذهب، ومائة وسبعون قطعة من ذهب وفضة، وعشرون تختا من ثياب، وعشرون جارية، وعشرة خدام.

وفيها عزل الهمام بن هلال الدولة من ولاية القاهرة، وولى فخر الدين ألطونبا أبو شعرة مملوك المهرانى فى [....][2].

وفيها تغير الملك العادل على الوزير صفى الدين بن شكر، ورفع يده من الوزارة، وأبقى عليه ماله وأخرجه إلى آمد، فلم يزل بها حتى مات العادل.

وفيها فوض العادل تدبير مصر، والنظر فى أموالها ومصالحها إلى ولده الملك الكامل؛ فرتب الكامل القاضى الأعز فخر الدين مقدام بن شكر ناظر الدولتين.

وفيها خرج العادل من الشام يريد خلاط، فسار إليها ودخلها، وفيها ابنه الأشرف، وقد استولى على ما بها من الأموال.

* * *

---

(١) سنة ٦٠٩ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٨٢ - ١٨٤/ ٦ الكامل ٣٠٠/ ١٢، تاريخ ابن الوردى ٢/١٨٨.

(٢) مابين المعقوفتين سقط فى الأصل.

سنة عشر وستمائة(١)

فيها تخوف الظاهر صاحب حلب من عمه العادل، وأخذ فى الاستعداد، ثم تراسلا حتى سكن الحال.

وفيها ولدت صفية ابنة العادل لابن عمها الظاهر مولودا سماه محمدا ولقبه بالملك العزيز غياث الدين، وذلك فى خامس ذى الحجة، فزينت حلب، واحتفل الظاهر احتفالا زائدا، وأمر فصيغ له من الذهب والفضة جميع الصور والأشكال ما وزن بالقناطير، وصاغ له عشرة مهُود من ذهب وفضة، سوى ما عمل من الأبنوس والصندل والعود وغيره، ونسج للصبى ثلاث فرجيات من لؤلؤ، فى كل فرجية أربعون حبة ياقوت ولَعْل وزمرد، ودرعان وخوذتان وبركستوان، كل ذلك من لؤلؤ؛ وثلاثة سروج بجوهرة، فى كل سرج عدة قطع من جوهر رائع وياقوت وزمرد؛ وثلاثة سيوف علائقها وقبضاتها من ذهب مرصع بأنواع الجواهر؛ وعدة رماح من ذهب أسنتها جوهر.

وفيها حج الظاهر خضر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب من حلب، فلما قارب مكة صده قصاد الملك الكامل محمد بن العادل عن الحج، وقالوا: «إنما جئت لأخذ بلاد اليمن»، فقال الظاهر خضر: «ياقوم! قيدونى، ودعونى أقضى مناسك الحج». فقالوا: «ليس معنا مرسوم إلا بردك». فرد إلى الشام، من غير أن يحج، فتألم الناس لذلك.

وفيها مات الأمير فخر الدين إسماعيل والى مصر بها.

وفيها دخل بنو مرين إحدى قبائل زناتة من القفر، ونهبوا أعمال المغرب، وحاربوا الموحدين وهزموهم، وكان أمير بنى مرين إذ ذاك عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد بن ورصيص بن فكوس بن كوماط بن مرين.

* * *

تتمة سنة عشر وستمائة

فيها حفر خندق مدينة حلب، فوجد فيه بلاطة صوان عليها أحرف مكتوبة بالقلم

---

(١) سنة ٦١٠ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٨٤ - ١٨٦/ ٦ الكامل ٣٠١/ ١٢، ٣٠٢/١٢، تاريخ ابن الوردى ٨٩/ ٢.

السريانى، فترجموه بالعربية، فإذا هو: «لما كان العالم محدثا دل أن له محدثا، لا كهو»، وكتب تحت هذه الأحرف: «لخمسة آلاف من السنين خلون من الأسطوان الصغير». فقلعت البلاطة، فوجد تحتها تسع عشرة قطعة من ذهب وفضة وصورى على هيئة اللبن، فاعتبرت فكان الحاصل منها ذهبا ثلاثة وستين رطلا بالحلبى، وكان منها فضة أربعة وعشرين رطلا، وحلقة ذهب وزنها رطلان ونصف رطل، وصورى عشرة أرطال ونصف، فكان الجمع زنته قنطار واحد بالحلبى.

* * *

سنة إحدى عشر وستمائة[1]

فيها فرَّ الملك المنصور بن العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف من اعتقال عم أبيه الملك العادل، ولحق بالظاهر صاحب حلب، ولاذ به هو وإخوته، فأكرمهم الظاهر.

وفيها تجمع فرنج قبرس وعكا وطرابلس وأنطاكية، وانضم إليهم عسكر ابن ملك الأرمن، لقصد بلاد المسلمين، فخافهم المسلمون، وكان أول ما بدأوا به بلاد الإسماعيلية، فنازلوا قلعة الخوابى، ثم ساروا عنها إلى أنطاكية.

وفيها ظفر السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقى صاحب بلاد الروم بالأشكرى ملك الروم.

وفيها خرج الملك العادل من الشام يريد مصر، فنزل فى القاهرة بدار الوزارة، واستمر ابنه الكامل بقلعة الجبل، وأمر العادل أن يقيم معه كليام الفرنجى الجنوى بدار الوزارة.

وفيها ورد الخبر بموت سنقر أتابك اليمن، واستقر بعده الملك الناصر أيوب صاحب اليمن فى ملكه، وقام بأتابكيته غازى.

وفيها شرع الملك العادل فى تبليط جامع بنى أمية بدمشق، وكانت أرضه حفرا وجورا، وتولى العمل الوزير صفى الدين بن شكر.

وفيها تعامل أهل دمشق وغيرها بالقراطيس السود العادلية، ثم بطلت بعد ذلك وفنيت.

وفيها تولى سهم الدين عيسى القاهرة فى شوال، وتولى جمال الدين بن أبى المنصور وكالة بيت المال بها.

ومات سعد بن سعد الدين بن كوجيا فى عشر ربيع الآخر.

وفيها حج الملك المعظم عيسى بن العادل من دمشق، وحج معه الشريف سالم بن قاسم بن مهنا الحسينى أمير المدينة النبوية، فعزم الشريف قتادة أمير مكة على مسكه فلم يتمكن منه، فعاد الشريف سالم صحبة الملك المعظم إلى دمشق، فبعثه المعظم على

---

(1) سنة ٦١١ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٨٦ - ١٨٨/ ٦ الكامل ٣٠٣/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٩٠/٢.

عسكر إلى مكة، فمات فى الطريق قبل وصوله مكة فقام جماز بن قاسم - وهو ابن أخيه - بتدبير الجيش، فجمع قتادة، وسار إلى ينبع ولقيه، فهزم قتادة.

* * *

سنة اثنتى عشرة وستمائة[1]

فيها نازل الفرنج قلعة الخوابى، وحاربوا الباطنية، ثم صالحوهم.

وفيها سير الخليفة الناصر لدين الله كتابه الذى ألفه وسماه «روح العارفين» إلى الشام ومصر وغيرها ليسمع.

وفيها ملك الفرنج أنطالية، وقتلوا من بها من المسلمين، وكانت بيد الملك غياث الدين كيخسرو منذ فتحها سنة اثنتين وستمائة إلى أن أجلاه الفرنج عنها سنة سبع وستمائة، ثم استردها منهم الملك الغالب عز الدين كيكاوس سنة ثلاث عشرة وستمائة، بعد أن بقيت بأيدى الفرنج تلك المدة.

وفى هذه السنة أيضا: سار عز الدين إلى بلاد الأرمن، وحاصر قلعة جابان، وهزم عندها جيوش الأرمن، ورجع إلى قيصرية قبل أن يستولى على قلعة جابان، ثم طلب الأرمن الصلح، وأجابهم إليه عز الدين، فأخذ فى مقابل الصلح من بلاد الأرمن قلعة لؤلؤة ولوزاد.

وفيها مات الملك المعظم أبو الحسن على ابن الخليفة الناصر لدين الله، وهو أصغر أولاده، فلما قدم نعيه على ملوك الأطراف جلسوا فى العزاء، لابسين شعار الحزن خدمة للخليفة.

وفيها سير الملك الكامل ابنه الملك المسعود صلاح الدين يوسف إلى اليمن، فخرج فى جيش كثيف من مصر، وسار إلى بلاد اليمن، فاستولى على معاقلها، وظفر بصاحبها الملك سليمان شاه بن سعد الدين شاهنشاه ابن الملك المظفر تقى الدين عمر ابن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب فسيره تحت الحوطة إلى مصر، فأقام بالقاهرة إلى سنة سبع وأربعين وستمائة، فخرج إلى المنصورة غازيا، فقتل شهيدا، ودانت بلاد اليمن للملك المسعود.

وفيها عاد الملك العادل من الشام إلى القاهرة، فلما قرئ عليه ما أنفق على الملك المسعود فى خروجه إلى اليمن استكثره وأنكر العادل خروجه، فإنه كان بغير أمره، وأمر العادل بالقاضى الأعز فضرب وقيد، واعتقل بقلعة الجزيزة، ثم حمله إلى قلعة بصرى، فسجنه بها.

---

(1) سنة ٦١٢ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٨٨ - ٦/١٩٠. الكامل ٣٠٦/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٩/ ٢.

وفيها نقل العادل أمواله وذخائره وأولاده إلى الكرك.

وفيها أبطل الملك العادل ضمان الخمر والقيان.

وفيها مات تقى الدين اللر، شيخ الخانقاه الصلاحية، دار سعيد السعداء، فى المحرم.
وفيها مات ابن سورروس بن أبى غالب بطريق اليعاقبة فى يوم الخميس عيد الغطاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة للشهداء - وهو الرابع عشر من رمضان - وله فى البطركية مدة ست وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما، وكان أولا يتجر إلى بلاد اليمن، فغرق مرة، وجاء الخبر بأن لم يسلم سوى بحشاشته، وكان لأولاد الجبَّاب معه مال، فأيسوا منه فلما اجتمع بهم أعلمهم أن مالهم سلم، فإنه كان قد عمله فى مقاير من خشب، وسمرها فى المراكب، وأحضره إليهم، فتميز عندهم بذلك، حتى مات البترك مرقص بن زرعة، فتحدث ابن سورروس فى البتركية للقس أبى ياسر، وكان مقيما بالعدوية[1] فحسن له بنو الجباب أن يقوم هو بأمر البتركية، فتحدث فى ذلك، وزكوه فتولى، وكان معه يومئذ سبعة عشر ألف دينار مصرية، فرقها فى مدة بطركيته على الفقراء، وأبطل الديارية، ومنع الشرطونية، ولم يأكل فى ولايته كلها لأحد من النصارى خبزا، ولا قبل لصغير ولا لكبير منهم هدية، وكان القس داود بن يوحنا - المعروف بابن لقلق، من أهل الفيوم - ملازما للشيخ نشىء الخلافة أبى الفتوح بن الميقاط، كاتب الجيوش العادلية، وكان يسافر معه ويصلى به، فلما مات ابن سورروس سأل أبو الفتوح الملك العادل أن يولى القس داود البتركية، فأجابه وكتب له توقيعا بذلك، من غير أن يعلم الملك الكامل، فلم يعجب بعض النصارى ولاية داود، وقام منهم رجل يعرف بالأسعد بن صدقة، كاتب دار التفاح بمصر، وجمع كثيرا من النصارى العصارين بمصر، وطلع فى الليلة التى وقع الاتفاق على تقدمة القس داود فى صبيحتها، ومعه الجمع إلى تحت قلعة الجبل، واستغاثوا بالملك الكامل، وقالوا: «إن هذا الذى يريد أبو الفتوح يعمله بطركا بغير أمرك ما يصلح، ونحن فى شريعتنا لا يقدم البطرك إلا باتفاق الجمهور عليه» . فخرج إليهم الأمر من عند الكامل بتطييب قلوبهم، وفى سحر النهار ركب القس داود، ومعه الأساقفة - وعالم كبير من النصارى - ليقدموه بكنيسة المعلقة بمصر، وكان ذلك يوم الأحد عيد الزيتونة. فركب الملك الكامل إلى أبيه، وعرفه أن النصارى لم يتفقوا على بطركية داود، ولا يجوز عندهم تقدمته إلا باتفاق جمهورهم. فسير الملك العادل إلى الأساقفة ليحضرهم حتى يتحقق

---

(١) العدوية: قرية ذات بساتين قرب مصر على شاطئ شرقى النيل تلقاء الصعيد. انظر معجم البلدان ٩٠/ ٣.

الأمر، فوافاهم الرسل مع القس داود، عند زقاق كنيسة الحمراء، فأحضرت الأساقفة إلى الملك العادل، ودخل داود إلى كنيسة الحمراء، وانحل أمره، وخلا الكرسى من بطريق تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما.

وفى جمادى الأولى: صرف الملك العادل زكى الدين الطاهر بن محيى الدين محمد بن على القرشى عن قضاء دمشق، وألزم جمال الدين عبد الصمد بن محمد بن أبى الفضل الحرستانى[1] بولاية القضاء بها وله من العمر اثنتان وتسعون سنة.

وفيها قدم إلى القاهرة من الشرق رجل معه حمار له سنام كسنام الجمل، يرقص ويدور، ويستجيب له إذا دعاه.

* * *

---

(١) نسبة إلى حرستا وهى بالتحريك، وسكون السين، وتاء فوقها. نقطتان: قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص، بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ. انظر معجم البلدان ٢٤١/ ٢.



سنة ثلاث عشرة وستمائة(١)

فيها ولى بهاء الدين[....](٢)بن الجميزى خطابة القاهرة فى ثالث عشر المحرم.

وولى أبو الطاهر المحلى خطابة مصر فى ثانى صفر.

وفيها سار الملك العادل من القاهرة إلى الإسكندرية، فرتب أمورها وعاد.

وفيها قدم البهاء بن شداد برسالة الظاهر من حلب إلى العادل، وهو بالقاهرة، فمرض الظاهر فى خامس عشرى جمادى الأول، ومات فى ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة عن أربع وأربعين سنة وأشهر، ومدة تملكه بحلب إحدى وثلاثون سنة، وكان قد سمع الحديث وأسمعه بحلب، وكان سفاكا للدماء، شهما يقظا صاحب سياسة، وله شعر حسن، وقام من بعده ابنه الملك العزيز غياث الدين محمد، وعمره يومئذ سنتان وأشهر، بعهد من أبيه، وكان الملك العادل - عندما مرض الظاهر - رتب بريدا من مصر إلى حلب يطالعه بخبره، فأتاه نعيه قبل كل أحد، فأحضر الملك العادل ابن شداد، وقال له: «ياقاضى! صاحبك قد مات فى ساعة كذا من يوم كذا». فعاد ابن شداد إلى حلب.

وفيها كان ابتداء خروج التتر من بلادهم الجوانية إلى بلاد العجم.

وفيها قدم الشريف قاسم من المدينة النبوية، فأغار على جدة، فخرج إليه الشريف قتادة أمير مكة، وكسره يوم عيد النحر.

* * *

---

(١) سنة ٦١٣ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٩٠ - ١٩٣/ ٦ الكامل ٣١٣/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٩٢/ ٢.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط فى الأصل.



سنة أربع عشرة وستمائة[1]

فيها وصل الشيخ صدر الدين بن حمويه من بغداد، بجواب رسالة الملك العادل إلى الخليفة الناصر لدين الله.

وفيها تتابعت أمداد الفرنج فى البحر من روما وغيرها إلى عكا، وفيهم عدة من ملوكهم - وقد نقضوا الصلح، وعزموا على أخذ القدس وسائر بلاد الساحل وغيرها - فعظم جمعهم، فخرج العادل من مصر بعساكره، وسار إلى لد، فبرز الفرنج من عكا فى خلق عظيم، فرحل العادل على نابلس، ونزل فى بيسان، فقال له ابنه المعظم لما رحل: «إلى أين يابه؟». فسبه العادل بالعجمية، وقال : «بمن أقاتل؟ أقطعت الشام مماليك، وتركت من ينفعنى من أبناء الناس الذين يرجعون إلى الأصول» وذكر كلاما فى هذا المعنى.

فقصده الفرنج، فلم يطق لقاءهم، لقلة من معه، فاندفع من بين أيديهم على عقبة فيق، وكتب بتحصين دمشق، ونقل الغلات من داريا إلى القلعة، وإرسال الماء على أراضى داريا وقصر حجاج والشاغور[2] ففزع الناس وابتهلوا إلى الله، وكثر ضجيجهم بالجامع، فزحف الفرنج على بيسان - وقد اطمأن أهلها بنزول العادل عليهم - فانتهبوها وسائر أعمالها، وبذلوا فى أهلها السيف، وأسروا وغنموا ما يجل وصفه، وانبثت سراياهم فيما هنالك حتى وصلت إلى نوى ونازلوا بانياس ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى مرج عكا، وقد أنكوا فى المسلمين أعظم نكاية، وامتلأت أيديهم بالأسر، والسبى والغنائم، وأتلفوا بالقتل والتحريق ما يتجاوز الوصف. فلم يمكثوا بالمرج سوى قليل، ثم أغاروا ثانيا، ونهبوا صيداء والشقيف ورجعوا، وذلك كله من نصف شهر رمضان إلى يوم عيد الفطر، ونزل العادل بمرج الصفر، ورأى فى طريقه رجلا يحمل شيئا، وهو يمشى تارة ويقعد أخرى، فقال له: «ياشيخ ! لا تعجل، ارفق بنفسك». فقال له: «ياسلطان المسلمين! أنت لا تعجل، أو أنا؟ إذا رأيناك قد سرت من بلادك، وتركتنا مع الأعداء، كيف لا نعجل؟». وعندما استقر بمرج الصفر، كتب إلى ملوك الشرق ليقدموا عليه: فأول من قدم عليه أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وهو ابن ناصر

---

(١) سنة ٦١٤ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٩٣ - ١٩٦/ ٦ الكامل ١٢/٣١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٩٣/ ٢.

(٢) الشاغور: محلة بالباب الصغير مشهورة وهى فى ظاهر المدينة. انظر معجم البلدان ٣/٣١٠.

الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، عم السلطان صلاح الدين يوسف، ثم إن العادل جهز ابنه المعظم عيسى صاحب دمشق، بطائفة من العسكر إلى نابلس، كى يمنع الفرنج من بيت المقدس، فنازل الفرنج قلعة الطور التى أنشأها العادل، وجدوا فى قتال أهلها، حتى تمكنوا من سورها، وأشرفوا على أخذها. فقدر الله أن بعض ملوكهم قتل، فانصرفوا عنها إلى عكا بعدما أقاموا عليها سبعة عشر يوما، وانقضت السنة والحال على ذلك، من إقامة الفرنج بمرج عكا، والعادل بمرج الصفر.

وفيها مات القاضى الأجل قاضى قضاة الشام أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبى الفضل بن على بن عبد الواحد الأنصارى الخزرجى العبادى السعدى الدمشقى الشافعى جمال الدين الحرستانى، فى رابع ذى الحجة، ومولده بدمشق فى أحد الربيعين، سنة عشرين وخمسمائة.

ومات الأمير الكبير بدر الدين محمد بن أبى القاسم بن محمد الهكارى[1] قتله الفرنج على حصن الطور، فنقل إلى القدس، ودفن بتربته.

ومات الشجاع محمود بن الدباغ، مضحك الملك العادل، وترك مالا جزيلا.

* * *

(١) الهكارى (٦١٤ هـ - ١٢١٧م). محمد بن محمد أبى القاسم الهكارى، أبو عبد الله، بدر الدين: قائد من المجاهدين فى حرب الصليبيين. له مواقف مشهورة، كان من أمراء الملك المعظم. انظر مرآة الزمان ٥٩٢/٨، الوافى ٣٥٠/٤. الأعلام ٢٧/ ٧.

سنة خمس عشرة وستمائة[1]

فيها اجتمع رأى الفرنج على الرحيل من عكا إلى مصر، والاجتهاد فى تملكها، فأقلعوا فى البحر، وأرسوا على دمياط، فى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول - الموافق لثامن حزيران - على بر جيزة دمياط، فصار النيل بينهم وبين البلد، وكان إذ ذاك على النيل برج منيع، فى غاية القوة والامتناع، فيه سلاسل من حديد، عظام القدر والغلظ، تمتد فى النيل لتمنع المراكب الواصلة فى بحر الملح من عبور أرض مصر، وتمتد هذه السلاسل فى برج آخر يقابله، وكانا مشحونين بالمقاتلة، ويعرف اليوم مكانهما فى دمياط ببين البرجين. وصار الفرنج فى غربى النيل، فأحاطوا على معسكرهم خندقا، وبنوا بدائره سورا. وأخذوا فى محاربة أهل دمياط، وعملوا آلات ومرمات، وأبراجا متحركة يزحفون بها فى المراكب إلى برج السلسة ليملكوه، حتى يتمكنوا من البلد، فخرج الكامل بمن بقى عنده من العسكر، فى ثالث يوم من سقوط الطائر، لخمس خلون من ربيع الأول، وتقدم إلى والى الغربية بجمع سائر العربان، وسار فى جمع كثير، وخرج الأسطول، فأقام تحت دمياط، ونزل السلطان الكامل بناحية العادلية، قريبا من دمياط، وسير البعوث ليمنع الفرنج من العبور، وصار يركب فى كل يوم عدة مرار من العادلية إلى دمياط، بتدبير الأمور وإعمال الحيلة فى مكايدة الفرنج.

وألح الفرنج فى مقاتلة أهل البرج، فلم يظفروا بشىء، وكسرت مرماتهم وآلاتهم، وتمادى الأمر على ذلك أربعة أشهر، هذا والملك العادل يجهز عساكر الشام شيئا بعد شىء إلى دمياط، حتى صار عند الكامل من المقاتلة ما لا يكاد ينحصر عدده.

وفى أثناء ذلك ورد الخبر بحركة الملك الغالب عز الدين كيكاوس السلجوقى، سلطان الروم، إلى البلاد الشامية، بموافقة الملك الصالح[2] صاحب آمد وغيره من ملوك الشام، وأنه وصل إلى منبج، وأخذ تل باشر[3] واتفق كيكاوس مع الملك الأفضل على

---

(١) سنة ٦١٥ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ١٩٦ - ٢٠٠/ ٦ الكامل ٣٣٣/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٩٣/ ٢.

(٢) الصالح الأيوبى (٦٤٨ هـ - ١٢٥١م). إسماعيل بن أيوب: من ملوك الدولة الأيوبية تسلطن بدمشق (٦٣٥هـ) بعد وفاة صاحبها (أخيه) الأشرف. انظر العبر، شذرات الذهب ٥/ ٢٤١، ترويح القلوب ٦١/ ٦٧. الأعلام ٣٢٤/ ١ .

(٣) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة فى شمالى حلب. انظر معجم البلدان ٤٠/ ٢.

ابن صلاح الدين صاحب سميساط أنه يسلمه ما يفتحه من البلاد، فلم يف كيكاوس بما وعد، وسلم ما فتحه لنوابه، فتقاعد عنه كثير من الناس، وأوقع العرب بطائفة من عسكره، فقتلوا وأسروا منهم كثيرا، ونهبوا لهم شيئا له قدر ، فرجع إلى بلاده بغير طائل. هذا والعادل بمرج الصفر، فبينا هو فى الاهتمام بأمر الفرنج، إذ ورد عليه الخبر بأخذ الفرنج برج السلسلة بدمياط، فتأوه تأوها شديدا، ودق بيده على صدره أسفا وحزنا، ومرض من ساعته، فرحل من المرج إلى عالقين، وقد اشتد مرضه، فمات فى سابع جمادى الآخرة يوم الخميس ، فكتم أصحابه موته، وقالوا: «قد أشار الطبيب بعبور دمشق ليتداوى، فحمل فى محفة، وعنده خادم، والطبيب راكب بجانب المحفة، والشربدار يصلح الأشربة، ويحملها إلى الخادم ليشربها السلطان، يوهم الناس بذلك أنه حى، إلى أن دخل قلعة دمشق، وصارت بها الخزائن والحرم وجميع البيوتات، فأعلم بموته، بعدما استولى ابنه الملك المعظم على جميع أمواله، التى كانت معه، وسائر رخته وثقله، ودفنه بالقلعة، فاختبط الناس حتى ركب المعظم، وسكن أمر الناس، ونادى فى البلد: «ترحموا على السلطان الملك العادل، وادعوا لسلطانكم الملك المعظم» أبقاه الله فبكى الناس بكاء كثيرا، واشتد حزنهم لفقده.

وكان مولده فى المحرم سنة أربعين - وقيل سنة ثمان وثلاثين - وخمسمائة بدمشق، وسمع من السلفى وابن عوف، وعرفت مواقفه فى جهاد العدو بثغر دمياط فى سنة خمس وستين وخمسمائة، فى أيام الخليفة العاضد، وفى مدينة عكا، وملك دمشق فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وكانت مدة ملكه لها ثلاثا وعشرين سنة، وملك مصر، فى سنة ست وتسعين، فكانت مدة ملكه لها تسع عشرة سنة وشهرا واحدا وتسعة عشر يوما، ورزق فى أولاده سعادة قلما يتفق مثلها لملك، فبلغوا تسعة عشر ولدا ذكرا، سوى البنات، وهم : الملك الأوحد نجم الدين أيوب صاحب خلاط، وكان قصيرا فى الغاية، شهما مقداما سفاكا للدماء، مات فى حياة أبيه، والملك الفائز إبراهيم، والملك المغيث عمر - وقد توفيا أيضا فى حياته - وترك عمر ابنا سمى بالملك المغيث وشهاب الدين محمود، رباه عمه الملك المعظم عيسى، والملك الجواد شمس الدين مودود، ومات فى حياته أيضا - وترك الملك الجواد ولدا اسمه مظفر الدين يونس بن مودود[1] بقى عند عمه الملك الكامل بمصر، ثم ملك دمشق وغيرها، وكان جوادا شجاعا؛ والملك الكامل

(١) الملك الجواد (٦٤١ هـ - ١٢٤٣م). يونس (بن مظفر الدين) بن مودود (شمس الدين) بن الملك العادل ومحمد بن أيوب: من أمراء الدولة الأيوبية كان جوادا فيه طيش وحمق، يظلم خدامه للناس ولا يبالى. انظر مرآة الزمان ٨/ ٧٠٤ - ٧٣٧، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٣٥ - ٣٤٨، أبو الفداء ٣/ ١٦٩.الأعلام ٢٦٣/ ٨.

ناصر الدين محمد، صاحب مصر، والملك المعظم شرف الدين أبو العزائم عيسى صاحب دمشق، وشقيق الملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب بانياس - وكان جوادا شهما - والملك الأمجد مجد الدين حسن، ومات فى حياة أبيه بالقدس، ودفن فى مدرسة بنيت له، ثم نقل إلى الكرك والملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب الشرق وخلاط، بعد أخيه الملك الأوحد، والملك المظفر شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين، وشقيقاه الملك المعز مجير الدين يعقوب، والملك القاهر بهاء الدين تاج الملوك إسحاق، والملك الصالح عماد الدين إسماعيل، صاحب بصرى، ثم دمشق، والملك المفضل قطب الدين أحمد، ومات بمصر فى أيام أخيه الكامل بالفيوم، ووصل فى تابوت إلى القاهرة، فى نصف رجب سنة ثمان عشرة وستمائة، والملك الأمجد تقى الدين عباس، وهو أصغرهم، ولد فى سنة ثلاث وستمائة، ومات آخرهم بدمشق، فى سنة تسع وستين وستمائة، فى أيام الملك الظاهر بيبرس، والملك الحافظ نور الدين أرسلان صاحب قلعة جعبر، والملك القاهر بهاء الدين خضر، والملك المغيث شهاب الدين محمود؛ والملك الناصر صلاح الدين خليل.

ووزر للملك العادل صنيعة الملك أبو سعيد بن أبى اليمن بن النحال مدة يسيرة، وكان نصرانيا فأسلم على يده بعد عوده مع الأفضل علىّ بن صلاح الدين إلى مصر فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، فلما ماتابن النحال استوزر العادل الصاحب صفى الدين عبد الله بن شكر الدميرى،فتجبر وسطا، وتمكن من السلطان، واستولى عليه، وعظم قدره. وأوقع ابن شكر بعدة من الأكابر، وصادر أكابر كتاب الدولة، واستصفى أموالهم. ففر منه القاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل إلى بغداد، واستشفع بالخليفة الناصر لدين الله، وأحضر كتاب شفاعته إلى العادل، وفر منه علم الدين بن أبى الحجاج، صاحب ديوان الجيش، والأسعد بن مماتى صاحب ديوان المال، إلى حلب، فأكرمهما الملك الظاهر، حتى ماتا عنده، وصادر بنى حمدان وبنى الجباب وبنى الجليس، وأعيان الكتاب المستوفيين، والعادل لا يعارضه فى شىء، هذا وهو يتغضب على السلطان، واستمر على هذا الحال إلى أن غضب على السلطان مرة فى سنة تسع وستمائة، وحلف أنه ما بقى يخدمه، فأخرجه السلطان العادل من مصر، بجميع أمواله وحرمه، فكان ثقله على ثلاثين جملا، وحسن أعداؤه للسلطان أن يأخذ ماله، فامتنع واكتفى بإخراجه إلى آمد. وسار صفى الدين إلى آمد، فأقام عند الصالح بن أرتق، فأقام العادل من بعده القاضى فخر الدين مقدام بن شكر، ثم نقم عليه فى سنة اثنتى عشرة وستمائة، وضربه وقيده، وأخرجه من مصر، ولم يستوزر بعده أحدا.

من أعجب الاتفاقات أن الملك الأفضل على بن صلاح الدين يوسف لم يملك مملكة إلا وأخذها عمه العادل منه: فأول ذلك أن أباه أقطعه حران والرها وميافارقين فى سنة ست وثمانين وخمسمائة، فسار إليها، حتى إذا بلغ حلب رده أبوه، وبعث الملك العادل بدله، ثم ملك الأفضل بعد أبيه دمشق، فأخذها العادل منه، ثم ملك مصر بعد ذلك، فأخذها منه العادل، ثم ملك صرخد، فأخذها منه العادل، وعوضه قلعة نجم وسروج، ثم استرجعهما منه بعد ذلك.

فلما تمهدت للملك العادل الممالك قسمها بين أولاده، فملك هو وأولاده من خلاط إلى اليمن، ورأى العادل فى أولاده ما يحب، من اتساع الممالك وكثرة الظفر بالأعداء، بحيث لم يسمع عن ملك أنه رأى فى أولاده ما رآه العادل، فإنه اجتمع فى كل منهم من النجابة والنبل، والكفاية والمعرفة، والفضيلة وعلو الهمة، ما لا مزيد عليه، ودانت لهم العباد، وملكوا خيار البلاد، وكان كثيرا ما يتردد العادل فى ممالك أولاده، وأكثر أوقاته يصيف بدمشق، ويشتى بمصر، وكان أكولا نهما، يأكل خروفا مشويا بمفرده، وله اقتدار زائد على النكاح، ومتع فى دنياه بأرغد عيش، وتمكن من السعادة فى سائر أحواله، وكان حميد السيرة، حسن العقيدة، كثير السياسة، صاحب معرفة بدقائق الأمور، قد حنكته التجارب، فسعدت آراؤه، ونجحت تدبيراته، وكان لا يرى محاربة أعدائه، ويستعمل فى مقاصده المكائد والخدع، فهادنته الفرنج لقوة حزمه وشدة تيقظه، وغزارة عقله وقوة كيده، ومكره ومداومته على المخادعة والمخاتلة، وكثرة صبره وحلمه وأناته، بحيث إنه كان إذا سمع ما يكره يغضى عنه تجاوزا وصفحا، كأنه لم يبلغه، وكان لا يخرج المال إلا عند الاحتياج إلى إخراجه، فيسمح حينئذ ببذل الكثير منه، ولا يتوقف فيما ينفق، فإذا لم يحتج إلى أخرج المال ضن به وأمسكه، فثابت له بذلك أغراضه كما يجب، وانقادت له الأمور مثل ما يختار، وكان يحافظ على أداء الصلوات فى أوقاتها، ويحب السنة، ويكرم العلماء، مع العظمة وقوة المهابة المتمكنة فى القلوب، وله صنف الإمام فخر الدين الرازى كتاب تأسيس التقديس، وبعث به إليه من بلاد خراسان.

ومات الملك العادل عن خمس وسبعين - وقيل ثلاث وسبعين - سنة، وترك مالا كثيرا، منه فى خزائنه - التى استولى عليها ابنه المعظم - سبعمائة ألف دينار مصرية، سوى ما كان له فى الكرك، فاحتوى عليه أيضا الملك المعظم، وكتب المعظم إلى أخوته بموت أبيه، فجلس الملك الكامل للعزاء فى معسكره بظاهر دمياط، وارتاع لموت أبيه خوفا من الفرنج.

* * *

السلطان الملك الكامل ناصر الدين

أبو المعالى محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، سادس ملوك مصر من الأيوبيين، استقل بمملكة مصر بعد موت أبيه، بعهده إليه فى حياته، وكانت سلطنته بعد السابع من جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة عندما وصل إليه نعى أبيه، وهو بالمنزلة العادلية على محاربة الفرنج - وقد ملكوا البر الغربى، واستولوا على برج السلسلة، وقطعوا السلاسل المتصلة به، لتعبر مراكبهم فى بحر النيل، ويتمكنوا من أرض مصر، فنصب الملك الكامل عوضا من السلاسل جسرا عظيما، يمنع الفرنج من عبور النيل، فقاتل الفرنج عليه قتالا كثيرا حتى قطعوه، وكان قد أنفق على هذا البرج والجسر ما ينيف على سبعين ألف دينار، فأمر الكامل بتغريق عدة من المراكب فى النيل، منعت الفرنج من سلوكه، فعدل الفرنج إلى خليج هناك يعرف بالأزرق، كان النيل يجرى فيه قديما، فحفروه حفرا عميقا، وأجروا فيه الماء إلى البحر الملح، فجرت سفنهم فيه إلى ناحية بورة[1] على أرض جيزة دمياط، تجاه المنزلة التى فيها الكامل، ليقاتلوه من هناك، فلما استقروا فى بورة حاذوه، وقاتلوه فى الماء، وزحفوا إليه غير مرة، فلم ينالوا منه غرضا طائلا، ولم يضر أهل دمياط ذلك؛ لتواصل الأمداد والميرة إليهم، وكون النيل يحجز بينهم وبين الفرنج، بحيث كانت أبواب المدينة مفتحة، وليس عليها حصر ولا ضيق ألبتة.

هذا والعربان تخطف الفرنج فى كل ليلة، بحيث منعهم ذلك من الرقاد، خوفا من غاراتهم وفتكالب العرب عليهم حتى صاروا يختطفونهم نهارا، ويأخذون الخيم بمن فيها، فأكمن لهم الفرنج عدة كمناء، وقتلوا منهم خلقا كثيرا، وأدرك الناس الشتاء، فهاج البحر على معسكر المسلمين، وغرق الخيم، فعظم البلاء، واشتد الكرب، وألح الفرنج فى القتال، ولم يبق إلا أن يملكوا البلاد، فأرسل الله سبحانه ريحا قطعت مراسى مرمة كانت للفرنج من عجائب الدنيا، فمرت تلك المرمة إلى البر الذى فيه المسلمون فملكوها، فإذا هى مصفحة بالحديد، لا تعمل فيها النار، ومساحتها خمسمائة ذراع،

---

(١) بورة: مدينة على ساحل بحر مصر قرب دمياط تنسب إليها العمائم البورية والسمك البورى. معجم البلدان ١/ ٧٥٥، وفى الروض المعطار بورى - أو بورة -: فى أسفل الديار المصرية، فى سنة عشر وستمائة وصل العدو إليها بشوانية فسباها، وكان حلق رشيد قد حرس بالقطائع المصرية فعدل عنها إلى هذا المكان. انظر الروض المعطار، وخطط المقريزى ١/ ١٨١، ١٨٢، واليعقوبى ٣٣٨، وكذلك الإدريسى ١٥٧، وقاموس رمزى ١/١٧٦.

وفيها من المسامير ما زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا، وبعث السلطان إلى الآفاق سبعين رسولا، يستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج، ويستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم وإغاثتهم، ويخوفهم من تغلب الفرنج على مصر، فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها، فسارت الرسل في شوال، فقدمت النجدات من حماة وحلب، إلا أنه لما قدم على المعسكر موت العادل وقع الطمع فى الملك الكامل، وثار العرب بنواحى أرض مصر، وكثر خلافهم واشتد ضررهم، واتفق مع ذلك قيام الأمير عماد الدين أحمد بن الأمير سيف الدين أبى الحسين على بن أحمد الهكارى، والمعروف بابن المشطوب، وكان أجل الأمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية، ينقادون إليه ويطيعونه، مع أنه كان وافر الحرمة عند الملوك، معدودا بينهم كواحد منهم، معروفا بعلو الهمة وكثرة الجود، وسعة الكرم والشجاعة، تهابه الملوك، وله وقائع مشهورة فى القيام عليهم، ولما مات أبوه، وكانت نابلس إقطاعا له، أرصد ثلثها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لمصالح القدس، وأقطع ابنه عماد الدين هذا بقيتها، فلم يزل قائم الجاه من الأيام الصلاحية، فاتفق عماد الدين مع جماعة من الأكراد والجند على خلع الملك الكامل، وتمليك أخيه الفائز إبراهيم، ليصير لهم التحكم فى المملكة، ووافقه على ذلك الأمير عز الدين الحميدى، والأمير أسد الدين الهكارى، والأمير مجاهد الدين، وعدة من الأمراء، فلما بلغ الكامل ذلك دخل عليهم، فإذا هم مجتمعون وبين أيديهم المصحف، وهم يحلفون لأخيه الفائز، فعندما رأوه تفرقوا، فخشى على نفسه منهم، وخرج، فاتفق قدوم الصاحب صفى الدين بن شكر من آمد، فإنه كان قد استدعاه الكامل بعد موت أبيه، فتلقاه الكامل وأكرمه، وأوقفه على ما فيه جماعة الأمراء، فشجعه وضمن له تحصيل المال وتدبير الأمور، فلما كان فى الليل ركب الكامل من المنزلة العادلية، فى الليل جريدة، وسار إلى أشموم طناح[1] فنزل بها، وأصبح العسكر وقد فقدوا السلطان، فركب كل أحد هواه، ولم يعرج واحد منهم على آخر، وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم، ولم يأخذ كل أحد إلا ما خف حمله، فبادر الفرنج عند ذلك، وعبروا بر دمياط وهم آمنون، من غير منازع ولا مدافع، وأخذوا كل ما كان فى معسكر المسلمين، وكان شيئا لا يقدر قدره، وذلك لبضع عشرة ليلة خلت من ذى القعدة، فكان نزول الفرنج قبالة دمياط فى يوم الثلاثاء ثانى شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة، ونزولهم فى البر الشرقى - حيث مدينة

---

(١) أشموم بضم الميم وسكون الواو اسم لبلدتين بمصر يقال لإحداهما أشموم طناح وهى قرب دمياط وهى مدينة الدقهلية، والأخرى أشموم الجريسان بالمنوفية. انظر معجم البلدان.

دمياط - يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ست عشرة، فتزلزل الملك الكامل، وهم بمفارقة أرض مصر، ثم تثبت، فتلاحق به العسكر، وبعد يومين وصل إليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق - وهو بأشموم - فى ثامن عشر ذى القعدة، فقويت به شوكته، وأعلمه بما كان من أمر ابن المشطوب، فوعده بإزالته عنه. ثم ركب المعظم إلى خيمة ابن المشطوب، واستدعاه للركوب معه للمسايرة، فاستمهله حتى يلبس خفيه وثيابه، فلم يمهله وأعجله، فركب معه وهو آمن، وسايره حتى خرج به من المعسكر وبعد عنه، فالتفت إليه المعظم، وقال: «يا عماد الدين! هذه البلاد لك، أشتهى أن تهبها لنا». وأعطاه نفقة، وأسلمه إلى جماعة من أصحابه يثق بهم، كان قد أعدهم لهذا الأمر، وأمرهم أن يلازموه إلى أن يخرج من الرمل، ويحتفظوا به إلى أن يدخل إلى الشام، فما وجد ابن المشطوب سبيلا إلى الامتناع، ولا قدر على المدافعة، لأنه بمفرده بينهم، فساروا به على تلك الحالة إلى الشام، فنزل بحماة عند الملك المنصور، ومعه أربعة من خدمه، ولما سار ابن المشطوب رجع المعظم إلى أخيه الكامل، وتقدم إلى أخيه الفائز بأن يمضى إلى الملوك الأيوبية بالشام والشرق رسولا عن الملك الكامل، بسبب إرسال عساكر الإسلام، لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الفرنج، وكتب الكامل إلى أخيه الأشرف موسى شاه أرمن، يستحثه على سرعة الحضور، وصدر المكاتبة بهذه الأبيات:

يامسعدى إن كنت حقا مسعفى	فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا	بتجشم فى سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ	إلا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له	متوقع لقدومه متشوف
وإذا وصلت إلى حماة فقل له	عنى بحسن توصل وتلطف
إن تأت عبدك عن قليل تلقه	ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه	بل فى القيامة فى عراص الموقف

فسار الفائز - وكان الغرض إخراجه من أرض مصر - فمضى إلى دمشق، ورحل إلى حماة، ثم سار إلى الشرق، فانتظم أمر الكامل، وقوى ساعده، وترتبت قواعد ملكه، وسار عنه المعظم، هذا والفرنج قد أحاطوا بدمياط من البحر والبر، وأحدقوا بها وحصروها، وضيقوا على أهلها، ومنعوا الأقوات أن تصل إليهم، وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقا، وبنوا عليه سورا، وأهل دمياط يقاتلونهم أشد قتال، وأنزل الله عليهم الصبر، فثبتوا مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الأسعار، وأخذ الكامل فى محاربة الفرنج، وهم قد حالوا بينه وبينها، ولم يصل إليها أحد من عنده

سوى رجل من الجاندارية، وكان هذا الرجل قد قدم إلى القاهرة من بعض قرى حماة، و يسمى شمايل، فتوصل حتى صار يخدم فى الركاب السلطانى جاندار، وكان يخاطر بنفسه، ويسبح فى النيل - ومراكب الفرنج به محيطة، والنيل قد امتلأت به شوانى الفرنج - فيدخل إلى مدينة دمياط، ويأتى السلطان بأخبار أهلها، فإذا دخل إليها قوى قلوب أهلها، ووعدهم بقرب وصول النجدات، فحظى بذلك عند الكامل، وتقدم تقدما كثيرا، وجعله أمير جانداره وسيف نقمته، وولاه القاهرة، وإليه تنسب خزانة شمايل، وكان فى دمياط من أهلها الأمير جمال الدين الكنانى، فكتب هذه الأبيات، وألقاها إلى الملك الكامل فى سهم نشاب، وهى:

يا مالكى دمياط ثغر هدمت ... الله ضامن أجره وكفيلهشرفاته
يقريك من أزكى السلام تحية ... كادت تجث أصوله
ويقول عن بعد وإنك سامع ... كالمسك طاب دقيقه وجليله
يأيها الملك الذى ما إن يرى ... حتى كأنك جاره ونزيله
هذا كتاب موضح من حالتى ... بين الملوك شبيهه وعديله
أشكو إليك عدو سوء أحدقت ... ما ليس يمكننى لديك أقوله
فالبر قد منعت إليه طريقه ... بجميعه فرسانه وخيوله
فخضوعه باد على أبراجه ... والبحر عز لنصره أسطوله
ولو استطاع لأمَّ بابك لائذا ... وحنينه وبكاؤه وعويله
ورسوله فى أن تجيب دعاءه ... لكنه سدت عليه سبيله
فقد انتهت أدواؤه وتحكمت ... دين الإله وخلقه ورسوله
وبقى له رمق يسير يرتجى ... علاته ونحا عليه نحوله
فاحرس حماك بعزمة تشفى بها ... أن يشتفى لما دعاك عليله
فالله أعطاك الكثير بفضله ... داء لمثلك يرتجى تعليله
فالعذر فى نصر الإله ودينه ... ورضاه من هذا الكثير قليله
والثغر ناظره إليك محدق ... ماساغ عند المسلمين قبوله
ولئن قعدت عن القيام بنصره ... ما إن يمل من الدموع هموله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت ... جفت نضارته وبان ذبوله
وعلا صدى الناقوس فى أرجائه ... صلبانه وتلى به إنجيله
هذا وحقك وصف صورة حاله ... وخفى على سمع الورى تهليله
وكفاك يابن الأكرمين بأنه ... حقا وجملته وذا تفصيله

حقق رجاء فيك يـا مـن لم يخب ... أضحى عليك مـن الـورى تعويلـه
واذخر ليوم البعث فعلا صالحـا ... أبـدا لـراجى جـوده تـأميلـه

فلما وقف السلطان على هذه الأبيات أمر أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد، وخرجت السنة والحال على ذلك.

وفيها استدعى الملك الغالب كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان، ملك الروم، بالملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين يوسف[١] - وكان بسميساط[٢]، ويخطب للملك الغالب، فلما قدم عليه أكرمه، وحمل إليه شيئا كثيرا من المال والخيل والسلاح وغيره، وتحالفا على المسير إلى المملكة الحلبية وأخذها، بشرط أن يدفعها الملك الغالب، هى وسائر ما يفتحه إلى الملك الأفضل؛ ليقيم له فيها الخطبة والسكة، ويصير فى طاعته، فإذا تم ذلك سارا إلى الشرق، وأخذا حران والرها وغيرها، فسارا بالعساكر وأخذا قلعة رعبان[٣] فتسلمها الأفضل، ومال إليه الناس، واجتمعوا على الملك الغالب؛ لمحبتهم فى الأفضل، ثم سار إلى قلعة تل باشر، فحصراها حتى ملكاها، فلم يسلمها الملك الغالب للأفضل، وأقام نائبا من قبله، فنفر منه الأفضل وفترت همته، وعلم أن هذا أول الغدر، وأعرض أهل البلاد أيضا عن الملك الغالب، واستعد أهل حلب، واستدعوا الملك الأشرف من بحيرة قدس، وكان نازلا عليها تجاه الفرنج، فقدم إليهم بعساكره، وحضرت عرب طىء وغيرها، إلى ظاهر حلب، فحسن الأفضل للملك الغالب التوجه إلى منبج، فسارا إليها، فواقع العرب مقدمة الملك الغالب، فانهزمت، وأسر العرب وأصحاب الأشرف كثيرا منهم، فرجع عند ذلك الملك الغالب إلى بلاده، وسار الأشرف، فاستولى على رعبان وتل باشر.

---

(١) الأفضل الأيوبى (٥٦٦ - ٦٢٢ هـ = ١١٧١ - ١٢٢٥م). على الملك الأفضل نور الدين ابن يوسف صلاح الدين بن أيوب: صاحب الديار الشامية، استقل بمملكة دمشق بعد وفاة أبيه (سنة ٥٨٩ هـ) وأخذها منه أخوه العزيز وعمه العادل سنة ٥٢٩ هـ وأعطياه صرخد. انظر ابن الأثير ١٢/ ١٦٤، وفيات الأعيان ١/ ٣٧١ حلى القاهرة ١٩٩. الأعلام ٣٣/ ٥.

(٢) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات فى طرق بلاد الروم على غربى الفرات ولها قلعة فى شق منها يسكنها الأرض. انظر معجم البلدان ٢٥٨/ ٣، وفى الروض المعطار: سميساط: بلد من بلاد العجم منها السميساطى، رجل من العجم كان موصوفًا بالورع والزهد، كان بنى خانقة للصوفية بدمشق فى موضع الدار التى كانت لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه. انظر الروض المعطار ٣٢٣، ٣٢٤، وابن جبير ٢٨٩.

(٣) رعبان: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة فى العواصم. انظر معجم البلدان ٥١/ ٣.

وفيها مات الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى آقسنقر، صاحب الموصل، لثلاث بقين من ربيع الأول، وكانت مدة ملكه سبع سنين وتسعة أشهر، وقام من بعده ابنه نور الدين أرسلان شاه، وعمَّره عشر سنين، فدبر أمره الأمير بدر الدين لؤلؤ الأتابك، فأقرهما الخليفة الناصر.

* * *

سنة ست عشرة وستمائة[1]

فيها قدم الملك المظفر تقى الدين محمود بن المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب - صاحب حماة - إلى الملك الكامل، نجدة فى عسكر كثيف، ومعه الطواشى مرشد المنصورى، فتلقاه السلطان وأعظم قدره، وأنزله على مينته، وهى المنزلة التى كانت لأبيه وجده عند السلطان صلاح الدين يوسف، ووصل الفائز إبراهيم بن العادل إلى أخيه الأشرف موسى برسالة أخيهما الكامل للاستنجاد على الفرنج، فأكرمه وأمسكه عنده، فإن الغرض إنما كان إخراجه من أرض مصر.

وفيها اشتد قتال الفرنج، وعظمت نكايتهم لأهل دمياط، وكان فيها نحو العشرين ألف مقاتل، فنهكتهم الأمراض، وغلت عندهم الأسعار، حتى أبيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بعدة دنانير، وامتلأت الطرقات من الأموات، وعدمت الأقوات، وصار السكر فى عزة الياقوت، وفقدت اللحوم فلم يقدر عليها بوجه، وآلت بالناس الحال إلى أن لم يبق عندهم غير شيء يسير من القمح والشعير فقط، فتسور الفرنج السور، وملكوا منه البلد يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان، فكانت مدة الحصار ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما، وعندما أخذوا دمياط وضعوا السيف فى الناس، فلم يعرف عدد من قتل لكثرتهم، ورحل السلطان بعد ذلك بيومين، ونزل قبالة طلخا، على رأس بحر أشموم ورأس بحر دمياط، وخيم بالمنزلة التى عرفت بالمنصورة[2] وحصن

---

(1) سنة ٦١٦ هـ. انظر أحداث هذه السنة فى النجوم الزاهرة ٢١٦ - ٢١٩/ ٦ ، الكامل ٣٥٤/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ١٩٦/ ٢.

(2) المنصورة: بلدة أنشأها الملك الكامل بن الملك العادل بن أيوب، بين دمياط والقاهرة، ورابط بها فى وجه الإفرنج لما ملكوا دمياط وذلك سنة ٦١٦ هـ. انظر معجم البلدان ٢١٢/ ٥، وقال ابن إياس فى ذكر مدينة المنصورة: هذه البلد على بحر أشموم تجاه ناحية طلخا، بناها الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة عشرين وستمائة عندما ملكوا الفرنج مدينة دمياط فنزل فى موضع هذه البلد وبنا بها عدة دور، ودار عليها سور مما يلى البحر وبنا بها الأسواق والحمامات والفنادق وسماها المنصورة لكونه انتصر هناك على الفرنج، ولما انتصر على الفرنج جلس فى قصره الذى أنشأ بها وبين يديه أخويه هما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الأشرف موسى صاحب بلاد الشرق وعدة من خواصه فعند ذلك أحضر الملك الأشرف موسى جارية تغنى على عود فغنت شعر:

ولما طغا فرعون على بسحره ... وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض

أتى نحوهم موسى وفى يده العصا ... فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

الفرنج أسوار دمياط، وجعلوا جامعها كنيسة، وبثوا سراياهم فى القرى يقتلون ويأسرون، فعظم الخطب واشتد البلاء، وندب السلطان الناس وفرقهم فى الأرض، فخرجوا إلى الآفاق يستصرخون الناس لاستنقاذ أرض مصر من أيدى الفرنج، وشرع السلطان فى بناء الدور والفنادق والحمامات والأسواق بمنزلة المنصورة وجهز الفرنج من حصل فى أيديهم من أسارى المسلمين فى البحر إلى عكا وبرزوا من مدينة دمياط يريدون أخذ مصر والقاهرة، فنازلوا السلطان تجاه المنصورة، وصار بينهم وبين العسكر بحر أشموم وبحر دمياط، وكان الفرنج فى مائتى ألف رجل وعشرة آلاف فارس، فقدم السلطان الشوانى تجاه المنصورة، وهى مائة قطعة، واجتمع الناس من أهل ومصر وسائر النواحى ما بين أسوان إلى القاهرة، ووصل الأمير حسام الدين يونس، والفقيه تقى الدين طاهر المحلى، فأخرجا الناس من القاهرة ومصر؛ ونودى بالنفير العام، وألا يبقى أحد، وذكروا أن ملك الفرنج قد أقطع ديار مصر لأصحابه.

فقال:

يهددونـــا بـــأهل عكـــا	أن يملكونـــا وأهـــل يافـــا
ومـــن لنـــا أن يلـــوا علينـــا	فـالروم خـير مـن الريافـا

يعنى أهل الريف، فإنه كان قد كثر تسلطهم، وطمعوا فى أمرالسلطان، واستخفوا به؛ لشغله بالفرنج عنهم، وخرج الأمير علاء الدين جلدك، والأمير جمال الدين بن صيرم؛ لجمع الناس مما يين القاهرة إلى آخر الحوف الشرقى [1] فاجتمع من المسلمين عالم لا يقع عليه حصر، وأنزل السلطان على ناحية شار مساح ألفى فارس، فى آلاف من العربان، ليحولوا بين الفرنج وبين دمياط، وسارت الشوانى - ومعها حراقة كبيرة - إلى رأس بحر المحلة، وعليها الأمير بدر الدين بن حسون، فانقطعت الميرة عن الفرنج من البر والبحر، وقدمت النجدات للملك الكامل من بلاد الشام، وخرجت أمم الفرنج من

=فطرب الأشرف موسى لذلك فشق على أخيه الملك الكامل محمد وأتى بجارية من عنده فأخذت العود وغنت شعر فى المعنى:

يـا أهـل ديـن الكفـر قومـوا لتنظـروا	لمـا قـد جـرى فـى وقتنـا وتجـددًا
إلا أن مـوسـى قد أتـانـا وقـومـه	وعيسى جميعـا ينصـرون محمـدًا

فطرب الملك الكامل لذلك وأمر لكل بخمسمائة دينار. وكانت هذه الليلة بالمنصورة من أحسن ليالى الدهر، وقيل أن الذى نظم هذه الأبيات إنما هو راجح الحلى الشاعر المشهور.

(١) الحوف: بالفتح، وسكون الواو، والفاء؛ والحوف بمصر حوفان: الشرقى والغربى، وهما متصلان، أول الشرقى من جهة الشام وآخر الغربى قرب دمياط، يشتملان على بلدان وقرى كثيرة، انظر معجم البلدان ٣٢٢/ ٢.

داخل البحر تريد مدد الفرنج على دمياط، فوافى دمياط منهم طوائف لا يحصى لهم عدد، فلما تكامل جمعهم بدمياط خرجوا منها، فى حدهم وحديدهم، وقد زين لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر، ويستولوا منها على ممالك البسيطة كلها، فلما قدمت النجدات كان أولها قدوما الملك الأشرف موسى بن العادل، وآخرها على الساقة الملك المعظم عيسى، وفيما بينهما بقية الملوك: وهم المنصور صاحب حماة، والناصر صلاح الدين قلج أرسلان، والمجاهد صاحب حمص، والأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك وغيرهم، فهال الفرنج ما رأوا، وكان قدوم هذه النجدات فى ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة، وتتابع قدوم النجدات حتى بلغ عدد فرسان المسلمين نحو الأربعين ألفا، فحاربوا الفرنج فى البر والبحر، وأخذوا منهم ست شوانى وجلاسة وبطسة، وأسروا منهم ألفين ومائتى رجل، ثم ظفروا أيضا بثلاث قطائع، فتضعضع الفرنج لذلك، وضاق بهم المقام، وبعثوا يسألون فى الصلح، كما سيأتى إن شاء الله.

وفيها مات قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود، صاحب سنجار، وقام من بعده ابنه عماد الدين شاهنشاه، ثم قتله أخوه الأمجد عمر.

ومات نور الدين أرسلان شاه، صاحب الموصل، فقام من بعده الأمير بدر الدين لؤلؤ بأمر أخيه ناصر الدين محمود بن القاهر عز الدين، وعمره ثلاث سنين.

وفيها أمر الملك المعظم عيسى بتخريب القدس، خوفا من استيلاء الفرنج عليها، فخربت أسوار المدينة وأبراجها كلها، إلا برج داود - وكان من غربى البلد - فإنه أبقاه، وخرج معظم من كان فى القدس من الناس، ولم يبق فيه إلا نفر يسير، ونقل المعظم ما كان فى القدس من الأسلحة وآلات القتال، فشق على المسلمين تخريب القدس وأخذ دمياط.

وفيها هدم المعظم أيضا قلعة الطور التى بناها أبوه العادل، وعفى آثارها.

وفيها خرجت كتب الخليفة الناصر لدين الله إلى سائر الممالك، بإنجاد الملك الكامل بدمياط.

وفيها مات عز الدين كيكاوس بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، ملك قونية، بعدما ملك أرزن الروم[1] من عمه طغرل شاه

---

(١) أرزن الروم: مدينة فى تركيا من بلاد أرمينية. انظر بلدان الخلافة الشرقية: ١٤٩، مراصد الاطلاع ١: ٥٥، تقويم البلدان ٣٧٨، وجاء ذكر أرزن فقط فى الروض المعطار بأنها: مدينة بينها=

ابن قلج شاه بن قلج أرسلان، وملك أنكورية من أخيه كيقباد، فصار سلطان الروم، وقام من بعده أخوه علاء الدين كيقباد.

وفيها ابتدأ ظهور التتار - ومساكنهم جبال طمغاج من أرض الصين، بينها وبين بلاد التركستان ما يزيد على ستة أشهر - واستولوا على كثير من بلاد الإسلام، وكانوا لا يدينون بدين، إلا أنهم يعترفون با لله تعالى، من غير اعتقاد شريعة، فملكوا الصين - وكان ملكهم يقال له جنكزخان - ثم ساروا إلى تركستان وكاشغر [1] فملكوا تلك البلاد، وأغاروا على أطراف بلاد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان محمد بن جغرى بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، ثم استولوا على بخارى وغيرها من بلاد العجم.

* * *

=وبين ميافارقين سبعة فراسخ، فتحها عياض بن غنم على مثل صلح الرها، وهى مدينة كبيرة كثيرة الأسواق والعمران سهلية جبلية. انظر الروض المعطار ٢٦ (أرزن).

(١) كاشغر: بالتقاء الساكنين، والشين معجمة والغين أيضا، وراء: وهىمدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحى، وهى فى وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون. انظر معجم البلدان ٤/٤٣٠، وجاء ذكر كاشغر فى الروض المعطار - كاشغرا أو كاشغر أو قاشغر - وهى: مدينة من بلاد الصين عامرة كثيرة الخيرات فيها متاجر وبضائع، وهى على نهر صغير يأتى إليها من جهة شمالها من جبل قيطغورا، وفيه معادن فضة طيبة فائقة فى الجودة سهلة التخليص من خبثها. انظر الروض المعطار ٤٨٩، ونزهة المشتاق ٦٨، ٦٩، وتقويم البلدان ٥٠٤، وحدود العالم ٩٦، ٢٨٠، وابن الوردى ٣٤.

سنة سبع عشرة وستمائة(١)

أهلت وانقضت، والحرب قائمة بين المسلمين وبين الفرنج على دمياط، في منزلة المنصورة.

وفيها استولى التتر على سمرقند(٢) وهزموا السلطان علاء الدين، وملكوا الري وهمذان وقزوين، وحاربوا الكرج، وملكوا فرغانة(٣) والترمذ وخوارزم، وخراسان

---

(١)انظر أحداث تلك السنة في النجوم الزاهرة ٢١٩ - ٢٢/ ٦، الكامل ٣٥٨/ ١٢ وما بعدها تاريخ ابن الوردي ١٩٩/ ٢ وما بعدها .

(٢) سمرقند: بفتح أوله وثانيه، ويقال لها بالعربية سمران: بلد معروف مشهور، قيل إنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر . انظر معجم البلدان ٢٤٦/ ٣، وفي الروض المعطار سمرقند: مدينة من خراسان، ويقال: إن شمر بن أفريش غزا أرض الصغد حتى وصل إلى سمرقند فهدمها ثم ابتناها، ويقال إنها بنيت أيام الإسكندر وتولى ذلك شمر فقيل شمرقند، وعربت فقيل سمرقند، وإلى ذلك أشار دعبل في قوله من قصيدته التي افتخر فيها على الكميت:

هم كتبوا الكتاب بباب مرو ... باب الصين كانوا الكاتبينا

هم سموا بشمر سمرقندًا ... هم غرسوا هناك الشبتينا

وهي مدينة حسنة كبيرة على جنوب وادي الصغد، وقصبة الصغد سمرقند، ولها شوارع ومبان وقصور سامية وفنادق وحمامات، وعليها سور تراب متسع يطيف به خندق، وهي كثيرة الخصب والنعم والفواكه، ولها أربعة أبواب، ويدخل المدينة ماء يجلب إليها، يدخل على باب كبير ويعم أكثر قصورها، وهي في الأقليم الخامس، وكان طولها في قديم الدهر اثنا عشر فرسخًا، وقد تهدم وخرب منها كثير، والعمران منها اليوم أربعة فراسخ، ويضم سورها اثنى عشر ألف بستان، ويشتمل على سمرقند سور له أربعة أبواب: باب من ناحية المشرق يقال له باب الصين مرتفع عن الأرض ينزل في عدد درج مطل على وادي الصغد، وبابها مما يلي المغرب يسمى النوبهار وهو على شرف من الأرض أيضًا، ومما يلي الشمال باب بخاري، ومما يلي الجنوب باب كش، وفي الشمال من سمرقند جبل كبير يخرج من تحته عين حرارة قد صنع لها في أصل الجبل طيقان وحلب عليها الماء في قنوات رصاص حتى يصب في سمرقند بمجرى اسمه بارمس يصب في البحيرة التي في أصل بنكث من سمرقند على نحو ثلاثين فرسخًا، ويخرج في شرقي سمرقند فيصير إلى ماء الصغد وهو موضع درغش ومن مدينة سمرقند على أربعة فراسخ يخرج خليج من هذا الوادي يسمى العريش يسقي الرساتيق. وسمرقند من عمل الصغد وهو كله من خراسان، وحدّ عمل الصغد غربًا ما بين كرمينية والدبوسية، وشمالاً وادي الشاش، ومنبرها الأجل سمرقند، ثم كش، ثم نسف، ثم الكشانية، ثم أوفر، ثم الدبوسية، ثم درغش. انظر الروض المعطار ٣٢٢، ٣٢٣، وابن الوردي ٣١.

(٣) فرغانة: بالفتح ثم السكون، وغين معجمة، وبعد الألف نون: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد=

ومرو ونيسابور، وطوس[١] وهراة وغزنة.

وفيها ملك الأشرف موسى بن العادل ماردين وسنجار.

وفيها مات الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادى[٢] صاحب حماة - وكان إماما مفتيا فى عدة علوم، وله شعر جيد - فى ذى القعدة، عن خمسين سنة، منها مدة ملكه ثلاثون سنة، وكان ابنه الأكبر الملك المظفر تقى الدين محمود فى معسكر خاله الملك الكامل، بالمنصورة على مقاتلة الفرنج، فقام بمملكة حماة الملك الناصر قلج أرسلان بن المنصور، وكان عمره سبع عشرة سنة، فشق بذلك على أخيه المظفر، واستأذن الملك الكامل فى العود إلى حماة، ظنا منه أنه يملكها، فإنه كان ولى عهد أبيه، فأذن له الملك الكامل، وسار فلقى الملك المعظم فى الغور، فخوفه من التعرض إلى أخيه، فأقام بدمشق، ثم رجع المظفر إلى الملك الكامل، فأقطعه إقطاعا، وأقام فى خدمته.

وفيها كثرت مصادرة الصاحب صفى الدين بن شكر أرباب الأموال بمصر والقاهرة، من التجار والكتاب: وقرر التبرع على الأملاك، وهو مال جُبى من الناس، وأحدث ابن شكر حوادث كثيرة، وحصل مالا جما.

وفيها قوى طمع الفرنج فى ملك ديار مصر، وعزموا على التقدم إلى المسلمين؛

=لبلاد الترك. انظر معجم البلدان ٢٥٣/ ٤، وفى الروض المعطار فرغانة: فى خراسان، بينها وبين سمرقند ثلاثة وخمسون فرسخًا، كان أنوشروان بناها ونقل إليها من كل بيت قومًا، وفرغانة اسم الأقليم، وهو عريض على سبع مدائن، واسمها بالعجمية اخشيكث، وقيل إن فرغانة اسم الكورة، واسم قصبتها اخشيكث، وهى على شط نهر الشاش على أرض مستوية، بينها وبين الجبل نحو نصف فرسخ، وهى على شمال النهر. انظر الروض المعطار ٤٤٠.

(١) طوس: مدينة من نيسابور على مرحلتين، وقيل على ستة عشر فرسخًا، وطوس يقال لها نوقان، وهى مدينة كبيرة حسنة المبانى، كثيرة الأسواق شاملة الأرزاق، عامرة الأمكنة رائقة الجهات، ولها مدن بها منابر ولما فتح ابن عامر مدينة نيسابور، قيل صلحًا وقيل عنوة، فتح ما حولها طوس وبيورد وحمران وسرخس، وقيل بعث إلى سرخس عبد الله بن خازم ففتحها، وبطوس قبر الرشيد أمير المؤمنين، وفيها توفى الرضا بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين. انظر الروض المعطار ٣٩٨، ٣٩٩، ومعجم البلدان ٤/٤٩، ونزهة المشتاق ٢٠٩.

(٢) الملك المنصور (٦١٧ هـ - ١٢٢١م). محمد بن عمر المظفر بن شاهذنشاه، الأيوبى أبو المعالى، ناصر الدين، المنصور بن المظفر: صاحب حماة، وأحد العلماء بالتاريخ والأدب، سمع الحديث فى الإسكندرية وصار إليه ملك حماة بعد أبيه. انظر تاريخ حماة ٨٤، فوات الوفيات ٢/ ٢٥٢، وفيات الأعيان ابن الوردى ٢/ ١٣٩، أبو الفداء ٣/ ١٢٥، ذيل الروضتين ١٢٤. الأعلام ٦/٣١٣.

ليدفعوهم عن منزلتهم، ويستولوا على البلاد، فانقضت السنة وهم تجاه المسلمين على رأس بحر أشموم ودمياط.

وفيها غلت الأسعار بأرض مصر، فبلغ القمح ثلاثة دنانير كل أردب، فكانت من أشق السنين وأشدها على أهل مصر.

وفيها مات الشريف أبو عزيز قتادة بن أبى مالك إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم ابن عيسى بن حسين بن سليمان بن على بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله ابن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه، سلطان مكة، فى آخر جمادى الآخرة بمكة، عن تسعين سنة، وله شعر جيد، وقدم مصر غير مرة، ومعه أخوه أبو موسى عيسى، وكانت ولادته ومرباه بالينبع[1]. وملك مكة بعده ابنه حسن بن قتادة[2] فسار راجح بن قتادة مغاضبا له، وقطع الطريق فى الموسم بين مكة وعرفة، فقبض عليه أقباش أمير الحاج العراقى، فبعث الشريف حسن لأقباش يعده بمال ليسلمه راجحا، فوعده راجح بأكثر من ذلك، فعزم أقباش على أن يسلمه مكة، وتقدم لمقاتلة أميرها، فقتل أقباش، وفر راجح إلى المملك المسعود باليمن.

* * *

---

(١) ينبع: بالفتح ثم السكون، والباء الموحدة مضمومة، وعين مهملة: هى عن يمين رضوى لمن كان منحدرا من المدينة إلى البحر على ليلة من رضوى من المدينة على سبع مراحل. انظر معجم البلدان ٤٥٠/ ٥، والروض المعطار ٦٢١، ورحلة الناصرى ٢١٦.

(٢) حسن بن قتادة (٦٢٢ هـ = ١٢٢٥م). الحسن بن قتادة بن إدريس العلوى الحسنى: أمير مكة، وأحد الفتاك العتاة، أرسله أبوه مع عسكر بقيادة عم له، للاستيلاء على المدينة، فقتل عمه فى الطريق، وعاد إلى مكة فخنق أباه، وكان له أخ ينوب عن أبيه بقلعة ينبع ، فاستحضره وقتله. واستقر فى ملك مكة سنة ٦١٨ هـ. ونازعه أخوه راجح. انظر دائرة البستان ٧/ ٤١، ابن الوردى ٢/ ١٤٣، خلاصة الكلام ٢٤. الأعلام ٢١١/ ٢.



سنة ثمان عشرة وستمائة[1]

فيها اشتدت قوة الفرنج، بكثرة من قدم إليهم فى البحر، فتابع الملك الكامل الرسل فى طلب النجدات، فقدمت عليه الملوك كما تقدم، واشتد القتال بين الفريقين برا وبحرا، وقد اجتمع من الفرنج والمسلمين ما لا يعلم عددهم إلا الله، وكانت العامة تكر على الفرنج أكثر ما يكر عليهم العسكر، وتقدم جماعة من العسكر إلى خليج من النيل فى البر الغربى، يعرف ببحر المحلة، وقاتلوا الفرنج منه، وتقدمت الشوانى الإسلامية فى بحر النيل؛ لتقاتل شوانى الفرنج، فأخذوا منها ثلاث قطع برحالها وأسلحتها.

هذا والرسل تتردد من عند الفرنج فى طلب الصلح بشروط: منها أخذ القدس وعسقلان وطبرية، وجبلة واللاذقية، وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل، فأجابهم الملوك إلى ذلك، ماخلا الكرك والشوبك، فأبى الفرنج، وقالوا: «لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله» فرضى الكامل، فامتنع الفرنج، وقالوا: لا بد أن تعطونا خمسمائة ألف دينار؛ لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس، مع أخذ ما ذكر من البلاد، وأخذ الكرك والشوبك أيضا، فاضطر المسلمون إلى قتالهم ومصابرتهم، وعبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة إلى الأرض التى عليها معسكر الفرنج، وفتحوا مكانا عظيما فى النيل، وكان الوقت فى قوة الزيادة، فإنه كان أول ليلة من توت، والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر، ولا بأمر النيل، فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد غرق أكثر الأرض التى هم عليها، وصار حائلا بينهم وبين دمياط، وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها، سوى جهة واحدة ضيقة، فأمر السلطان فى الحال بنصب الجسور عند بحر أشموم طناح، فتهيأ الفراغ منها، وعبرت العساكر الإسلامية عليها، وملكت الطريق التى تسلكها الفرنج إلى دمياط، فانحصروا من سائر الجهات، وقدر الله سبحانه بوصول مرقة عظيمة فى البحر للفرنج، وحولها عدة حراقات تحميها، وسائرها مشحونة بالميرة والسلاح، وسائر ما يحتاج إليه، فأوقع بها شوانى الإسلام، وكانت بينهما حرب، أنزل الله فيها نصره على المسلمين، فظفروا بها وبما معها من الحراقات، ففت ذلك فى أعضاد الفرنج، وألقى فى قلوبهم الرعب والذلة، بعدما كانوا فى غاية الاستظهار والعنت على المسلمين، وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة، وعظمت نكاية المسلمين بهم،

---

(1) سنة ٦١٨ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٢ - ٢٢٤/ ٦، الكامل ٤٠١/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢٠٤/ ٢.

برميهم إياهم بالسهام، وحملهم على أطرافهم، فأجمعوا أمرهم على مناهضة المسلمين، ظنا منهم أنهم يصلون إلى دمياط، فخربوا خيامهم ومجانيقهم، وعزموا على أن يحطموا حطمة واحدة. فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا؛ لكثرة الوحل والمياه التى قد ركبت الأرض من حولهم، فعجزوا عن الإقامة لقلة الأزواد عندهم، ولاذوا إلى طلب الصلح، وبعثوا يسألون الملك الكامل - وإخوته الأشرف والمعظم - الأمان لأنفسهم، وأنهم يسلمون دمياط بغير عوض، فاقتضى رأى الملك الكامل إجابتهم، واقتضى رأى غيره من إخوته مناهضتهم، واجتثاث أصلهم ألبتة، فخاف الملك الكامل إن فعل ذلك أن يمتنع من بقى منهم بدمياط أن يسلمها، ويحتاج الحال إلى منازلتها مدة، فإنها كانت ذات أسوار منيعة، وزاد الفرنج عندما استولوا عليها فى تحصينها، ولا يؤمن فى طول محاصرتها أن يفد ملوك الفرنج نجدة لمن فيها، وطلبا لثأر من قتل من أكابرهم، هذا وقد ضجرت عساكر المسلمين، وملت من طول الحرب، فإنها مقيمة فى محاربة الفرنج ثلاث سنين وأشهرا، وما زال الكامل قائما فى تأمين الفرنج إلى أن وافقه بقية الملوك على أن يبعث الفرنج برهائن من ملوكهم - لا من أمرائهم - إلى أن يسلموا دمياط، فطلب الفرنج أن يكون ابن الملك الكامل عندهم رهينة، إلى أن تعود إليهم رهائنهم، فتقرر الأمر على ذلك، وحلف كل من ملوك المسلمين والفرنج، فى سابع شهر رجب، وبعث الفرنج بعشرين ملكا من ملوكهم رهنا، منهم يوحنا صاحب عكا، ونائب البابا، وبعث الملك الكامل إليهم بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب[1] وله من العمر يومئذ خمس عشرة سنة، ومعه جماعة من خواصه، وعندما قدم ملوك الفرنج جلس لهم الملك الكامل مجلسا عظيما، ووقف الملوك من إخوته وأهل بيته بين يديه بظاهر البرمون، فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب، فهال الفرنج ما شاهدوا من تلك العظمة وبهاء ذلك الناموس، وقدمت قسوس الفرنج ورهبانهم إلى دمياط؛ ليسلموها إلى المسلمين، فتسلمها المسلمون فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب ، فلما تسلمها المسلمون قدم فى ذلك اليوم من الفرنج نجدة عظيمة، يقال إنها ألف مركب، فعد تأخرهم إلى ما بعد تسليمها من الفرنج صنعا جميلا من الله سبحانه، وشاهد المسلمون عندما تسلموا دمياط من تحصين الفرنج لها ما لا يمكن أخذها بقوة ألبتة، وبعث السلطان بمن كان عنده فى الرهن من الفرنج، وقدم الملك الصالح ومن كان معه،

---

(١) الملك الصالح (٦٠٣ - ٦٤٧ هـ - ١٢٠٦ - ١٢٤٩ م). أيوب (الملك الصالح) بن محمد (الملك الكامل) بن أبى بكر (العادل) بن أيوب، أبو الفتوح نجم الدين: من كبار الملوك الأيوبيين بمصر. انظر خطط المقريزى ٢/٢٣٦، ابن إياس ١/٨٣، تاريخ الإسحاقى ١٨٩، مرآة الزمان ٨/٧٧٥. الأعلام ٢/٣٨.

وتقررت الهدنة بين الفرنج وبين المسلمين مدة ثمانى سنين، على أن كلا من الفريقين يطلق ما عنده من الأسرى، وحلف السلطان وإخوته، وحلف ملوك الفرنج، على ذلك، وتفرق من كان قد حضر للقتال، فكانت مدة استيلاء الفرنج على دمياط سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما، ثم دخل الملك الكامل إلى دمياط بعساكره وأهله، وكان لدخوله مسرة عظيمة وابتهاج زائد، ثم سار الفرنج إلى بلادهم وعاد السلطان إلى قلعة الجبل، فى يوم الجمعة ثانى عشر شهر رمضان، ودخل الوزير الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر فى البحر، وأطلق من كان بمصر من الأسرى، وكان فيهم من أسر من الأيام الصلاحية، وأطلق الفرنج من كان فى بلادهم من أسرى المسلمين، واتفق أنه لما رحل الفرنج اجتمع فى ليلة عند الملك الكامل أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى على حالة أنس، فأمر الأشرف جاريته ست الفخر فغنت على عودها:

ولما طغى فرعون عكا ببغيه ... وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض

أتى نحوهم موسى وفى يده العصا ... فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف، وقال لها: كررى، فشق ذلك على الملك الكامل، وأمرها فسكتت، وقال لجاريته: «غنِّ أنت» فغنت على العود:

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا ... لما قد جرى فى وقتنا وتجدَّدا

أعباد عيسى إن عيسى وقومه ... وموسى جميعا ينصرون محمدا

فأعجب الكامل بها، وأمر لها بخمسمائة دينار، ولجارية أخيه الأشرف بخمسمائة دينار، فنهض القاضى الأجل هبة الله بن محاسن، قاضى غزة[1] وكان فى جملتهم، وأنشد:

حبانا إله الخلق فتحا لنا بدا ... مبينا وإنعاما وعزا مجددا

تهلل وجه الدهر بعد قطوبه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا

ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ ... طغاة وأضحى بالمراكب مزبدا

أقام لهذا الدين من سل عزمه ... صقيلا كما سل الحسام مجردا

فلم تر الا كل شلو مجدل ... ثوى منهم أو من تراه مقيدا

---

(١) غزة: بفتح أوله، وتشديد ثانيه وفتحه، مدينة فى أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل، وهى من نواحى فلسطين غربى عسقلان، انظر معجم البلدان ٤/٢٠٢، وفى الروض المعطار: غزة موضع بديار حذام من مشارف الشام على ساحل البحر، وبها قبر هاشم ابن عبد مناف. انظر الروض المعطار ٤٢٨، ومعجم ما استعجم ٩٩٧/٣.

ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه وموسى جميعا ينصران محمدا

ويقال إن هذا المجلس كان بالمنصورة، ولما استقر الملك الكامل على تخت ملكه سارت الملوك إلى ممالكها، وعمت بشارة أخذ المسلمين دمياط آفاق الأرض، فإن التتار كانوا قد دمروا ممالك الشرق، وكادت مصر مع الشام يستأصل شأفة أهلها الفرنج، حتى مَنَّ الله بجميل صنعه وخفى لطفه، ونصر عباده المؤمنين، وأيدهم بجنده، بعدما ابتلى المؤمنون، وزلزلوا زلزالا شديدا، وقدمت على الملك الكامل تهانى الشعراء بهذا الفتح، فكان أولهم إرسالا شرف الدين بن عنين، بكلمته التى أولها:

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اجتمعوا رأيا ودينا وهمة وعزما وإن كانوا قد اختلفوا سنا
تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا إلينا سراعا بالجهاد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
بدا الموت من زرق الأسنة أحمرا فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية نورثها من صيد آبائنا الإبنا
وقد جربونا قبلها فى وقائع تعلم غمر القوم منا بها الطعنا
أسود وغى لولا وقائع سمرنا لما لبسوا قيدا ولا سكنوا سجنا
وكم يوم حَرٍّ ما وقينا هجيره وكم يوم قر ما طلبنا له كِنا
فإن نعيم الملك فى وسطه الشقا ينال وحلو العيش من مره يجنى
يسير بنا من آل أيوب ماجد أبى عزمه أن يستقر بنا مغنى
كريم الثنا عار عن العار باسل جميل المحيا كامل الحسن والحسنى
سرى نحو دمياط بكل سُمَيْدَع إمام يرى حسن الثنا المغنم الأسنى
مآثر مجد خلدتها سيوفه طوال المدى يفنى الزمان ولا تفنى
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم مواقعها منا فإن عاودوا عدنا
منحناهم منا حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا ولوغا ولكنّا ملكنا فأسجحنا

وقال:

قسما بما ضمت أباطح مكة ... وبمن حواه من الحجيج الموقف
لو لم يقم موسى بنصر محمد ... لرقى على درج الخطيب الأسقف
لولاه ما ذل الصليب وأهله ... فى ثغر دمياط وعز المصحف

ووردت أيضا قصيدة القاضى الأجل بهاء الدين زهير بن محمد بن على[١] القاضى، وغيره من الشعراء.

وفيها ملك التتر مراغة وهمذان وأذربيجان وتبريز[٢].

وفيها مات الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق الأرتقى، صاحب حصن كيفا، وقام من بعده ابنه الملك المسعود داود.

وفيها ركب الملك الكامل من قلعة الجبل إلى منظرة الصاحب صفى الدين بن شكر - التى على الخليج بمصر - فى ذى القعدة، وتحدث معه فى نفى الأمراء الذين وافقوا الفائز وكانوا فى جيزة دمياط لعمارتها، فكتب لهم بالتوجه من أرض مصر إلى حيث شاءوا، فمضوا بأجمعهم من الجيزة إلى الشام، ولم يتعرض الملك الكامل لشىء من موجودهم، وفرق أخبازهم على مماليكه.

وفيها مات أمين الدين مرتفع بن الشعار والى مصر، فى يوم الجمعة ثالث محرم.

ومات متولى تونس وبلاد إفريقية الأمير أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر بن يحيى بن أبى حفص عمر بن ونودين الهنتاتى[٣] فى يوم الخميس أول المحرم، وكان قد

---

(١) البهاء زهير (٥٨١ - ٦٥٦ هـ = ١١٨٦ - ١٢٥٨م). زهير بن محمد بن على المهلبى العتكى، بهاء الدين: شاعر، كان من الكتاب، يقول الشعر ويرقه فتعجب به العامة وتستمله الخاصة ولد بمكة، ونشأ بقوص واتصل بخدمة الملك الصالح أيوب (بمصر) فقربه وجعله من خواص كتابه، وظل حظيا عنده إلى أن مات الصالح، فانقطع زهير فى داره إلى أن توفى بمصر. له ديوان شعر مطبوع. انظر وفيات الأعيان ١/ ١٩٤، النجوم الزاهرة ٧/ ٦٢، آداب اللغة ٣/ ١٨، وروض المناظر ١٢/ ١٤٥. الأعلام ٥٢/ ٣

(٢) تبريز: هى أشهر مدن أذربيجان، وهى مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجص، وفى وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها، والفواكه بها رخيصة. انظر معجم البلدان ٢/١٣، واقتصر فى الروض المعطار على ذكرها بأنها فى خراسان من عمل أذربيجان. انظر الروض المعطار ١٣٠.

(٣) ابن أبى حفص (٦١٨ هـ =١٢١٢م). عبد الواحد بن عمر أبى حفص بن يحيى الهنتاتى الحفصى، أبو محمد: مؤسس دولة الحفصيين فى إفريقية الشمالية، كان أبوه من موطدى دعائم الملك لعبد المؤمن الكومى، استوزره الناصر لدين الله، ثم ولاه تونس سنة ٦٠٣ هـ . انظر الخلاصة النقية ٥٧ - ٥٩، الاستقصا ١/ ١٩٤، الدولة الحفصية ٣٧ - ٤٢، الأعلام ١٧٦/ ٤.

ولى تونس من قبل الناصر أبى عبد الله محمد بن يعقوب المنصور بن يوسف العسرى بن عبد المؤمن[١] ملك الموحدين، فى سنة اثنتين وستمائة، وكان أبو محمد قد قدَّم أكبر بنيه، الشيخ أبا زيد عبد الرحمن بن عبد الواحد، فقام بأمر تونس، حتى قدم أخوه أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد، متوليا إفريقية من قبل العادل عبد الله بن المنصور يعقوب ملك الموحدين، فى خامس رمضان منها، فاستمر أبو محمد عبد الله حتى قام أخوه أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد[٢].

هذا والأمير أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص هو أول من قام من الحفصيين بإمرة تونس، وهو جد ملوك تونس الحفصيين.

* * *

---

(١) الناصر المؤمنى (٦١٠هـ = ١٢١٣م). محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الزناتى الكومى الموحدى، الناصر لدين الله: من خلفاء دولة الموحدين، كان له المغرب الأقصى وإفريقية والأندلس، بويع فى حياة أبيه، وجددت له البيعة بعد وفاته (سنة ٥٩٥ هـ) وكان فى مراكش فانتقل إلى فاس. انظر دول الأعلام ٢/ ٨٥، الأنيس المطرب القرطاس ١٦٤ الاستقصا ١: ١٨٩ - ١٩٤، ابن خلدون ٦/ ٢٤٦، الحلل الموشية ١٢٢، الذخيرة السنية ٢٢، جذوة الاقتباس ١٢٩. الأعلام ١٤٥/ ٧.

(٢) أبو زكريا الحفصى . (٥٩٨ - ٦٤٧ هـ = ١٢٠٢ - ١٢٤٩م) يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى الحفصى، أبو زكريا: أول من استقل بالملك ووطد أركانه من ملوك الدولة الحفصية بتونس، ثار على أخيه عبد الله، واستمال إليه الجند، فتغلب على الملك سنة ٦٢٥ هـ، وكانت الخطبة لبنى عبد المؤمن (أصحاب مراكش) فقطعها، واستقل بدولته (سنة ٦٢٦هـ) وخطب لنفسه، وفى أيامه استفحلت فتنة ابن غانية فقتله (سنة ٦٣١هـ) ووجه نظره إلى توسيع ملكه، فاستولى على الجزائر وتلمسان وسجلماسة وسبتة وطنجة ومكناسة. وخاف فريدريك الثانى، فهادنه عشر سنوات، وخدم العلم، فأنشأ عدة مدارس ومساجد، وجعل لها الأوقاف ، وأنشأ د ارا للكتب جمع فيها ٣٦٠٠٠ مجلد، وكان كاتبا شاعرا، كثير الإحسان للمستورين، وفيه قال (ابن الأبار) سينيته المشهورة؛ وأنشدها بين يديه، أولها:

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

ومنها:

هذى رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا

وكانت وفاته ببونة ودفن فى جامعها، ثم نقل إلى قسنطينة . انظر الخلاصة النقية ٦٠، الدول الحفصية ٤٣ - ٥٤، المؤنس ١١٨- ١٢٠، وفوات الوفيات ٢/ ٣٢١، أزهار الرياض ٣/ ٢٠٨، المنتخب المدرس ١٠٠ - ١٠٢، ابن خلدون ٦/ ٢٨٠ - ٢٨٥، صبح الأعشى ٥/ ١٢٧، دائرة المعارف الإسلامية ٧/ ٤٧٤، التعريف بابن خلدون ١١.

سنة تسع عشرة وستمائة[1].

فيها قدم الأشرف موسى إلى مصر، فأقام بها عند أخيه السلطان الملك الكامل مدة، ثم عاد فى رمضان.

وفيها أوقع التتر بالكرج.

وفيها قدم المظفر موسى على أخيه الكامل بمصر.

وفيها قدم الملك المسعود يوسف بن الكامل من اليمن إلى مكة فى ربيع الأول، وقد رحل عنها الشريف حسن بن قتادة، وقدم معه راجح بن قتادة إلى مكة، فرد الملك المسعود على أهل الحجاز أموالهم ونخلهم، وما أخذ لهم من الدور بمكة والوادى، ثم عاد إلى اليمن بعدما حج، ومنع أعلام الخليفة من التقدم، وقدم أعلام أبيه على أعلام الخليفة، وبدا منه بمكة ما لا يحمد من رمى حمام الحرم بالبندق من فوق زمزم، ونحو ذلك، فهمَّ أهل العراق بقتاله، فلم يقدروا على ذلك عجزا عنه، واستناب الملك المسعود بمكة الأمير نور الدين عمر بن على بن رسول، ورتب معه ثلاثمائة فارس وكان الشريف حسن بن قتادة قد نزل ينبع، وولى الملك المسعود أيضا راجح بن قتادة السرين وحلى ونصف المخلاف، فجمع الشريف حسن وسار إلى مكة، وكسر ابن رسول، وملك منه مكة.

وفيها مات الأمير عماد الدين أبو العباس أحمد بن الأمير سيف الدين أبى الحسن على بن أحمد الهكارى، المعروف بابن المشطوب، أحد الأمراء الصلاحية، فى الاعتقال بحران، فى ربيع الآخر.

* * *

---

(١) سنة ٦١٩ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٦/٢٢٤، الكامل ١٢/٤٠٦ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢/٢٠٦



سنة عشرين وستمائة[1]

فيها أخذ المعظم عيسى المعرة وسليمة[2] ونازل حماة، فشق ذلك على أخيه الأشرف - وكان بمصر - وتحدث مع الكامل فى إنكار ذلك، فبعث السلطان الكامل إلى المعظم يسأله فى الرحيل عن حماة، فتركها وهو حنق.

وفيها حج الملك الجواد والملك الفائز من القاهرة، وقدما علم الخليفة على علم السلطان الملك الكامل فى طلوع عرفة.

وفيها خرج الأشرف من مصر إلى بلاده، ومعه خلع الملك الكامل والتقليد بسلطنة حلب للعزيز ناصر الدين محمد بن الظاهر غازى، فوصل إلى حلب فى شوال، وتلقاه العزيز - وعمره عشر سنين - فأفاض عليه الخلع الكاملية، وحمل الغاشية بين يديه، وأقام عنده أياما، ثم سار إلى حران.

وفيها عمَّ الجراد بلاد العراق والجزيزة، وديار بكر والشام.

وفيها أوقع التتر بالروس.

وفيها شنق سهم الدين عيسى والى القاهرة نفسه - وهو معتقل بدار الوزارة - ليلة الخميس سادس شوال.

* * *

---

(١) سنة ٦٢٠ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٢٥ - ٢٢٨/ ٦ ،الكامل ٤١٣/ ١٢ وما بعدها ، تاريخ ابن الوردى ٢٠٧/ ٢.

(٢) سليمة: قرب المؤتفكة، وهى بليدة فى ناحية البرية من أعمال حماة. انظر معجم البلدان ٣/٢٤٠.



سنة إحدى وعشرين وستمائة[1]

فيها ملك التتر قم[2] وقاشان[3] وهمذان .

وفيها اختلف الحال بين المظفر غازى، صاحب إربل وبين أخيه الأشرف، فخرج المعظم من دمشق يريد محاربة الأشرف، فبعث إليه الكامل يقول له: «إن تحركت من بلدك سرت وأخذته منك». فخاف وعاد إلى دمشق.

وفيها مات الوزير الأعز أبو العباس أحمد، المعروف بفخر الدين مقدام بن شكر، فى آخر شعبان بالقاهرة.

وفيها أخذ عسكر مصر ينبع من بنى حسن، وكانوا قد اشتروها بأربعة آلاف مثقال، فلم تزل بيد المصريين إلى سنة ثلاثين.

* * *

---

(١) سنة ٦٢١ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٢٨ - ٢٣٠/ ٦ ، الكامل ١٢/٤١٩ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢٠٨/ ٢.

(٢) قم: بالضم، وتشديد الميم، وهى كلمة فارسية: مدينة تذكر مع قاشان، وهى مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها. انظر معجم البلدان ٣٩٧/ ٤، وفى الروض المعطار قم: مدينة من كور الجبل، من همذان إليها خمس مراحل، وهى مدينة كبيرة كثيرة الأهل، عليها سور تراب، وبها فواكه وأشجار، وسورها حصين، ومياههم من الآبار، ومياه بساتينهم تستخرج من الأرض بالسواقى، وعليه زراعاتهم، والغالب على أهلها التشيع، وأكثر أهلها عرب، وحكى أن مدينة قم الكبرى يقال لها منيجان وهى جليلة المقدار، يقال إن فيها درب، وداخل المدينة حصن قديم للعجم، وإلى جانبها مدينة يقال لها كمندان ولها واد يجرى فيه الماء بين المدينتين، عليه قناطر معقودة بحجارة يعبر عليها من مدينة منيجان إلى مدينة كمندان وأهلها قوم من مذحج ثم من الأشعريين، وبها عجم وقوم من الموالى يذكرون أنهم موال لعبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما. انظر الروض المعطار ٤٧٢، ونزهة المشتاق ٢٠٤، والكرخى ١١٨، وابن حوقل ٣١٥، وابن الفقيه ٢٦٣.

(٣) قاشان: بالشين المعجمة، وآخره نون : مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم، ومنها تجلب الغضافر القاشانى، والعامة تقول القاشى، وأهلها كلهم شيعة إمامية، انظر معجم البلدان ٢٩٦/ ٤، وفى الروض المعطار قاشان: أهل قاشان حشوية جهال، والغالب على هذه النواحى الجبال الشاهقة إلا ما بين همذان إلى الرى إلى قم فإن الجبال هناك قليلة، وإنما الجبال الصعبة فيما بين حدود شهرزور إلى آمد، فيما بين حدود أذربيجان والجزيرة ونواحى الموصل، وأكثرها مسكونة بالأكراد. انظر الروض المعطار ٤٤٧.



سنة اثنتين وعشرين وستمائة[1]

فيها فرَّ الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود من مصر فى البحر، خوفا من عمه الملك الكامل، ولحق بعمه المعظم.

وفيها تخوف الكامل من أمرائه، لميلهم إلى أخيه الملك المعظم، فقبض على جماعة، وبعث إلى الطرقات من يحفظها، وبعث عدة رسل إلى الملوك الذين فى خدمة أخيه الأشرف يأمرهم بالاتفاق وألا يخالفوه.

وفيها عاد السلطان جلال الدين بن خورازم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى بلاده، وقوى أمره على التتر، واستولى على عراق العجم، وسار إلى ماردين وأخذها، وسار إلى خوزستان، وشاقق جلال الدين الخليفة الناصر لدين الله، وسار حتى وصل بعقوبا، وبينها وبين بغداد سبعة فراسخ، فاستعد الخليفة للحصار، ونهب جلال الدين البلاد، وأخذ منها ما لا يقع عليه حصر، وفعل أشنع ما يفعله التتر، فكاتبه الملك المعظم، واتفق معه معاندة لأخيه الكامل، ولأخيه الملك الأشرف، صاحب البلاد الشرقية، فسير السلطان جلال الدين بن القاضى مجد الدين - قاضى الممالك - فى الرسالة إلى الملك الأشرف، ثم إلى الملك المعظم، ثم إلى الملك الكامل، فظاهر بأنواع الفسوق، وسار جلال الدين إلى عراق العجم، فملك همذان وتبريز، وأوقع بالكرج.

وفيها مات الملك الأفضل على بن صلاح الدين يوسف، صاحب سميساط، فجأة بسميساط فى صفر، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس - وقيل ست - وستين وخمسمائة، وهو أكبر أولاد أبيه، وإليه كانت ولاية عهده، وسمع الأفضل من ابن عوف وابن برى، واستقل بمملكة دمشق بعد موت أبيه، فلم ينتظم له أمر لقلة حظه، وأخذها منه أخوه العزيز عثمان، صاحب مصر، ثم صار الأفضل أتابكا للمنصور بن العزيز بمصر، وحصر دمشق، وبها عمه العادل، وأشرف على أخذها منه؛ فقطع عليه سوء الحظ، وعاد إلى مصر، وفى أثره عمه العادل، فانتزع منه مصر، ولم يبق معه سوى صرخد، ثم قصد الأفضل دمشق ثانيا، مع أخيه الظاهر غازى صاحب حلب، فلم يتم أمرهما لاختلافهما، وصار بيده سميساط لا غير. فلما مات أخوه الظاهر طمع فى حلب، وخرج إليها مع السلطان عز الدين كيكاوس السلجوقى ملك الروم، فلم يتم

(١) سنة ٦٢٢ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٣٠ - ٢٣٤/ ٦، الكامل ٤٢٥/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢٠٩/ ٢.

لهما أمر، وعاد الأفضل إلى سميساط، فلم يزل بها يتجرع الغصص حتى مات كمدا، وكان فاضلا أديبا حليما، حسن السيرة متجاوزا، يكتب الخط المليح، جامعا لعدة مناقب، إلا أنه كان قليل الحظ، وشعره جيد، كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله - لما انتزع منه دمشق أخوه عثمان وعمه العادل أبو بكر - في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة كتابا يشكو إليه اغتصابهما ميراثه من أبيه، وأوله:

مولاى إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد أخذ بالسيف إرث على

فانظر إلى حظ ههذا اقسم كيف لقى ... من الأواخر ما لاقى من الأول

وله أيضا فى معناه:

أما آن للسعد الذى أنا طالب ... لإدراكه يوما يُرى وهو طالبى

ترى هل يرينى الدهر أيدىَ شيعتى ... تمكن يوما من نواصى النواصب

فأجابه الخليفة بقوله:

وافى كتابك يابن يوسف معلنا ... بالود يخبر أن أصلك طاهر

غصبوا عليا حقه إذ لم يكن ... بعد النبى له بيثرب ناصر

فابشر فإن غدًا يكون حسابهم ... واصبر فناصرك الإمام الناصر

ومن شعره:

أيا من يسود شعره بخضابه ... لعساه من أهل الشبيبة يحصل

ها فاختضب بسواد حظى مرة ... ولك اللمان بأنه لا ينصل

وقام من بعده بسميساط أخوه الملك المفضل قطب الدين موسى [١] شقيقه، فاختلف عليه أولاد الأفضل.

وفيها مات الخليفة الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف، فى ثانى شوال، ومولده فى العاشر من شهر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسائة، وله فى الخلافة سبع وأربعون سنة، غير ستة وثلاثين يوما، وكانت أمه أم ولد، يقال لها زمرد، وقيل نرجس، وكان شهما أبى النفس، حازما متيقظًا، صاحب فكر صائب، ودهاء ومكر، وكان مهيبا، وله أصحاب أخبار - بالعراق وفى الأطراف - يطالعونه بجزئيات الأمور وكلياتها، فكان لا يخفى عليه أكثر أحوال رعيته، حتى أن أهل العراق يخاف الرجل منهم أن يتحدث مع امرأته، لما يظن أن ذلك يطلع عليه

---

(١) المفضل الأيوبى (٦٣١ هـ = ١٢٣٤م). موسى (المفضل، قطب الدين) بن يوسف بن أيوب: من أمراء هذه الدولة، له رواية للحديث، ومعرفة بالنحو. انظر ترويح القلوب ٩٣. الأعلام ٧/٣٣١.

الخليفة فيعاقب عليه، وعمل شخص دعوة ببغداد، وغسل يده قبل أضيافه، فعلم الخليفة بذلك من أصحاب أخباره، فكتب فى الجواب: «سوء أدب من صاحب البلد، وفضول من كاتب المطالعة». وكان ردىء السيرة فى رعيته، ظالما عسوفا، خرب العراق فى أيامه، وتفرق أهله فى البلاد، فأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يحب جمع المال، ويباشر الأمور بنفسه، ويركب بين الناس ويجتمع بهم، مع سفكه للدماء، وفعله للأشياء المتضادة: فيغتصب الأموال ويتصدق، وشغف برمى الطير بالبندق، ولبس سراويلات الفتوة، وحمل أهل الأمصار على ذلك، وعمل سالم بن نصر الله بن واصل الحموى فى ذلك رسالة بديعة، وصنف الناصر لدين الله كتابا فى مروياته، سماه روح العارفين، وأسمعه للفقهاء بمصر والشام، وله شعر، وفى خلافته خرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا إلى همذان، وكان هو السبب فى ذلك، فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد، خوفا من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه لما هم بالاستيلاء على بغداد، وأن يجعلها دار ملكه، كما كانت السلجوقية، ولم يمت الخليفة الناصر لدين الله حتى عمى، وقيل كان يبصر بإحدى عينيه، وقام من بعده فى الخلافة ابنه الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد - بعهد من أبيه - يوم مات أبوه، وعمره ما ينيف على خمسين سنة، وكان يقول «من يفتح دكانه العصر متى يستفتح؟» ولما ولى أظهر العدل، وأزال عدة مظالم، وأطلق أهل السجون، وظهر للناس، وكان من قبله من الخلفاء لا يظهرون إلا نادرا.

وفيها وصل الملك المسعود من اليمن إلى مكة، ومضى إلى القاهرة من طريق عيذاب، فقدم على أبيه الكامل بقلعة الجبل، ومعه هدايا جليلة.

وفيها مات الوزير الصاحب صفى الدين عبد الله بن أبى الحسن على بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن بن منصور بن إبراهيم بن عمار بن منصور بن على الشيبى، أبو محمد المعروف بابن شكر، الفقيه الدميرى المالكى، فى يوم الجمعة ثامن شعبان - وقيل شوال - بالقاهرة، ودفن برباطه منها، وكان مولده بدميرة [١] إحدى قرى مصر البحرية، فى تاسع صفر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وسمع من ابن عوف وغيره، وحدث، وكان جبارا جباها عاتيا، عانيا بتقدمة الأراذل وتأخر الأماثل، أفقر خلقا كثيرا.

وفيها قدم الشريف قاسم الحسينى أمير المدينة، بعسكر إلى مكة، وحصرها نحو شهر، وبها نواب الملك الكامل، فلم يتمكن منها، بل قتل.

---

(١) دميرة: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وياء مثناة من تحت ساكنة وراء مهملة : قرية كبيرة بمصر قرب دمياط. انظر معجم البلدان ٤٧٢/ ٢.

سنة ثلاث وعشرين وستمائة[1]

فيها تأكدت الوحشة بين المعظم وبين أخويه الكامل والأشرف.

وفيها بعث الخليفة الظاهر بأمر الله التشاريف لملوك بنى أيوب، على يد محيى الدين أبى المظفر بن الحافظ جمال الدين أبى الفرج بن الجوزى[2]: فبدأ بالأشرف موسى صاحب البلاد الشرقية، وأفاض عليه الخلع الخليفتية، ثم بالعزيز غياث الدين محمد بن الظاهر صاحب حلب، فأفاض عليه فرجية واسعة الكم سوداء، وعمامة سوداء مذهبة، وثوبا مطرزا بالذهب أيضا، ثم ألبس المعظم عيسى، صاحب دمشق، بدمشق. وسار إلى القاهرة بالتقليد والخلع للملك الكامل، ولأولاده الصالح نجم الدين أيوب والملك المسعود، وللصاحب صفى الدين بن شكر، فبرز الملك الكامل إلى ظاهر القاهرة، ولبس الخلع الخليفتية هو وولداه. وكان الصاحب صفى الدين قد مات، فألبس الكامل الخلعة التى باسمه للقاضى فخر الدين سليمان بن محمود بن أبى غالب أبى الربيع الدمشقى، كاتب الإنشاء، وعبر الكامل من باب النصر، وشق القاهرة إلى أن صعد قلعة الجبل، فكان يوما مشهودا.

وفيها قبض الملك الكامل على أولاد الصاحب صفى الدين بن شكر، وأحاط بجميع موجوده، واعتقل ابنيه تاج الدين يوسف وعز الدين محمد، فى قاعة سهم الدين، بدرب الأسوانى من القاهرة، ولم يستوزر الكامل بعد ابن شكر أحدا.

وفيها سافر الملك المسعود من القاهرة إلى اليمن.

وفيها كثر وهم الملك الكامل من عسكره، فإن المعظم أرسل إليه فى جملة كلام:

---

(١) انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٣٤ - ٢٣٧/ ٦، الكامل ٤٥٠ - ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢١١/ ٢.

(٢) ابن الجوزى (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ - ١١١٤ - ١٢٠١ م). عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى القرشى البغدادى، أبو الفرج: علامة عصره فى التاريخ والحديث، كثير التصانيف، مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى مشرعة الجوز من محالها، له نحو ثلاثمائة مصنف منها: تلقيح فهوم أهل الآثار فى مختصر السير والأخبار، الناسخ والمنسوخ، فنون الأفنان، المنتظم ، تقويم اللسان، زاد المسير فى علم التفسير. انظر وفيات الأعيان ١/ ٢٧٩، البداية والنهاية ١٣/ ٢٨، مفتاح السعادة ١/ ٢٠٧، ذيل الروضتين ٢١، ابن الوردى ٢/ ١١٨ آداب اللغة ٣/ ٩١، مرآة الزمان ٨/ ٤٨١، الكامل ١٠/ ٢٢٨، الأعلام ٣١٧/ ٣.

«وإن قصدتنى لا آخذك إلا بعسكرك». فوقع فى نفسه الخوف ممن معه، وهم أن يخرج من مصر، فلم يجسر، وخرج المعظم فنازل حمص، وخرب قراها ومزارعها، ولم ينل من قلعتها شيئا، لامتناعها هى والمدينة عليه، فلما طال مقامه على حمص رحل عنها؛ لما أصاب عسكره ودوابه من الموت، وقدم عليه أخوه الأشرف جريدة، فسر به سرور عظيما وأكرمه زائدا.

وفيها مات الخليفة الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الناصر، فى رابع عشر شهر رجب، فكانت خلافته تسعة أشهر وتسعة أيام، وكان حسن السيرة كثير المعروف، واستقر فى الخلافة من بعده ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، وعمره عشرون سنة، فوردت عليه رسل ملوك الأطراف، وبعث الملك الكامل فى الرسالة معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه[1] فلما قدم بغداد قال نيابة عن الملك الكامل، وهو بين يدى الوزير مؤيد الدين أبى الحسن محمد بن محمد القمى: عبد الدولة المقدسة المستنصرية يقبل العتبات التى يستشفى بتقبيل ثراها، ويستكفى بتمسكه من عبوديتها بأوثق عراها، ويوالى شكر الله تعالى على إماطة ليل العزاء الذى عم مصابه، بصبح الهناء الذى تم نصابه، حتى تزحزح عن شمس الهدى شفق الإشفاق، فجعل كلمتها العليا، وكلمة معاديها السفلى، وزادها شرفا فى الآخرة والأولى.

وفيها قدم رسول علاء الدين كيقباد، ملك الروم، بتقدمة جليلة إلى الملك الكامل.

* * *

---

(١) ابن حمويه (٥٨٢ - ٦٤٧هـ = ١١٨٦ - ١٢٥٠م). يوسف (فخر الدين) بن محمد (صدر الدين) بن عمر بن على بن محمد بن حمويه الجوينى، الصاحب أبو المظفر: قائد، من الأدباء من أسرة أصلها من جوين بنيسابور . انظر شذرات الذهب ٥/ ٢٣٨ - ٢٣٩، دولة الإسلام ٢/١١٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٣، طبقات السبكى ٥/ ١٥٢، البداية والنهاية ١٣/ ٣، الكامل ١٢/ ١٥٤، الأعلام ٢٤٩/ ٨.

سنة أربع وعشرين وستمائة

فيها سافر الأشرف إلى بلاده من دمشق، بعدما حلف للمعظم أنه يعاضده على أخيه الملك الكامل، وعلى الملك المجاهد صاحب حمص، والناصرصاحب حماة.

وفيها سافر رسول علاء الدين كيقباد ملك الروم، من مصر إلى مخدومه.

وفيها تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف، وخاف الكامل من انتماء أخيه المعظم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، فبعث الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه إلى ملك الفرنج، يريد منه أن يقدم إلى عكا، ووعده أن يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل؛ ليشغل سر أخيه المعظم، فتجهز الإمبراطور ملك الفرنج لقصد الساحل، وبلغ ذلك المعظم، فكتب إلى السلطان جلال الدين يسأله النجدة على أخيه الكامل، ووعده أن يخطب له، ويضرب السكة باسمه، فسير إليه جلال الدين خلعة لبسها، وشق بها دمشق، وقطع الخطبة للملك الكامل، فبلغ ذلك الكامل، فخرج من القاهرة بعساكره، ونزل ببلبيس فى شهر رمضان فبعث إليه المعظم: «إنى نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدى أتصدق بألف دينار، فإن جميع عسكرك معى، وكتبهم عندى، وأنا آخذك بعسكرك»، وكتب المعظم مكاتبة بهذا فى السر، ومعها مكاتبة فى الظاهر فيها: «بأنى مملوكك، وما خرجت عن محبتك وطاعتك، وحاشاك أن تخرج وتقابلنى، وأنا أول من أنجدك، وحضر إلى خدمتك من جميع ملوك الشام والشرق»، فأظهر الكامل هذا بين الأمراء، ورجع من العباسة إلى قلعة الجبل، وقبض على عدة من الأمراء ومماليك أبيه؛ لمكاتبتهم المعظم: منهم فخر ألطبنا الحبيشى، وفخر الدين ألطن الفيومى - وكان أمير جانداره، وقبض أيضا على عشرة أمراء من البحرية العادلية، واعتقلهم وأخذ سائر موجودهم؛ وأنفق فى العسكر ليسير إلى دمشق.

وفيها وصل رسول ملك الفرنج بهدية سنية وتحف غريبة إلى الملك الكامل، وكان فيها عدة خيول، منها فرس الملك بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر، فتلقاه الكامل بالإقامات، من الإسكندرية إلى القاهرة، وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه، وأكرمه إكراما زائدا، وأنزله فى دار الوزير صفى الدين بن شكر، واهتم الكامل بتجهيز هدية سنية إلى ملك الفرنج فيها من تحف الهند واليمن، والعراق والشام، ومصر والعجم ما قيمته أضعاف ما سيره، وفيها سرج من ذهب، وفيها جوهر بعشرة آلف دينار مصرية، وعين الكامل للسير بهذه الهدية جمال الدين بن منقذ الشيزرى.

وفيها وصل رسول الأشكرى فى البحر إلى الملك الكامل، فسار المعظم من دمشق لتخريب القدس، فخرب قلاعا وعدة صهاريج بالقدس، لما بلغه من حركة ملك الفرنج.

وفيها جهز الملك الكامل كمال الدين ومعين الدين، ولدى شيخ الشيوخ ابن حمويه - ومعهما الشريف شمس الدين الأرموى، قاضى العسكر - إلى المعظم، وأمر السلطان الكامل أن يسير الكمال بجواب المعظم إلى الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بحمص، ويعرفه الحال، وأن يتوجه المعين إلى بغداد، برسالة إلى الخليفة، فتوجها فى شعبان.

وفيها اتفق عيد الفطر يوم عيد اليهود وعيد النصارى.

وفيها ختن الملك العادل أبو بكر بن الملك الكامل فى تاسع شوال.

وفيها مات الملك المعظم أبو الفتح عيسى بن الملك العادل، صاحب دمشق، يوم الجمعة سلخ ذى القعدة بدمشق، ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى الصالحية، ومولده بدمشق، فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وكان قد خافه الملك الكامل، فسر بموته، وكان كريما شجاعا، أديبا لينا، فقيها متغاليا فى التعصب لمذهب أبى حنيفة - رحمه الله - وشارك فى النحو وغيره، وقال له أبوه مرة: «كيف اخترت مذهب أبى حنيفة، وأهلك كلهم شافعية؟» فقال: «ياخوند! أما ترغبون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم؟».وصنف كتابا سماه السهم المصيب فى الرد على الخطيب البغدادى أبى بكر أحمد بن ثابت، فيما تكلم به فى حق أبى حنيفة، وفى تاريخ بغداد. وكان مقداما، لا يفكر فى عاقبة، جبارا مطرحا للملابس، وهو الذى أطمع الخوارزمى فى البلاد، وكانت مدة ملكه - بعد أبيه - ثمانى سنين وسبعة أشهر غير ثمانية أيام، فقام من بعده ابنه الملك الناصر داود[1] وعمره إحدى وعشرون سنة، وسير الناصر كتبه إلى عمه الملك الكامل، فجلس الكامل للعزاء، وسير إليه الأمير علاء الدين بن شجاع الدين جلدك المظفرى التقوى بالخلعة وسنجق السلطنة، وكتب معه بما طيب قلبه، فلبس الناصر خلعة الكامل، وركب بالسنجق، ثم أرسل إليه الكامل يريد منه أن يترك له قلعة الشوبك؛ ليجعلها خزانة له، فامتنع من ذلك، وبهذا وقعت الوحشة بينه وبين عمه الكامل.

---

(١) الملك الناصر (٦٠٣ - ٦٥٦ هـ = ١٢٠٦ - ١٢٥٨م). داود بن الملك المعظم عيسى بن محمد بن أيوب، الملك الناصر صلاح الدين: صاحب الكرك، وأحد الشعراء الأدباء. ولد ونشأ فى دمشق، وملكها بعد أبيه (سنة ٦٢٦ هـ) وأخذها منه عمه الأشرف، فتحول إلى الكرك فملكها إحدى عشرة سنة، ثم استخلف عليها ابنه عيسى (سنة ٦٤٧ هـ) فانتزعها منه الصالح (أيوب بن عيسى) فى هذه السنة، فرحل الناصر مشردا فى البلاد، وحبس بقلعة حمص ثلاث سنوات، ثم أقام فى حلة بنى مزيد، وتوفى بقرية البويضاء بالطاعون. انظر صبح الأعشى ٤/ ١٧٥، فوات الوفيات ١/ ١٥٦، والنجوم والزاهرة ٧/ ٣٤، ٦١، شذرات الذهب ٥/ ٢٧٥. الأعلام ٣٣٤/ ٢.

وفيها أمر الملك الكامل بتخريب مدينة تنيس، فخربت أركانها الحصينة وعمائرها المكينة، ولم يكن بديار مصر أحسن منها، واستمرت من حينئذ خرابا.

وفى شهر رجب من هذه السنة: دعا لنفسه بتونس الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص[١] وتلقب بالسلطان السعيد فلم ينازعه أحد فى مملكة إفريقية، وكان قد ضعف أمر بنى عبد المؤمن.

* * *

---

(١) سبق ترجمته.

سنة خمس وعشرين وستمائة[1]

فيها سير الملك الكامل شيخ الشيوخ ابن حمويه بالخلع إلى ابن أخيه الناصر داود ابن المعظم، بدمشق، فحمل الرسول الغاشية بين يديه، ثم حملها عماه: الملك العزيز عثمان صاحب بانياس والملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بصرى.

وفيها جهز الملك الكامل أيضا الخلع للمجاهد صاحب حمص.

وفيها استوحش الملك الكامل من أخيه الناصر داود، وعزم على قصده، وأخذ دمشق منه، وعهد الكامل إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده بديار مصر، وأركبه بشعار السلطنة - وشق الصالح القاهرة، وحملت الغاشية بين يديه، تداول حملها الأمراء بالنوبة - وأنزله بدار الوزارة، وعمره يومئذ نحو اثنتين وعشرين سنة.

وفيها ظلم الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه - صاحب بعلبك - وتعدى، وأخذ أموال أهل بعلبك وأولادهم، فقام عدة من جنده مع العزيز فخر الدين عثمان بن العادل فى تسليمه بعلبك، فسار العزيز إليها ونازلها، فقبض الأمجد على أولئك الذين قاموا معه، وقتل بعضهم، واعتقل باقيهم، ثم إن الناصر داود صاحب دمشق، بعث إليه من رحَّله عن بعلبك قهرا، فغضب وسار إلى الملك الكامل ملتجئا إليه، فسر به الكامل، ووعده بانتزاع بعلبك من الأمجد وتسليمها إليه.

وفيها ظلم الناصر داود أهل دمشق، وأخذ أموالهم، واشتغل باللهو، وأعرض عن مصالح الدولة، فشق ذلك على الكامل، وجعله سببا يؤاخذه به، وتجهز فى شهر رجب للمسير لمحاربته، واستناب على مصر ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ؛ ليحصل الأموال ويدبر أمور المملكة، وخرج الكامل من القاهرة يوم الأحد تاسع عشر شعبان - فى عساكره المتوافرة - ومعه المظفر تقى الدين محمود بن المنصور، وقد وعده أن يسلمه حماة، وكانت بيد أخيه قلج أرسلان، والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل، وكان قد رباه عمه الملك الكامل بعد موت أبيه، وأقطعه البحيرة من ديار مصر، فلما بلغ الناصر

---

(١) سنة ٦٢٥ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٤٠/ ٦، الكامل ٤٧٥/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢١٥/ ٢.

خروج عمه لم يمل إلى استعطافه، والتجأ إلى عمه الأشرف، فسار الكامل بالعسكر والعربان إلى تل العجول، وبعث منها إلى نابلس والقدس وأعمالها، وسير الكامل الأمير حسام الدين أبا على بن محمد بن أبى على الهذبانى - أحد أصحاب المظفر تقى الدين محمود - إلى القاهرة، فاستخدمه الملك الصالح، وجعله أستاداره، فاستولت أصحاب الملك الكامل على نابلس والقدس، وبلغ ذلك الناصر، فحلف عسكره، واستعد للحرب، وقدم إليه عمه الصالح صاحب بصرى، والأمير عز الدين أيبك من صرخد، وأصله مملوك أبيه المعظم، فقويت بهما نفسه، وسير بالناصر يستدعى عمه الأشرف من البلاد الشرقية، مع الأمير عماد الدين بن موسك، وفخر القضاة نصر الله بن بصاقة، وأردفهما بالأشرف بن القاضى الفاضل، فأجاب الأشرف إلى معاونته، واستناب فى بلاده الملك الحافظ بن العادل، وسار إلى دمشق، فتلقاه قلج أرسلان صاحب حماة من سليمة بأموال وخيول، وتلقاه أسد الدين شيركوه، صاحب حمص، وأولاده، وقدم الأشرف إلى دمشق، فتلقاه الناصر فى أخريات شهر رمضان، وزين دمشق لقدومه، فدخل القلعة وعليه شاش علم كبير، وهو مشدود الوسط بمنديل، وقد سر الناصر به سرورا كبيرا، وحكّمه فى بلاده وأمواله، فأعجب الأشرف بدمشق، وعمل فى الباطن على انتزاعها لنفسه من الناصر، ثم قدم إلى خدمة الأشرف بدمشق المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد، صاحب حمص، وسار العزيز بن العادل إلى خدمة الملك الكامل، وهو فى الطريق، فسر بقدومه، وأعطاه شيئا كثيرا، وسير الأشرف إلى الكامل الأمير سيف الدين على بن قلج، يشفع فى الناصر، ويطلب منه إبقاء دمشق عليه، ويقول: «إنا كلنا فى طاعتك، ولم نخرج عن موافقتك» فأكرم الملك الكامل الرسول، ثم سار الأشرف - ومعه الناصر - من دمشق، يريدان ملاقاة الملك الكامل والترامى عليه؛ ليصلح الأشرف الأمر بينهما، فلما بلغ الكامل مسيرهما شق عليه، ورحل من نابلس يريد العود إلى القاهرة فنزل الأشرف والناصر بنابلس، فأقام بها الناصر، ومضى الأشرف والمجاهد إلى الكامل، فبلغه قدوم الأشرف وهو بتل العجول، فقام إلى لقائه، وقدم به إلى معسكره، ونزلا، فكان الاتفاق بينهما على انتزاع دمشق من ابن أخيهما الناصر داود، وأن تكون للملك الأشرف وما معها إلى عقبة فيق، ويكون للكامل ما بين عقبة فيق وغزة من البلاد والحصون، وهو الفتح الصلاحى بأسره، ويكون للناصر - عوضا من دمشق - حران والرقة[1] وسروج ورأس عين، وهى ما كان مع

(١) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات، انظر معجم البلدان ٣/٥٩، وفى الروض المعطار الرقة: مدينة بالعراق مما يلى الجزيرة، وكل أرض إلى جانب واد ينبسط عليها الماء عند المدّ فهى رقة، وبه سميت المدينة. والرقة واسطة بلاد مضر، ومن مدنها الرها وسروج وشمشاط ورأس العين وغيرها،

الأشرف، وأن تنزع بعلبك من الأمجد بهرام، وتعطى لأخيهما العزيز عثمان، وأن تنزع حماة من الملك الناصر قلج أرسلان بن المنصور، وتعطى للمظفر تقى الدين محمود بن المنصور، وأن تؤخذ من المظفر سليمة، وتضاف إلى المجاهد صاحب حمص.

وفيها مات طاغية المغل والتتر جنكزخان، بالقرب من صارو بالق، وحمل ميتا إلى كرسى ملك الخطا. ورتب بعده ابنه الأصغر عوضه خانا كبيرا، على كرسى مملكة الخطا، وأخذ إخوته الثلاثة بقية الأقاليم.

وفيها خرج التتار إلى بلاد الإسلام، فكانت لهم عدة حروب مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه، كسر فيها غير مرة، ثم ظفر أخيرا بهم، وهزمهم، فلما خلا سره منهم سار إلى خلاط - من بلاد الأشرف - فنهب وسبى الحريم، واسترق الأولاد، وقتل الرجال، وخرب القرى، وفعل ما لا يفعله أهل الكفر، ثم عاد إلى بلاده، وقد زلزل بلاد حران والرها وما هنالك، ورحل أهل سروج إلى منبج، وكان قد عزم على قصد بلاد الشام، لكن صرفه الله عنها.

وفيها قدم الإمبراطور ملك الفرنج إلى عكا، باستدعاء الملك الكامل له- كما تقدم - ليشغل سر أخيه المعظم، فاتفق موت المعظم، ولما وصل ملك الفرنج إلى عكا بعث رسوله إلى الملك الكامل، وأمره أن يقول له: «الملك يقول لك كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء، ولا أجيء إليهم، والآن فقد كنتم بذلتم لنائبى - فى زمن حصار دمياط - الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية، وما فعلنا، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وإعادتها إليكم. ومن نائبى إن هو إلا أقل غلمانى، فلا أقل من إعطائى ما كنتم بذلتموه له». فتحير الملك الكامل، و لم يمكنه دفعه ولا محاربته، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق؛ فراسله ولاطفه، وسفر بينهما الأمير فخر الدين بن الشيخ، وشرع الفرنج فى عمارة صيداء - وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج، وسورها خراب - فعمروها وأزالوا من فيها من المسلمين، وخرجت السنة والكامل على تل العجول، وملك الفرنج بعكا، والرسل تتردد بينهما.

* * *

والرقة على شارعة الفرات فى الشمال منه، وعليها سوران، وهى فى فحص يبعد عن الجبال على مسافة أكثر من يومين، وفى شرقيها جبلان يسميان المنخرين. وفتح الرقة عياض بن غنم سنة ثمان عشرة. انظر الروض المعطار ٢٧٠، ٢٧١، ومعجم ما استعجم ٦٦٦/٢.



سنة ست وعشرين وستمائة[1]

فيها غلت الأسعار بالساحل ودمشق، ووصلت نجدة من حلب إلى الغور.

وفيها قفز الأمير عز الدين أيدمر المعظمى إلى الملك الكامل، فأحسن إليه. ففارق الناصر داود من نابلس لما بلغه اتفاق الأشرف مع الكامل عليه، وعاد إلى دمشق، فبلغ الأشرف وهو بتل العجول ذلك، فسار ليدركه، فوافاه بقصير ابن معين الدين من الغور، تحت عقبة فيق، وأعلمه الأشرف - بحضور الملك الصالح إسماعيل، والملك المغيث، والأمير عز الدين أيبك المعظمى - أنه اجتمع بالملك الكامل للإصلاح بينهما، وأنه اجتهد وحرص على «أن يرجع عنك، فامتنع وأبى إلا أن يأخذ دمشق، وأنت تعلم أنه سلطان البيت وكبيرهم، وصاحب الديار المصرية، ولا يمكن الخروج عما يأمر به، وقد وقع الاتفاق على أن تسلم إليه دمشق، وتعوض عنها من الشرق كذا»، وذكر ما وقع الاتفاق عليه، فلما فرغ الأشرف من كلامه قام الأمير عز الدين أيبك وهو أكبر أمير مع الناصر داود وقال: لا كيد ولا كرامة، ولا نسلم من البلاد حجرا واحدا، ونحن قادرون على دفع الجميع ومقاومتهم، ومعنا العساكر المتوافرة، وأمر الملك الناصر بالركوب فركبا، وقوضت الخيام، وسارا إلى دمشق، وتحالف على الناصر عمه الصالح، وابن عمه المغيث، ولما وصل الناصر إلى دمشق استعد للحصار، وقام معه أهل البلد، لمحبتهم فى أبيه، وسار الأشرف بمن معه، وحاصر دمشق، وقطع عنها أنهارها - بانـاس، والقنوات، ويزيد [2] وثورا - فخرج إليه العسكر وأهل البلد وحاربوه، وفى أثناء ذلك كثر تردد الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والشريف شمس الدين الأرموى قاضى العسكر، بين الإمبراطور فردريك ملك الفرنج، إلى أن وقع الاتفاق أن ملك الفرنج يأخذ القدس من المسلمين، ويبقيها على ما هى من الخراب، ولا يجدد سورها، وأن يكون سائر قوى القدس للمسلمين، لا حكم فيها للفرنج، وأن الحرم - بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى - يكون بأيدى المسلمين، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام من المسلمين، ويقيمون فيه شعار الإسلام من الأذان والصلاة، وأن تكون القرى التى فيما بين عكا وبين يافا، وبين القدس، بأيدى الفرنج، دون ما عداها من

---

(١) ٦٢٦ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٤١ - ٢٤٣/ ٦، الكامل ١٢/٤٨٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢١٦/ ٢.

(٢) نهر يزيد بدمشق مشهور منسوب إلى يزيد بن أبى سفيان، انظر معجم البلدان ٣٢٤/ ٥.

قرى القدس، وذلك أن الكامل تورط مع ملك الفرنج، وخاف من غائلته، عجزا عن مقاومته، فأرضاه بذلك، وصار يقول: «إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع». فلما اتفقا على ذلك عقدت الهدنة بينهما مدة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوما، أولها ثامن عشرى شهر ربيع الأول من هذه السنة، واعتذر ملك الفرنج للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه، ما كلف السلطان شيئا من ذلك، وأنه ما له غرض فى القدس ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج، وحلف الملك الكامل وملك الفرنج على ما تقرر؛ وبعث السلطان فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان، فعز عليه ذلك، وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات، وزجرهم. وقيل لهم: امضوا إلى حيث شئتم، فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار، وبعث الإمبراطور بعد ذلك يطلب تبنين وأعمالها، فسلمها الكامل له، فبعث يستأذن فى دخول القدس، فأجابه الكامل إلى ما طلبه، وسير القاضى شمس الدين قاضى نابلس فى خدمته، فسار معه إلى المسجد بالقدس، وطاف معه ما فيه من المزارات، وأعجب الأمبراطوار بالمسجد الأقصى وبقبة الصخرة، وصعد درج المنبر، فرأى قسيسا بيده الإنجيل، وقد قصد دخول المسجد الأقصى، فزجره وأنكر مجيئه، وأقسم لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن ليأخذن ما فيه عيناه، «فإنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس، على سبيل الإنعام منه، فلا يتعدى أحد منكم طوره، فانصرف القس وهو يرعد خوفا منه». ثم نزل الملك فى دار، وأمر شمس الدين قاضى نابلس المؤذنين ألا يؤذنوا تلك الليلة، فلم يؤذنوا ألبتة، لما أصبح قال الملك للقاضى: «لم لم يؤذن المؤذنون على المنابر؟» فقال له القاضى: «منعهم المملوك إعظاما للملك واحتراما له». فقال له الإمبراطور: أخطأت فيما فعلت، وا لله إنه كان أكبر غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل».

ثم رحل الإمبراطور إلى عكا، وكان هذا الملك عالما متبحرًا فى علم الهندسة والحساب والرياضيات، وبعث إلى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة فى الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفى - المعروف بتعاسيف - وغيره، فكتب جوابها، وعاد الإمبراطور من عكا إلى بلاده فى البحر، آخر جمادى

الآخرة، وسير الكامل جمال الدين الكاتب الأشرف إلى البلاد الشرقية وإلى الخليفة، في تسكين قلوب الناس وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس.

وفي خامس جمادى الأولى - وهو يوم الأحد -: وقعت الحوطة على دار القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل، وحملت خزائن الكتب، جميعها إلى قلعة الجبل، في سادس عشريه، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلدة، وحمل من داره - في ثالث جمادى الآخرة - خشب خزائن الكتب مفصلة، وحملها تسعة وأربعون جملا، وكانت الجمال التي حملت الكتب تسعة وخمسون جملا، ثلاث دفعات.

وفي يوم السبت ثاني عشرى رجب منها: حملت الكتب والخزائن من القلعة إلى دار الفاضل، وقيل إن عدتها أحد عشر ألف كتاب وثمانمائة وثمانية كتب، ومن جملة الكتب المأخوذة كتاب الأيك والغصون لأبي العلاء المعري، في ستين مجلدا.

وفيها وصل ملك ملطية[1] فكثرت غاراته وقتله وسبيه.

وفيها اشتد تشنيع الملك الناصر داود بدمشق على عمه الملك الكامل تسليمه القدس للفرنج، فنفرت قلوب الرعية، وجلس الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزي[2] بجامع دمشق، وذكر فضائل بيت المقدس، وحزن الناس على استيلاء الفرنج عليه، وبشع القول في هذا الفعل، فاجتمع في ذلك المجلس ما لا يحصى عدده من الناس، وعلت أصواتهم بالصراخ، واشتد بكاؤهم، وأنشد الحافظ شمس الدين قصيدة، أبياتها ثلاثمائة بيت، منها:

على قبة المعراج والصخرة التي   تفاخر ما في الأض من صخرات

---

(١) ملطية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الطاء، وتخفيف الياء، والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء، هي من بناء الإسكندرية وجامعها من بناء الصحابة: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام وهي للمسلمين، انظر معجم البلدان ١٩٢/ ٥.

(٢) سبط ابن الجوزي (قز أوغلي) (٥٨١ - ٦٥٤ هـ = ١١٨٥ - ١٢٥٦م). يوسف بن قزأو غلي - أو قزغلي - بن عبد الله، أبو المظفر، شمس الدين، سبط أبي الفرج بن الفرج بن الجوزي: مؤرخ من الكتاب الوعاظ، ولد ونشأ ببغداد، وانتقل إلى دمشق، فاستوطنها وتوفي فيها، من كتبه مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. انظر مفتاح السعادة ١/ ٢٠٨ والتبر المسبوك ١٧١ والبداية والنهاية ١٣/ ١٩٤ والجواهر المضيئة ٢/ ٢٣٠ وذيل مرآة الزمان ١/ ٣٩ وخيرات الاعتدال ٣/ ٣٣٣ والنعيمي ١/ ٤٧٨ وتاريخ علماء بغداد وشذرات الذهب ٥/ ٢٦٦ والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٩ وابن خلكان ٢/ ٢٥٠ ومرآة الجنان ٤/ ١٣٦ والفهرس التمهيدي ٤٢٩ وآداب اللغة ٣/ ٨٢ ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٢٦ والمخطوطات المصورة ١/ ٥١٧. والأعلام ٨/٢٤٦.

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

فلم ير بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم، وكان الأشرف على منازلة دمشق، فبعث إلى الكامل يستحثه، فرحل الكامل من تل العجول بعد طول مقامه بها، فتلقاه فى قرية يبنا[١] أخوه العزيز عثمان، صاحب بانياس، بابنه الظاهر غازى، فوصل الكامل العزيز بخمسين ألف دينار، وابنه غازى بعشرة آلاف دينار، وقماش وخلع سنية، وأمر الكامل فضربت له خيمة عظيمة، وحولها بيوتات، وسائر ما يحتاج إليه من الآلات والخيام، برسم أصحابه ومماليكه، ثم وصل إليه أيضا الأمير عز الدين أيدمر المعظمى، فدفع إليه الكامل عشرة آلاف دينار - وقيل عشرين ألف دينار - وكتب له على الأعمال القوصية بعشرين ألف أردب غلة، وأعطاه أملاك الصاحب صفى الدين بن شكر، ورباعه وحمامه، وسار الكامل إلى دمشق، فنزل على ظاهرها فى جمادى الأولى، وجدَّ هو والأشرف فى حصارها، حتى اشتد عطش الناس فى دمشق، لانقطاع الأنهار عنهم، ومع ذلك فالحرب بينهم قائمة فى كل يوم إلى آخر رجب، فغلت الأسعار ، ونفدت أموال الناصر، وفارقه جماعة من أصحابه، وصاروا إلى الكامل والأشرف. فأخذ الناصر فى ضرب أوانيه من الذهب والفضة دنانير ودراهم، وفرقها حتى نفد أكثر ما كان عنده من الذخائر، وناصحته العامة مناصحة كبيرة، وأبلوا فى عسكر الكامل والأشرف بلاء عظيما.

وفى أثناء ذلك قدم القاضى بهاء الدين بن شداد ومعه أكابر حلب وعدولها، من عند الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى صلاح الدين، صاحب حلب، لتزويج ابنة الملك الكامل بالملك العزيز، فخرج الملك الكامل من مخيمه بمسجد القدم إلى لقائه، وأنزله قريبا منه، ثم أحضره فقدم تقدمة كانت معه من الملك العزيز، وعقد العقد للملك العزيز على الخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ، على صداق مبلغه خمسون ألف دينار، فقبل العقد ابن شداد فى سادس عشر شهر رجب ، فضعف قلب الملك الناصر داود، وقلت أمواله، فخرج ليلا من قلعة دمشق فى آخر شهر رجب ، ومعه نفر يسير، وألقى نفسه على مخيم الكامل، فخرج إليه الكامل، وأكرمه إكراما زائدا، وباسطه وطيب قلبه، بعد عتب كثير، وأمره أن يعود إلى القلعة، فعاد إليها، ثم بعد يومين بعث الكامل بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى القلعة - وكان يوم جمعة - فصلى بها الجمعة، وخرج ومعه الناصر داود إلى الملك الكامل،

(١) يبنا: بالضم ثم السكون، ونون، وألف مقصورة، بلفظ الفعل الذى لم يسم فاعله من بنى يبنى: بليدة قرب الرملة. انظر معجم البلدان ٤٢٨/ ٥.

فتحالفا، وعوضه الكامل عن دمشق بالكرك والشوبك وأعمالهما، مع الصلت والبلقاء والأغوار جميعها، ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل، ثم نزل الناصر عن الشوبك للكامل فقبلها، وصار للكامل مع الشوبك بلد الخليل عليه السلام، وطبرية وغزة، وعسقلان والرملة ولدّ، وما بأيدى المسلمين من الساحل.

وفتحت أبواب دمشق فى أول يوم من شعبان، فشق ذلك على أهل دمشق، وتأسفوا على مفارقة الناصر، وكثر بكاؤهم، ثم تسلمها الملك الأشرف، وبعث الكامل قصاده لتسلم بلاد الأشرف، وهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والخادم شمس الدين صواب، وجماعة، فتسلما حران والرها وسروج، ورأس عين والرقة، وغير ذلك، وسافر الناصر داود بأهله إلى الكرك، وسار الكامل إلى حماة، وبها الناصر صلاح الدين قلج أرسلان بن المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب.

وقدم مع الكامل المظفر تقى الدين محمود بن المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فى جماعة، فنازل حماة حتى سلم صاحبها الناصر قلج أرسلان، وسبق إلى الملك الكامل وهو بسليمة، فأهانه واعتقله، وتسلم المظفر حماة، فكانت مدة الناصر بحماة تسع سنين تنقص شهرين، وبعث الكامل بالناصر صاحب حماة إلى مصر، فاعتقل بها، ثم سار الكامل يريد البلاد الشرقية، فقطع الفرات، ودخل قلعة جعبر، ثم توجه إلى الرقة، وخافه ملوك الشرق، فعيد بالرقة عيد الفطر، وسار إلى حران والرها، واستخدم بها عسكرا عدته نحو ألفى فارس، فقدمت عليه رسل ماردين وآمد، والموصل وإربل[1] وحضر إليه أيضا عدة ملوك، وبعث الكامل فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى الخليفة؛ وأطلق ابن أخيه الملك الناصر قلج أرسلان من اعتقاله، وخلع عليه، وأعطاه بارين، وكتب له بها توقيعا، وأمر أن يحمل إليه ما كان فى قلعة حماة - وهو أربعمائة ألف درهم - وكتب إلى المظفر تقى الدين بتسليم ذلك إليه.

فوصل الناصر إلى بارين وتسلمها، ثم ورد الخبر على الكامل بأن جلال الدين خورازم شاه نازل خلاط، ونصب عليها عشرين منجنيقا، وكان وصوله إليها فى نصف شوال، وكانت خلاط للملك الأشرف، وبها عسكره، فأرسلوا إلى الملك الكامل يسألون فى نجدة، فلم يرسل الكامل إليهم أحدا، وورد الخبر بإقامة الخطبة فى

---

(١) إربل بالكسر ثم السكون وباء موحدة مكسورة ولام بوزن إثمد، ولا يجوز فتح الهمزة لأنه ليس فى أوزانهم ، وإربل قلعة حصينة و مدينة كبيرة فى فضاء من الأرض واسع بسيط ولقلعتها خندق عميق . انظر معجم البلدان، واقتصر فى الروض المعطار على ظنه بأنها من أعمال الشام. انظر الروض المعطار ٢٦، وآثار البلاد ٢٩٠.

ماردين للملك الكامل، وضربت السكة باسمه هناك. ثم توالت الرسل من خلاط، وكلها تطلب إلى الكامل أن يبعث الأشرف لنجدة البلد، فبعث الكامل يطلب عساكر حلب وحماة وحمص، فخرجت عساكر حلب إلى خلاط، ومعها الأشرف، ثم ورد الخبر بأن الفرنج قد أغارت على بارين، وأنهم نهبوا ما بها، وأسروا وسبوا.

وفيها مات الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل بمكة، عن ست وعشرين سنة، منها مدة ملكه باليمن أربع عشرة سنة، وهو آخر ملوك بنى أيوب ببلاد اليمن، وترك المسعود ابنا يقال له صلاح الدين يوسف، ولقب بالملك المسعود، كلقب أبيه، وبقى يوسف هذا حتى مات فى سلطنة عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب، صاحب مصر.

ثم ولى ابنه موسى بن يوسف بن يوسف بن الكامل مملكة مصر، ولقب بالأشرف، شركة مع المعز أيبك، كما سيأتى إن شاء الله تعالى، فاشتد حزن الملك الكامل على ولده يوسف، وتسلم مماليكه وخزائنه وأولاده، ولبس لشدة حزنه البياض، وكان المسعود قد استخلف على اليمن نور الدين على بن رسول التركمانى، فتغلب عليها، وبعث إلى الملك الكامل عدة هدايا، وقال: أنا نائب السلطان على البلاد، فاستمر ملك اليمن فى عقبه بعد ذلك.

* * *

سنة سبع وعشرين وستمائة[1]

أهلت والملك الكامل بحران، والخوارزمى على خلاط، والأشرف محاصر بعلبك.

وفيها قدم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من بغداد .

وفيها ورد رسول الإمبراطور، ملك الفرنج، بكتابه إلى الملك الكامل بحران، ومعه أيضا كتاب للأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ.

وفيها سار الكامل من حران إلى الرقة.

وفيها استولى الأشرف بن العادل على بعلبك، بعدما أقام على حصارها عشرة أشهر، وعوض الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى، عوضا من بعلبك وأعمالها، قصير دمشق والزبدانى[2]، فكانت مدة ملكه بعلبك تسعا وأربعين سنة، فبعث الكامل الأمير فخر الدين عثمان الأستادار إلى الأشرف، فى مهمات تتعلق به؛ وولى كمال الدين بن شيخ نائبا بالجزيرة.

وفيها قدم رسول السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقى- صاحب الروم- على الملك الكامل، وأخبره بأنه جهز خمسة وعشرين ألفا إلى أرزنجان[3] وعشرة آلاف إلى ملطية، «وأنا حيث تأمر». فطاب قلب السلطان الكامل بذلك، وكان مهتما من أمر الخوارزمى.

وفيها سار الأشرف، صاحب دمشق، من الشام إلى جهة الشرق، فوصل إلى الكامل وهو بالرقة، ووصل أيضا مانع بن حديثة أمير العرب.

وفيها ملك الخوارزمى مدينة خلاط بعد حصار طويل وقتال شديد، فى ثامن

---

(١) سنة ٦٢٧ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٤٣ - ٢٤٥/ ٦، الكامل ٤٨٩/ ١٢ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢١٩/ ٢.

(٢) الزبدانى: بفتح أوله وثانيه، ودال مهملة، وبعد الألف نون ثم ياء مشددة كياء النسبة: كورة مشهورة معروفة بين دمشق وبعلبك منها خرج نهر دمشق. انظر معجم البلدان ٣/١٣٠.

(٣) أرزنجان بالفتح ثم السكون وفتح الزاى وسكون النون وجيم وألف ونون، وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف، وهى بلدة طيبة مشهورة، نزهة، كثيرة الخيرات والأهل، من بلاد أرمينية بين الروم وخلاط قريبة من أرزن الروم وغالب أهلها أرمن، وفيها مسلمون، وهم أعيان أهلها، وشرب الخمر والفسق بها ظاهر شائع. انظر معجم البلدان.

عشرى جمادى الأولى فوضع السيف فى الناس، وأسرف فى القتل والنهب، فرحل الملك الكامل يريد مصر؛ لأمور منها أنه بلغه موت ولده الملك المسعود صاحب اليمن، فكتمه وكان قد ورد عليه أيضا من أم ولده العادل كتاب تشكو فيه من ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأنه قد عزم على التوثب على الملك، واشترى جماعة كبيرة من المماليك الأتراك، وأنه أخذ مالا جزيلا من التجار، وأتلف جملة من مال بيت المال؛ ومتى لم تتدارك البلاد وإلا غلب عليها، وأخرجنى أنا وابنك الملك العادل منها، فانزعج الكامل لذلك، وغضب غضبا شديدا، ثم ورد عليه الخبر بأن ابنه الصالح اشترى ألف مملوك، فعزم على الرحيل إلى مصر، فرتب الطواشى شمس الدين صواب العادلى نائبا فى أعمال المشرق، وأعطاه إقطاع أمير مائة فارس، زيادة على ما بيده من الديار المصرية، وهى أعمال أخميم[1] بكمالها، وقاى والقايات ودجوة[2] بإمرة مائتين وخمسين فارسا، فصار أمير ثلاثمائة وخمسين فارسا، ورتب الملك الكامل كمال الدين ابن شيخ الشيوخ وزيرا، وتوجه الكامل إلى مصر، فدخلها فى رجب، وتغير على ابنه الملك الصالح تغيرا كثيرا، وقبض على جماعة من أصحابه وسجنهم، وألزمهم إحضار الأموال التى فرط فيها الملك الصالح، وخلع الصالح من ولاية العهد.

وفيها واقع الملك علاء الدين كيقباد السلطان جلال الدين خوارزم شاه وكسره، وقتل كثيرا ممن كان معه، وخلص جلال الدين فى عدة من أصحابه إلى تبريز، وكان ذلك فى سابع عشرى رمضان، فملك الأشرف- صاحب دمشق- مدينة خلاط.

---

(١) أخميم: مدينة فى البلاد المصرية فى الجانب الشرقى من النيل لها ساحل، وهى مدينة كبيرة قديمة فيها أسواق وحمامات ومساجد كثيرة وفيها من البرابى وعجائب المبانى والآثار ما يعجز الوصف عنه وهى بصعيد مصر. انظر الروض المعطار ١٥، ١٦، ١٨، والاستبصار ٨٤، وقال ابن إياس فى ذكر مدينة أخميم: قال ابن وصف شاه: هذه المدينة من أجل مدن الصعيد، وكان بها من العجائب الكثيرة والبرابى المحكم، وكان بها السحرة الذين استعان بهم فرعون يوم ألقى موسى العصا، وذكر عبد الله محمد بن عبد الرحيم القيسى: أن هذه البربا مربعة من حجارة منحوتة ولها أربعة أبواب يفضى كل باب إلى بيت منها وله أربعة أبواب كلها مظلمة ويصعد منها إلى بيوت كثيرة، ولم تزل على ذلك حتى سد بعض الولاة بابها خوفا على الناس وكانت تجلب الأنطاع إلى مصر من أخميم وإليها ينسب سيدى ذى النون المصرى الأخميمى، ولم تزل عامرة محكمة إلى سنة ثمانين وسبعمائة. انظر نزهة الأمم ٢٢٧.

(٢) دُجْوَةُ: بضم أوله، وسكون ثانيه: قرية بمصر على شط النيل الشرقى على بحر رشيد، بينها وبين الفسطاط ستة فراسخ من كورة الشرقية، وبعضهم يقولها بكسر الدال. انظر معجم البلدان ٢/ ٤٤٣.

وفيها بلغ قاع النيل بمقياس مصر ذراعين، وانتهت زيادة ماء النيل ثلاثة عشر ذراعا وثلاثة عشر إصبعا لا غير، فارتفعت الأسعار.

وفيها قصد الفرنج حماة، فأوقع بهم المظفر تقى الدين، وقتل عدة منهم، وأسر كثيرا، وذلك فى رمضان.

وفيها مات الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب- صاحب بعلبك - ليلة الأربعاء ثامن عشر شوال، وكانت مدة ملكه تسعا وأربعين سنة، وكان أديبا شاعرا. ومات الملك الظافر خضر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان يعرف بالمشمِّر.

* * *

سنة ثمان وعشرين وستمائة[1]

فيها عاد الأشرف إلى دمشق.

وفيها انفرد العزيز صاحب حلب بالملك، وقد بلغ ثمانى عشرة سنة، وتسلم الخزائن من أتابكه شهاب الدين طغريل، فقام بتدبير الملك قياما مشكورا، وسير القاضى بهاء الدين بن شداد إلى الملك الكامل، بسبب إحضار صفية خاتون ابنة الكامل - وهى زوجة العزيز - فأقام بالقاهرة حتى سنة تسع وعشرين وستمائة.

وفيها قدم الأشرف من دمشق على الملك الكامل ومعه الملك المعظم - صاحب الجزيرة - فى عاشر جمادى الأولى، فسر السلطان بقدومهما.

وفيها سار الملك الكامل إلى الإسكندرية، وترك الأشرف بالقاهرة، واستصحب معه صاحب الجزيزة بعدما أنعم عليه إنعاما موفورا.

وفيها تحرك التتر.

وفيها قدم الملك مجير الدين بن العادل إلى القاهرة، وكان مأسورا عند الخوارزمى، فسر به الكامل، وأكرمه هو وأخوه تقى الدين عباس.

وفيها مات السلطان جلال الدين خوارزم شاه، بعدما هزمه التتر ببعض قرى ميافارقين؛ قتله بعض الأكراد.

وفيها وصل التتر إلى إربل، وقتلوا من المسلمين ما لا يحصى عددهم إلا خالقهم.

وفيها شرع الملك الكامل فى حفر بحر النيل، الذى فيما بين المقياس وبر مصر؛ وعمل فيه بنفسه، واستعمل الملوك والأمراء والجند، فلما فرغ من الحفر صار فى أيام احتراق النيل يمشى من المقياس والروضة إلى بر الجيزة، واستمر الماء فيما بين مصر والروضة لا ينقطع فى زمن الاحتراق ألبتة، وكان السلطان قد قسط حفر هذا البحر على الدور التى بالقاهرة، ومصر والروضة، بالمقياس، واستمر العمل فيه - من مستهل شعبان إلى آخر شوال - مدة ثلاثة أشهر.

---

(١) ٦٢٨ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٤٥ - ٢٤٧/ ٦، الكامل ١٢/٤٩٥ وما بعدها، تاريخ ابن الوردى ٢٢٠/ ٢ وما بعدها.

وفيها قدم رسول الخليفة المستنصر بالله بالخلع والتقليد للملك الكامل، ومُيِّز بزيادات كثيرة، لم تفعل فى حق غيره، من السلجوقية وغيرهم، ووردت خلع للملك الأشرف أيضا.

وفيها تسلطن عمر بن على بن رسول[١] باليمن، ونشر دعوته.

* * *

(١) (٦٤٧ هـ ـ ١٢٥٠م).عمر بن على ابن رسول (واسمه محمد) بن هارون بن أبى الفتح الغسانى التركمانى، نور الدين، الملقب بالملك المنصور: مؤسس الدولة الرسولية فى اليمن، وأحد الدهاة الأجواد الشجعان. ولد بمصر ونشأ أديبا فاضلا، حسن الاتصال ببنى أيوب. انظر العقود اللؤلؤية ١/ ٤٣ - ٨٨، بغية المستفيد، النهب المسبوك ٣٩. الأعلام ٥٦/ ٥.

سنة تسع وعشرين وستمائة[1]

فيها تكمل استيلاء التتر على إقليم أرمينية وخلاط، وسائر ما كان بيد الخوارزمى. فاهتم الخليفة المستنصر بالله غاية الاهتمام، وسير عدة رسل يستنجد الأشرف من مصر، ويستنجد العربان وغيرهم، وأخرج الخليفة الأموال، فوقع الاستخدام فى جميع البلاد لحركة التتر.

وفيها خرج الملك الكامل من القاهرة فى جمادى الآخرة، واستخلف على مصر ابنه الملك العادل أبا بكر، وأسكنه قلعة الجبل مع أمه، وأخرج الصالح أيوب معه، وقدم الأشرف - والمعظم صاحب الجزيزة - بالعساكر، ومضى الكامل جريدة إلى الشوبك والكرك، وسار إلى دمشق، ومعه الناصر داود صاحب الكرك بعساكره، وقد زوجه بابنته عاشوراء خاتون، وعقد عقده عليها بمنزلة اللجون، وأقام الكامل بدمشق يسرح العساكر، وجعل فى مقدمتها ابنه الملك الصالح أيوب، وورد الخبر بدخول التتر بلاد خلاط، فأسرع الكامل فى الحركة، وخرج من دمشق، فنزل سليمة - وقد اجتمع بها بعساكر يضيق بها الفضاء - وسار منها فى أخريات رمضان على البرية، وتفرقت العساكر فى عدة طرق لكثرتها، فهلك منها عدة كثيرة من الناس والدواب، لقلة الماء، وأتته رسل ملوك الأطراف، وهم عز الدين بيقرا، وفخر الدين بن الدامغانى، رسل الخليفة المستنصر بالله، وألبسوه خلعة السلطنة، فاستدعى الكامل عند ذلك رسل الخوارزمى، ورسول الكرج، ورسل حماة وحمص، ورسول الهند، ورسل الفرنج، ورسل أتابك سعد صاحب شيراز، ورسل صاحب الأندلس ولم تجتمع هذه الرسل عند ملك فى يوم واحد قط غيره، وقدم عليه بهاء الدين اليزدى - شيخ رباط الخلاطية - من بغداد، وجماعة من النخَاس، يحثونه على الغزاة.

فرحل التتر عن خلاط، بعد منازلتها عدة أيام، وجاء الخبر برحيلهم والكامل بحران، فجهز عماد الدين بن شيخ الشيوخ رسولا إلى الخليفة، وسار إلى الرها، وقدم العساكر إلى آمد، وسار بعدهم، فنزل على آمد، ونصب عليها عدة مجانيق، فبعث إليه صاحبها يستعطفه، ويبذل له مائة ألف، وللأشرف عشرين ألف دينار، فلم يقبل، ومازال عليها حتى أخذها، فى سادس عشرى ذى الحجة، وحضر صاحبها إليه بأمان، فوكل به حتى سلم جميع حصونها، فأعطى السلطان حصن كيفا لابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وفيها وردت هدية من ماردين.

---

(١) انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٤٧ - ٢٤٩/ ٦، تاريخ ابن الوردى ٢/٢٢٦.

وفيها سار ابن شداد من القاهرة بالستر العالى الصاحبة غازية خاتون، ابنة الكامل وزوجة الملك المظفر، صاحب حماة؛ والستر العالى الصاحبة فاطمة، ابنة الكامل وزوجة الملك العزيز، صاحب حلب، وخرج معها أيضا الأمير فخر الدين البانياسى، والشريف شمس الدين قاضى العسكر.

وفيها مات الأمير فخر الدين عثمان بن قزل أستادار الملك الكامل، و صاحب المدوسة الفخرية بالقاهرة، فى ثامن عشر ذى الحجة بحران.

وفيها بعث الملك المنصور عمر بن على بن رسول، صاحب اليمن، عسكرا إلى مكة، فيه الشريف راجح بن قتادة، فملكها من الأمير شجاع الدين طغتكين، نائب الملك الكامل، فى ربيع الآخر. وفر شجاع الدين إلى نخلة ثم إلى ينبع، وكتب يعلم الملك الكامل بذلك، فبعث إليه الكامل عسكرا سار بهم إلى مكة، فقدموها فى شهر رمضان، وملكوها بعدما قتلوا جماعة، وكان مقدم العسكر الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ.

* * *

سنة ثلاثين وستمائة[1]

فيها أنعم الكامل على ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بحصن كيفا، وسيره إليها، وعاد هو إلى الديار المصرية، ومعه الملك المسعود، صاحب آمد، فلما وصل قلعة الجبل أفرج عنه، وأحسن إليه، وأعطاه إمرة بديار مصر.

وفيها قبض الكامل على جماعة من الأمراء المصرية.

وفيها استولى الملك المظفر، صاحب حماة على حصن بارين، وانتزعه من أخيه الناصر قلج أرسلان، فسار قلج أرسلان إلى خاله الكامل، فقبض عليه، واعتقله فى قلعة الجبل حتى مات.

وفيها جهز الملك الكامل عسكرا من الغُزّ والعربان إلى ينبع، من أرض الحجاز - عليهم علاء الدين آق سنقر الزاهدى [......][2] - فى شوال وعدتهم سبعمائة، وسبب ذلك ورود الخبر بمسير الشريف راجح من اليمن بعسكر إلى مكة، وأنه قدمها فى صفر، وأخرج من بها من المصريين بغير قتال، فقدم الزاهدى فى الموسم، وتسلم مكة، وحج بالناس، وترك بمكة ابن محلى، ومعه خمسون فارسا، ورجع إلى مصر.

وفيها توفى الفخر سليمان بن محمود بن أبى غالب الدمشقى، كاتب الإنشاء. فاستحضر الملك الكامل ناسخا يقال له الأمين الحلبى، كان عند الأمير عز الدين أيبك - أستادار الملك المعظم - فى خدمته يكتب له، فلما حضر الأمين ليكتب بين يديه خلع عليه، وأعاده إلى صاحبه، فتزهد استحياء من الناس، وبعث الكامل إلى ميافارقين، فأحضر الجلال بن نباتة ليستكتبه، فلما حضر خلع عليه، وأعاده ولم يستكتبه الأشرف صاحب دمشق.

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر رمضان: سلطن الملك الكامل ولده الملك العادل سيف الدين أبا بكر، وأركبه بشعار السلطنة، وشق به القاهرة، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة، وكان الكامل يحبه، ويحب أمه حبا زائدا.

---

(1) سنة ٦٣٠ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٤٩ - ٢٥١/ ٦، تاريخ ابن الوردى ١٢٢٧/ ٢.

(2) مابين المعقوفتين سقط فى الأصل.

وفى ذى القعدة: وصل محيى الدين يوسف بن الجوزى[١] من بغداد، بالتقليد من الخليفة المستنصر با لله للملك الكامل.

وفيها أبطل السلطان المعاملة بالفلوس فى القاهرة ومصر، فتلف مال كثير للناس.

وفيها مات الأمير حسام الدين مانع بن حديثة، أمير العربان من آل فضل، فأمَّر الأشرف بعده ابنه مهنا[٢].

وفيها قدم الناصر داود صاحب الكرك إلى مصر، فنزل بدار الوزارة من القاهرة، وركب فى خدمة عمه الملك الكامل.

وفيها مات العزيز فخر الدين عثمان بن العادل بدمشق، يوم الإثنين عاشر رمضان. وفيها مات الملك المعظم مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك، ملك إربل، فى تاسع عشرى شعبان عن أربع وثمانين سنة، وكان يهتم بعمل المولد النبوى فى كل سنة اهتماما زائدا، فتسلم إربل من بعده نواب الخليفة، وصارت مضافة إلى مملكة بغداد.

* * *

---

(١) ابن الجوزى (٥٨٠ - ٦٥٦ =١١٨٥ - ١٢٥٨ م). يوسف بن عبد الرحمن بن على بن الجوزى القرشى التيمى البكرى البغدادى، محيى الدين، أبو المحاسن: أستادار الخلافة المستعصمية، وسفيرها. من أهل بغداد وهو ابن العلامة أبى الفرج (النجوزى) توفى والده وعمره سبع عشرة سنة، فكلفته والدة الخليفة الناصر تفقه على أبيه وغيره. وولى الحسبة بجانبى بغداد، والنظر فى الوقوف العامة. انظر المنهج الأحمد - خ، الدارس ٢/ ٦٢، ذيل مرآة الزمان ١: ٣٣٢ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٢٥٨، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٣ شذرات الذهب ٥/ ٢٨٦، النجوم الزاهرة ٧/ ٦٦. الأعلام ٨/ ٢٣٦.

(٢) مهنا بن حسام الدين (٦٦٠ هـ - ١٢٦٢م). مهنا بن مانع بن حديثة بن عقبة (أو عصية) بن فضل بن ربيعة، من طيء، من قطحان: رأس آل مهنا من آل فضل أمراء البادية تولى بعد وفاة أبيه. انظر صبح الأعشى ٤/ ٢٠٥، ٢٠٦ الضوء اللامع ٥/ ١٤٦ ابن خلدون ٢/ ٢٥٥، المختصر ٢/ ٢٠٥. الأعلام ٣١٧/ ٧.

سنة إحدى وثلاثين وستمائة[1]

فيها قصد السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو السلجوقى، صاحب بلاد الروم، مدينة خلاط، فخرج الملك الكامل من القاهرة بعسكره، ليلة السبت خامس شعبان، واستناب ابنه الملك العادل، فوصل إلى دمشق، وكتب إلى ملوك بنى أيوب يأمرهم بالتجهيز، للمسير بعساكرهم إلى بلاد الروم، وخرج الكامل من دمشق، فنزل على سليمة فى شهر رمضان، ورتب عساكره، وسار إلى منبج، فقدم عليه عسكر حلب، وغيره من العساكر، فسار وقد صار معه ستة عشر دهليزا، لستة عشر ملكا - وقيل بل كانوا ثمانية عشر ملكا، فعرضهم الكامل على إلبيرة أطلابا بأسلحتهم، فلكثرة ما أعجب بنفسه قال: «هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام».

وأمر بها فسارت شيئا بعد شىء نحو الدربند، وقد جدَّ السلطان علاء الدين فى حفظ طرقاته بالمقاتلة، ونزل الكامل على النهر الأزرق، وهوبأول بلد الروم، ونزل عساكر الروم فيما بينه وبين الدَّربند، وأخذوا عليه رأس الدربند، وبنوا عليه سورا يمنع العساكر من الطلوع، وقاتلوا من أعلاه، فقلّت الأقوات عند عسكر الكامل، واتفق - مع قلة الأقوات وامتناع الدربند - نفور ملوك بنى أيوب من الملك الكامل، بسبب أنه حُفظ عنه أنه لما أعجبته كثرة عساكره بالبيرة، قال لخواصه: «إن صار لنا ملك الروم فإنا نعوض ملوك الشام والشرق مملكة الروم، بدل ما بأيديهم، ونجعل الشام والشرق مضافا إلى ملك مصر». فحذر من ذلك المجاهد صاحب حمص، وأعلم به الأشرف موسى صاحب دمشق، فأوجس فى نفسه خيفة موسى، وأحضر بنى عمه وأقاربه من الملوك، وأعلمهم ذلك، فاتفقوا على الملك الكامل، وكتبوا إلى السلطان علاء الدين بالميل معه وخذلان الكامل، وسيروا الكتب بذلك، فاتفق وقوعها فى يد الملك الكامل، فكتمها ورحل راجعا، فأخذ السلطان علاء الدين طيقباد - ملك الروم - قلعة خرتبرت[2] وست قلاع أخر كانت مع الملوك الأرتقية، فى ذى القعدة، فاشتد حنق الملك الكامل، لما حصل على أمرائه وعساكره من صاحب الروم فى قلاع خرتبرت، ونسب ذلك إلى أهله من الملوك، فتنكر ما بينه وبينهم.

---

(١) ٦٣١ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٥١ - ٢٥٥/ ٦، تاريخ ابن الوردى ٢٢٨/ ٢.

(٢) خَرْتَبِرْت: بالفتح ثم السكون، وفتح التاء المثناة، وباء موحدة مكسورة، وراء ساكنة ، وتاء مثناة من فوقها ، هو اسم أرمينى: وهو الحصن المعروف بحصن زياد الذى يجىء فى أخبار بنى حمدان فى أقصى ديار بكر من بلاد الروم. انظر معجم البلدان ٣٥٥/ ٢.

وفيها مات الملك المفضل قطب الدين موسى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فى ذى الحجة.

وفيها بعث المنصور عمر بن على بن رسول - ملك اليمن- عسكرا، وخزانة مال إلى الشريف راجح بن قتادة، فأخرج من بمكة من المصريين.

وفيها حضر الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبى سماعا، بزقاق الطباخ بمدينة مصر، فى أول يوم من شهر رجب، وكان هناك الشيخ أبو عبد الله القرشى، وأبو عباس القسطلانى، وجماعة غيرهما، فلما أنشد القوّال صفق أبو يوسف الدهمانى بيديه، وارتفع عن الأرض متربعا، إلى أن بلغ إلى أنبدارية المجلس، ودار ثلاث دورات، ثم نزل إلى مكانه، فقام الشيخ القرطبى، وقدّر ارتفاع الأنبدارية، فكان أطول من قامته رافعا يديه.

* * *

سنة اثنتين وثلاثين وستمائة[1]

فيها عاد الملك الكامل إلى قلعة الجبل من بلاد الشرق - فى جمادى الأولى - وقد توحش ما بينه وبين أخيه الأشرف - صاحب دمشق - وغيره من الملوك.

فقبض الكامل على المسعود صاحب آمد، واعتقله فى برج هو وأهله، يوم الإثنين سادس عشر جمادى الأولى، لممالأته لهم، فملك صاحب الروم وحران بالسيف، وعاد إلى بلاده، بعد ما استولى على ما كان بهما من الأموال، فلما بلغ الكامل ذلك أمر العساكر أن تتجهز للمسير إلى الشرق، وأقطع ابن الأمير صلاح الدين الإربلى صنافير بالقليوبية ، وجعل أقارب والده ومماليكه معه، وعدتهم سبعة عشر رجلا.

وفيها بعث ابن رسول إلى الشريف راجح بن قتادة بخزانة مال؛ ليستخدم عسكرا، فلم يتمكن من ذلك، لأنه بلغه أن السلطان الملك الكامل بعث الأمير أسد الدين جغريل، أحد المماليك الكاملية، إلى مكة بسبعمائة فارس، وحضر جغريل إلى مكة، ففر منه الشريف راجح بن قتادة إلى اليمن، وملك جغريل مكة فى شهر رمضان، وأقام العسكر بها.

وفيها مات الملك الزاهر أبو سليمان مجير الدين داود بن صلاح الدين يوسف بن أيوب - صاحب البيرة - فى سابع صفر، فاستولى العزيز - صاحب حلب - عليها من بعده.

وفيها مات الأمير شمس الدين صواب - الطواشى الكاملى - بحران فى أواخر شهر رمضان.

* * *

(١) انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٥٥ - ٢٦٠/ ٦، تاريخ ابن الوردى ٢٣٠/ ٢.



سنة ثلاث وثلاثين وستمائة[1]

فيها استمر وباء كثير بمصر مدة ثلاثة أشهر، فمات بالقاهرة ومصر خلق كثير، بلغت عدتهم زيادة على اثنى عشر ألفا، سوى من مات بالريف.

وفيها سار التتر إلى جهة الموصل، فقتلوا ونهبوا وسبوا.

وفيها سار الناصر داود - صاحب الكرك - إلى الخليفة المستنصر با لله؛ خوفا من عمه الملك الكامل، فإنه كان قد ألزمه حتى طلق ابنة الكامل، فخشى أن ينتزع منه الكرك، فوصل إلى بغداد، فأكرمه الخليفة، ومنعه من الاجتماع به، رعاية للملك الكامل، ثم اجتمع به سرا، وخلع عليه، وبعث معه رسولا مشربشا، من خواصه إلى الكامل، يشفع فيه، فلما وصل الرسول إلى الكامل تلقاه وقبل الشفاعة.

وفيها سار الملك الكامل من القاهرة بعساكره يريد بلاد الشرق، فنازل الرها حتى أخذها، يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى، وأسر منها زيادة على ثمانمائة من الأمراء، وهدم قلعتها، ونازل حران، وأخذها بعد حصار وقتال فى رابع عشر جمادى الآخر، وأسر من كان بها من أجناد السلطان علاء الدين، وأمرائه ومقدميه الصوباشية، وكانوا سبعمائة وخمسة وعشرين رجلا، فمات كثير منهم فى الطرقات، ثم نزل الكامل على دنيسر[2] وخربها. فورد عليه الخبر بأن التتر قد وصلو إلى سنجار، فى مائة طلب، كل طلب خمسمائة فارس، وأخذ الكامل قلعة السويداء عنوة، وأسر من بها فى سابع عشر جماى الآخر، وهدمها؛ وأخذ قطينا، وأسر من بها فى رجب.

وفي تاسع عشره: بعث الكامل جميع الأسرى إلى ديار مصر، وعدتهم تزيد على الثلاثة آلاف، وعاد إلى دمشق، وسلم الشرق لابنه الملك الصالح أيوب.

وفيها هدمت دنيسر، وعدة بلاد كثيرة من بلاد صاحب ماردين.

وفيها خرج عسكر الروم، بعد عود الكامل، وحاصر آمد وأخرب

---

(١) انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٦٠ - ٢٦٣ /٦، تارريخ ابن الوردى ٢/٢٣٤.

(٢) دُنَيْسِر: بضم أوله: بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب ماردين، بينهما فرسخان، ولها اسم آخر يقال: لها قوج حصار. انظر معجم البلدان ٢/٤٧٨.

دارا[١] فى خامس ذى القعدة.

وفيها استولى الفرنج على مدينة قرطبة[٢] بالأندلس.

وفيها قُدِّمَ أنبا كيرلس داود بن لقلق بطركا على الإسكندرية لليعاقبة، فى يوم الأحد ثالث عشرى بؤونة، سنة إحدى وخمسين وتسعمائة للشهداء، الموافق لتاسع عشرى رمضان، فأقام فى البطركية سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام، وكان عالما، محبا للرياسة، وجمع المال، وأخذ الشرطونية، وكانت أرض مصر قد خلت من الأساقفة، قبل اعتلائه كرسى البطركية، فقدم جماعة من الأساقفة بمال كبير، ومرت به شدائد كثيرة، فإن الراهب عماد المرشار كان قد سعى فى ولايته البطركية، وشرط عليه ألا يقدم أسقفا إلا برأيه، فلم يف له، ولا التفت إليه، فانحرف عنه ورافعه، فوكل عليه وعلى عدة من أقاربه وألزامه، وقام أيضا عليه الشيخ السنى بن التعبان الراهب، وعانده وذكر مثالبه، وأنه إنما تقدم بالشوة، وأنه أخذ الشرطونية، فلا تصح له كهنوتية، على حكم القوانين، ومال معه جماعة، وعقدوا له مجلسا بحضور الصاحب - معين الدين بن شيخ الشيوخ، فى أيام أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأثبتوا عليه أمورا شُنْعَة، وعزموا على خلعه، فقام معه الكتاب المستوفون بديار مصر، وتحدثوا مع الصاحب معين الدين، فقرر مالا حمله البطريك إلى السلطان، واستمر أنبا كيرلس على

---

(١) دارا: وهى بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين . انظر معجم البلدان ٢/٤١٨، وفى الروض المعطار دارا: بلد ديار ربيعة بينها وبين نصيبين خمسة فراسخ، صلى بها أبو موسى رضى الله عنه صلاة الخوف، وهى من بلاد الجزيرة، وهى مدينة رومية، وهى بيضاء كبيرة ولها قلعة مشرفة، ويليها بمقدار نصف مرحلة مدينة ماردين، وهى فى سفح جبل فى قنته قلعة لها كبيرة هى من قلاع الدنيا المشهورة، وكلتا المدينتين معمورتان، وفتحها عياض بن غنم، وهى فى سفح جبل عليها سور حجارة، وبها أنهار وكروم وأسواق ومسجد حامع ومنبر، وبينها وبين كفرتوثا سبعة فراسخ. انظر الروض المعطار ٢٣٠، والكرخى ٥٣.

(٢) قرطبة: وهى مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها، وكانت سريرا لملكها وقصبتها، وبها كانت ملوك بنى أمية. انظر معجم البلدان ٤/٣٢٤، وفى الروض المعطار قرطبة: قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر، وهم أعلام البلاد وأعيان الناس، اشتهروا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزى وعلو الهمة وجميل الأخلاق، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وقرطبة على نهر عظيم عليه قنطرة عظيمة من أجل البنيان قدرًا وأعظمه خطرًا، وهى من الجامع فى قبلته، وبالقرب منه، فانتظم بها الشكل، وبأمر عمر بن عبد العزيز قام على نهر قرطبة الجسر الأعظم الذى لا يعرف فى الدنيا مثله، وحول الأندلس من عمل إفريقية وجرَّد لها عاملاً من قبله، ووقعت المغانم فيها عن أمره. انظر الروض المعطار ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، والإدريسى ٢٠٨، ٢١٢.

بطركيته حتى مات يوم الثلاثاء رابع عشر برمهات، سنة تسعمائة وتسع وخمسين للشهداء، الموافق لسابع رمضان سنة أربعين وستمائة وخلا الكرسى بعده سبع سنين وستة أشهر وستة وعشرين يوما.

وفيها بعث الملك المنصور عمر بن على بن رسول - ملك اليمن - عسكرا إلى مكة، مع الشهاب بن عبد الله، ومعه خزانة مال، فقاتله المصريون وأسروه، وحملوه إلى القاهرة مقيدا.

* * *

سنة أربع وثلاثين وستمائة

فيها سار الملك الكامل من دمشق يريد القاهرة، فوصل إليها، وصعد قلعة الجبل فى [......][1] ثم خرج إلى دمياط، فقدم عليه محيى الدين يوسف بن الجوزى رسولا من الخليفة، وهو بها، وسافر محيى الدين إلى السلطان علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان - صاحب الروم - ومعه الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى، رسولا من جهة الملك الكامل.

وفيها مات الملك العزيز غياث الدين محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب - صاحب حلب - يوم الأربعاء رابع عشرى شهر ربيع الأول، عن ثلاث وعشرين سنة وأشهر، وقام من بعده ابنه الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف، وعمره نحو السبع سنين، وقام بتدبير أمره الأميران لؤلؤ الأمينى، وعز الدين عمر بن محلى، وبينهما وزير الدولة جمال الدين الأكرم، يراجع الستر الرفيع صفية خاتون ابنة الملك العادل، على لسان جمال الدولة إقبال، وحضر الأمير بدر الدين بدر بن أبى الهيجاء، وزين الدين قاضى حلب، إلى الملك الكامل، بزردية العزيز وكُزَا غَنْده، وخوذته ومركوبه، فأظهر الكامل الألم لموته، وقصر فى إكرامهما، وحلف للناصر، وشرط أشياء، وأعاد الرسولين، ثم أرسل خلعة للناصر بغير مركوب، ومعها عدة خلع للأمراء الحلبيين، وخلعة للصالح صلاح الدين أحمد بن الظاهر غازى، صاحب عينتاب، فاستوحشت أم الظاهر من أخيها الكامل، ولم توافق على لبس أحد من الأمراء الخلع، فلبس الناصر وحده خلعة الكامل، ورد الرسول الوارد إلى الصالح صلاح الدين بخلعته.

وفيها تنكر الأشرف - صاحب دمشق - على الملك الكامل، وراسل أهل حلب، فوافقوه على منع الكامل من بلاد الشام، ومكاتبة السلطان علاء الدين، صاحب الروم، ليكون معهم، فانتظمت كلمة ملوك الشام على مخالفة الملك الكامل، فانزعج الملك الكامل، وعز ذلك عليه، وكان حين بلغه الخبر بالإسكندرية، فخرج منها ليلا، وسار إلى قلعة الجبل، وشرع فى تدبير أمره، فاتفق موت السلطان علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان - ملك الروم - وقيام ولده غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباد من بعده، فى سابع شوال، قبل اجتماعه بالحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى رسول السلطان فبعث ملوك الشام رسلهم إلى السلطان

---

(١) مابين المعقوفتين بياض فى الأصل.

غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقى - صاحب الروم - يعزونه فى أبيه، ويحلفونه على ما اتفقوا عليه من مخالفة الملك الكامل، وسير الكامل أفضل الدين محمد الخونجى يعزى غياث الدين بأبيه، ومعه ذهب برسم الصدقة عنه، وثياب أطلس برسم أغشية القبر.

وفيها كان الوباء أشد من السنة الماضية.

وفيها ضرب الملك الكامل الفلوس.

وفيها بعث الملك الكامل القاضى الأشرف بن القاضى الفاضل إلى الملك الناصر داود - صاحب الكرك - يدعوه إلى موافقته. فرحل الملك الناصر إلى القاهرة مع القاضى الأشرف؛ فسر الكامل بقدومه، وركب إلى لقائه، وأنزله بدار الوزارة، وقدم له أشياء كثيرة، وخلع عليه، وقلده الكامل دمشق، وأمر من عنده من الأمراء والملوك الأيوبية، فحملوا الغاشية بين يديه بالنوبة، فكان أول من حملها الملك العادل أبو بكر بن الكامل، ثم البقية واحدا بعد واحد، إلى أن صعد قلعة الجبل، وجدد الناصر عقده على مطلقته عاشوراء خاتون ابنة الكامل، فى تاسع عشر ذى الحجة، فلما بلغ الأشرف ذلك أوقع الحوطة على نابلس، وأخذ ما كان فيها للناصر داود.

وفيها سير الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، صاحب حصن كيفا، يستأذن أباه فى استخدام من خالف السلطان غياث الدين كيخسرو - صاحب الروم - من الخوارزمية، فأذن له فى ذلك، واستخدمهم عنده بالبلاد الجزرية، فتقوى بهم.

وفيها استولى التتار على إربل، وقتلوا كل من فيها، وسبوا ونهبوا، حتى نتنت من كثرة القتلى، ثم رحلوا عنها.

وفيها قدم من جهة ملوك الشام إلى الملك الكامل رسول، فبلغه عنهم أنهم قالوا: «إنا اتفقت كلمتنا عليك، فلا تخرج من مصر إلى الشام، واحلف لنا على ذلك». فاتفق مرض الأشرف بالذرب، فكان لا يستقر بباطنه طعام ألبتة، حتى انقضت السنة وهو مريض، من شهر رجب.

وفيها قدم عسكر من اليمن إلى مكة، فحاربهم الأمير أسد الدين جغريل، وكسرهم، فقدم الملك المنصور عمر بن رسول، وملك مكة بغير قتال، وتصدق بمال، وترك بها جماعة، فقدم الشريف شيحة بن قاسم - أمير المدينة - وملك مكة منهم ونهبهم، ولم يقتل أحدا.

* * *

سنة خمس وثلاثين وستمائة[1]

فيها مات الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب - صاحب دمشق بها - يوم الخميس رابع المحرم، وعمره نحو من ستين سنة، ومدة ملكه بدمشق ثمانى سنين وأشهر، و لم يترك سوى ابنة، تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل، فقام من بعده بدمشق أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، صاحب بصرى، بعهد من أخيه له، فاستولى الملك الصالح عماد الدين على دمشق وبعلبك؛ وبعث ابنه الملك المنصور محمودا إلى الشرق، ليتسلم سنجار ونصيبين والخابور من نواب الشرق، وبعث إلى المجاهد صاحب حمص، وإلى المظفر صاحب حماة، وإلى الحلبيين أيضا، ليحلفوا له ويتفقوا معه - على القاعدة التى تقررت بينهم وبين الأشرف - على مخالفة الكامل، فأجابوا إلا صاحب حماة، فإنه مال مع الكامل، وبعث إليه يعلمه بميله إليه، فسر الكامل بذلك، ثم إن الملك الصالح عماد الدين صادر جماعة من الدماشقة، الذين قيل عنهم إنهم مع الملك الكامل، منهم العلم تعاسيف، وأولاد مزهر، وحبسهم فى بصرى، فتجهز الكامل، وخرج من قلعة الجبل بعساكره، بكرة يوم الخميس ثالث عشرى صفر، واستناب على مصر ابنه الملك العادل، وأخذ معه الناصر داود، وهو لا يشك أن الملك الكامل يسلم إليه دمشق، لما كان قد تقرر بينهما. فكاتب الكامل نائب قلعة عجلون حتى سلمها، ونزل على دمشق بمسجد القدم، فى ثالث عشرى ربيع الأول، وقد تحصنت وأتتها النجدات، فحاصرها وقطع عنها المياه، وضايقها حتى غلت بها الأسعار، وأحرق العقيبة والطواحين، وألح على أهلها بالقتال، وكان الوقت شتاء فأذن الصالح إسماعيل، وسلم دمشق لأخيه الكامل، فعوضه عنها بعلبك والبقاع، وبصرى والسواد.

وكان السفير بينهما الصاحب محيى الدين أبو المظفر يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى - رسول الخليفة - الوارد ليوقع الصلح بين ملوك بنى أيوب، فتسلم الكامل دمشق فى عاشر جمادى الأولى، وسار الصالح إسماعيل إلى بعلبك، لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى، فنزل الملك الكامل بالقلعة، وأمر بنصب الدهليز بظاهر دمشق، وسير المظفر صاحب حماة إلى حمص، وأطلق الفلك المسيرى من سجن قلعة دمشق - وكان

---

(١) ٦٣٥هـ انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٦٥، ٦/٢٦٨، تاريخ ابن الوردى ٢/٢٣٧.

قد سجنه الملك الأشرف - ونقل الأشرف إلى تربته، وأمر الكامل فى يوم الإثنين سادس جمادى الآخرة ألا يصلى أحد من أئمة الجامع المغرب، سوى الإمام الكبير فقط، لأنه كان يقع بصلاتهم تشويش كبير على المصلين، وورد الخبر باستيلاء الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل على سنجار ونصيبين والخابور، وقدم رسول الخليفة بمال إلى الملك الكامل؛ ليستخدم به عسكرا للخليفة، فإنه بلغه توجه التتر إلى بغداد، فقام الملك الكامل لما سلم إليه كتاب الخليفة، ووضعه على رأسه، وكان جملة ما حضر من المال مائة ألف دينار مصرية، فأمر الملك الكامل أن يخرج من بيت المال مائتا ألف دينار؛ ليستخدم بها العساكر، وأن يجرد من عساكر مصر والشام عشرة آلاف؛ نجدة للخليفة، وأن يكون مقدم العساكر الناصر داود، وألا يصرف مما حضر من المال شىء، بل يعاد بكماله إلى خزانة الخليفة، فتولى استخدام الأجناد الأميران ركن الدين الهيجاوى، وعماد الدين بن موسك، وأن يكونا مع الناصر داود فى خدمته، فاستخدم الناصر العسكر، وسار إلى بغداد، وهم نحو ثلاثة آلاف فارس، وشرع الكامل يتجهز لأخذ حلب، فخاف المجاهد صاحب حمص، وبعث ابنه المنصور إبراهيم[١] فتقرر الأمر على أن يحمل المجاهد كل سنة للملك الكامل ألفى ألف درهم، فعفا عنه.

وكان منذ دخل الكامل إلى قلعة دمشق قد حدث له زكام، فدخل فى ابتدائه إلى الحمام، وصب على رأسه الماء الحار، فاندفعت المواد إلى معدته، فتورم وعرضت له حمى، فنهاه الأطباء عن القىء، وحذروه منه، فاتفق أنه تقيأ لوقته، فى آخر نهار الأربعاء حادى عشرى شهر رجب، بقاعة الفضة من قلعة دمشق، فدفن بها بكرة الغد، وعمره نحو من ستين سنة، وذلك بعد موت أخية الأشرف بنحو ستة أشهر، فكانت مدة ملكه دمشق هذه المرة أحدا وسبعين يوما، ومدة مملكته بمصر - بعد موت أبيه - عشرين سنة وثلاثة وأربعين يوما - وقيل وخمسة وأربعين يوما- وكانت فى أيام أبيه نحوها فحكم مصر قريبا من أربعين سنة؛ ومولده فى الخامس والعشرين من ربيع الأول، سنة ست وسبعين وخمسمائة.

وكان يحب أهل العلم، ويؤثر مجالستهم، وشغف بسماع الحديث النبوى، وحدث بالإجازة من أبى محمد بن برى، وأبى القاسم البوصيرى، وعدة من المصريين، وغيرهم، وتقدم عنده أبو الخطاب بن دحية، وبنى له دار الحديث الكاملية بالقاهرة، وجعل عليها

---

(١) إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه الأيوبى (٦٢٤ - ٦٤٤هـ= ١٢٢٧ - ١٢٤٦م) أمير يلقب بالملك، كان صاحب حمص، وكان شجاعا متواضعا على صغر سنه. انظر روض المناظر، المختصر لأبى الفداء ٣/ ١٧٦ النجوم الزاهرة. ٦/ ٣٥٦. الأعلام ٤٣/ ١.

أوقافا، وكان يناظر العلماء، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها، فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده، وكانت تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم: كالجمال اليمنى النحوى، والفقيه عبد الظاهر، وابن دحية، والأمير صلاح الدين الإربلى - كان أحد الفضلاء - فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره؛ ليسامروه، فنفقت العلوم والآداب عنده، وقصده أرباب الفضائل، فكان يطلق لمن يأتيه منهم الأرزاق الوافرة الدارة، فممن قصده التاج بن الأرموى، وأفضل الدين الخونجى، والقاضى الشريف شمس الدين الأرموى - قاضى العسكر - وهؤلاء أئمة وقتهم فى المنقول والمعقول، وكان مهيبا، حازما سديد الآراء، حسن التدبير لمماليكه، عفيفا عن الدماء، وبلغ من مهابته أن الرمل - فيما بين العريش ومصر - كان يمر فيه الواحد بالذهب الكثير والأحمال من الثياب، من غير خوف، وسرق مرة فيه بساط، فأحضر الكامل العربان الذين يخرون الطريق، وألزمهم بإحضاره وإحضار سارقه، فبذلوا عوضه شيئا كثيرا، وهو يأبى إلا إحضار السارق، أو إتلاف أنفسهم وأموالهم بدله، فلم يجدوا بدا من إحضار السارق والبساط، وكان يباشر أمور الملك بنفسه، من غير اعتماد على وزير ولا غيره، واستوزر أولا الصاحب صفى الدين بن شكر ست سنين، وانكف بصره وهو يباشر الوزارة حتى مات، وكان الأمير فخر الدين عثمان الأستادار يتردد إليه فى الأشغال، فلما مات الصاحب صفى الدين لم يستوزر الكامل بعده أحدا، بل كان يستنهض من يختار فى تدبير الأشغال: فأقام معين الدين بن شيخ الشيوخ مدة، وسماه نائب الوزارة، ومرة أقام تاج الدين يوسف بن الصاحب صفى الدين، ومرة جمال الدين البورى، وصار يباشر أمور الدولة بنفسه، ويحضرعنده الدواوين، فيحاقهم ويحاسبهم، واذا ابتدات زيادة النيل خرج بنفسه وكشف الجسور، ورتب فى كل جسر من الأمراء من يتولاه، ويجمع الرجال لعمله، ثم يشرف على الجسور بعد ذلك، فمتى اختل جسر عاقب متوليه أشد العقوبة، فعمرت أرض مصر فى أيامه عمارة زائدة.

وأخرج الكامل من زكوات الأموال - التى كانت تجبى - سهمى الفقراء والمساكين، وجعلهما مصروفين، ورتب عليهما جامكيات الفقهاء والفقراء والصلحاء، وكان يجعل فى كل ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم عنده، ويجلس معهم للمباحثة، وكان كثير السياسة، وأقام فى كل طريق خفراء تحفظ المسافرين، إلا أنه كان مغرى بجمع المال، مجتهدا فى تحصيله وأحدث فى البلاد حوادث سماها الحقوق، لم تكن فى أيام من تقدمه، وله شعر، منه قوله:

إذا تحققتم ما عند صاحبكم   من الغرام فذاك القدر يكفيه

أنتم سكنتم فؤادى وهو منزلكم ... وصاحب البيت أدرى بالذى فيه

وفيه يقول البهاء زهير بن محمد، من قصيدة عند فتح دمياط:

هو الكامل المولى الذى إن ذكرته ... فيا طرب الدنيا ويا فرح العصر

به ارتجعت دمياط قهرا من العدى ... وطهر بالسيف والملة الطهر

لك الله من ملك إذا جاد أوسطا ... فناهيك من عرف وناهيك من نكر

يقصر عنه المدح من كل مادح ... ولو جاء بالشمس المنيرة والبدر

وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حمويه هم أكابر دولته وأعيانها، وهم الأمير فخر الدين يوسف، وعماد الدين عمر، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن، وكان فخر الدين قد ترك لبس العمامة، ولبس الشربوش والقباء، ونادم السلطان، وكان فاضلا أديبا، يشارك فى فنون، وإخوته لهم فضائل، وإليهم مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، وتدريس المدرسة الناصرية، بجوار قبر الشافعى من القرافة، وتدريس المشهد الحسينى بالقاهرة، وما منهم إلا من تقدم على الجيوش، وباشر الحرب، وأرضعت أمهم - وهى ابنة القاضى شهاب الدين ابن عصرون - الملك الكامل، فصاروا إخوته من الرضاع.

فلما مات السلطان الكامل اتفق أولاد الشيخ، والأمير سيف الدين على بن قلج، وأخوه الأمير عماد الدين، والملك الناصر داود، وأرباب الدولة، على تحليف الأجناد للملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل - وهو يومئذ يخلف أباه بقلعة الجبل - على ديار مصر، وأن يرتب الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبى بكر بن أيوب، فى نيابة دمشق، وكتموا ذلك الأمر الثانى عن الناصر داود، وحلفوا على ذلك فى يوم الخميس ثانى عشرى رجب، وبعثوا الأمير نور الدين على بن الأمير فخر الدين عثمان الأستادار إلى الناصر داود، فأخرجه من دمشق إلى الكرك، واستقر الجواد بدمشق، نائبا لابن عمه الملك العادل، وسار العسكر من دمشق إلى مصر، وتأخر بدمشق أمراء عدة - فى جمع من عسكر مصر ومماليك الأشرف - لحفظها، ومقدمهم عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ، فبذل الجواد الأموال، وطمع فى الاستبداد بملك دمشق، وألزم الخطيب بذكره فى الخطبة بعد العادل.

* * *

السلطان الملك العادل الثانى[1]

سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب. أمه

الست السوداء، المعروفة بينت الفقيه نصر، ومولده فى سنة سبع عشرة وستمائة. استقر الأمر له بسلطنة مصر و دمشق فى يوم الخميس ثانى عشرى رجب، سنة خمس وثلاثين وستمائة، الموافق لسادس عشر برمهات. وخطب له بالقاهرة ومصر فى رابع شعبان، وهو السلطان السابع من بنى أيوب بديار مصر، فقدمت عليه القصاد من دمشق بوفاة أبيه واستقراره من بعده، فشرع الأمير سيف الدين قلج فى تحليف الأمراء للملك العادل فى داره، وحط الملك العادل المكوس، ووسع فى العطاء وفى الرزاق على كل أحد.

وفى رابع شعبان: خطب له بمصر، وأعلن بموت الملك الكامل.

وفى رابع عشر شعبان: ضربت السكة باسمه.

وفى ثامن عشر رمضان: نقش الدينار والدرهم باسمه.

وفى عشريه: قرئ توقيعه على المنبر، بإبطال جميع المكوس.

وفى سابع عشرى شوال: وصل محيى الدين أبو محمد يوسف بن الجوزى، رسولا من بغداد، بتعزية الملك العادل، وهنأه بالملك من قبل الخليفة. وكان العادل قد بعث إلى دمشق بالخلع والسنجق، فركب الجواد بالخلع فى تاسع عشر رمضان.

وفيها أنفق العادل على العساكر.

وفى ثانى ذى القعدة: استحلف ابن الجوزى الملك العادل للخليفة المستنصر.

وفيه ورد الخبر بأن الناصر داود تحالف هو والجواد، وقد اتفقا وخرجا عن طاعة العادل ووصل الناصر داود إلى غزة، وخطب بها لنفسه، ثم وقع بينه وبين الجواد خلف، فأظهر الجواد أنه عاد إلى طاعة الملك العادل، ولما قربت العساكر الواردة من دمشق إلى القاهرة ركب العادل إلى لقائهم وأكرمهم، وسير إليهم فى منازلهم الأموال والخلع والخيول، فجددوا له الأيمان والعهود؛ فاستقر أمره، وأخرج العادل الأموال، وبذلها فى الأجناد، وأكثر من العطاء والبذل، حتى بدد فى مدة يسيرة ما جمعه أبوه فى مدد متطاولة، وأخذ فى إبعاد أمراء الدولة عنه، وقطع رواتب أرباب الدولة، واختص بمن أنشأه فنفرت قلوب الأكابر منه، واشتغل هو عنهم لانهماك شرب الخمر، وكثرة اللهو والفساد، وسار الناصر وأبو داود من الكرك، واستولى على غزة والسواحل، واستجد عسكرا كبيرا، وبرز عن غزة، وبعث إلى الملك العادل يريد منه المساعدة على أخذ دمشق.

وقوى المجاهد أسد الدين صاحب حمص بعد موت الكامل، وأغار على حماة وحصرها واستعد أهل حلب، واستجدوا عسكرا من الخوارزمية، وعسكرا من التركمان، كان قد صار إليهم عدة من أصحاب الملك الكامل، فأكرموهم، وبعثوا إلى السلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباد، ملك الروم، يسألونه إرسال نجدة، فأمدهم بخيار عسكره، وخرجوا فملكوا المعرة، ونازلوا حماة، وقاتلوا المظفر صاحبها، فثبت لهم، وامتنع عليهم وقاتلهم، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل على الرحبة، منازلا لها، فلما بلغه موت أبيه الملك الكامل رحل عنها، فطمع فيها من معه من الخوارزمية، وخرجوا عن طاعته، وهموا بالقبض عليه، فقصد سنجار، وامتنع بها مدة، وترك خزائنه وأثقاله، فانتهبها الخوارزمية، وتحكموا فى البلاد الجزرية، وطمع فيه السلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباد - ملك الرومية - وبعث إلى الناصر صلاح الدين أبى المظفر يوسف صاحب حلب توقيعا بالرها وسروج، وكانا مع الصالح نجم الدين أيوب، وأقطع المنصور ناصر الدين الأرتقى، صاحب ماردين، مدينة نجار ومدينة نصيبين، وهما من بلاد الصالح أيضا، وأقطع المجاهد أسد الدين شيركوه، صاحب حمص بلدة عانة[1] وغيرها من بلاد الخابور؛ وعزم السلطان غياث الدين كيخسرو على أن يأخذ لنفسه من بلاد الصالح أيضا آمد وسميساط، وصار الملك الصالح محصورا بسنجار، فطمع فيه الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ - صاحب الموصل - وحصره بسنجار فى ذى القعدة، وأراد حمله إلى بغداد فى قفص حديد؛ كراهة فيه، لما كان عنده من التجبر والظلم والتكبر، فلما أشرف بدر الدين لؤلؤ على أخذ سنحار بعث الصالح إليه القاضى بدر الدين يوسف بن الحسن الزرزارى قاضى سنجار، بعد ما حلق لحيته، ودلاه من السور.

وكان القاضى الزرزارى متقدما فى الدولة الأشرفية، ولاه الملك الأشرف موسى - قضاء بعلبك ثم بعد موت الملك الأشرف ولاه الصالح نجم الدين أيوب قضاء سنجار، وكان كثير التجمل جدا، واسع البر والمعروف، وله مماليك وغلمان وحواشى، لهم من التجمل ما ليس لغيرهم، فصار كأحد الأمراء الأكابر، وصار يقصد لسائر من يرد عليه من أهل العلم وذوى البيوتات، فتوجه القاضى فى خفية إلى الخوارزمية، واستمالهم وطيب خواطرهم، بكثرة ما وعدهم به فمالوا إليه، بعد ما كانوا قد اتفقوا مع صاحب ماردين، وقصدوا بلاد الملك الصالح نجم الدين أيوب، واستولوا على العمال، ونازلوا

---

(١) عانة: بلدة مشهورة بين الرقة وهيت تعد فى أعمال الجزيرة. انظر معجم البلدان ٧٢/ ٤.

حران - وكان الملك الصالح قد ترك بها ولده المغيث فتح الدين عمر بن الصالح[١] فخاف من الخوارزمية، وسار مختفيا حتى فرد إلى قلعة جعبر، فساروا خلفه، ونهبوا ما كان معه، وأفلت منهم فى شرذمة يسيرة إلى منبج، فاستجار بعمة أبيه، الصاحبة ضيفة خاتون، أم الملك العزيز، صاحب حلب، فلم تقبله، فر إلى حران، وفيها أتاه كتاب أبيه يأمره بموافقة الخوارزمية، والوصول بهم إليه لدفع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فاجتمع المغيث عمر، والقاضى بدر الدين قاضى سنجار بالخوارزمية، والتزم لهم القاضى أن يقطعوا سنجار وحران والرها، فطابت قلوبهم، وحلفوا للملك الصالح، وقاموا فى خدمة ابنه الملك المغيث، وساروا معه إلى سنجار، فأفرج عنها عسكر الموصل، يريدون بلادهم. وأدركهم الخوارزمية، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة، فر فيها بدر الدين لؤلؤ بمفرده على فرس سابق، ثم تلاحق به عسكره. واحتوت الخوارزمية على سائر ما كان معه، فاستغنوا بذلك، وقوى الملك الصالح بالخوارزمية وبهذا الفتح قوة زائدة، وعظم شأنه، وسير الخوارزمية إلى آمد، وعليها عسكر السلطان غياث الدين كيخسروصاحب الروم، وبها المعظم غياث الدين تورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب [٢] وهو محصور منهم، فأوقعوا بهم ورحلوهم عن آمد، فخرج الصالح من سنجار إلى حسن كيفا، وبعث الملك العادل من مصر إلى أهل حلب يريد منهم أن

---

(١) المغيث الأيوبى (٦٤٢ هـ = ١٢٤٤م). عمر المغيث جلال الدين بن أيوب الصالح بن محمد الكامل بن العادل الأيوبى: من أمراء هذه الدولة، كان نائب دمشق وتوفى بها. انظر ترويح القلوب ٨٣، شذرات الذهب١ ٥/ ٢١٥، الأعلام ٤٢/ ٥.

(٢) توارن شاه (المعظم غياث الدين بن الصالح أيوب). (... - ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م). تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، بن الملك الكامل محمد: ثامن سلاطين الدولة الأيوبية بمصر، وآخرهم، وثالث من سمى الملك المعظم منهم وحد ملوك حصن كيفا كانت إقامته فى حصن كيفا بديار بكر نائبا عن أبيه. ولما توفى أبوه سنة ٦٤٧هـ وكتمت شجرة الدر خبر موته ، استدعته، فجاء إلى مصر، والحرب ناشبة بين المصريين والفرنسيين على أبواب المنصورة فلبس خلعة السلطان بعد أربعة أشهر من وفاة أبيه ، وقاتل الفرنج، فهزمهم واسترد دمياط ثم تنكر لشجرة الدر، فحرضت عليه المماليك البحرية فقتلوه فى فارسكور ومدة سلطته نحو ٤٠ يوما لم يدخل فيها القاهرة ولم يجلس على سرير الملك بقلعة الجبل وبمقتله انقرضت دولة بنى أيوب بمصر ومدتها نحو ٨٦ سنة. انظر بن إياس ١: ٨٥ وابن الوردى ٢: ١٨١ وابن شاكرا ١: ٩٧ وفيه ما يخالف رواية غيره ما فهو يذكر أن الملك المعظم ساءت سيرته مع المماليك البحرية فقتلوه، ولا يذكر شجرة الدر، ويقول: إن مدة بنى أيوب بمصر ٨١ سنة ومرآة الزمان٠ ٨٠: ٧٨١ وفيه : كان إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رءوسها بالسيف يقول هكذا أفعل بالبحرية يعنى المماليك الذين قتلوه بعد ذلك ومثلوا به: ومجلة المجمع العالمى ١٦: ٣٠٨.

يجروا معه على ما كانوا عليه مع أبيه الملك الكامل - من إقامة الخطبة له على منابر حلب، وأن تضرب له السكة - فلم يجب إلى ذلك، وقدم رسول غياث الدين كيخسرو ملك الروم، فزوج غازية خاتون ابنة العزيز السلطان غياث الدين، وأنكح الملك الناصر - صاحب حلب - أخت السلطان غياث الدين، وتولى العقد الصاحب كمال الدين بن أبى جرادة بن العديم، وخرج فى الرسالة إلى بلاد الروم، وعقد للملك الناصر صاحب حلب على ملكة خاتون أخت السلطان غياث الدين، فبعث غياث الدين رسولا إلى حلب، فأقيمت له بها الخطبة، وخرج الملك الجواد من دمشق فى أول ذى الحجة، يريد محاربة الناصر داود صاحب كرك، بأذنبا بالقرب من نابلس فانكسر الناصر كسرة قبيحة، فى يوم الأربعاء رابع عشر ذى الحجة، وانهزم إلى الكرك. فغنم الجواد ما كان مه، وعاد إلى دمشق، وفرق ستمائة ألف دينار وخمسة آلاف خلعة، وأبطل المكوس والخمور، ونفى المغانى. وعاد من كان فى دمشق من عسكر مصر ومعهم الأمير عماد الدين بن شيخ الشيوخ - إلى القاهرة، بسناجق الناصر، فى سادس عشرى ذى الحجة، فلم يعجب الملك العادل ذلك، وخاف من تمكن الملك الجواد.

وفيها قصد التتار بغداد، فبعث إليهم الخليفة جيشا، قتل كثيرا منه، وفر من بقى .

وفيها مات قاضى القضاة بدمشق وهو شمس الدين أبو البكرات يحيى بن هبة الله ابن الحسن بن بنى الدولة الشافعى، فى خامس ذى القعدة فأعيد فى سابعه قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن الخليل الخويى، ورتب مراكز الشهود - وكانوا أولا بدمشق وراقين يورقون المكاتيب وغيرها، فإذا فرغوا من الوراقة مشوا إلى بيوت العدول، فيشهدونهم على ما يريدون؛ واقتدى بعد ذلك أهل القاهرة ومصر بهم.

وفيها تولى الشريف شمس الدين محمد بن الحسين الأرموى قضاء العسكر ونقابة الأشراف بديار مصر، وقرئ سجله بجامع مصر، بحضرة الأمير جمال الدين موسى ابن يغمور والفلك المسيرى.

وفيها بطلت الفلوس.

وفيها سار الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول من اليمن يريد مكة، فأحرق الأمير أسد الدين جغريل ما كان معه من الأثقال، وخرج هو ومن معه من مكة فى سابع شهر رجب، قبل وصول ملك اليمن بيومين، فالتقوا بين مكة والسرين، فانهزم العرب أصحاب الشريف راجح، وأسر الأمير شهاب الدين بن عدان من أمراء

اليمن، فقيده الأمير جغريل، وحث به إلى القــاهرة، وســار هـو إلى المدينـة النبويـة فبلغـه موت السلطان الملك الكامل، فسار بمن معه إلى القــاهرة، فدخلوهـا أثنـاء شـهر شـعبان متفرقين، وأقام عسكر اليمن بمكة.

* * *

سنة ست وثلاثين وستمائة[1]

فيها قبض الملك الجواد على صفى الدين بن مرزوق، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار، وسجنه بقلعة حمص، فمكث ثلاث سنين لا يرى الضوء، وأقام الجواد بمشق خادما لزوجته يقال له الناصح، فصادر الناس، وأخذ منهم مالا كثيرا، وقبض الملك الجواد على عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ، ثم خاف من أخيه فخر الدين، وقلق من ملك دمشق، وقال: إيش أعمل بالملك باز؟ وكلب أحب إلى من هذا، ثم خرج إلى الصيد، وكاتب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، على أن يعوضه عن دمشق بحصن كيفا وسنجار، فسر الصالح بذلك وتحرك للمسير إلى دمشق.

وفيها قدم رسول ملك الروم إلى القاهرة بالعزاء للملك العادل.

وفيها أفرج أهل حلب عن حصار حماة، بعد ما ضاق الأمر على المظفر صاحب حماة، عنه رحلوا عناهم قلعة بارين وكانت حصينة.

وفيها استوحش الأمراء الأكابر من الملك العادل، لتقريبه الشباب والترابى، وإعطائهم الأموال والإقطاعات، والاقتداء بآرائهم، ولكثرة تحجبه، واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة. فطمع الناصر داود صاحب الكرك فى ملك مصر، فسار إليها ومعه تقادم فاخرة: ما بين جوارى جنكيات، وعوديات ورقاصات، وأوانى للشرب بديعة، فخرج العادل إلى لقائه فى ثامن شوال ، وأكرمه، وقدم له الناصر ما انتخبه له من الجوارى والأوانى وغيرها، فصادف منه الغرض، ووضه عنه بأمثاله. ولازم الناصر القيام بخدمه العادل والإقامة فى بابه: فتارة يعمل حاجب الباب، وتارة أستادارا، وتارة دوادارا؛ ليدخل فى كل وقت عليه، ويتوصل متى شاء إليه، وهو يظن أنه يستميل الأمراء عن العادل إلى جهته، فلما تمكن الناصر داود منه أوهمه من الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، بأنه قد اتفق مع الملك المعز مجير الدين يعقوب، وأمال إليه عدة من الأمراء وحسن له القبض عليه، فانخدع له الملك العادل، وقبض على فخر الدين واعتقله بقلعة الجبل، وأخرج عمه الملك المعز من أرض مصر، ومعه أخوه الأمجد تقى الدين عباس، فلما تم للناصر ما أراد خيل العادل من الملك الجواد نائبه على دمشق، بأن الأمراء قد مالت إليه، وقام بأمره الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ، فبلغ ذلك

---

(١) ٦٣٦هـ انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٢٧٧ - ٢٧٩/ ٦، تاريخ ابن الوردى ٢٣٩/ ٢.

العماد، فخاف أن يتفق عليه ما اتفق على أخيه، واجتمع بالملك العادل، والتزم له بإحضار الملك الجواد إلى طاعته بمصر، فسيره العادل من القاهرة؛ ليحضر الملك الجواد من دمشق؛ فأكرمه الجواد، وأخذ العماد فى التحدث معه فى المسير إلى الملك العادل، فسوَّف به وماطله، حتى فطن العماد بامتناعه؛ فأحضر حينئذ الولاة والمشدين والنواب والدواوين بدمشق وأعمالها، وقال لهم: «قد عزل السلطان الملك العادل الجواد عن نيابة دمشق، فلا تدفعوا إليه مالا، ولا تقبلوا له قولا، فعز ذلك على الملك الجواد، ووكل بعماد الدين، وسجنه بقلعة دمشق، وتقرر الأمر بين الملك الجواد وبين المجاهد، صاحب حمص، أن يكونا يدا واحدة؛ ووافقهما الأمير عماد الدين بن قلج، نائب الملك الجواد بدمشق، فرأوا أن أمرهم لا يتم إلا قتل العماد بن شيخ الشيوخ فبعثوا إلى نواب الإسماعيلية فى ذلك، ودفعوا إليهم مالا وقربة، فسيروا فدائيين قتلاه على باب الجامع، فى سادس عشرى جمادى الأولى، وأشيع أنهما غلطا فى قتله، وإنما كانا يريدان قتل الملك الجواد ، فإنه كان كثير الشبه به فبلغ ذلك الملك العادل فشق عليه.

وفى العشرين من شوال: ورد الخبر بوصول عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب، صحبة ولده الملك المغيث جلال الدين عمر، إلى جينين فجمع الملك العادل والملك الناصر الأمراء وتحالفوا على قتال الصالح، وخرج الناصر داود من القاهرة، فى تاسع ذى القعدة؛ لقتال الصالح، وجهز العادل جماعة من الأمراء، وعدة من العساكر بديار مصر؛ لتأخذ دمشق، وقدم الملك العادل إلى الملك الجواد رسولا بكتاب فيه أنه يعطيه قلعة الشوبك وبلادها، وثغر الإسكندرية، وأعمال البحيرة وقليوب، وعشر قرى من بلاد الجيزة بديار مصر، لينزل عن نيابة السلطنة بدمشق، ويحضر إلى قلعة الجبل، ليعمل برأيه فى أمور الدولة، فلما ورد ذلك أوهمه نائبه عماد الدين قلج من أنه متى دخل مصر، قبض عليه الملك العادل، وسلبه أولاد عماد الدين بن شيخ الشيوخ بدمه، فامتنع من تسليم دمشق، فبرز الملك العادل من القاهرة يريد دمشق، يوم الثلاثاء سلخ ذى الحجة، ونزل بلبيس، فخاف الجواد، وعلم عجزه عن مقاومة العادل، فبعث كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله المشهور بابن العديم العقيلى، و ابن طلحة خطيب جامع دمشق إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب- صاحب حصن كيفا وديار بكر وغيرها من بلاد الشرق - يطلب منه أن يتسلم دمشق، ويعوضه عنها سنجار والرقة وعانة، فوقع ذلك من الملك الصالح أحسن موقع، وأجابه إليه، وزاده الجديدة، وحلف له على الوفاء، ورتب الملك الصالح ابنه الملك المعظم توران شاه على بلاد الشرق، وألزمه بحصن كيفا، وأقام نوابا بآمد وديار بكر، وسلم حران والرها وجميع البلاد

للخوارزمية الذين فى خدمته، وطلب نجدة من الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وكان قد صالحه - فبعث إليه بدر الدين نجدة، وسار الملك الصالح من الشرق يريد دمشق، فقطع الجواد اسم الملك العادل من الخطبة، وخطب للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وضرب السكة باسمه، ودخل الصالح إلى دمشق، فى مستهل جمادى الأولى، ومعه الجواد بين يديه بالناشية، وقد ندم الجواد على ما كان منه، وأراد أن يستدرك الفائت فلم يقدر، وخرج من دمشق والناس تلعنه فى وجهه، لسوء أثره فيهم، وبعث الصالح إليه برد أموال الناس إليهم، فأبى وسار.

وكان قد وصل مع الصالح أيضا الملك المظفر صاحب حماة، وقد تلقاه الجواد، فكان دخوله يوما مشهودا، فاستقر فى قلعة دمشق، وخرج الجواد إلى بلاده، فكانت مدة نيابته دمشق عشرة أشهر وستة عشر يوما، صرف فيها الأموال التى كانت فى خزائن الملك الكامل كلها، وكانت تزيد على ستمائة ألف دينار مصرية، سوى القماش وغيره، وسوى ما ظلم فيه الناس من التجار والكتاب، وسوى ما أخذه من صفى الدين ابن مرزوق لما صادره، وكان ينيف على خمسمائة ألف دينار، فلما استقر الملك الصالح بدمشق سار المظفر إلى حماة، وقدمت الخوارزمية، فنازلوا مدينة حمص - وهو معهم - مدة ثم فارقوها بغير طائل، وعادوا إلى بلادهم بالشرق. وقد زوج الملك الصالح أخته من أمه، وأبوها الفارس قليب مملوك أبيه الملك الكامل، لمقدم الخوارزمية الأمير حسام الدين بركة خان، وفى أثناء ذلك تواترت رسل المظفر صاحب حماة إلى الملك الصالح يستحثه على قصد حمص، وكتب الأمر من مصر تستدعيه إلى القاهرة، وتعده بالقيام بتصرفه، فبرز الملك الصالح من دمشق إلى البثنية، وكانت الخوارزمية، وصاحب حماة، على حصار حمص، فأرسل المجاهد أسد الدين شيركوه مالا كثيرا فرقه فى الخوارزمية، فرحلوا عنه إلى الشرق، ورحل صاحب حماة إلى حماة، وعاد الملك الصالح إلى دمشق طالبا مصر، وخرج منها إلى الخربة وعيَّد بها عيد الفطر، وعسكر تحت ثنية العقاب، وقد تحير فلا يدرى أيذهب إلى حمص أم إلى مصر، وما زال بمعسكره إلى أول شهر رمضان فعاد إلى دمشق وتقدم إلى الأمير حسام الدين أبى على بن محمد بن أبى على الهذبانى، أستاداره بدمشق، أن يرحل بطائفة من العسكر إلى جينين، فرحل، ولم يزل هو تحت عقبة الكرسى، على بحيرة طبربة، إلى آخر رمضان.

فلما وردت الأخبار بحركة الملك الصالح إلى القاهرة، خرج من أمراء مصر سبعة عشر أميرا - منهم الأمير نور الدين على بن فخر الدين عثمان الأستادر، والأمير علاء الدين ابن الشهاب أحمد، والأمير عز الدين أيبك الكربدى العادلى، والأمير عز الدين

بلبان والأمير حسام الدين لؤلؤ المسعودى، والأمير سيف الدين بشطر الخوارزمى، والأمير عز الدين قضيب البان العادل، والأمير شمس الدين سنقر الدنيسرى - فى عدة كبيرة من أتباعهم وأجنادهم، وخلق من مقدمى الحلقة والمماليك السلطانية، وساروا يريدون الملك الصالح بدمشق.

وذلك أن الملك العادل تقدم بتوجه العسكر إلى الساحل، وقدم عليه الركن الهيجارى وأنفق فيهم، فلما نزلوا بلبيس اختلفوا، وخامر جمعة من الأمراء على العادل، وعزموا على المسير إلى الملك الصالح، فبعث العادل إليهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وبهاء الدين مليكيشو، ليطيب خواطرهم، فلم يجيبوا، وخرج من القاهرة عدة من الحلقة، ومعهم طائفة، ومنعوا من غلق باب النصر، وساروا طائفة بعد طائفة على حمية، فبطق العادل إلى من بقى معه من الأمراء الأكراد بمحاربة من خامر عليه ببلبيس، قبل قدوم هؤلاء عليهم، فاقتتل الأكراد مع الأتراك ببلبيس، و انكسر الأتراك المخامرون وأخذ منهم أمير، وانهزم باقيهم وهم فى طلبهم إلى ناحية سُنَيِّكسة. فلحق بهم من خرج من الحلقة ومضوا جميعا إلى تل العجول، وعادت الخزانة التى كانت معهم سالمة إلى القاهرة، ثم بعثوا يطلبون من العادل العفو، فأمنهم وحلف لهم، فلم يرجعوا، وساروا إلى الملك الصالح، فلما بلغوا غزة أمر الملك الصالح أستاداره بالعود إلى خربة اللصوص، وخرج هو ببقية عسكره من دمشق، لليلتين بقيتا من شهر رمضان، ونزل الملك الصالح الخربة، ووصل الأمير نور الدين بن فخر الدين بمن معه، فسر بهم سرورا كثيرا، وأخذوا فى تقوية عزمه على قصد مصر، فرحل واستولى على نابلس والأغوار. وأعمال القدس والسواحل، وبعث ابنه الملك المغيث فتح الدين عمر إلى دمشق، وأقطع من قدم عليه من أمراء مصر نابلس وأعمالها؛ ليتقووا بمغلها، فخرج الناصر داود من مصر، وصار إلى الكرك، فانزعج الملك العادل وأمه لقدوم الصالح انزعاجا عظيما، وخافاه خوفا كبيرا، واضطربت مصر اضطرابا زائدا، وخرج فخر القضاة نجم الدين بن بصاقة فى الرسالة إلى الملك الصالح من الكرك عن الناصر داود بأنه فى نصرة الملك الصالح ومعاونته، ويسأله دمشق وجميع ما كان لأبيه؛ فلم تقع موافقة على ذلك، فسار الناصر إلى الملك العادل، ونزل بدار الوزراة من القاهرة؛ ليعينه على محاربة أخيه الملك الصالح، فقدم فى ذى الحجة الصاحب محيى الدين بن الجوزى برسالة الخليفة إلى الملك الصالح؛ ليصالح أخاه الملك العادل فأجل الملك الصالح قدومه إجلالا كثيرا ومع ذلك فإن كتب الأمراء- وغيرهم - ترد فى كل قليل على الملك الصالح من مصر، تعده بالقيام معه، وأن البلاد فى يده، لاتفاق الكلمة على سلطنته.

وفيها مات المنصور ناصر الدين أرتق بن أرسلان التركمانى الأرتقى، صاحب ماردين، قتله ابنه وهو سكران، واستولى بعده على ماردين.

وفيها وقعت بين جرم وجذام وثعلبة بالشرقية حروب قتل فيها كثير منهم، وقتل شيخهم شمخ بن نجم فجرد الملك العادل إليهم الأمير بهاء الدين بن ملكيشو؛ ليصلح بينهم، وكان السلطان في بلبيس، قد خرج فى سلخ ذى الحجة من قلعة الجبل، بعساكر مصر.

* * *

سنة سبع وثلاثين وستمائة

أهلت والملك العادل على بلبيس بعساكره يريد الشام؛ لمحاربة أخيه الملك الصالح، فأقام على بلبيس، فقصد الأمراء القبض عليه، وعمل بعضهم دعوة، وحضر إليه العادل، ففطن بما هم عليه، فقام و دخل الخريشته لقضاء الحاجة، وخرج من ظهر الحريشته، وركب فرسا وساق إلى القلعة فبعث إليه الأمراء يطلبونه، فأظهر أنه ما دخل القاهرة إلا لكسرة الخليج، وأنه سيعود إليهم ثم ألجأته الضرورة حتى خرج إلى العباسة فى رابع عشرى المحرم، وقبض على جماعة من الأمراء.

وفى نصف صفر: توجه الناصر داود من العباسة إلى الكرك، وصحبته الأمير سيف الدين على بن قلج، وجماعة من أمراء مصر، فبلغ العادل عن فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ أنه يكاتب الصالح، فقبض عليه واعتقله، هذا ومحيى الدين أبو المظفر يوسف بن الشيخ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى أخذ فى الإصلاح بين الملوك، على أن تكون دمشق للصالح نجم الدين أيوب، ومصر للعادل، وأن يرد إلى الناصر داود ما أخذ من بلاده، وكان محيى الدين بن الجوزى مقيما عند الصالح، وابنه شرف الدين يتردد من نابلس إلى مصر فى السفارة، حتى تقارب الأمر. ثم قدم محيى الدين إلى مصر، ومعه جمال الدين يحيى بن مطروح، ناظر ديوان الجيوش للملك الصالح، فأديا الرسالة، وأقاما عند الملك العادل، وكان قد أخذ الصالح يكاتب عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل فى الوصول إليه بنابلس، وبعث إليه الطبيب سعد الدين الدمشقى، ومعه حمام ليسرح إليه بالبطائق على جناحها ما يتجدد فاتفق أمر عجيب: وهو أنه لما وصل سعد الدين إلى قلعة بعلبك أنزل الصالح عماد الدين إسماعيل بدار، وبدل عرض الحمام الذى فى قفص سعد الدين بحمام آخر، من حمام القلعة ببعلبك، وأخذ الصالح عماد الدين فى التدبير على أخذ دمشق، وانتزاعها من يد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ وأرسل جواسيسه سرا إلى ابن أخيه الملك العادل، بما عزم عليه من أخذ دمشق، وأنه منتم إليه وفى طاعته، وإذا ملك دمشق خطب له على منابرها، وضرب السكة باسمه، وكتب الصالح عماد الدين إسماعيل أيضا إلى المجاهد - صاحب حمص - فى معاونته، وهو يواصل كتبه مع ذلك إلى الملك الصالح نجم الدين، يعده بالوصول إلى نصرته، وشرع الصالح عماد الدين فى جمع الرجال، ففطن بذلك الطبيب سعد الدين، وكتب البطائق على أجنحة الحمام بهذا الأمر إلى الملك

الصالح نجم الدين، فكان كلما سرح سعد الدين منها طائرا وقع فى برجه بقلعة بعلبك، فأتى به البَّراج إلى الملك الصالح عماد الدين، ثم إن الصالح عماد الدين زور بطاقة عن الطبيب سعد الدين، فيها «إن المولى الملك الصالح عماد الدين فى الاهتمام للمسير إلى المعسكر المنصور، وإنه باق على الطاعة» وسرح هذه البطاقة المزورة على جناح طائرة من الطيور التى وصلت مع الطبيب سعد الدين، فلما وقف عليها الملك الصالح نجم الدين، ظن أنها من عند رسوله، فطاب قلبه، ووالى الصالح عماد الدين إرسال البطائق المزورة، وكلما سرح الطبيب طائرا ببطاقة وقع فى قلعة بعلبك، فيصل إلى الصالح عماد الدين.

واتفق مع ذلك أمر آخر من عجيب ما يجرى: وهو أن المظفر صاحب حماة كان منتميا إلى الصالح نجم الدين، ومهتما بنصرته، ويخطب له فى بلاده، وكان الحلبيون والمجاهد صاحب حمص معاندين له، ومساعدين عليه فعلم المظفر صاحب حماة ما عليه خاله الصالح عماد الدين - صاحب بعلبك - من قصد دمشق، وموافقة المجاهد صاحب حمص له، وكانت عساكر دمشق مع الصالح نجم الدين أيوب على نابلس، وهم خمسة آلاف، وليس بدمشق من يحفظها؛ فخاف الملك المظفر صاحب حماة على دمشق، وباطن الأمير سيف الدين على بن أبى على الهذبانى على أنه يظهر الحرد عليه وفارقه، ويوهم أكابر البلد بأن المظفر قد عزم على تسليم حماة إلى الفرنج؛ لما حصل عنده من الغبن من المجاورين له، وأخذ بلاده منه، وقصد المظفر بهذه الحيلة مكيدة صاحب حمص، وأن الأمير سيف الدين إذا ذهب بالعسكر وأكابر الرعية إلى دمشق أقاموا بها وحفظوها، حتى يتوجه الملك الصالح إلى مصر، أو يعود إلى دمشق، فأظهر سيف الدين الغضب على المظفر، وأخذ قطعة من العسكر، ومن أكابر حماة، وخرج فسار حتى نزل على حمص، عند بحيرة قدس فلم يخف على المجاهد صاحب حمص ما دبره المظفر من مكيدته، وخرج من حمص، وبعث إلى الأمير سيف الدين يريد الاجتماع به، فأتاه سيف الدين منفردا؛ وأعلمه بأنه كره مجاورة المظفر، لما هو عليه من الميل للفرنج، والعزم على تسليمهم حماة، فأظهر له الملك المجاهد البشر ولاطفه، واستدعاه إلى ضيافته بداخل حمص، فلما صار به إلى القلعة، استدعى أصحابه لينزلوا فى البلد، فدخل بعضهم وامتنع بعضهم من الدخول إلى حمص، فلما تمكن المجاهد من الأمير سيف الدين قبض عليه، واعتقله هو ومن دخل من أصحابه، وفر الباقون، فعاقب المجاهد من صار فى قبضته أشد العقوبة، واستصفى أموالهم، ومازال بسيف الدين حتى هلك فضعف المظفر لتلف رجال عسكره.

وسار الصالح عماد الدين - ومعه المجاهد - إلى دمشق فى جمع كبير، وأخذاها وأظهرا طاعة الملك العادل صاحب مصر، وكان ذلك فى سابع عشرى صفر، ثم ملكا قلعة دمشق، واعتقلا المغيث بن الصالح نجم الدين، فبلغ ذلك الصالح وهو بنابلس، فكتم الخبر، وقدم الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى أستاداره فى جماعة، وسار بعده يريد دمشق، فلما وصل ابن أبى على إلى الكسوة علم بأخذ دمشق من يدهم، فرجع إلى الصالح - وقد نزل بيسان - فأعلمه الخبر، وسار معه حتى وصل القصير المعينى من النور فاشتهر عند العسكر أخذ دمشق، فورود مكاتبات الصالح عماد الدين إليهم؛ باستمالتهم إليه، ففسدت نياتهم، وطمعوا فى الملك الصالح نجم الدين؛ لتلاشى أمره، وفارقوه، فبقى الصالح نجم الدين فى دون المائة من أمرائه وأجناده، وتركه من كان معه من أهل بيته وأقاربه، وتركه أيضا بدر الدين قاضى سنجار - وكان أخص أصحابه، وصاروا كلهم إلى دمشق، وقد أيسوا من أن يقوم بعدها للصالح (نجم الدين) قائمة، وثبت معه الأمير حسام الدين بن أبى على أستادراه، وزين الدين أمير جانداره، وشهاب الدين بن سعد الدين كوجبا - وكان أبوه سعد الدين ابن عمة الملك الكامل - والأمير شهاب الدين البواشقى، ونحو الثمانين من مماليكه، وثبت معه أيضا كاتبه بهاء الدين زهير، وهرب الطواشى شهاب الدين فاخر، وأخذ معه شيئا كثيرا من قماش الصالح، وعدة من مماليكه الصغار وغلمانه، وصار مع من لحق بدمشق، ففت فى عضد الصالح مفارقة العسكر له، وأيقن بزوال أمره ورحل فى الليل، فلقيه طائفة من العربان يريدون أخذه، فحاربهم بمن معه، حتى خلص منهم إلى نابلس، فنزل بظاهرها، ولما وصل العسكر المخامر على الصالح نجم الدين إلى دمشق، قبض الملك الصالح عماد الدين على أخويه الملك المعز مجير الدين يعقوب والملك الأمجد تقى الدين عباس، واعتقل الأمراء المصريين أيضا: وهم عز الدين أيبك الكردى، وعز الدين قضيب البان، وسنقر الدينسرى، وبلبان المجاهدى، وتوجه نور الدين بن عثمان إلى بغداد، واتفق تغير الملك العادل على الناصر داود، ففارقه من بلبيس - وصحبته الأمير سيف الدين على بن قلج - وسار إلى الكرك، وكاتب الصالح نجم الدين ووعده النصرة، وكان ذلك خدعة منه ثم سار الناصر إلى نابلس بعساكره، وقبض على الملك الصالح نجم الدين، ويقال بل بعث إليه من أخذه بعد ما صار وحده، وأركبه على بلغة فى إهانة، بغير مهماز ولا مقرعة، فى ليلة السبت ثانى عشر ربيع الأول، وبعث الناصر به إلى الكرك، ولم يترك معه غير مملوك واحد، يقال له ركن الدين بيبرس، وبعث معه جاريته شجر الدر[1] أم ولده

---

(١) شجرة الدر (.. - ٦٥٥ هـ ..= ١٢٥٧م). شجرة الدر الصالحية، أم خليل، الملقبة بعصمة الدين ملكة مصر: أهلها من حوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب: اشتراها فى أيام أبيه وحظيت=

خليل، وأنزله بالقلعة، وقام له بجميع ما يحتاج إليه بحيث لم يختل من حاله سوى أنه فقد الملك فقط، وأقام بهاء الدين زهير عند الناصر داود، هو وجماعة المماليك، بعد ما خيرهم فاختاروا الإقامة عنده وطلب الأمير حسام الدين بن أبى على، وزين الدين أمير جاندار من الناصر المسير إلى دمشق فسيرهما، وعندما قدما دمشق اعتقلهما الصالح عماد الدين.

وفى سابع عشر ربيع الأول: عاد الملك العادل إلى القاهرة، بعد ما بعث الركن [......].(١)

الهبجاوى على جماعة؛ لحفظ الساحل، فلما بلغ الملك العادل ما جرى على أخيه - من أخذه ذليلا، ونهب أحر، وسجنه بالكرك - سره ذلك سرورا كثيرا، وظن أنه قد أمن، ونودى بزينة القاهرة ومصر فزينتا، وعمل سماطا عظيما فى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل، وعمل قصورا من حلوى، وأحواضا من سكر وليمون، وألفا وخمسمائة رأس شواء، ومثلها طعاما؛ فكان ما عمل من السكر ألف وخمسمائة أبلوجة، ونادى الملك العادل فى العامة بالحضور إلى السماط، فحضر الجليل والحقير، وبلغ ذلك الصالح نجم الدين، وهو معتقل بالكرك.

ولم يقنع الملك العادل بسجن أخيه، حتى أنه بعث الأمير علاء الدين بن النابلس إلى الناصر داود، يطلب منه أن يبعث إليه بأخيه الصالح فى قفص حديد تحت الاحتفاظ، ويبذل له فى مقابلة إرساله أربعمائة ألف دينار و دمشق؛ وحلف على ذلك أيمانا عظيمة، فلما وصل الكاتب إلى الناصر أوقف عليه الملك الصالح، و أدخل إليه بالقاصد الذى أحضره، ثم كتب الناصر إلى الملك العادل: «وصل كتاب السلطان، وهو يطلب أخاه إلى عنده فى قفص حديد، وأنك تعطينى أربعمائة ألف دينار مصرية، وتأخذ دمشق ممن هى بيده، وتعطينى إياها، فأما الذهب فهو عندك كثير، وأما دمشق فإذا أخذتها ممن هى معه، وسلمتها إلى، سلمت أخاك إليك، وهذا جوابى والسلام». فلما ورد هذا الجواب على الملك العادل أمر بتجهيز العساكر؛ ليخرج إلى الشام، وخرج محيى الدين بن الجرزى من القاهرة، ومعه جمال الدين بن مطروح رسول الصالح نجم

=عنده، وولدت له ابنه خليلا فأعتقها وتزوجها، فكانت معه فى البلاد الشامية، لما كان مستوليا على الشام مدة طويلة ثم لما انتقل إلى مصر وتولى السلطنة كانت فى بعض الأحيان تدير أمور الدولة عند غيابه فى الغزوات. انظر دول الإسلام ٢/ ١٢٢ وابن إياس ١/ ٨٩ ، ٩٢، ٩٣ وخطط مبارك ٥/ ٣٢ وتراجم إسلامية ٦١ ومرآة الزمان ٨/ ٧٧٤، ٧٧٥ و، ٧٨٢، و ٧٨٣ وشذرات الذهب ٥/ ٢٦٨. والأعلام ٣/ ١٥٨

(١) ما بين المعقوفتين سقط فى الأصل.

الدين، وكان قد استجار به بعدما قبض على الصالح نجم الدين وسجن بالكرك، وكتب الناصر داود إلى ابن عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو محبوس عنده بالكرك:

وإذا مسك الزمان بضر عظمت عنده الخطوب وجلت
وتوالت منه نوائب أخرى سئمت عندها النفوس وملت
فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني فالرزايا إذا توالت تولت

وهذه الأبيات لغيره، فكتب إليه الصالح نجم الدين أيوب يشكره، وكتب فيما كتب أبيات شمس المعالى قابوس وشمكير:

قل للذى بصروف الدهر عيرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف ويستقر بأقصى قعره الدرر
وإن تكن عبثت أيدى الزمان بنا وما لنا من تمادى بؤسه ضرر
ففى السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وازداد فيها الرشيد النابلسى:

وكم على الأرض من خضراء مورقة وليس يرجم إلا ما له ثمر

وفى أثناء هذا الاختلاف بين الملوك عمر الفرنج فى القدس قلعة، وجعلوا برج داود أحد أبراجها، وكان قد تُرِكَ لما خرب الملك المعظم أسوار القدس، فلما بلغ الناصر داود عمارة هذه القلعة سار إلى القدس، ورمى عليها بالمجانيق حتى أخذها، بعد أحد وعشرين يوما - فى يوم تاسع جمادى الأولى - عنوة بمن معه من عسكر مصر، وتأخر أخذ برج داود إلى خامس عشره فأخذ من الفرنج صلحا على أنفسهم دون أموالهم، وعمر الناصر برج داود، واستولى على القدس، وأخرج منه الفرنج. فساروا إلى بلادهم، واتفق يوم فتح القدس وصول محيى الدين بن الجوزى إلى الملك الناصر داود، ومعه جمال الدين بن مطروح، فقال جمال الدين بن مطروح يمدح الملك الناصر داود، ويذكر مضاهاته لعمه الناصر صلاح الدين يوسف[1] فى فتح القدس، مع اشتراكهما

---

(١) الملك الناصر (٦٢٧ - ٦٥٩ هـ = ١٢٣٠ - ١٢٦١م). يوسف الناصر، بن محمد العزيز، ابن الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب: آخر ملوك بنى أيوب ولد بقلعة، ولى الملك بعد وفاة والده (سنة ٦٣٤ هـ) وعمر نحو سبع سنين، فقام وزراء أبيه بتدبير مملكته لا يمضون أمرا قبل الرجوع إلى جدته الصاحبة ضيفة خاتون أخت الملك الكامل ، إلى أن توفيت (سنة ٦٤٠هـ) فجلس يوسف فى دار العدل، وأمر ونهى، وعمره ١٣ سنة . وأضاف إلى دولة حلب بلاد الجزيرة وحران والرها والرقة ورأس عين وحمص، ثم دمشق (سنة ٦٤٨هـ)، وأطاعه صاحب الموصل وماردين. انظر أعلام النبلاء ٢/ ٣٠٧ والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٠٣ ومرآة الجنان ٤/ ١٥١ والقلائد الجوهرية ٨٨ وشذرات الذهب ٥/ ٢٩٩ وذيل مرآة الزمان ١/ ٤٦ و ٢/ ١٣٤. والأعلام ٨/ ٢٥٠.

فى اللقب والفعل، وهو معنى لطيف مليح:

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا بالكفر مستوطنا ... أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا ... وناصر طهره آخرا

وفى يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول: وقع بين الفرنج وبين العسكر المصرى المقيم بالساحل حرب، انكسر فيها الفرنج، وأخذ من الفرنج ملوكهم وأكنادهم، وثمانون فارسا، ومائتان وخمسون راجلا - وصلوا إلى القاهرة، وقتل منهم ألف وثمانمائة، ولم يقتل من المسلمين غير عشر، ثم سار ابن الجوزى إلى دمشق، وحاول إصلاح الحال بين الصالح عماد الدين وبين الناصر داود وبين الملك العادل، فلم يتأت له ذلك، فعاد إلى القاهرة فى رمضان، وقد وصل الملك ابن سنقر بخلعة الملك العادل وابنه، وأمه وامرأته وكاتبه ، ونزل ابن مطروح عند المظفر بحماة، فبعثه فى الرسالة إلى الخوارزمية بالشرق، يستحثهم على القيام بنصرة الملك الصالح نجم الدين، واستصحب معه أيضا رسالة الناصر داود، ومنه: «إنى لم أترك الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لمهجته، خوفا عليه من أخيه الملك العادل، ومن عمه الملك الصالح عماد الدين، وسأخرجه وأملكه البلاد، فتحركوا على بلاد حلب، وبلاد حمص». فسار إليهم ابن مطروح وقضى الأمر معهم، وعاد إلى حماة، فاتفق موت الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه - صاحب حمص - يوم التاسع عشر من شهر رجب، فكانت مدة ملكه بحمص نحوا من ست وخمسين سنة، وقام من بعده ابنه الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم، واتفق مع الصالح عماد الدين على المعاضدة، فصار الناصر داود مواحشا للملك العادل، بسبب أنه لم يوافقه على أخذ دمشق، والملك العادل مواحشه؛ لأنه لم يسلمه الملك الصالح نجم الدين، والناصر أيضا مواحش للصالح عماد الدين، ويهدده بأنه يطلق الملك الصالح نجم الدين، ويقوم معه فى أخذ البلاد، والمظفر صاحب حماة لا يخطب للعادل من حين قطع الخطبة للصالح نجم الدين؛ لميله إلى الصالح نجم الدين.

فلما دخل شهر رمضان: سير المظفر القاضى شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن أبى الدم - قاضى حماة - رسولا إلى الملك العادل بمصر، وحمله فى الباطن رسالة إلى الناصر داود بالكرك، أن يطلق الصالح نجم الدين، ويساعده على أخذ البلاد، فبلغ القاضى شهاب الدين الملك الناصر ذلك، وتوجه إلى مصر، فأفرج الناصر داود عن الملك الصالح نجم الدين، فى سابع عشر من رمضان، واستدعاه إليه وهو بنابلس، فلما

قدم عليه التقاه وأجله، وضرب له دهليز السلطنة، واجتمع عليه مماليكه وأصحابه الذين كانوا عند الناصر: منهم الأمير شهاب الدين بن كعب كوجبا، وشهاب الدين الغرس، وكاتبه بهاء الدين زهير، وتقدم الناصر للخطيب بنابلس فى يوم عيد الفطر، فدعا الملك الصالح، وأشاع ذكره، وسار الناصر داود والصالح نجم الدين إلى القدس وتحالفا على أن تكون ديار مصر للملك الصالح، والشام والشرق للناصر، وأن يعطيه مائتى ألف دينار، فكانت مدة اعتقال الملك الصالح سبعة أشهر و أياما، ثم سارا إلى غزة، فورد الخبر بذلك على الملك العادل بمصر، فانزعج وأمر بخروج الدهليز السلطانى والعساكر، و برز إلى بلبيس فى نصف ذى العقدة، وكتب إلى الصالح عماد الدين أن يخرج بعساكر دمشق، فخرج الصالح عماد الدين بعساكره إلى الغوار، فخاف الملك الصالح والملك الناصر من التقاء عساكر مصر والشام عليهما، ورجعا من غزة إلى نابلس؛ ليتحصنا بالكرك، وكان الملك العادل قد شره فى اللعب، وأكثر من تقديم الصبيان والمساخر وأهل اللهو، حتى حسبت نفقاته فى هذا الوجه خاصة، فكانت ستة آلاف ألف وعشرين ألف ألف درهم، و أعطى العادل عبدا أسودا، عمله طشت داره، يعرف بابن كرسون منشورا بخمسين فارسا، فلما خرج به من باب القلة بقلعة الجبل وجده الأمير ركن الدين الهيجارى، أحد الأمراء الأكابر، فأراه المنشور، فحنق ومكة فى وجهه، وأخذ منه المنشور، وصار بين الأمراء وبين الملك العادل وحشة شديدة، ونفرة عظيمة، واتفق ما تقدم ذكره إلى أن نزل العادل ببلبيس، فقام الأمير عز الدين أيبك الأسمر - مقدم الأشرقية - وباطن عدة من الأمراء والمماليك الأشرفية على خلع العادل والقبض عليه، ووافقهم على هذا جوهر التوبى وشمس الخواص - وهما من الخدام الكاملية، وجماعة أخر من الكاملية، وهم مسرور الكاملى، وكافور الفائزى، وركبوا ليلا وأحاطوا بدهليز الملك العادل، ورموه وقبضوا عليه، ووكلوا به من يحفظه فى خيمة، فلم يتحرك أحد لنصرته، إلا أن الأكراد هموا بالقيام له، فمال عليهم الأتراك والخدام ونهبوهم، فانهزم الأكراد إلى القاهرة، ويقال إنه بلغ أيبك الأسمر أن الملك العادل سكر مع شبابه وخواصه، وقال لهم: «عن قليل تشربون من دم أيبك الأسمر وهؤلاء العبيد السوء فلان وفلان» وسماهم فاجتمعوا على خلعه، لاسيما لما طلب ابن كرسون منه أن يسلمه الأمير شجعاع الدين بن بزغش - وإلى قوص- فأمكنه منه وعاقبه أشد عقوبة وتنوع فى عذابه، ولم يقبل فيه شفاعة أحد من الأمراء، وكان الملك العادل قد قربه تقريبا زائدا، حتى كان يقضى عنده الحوائج الجليلة، فأنفت الأنفس من ذلك، وخلع العادل فى يوم الجمعة تاسع شوال، فكانت مدة ملكه سنتين وشهرين وثمانية عشر يوما،

أولها يوم الخمس، وآخرها يوم الخميس تاسع شوال سنة سبع وثلاثين وستمائة، أسرف فيها إسرافا أفرط فيه، بحيث أن أباه الملك الكامل ترك ما ينيف على ستة آلاف ألف دينار مصرية، وعشرين ألف ألف درهم فرقها كلها، وكان العادل يحمل المال إلى الأمراء وغيرهم على أقفاص الحمالين، و لم يبق أحد فى دولته إلا وشمله إنعامه، فكانت أيامه بمصر كلها أفراح ومسرات للين جانبه، وكثرة إحسانه، قال الأديب أبو الحسين الجزار فى الملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب:

هو الليث يخشى بأسه كل مجتر ... هو الغيث يرجو جوده كل مجتدى
لقد شاد ملكا أسسه جدوده ... فأصبح ذا ملك أثيل مشيد
وصح به الإسلام حتى لقد غدت ... بسلطانه أهل الحقائق تقتدى
فقل للذى قد شك فى الحق إنما ... أطعنا أبا بكر بأمر محمد

يشير بذلك إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، فإن أباهما الكامل محمدا أقام العادل هذا بمصر، وبعث الصالح أيوب إلى الشرق، وقال البرهان بن الفقيه نصر، لما استقر العادل فى السلطنة بعد أبيه:

قل للذى خاف من مصر وقد أمنت ... ماذا يؤمله منها وخيفته
إن كان قد مات عن مصر محمدها ... فقد أقام أبا بكر خليفته

* * *

السلطان الملك الصالح

أبو الفتوح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، لما قبض على أخيه الملك العادل، كان الأمير عز الدين أيبك الأسمر يميل إلى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل - صاحب دمشق - وكانت الخدام والمماليك الكاملية تميل إلى الملك الصالح نجم الدين - وهم الأكثر - فلم يطق عز الدين مخالفتهم، فاتفقوا كلهم، وكتبوا إلى الملك الصالح نجم الدين يستدعونه فأتته كتبهم، وقد بلغ هو والناصر داود الغاية من الخوف وزلزلا زلزالا شديدا، لضعفهما عن مقاومة عساكر مصر والشام، فأتاهما من الفرج ما لم يسمع بمثله، وقاما لوقتهما، وسارا إلى مصر، فلما دخلا الرمل لم ينزلا منزلة إلا وقدم عليهما من أمراء مصر طائفة، حتى نزلا ببلبيس، يوم الإثنين تاسع[....][1] بعدما خطب له بالقاهرة ومصر يوم الجمعة خامس عشره، ومنذ فارقا غزة تغير الناصر

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط فى الأصل.

داود على الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتحدث فى قتله، فلما نزلا ببلبيس، سكر الملك الناصر، ومضى إلى العادل ، وقال له: «كيف رأيت ما أشرت به عليك، و لم تقبل منى؟» فقال له العادل: «ياخوندا التوبة». فقال الناصر: «طيب قلبك، الساعة أطلقك» ثم جاء الناصر، ودخل على الملك الصالح، ووقف فقال له الصالح: «بسم الله اجلس». قال: «ما أجلس حتى تطلق العادل» فقال له: «أعد»، وهو يكرر الحديث، فما زال به حتى نام، فقام من فوره الملك الصالح، وسار فى الليل ومعه العادل فى محفة، ودخل به إلى القاهرة، واستولى على قلعة الجبل، يوم الجمعة ثالث عشرى شوال، بغير تعب، وجلس الملك الصالح نجم الدين أيوب على سرير الملك، واعتقل العادل ببعض دوره، واستحلف الأمراء، وزينت القاهرة ومصر وظواهرهما، وقلعة الجبل زينة عظيمة، وسر الناس به سرورا كثيرا، لنجابته وشهامته، ونزل الناصر داود بدار الوزارة من القاهرة، و لم يركب الملك الصالح يوم عيد النحر؛ لما بلغه من خلف العسكر.

وفى ذى الحجة: أحضر الملك الصالح إليه الملك العادل، وسأله عن أشياء، ثم كشف بيت المال والخزانة السلطانية، فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم. وقيل له عما أتلفه أخوه، فطلب القضاة والأمراء الذيم قاموا فى القبض على أخيه، وقال لهم: «لأى شىء قبضتم على سلطانكم؟» فقالوا: «لأنه كان سفيها» فقال: «ياقضاة السفيه يجوز تصرفه فى بيت مال المسلمين؟» قالوا: «لا» قال: «أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال، كانت أرواحكم عوضه». فخرجوا وأحضروا إليه سبعمائة ألف وخمسة وثمانين ألف دينار، وألفى ألف وثلاثمائة ألف درهم، ثم أمهلهم قليلا، وقبض عليهم واحد بعد واحد، واستدعى الملك الصالح بالقاضى شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن على بن محمد، المعروف بابن أبى الدم – وكان بمصر منذ قام من عند المظفر صاحب حماة، وبعث به مكرما إلى حماة وخلع على ابن الجوزى رسول الخليفة، وكتب معه إلى الديوان العزيز يشكو منه، وكانت الخلع الخليفتية قد وصلت إلى القاهرة، فلبسها الملك الصالح، ونصب منبرا صعد عليه ابن الجوزى، وقرأ تقليد الملك الصالح، والملك الصالح قائم بين يدى المنبر على قدميه، حتى فرغ من قراءته، وشيع الملك الصالح أيضا الصاحب كمال الدين بن العديم رسول حلب، وتخوف السلطان من الناصر داود؛ لكثرة ما بلغه عنه من اجتماعه بالأمراء سرا، ولأنه سأله أن يعطيه قلعة الشوبك، فامتنع السلطان من ذلك، واستوحش الناصر فطلب الإذن بالرحيل إلى الكرك، فخرج من القاهرة وهو متغيظ، وقد بلغه أن الصالح إسماعيل خرج من دمشق، ووافق الفرنج على أن يسلمهم الساحل، ووصل الفرنج إلى النابلس، وتأول

السلطان أنه ما حلف للناصر بالقدس إلا مكرها، لأنه كان إذ ذاك تحت حكمه وفى طاعته، فلما وصل الناصر إلى الكرك طلب من السلطان ما التزم له به من المال، فحمله إليه، وماطله بتجريد العساكر معه لفتح دمشق، مستندا لما تأوله، وفى أثناء ذلك تحدث الأشرفية بالوثوب على السلطان، فخافهم وامتنع من الركوب فى الموكب مدة، واستوزر السلطان الصاحب معين الدين الحسن بن الشيخ، وسلم إليه أمور المملكة كلها، وهو ببركة الحاج، فى يوم الخميس حادى عشر ذى القعدة قبل الظهر، فشرع الصاحب معين الدين فى تدبير المملكة، والنظر فى مصالح البلاد.

وولدت شجر الدر من الملك الصالح ولدا سماه خليلا، ولقبه بالملك المنصور، وعندما نزل الملك الصالح العباسة، فى يوم الحج سابع عشر ذى القعدة، قبض على الركن الهيجارى العادلى فى يوم الإثنين ثامن عشره، وبعثه إلى القاهرة.

وفيها زار الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم خطابة دمشق، فى يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخر، ولاه الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل، وخطب لصاحب الروم.

وفيها قتل عثمان بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة، أمير بنى مرين، وأول من عظم أمره منهم، وغلب على ريف المغرب، ووضع على أهله المغارم، فبايعه أكثر القبائل، وامتدت يده إلى أمصار المغرب، مثل فاس وتازا ومكناسة، وفرض عليها ضرائب تحمل إليه، وقام بعد عثمان أخوه محمد بن عبد الحق.

وفيها قدم الشريف شيحة بن قاسم أمير المدينة إلى مكة، فى ألف فارس من عسكر مصر، فبعث ابن رسول ملك اليمن بالشريف راجح وعسكر، ففر شيحة من مكة، وملكها عسكر اليمن.

* * *

سنة ثمان وثلاثين وستمائة[1]

فيها شرع السلطان الملك الصالح أيوب فى النظر فى مصالح دولته، وتمهيد قواعد مملكته، ونظر فى عمارة أرض مصر، وبعث زين الدين بن أبى زكرى على عسكر إلى الصعيد؛ لقتال العرب، وتتبع من قام فى قبض أخيه الملك العادل، فقبض عليهم، واستصفى أموالهم وقتل عدة منهم، وفر عدة من الأشرفية، وقبض على الأمير عز الدين أيبك الأسمر الأشرفى بالإسكندرية، ونودى بالقاهرة وظواهرها: من أخفى أحدا من الأشرفية نهب ماله. وأغلقت أبواب القاهرة كلها ثلاثة أيام، ما خلا باب زويلة. حرصا على أخذ الأشرفية، فأخذوا وأودعوا السجون، وقبض على جوهر النوبى، وشمس الخواص مسرور بدمياط - وكان من الخدام الكاملية، وممن أعلن على خلع العادل، وقبض على شبل الدولة كافور الفائزى بالشرقية، وسجن بقلعة الجبل، وقبض على جماعة من الأتراك، ومن أجناد الحلقة، وعلى عدة من الأمراء الكاملية. وصار السلطان الملك الصالح أيوب كلما قبض على أمير أعطى خبره لمملوك من مماليكه وقدمه، فبقى معظم أمراء الدولة مماليكه؛ لثقته بهم، واعتماده عليهم، فتمكن أمره وقوى جأشه.

وفى سلخ ربيع الآخر وهو يوم السبت: ولد للملك الصالح نجم الدين أيوب من حظيته ولد ذكر وأحب الصالح أن يبقى له ذكرا، فأمر ببناء قلعة الجزيرة - المعروفة بالروضة - قبالة مصر الفسطاط، وشرع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان، وابتدئ ببنائها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشره.

وفى عاشر ذى القعدة: وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة، وتحول الناس من مساكنهم التى كانت بها، و بنى الملك الصالح فيها الدور السلطانية، وشيد أسوارها، وأنفق فيها أموالا تتجاوز الوصف، فلما تكامل بناؤها تحول السلطان من قلعة الجبل إليها، وسكنها بأهله وحرمه ومماليكه، وكان مغرى بالعمائر.

وفيها عاد العسكر الذى قصد المسير إلى اليمن فى رمضان؛ خوفا من المماليك الأشرفية وأتباعهم، وذلك أنهم كانوا قد عزموا على الخروج من القاهرة، ونهب العسكر ببركة الجب فبطل سفرهم، وبعث السلطان منهم ثلاثمائة مملوك إلى مكة؛

---

(1) ٦٣٨هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٣٠٠، ٣٠١/ ٦، تاريخ ابن الوردى ٢٤٣/ ٢٠.

لأخذها من أهل اليمن وعليهم الأمير مجد الدين أحمد بن التركماني و الأمير مبارز الدين على بن الحسين بن برطاس، وذلك أن الخبر ورد بأن ملك اليمن بعث جيشا لأخذ مكة، فساروا آخر شهر رمضان، ودخلوا مكة فى أثناء ذى القعدة، ففر من كان بها من أهل اليمن.

وفيها عاد القاضى بدر الدين قاضى سنجار من بلاد الروم، وكان قد توجه إليها برسالة الملك الصالح عماد الدين صاحب دمشق، فبلغه أن الملك الصالح نجم الدين ملك مصر، فخرج من بلاد الروم، وقد عزم ألا يدخل دمشق، فمضى إلى مصياف من بلاد الإسماعيلية، وأخذ يتحيل فى الوصول إلى مصر، فبلغ ذلك الصالح إسماعيل، فأرسل إليه ليحضر، فامتنع من الحضور واستجار بالإسماعيلية، فأجاروه ومنعوا الصالح إسماعيل منه، وأوصلوه إلى حماة فأكرمه المظفر، وأنزله عنده، وكان قد نزل عنده أيضا جمال الدين بن مطروح، فصارت حماة ملجأ لكل من انتمى للسلطان الصالح نجم الدين، ومنها يرد إليه بمصر كل ما يتجدد بالشام والشرق.

وفيها أيس الناصر داود من إعطاء الملك الصالح نجم الدين له دمشق، فانحرف عنه، ومال إلى الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص، واتفقوا جميعا على الصالح نجم الدين.

وفيها أغار الخوارزمية على بلاد قلعة جعبر وبالس[1] ونهبوها، وقتلوا كثيرا من الناس، ففر من بقى إلى حلب ومنبج، واستولى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل على سنجار، وأخرج منها الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل بن نجم الدين أيوب، فسار الجواد إلى الشام، حتى صار فى يد الناصر داود، فقبض عليه بغزة يوم الأحد ثامن عشر ذى الحجة، وبعث به إلى الكرك، وانضمت الخوارزمية على صاحب الموصل، فصاروا نحو الاثنى عشر ألفا، وقصدوا حلب، فخرج إليهم من حلب، فانكسر وقتل أكثره، وغنم الخوارزمية ما معهم، فامتنع الناس بمدينة حلب، وانتهبت أعمال حلب، وفعل فيها كل قبيح من السبى والقتل والتخريب، ووضعوا السيف فى أهل منبج، وقتلوا فيها ما لا يحصى عدده من الناس، وخربوا وارتكبوا الفواحش بالنساء فى الجامع علانية، وقتلوا الأطفال وعادوا وقد خرب ما حول حلب، وكان الخوارزمية يظهرون للناس أنهم يفعلون ما يفعلون خدمة لصاحب مصر، فإن أهل حلب وحمص ودمشق كانوا حزبا على الصالح صاحب مصر. فسار المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد صاحب حمص، بعساكره وعساكر حلب ودمشق، وقطع الفرات إلى سروج والرها، وأوقع بالخوارزمية،

---

(١) بالس بلدة بالشام بين حلب والرقة. انظر معجم البلدان ج ١/ ٤٧٧.

وكسرهم واستولى على ما معهم، ومضوا هاربين إلى عانة.

وفيها خاف الصالح عماد الدين من الملك الصالح نجم الدين؛ فكاتب الفرنج، واتفق معهم على معاضدته ومساعدته، ومحاربة صاحب مصر، وأعطاهم قلعة صفد وبلادها، وقلعة الشقيف وبلادهما، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها، وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل، وعزم الصالح عماد الدين على قصد مصر، لما بلغه من القبض على المماليك الأشرفية والخدام ومقدمى الحلقة وبعض الأمراء، وأن من بقى من أمراء مصر خائف على نفسه من السلطان، فتجهز وبعث إلى المنصور صاحب حمص، وإلى الحلبيين وإلى الفرنج يطلب منهم النجدات، وأذن الصالح إسماعيل للفرنج فى دخول دمشق وشراء السلاح، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق، فأنكر المسلمون ذلك، ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء واستفتوهم، فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج، وقطع من الخطبة بجامع دمشق الدعاء للصالح إسماعيل، وصار يدعو فى الخطبة بدعاء منه: «اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد، تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه معصيتك»، والناس يضجون بالدعاء. وكان الصالح غائبا عن دمشق، فكوتب بذلك، فورد كتابه بعزل بن عبد السلام عن الخطابة، واعتقاله هو والشيخ أبى عمرو بن الحاجب؛ لأنه كان قد أنكر، فاعتقلا، ثم لما قدم الصالح أفرج عنهما، وألزم بن عبد السلام بملازمة داره، وألا يفتى، ولا يجتمع بأحد ألبتة، فاستأذنه فى صلاة الجمعة، وأن يعبر إليه طبيب أو مزين إذا احتاج إليهما، وأن يعبر الحمام، فأذن له فى ذلك، وولى خطابة دمشق بعد عز الدين عبد السلام، علم الدين داود بن عمر بن يوسف بن خطيب بيت الآبار، وبرز الصالح من دمشق، ومعه عساكر حمص وحلب وغيرها، وسار حتى نزل بنهر العوجاء، فبلغه أن الناصر داود قد خيم على البلقاء، فسار إليه، وأوقع به، فانكسر الناصر، وانهزم إلى الكرك وأخذ الصالح أثقاله، وأسر جماعة من أصحابه، وعاد إلى العوجاء، وقد قوى ساعده واشتدت شوكته، فبعث يطلب نجدات الفرنج، على أنه يعطيهم جميع ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف ورحل، ونزل تل العجول فأقام أياما، ولم يستطع عبور مصر، فعاد إلى دمشق، وذلك أن الملك الصالح نجم الدين، لما بلغه حركة الصالح إسماعيل من دمشق ومعه الفرنج، جرد العساكر إلى لقائه، فألقاهم. وعندما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة، ومالوا جميعا على الفرنج، فهزموهم وأسروا منهم خلقا لا يحصون، وبهؤلاء الأسرى عمر السلطان الملك الصالح نجم الدين قلعة الروضة، والمدارس الصالحية بالقاهرة.

وفيها تم الصلح مع الفرنج، وأطلق الملك الصالح الأسرى بمصر من الجنود والفرسان والرجالة.

وفى ذى القعدة: كانت وقعة بين أمراء الملك الصالح أيوب المقيمين بغزة، وبين الجواد والناصر، وكسر أصحاب الملك الصالح، وكسر كمال الدين بن الشيخ.

وفيها استقر الصلح بين الملك الصالح والناصر، ورحل الناصر عن غزة بعد قبضه على الجواد.

وفى ذى القعدة: وصل الجواد إلى العباسة ومعه الصالح بن صاحب حمص، فأنعم عليهما الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولم يمكنهما من دخول القاهرة فعاد الجواد؟، ولجأ إلى الناصر، فقبض عليه.

وفيها عزل القاضى عبد المهيمن عن حسبة القاهرة، فى تاسع المحرم، واستقر فيها القاضى شرف الدين محمد بن الفقيه عباس، خطيب القلعة.

وفى رابع عشره: شرع السلطان الملك الصالح نجم الدين فى بناء القنطرة التى على الخليج الكبير، المجاور لبستان الخشاب، التى تعرف اليوم بقنطرة السد، خارج مدينة مصر.

وفى سادس عشره: أمر السلطان الملك الصالح أيوب بتجهيز زرد خاناه وشوانى وحراريق إلى بحر القلزم[1] لقصد اليمن، وجرد جماعة من الأمراء والأجناد بسبب ذلك.

---

(١) بحر القلزم: شعبة من بحر الهند، أوله من بلاد البربر والسودان. انظر معجم البلدان، قال ابن إياس فى ذكر بحر القلزم: أعلم أن هذا البحر فيما عرف فى ناحية ديار مصر بالقلزم، لأنه كان بساحله الغربى فى شرقى أرض مصر مدينة تسمى القلزم، وقد خربت فسمى هذا البحر باسم تلك المدينة، وهذا البحر إنما هو خليج من البحر الكبير المحيط بالأرض الذى يقال بحر اقيانس، ويعرف أيضًا بحر الظلمات لتكاثف المياه المتصاعدة منه وضعف الشمس عن ساحله، فيغلظ وتشتد الظلمة فيه وتعظم أمواجه وتكثر أهواله، ولم يقف أحد على خبره سوى على ما عرف من بعض سواحله وما قرب من جزائره، وقد قيل فيه ست جزائر يسكنها قوم متوحشون، وفى جانب هذا البحر الشرقى مما يلى الصين ست جزائر أيضًا تعرف بجزائر السبلى وقد نزل بها بعض العلويين فى أول الإسلام خوفًا على أنفسهم من القتل، ويخرج من هذا البحر المحيط ستة أبحر أعظمها اثنان وهما اللذان ذكرهما الله تعالى فى القرآن بقوله: ﴿**مرج البحرين يلتقيان**﴾ وقوله: ﴿**وجعل بين البحرين حاجزا**﴾ فأحدهما من جهة الشرق والأخر من جهة الغرب، فالخارج من جهة الشرق يقال له البحر الصينى والهندى والفارسى واليمنى والحبشى بحسب ما يمر عليه من البلدان، وأما الخارج من الغرب فيقال له البحر الرومى. انظر نزهة الأمم ١٥.

وفى خامس عشريه: نـزل خمـس نفـر فـى الليـل مـن الطاقـات الزجـاج إلى المشـهد النفيسى، وأخذوا من فوق القبر ستة عشر قنديلا من فضـة، فقبـض عليهـم مـن الفيـوم، وأحضروا فى رابع صفر، فاعترف أحدهم بأنه هو الذى نزل من طاقـات القبـة الزجـاج وأخذ القناديل، وبرأ بقية أصحابه، فشنق تجاه المشهد فـى عاشـره، وتـرك مـدة متطاولـة على الخشب، حتى صار عظاما.

وفـى سـابع عشـرى ربيـع الأولى: ولى الملـك الصـالح الأمـير بـدر الديـن بـاخل الإسكندرية، و نقله إليها من ولاية مصر.

وفى شهر ربيع الآخر :رتب السلطان نوابا عنه بدار العدل، يجلسون لإزالـة المظـالم. فجلس لذلك افتخار الدين ياقوت الجمـالى، وشـاهدان عـدلان، وجماعـة مـن الفقهـاء: منهم الشريف شمس الدين الأرموى ، نقيب الأشراف وقاضى العسكر ومدرس المدرسـة الناصرية بمصر، والقاضى فخر الديـن بـن السـكرى، والفقيـه عـز الديـن عبـاس، فهـرع الناس لدار العدل من كل جانب، ورفعوا ظلاماتهم، فكشفت، واسـتراح السـلطان مـن وقوف الناس إليه، واستمر هذا بمصر.

وفى ذى الحجـة: سـار القـاضى بـدر الديـن أبـو المحاسـن يوسـف السـنجارى علـى الساحل إلى مصر، فلما قدم على السلطان أكرمه غاية الإكرام، وكان قضاء ديـار مصـر بيد القاضى شرف الدين ابن عين الدولة الإسكندرى، فصرفه السلطان عن قضـاء مصـر والوجه القبلى، وفوض ذلك للقاضى بدر الدين السنجارى، وأبقى مع ابـن عـين الدولـة قضاء القاهرة والوجه البحرى.

وفيها ظهر ببلاد الروم رجل ادعى النبوة، يقال لـه البابـا، مـن التركمـان. وصـار لـه أتباع، وحمل أتباعه على أن يقولوا: لا إله إلا الله، البابا رسول الله، فخـرج إليـه جيـش صاحب الروم، فقاتلهم وقتل بينه وبينهم أربعة آلاف نفر، ثم قتل البابا فانحل أمره.

وفيها وصل رسول التتار من ملكهم خاقان إلى الملك المظفر شهاب الدين غازى بـن العادل، صاحبميافارقين، ومعه كتاب إليه وإلى ملوك الإسلام، عنوانـه: «مـن نـائب رب السماء، ماسح وجه الأرض ، ملك الشـرق والغـرب، قاقـان». فقـال الرسـول لشـهاب الدين صاحب مياقارفين: «قد جعلك قاقان سلاح داره، وأمرك أن تخرب أسـوار بلـدك» فقال له شهاب الدين: «أنا من جملة الملوك، وبـلادى حقـيرة بالنسبة إلى الـروم والشـام ومصر، فتوجه إليهم، وما فعلوه فعلته».

وفى يوم الجمعة حادى عشر ذى القعـدة: رسـم الصـالح إسمـاعيل أن يخطـب علـى

منبر دمشق للسلطان غياث الديـن كيخسـرو بـن كيقبـاد بـن كيخسـرو، ملـك الـروم، فخطب له، ونثر على ذلك الدنانير والدارهم، وكان يوما مشهودا، وحضر رسل الــروم وأعيان الدولة، وخطب الملك فى جوامع البلد، وأنعم على الرسول وخلع عليه.

* * *

سنة تسع وثلاثين وستمائة[1]

فيها شرع الملك الصالح فى عمارة المدارس الصالحية بين القصرين.

وفيها غلت الأسعار بمصر، وأبيع القمح كل أردب بدينارين ونصف، وقدم جمال الدين بن مطروح من طرابلس - فى البحر - إلى القاهرة، وكثرت قصاد المظفر صاحب حماة إلى مصر.

وفى يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأول: كسف جميع جرم الشمس، وأظلم الجو، وظهرت الكواكب، وشغل الناس السرج بالنهار.

وفيها قدم الشيخ عز الدين بن عبد السلام[2] إلى مصر، وقد أخرجه الصالح إسماعيل من دمشق، فأكرمه الملك الصالح نجم الدين، وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص بمصر، وقلده قضاء مصر والوجه القبلى يوم عرف عوضا عن قاضى القضاة شرف الدين ابن عين الدولة، عندما كتب السلطان بخطه إلى ابن عين الدولة، فى يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر ما نصه: «إن القاهرة لما كانت دار المملكة، وأمراء الدولة وأجنادها مقيمون بها، وحاكمها مختص بحضور دار العدل، تقدمنا أن يتوفر القاضى على القاهرة وعملها لا غير. وفوض السلطان قضاء القضاة بمصر وعملها - وهو الوجه القبلى - لبدر الدين أبى المحاسن يوسف السنجارى: المعروف بقاضى سنجار. فلما مات ابن عين الدولة استقر البدر السنجارى فى قضاء القاهرة، وفوض قضاء مصر والوجه القبلى لابن عبد السلام.

---

(١) سنة ٦٣٩ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٣٠٢ - ٣٠٥/ ٦ تاريخ ابن الوردى ٢٤٦/ ٢.

(٢) ابن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠هـ - ١١٨١ ت: ١٢٦٢م). عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن السلمى الدمشقى، عز الدين الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعى بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ فى دمشق وزار بغداد سنة ٥٩٩ هـ، فأقام شهرا وعاد إلى دمشق فتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالى، ثم الخطابة بالجامع الأموى. ثم جاء إلى مصر، فولاه صاحبها الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة ومكنه من الأمر والنهى ثم اعتزل ولزم بيته . انظر فوات الوفيات ١/ ٢٨٧ وطبقات السبكى ٥/ ٨٠، ١٠٧ وغربال الزمان، والمكتبة الأزهرية، والفهرس التمهيدى ٢٠٧ والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٠٨ وعلماء بغداد ١٠٤ وذيل الروضتين ٢١٦ ومفتاح السعادة ٢/ ٢١٢ ومعجم المطبوعات ١٦٤. الأعلام ٤/ ٢١.

وفيها كث تردد الناس إلى فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، بعدما أطلقه السلطان من السجن فكره السلطان ذلك، وأمره أن يلازم داره.

وفيها بلغ السلطان أن الناصر داود صاحب الكرك، قد وافق الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والمنصور إبراهيم صاحب حمص، وأهل حلب، على محاربته، فسير السلطان كمال الدين بن شيخ الشيوخ على عسكر إلى الشام، فخرج إليه الناصر وقاتله ببلاد القدس، وأسره فى عدة من أصحابه، ثم أطلقهم، وعادوا إلى القاهرة. وكان من خبر ذلك أنه فى يوم الأربعاء ثانى عشر صفر، وقع عسكر الناصر داود على الأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد، وقد نزل على الغوار، فكسره وأخذ الأثقال، وكان معه الأمير شمس الدين شرف - المعروف بالسبع مجانين - وشمس الدين أبو العلاء الكرديان، وشرف الدين بن الصارم صاحب بنين، وكان مقدم عسكر الناصر سيف الدين بن قلج، وجماعة من الأيوبية من عسكر مصر.

وفيها سار الخوارزمية إلى الموصل، فسالمهم صاحبها بدر الدين لؤلؤ [....][1] نصيبين، ووافقهم المظفر شهاب الدين غازى بن العادل ، صاحب ميافارقين، ثم ساروا إلى آمد فخرج إليهم عسكر حلب، عليه المعظم فخر الدين توران شاه[2] بن صلاح الدين، فدفعوهم عنها، ونهبوا بلاد ميافارقين، وجرت بينهم وبين الخوارزمية وقائع ثم عاد العسكر إلى حلب، فغار الخوارزمية على رساتيق الموصل.

وفيها فلج المظفر صاحب حماة فى شعبان وهوجالس بغتة، فأقام أياما ملقى لا يتحرك ولا يتكلم، ثم أفاق وبطل شقه الأيمن فسير إليه الملك الصالح نجم الدين أيوب من مصر بطبيب يعرف بالنفيس بن طليب النصرانى، فلم ينجح فيه دواء، واستمر كذلك سنين وشهورا حتى مات.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط فى الأصل.

(٢) توران شاه (المعظم توارنشاه ابن الناصر). (٥٧٧ - ٦٥٨ هـ ١١٨١ - ١٢٦٠م). تورانشاه (المعظم بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى، أبو الفاخر .من أمراء الأيوبيين ورابع من تلقب بالملك المعظم منهم، ولم يل السلطنة. ولد بمصر وكان كبير البيت الأيوبى وآخر من بقى من أولاد السلطان صلاح الدين، وتفقه وتلقى الحديث فى دمشق وحدث وخرج له الحافظ التونفى جزءا فى الحديث وتولى قيادة الجيش الحلبى زمنا. وحضر وقائع، وكان شجاعا عاقل، وأسره الخوارزمية بقرب الفرات، بعد أن أثخن بالجراح، وانهزم عسكره . ولما استولى التتار على حلب، اعتصم بقلعتها وحماها، ثم نزل منها بالأمان، وتوفى على الأثر، ودفن بدهليز داره بحلب. انظر صلة التكملة للحسينى- خ . وأعلام النبلاء ٤: ٤٢٥ وترويح القلوب ١٠٠ والعبر ٥: ٢٤٥.

وفى خامس عشر ذى القعدة: قدم الأمير ركن الدين ألطونبا الهيجارى من القاهرة إلى دمشق، وكان الملك الصالح نجم الدين قد بعثه فى شهر رمضان إلى الناصر داود؛ ليصلح بينه وبين الملك الجواد، حتى يبقى على طاعة الصالح نجم الدين، فلما وصل إلى غزة هرب إلى دمشق، وأخذ معه جماعة من العسكر ولحق الجواد بالفرنج، وأقام عندهم.

وفيها وصل الملك المنصور نور الدين عمر بن على رسول من اليمن فى عسكر كبير إلى مكة، فى شهر رمضان، ففر المصريون بعدما أحرقوا دار الإمارة بمكة، حتى تلف ما كان بها من سلاح وغيره.

* * *

سنة أربعين وستمائة[1]

فى ربيع الأول: أبطلت خطبة ملك الروم من دمشق، وخطب للملك الصالح نجم الدين أيوب.

وفى يوم الجمعة رابع جمادى الأولى: دخل الفرنج من عكا إلى نابلس، ونهبوا وقتلوا وأسروا، وأخذوا منبر الخطيب، وخرجوا يوم الأحد بعد ما أفسدوا أموالا كثيرة.

وفى يوم السبت ثامن عشر المحرم: وصل إلى القاهرة الشريف علاء الدين عالم بن الأمير السيد على.

وفيها وصل التتار إلى أرزن الروم، وأوقع الملك المظفر غازى، صاحب ميلادقين بالخوارزمية.

وفيها ماتت ضيفة خاتون ابنة العادل أبى بكر بن أيوب، ليلة الجمعة لإحدى عشرة خلت من جمادى الأولى فاستبد ابن ابنها الناصر يوسف بن الظاهر غازى بمملكة حلب بعدها، وقام بتدبيره بعد جدته الأمير شمس الدين لؤلؤ الأتابك، والأمير جمال الدين العادل الأسود [الحسن][2] الخاتون، والوزير الأكرم جمال الدين بن النفطى، وخرج إقبال من حلب بعسكر، وحارب الخوارزمية، ثم عاد.

وفيها مات الخليفة المستنصر با لله جعفر المنصور بن الظاهر بأمر ا لله أبى نصر محمد ابن الناصر لدين ا لله أحمد العباس أمير المؤمنين بكرة يوم الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة، وكان سبب موته أنه فصد بمبضع مسموم. فكانت خلافته سبع عشرة سنة وشهر، وقيل مات فى ثانى عشريه، وكانت مدته خمس عشرة سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام، وله من العمر إحدى وخمسون سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام. وكان حازما عادلا، وفى أيامه عمرت بغداد عمارة عظيمة، وبنى بها المدرسة المستنصرية، وفى أيامه قصد التتر بغداد، فاستخدم العساكر حتى قيل إنها زادت عدتها على مائة ألف إنسان. فقام من بعده فى الخلافة ابنه المستعصم با لله أبو أحمد عبد ا لله، وقام بأمره أهل الدولة، وحسنوا له جمع الأموال، وإسقاط أكثر الأجناد، فقطع كثيرا من العساكر، وسالم التتر، وحمل إليهم المال.

---

(١) سنة ٦٤٠ هـ . انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٣٠٥ - ٣٠٧ / ٦ تاريخ ابن الوردى ٢٤٧ / ٢.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط فى الأصل.

وفيها بنى بعض غلمان الصاحب معين الدين ابن شيخ الشيوخ، وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب، بناء بأمر مخدومه على سطح مسجد بمصر، وجعل فيه طبلخاناه عماد الدين ابن شيخ الشيوخ، فأنكر ذلك قاضى القضاة عز الدين بن عبد السلام، ومضى بنفسه وأولاده، حتى هدم البناء، ونقل ما على السطح، ثم أشهد قاضى القضاة على نفسه أنه قد أسقط شهادة الوزير معين الدين، وأنه قد عزل نفسه من القضاء، فلما فعل ذلك ولى الملك الصالح عوضه قضاء مصر صدر الدين أبا منصور موهوب ابن عمر بن موهوب بن إبراهيم الجزرى الفقيه الشافعى، وكان ينوب عن ابن عبد السلام فى الحكم، فى ثالث عشرى ذى القعدة.

وفيها قدم مكة الحاج من بغداد، بعدما انقطع ركب العراق سبع سنين عن مكة وكان من خبر مكة - شرفها الله تعالى - أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بعث ألف فارس عليهم الشريف شيحة بن قاسم أمير المدينة، فى سنة سبع وثلاثين، فبعث الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول من اليمن بابن النصيرى، ومعه الشريف راجح، إلى مكة فى عسكر كبير، ففر الشريف شيحة بمن معه، وقدم القاهرة، فجهز السلطان الملك الصالح معه عسكرا قدم بهم مكة، فى سنة ثمان وثلاثين، وحجوا بالناس، فبعث ابن رسول من اليمن عسكرا كبيرا، فطلب عسكر مصر من السلطان الملك الصالح نجدة، فبعث إليهم بالأمير بارز الدين على بن الحسين برطاس، والأمير مجد الدين أحمد بن التركمانى، فى مائة وخمسين فارسا، فلما بلغ ذلك عسكر اليمن أقاموا على السرين، وكتبوا إلى ابن رسول بذلك، فخرج بنفسه فى جمع كبير يريد مكة، ففر المصريون على وجوههم، وأحرقوا ما فى دار السلطان بمكة من سلاح وغيره، فقدم الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول مكة، وصام بها شهر رمضان، سنة تسع وثلاثين، واستناب بمكة مملوكه فخر الدين الشلاح.

* * *

سنة إحدى وأربعين وستمائة[1]

فيها قدم التتر بلاد الروم، وأوقعوا بالسلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان، وهزموه وملكوا بلاد الروم وخلاط وآمد، فدخل غياث الدين فى طاعتهم، على مال يحمله إليهم، وملكوا أيضا سيواس وقيسارية بالسيف، وقرروا على صاحبهما فى كل سنة أربعمائة ألف دينار ففر غياث الدين منهم إلى القسطنطينية، وقام من بعده ركن الدين ابنه - وهو صغير - إلى أن قتل.

وفيها تكررت المراسلة بين الصالح نجم الدين أيوب، وبين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وبين المنصور صاحب حمص، على أن تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل، ومصر للصالح أيوب، وكل من صاحب حمص وحماة وحلب على ما هو عليه، وأن تكون الخطبة والسكة فى جميع هذه البلاد للملك الصالح نجم الدين أيوب، وأن يطلق الصالح إسماعيل الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك الصالح نجم الدين من الاعتقال، وأن يخرج الأمير حسام الدين أبو على بن محمد بن أبى على باشاك الهذبانى، المعروف بابن أبى على من اعتقاله ببعلبك، وأن ينتزع الصالح إسماعيل الكرك من الملك الناصر داود، فلما تقرر هذا خرج من القاهرة الخطيب أصيل الدين الإسعردى - إمام السلطان - فى جماعة، وسار إلى دمشق، فخطب للسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بجامع دمشق وبحمص، وأفرج عن المغيث ابن السلطان، وأركب ثم أعيد إلى القلعة، حتى يتم بينهما الحلف، وأفرج عن الأمير حسام الدين، وكان قد ضيق عليه وجعل فى جب مظلم فلما وصل حسام الدين إلى دمشق خلع عليه الصالح إسماعيل، وسار إلى مصر، ومعه رسول الصالح إسماعيل، ورسول صاحب حمص - وهو القاضى عماد الدين بن القطب قاضى حماة - ورسول صاحب حلب، فقدموا على الملك الصالح نجم الدين، ولم يقع اتفاق، وعادت الفتنة بين الملوك، فاتفق الناصر داود صاحب الكرك، مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق، على محاربة الملك الصالح نجم الدين وعاد رسول حلب، وتأخر ابن القطب بالقاهرة، فبعث الناصر داود والصالح إسماعيل، ووافقا الفرنج على أنهم يكونون عونا لهم على الملك الصالح نجم الدين، ووعداهم أن يسلما إليهم القدس وسلماهم طبرية وعسقلان أيضا فعمر الفرنج قلعتيهما وحصونهما،

---

(1) سنة ٦٤١ هـ. انظر أحداث تلك السنة فى النجوم الزاهرة ٣٠٧ - ٣١٠/ ٦ تاريخ ابن الوردى ٢٤٨/ ٢.

وتمكن الفرنـج مـن الصخـرة بـالقدس، وجلسـوا فوقهـا بـالخمر، وعلقـوا الجـرس علـى المسجد الأقصى.

فبرز الملك الصالح نجم الدين أيوب من القاهرة، ونزل بركة الجب وأقام عليها،

وكتب إلى الخوارزمية يستدعيهم إلى ديار مصـر؛ لمحاربـة أهـل الشـام، فخرجـوا مـن بلاد الشرق.

وفى يوم عيد النحر: صرف الملك الصـالح نجـم الديـن قـاضى القضـاة صـدر الديـن موهوب الجزرى، وقلد الأفضل الخونجى قضاء مصر والوجه القبلى .

وفيها هرب الصارم [... [1]] المسعودى من قلعة الجبل، وقد صبغ نفسه حتـى صـار أسودا، على صورة عبد كان يدخل إليه بالطعام، فأخذ من بلبيس، وأعيد إلى معتقله.

وفيها أنشأ شهاب الدين ريحان - خادم الخليفة - رباط الشرابى بمكة، وعمـر بعرفـة أيضا.

* * *

---

(١) ما بين معقوفتين سقط من الأصل.

سنة اثنتين وأربعين وستمائة

فيها ورد إلى دمشق كتاب بدر الدين لؤلؤ، صاحب الموصل، وفيه يقول: «إنى قررت على أهل الشام قطيعة التتر فى كل سنة، من الغنى عشرة دراهم، ومن المتوسط خمسة دراهم، ومن الفقير درهم» فقرأ القاضى محيى الدين بن زكى الدين الكتاب على الناس، ووقع الشروع فى جباية المال.

وفيها قطع الخوارزمية الفرات، ومقدموهم: الأمير حسام الدين بركة خان، وخان بردى، وصاروخان، وكشلوخان، وهم زيادة على عشرة آلاف مقاتل، فسارت منهم فرقة على بقاع بعلبك، وفرقة على غوطة دمشق، وهم ينهبون ويقتلون ويسبون، فانجفل الناس من بين أيديهم، وتحصن الصالح إسماعيل بدمشق، وضم عساكره إليه، بعدما كانت قد وصلت غزة وهجم الخوارزمية على القدس، وبذلوا السيف فى من كان به من النصارى، حتى أفنوا الرجال، وسبوا النساء والأولاد، وهدموا المبانى التى فى قمامة، ونبشوا قبور النصارى، وأحرقوا رممهم، وساروا إلى غزة فنزلوها، وسيروا إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب - فى صفر - يخبرونه بقدومهم، فأمرهم بالإقامة فى غزة، ووعدهم ببلاد الشام، بعدما خلع على رسلهم ، وسير إليهم الخلع والخيل والأموال، وتوجه فى الرسالة إليهم جمال الدين أقوش النجيبى، وجمال الدين بن مطروح، وجهز الملك الصالح نجم الدين أيوب عسكرا من القاهرة عليه الأمير ركن الدين بيبرس، أحد مماليكه الأخصاء الذين كانوا معه وهو محبوس بالكرك، فسار إلى غزة، وانضم إلى الخوارزمية جماعة من القميرية، كانوا قد قدموا معهم من الشرق، ثم خرج الأمير حسام الدين أبوعلى- بن محمد بن أبى على الهذبانى بعسكر، ليقيم على نابلس.

وجهز الصالح إسماعيل عسكرا من دمشق، عليه الملك المنصور صاحب حمص، فسار المنصور جريدة إلى عكا، وأخذ الفرنج ليحاربوا معه عساكر مصر، وساروا إلى نحو غزة، وأتتهم نجدة الناصر داود صاحب الكرك مع الظهير بن سنقر الحلبى والوزيرى، فالتقى القوم مع الخوارزمية بظاهر غزة، وقد رفع الفرنج الصلبان على عسكر دمشق، وفوق رأس المنصور صاحب حمص، والأقسة تصلب، وبأيديهم أوانى الخمر تسقى الفرسان وكان فى الميمنة الفرنج، وفى الميسرة عسكر الكرك، وفى القلب المنصور صاحب حماة، فساق الخوارزمية وعساكر مصر، ودارت بين الفريقين حرب شديدة،

فانكسر الملك المنصور، وفر الوزيرى، وقبض على الظهير وجرح. وأحاط الخوارزمية بالفرنج ، ووضعوا فيهم السيف حتى أتوا عليهم قتلا وأسرا، ولم يفلت منهم إلا من شرد، فكان عدة من أسر منهم ثمانمائة رجل، وقتل منهم ومن أهل الشام زيادة على ثلاثين ألفا، وحاز الخوارزمية من الأموال ما يجل وصفه، ولحق المنصور بدمشق فى نفر يسير.

وقدمت البشارة إلى الملك الصالح نجم الدين بذلك فى خامس عشر جمادى الأولى، فأمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرهما، وقلعتى الجبل والروضة، فبالغ الناس فى الزينة، وضربت البشائر عدة أيام.

وقدمت أسرى الفرنج ورءوس القتلى، ومعهم الظهير بن سنقر وعدة من الأمراء والأعيان؛ وقد أركب الفرنج الجمال، ومن معهم من المقدمين على الخيول، وشقوا القاهرة، فكان دخولهم يوما مشهودا، وعلقت الرءوس على أبواب القاهرة وملئت الحبوس بالأسرى، وسار الأمير بيبرس، والأمير ابن أبى على بعساكرهما إلى عسقلان، ونازلاها فامتنعت عليهم لحصانتها فسار ابن أبى على إلى نابلس، وأقام بيبرس على عسقلان، واستولت نواب الملك الصالح نجم الدين على غزة والسواحل، والقدس والخليل، وبيت جبريل والأغوار، ولم يبق بيد الناصر داود سوى الكرك والبلقاء، والصلت وعجلون.

فورد الخبر بموت الملك المظفر تقى الدين محمود بن المنصور بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب - صاحب حماة، فى يوم السبت ثامن جمادى الأول، فاشتد حزن الملك الصالح نجم الدين أيوب عليه، ثم ورد الخبر بموت ابنه الملك المغيث عمر بقلعة دمشق، فزاد حزنه، وقوى غضبه على عمه الصالح إسماعيل، وقدم إلى القاهرة الخطيب زين الدين أبو البركات عبد الرحمن بن موهوب من حماة، بسيف الملك المظفر، ومعه تقدمة من عند ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد، لتسع مضين من شوال.

وخرج الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على العساكر من القاهرة، ومعه الدهليز السلطانى والخزائن، وأقامه السلطان مقام نفسه، وأذن له أن يجلس على رأس السماط، ويركب كما هى عادة الملوك، وأن يقف الطواشى شهاب الدين رشيد أستادار السلطان فى خدمته على السماط، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يديه، كعادتهم فى خدمة السلطان، وكتب إلى الخوارزمية أن يسيروا فى خدمته. فسار الصاحب معين الدين من القاهرة بالعساكر إلى غزة، وانضاف إليه الخوارزمية والعسكر

إلى غزة، وانضاف إليه الخوارزمية والعسكر، وسار إلى بيسان ، فأقام بها مدة، ثم سار إلى دمشق فنازلها، وقد امتنع بها الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم صاحب حمص، وعاثت الخوارزمية في أعمال دمشق، فبعث الصالح إسماعيل إلى ابن شيخ الشيوخ بسجادة وإبريق وعكاز، وقال له: اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بقتال الملوك.

فلما وصل ذلك إليه حهز إلى الصالح إسماعيل جنكا وزمرا وغلالة حرير، وقال: السجادة والإبريق والعكاز يليقون بي، وأنت أولى بالجنك والزمر والغلالة، واستمر الصاحب معين الدين على محاصرة دمشق، فبعث الخليفة بمحيي الدين بن الجوزي إلى الملك الصالح نجم الدين ومعه خلعة، وهي عمامة سوداء، وفرجية مذهبة، وثوبان ذهب، وسيف بذهب، وطوق ذهب ، وعلمان حرير، وحصان وترس ذهب، فلبس الملك الصالح نجم الدين الخلعة على العادة وكانت الأقاويل بمصر قد كثرت لمجيئه، وتأخر قدومه، فقال الصلاح [... ...][1] بن شعبان الإربلي:

قالوا الرسول أتى قالوا إنه ... ما رام يوما عن دمشق نزوحا
ذهب الزمان وما ظفرت بمسلم ... يروى الحديث عن الرسول صحيحا

وفيها قتل أمير بني مرين محمد بن عبد الحق محيو بن أبي بكر بن حمامة، في حربه مع عسكر الموحدين وولي بعده أخوه أبوه يحيى بن عبد الحق.

وفيها ورد كتاب بدر الدين لؤلؤ من الموصل بجباية قطيعة[2] التتر من دمشق، فقرأ كتاب القاضي محيي الدين من الزكي على العادة.

وفيها استوزر الخليفة أستاداره مؤيد الدين محمد بن العلقمي، في ثامن ربيع الأول، عوضا عن نصير الدين أبي الأزهر أحمد بن محمد بن علي بن العاقد.

وفيها استولى التتر على شهر زور.

وفيها بلغ الأردب القمح بمصر أربعمائة درهم نقرة.

* * *

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل.

(٢) قطية: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما. انظر معجم البلدان ٣٧٨/ ٤.



سنة ثلاث وأربعين وستمائة [1]

فيها كثرت محاربة ابن شيخ الشيوخ لأهل دمشق ومضايقته للبلد، إلى أن أحرق قصرحجاج فى ثانى محرم، ورمى بالمجانيق وألح بالقتال.

فأحرق الصالح إسماعيل فى ثالثه عدة مواضع، ونهبت أموال الناس، وجرت شدائد، إلى أن أهل شهر ربيع الأول، ففيه خرج المنصور صاحب حمص من دمشق، وتحدث معه بركة خان مقدم الخوارزمية فى الصفح، وعاد إلى دمشق فأرسل الوزير أمين الدولة كمال الدين أبو الحسن بن غزال [2] المعروف بالسامرى إلى الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ، يسأله الأمان ليجتمع به، فبعث إليه بقميص وفرجية وعمامة ومنديل، فلبس ذلك وخرج ليلا، لأيام مضت من جمادى الأولى؛ فتحادثا ورجع إلى دمشق، ثم خرج فى ليلة أخرى، وقرر أن الصالح إسماعيل يسلم دمشق، على أن يخرج منها هو والمنصور بأموالهم، ولا يعترض لأحد من أصحابهم ولا لشىء مما معهم، وأن يعوض الصالح عن دمشق ببعلبك وبصرى وأعمالها، وجميع بلاد السواد، وأن يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة، فأجاب أمين الدولة إلى ذلك، وحلف الصاحب معين الدين لهم، فخرج الصالح إسماعيل والمنصور من دمشق.

ودخل الصاحب معين الدين فى يوم الإثنين ثامن جمادى الأولى، ومنع الخوارزمية من دخول دمشق ودبر الأمير أحسن تدبير، وأقطع الخوارزمية الساحل بمناشير كتبها لهم، ونزل فى البلد، وتسلم الطواشى شهاب الدين رشيد القلعة، وخطب بها وبجامع دمشق وعامة أعمالها للملك الصالح نجم الدين، وسلم أيضا الأمير سيف الدين على بن قلج قلعة عجلون لأصحاب الملك الصالح، وقدم إلى دمشق، فلما وردت الأخبار بذلك على السلطان أنكر على الطواشى شهاب الدين والأمراء كيف مكنوا الصالح إسماعيل

---

(١) سنة ٦٤٣ هـ . انظر أحداث السنة فى النجوم الزاهرة ٣١٢ - ٣١٥/ ٦ تاريخ ابن الوردى ٢٥١/ ٢.

(٢) أمين الدولة (٦٤٨ هـ - ١٢٥٠م). أمين الدولة بن غزال بن أبى سعيد، أبو الحسن: وزير عالم طبيب. كان سامريا وأسلم فى دمشق، واستوزره بها الملك الأمجد بهرام شاه فلم يزل عنده إلى أن توفى الأمجد (سنة ٦٢٨ هـ) فاستوزره الملك الصالح إسماعيل، فأقام إلى أن ملك دمشق نجم الدين أيوب (سنة ٦٢٣ هـ) ونقل الصالح إسماعيل إلى بعلبك واليا عليها، فأراد ابن غزال اللحاق به فاعتقله نائب السلطنة فى دمشق، وأرسل إلى مصر فسجن فى قلعة القاهرة خمس سنوات، ثم أعدم شنقا. وكان غزير العلم ، له المنهج الواضح. طبقات الأطباء ٢/ ٢٣٤ - ٢٣٩. الأعلام ١٧/ ٢.

من بعلبك، وقال: إن معين الدين حلف له، و أما أنتم فما خلفتم، وأمر الملك الصالح نجم الدين أن يسير ركن الهيجاوى، والوزير أمين الدولة السامرى، تحت الحوطة إلى قلعة الروضة، فسيرا من دمشق إلى مصر، واعتقلا بقلعة الجبل فاتفق مرض الصاحب معين الدين ووفاته بدمشق، فى ثانى عشرى شهر رمضان، فكتب السلطان إلى الأمير حسام بن أبى على الهذبانى، وهو بنابلس، أن يسير إلى دمشق ويتسلمها، فسار إليها وصار نائبا بدمشق، والطواشى رشيد بالقلعة، وأفرج السلطان عن الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ - وكان قد لزم بيته - وخلع عليه وأمره وقدمه، وبالغ فى الإحسان إليه، و كان لم يبق من أولاد شيخ الشيوخ غيره.

وأما الخوارزمية، فإنهم ظنوا أن السلطان إذا انتصر على عمه الملك الصالح إسماعيل يقاسمهم البلاد، فلما منعوا من دمشق، وصاروا فى الساحل وغيره من برد الشام، تغيرت نياتهم، واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان، وساروا إلى داريا وانتهبوها، وكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس وهو على غزة بعسكر جيد من عساكر مصر، وحسنوا له أن يكون معهم يدًا واحدة ويزوجوه منهم، فمال إليهم، وكاتبوا الناصر داود صاحب الكرك، فوافقهم ونزل إليهم واجتمع بهم وتزوج منهم، وعاد إلى الكرك واستولى على ما كان بيد الأمير حسام الدين بن أبى على، من نابلس والقدس والخليل، وبيت جبريل والأغوار.

وخاف الصالح إسماعيل، فكاتب الخوارزمية وقدم إليهم، فحلفوا له على القيام بنصرته، ونازلوا دمشق، فقام الأمير حسام الدين بن أبى على بحفظ البلد أحسن قيام، وألح الخوارزمية - ومعهم الصالح إسماعيل - فى القتال ونهب الأعمال، وضايقوا دمشق، وقطعوا عنها الميرة، فاشتد الغلاء بها، وبلغت الغرارة القمح إلى ألف وثمانمائة درهم فضة، ومات كثير من الناس جوعا، وباع شخص دارا قيمتها عشرة آلاف درهم، بألف وخمسمائة درهم اشترى بها غرارة قمح، فقامت عليه فى الحقيقة بعشرة آلاف درهم، وأبيع الخبز كل أوقية وربع بدرهم، واللحم كل رطل بسبعة دراهم، ثم عدمت الأقوات بالجملة، وأكل الناس القطاط والكلاب والميتات؛ ومات شخص بالسجن، فأكله أهل السجن، وهلك عالم عظيم من الجوع والوباء، واستمر هذا البلاء ثلاثة أشهر، وصار من يمر من الجبل يشتم ريح نتن الموتى، لعجز الناس عن مواراة موتاهم، و لم تنقطع مع هذا الخمور والفسوق من بين الناس.

و أخذ الملك الصالح نجم الدين مع ذلك فى إعمال الحيل والتدبير، وما زال بالمنصور

إبراهيم صاحب حمص حتى مال إليه، واتفق أيضا مع الحلبيين على محاربة الخوارزمية، فخرج الملك الصالح نجم الدين من القاهرة بعساكر مصر، ونزل العباسة؛ فوافاه بها رسل الخليفة، وهما القلك محمد ابن وجه السبع، وجمال الدين عبد الرحمن بن محيى الدين أبى محمد يوسف بن الجوزى فى آخر شوال، ومعهما التقليد والتشريف الأسود: وهو عمامة سوداء، وجبة وطوق ذهب، وفرس بمركوب بحلية ذهب، فنصب المنبر، وصعد عليه جمال الدين عبد الرحمن محيى الدين بن الجوزى الرسول، وقرأ التقليد بالدهليز السلطانى، والسلطان قائم على قدميه، حتى فرغ من القراءة، ثم ركب السلطان بالتشريف الخليفتى، فكان يوما مشهودا. وكان قد حضر أيضا من عند الخليفة تشريف باسم الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ، فوجد أنه قد مات؛ فأمر السلطان أن يفاض على أخيه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، فلبسه.

فلما بلغ الخوارزمية مسير السلطان من مصر، ومسير الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص بعساكر حلب، رحلوا عن دمشق يريدون لقاء المنصور. فوجد أهل دمشق برحيلهم فرجا، ووصلت إليهم الميرة، وانحل السعر.

* * *



سنة أربع وأربعين وستمائة[1]

فيها أرسل الملك الصالح نجم الدين أيوب القاضى نجم الدين محمد بن سالم النابلسى، المعروف بابن قاضى نابلس - وكان متقدما عنده - إلى مملوكه الأمير ركن الدين بيبرس، فما زال يخدعه ويمنيه، حتى فارق الخوارزمية؛ وقدم معه إلى ديار مصر، فاعتقل بقلعة الجبل، وكان آخر العهد به.

وفيها عظمت مضرة الخوارزمية ببلاد الشام، وكثر نهبهم للبلاد، وسفكهم للدماء وانتهاكهم للحرمات، والتقوا مع الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وعساكر حلب، وقد انضم إليهم عرب كثير وتركمان، نصرة للملك الصالح نجم الدين، وذلك بظاهر حمص أول يوم من المحرم، وقيل ثانيه فكانت بينهم وقعة عظيمة انهزم فيها الخوارزمية هزيمة قبيحة، تبدد منها شملهم، ولم يقم لهم بعدها قائمة وقتل مقدمهم بركة خان وهو سكران، وأسر كثير منهم واتصل من فر منهم بالتتار، وفيهم من مضى إلى البلقاء، وخدم الملك الناصر داود صاحب الكرك، فتزوج الناصر منهم، واختص بهم، وقويت شوكته وسار بعضهم إلى نابلس، فاستولوا عليها، ووصل بعض من كان معهم ممن انهزم إلى حران، ولحق أيبك المعظمى بقلعة صرخد، وامتنع بها، وسار الصالح إسماعيل إلى حلب فى عدة من الخوارزمية، فأنزله الملك الناصر صاحب حلب وأكرمه، وقبض على من قدم معه من الخوارزمية ووردت البشرى بهذه الهزيمة إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى المحرم، فزينت القاهرة ومصر والقلعتان.

وسار الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى من دمشق، واستولى على بعلبك بغير حرب فى رجب، وحمل منها الملك المنصور نور الدين محمود بن الملك الصالح إسماعيل، وأخذه الملك السعيد عبد الملك إلى الديار المصرية تحت الاحتياط، فاعتقلوا وزينت القاهرة لفتح بعلبك زينة عظيمة، هى ومصر، وكان أخذ بعلبك عند السلطان أحسن موقعا من أخذه لدمشق، حنقا منه على عمه الصالح إسماعيل، وانصلحت الحال بين السلطان وبين المنصور صاحب حمص والناصر صاحب حلب، واتفقت الكلمة وبعث السلطان إلى حلب يطلب تسليم الصالح إسماعيل، فلم يجب إلى تسليمه وأخرج السلطان عسكرا كبيرا، قدَّم عليه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وسيره

---

(١) سنة ٦٤٤ هـ. انظر احداث السنة فى النجوم الزاهرة ٣١٥ ، ٣١٧/ ٦ تاريخ ابن الوردى ٢٥٣/ ٢.

لمحاربة الكرك، فسار إلى غزة، وأوقع بالخوارزمية، ومعهم الناصر داود صاحب الكرك فى ناحية الصلت، وكسرهم وبدد شمالهم، وفر الناصر إلى الكرك فى عدة.

وكانت الكسرة على الصلت فى سابع عشرى ربيع الآخر، وسار فخر الدين عنها بعد ما حرقها واحتاط على سائر بلاد الناصر، وولى عليها النواب ونازل فخر الدين الكرك، وخرب ما حولها، واستولى على البلقاء، وأضعف الناصر حتى سأله الأمان، فبعث فخر الدين يطلب منه من عنده من الخوارزمية، فسيرهم الناصر إليه، فسار عن الكرك وهم فى خدمته ثم نازل فخر الدين بصرى، حتى أشرف على أخذها، فنزل به مرض أشفى منه على الموت وحمل فى محفة إلى القاهرة، وبقى العسكر حتى استولوا عليها، وقدم المنصور إبراهيم صاحب حمص إلى دمشق منتميا إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فنزل به مرض مات به فى صفر، فحزن عليه السلطان حزنا كثيرا؛ لأنه كان يتوقع وصوله إليه فقام من بعده بحمص ابنه الأشرف مظفر الدين موسى.

وفيها تسلم الملك الصالح نجم الدين عجلون، بوصية صاحبها سيف الدين بن قلج عند موته.

وفيها سير الصاحب جمال الدين أبو الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح إلى دمشق وزيرا وأميرا، وأنعم عليه بسبعين فارسا بدمشق، وصرف الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى عن نيابة دمشق، وولى مكانه الأمير مجاهد الدين إبراهيم، وأقر الطواشى شهاب الدين بالقلعة على حاله، فلما دخل ابن مطروح إلى دمشق خرج منها الأمير حسام الدين، وسار إلى القاهرة، فلما قدم على السلطان، وهو بقلعة الجبل، أقره فى نيابة السلطنة بديار مصر، وأنزله بدار الوزارة من القاهرة.

وخرج السلطان بالعساكر فى شوال يريد دمشق من قلعة الجبل، واستناب بديار مصر الأمير حسام الدين بن أبى على، فدخل إلى دمشق فى سابع عشر ذى القعدة، وكان دخوله يوما مشهودا، فأحسن إلى الناس، وخلع على الأعيان، وتصدق على أهل المدارس والربط وأرباب البيوت بأربعين ألف درهم، وسار بعد خمسة عشر يوما إلى بعلبك، فرتب أحوالها، وأعطى لأهل المدارس والربط وأرباب البيوت عشرين ألف درهم، وسار إلى بصرى، وقد تسلمها نواب السلطان من الأمير شهاب الدين غازى، نائب الملك الصالح إسماعيل، فتصدق على مدارس بصرى وربطها وأرباب البيوت بعشرين ألف درهم وجهز السلطانالأمير ناصر الدين القيمرى، والصاحب[....][1]

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل.

الدين بن مطروح ، إلى صلخد - وبها الأمير عز الدين أيبك المعظمى، فمازالا بـه حتى سلم صلخد، وسار إلى مصر، وتصدق السلطان فى القدس بألفى دينار مصرية؛ وأمر بذرع سور القدس، فكان ذراعه ستة آلاف ذراع بالهاشمى، فأمر بصرف مغل القدس فى عمارته، وإن احتاج إلى زيادة حملت من مصر.

وفيها سار الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بعسكر إلى طبرية، فنازلها حتى أخذها من يد الفرنج، وهدم الحصون.

وفيها مات الملك العادل أبو بكر بن الكامل محمد خنقا، بقلعة الجبل. وقيل كان خنقه قبل هذه السنة، وقيل بل كان فى ستة خمس وأربعين، والقول الثانى أثبت. وسبب قتله أنه كان معتقلا فى برج العافية من قلعة الجبل، فلما عزم السلطان على المسير إلى الشام، بعث يأمره أن يتوجه إلى قلعة الشوبك ليعتقل بها، فامتنع من ذلك، فبعث السلطان إليه من خنقه، وأشاع أنه مات، ثم ظهر أمره وأخرج ابنه المغيث عمر إلى الشوبك، فاعتقل بها، ولما مات العادل دفن خارج باب النصر، و لم يجسر أحد يبكى عليه ولا يذكره، وترك العادل ولدا يقال له الملك المغيث عمر ، أنزل إلى القـهرة عند عماته، ثم أخرج إلى الشوبك. وكان عمر العادل يوم مات نحو ثلاثين سنة، وأقام مسجونا نحو ثمانى سنين.

وفيها وقع الاختلاف بين الفرنج.

* * *

سنة خمس وأربعين وستمائة(١)

فيها عاد السلطان الملك الصالح من دمشق إلى ديار مصر، بعد ما أخذ عسقلان وخربها فى جمادى الآخرة، و بعد أن تسلم أيضا قلعة بارزين من عمل حماة، فى رمضان، وفى عوده إلى مصر عرض له - وهو بالرمل - وجع فى حلقه، أشفى منه على الموت، ثم عوفى ودخل إلى قلعته سالما، وزينت البلدان والقلعتان فرحًا به وكتب السلطان إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن يسير من بلاد الفرنج بالساحل إلى دمشق، فسار إليهما بمن معه من العسكر،، وأنعم على من بها من الأمراء وغيرهم، وخلع عليهم، وأخذت عسقلان، يوم الخميس ثانى عشر جمادى الآخرة بعساكر السلطان.

وفيها تسلم نواب السلطان قلعة الصبيبة وحضر إلى حلب من حماة الطواشى شجاع الدين مرشد المنصورى، والأمير مجاهد الدين أمير جاندار، لإحضار سيدة الخواتين عصمة الدنيا والدين عائشة خاتون، ابنة الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب فسارت ومعها أمها الستر الرفيع فاطمة خاتون، ابنة الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، فى رمضان - وهى فى تجمل زائد، ومحفتها ملبسة ثوب حرير بذهب مكلل بالجواهر فتلقاها زوجها الملك المنصور صاحب حماة.

وفيها حكر الناس البستان الكافورى بالقاهرة، وعمروا فيه الدور.

وفيها قبض على الأمير عز الدين أيبك المعظمى بدمشق، وحمل إلى القاهرة تحت الحوطة، فاعتقل بها فى دار صواب ورافعه ولده أن الذى حمله من صلخد، كان مبلغ ثمانين خرجا أودعها، فلما بلغه ذلك سقط إلى الأرض، وقال: هذا آخر العهد بالدنيا، و لم يتكلم بعدها حتى مات.

وفيها سار السلطان من قلعة الجبل، ونزل بقصره فى أشموم طناح.

وفيها خنق الملك العادل أبو بكر بن محمد الكامل، فى ثانى عشر شوال.

* * *

(١) سنة ٦٤٥ هـ. انظر أحداث السنة فى النجوم الزاهرة ٣١٨/ ٦ تاريخ ابن الوردى ٢/٢٥٤.

سنة ستة وأربعين وستمائة

فيها كتب السلطان من أشموم طناح[1] إلى نائبه بديار مصر الأمير حسام الدين بن أبى على، أن يرحل بالحلقة السلطانية والدهليز السلطانى إلى دمشق؛ وأقام السلطان بدله فى نيابة السلطنة بالقاهرة الأمير الجواد جمال الدين، وأبا الفتح موسى بن يغمور بن جلدك. فسار الأمير حسام الدين، ونزل بالقصور التى أنشأها [السلطان الملك الصالح أيوب[2]، وجعلها مدينة بالسانح فى أول الرمل، وجعل فيها سوقا جامعا؛ ليكون مركز العساكر عند خروجهم من الرمل، وسماها الصالحية. وأقام حسام الدين بالصالحية مقام السلطان، وطال مقامه بها نحو أربعة أشهر، ثم سار ليدرك الملك الأشرف صاحب حمص، فإن الأخبار وردت بمسير عساكر حلب مع الأمير شمس الدين لؤلؤ الأسيفى، والملك الصالح إسماعيل[3]؛ لأخذ حمص. فلم يدركه حسام الدين، وسلم الأشرفُ حمص، وصارت للناصر صاحب حلب، وتعوض الأشرفُ عن حمص تل باشر[4].

---

(1) بلد بمصر قرب دمياط وهى مدينة الدقهلية. انظر معجم البلدان ٣٨٢/١.

(2) أيوب (الملك الصالح) بن محمد (الملك الكامل) بن أبى بكر (العادل) بن أيوب، أبو الفتوح نجم الدين: من كبار الملوك الأيوبيين بمصر. ولد ونشأ بالقاهرة. وولى بعد خلع أخيه (العادل) سنة ٦٣٧هـ. وضبط الدولة بحزم وكان شجاعا مهيبا عفيفا صموتا، عمر بمصر ما لم يعمره أحد من ملوك بنى أيوب وفى أواخر أيامه أغار الإفرنج على دمياط (سنة ٦٤٧هـ) واحتلوها وأصاب البلاد ضيق شديد، وكان الصالح غائبا فى دمشق، فقدم ونزل أمام الفرنج وهو مريض بالسل فمات بناحية المنصورة، ونقل إلى القاهرة. من آثاره قلعة الروضة بالقاهرة. انظر خطط المقريزى ٢: ٢٣٦، وابن إياس ١: ٨٣، تاريخ الإسحاقى ١٨٩، مرآة الزمان ٨: ٧٧٥.

(3) إسماعيل (الصالح، عماد الدين أبو الخيس) بن محمد بن أبو بكر (العادل) بن أيوب: من ملوك الدولة الأيوبية. قالوا فى وصفه: كان ملكا شهما محسنا لحاشيته، كثير التجمل. تسلطن بدمشق (٦٣٥هـ) بعد وفاة صاحبها (أخيه) الأشرف. وجاءه الملك الكامل فأخذها منه بعد حصار. ورحل إسماعيل إلى بعلبك، ثم هاجم دمشق وملكها (فى صفر ٦٣٧هـ) وأحرم (٦٣٨هـ) بتسليمه قلعة الشقيف للفرنج. قال الذهبى: لغرض فى نفسه ... فمقته المسلمون. وأخرجته «الخوارزمية» من دمشق (٦٤٣هـ) ثم صالحهم ووالوه. وانتهى أمره بالخروج لاجئا إلى حلب (٦٤٤) وفيها الناصر ابن أخيه. وبينما هو فى رحلة معه إلى دمشق أسره بعض رجال صاحب مصر وقتلوه. انظر اختصار القدح المعلى ١٣٨ ودليل ١: ٢٧١ - ٢٧٢ والأحمدية ٦٢ والمشرق ٣٢: ٣٠٥ والأعلام ٣٢٤/١.

(4) أطلق هذا الاسم على قلعة حصينة وكورة واسعة أيضا فى شمالى حلب. انظر: معجم البلدان ٧٦٤/١.

فلما بلغ السلطان ذلك عاد من أشموم طناح إلى القاهرة، وخرج منها إلى عسكره بالصالحية، وسار فى محفة لما به من المرض، بسبب ورم مأبضه[١] وكان قد اشتدّ به حتى حصل منه ناصور. وحدث قرحة فى الصدر؛ إلا أن همته كانت قوية، فلم يُلْقِ نفسه وسار السلطان إلى دمشق، ونزل بقلعتها.

وبعث السلطان بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، ومعه الأمراء والعساكر، وفيهم الأمير ابن أبى على الهذبانى، إلى حمص، فنازلها ورمى عليها بمنجنيق زنة حجره مائة وأربعون رطلا، ومعه ثلاثة عشر منجنيقا آخر، وسخر الناس فى حمل هذه المجانيق من دمشق، حتى كان يحمل كل عود ثمنه نحو عشرين درهما بألف درهم، فإن الوقت كان شتاء صعبا. وألح الأمير فخر الدين فى الحصار إلى أن قدم من بغداد الشيخ نجم الدين البادرائى، رسولا من الخليفة المستعصم بالله[٢]، بالصلح بين الحلبيين وبين السلطان، فتقرر الصلح، ورحل العساكر عن حمص، بعدما أشرف على أخذها.

وقدم من حلب الشيخ شمس الدين الخُسْرُوشاهى، فسأل السلطان على لسان الملك الناصر داود[٣] صاحب الكرك، أن يسلم الكرك إلى السلطان، ويعتاض عنها بالشوبك، فأجيب الناصر داود إلى ذلك، وتوجه من يتسلم منه الكرك، ثم رجع الناصر عن ذلك، لما بلغه من شدة مرض السلطان، وتحرك الفرنج لأخذ ديار مصر فخرج السلطان من

---

(١) والمأبض: كل ما يثبت عليه فخذك؛ وقيل: المأبضان ما تحت الفخذين فى مثانى أسافلهما؛ وقيل: المأبضان باطنا الركبتين والمرفقين. التهذيب: ومأبضا الساقين ما بطن من الركبتين، وهما فى يدى البعير باطنا المرفقين. الجوهرى: المأبض باطن الركبة من كل شيء، والجمع مآبض. انظر (محيط المحيط) مادة أبض، ولسان العرب ٨ مادة (أبض).

(٢) عبد الله (المستعصم) بن منصور (المستنصر) بن محمد (الظاهر) بن أحمد (الناصر) من سلالة هارون الرشيد العباسى، وكنيته أبو أحمد: آخر خلفاء الدولة العباسية فى العراق. ولد ببغداد، وولى الخلافة بعد وفاة أبيه (سنة ٦٤٠هـ). وكانت مدة خلافته ١٥ سنة و٨ أشهر وأيام. وبموته انقرضت دولة بنى العباس فى العراق. انظر ابن خلدون ٥٣٦/٣. وتاريخ الخميس ٢/ ٣٧٢ وفوات الوفيات ٢٣٧/١ والنجوم الزاهرة ٦٣/٧ والأعلام ١٤٠/٤.

(٣) داود بن الملك المعظم عيسى بن محمد بن أيوب، الملك الناصر صلاح الدين: صاحب الكرك، وأحد الشعراء الأدباء. ولد ونشأ فى دمشق. وملكها بعد أبيه (سنة ٦٢٦هـ) وأخذها منه عمه الأشرف، فتحول إلى «الكرك» فملكها إحدى عشرة سنة، ثم استخلف عليها ابنه عيسى (سنة ٦٤٧هـ) فانتزعها منه الصالح (أيوب بن عيسى) فى هذه السنة، فرحل الناصر مشردا فى البلاد، وحبس بقلعة حمص ثلاث سنوات، ثم أقام فى حلة بنى مؤيد، وتوفى بقرية البويضاء بالطاعون. انظر صبح الأعشى ١٧٥/٤ وفوات الوفيات ١/ ١٥٦ والوفيات ١/ ٣٩٧. والنجوم الزاهرة ٧/ ٥٣٤. وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٥ والفهرس التمهيدى ٢٨٤ والأعلام ٢/ ٣٣٤.

دمشق فى محفة، وسار إلى الغور، وقدم الأمير حسام الدين بن أبى على إلى القاهرة، لينوب عنه بها، واستُدعى بالأمير جمال الدين بن يغمور من القاهرة لينوب بدمشق؛ وعُزل الصاحب جمال الدين بن مطروح عن دمشق، وعزل الطواشى شهاب الدين رشيد عن قلعة دمشق، وفوّض ما كان بيدهما للأمير جمال الدين بن يغمور.

وفيها احترق المشهد الحسينى بالقاهرة، واحترقت المنارة الشرقية بجامع دمشق. وفيها مات قاضى القضاة أفضل الدين الخونجى، فى شهر رمضان، فولى من بعده ابنه قاضى القضاة جمال الدين يحيى.

وفيها مات الملك المظفر شهاب الدين غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب[١]، صاحب الرها؛ وقام من بعده ابنه الكامل محمد فى سلطنة الرها وميافارقين.

وفيها عزل الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول [٢] صاحب اليمن الأمير فخر الدين بن الشلاح عن مكة وأعمالها، وولى عوضه محمد بن أحمد بن المسيب، على مال يقوم به، وقَوْد عدده مائة فرس كل سنة فقدم ابن المسيب مكة، وخرج الأمير فخر الدين فسار بنفسه ابن المسيب، وأعاد الجبايات والمكوس بمكة، وأخذ الصدقة الواردة من اليمن، [.......][٣] عن مال السلطان وبنى حصنا بنخلة يسمى العطشان وحلّف هذيلا[٤] لنفسه، ومنع الجند النفقة فوثب عليه الشريف أبو سعد بن على بن قتادة، وقيّده وأخذ ماله، وقال لأهل الحرم: «إنما فعلت به هذا لأنى تحققت أنه يريد الفرار بالمال إلى العراق، وأنا غلام مولانا السلطان والمال عندى محفوظ

---

(١) غازى (المظفر) بن أبى بكر (العادل) ابن أيوب: صاحب ميافارقين وخلاط والرها وإربل من ملوك الدولة الأيوبية. كان فارسًا مهيبًا جوّادًا، كنيته: شهاب الدين. له أخبار مع أخيه الملك الأشرف موسى، وغيره. انظر الرحلة العباسية ٣٤٤/١ وشذرات الذهب ٢٣٣/٥ ومرآة الزمان ٧٦٨/٨ - ٧٧٠، والنجوم الزاهرة ٢٥٥/٦ -٢٥٧ والأعلام ١٢/٥.

(٢) عمر بن على بن رسول (واسمه محمد) بن هارون بن أبى الفتح الغسانى التركمانى نور الدين، الملقب بالملك المنصور: مؤسس الدولة الرسولية فى اليمن. ولد بمصر، وأحسن الاتصال ببنى أيوب: ولما دخل الأيوبيون اليمن كان الرسولى مع أحدهم الملك المسعود بن الملك الكامل، فقلده المسعود أعمالا كثيرة ظهرت كفاءته، ولما توجه إلى مصر جعله نائبا عنه فى اليمن. ثم لما سار المسعود إلى مكة وتوفى فيها (سنة ٦٢٦ هـ) استولى الرسولى على اليمن وأظهر النيابة عن الأيوبيين إلى أن أعد جيشا ضخما حارب به عساكرهم واستقل بالملك، وتلقب بالملك المنصور. انظر العقود اللؤلؤية ٤٣/١ - ٨٨، وبغية المستفيد، والذهب المسبوك ٣٩، والأعلام ٥/ ٥٦.

(٣) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

(٤) كانت هذيل هذه قبيلة صغيرة، مساكنها شرقى مكة. انظر العقود اللؤلؤية ٦٤/٣.

والخيل والعدد، إلى أن يصل مرسومه» فلم يكن غـير أيـام، وورد الخـبر بمـوت السـلطان نور الدين عمر بن رسول.

* * *

سنة سبع وأربعين وستمائة

فيها قدم السلطان من دمشق، وهو مريض فى محفة، لما بلغه من حركة الفرنج. فنزل بأشموم طنّاح فى المحرم، وجمع فى دمياط من الأقوات والأسلحة شيئا كثيرا، وبعث إلى الأمير حسام الدين بن أبى على نائبه بالقاهرة، أن يجهز الشوانى من صناعة مصر؛ فشرع فى تجهيزها، وسيرها شيئا بعد شىء. وأمر السلطان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن ينزل على جيزة دمياط بالعساكر؛ ليصير فى مقابلة الفرنج إذا قدموا فتحول الأمير فخر الدين بالعساكر، فنزل بالجيزة تجاه دمياط، وصار النيل بينه وبينها، ولم يقدر السلطان على الحركة لمرضه، ونودى فى مصر: «من كان له على السلطان أو عنده له شىء، فليحضر ليأخذ حقه»، فطلع الناس وأخذوا ما كان لهم.

وفى الساعة الثانية من يوم الجمعة لتسع بقين من صفر: وصلت مراكب الفرنج البحرية، وفيها جموعهم العظيمة صحبة ريدَافْرنس - ويقال له الفرنسيس، واسمه لُوَيْس ابن لُوَيْس. وريدَافْرنس لقب بلغة الفرنج، معناه ملك أَفْرنس - وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله، فأرسوا فى البحر بإزاء المسلمين. وسير ملك الفرنج إلى السلطان كتابا، نصه بعد كلمة كفرهم: «أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية. وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجل ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لى بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان، ما ردنى ذلك عن الوصول إليك، وقتلك فى أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لى، فيا هدية حصلت فى يدى، وإن كانت البلاد لك والغلبة علىّ، فيدك العليا ممتدة إلىّ. وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء».

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرئ عليه، اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع. فكتب الجواب بخط القاضى بهاء الدين زهير بن محمد، كاتب الإنشاء، ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين: «أما بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرباب السيوف،

وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه. فلو رأت عيناك - أيها المغرور - حد سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولابد أن تزل بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك. فهنالك تسىء بك الظنون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. فإذا قرأت كتابى هذا، فكن فيه على أول سورة النحل: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ وكن على آخر سورة ص: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[1]. ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2]، وإلى قول الحكماء: «إن الباغى له مصرع» وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك، والسلام».

وفى يوم السبت: نزل الفرنج فى البر الذى عسكر المسلمين فيه، وضُربت للملك ريْدافرنس خيمة حمراء. فناوشهم المسلمون الحرب، واستشهد يومئذ الأمير نجم الدين ابن شيخ الإسلام - وكان رجلا صالحا، ورتبه الملك داود مع الملك الصالح نجم الدين لما سجن بالكرك، لمؤانسته، وممن استشهد أيضا الأمير صارم الدين إزبك الوزيرى. فلما أمسى الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بمن معه من عساكر المسلمين، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى، الذى فيه مدينة دمياط. وخلا البر الغربى للفرنج، وسار فخر الدين بالعسكر يريد أشموم طناح.

فلما رأى أهل دمياط رحيل العسكر، خرجوا كأنما يسحبون على وجوههم طول الليل، ولم يبق بالمدينة أحد ألبتة، وصارت دمياط فارغة من الناس جملة. وفروا إلى أشموم مع العسكر، وهم حفاة عراة جياع فقراء، حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء، وساروا إلى القاهرة، فنهبهم الناس فى الطريق، ولم يبق لهم ما يعيشون به فعُدَّت هذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به. وقد كانت دمياط فى أيام الملك الكامل، لما نازلها الفرنج، أقل ذخائر وعددا منها فى هذه النوبة، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، عندما فنى أهلها بالوباء والجوع، وكان فيها هذه المرة أيضا جماعة من شجعان بنى كنانة، فلم يغن ذلك شيئا.

وأصبح الفرنج يوم الأحد، لسبع بقين من صفر، سائرين إلى مدينة دمياط. فعندما رأوا أبوابها مفتحة ولا أحدَ يحميها، خشوا أن تكون مكيدة، فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها. فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار، واستولوا على ما

(١) سورة ص آية ٨٨.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩.

فيها من الآلات الحربية، والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة، والأقوات والأزواد والذخائر، والأموال والأمتعة وغير ذلك، صفوا عفوًا.

وبلغ ذلك أهل القاهرة ومصر، فانزعج الناس انزعاجا عظيما، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر. لتملك الفرنج مدينة دمياط، وهزيمة العساكر، وقوّة الفرنج بما صار إليهم من الأموال والأزواد والأسلحة، والحصن الجليل الذى لا يُقدر على أخذه بقوّة، مع شدة مرض السلطان، وعدم حركته.

وعندما وصلت العساكر إلى أشموم طناح، ومعهم أهل دمياط، اشتدّ حنق السلطان على الكنانيين، وأمر بشنقهم، فقالوا: «وما ذنبنا إذا كانت عساكره جميعهم وأمراؤه هربوا، وأحرقوا الزردخاناه، فأى شيء نعمل نحن؟» فشنقوا لكونهم خرجوا من المدينة بغير إذن، حتى تسلمها الفرنج، فكانت عدّة من شنق زيادة على خمسين أميرا من الكنانيين. وكان فيهم أمير حَشِيم، وله ابن جميل الصورة. فقال أبوه: «با لله اشنقونى قبل ابنى». فقال السلطان: «لا! بل اشنقوه قبل أبيه». فشنق الابن، ثم شنق الأب من بعده، بعد أن استفتى السلطان الفقهاء فأفتوا بقتلهم.

وتغير السلطان على الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وقال: «أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج؟ هذا وما قتل منكم إلا هذا الضيف الشيخ نجم الدين». وكان الوقت لا يسع إلا الصبر والتغاضى، وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين، فخاف كثير من الأمراء وغيرهم سطوة السلطان، وهموا بقتله، فأشار عليهم فخر الدين بالصبر، حتى يتبين أمر السلطان: «فإنه على خُطّة، وإن مات كانت الراحة منه، وإلا فهو بين أيديكم».

ولما وقع ما ذكر السلطان بالرحيل إلى المنصورة، وحمل فى حراقة حتى أنزل بقصر المنصورة على بحر النيل فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر، فشرع كل أحد من العسكر فى تجديد الأبنية للسكنى بالمنصورة، ونصبت [...[1]...] بالأسواق، وأبراج السور الذى على البحر وستر بالستائر. وقدمت الشوانى المصرية بالعدد الكاملة والرجالة، وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد، من كل النواحى، ووصلت عربان كثيرة جدا، وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم. وحصن الفرنج أسوار دمياط، وشحنوها بالمقاتلة.

فلما كان يوم الإثنين سلخ شهر ربيع الأوّل: وصل إلى القاهرة من أسرى الفرنج

---

(١) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

الذين تخطفهم العرب ستة وثلاثون أسيرا، منهم فارسان، وفى خامس شهر ربيع الآخر وصل سبعة وثلاثون أسيرا، وفى سابعه وصل اثنان وعشرون أسيرا، وفى سادس عشره وصل خمسة وأربعون أسيرا، منهم ثلاثة من الخيالة. ولما بلغ أهل دمشق أخذ الفرنج لمدينة دمياط ساروا منها، وأخذوا صيداء من الفرنج، بعد حصار وقتال فورد الخبر بذلك لخمس بقين من شهر ربيع الآخر، فسر الناس بذلك.

هذا والأسرى من الفرنج تصل فى كل قليل إلى القاهرة، ووصل فى ثامن عشر جمادى الأولى خمسون أسيرا. ومع ذلك والمرض يتزايد بالسلطان، وقواه تنحط، حتى وقع بأمر الأطباء من برئه وعافيته، لاجتماع مرضين عظيمين، هما الجراحة الناصورية فى مأبضه والسل.

وأما الناصر داود صاحب الكرك، فإنه لما ضاقت به الأمور استخلف ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى، وأخذ معه جواهره، وسار فى البر إلى حلب مستجيرا بالملك الناصر يوسف بن الملك العزيز فأنزله وأكرمه وسيَّر الناصرُ بجواهره إلى الخليفة المستعصم بالله؛ لتكون عنده وديعة، فقبض الخليفة ذلك، وسير إليه الخط بقبضه وأراد الناصر بذلك أن يكون الجوهر فى مأمن، فإذا احتاج إليه طلبه، وكانت قيمته ماينيف على مائة ألف دينار. فحنق ولدا الناصر - وهما الملك الظاهر شادى والملك الأمجد حسن[1] - على أبيهما، لكونه قدم عليهما المعظم، وقبضا على المعظم، واستوليا على الكرك، وأقام الملك - الظاهر شادى وهو أسن إخوته - بالكرك، وسار الملك الأمجد حسن إلى الملك الصالح نجم الدين، فوصل إلى المعسكر بالمنصورة، يوم السبت لتسع مضين من جمادى الآخرة، وبشَّره بأنه هو وأخوه الظاهر أخذا الكرك له، وسأله فى خبز بديار مصر يقوم بهما. فأكرمه السلطان، وأعطاه مالا كثيرا، وسير الطواشى بدر الدين الصوابى إلى الكرك نائبا بها وبالشوبك، فتسلمها بدر الدين، وسير أولاد الناصر داود جميعهم، وأخويه الملك القاهر عبد الملك، والملك المغيث [عبد العزيز] [2]،

---

(١) الحسن بن داود الناصر بن الملك المعظم عيسى. من بنى أيوب، أبو محمد، مجد الدين، الملقب بالملك الأمجد: صاحب الكرك، من أمراء الدولة الأيوبية. كان من الفضلاء له معرفة جيدة بالأدب ومشاركة فى كثير من العلوم. انظر النجوم الزاهرة ٧/ ٢٣٦، ٢٣٨ وترويح القلوب ٧٦ ودار الكتب ٣/ ٢٧٤ والأعلام ٢/ ١٩٠.

(٢) عبد العزيز (المغيث شهاب الدين) بن عيسى بن العادل بن الكامل: من أمراء الدولة الأيوبية كان صاحب الكرك والشوبك. وتحيل عليه الملك الظاهر حتى دخل الشام (٦٦١هـ) حتى نزل إليه فكان آخر العهد به. انظر العبد ٥/ ٢٠١، ٢٢١، ٢٦٣ وشذرات الذهب ٥/ ٣٠٥ وفى الذيل على الروضتين ١٦١ النجوم ٧/ ٢٧٨ والأعلام ٤/ ٢٤.

ونساءهم وعيالاتهم كلها. إلى المعسكر بالمنصورة، فأقطعهم السلطان إقطاعا جليلا، ورتب لهم الرواتب، وأنزل أولاد الناصر فى الجانب الغربى قبالة المنصورة.

وكان استيلاء نائب السلطان على الكرك يوم الإثنين، لاثنتى عشرة بقيت من جمادى الآخرة؛ وسر السلطان بأخذ الكرك سرورا عظيما، وأمر فزينت القاهرة ومصر، وضربت البشائر بالقلعتين، وجهز السلطان إلى الكرك ألف ألف دينار مصرية، وجواهر وذخائر وأسلحة، وشيئا كثيرا مما يعز عليه.

وفى ثالث عشر شهر رجب: وصل إلى القاهرة سبعة وأربعون أسيرا من الفرنج، وأحد عشر فارسا منهم؛ وظفر المسلمون بعد أيام بمُسَطَّح (١) للفرنج فى البحر، فيه مقاتلة، بالقرب من نَسْتَرَاوَة (٢).

فلما كان ليلة الإثنين نصف شعبان: مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة، وهو فى مقابلة الفرنج، عن أربع وأربعين سنة، بعدما عهد لولده الملك المعظم تورانشاه، وحلّف له فخر الدين بن الشيخ ومحسن الطواشى، ومن يثق به، وبعدما علّم قبل موته عشرة آلاف علامة. يستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته، حتى يقدم ابنه تورانشاه من حصن كيفا وكانت أم السلطان الملك الصالح أم ولد، اسمها ورد المنى. وكانت مدة ملكه بمصر عشر سنين إلا خمسين يوما، فغسله أحد الحكماء الذين تولوا علاجه، لكى يخفى موته. وحمل فى تابوت إلى قلعة الروضة، وأخفى موته، فلم يشتهر إلى ثانى عشرى رمضان، ثم نقل بعد ذلك بمدة إلى تربته بجوار المدارس الصالحية بالقاهرة.

والملك الصالح هو الذى أنشأ المماليك البحرية بديار مصر: وذلك أنه لما مر به ما تقدم ذكره، فى الليلة التى زال عنه ملكه، بتفرق الأكراد وغيرهم من العسكر عنه حتى لم يثبت معه سوى مماليكه، رعى لهم ذلك. فلما استولى على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك وجعلهم معظم عسكره، وقبض على الأمراء الذين كانوا عند أبيه وأخيه، واعتقلهم وقطع أخبازهم؛ وأعطى مماليكه الإمريات، فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه، وسماهم بالبحرية لسكناهم معه فى قلعة الروضة على بحر النيل.

---

(١) على هامش ط: نوع من السفن، جمعه مسطحات، والغالب أنه سمى بذلك لأنه كان له سطح.

(٢) على هامش ط: وتسمى أيضا نسترو، وكانت تطلق فى تلك العصور على بلدة البرلس الحالية، وعلى بحيرة البرلس أيضا.

وكان ملكا شجاعا حازما مهيبا، لشدة سطوته وفخامة [......][1]، مع عزة النفس وعلو الهمة، وكثرة الحياء والعفة وطهارة الذيل عن الخنا، وصيانة اللسان من الفحش فى القول، والإعراض عن الهزل والعبث بالكلية، وشدة الوقار ولزوم الصمت، حتى إنه كان إذا خرج من عند حرمه إلى مماليكه، أخذتهم الرعدة عندما يشاهدونه - خوفا منه - ولا يبقى أحد منهم مع أحد. وكان إذا جلس مع ندمائه كان صامتا، لا يستفزه الطرب ولا يتحرك، وجلساؤه كأنما على رءوسهم الطير. وإذا تكلم مع أحد من خواصه، كان ما يقوله كلمات نزرة وهو فى غاية الوقار، وتلك الكلمات لا تكون إلا فى مهم عظيم، من استشارة أو تقدّم بأمر من الأمور المهمة، لا يعدو حديثه قط هذا النحو، ولا يجسر أحد يتكلم بين يديه إلا جوابا. وما عُرف أبدا عن أحد من خواصه أن تكلم فى مجلسه ابتداء ألبتة، ولا أنه جسر على شفاعة ولا مشورة ولا ذكر نصيحة، ما لم يكن ذلك بابتداء من السلطان، فإذا انفرد بنفسه لا يدنو منه أحد. وكانت القصص ترد إليه مع الخدام فيوقع عليها، ويخرج بها الخدام إلى كاتب الإنشاء، ولا يستقل أحد من أرباب الدولة بانفراد بأمر، بل يراجع القصص مع الخدام. ومع هذه الشهامة والمهابة لا يرفع بصره إلى من يحادثه؛ حياء منه وخفرا، ولم يُسمع منه قط فى حق أحد من خدمه لفظة فحش، وأكثر ما يقول إذا شتم أحدا: «متخلف»، ولا يزيد على هذه الكلمة، ولا عَرف قط من النكاح سوى زوجته وجواريه.

وكانت البلاد فى أيامه آمنة مطمئنة والطرق سابلة، إلا أنه كان عظيم الكبر زائد الترفع بلغ من كبره وترفعه أن ابنه الملك المغيث عمر[2]، لما حبسه الملك الصالح إسماعيل عنده، لم يسأله فيه ولا طلبه منه، حتى مات فى حبسه. وكان يحب جمع المال، بحيث أنه عاقب عليه أم أخيه الملك العادل، إلى أن أخذ منها مالا عظيما وجواهر نفيسة.

وقتَل السلطان الملك الصاح أيوب أخاه الملك العادل، ومن حين قتله ما انتفع بالحياة ولا تهنى بها: فنزل به المرض، وطرقه الفرنج، وقبض على جميع أمراء الدولة، وأخذ أموالهم وذخائرهم. ومات فى حبوسه ما ينيف على خمسة آلاف نفس، سوى من قتل وغرق من الأشرفية فى البحر ولم يكن له مع ذلك ميل إلى العلم ولا مطالعة الكتب، إلا أنه كان يجرى على أهل العلم والصلاح المعاليم والجرايات، من غير أن يخالطهم. ولم يخالط غيرهم. لمحبته فى العزلة ورغبته فى الانفراد، وملازمته للصمت ومداومته على الوقار والسكون.

---

(١) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

(٢) عمر (المغيث، حلال الدين بن أيوب الصالح) بن محمد (الكامل). كان نائب دمشق وتوفى بها. انظر ترويح القلوب ٨٣ وشذرات الذهب ٢١٥/٥ والأعلام ٤٢/٥.

وكان يحب العمارة ويباشر الأبنية بنفسه، وعمر بمصر ما لم يعمره أحد من ملوك بنى أيوب: فأنشأ قلعة الروضة تجاه مدينة فسطاط مصر، وأنفق فيها أموالا جمة، وهدم كنيسة كانت هناك لليعاقبة من النصارى، وأسكن بهذه القلعة ألف مملوك من الترك - وقيل ثمانمائة - سماهم البحرية وكان الماء حينئذ لا يحيط بها. فلم يزل يُغَرِّقُ السفن، ويرمى الحجارة فيما بين الجيزة والروضة، إلى أن صار الماء فى طول السنة محيطا الروضة وأقام جسرا من مصر إلى الروضة، يمرّ عليه الأمراء. وغيرهم إذا جاءوا إلى الخدمة، ولم يكن أحد يمرّ على هذا الجسر راكبا، احتراما للسلطان فجاءت هذه القلعة من أجل مبانى الملوك وبنى أيضا على النيل بناحية اللوق[1] قصورا بلغت الغاية فى الحسن، جعلها إلى جانب ميدانه الذى يلعب فيه بالكرة، وكان مغرم بلعبها وبنى قصرا عظيما فيما بين القاهرة ومصر، سماه الكبش، على الجبل بجوار جامع ابن طولون. وبنى قصرا بالقرب من العَلاَقِمَة [2] فى أرض السانح، وجعل حوله مدينة سماها الصالحية، فيها جامع وسوق، لتكون مركزا للعساكر بأول الرمل الذى بين الشام ومصر.

وكان له من الأولاد الملك المغيث فتح الدين عمر، وهو أكبر أولاده، مات فى سجن قلعة دمشق، والملك المعظم غياث الدين تورانشاه، وملك مصر بعده، والملك القاهر، ومات فى حياته أيضا وولد له أيضا من شجر الدر ولد سماه خليلا، مات صغيرا.

ولما طال مرضه من الجراحة الناصورية - وفسد مخرجه، وامتد الجرح إلى فخذه اليمين، وأكل جسمه - اجتهد فى مداواتها، وحدث له مرض السل من غير أن يفطن به. فورد كتابه إلى الأمير حسام الدين بن أبى على بالقاهرة: «إن الجراحة قد صلحت وجفت رطوباتها، ولم يبق إلا ركوبى ولعبى بالصولجة، فتأخذ حَظَّك من هذه البشرى». وفى الحقيقة لم تجف الجراحة إلا لفراغ المواد، وتزايد عليه بعد ذلك المرض حتى مات.

وقيل إنه لم يعهد إلى أحد بالملك، بل قال للأمير حسام الدين بن أبى على: «إذا مت لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله، ليرى فيها رأيه»؛ فإنه كان يعرف ما فى

---

(١) أطلق اسم ناحية اللوق فى الأصل - ومعنى اللوق الأرض اللينة - على الجهة التى انحسر عنها ماء النيل، من ساحل المقسى إلى منشأة المهرانى بالقاهرة. وعرفت تلك الناحية باسم باب اللوق. انظر خطط المقريزى ٢/١٣٧،١٣٨.

(٢) هى بليدة من دون بلبيس. انظر معجم البلدان ٢/٧١. والخطط التوفيقية ٤/٥٣، ٥٤، أن هذه البلدة كانت فى زمنه إحدى مراكز مديرية الشرقية.

ولده المعظم تورانشاه من الهوج فلما مات السلطان أحضرت زوجته شجرُ الدر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والطواشى جمال الدين محسن -وكان أقرب الناس إلى السلطان، وإليه القيام بأمر مماليكه وحاشيته - وأعلمتهما بموت السلطان، ووصتهما بكتمان موته؛ خوفا من الفرنج. وكان الأمير فخر الدين عاقلا مدبرا، خليقا بالملك، جوادا محبوبا إلى الناس، فاتفقا مع شجر الدر على القيام بتدبير المملكة، إلى أن يقدم الملك المعظم تورانشاه. فأحضرت شجر الدر الأمراء الذين بالمعسكر، وقالت لهم: «إن السلطان قد رسم بأن تحلفوا له، ولابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطانا بعده، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية وتدبير المملكة» فقالوا كلهم سمعا وطاعة؛ ظنا أن السلطان حى، وحَلفوا بأسرهم، وحلفوا سائر الأجناد والمماليك السلطانية.

وكُتب على لسان السلطان إلى الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى بالقاهرة، أن يحلّف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة، فحضر إلى دار الوزارة قاضى القضاء بدر الدين يوسف بن الحسن قاضى سنجار، والقاضى بهاء الدين زهير بن محمد[1] كاتب الإنشاء - وكان الملك الصالح قد أبعده لأمر نقمه عليه -، وحلّفا من حضر من الأعيان على ما تقدّم ذكره، وكان ذلك فى يوم الخميس ثامن عشر شعبان. واستدعى القاضى بهاء الدين زهير من القاهرة إلى المعسكر بالمنصورة.

وقام الأمير فخر الدين بتدبير المملكة، وأقطع البلاد مناشيره، وأعاد إليها زهيرا إلى منصبه فكانت الكتب ترد من المعسكر وعليها علامة[2] السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقيل إنها كانت بخط خادم يقال له سهيل، ولا يشك من رآه أنه خط السلطان ومشى هذا على الأمير حسام الدين نائب السلطنة مدة، إلى أن أوقفه بعض أصحابه على اضطراب فى العلامة، يخالف علامة السلطان ففحص عن خبر السلطان من بعض خواصه الذين بالمعسكر حتى عرف موته، فاشتد خوفه من الأمير فخر الدين، وخشى أن يتغلب على الملك، فاحتاط لنفسه.

---

(١) زهير بن محمد بن على المهلبى العتكى، بهاء الدين. شاعر، كان من الكتاب. ولد بمكة، ونشأ بقوص. واتصل بخدمة الملك الصالح أيوب (بمصر) فقربه وجعله من خواص كتابه، وظل حظيا عنده إلى أن مات الصالح، فانقطع زهير فى داره إلى أن توفى بمصر. انظر: وفيات الأعيان ١/١٩٤ والنجوم الزاهرة ٧/٦٢ وآداب اللغة ٣/١٨ وروض المناظر ١٢/ ١٤٥ والأعلام ٣/ ٥٢.

(٢) العلامة السلطانية هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة، وكانت صورة علامة الملك الصالح نجم الدين أيوب «أيوب بن محمد أبى بكر بن أيوب». انظر ابن واصل ٣٦٢.

وأخذ الأمير فخر الدين يطلق المسجونين، ويتصرف فى إطلاق الأموال والخلع على خواص الأمراء، وأطلق السكر والكتان إلى الشام فعلم الناس بموت السلطان من حينئذ، غير أن أحدا لا يجسر أن يتفوه به.

وسار من المعسكر الفارس أقْطَاى، وهو يومئذ رأس المماليك البحرية، لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا، وبعث الأمير حسام الدين محمد بن أبى على، نائب السلطنة بالقاهرة، من عنده قاصدا من قبله أيضا. فلما كان يوم الإثنين لثمان بقين من شعبان، أمر الأميرُ حسام الدين الخطباء بأن يدعوا يوم الجمعة للملك المعظم، بعد الدعاء لأبيه، وأن ينقش اسمه على السكة، بعد اسم أبيه وتوهم الأمير حسام الدين من الأمير فخر الدين أن يقيم الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل، ويستولى على الأمر، فنقله من عند عمات أبيه بنات الملك العادل أبى بكر بن أيوب، من القاهرة إلى قلعة الجبل، ووكل به من يحتاط عليه، ولا يسلمه لأحد.

هذا والمكاتبات ترد من الأمير فخر الدين، وعنوانها «من فخر الدين الخادم يوسف» فيجيب عنها الأمير حسام الدين، ويجعل العنوان «المملوك أبو على»، فيتجاملان فى ظاهر الأمر، وأما فى الباطن فإن الأمير فخر الدين أخذ فى الاستبداد والاستقلال بالمملكة، واختص بالصاحب جمال بن مطروح، وبالقاضى بهاء الدين زهير؛ وصار يركب فى موكب عظيم، وجميع الأمراء فى خدمته، ويترجلون له عند النزول ويحضرون سماطه.

ووصل قاصد الأمير حسام الدين إلى حصن كيفا، وطالع الملك المعظم بأن المصلحة فى السرعة، ومتى تأخر فات الفوت، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد، ثم وصل إليه بعد ذلك قُصَّادُ فخر الدين وشجر الدر. فخرج المعظم من حصن كيفا ليلة السبت لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان فى خمسين فارسا من ألزامه. وقص عانة[1] ليعدى الفرات، وقد أقام له بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل جماعة، وأقام له الحلبيون أيضا جماعة، يقبضون عليه فنجاه الله منهم وعدى الفرات من عانة، وسلك البرية، فخاطر بنفسه وكاد يهلك من العطش.

هذا وشجر الدر تدبر الأمور حتى لم يتغير شىء، وصار الدهليز السلطانى على حاله، والسماط فى كل يوم يمد، والأمراء تحضر الخدمة، وهى تقول: «السلطان مريض، ما يصل إليه أحد».

---

(١) بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد فى أعمال الجزيرة. انظر معجم البلدان ٧٢/٤.

وأما الفرنج فما هم إلا أن فهموا أن السلطان قد مات حتى خرجوا من دمياط، فارسهم وراجلهم، ونزلوا على فارسكور[١]، وشوانيهم فى بحر النيل تحاذيهم؛ ورحلوا من فارسكور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان فورد فى يوم الجمعة إلى القاهرة من المعسكر كتاب، فيه حضّ الناس على الجهاد، أوّله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾[٢] وكان كتابا بليغا فيه مواعظ جمة، فقرئ على الناس فوق منبر جامع القاهرة وحصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا يوصف. وارتجت القاهرة ومصر؛ لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير، فخرج من البلاد والنواحى لجهاد الفرنج عالم عظيم، وقد اشتدّ كرب الخلائق من تمكن الفرنج وقوّتهم وأَخْذِهم البلاد، مع موت السلطان.

فلما كان يوم الثلاثاء أوَّل يوم من شهر رمضان: واقع الفرنج المسلمين، فاستشهد العلامى أمير مجلس، وجماعة من الأجناد، وقتل من الفرنج عدّة ونزل الفرنج بشارمساح[٣].

وفى يوم الإثنين سابعه: نزلوا البَرَمُوْن، فاشتدّ الكرب وعظم الخطب، لدنوّهم وقربهم من المعسكر. وفى يوم الأحد ثالث عشره وصلوا إلى طرف بر دمياط، ونزلوا تجاه المنصورة، وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم. وكان معظم عسكر المسلمين فى المنصورة بالبر الشرقى، وفى البر الغربى أولاد الملك الناصر داود صاحب الكرك: وهم الملك الأمجد، والملك الناصر، والملك المعظم، والملك الأوحد، وفى عدّة من العسكر وكان أولاد الملك الناصر داود، الأكابر منهم والأصاغر الذين قدموا القاهرة، اثنى عشر ولدا ذكرا. وكان بالبر الغربى أيضًا أخو الملك الناصر داود: وهما الملك القاهر عبد الملك، والملك المغيث عبد العزيز، فاستقر الفرنج بمنزلتهم هذه، وخندقوا عليهم خندقا، وأداروا أسوارا وستروه بالستائر، ونصبوا المجانيق ليرموا بها على معسكر المسلمين، ونزلت شوانيهم بإزائهم فى بحر النيل، ووقفت شوانى المسلمين بإزاء المنصورة، ووقع القتال بين الفريقين برا وبحرا.

وفى يوم الأربعاء سادس عشره: قفز إلى عند المسلمين ستة خيالة، وأخبروا بضائقة الفرنج.

---

(١) من قرى مصر قرب دمياط من كورة الدقهلية. انظر معجم البلدان ٢٢٨/٤.

(٢) سورة التوبة آية ٤١.

(٣) قرية كبيرة بمصر، بينها وبين بورة أربعة فراسخ، وبينها وبين دمياط خمسة فراسخ من كورة الدقهلية. انظر معجم البلدان ٣٠٨/٣.

وفى يوم عيد الفطر: أسر كُنْدٌ كبير من الفرنج، له قرابة من الملك ريدافرنس. واستمر القتال، وما من يوم إلا ويقتل من الفرنج ويؤسر، وقد لقوا من عامة المسلمين وسواهم نكاية عظيمة، وتخطفوا منهم وقتلوا كثيرا وكانوا إذا شعروا بالفرنج ألقوا أنفسهم فى الماء، وسبحوا إلى أن يصيروا فى بر المسلمين. وكانوا يتحيلون فى خطفهم بكل حيلة حتى أن شخصا أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه، وغطس فى الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنوه بطيخة، فما هو إلا أن نزل أحدهم فى الماء ليتناولها إذ اختطفه المسلم، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين.

وفى يوم الأربعاء سابع شوال: أخذ المسلمون شينيا، فيه نحو مائتى رجل من الفرنج وكند كبير.

وفى يوم الخميس النصف منه: ركب الفرنج والمسلمون، فدخل المسلمون إليهم البر الذى هم فيه، وقاتلوهم قتالا شديدا، قتل فيه من الفرنج أربعون فارسا، وقتلت خيولهم.

وفى يوم الجمعة تاليه: وصل القاهرة سبعة وستون أسير من الفرنج، منهم ثلاثة من أكابر الداوية.

وفى يوم الخميس ثانى عشريه: أحرقت للفرنج مَرَمَّة عظيمة فى البحر، واستظهر عليهم استظهارا عظيما.

وما زال الأمر على ذلك إلى أن كان يوم الثلاثاء خامس ذى القعدة، دَلَّ بعض منافقى أهل الإسلام الفرنج على مخائض فى بحر أشمون، فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم فى المعسكر، وكان الأمير فخر الدين فى الحمام، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على العسكر؛ فخرج مدهوشا وركب فرسه فى غير اعتداد ولا تحفظ، وساق لينظر الخبر ويأمر الناس بالركوب، وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده فلقيه طُلْبُ الفرنج الداوية [١] وحملوا عليه، ففر من كان معه وتركوه وهو يدافع عن نفسه؛ فطعنه واحد برمح فى جنبه، واعتورته السيوف من كل ناحية. فمات رحمه الله ونزل الفرنج على جَدِيْلَة [٢]، وكانوا ألفا وأربعمائة فارس ومقدمهم أخو الملك ريدافرنس.

وما هو إلا أن قتل الأمير فخر الدين، وإذا بالفرنج اقتحموا على المنصورة فتفرق

---

(١) على هامش ط: كان ملك فرنسا قد رتب الجيوش على أن تكون فئة الداوية لطليعة وأن تليها الفرقة التى يقودها أخوه.

(٢) على هامش ط: هى تل مطل على الشاطئ الجنوبى لبحر أشموم.

الناس وانهزموا يمينًا وشمالا، وكانت الكسرة أن تكون، فإن الملك ريدافرنس وصل بنفسه إلى باب قصر السلطان إلا أن الله تدارك بلطفه، وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية، التى تعرف بالبحرية والجمدارية، وفيهم ركن الدين بيبرس البُنْدُقدَارِى الذى تسلطن بعد هذه الأيام فحملوا على الفرنج حملة زعزعوهم بها، وأزاحوهم عن باب القصر فلما ولوا أخذتهم السيوف والدبابيس، حتى قتل منهم فى هذه النوبة نحو ألف وخمسمائة من أعيانهم وشجعانهم. وكانت رجالة الفرنج قد أتوا الجسر ليعدوا منه، فلولا لطف الله لكان الأمر يتم لهم بتعديتهم الجسر. وكانت المعركة بين أزقة المنصورة، فانهزموا إلى حديلة منزلتهم، وقد حال بين الفريقين الليل، وأداروا عليهم سورا وخندقوا خندقا. وصارت منهم طائفة فى البر الشرقى، ومعظمهم فى الجزيرة المتصلة بدمياط فكانت هذه الواقعة أول ابتداء النصر على الفرنج.

وعندما هجم الفرنج على المعسكر سرح الطائر بذلك إلى القاهرة، فانزعج الناس انزعاجا عظيما، وقدم المنهزمون من السوقة والعسكر، فلم تغلق أبواب القاهرة فى ليلة الأربعاء لتوارد المنهزمين.

وفى صبيحة يوم الأربعاء: وقعت البطاقة تبشر بالنصرة على الفرنج، فزينت القاهرة وضربت البشائر بقلعة الجبل، وكثر فرح الناس وسرورهم وبقى العسكر يدبر أمره شجر الدر، فكانت مدّة تدبير الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، بعد موت الملك الصالح لمملَكة مصر خمسة وسبعين يوما، وفى يوم قتله نهب مماليكه وبعض الأمراء داره، وكسروا صناديقه وخزائنه، وأخذوا أمواله وخيوله وأحرقوا داره.

* * *

السلطان الملك المعظم غياث الدين تورانشاه

ابن الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ابن مروان، سار من حصن كيفا [١] إلى دمشق، لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان؛ فنزل عانة فى خمسين فارسا من أصحابه، يوم الخميس النصف من شهر رمضان سنة سبع وأربعين؛وخرج منها يوم الأحد يريد دمشق على طريق السَّمَاوَة[٢]

---

(١) هى بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. انظر معجم البلدان ٢/٢٦٥.

(٢) السماوة: مفازة بين الكوفة والشام، وقيل: بين الموصل والشام، وهى من أرض كلب، وكانت باسم ابن عمليق بن لاوذ بن ارم من العماليق صارت إلى أرض السماوة وهى بين العراق=

فى البرية فنزل القُصَيْر فى دهليز ضربه له الأمير جمال الدين موسى بن يغمور نائب دمشق يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر رمضان.

ودخل المعظم تورانشاه من الغد - وهو يوم السبت سلخه - إلى دمشق، ونزل بقلعتها، فكان يوما مشهودا وقام الأمير جمال الدين بخدمته، وحلف له الأمراء، وتسلطن فى يومئذ. وخلع المعظم على الأمراء وأعطاهم أموالا جزيلة، بحيث أنه أنفق ما كان فى قلعة دمشق، وهو ثلاثمائة ألف دينار. واستدعى من الكرك مالا آخر حتى أنفقه، وأفرج عمن كان بدمشق فى حبس أبيه، وأتته الرسل من حماة وحلب تهنئه بالقدوم.

ولأربع مضين من شوال: سقطت البطائق إلى العسكر والقاهرة، بوصول الملك المعظم إلى دمشق وسلطنته بها فضربت البشائر بالمعسكر وبالقاهرة.

وسار السلطان من دمشق يوم الأربعاء سابع عشريه يريد مصر، بعدما خلع على الأمير جمال الدين، وأقرّه على نيابة السلطنة بدمشق. وقدم معه القاضى الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى [(١)]، وكان مقيما بدمشق عند الأمير جمال الدين. وقدم معه أيضا هبة الله بن أبى الزهر بن حشيش الكاتب النصرانى وقد وعده السلطان بوزارة مصر، فأسلم وتلقب بالقاضى معين الدين. وسيره السلطان أول يوم من ذى القعدة إلى قلعة الكرك؛ ليحتاط على خزائنها، فأنهى أشغاله بها ولحقه فى الرمل، وأسلم على يده هناك.

وعندما تواترت الأخبار فى القاهرة بقدوم السلطان، خرج قاضى القضاة بدر الدين السنجارى، فلقيه بغزة وقدم معه وخرج الأمير حسام الدين بن أبى على نائب السلطان إلى الصالحية، فلقيه بها يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة، ونزل السلطان المعظم تورانشاه فى قصر أبيه، ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح نجم الدين أيوب ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته، بل كانت الأمور على حالها - والدهليز الصالحى والسماط ومجىء الأمراء للخدمة، على ما كان عليه الحال فى أيام حياته؛ وشجر الدر تدبر أمور الدولة كلها، وتقول: «السلطان مريض، ما إليه وصول» - فلم يتغير عليها شىء، إلى أن استقرّ الملك المعظم بالصالحية.

=والشام، فأهلكها الله تعالى بالريح السوداء لإفسادها فلم يبق بـه منهم باقية. انظر معجم البلدان ٣/١٣١، والروض المعطار ٣٢٢.

(١) هبة الله بن صاعد الفائزى، شرف الدين: من وزراء دولة المماليك البحرية بمصر. خدم «الفائز» إبراهيم بن أبى بكر، ونسب إليه وخدم بعده «الكامل» ثم ولده «الصالح». انظر ذيل مرآة الزمان ١/ ٨٣٥٨٠ والنجوم الزاهرة ٧/٥٨ والأعلام ٨/٧٢.

فتسلم السلطان المعظم مملكة مصر، وخلع على الأمير حسام الدين بن أبى على خلعة سنية، ومنطقة وسيفا فيهما ثلاثة آلاف دينار مصرية، وأنشده الشعراء عدّة تهانى، وجرت بين يديه مباحثات ومناظرات فى أنواع من العلوم وكان السلطان المعظم قد مهر فى العلوم، وعرف الخلاف والفقه والأصول، وكان جده الملك الكامل يحبه لميله إلى العلم، ويلقى عليه من صغره المسائل المشكلة، ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها فى مجلسه. ولازم المعظم الاشتغال إلى أن برع، إلا أنه فيه هوج وخفة، مع غرامه بمجالسة أهل العلم من الفقهاء والشعراء.

ثم إنه رحل من الصالحية ونزل تِلْبانة [١]، ثم نزل بعدها منزلة ثالثة، وسار منها إلى المنصورة. وقد تلقاه الأمراء المماليك، فنزل فى قصر أبيه وجده يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة. فأول ما بدأ أن أخذ مماليك الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الصغار، وكثيرا من مُخلَّفِه، بدون القيمة، ولم يعط ورثته شيئا، وكان ذلك بنحو الخمسة عشرة ألف دينار. وأخذ يسب فخر الدين ويقول: «أطلق السكر والكتان، وأنفق المال وأطلق المحابيس إيش ترك لى؟».

وكانت الميرة ترد إلى الفرنج فى منزلتهم من دمياط فى بحر النيل، فصنع المسلمون عدة مراكب، وحملوها وهى مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة، وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة؛ وكانت أيام زيادة النيل، فلما جاءت مراكب الفرنج لبحر المحلة، وهذه المراكب مكمنة فيه، خرجت عليها بغتة وقاتلتها وللحال قدم أسطول المسلمين من جهة المنصورة، فَأُخِذَتْ مراكب الفرنج أخذا وبيلا، وكانت اثنتين وخمسين مركبا، وقتل منها وأسر نحو ألف إفرنجى، وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات، وحملت الأسرى على الجمال إلى العسكر. فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب، واستضرى المسلمون عليهم وطمعوا فيهم.

وفى أوّل ذى الحجة: أخذ الفرنج من المراكب التى فى بحر المحلة سبع حراريق، ونجا من كان فيها من المسلمين. وفى ثانى ذى الحجة تقدّم أمر السلطان إلى الأمير حسام الدين بن أبى على بالسير إلى القاهرة، والإقامة بدار الوزارة على عادته فى نيابة السلطنة. وفيه وصل إلى السلطان جماعة من الفقهاء: منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وبهاء الدين بن الجميزى، والشريف عماد الدين، والقاضى عماد الدين القاسم

---

(١) هى قرية صغيرة بمركز منية القمح من مديرية الشرقية، واسمها أيضا تلبانة ديرى. انظر الخطط التوفيقية ٩/ ٤٠ /٤١.

ابن إبراهيم بن هبة الله بن إسماعيل بن نبهان بن محمد بن المقنشع الحموى - قاضى مصر، وكان قد ولى القضاء بعد موت الجمال يحيى، فى جمادى الأولى -، وسراج الدين الأرموى [١] فجلس السلطان المعظم معهم وناظرهم.

وفى يوم عرفة: وصلت مراكب فيها الميرة للفرنج، فالتقت بها شوانى المسلمين عند مسجد النصر، فأخذت شوانى المسلمين منها اثنتين وثلاثين مركبا، منها تسع شوانى. فاشتد الغلاء عند الفرنج، وشرعوا فى مراسلة السلطان يطلبون منه الهدنة، فاجتمع برسلهم الأمير زين الدين أمير جاندار، وقاضى القضاة بدر الدين السنجارى؛ فسألوا أن يسلموا دمياط، ويأخذوا عوضا عنها مدينة القدس وبعض الساحل، فلم يجابوا إلى ذلك.

وفى يوم الجمعة، لثلاث بقين من ذى الحجة: أحرق الفرنج ما عندهم من الخشب، وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط، وخرجت السنة وهم فى منزلتهم.

وفى هذه السنة: قدم إلى بغداد طائفة من التتر على حين غفلة، فقتلوا ونهبوا وجفل منهم الناس.

وفيها استولى على بن قتادة على مكة، فى ذى القعدة.

وفيها قتل الشريف شيخة أمير المدينة النبوية، وقام من بعده ابنه عيسى.

وفيها قتل المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول صاحب اليمن، وملك بعده ابنه المنصور شمس الدين يوسف.

وفيها مات متملك تونس أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص، فى آخر جمادى الآخرة، عن تسع وأربعين سنة. وكان أبو زكريا يحيى قد قام وملك تونس، واستبدّ بأمرها ودعا لنفسه، وقد ضعف أمر ملوك الموحدين من بنى عبد المؤمن بن على. فأقام أبو زكريا يحيى على مملكة إفريقية ثلاثا وعشرين سنة، وامتدت مملكته إلى

---

(١) محمود بن أبى بكر بن أحمد، أبو الثناء، سراج الدين الأرموى: عالم بالأصول والمنطق، من الشافعية. أصله من أرمية من بلاد أذربيجان. قرأ بالموصل وسكن دمشق. وتوفى بمدينة «قونية» له تصانيف، منها مطالع الأنوار فى المنطق، شرحه كثيرون والتحصيل من المحصول فى الأصول، ولطائف الحكمة وشرح الإشارات لابن سينا، وشرح الوجيز للغزالى فى فروع الفقه، وبيان الحق منطق وحكمة، ولباب الأربعين فى أصول الدين. انظر السبكى فى الطبقات ١٥٥/٥، والوسطى والصغرى، وكشف الظنون ٢٦١، ١٧١٥ معجم المطبوعات ٤٢٧/١، وهدية العارفين ٢/ ٤٠٦. الأعلام ١٦٦/ ٧.

تلمسان وسِجِلْمَاسَة وسَبْته، وبايعه أهل إشْبِيْلِيَّة[١] وشاطِبَة[٢] والمرية[٣] ومَالَقَة[٤]

---

(١) إشبيلية: مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام ومن الأميال ثمانون، وهي مدينة قديمة أزلية يذكرها أهل العلم باللسان اللطيني أن أصل تسميتها إشبالى معناه المدينة المنبسطة. ويقال إن الذى بناها يوليش القيصر وإنه أول من تسمي قيصر، وكان سبب بنيانه إياها أنه لما دخل الأندلس ووصل إلى مكانها أعجبه كرم ساحته وطيب أرضه وجبله المعروف بالشرف، فردم على النهار الأكبر مكانًا وأقام فيه المدينة وأحدق عليها بسور من صخر، وبنى في وسط المدينة قصبتين متقنتين عجيبتى الشأن تعرفان بالأخوين، وجعلها أم قواعد الأندلس واشتق لها اسما من اسمه ومن اسم رومية فسماها رومية يوليش. ويقال إن إشبانية اسم خاص ببلد إشبيلية الذى كان ينزله إشبان ابن طيطش وباسمه سميت الأندلس إشبانية، ولم تزل معظمة عند العجم من ذلك الوقت، وقد كان فيها رحال ولوا قيادة العجم العظمى والمملكة بمدينة رومية، وروى أن المرأة التى قتلت يحيى بن زكريا عليه السلام من إشبيلية من قرية طالقة. وهى كبيرة عامرة لها أسوار حصينة وسوقها عامرة وخلقها كثير وأهلها مياسير، وكان سور إشبيلية من بناء الإمام عبد الرحمن بن الحكم بناه بعد غلبة المجوس عليها بالحجر، وأحكم بناءها وكذلك جامعها من بنائه، وهو من عجيب البنيان وجليلها، وصومعته بديعة الصناعة غريبة العمل، وبإشبيلية آثار للأول كثيرة، وبها أساطين عظام تدل على هياكل كانت بها. وإشبيلية من الكور المجندة، نزلها جند حمص ولواؤهم فى الميمنة بعد لواء جند دمشق، وهى من أمصار الأندلس الجليلة الكثيرة المنافع العظيمة الفوائد. وفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة فى جماداها الآخر كان السيل العظيم الجارف بإشبيلية، وفى سنة ست وأربعين وستمائة تغلب العدو على مدينة إشبيلية فى شعبان منها بعد أن حوصرت أشهرًا حتى ساءت أحوال أهلها وخافوا ويئسوا من الإعانة، فأتفق رأيهم على إسلامها للعدو والخروج عنها فكان ذلك، وأجلهم الفنش ريثما يستوفون احتمال ما استطاعوا حمله من أموالهم ثم خرجوا عنها وأقامت خالية ثلاثة أيام وسرح معهم الطاغية خيلاً توصلهم إلى مأمنهم وكان صاحب أناة وسياسة، ويقال إنه لما مات دفن فى قبلة جامعها الأعظم. انظر معجم البلدان ١/ ٣٧، والروض المعطار ٥٩، ٦٠.

(٢) شاطبة: بالأندلس، مدينة جليلة متقنة حصينة لها قصبتان ممتنعتان، وهى كريمة البقعة كثيرة الثمرة عظيمة الفائدة طيبة الهواء، وهى قريبة من جزيرة شقر، ويعمل بها كاغد لا نظير له بمعمور الأرض يعم المشرق والمغرب، وفيها بنيان قديم من عمل الأول يقولون له الصنم، وهى حاضرة آهلة بها جامع ومساجد وفنادق وأسواق، وقد أحاط بها الوادى. انظر معجم البلدان ٣/ ٣٠٩، والروض المعطار ٣٣٧.

(٣) مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الأندلس. انظر معجم البلدان ٥/ ١١٩.

(٤) مالقة: بالأندلس، مدينة على شاطئ البحر، عليها سور صخر، والبحر فى قبليها، وهى حسنة عامرة آهلة كثيرة الديار، وفيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها، وهو يحمل إلى مصر والشام والعراق وربما وصل إلى الهند، وهو من أحسن التين طيبًا وعذوبة، ولها ربضان كبيران، وشرب أهلها من الآبار، ولها واد يجرى فى زمان الشتاء وليس بدائم الجرى. وهى من تأسيس الأول، وأكثر المدينة على جسرين من بناء الأول، والجسر فى البحيرتين هناك، قد بنى بصخر كأنوف الجبال، وقصبتها فى شرقى مدينتها عليها سور صخر، وهى فى غاية الحصانة والمنعة، وفى=

وغَرْنَاطَة[1]، وخلف مالا جما، فبويع بعده ابنه محمد المستنصر. وأبو زكريا هذا هو أول من ملك تونس من الملوك الحفصيين، وأما من كان قبله منهم فإنما كانوا عمالا لبنى عبد المؤمن.

وفيها قبض الشريف أبو سعد بن على بن قتادة على الأمير أحمد بن محمد بن المسيب بمكة فى آخر شوّال، كما تقدّم فى السنة الخالية، وقام هو بإمرة مكة.

* * *

=هذه القصبة مسجد بناه الفقيه المحدث معاوية بن صالحى الحمصى، وكان ممن حضر وقعة مروان بن محمد ليلة بوصير فأنجاه ولجأ إلى الأندلس فرقًا من المسودة، ومات بها، وله روايات وتقدم فى السنة والعلم. وجامع مدينة مالقة بالمدينة، وهو خمس بلاطات، ولها خمسة أبواب: بابان منها إلى البحر، وباب شرقى يعرف بباب القصبة، وباب غربى يعرف بباب الوادى، وباب جوفى يعرف بباب الخوخة. وبها مبان فخمة وحمامات حسنة وأسواق جامعة كثيرة فى الربض والمدينة. ومن مالقة إلى أرشذونة ثمانية وعشرون ميلاً، ومرسى مالقة صيفى يكتنى بالغربى وبإزائه مما يلى المدينة الجسر الذى ذكرناه، ينكسر عليه الموج. انظر معجم البلدان ٥/ ٤٣، والروض المعطار ٥١٧، ٥١٨.

(١) غرناطة - أو أغرناطة -: مدينة بالأندلس بينها وبين وادى آش أربعون ميلاً وهى من مدن إلبيرة، وهى محدثة من أيام الثوار بالأندلس وإنما كانت المدينة المقصودة إلبيرة فخلت وانتقل أهلها إلى أغرناطة؛ ومدنها وحصن أسوارها وبنى قصبتها حبوس الصنهاجى ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس، فكملت فى أيامه وعمرت إلى الآن، ويشقها نهر يسمى حدره وبينها وبين إلبيرة ستة أميال، وتعرف بأغرناطة اليهود لأن نازلتها كانوا يهودًا، وهى اليوم مدينة كبيرة قد لحقت بأمصار الأندلس المشهورة. انظر معجم البلدان ٤/١٩٥، والروض المعطار ٤٥، ٤٦.



سنة ثمان وأربعين وستمائة

فى ليلة الأربعاء ثالث المحرم: رحل الفرنج بأسرهم من منزلتهم يريدون مدينة دمياط، وانحدرت مراكبهم فى البحر قبالتهم. فركب المسلمون أقفيتهم، بعد أن عدوا برهم واتّبعوهم. فطلع صباح نهار يوم الأربعاء، وقد أحاط بهم المسلمون، وبذلوا فيهم سيوفهم، واستولوا عليهم قتلا وأسرا، وكان معظم الحرب فى فارسكور، فبلغت عدّة القتلى عشرة آلاف فى قول المقل، وثلاثين ألفا فى قول المكثر. وأسر من خيالة الفرنج ورجالتهم المقاتلة، وصناعهم وسوقتهم، ما يناهز مائة ألف إنسان؛ وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة، واستشهد من المسلمين نحو مائة رجل، وأبْلَت الطائفة البحرية - لاسيما بيبرس البندقدارى - فى هذه النوبة بلاء حسنا، وبان لهم أثر جميل.

والتجأ الملك ريدافرنس - وعدة من أكابر قومه - إلى تل [المُنْيَة][1]، وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى، ونزلوا على أمانه. وأخذوا إلى المنصورة، فقيد الملك ريدافرنس بقيد من حديد، واعتقل فى دار القاضى فخر الدين إبراهيم ابن لقمان[2] - كاتب الإنشاء، التى كان ينزل بها من المنصورة ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى واعتقل معه أخوه، وأجرى عليه راتب فى كل يوم. وتقدّم أمر الملك المعظم لسيف الدين يوسف بن الطودى - أحد من وصل معه من بلاد الشرق - بقتل الأسرى من الفرنج، وكان سيف الدين يُخرج كل ليلة منهم ما بين الثلاثمائة والأربعمائة ويضرب أعناقهم ويرميهم فى البحر، حتى فنوا بأجمعهم.

ورحل السلطان من المنصورة، ونزل بفارسكور وضرب بها الدهليز السلطانى، وعمل فيه برجا من خشب، وأقام على لهوه. وكتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب دمشق كتابا بخطه نصه: «من ولده تورانشاه الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن،

---

(١) المقصود هنا منية عبد الله، القرية من ناحية شرمساح. انظر العنيى، عقد الجمان ٢١٠.

(٢) إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الشيبانى الإسعرودى ثم المصرى، أبو العباس فخر الدين: وزير، من الكتاب له شعر. أصله من إسعرد وتتلمذ للبهاء زهير بمصر. وولى ديوان الإنشاء بها للأيوبيين وكان رئيس الموقعين. ولى الوزارة مرتين. وهو الذى حبس فى داره سنة ٦٤٨ هـ لويس التاسع ملك فرنسا. توفى ابن لقمان بالقاهرة. انظر النجوم الزاهرة ٣٦٦/٦ ثم ٥٠/٨، ٥١ والبداية والنهاية ٣٣٧/١٣ ومجلة الزهراء ٢/ ٥ ومرآة الزمان ٨/ ٧٧٨-٧٧٩ والأعلام ٥٨/١.

﴿وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ ا للهِ﴾[١] ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُون بِنَصْرِ ا للهِ﴾[٢]، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٣]، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ا للهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[٤]، نبشر المَجْلِس السَّامِىّ الجَمَالِى، بل نبشر المسلمين كافة، بما من ا لله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين، فإنه استفحل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا لا تيأسوا من روح ا لله. ولما كان يوم الإثنين مستهل السنة المباركة، تمم ا لله على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرّقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم إلا ا لله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق. فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاربين. وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل، فيوحلّ بهم الخزى والويل. فلما أصبحنا يوم الأربعاء، قتلنا منهم ثلاثين ألفًا، غير من ألقى نفسه فى اللجج، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. والتجأ الفرنسيس إلى المنية، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه، وتسلمنا دمياط بعون ا لله وقوّته، وجلاله وعظمته، وذكر كلاما طويلا. وبعث المعظم مع الكتاب غفَارَة[٥] الملك الفرنسيس، فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور وهى أَشْكَرْلاط[٦] أحمر بفرو سنجاب، فيها بُكْلَة ذهب فقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل:

إن غفـارة الفرنسـيس التـى	جـاءت جبـاء لسـيد الأمـراء
كبيـاض القـرطاس لـونا ولكـن	صبغتهـا سيـوفنا بالـدمـاء

---

(١) سورة الأنفال آية ١٠.

(٢) سورة الروم آية ٤.

(٣) سورة الضحى ١١.

(٤) سورة النحل ١٨.

(٥) الغفارة: والْمِغْفَرُ وَالْمِغْفَرَةُ والْغِفارَةُ: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة، وقيل: هو رفرف البيضة، وقيل هو حلق يتقنع به المتسلح. قال ابن شميل: المغفر حلق يجعلها الرحل أسفل البيضة تسبغ على العنق فتقيه، قال: وربما كان المغفر مثل القلنسوة غير أنها أوسع يلقيها الرحل على رأسه فتبلغ الدرع، ثم يلبس البيضة فوقها، فذلك المغفر يرفل على العاتقين، وربما جعل المغفر من ديباج وخز أسفل البيضة، وفى حديث الحديبية: والمغيرة بن شعبة عليه المغفر؛ وما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه. والغفارة، بالكسر: خرقة تلبسها المرأة فتغطى رأسها ما قبل منه وما دبر غير وسط رأسها، وقيل: الغفارة خرقة تكون دون المقنعة توفى بها المرأة الخمار من الدهن، والغفارة الرقعة التى تكون على حز القوس الذى يجرى عليه الوتر، وقيل: الغفارة جلدة تكون على رأس القوس يجرى عليها الوتر، والغفارة السحابة فوق السحابة، وفى التهذيب سحابة تراها كأنها فوق سحابة، والغفارة رأس الجبل. والغفر البطن. انظر لسان العرب ٣٢٧٤.

(٦) على هامش ط: نوع من القماش، كان يرد من بلاد إيرلندة. لونه قرمزى.

وقال آخر:

أَسَيِّدَ أملاك الزمن بأسرهم تنجزت من نصر الإله وُعُودَه
فلا زال مولانا يبيح حمى العدى ويُلبس أسلابَ الملوك عبيدَه

وأخذ الملك المعظم فى إبعاد رجال الدولة، فأخرج الملكَ المغيث فتح الدين عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل من قلعة الجبل إلى الشوبك، واعتقله بها. وأخرج الملك السعيد فخر الدين حسن بن الملك العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب[1] من مصر إلى دمشق، فلما وصل دمشق قبض عليه ابن يغمور واعتقله.

وفى يوم الجمعة لخمس من المحرم: ورد إلى القاهرة كتاب السلطان إلى الأمير حسام الدين أبى على نائب السلطنة بالقدوم عليه، وأقام بدله فى نيابة السلطنة بالقاهرة الأمير جمال الدين أقوش النجيبى ووصل الأمير أبو على إلى المعسكر، فنزل به مُطَّرَحَ الجانب، بعدما كان عدَّة الملك الصالح وعمدته، وبعث المعظم إلى شجر الدر يتهددها، ويطالبها بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر فداخلها منه خوف كثير، لما بدا منه الهوج والخفة، وكاتبت المماليك البحرية بما فعلته فى حقه، من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها. فأنفوا لها، وحنقوا من أفعال السلطان. وكان السلطان المعظم قد وعد الفارس أقطاى لما أتاه فى حصن كيفا بأن يُؤَمِّره، فلم يف له بذلك، فتنكر له أقطاى وكتم الشر، فحرك كتاب شجر الدر منه ساكنا.

وانضاف إلى هذه الأمور، أن السلطان المعظم أعرض عن مماليك أبيه الذين كانوا عنده لمهماته، واطّرح الأمراء والأكابر أهل الحل والعقد، وأبعد غلمان أبيه، واختص بجماعته الذين قدموا معه، وولّاهم الوظائف السلطانية. وقدَّم الأراذل: وجعل الطواشى مسرورًا - هو خادمه - أستادار السلطان، وأقام صبيحًا - وكان عبدا حبشيًا فَحْلاً - أمير جاندار، وأنعم عليه بأموال كثيرة وإقطاعات جليلة، وأمر أن يُصاغ له عصا من ذهب. وأساء السلطان إلى المماليك وتوعَّدهم، وصار إذا سكر فى الليل جمع ما بين يديه من الشمع، وضرب رءوسها بالسيف حتى تتقطع، ويقول: «هكذا أفعل بالبحرية»، ويسمى كل واحد منهم باسمه. واحتجب أكثر من أبيه، مع الانهماك على الفساد بمماليك أبيه، ولم يكونوا يألفون هذا الفعل من أبيه وكذلك فعل بحظايا أبيه.

---

(١) حسن (السعيد) بن عثمان (العزيز) بن محمد (العادل الأيوب) كان صاحب الصبية وبانياس قرب دمشق تملك سنة ٦٤١ وأخذ الصبية منه الملك الصالح (أيوب) حوالى ٦٤٠ وأعطاه إمرة فى مصر، فلما قبل المعظم بن الصالح (٦٤٨) عاد إلى الصبية. انظر العبد ٥/٢٤٥، ٢٤٦ وترويح القلوب ٧١ والذيل على الروضتين ٢٠٧ والشذرات ٥/٢٤٠ والأعلام ٢/ ١٩٨.

وصار مع هذا جميعُ الحل والعقد، والأمر والنهى لأصحابه الذين قدموا معه، فنفرت قلوب البحرية منه، واتفقوا على قتله، وما هو إلا أن مد السماط بعد نزوله بفارسكور، فى يوم الإثنين سادس عشرى المحرم، وجلس السلطان على عادته، تقدم إليه واحد من البحرية - وهو بيبرس البندقدارى، الذى صار إليه مُلك مصر - وضربه بالسيف: فتلقاه المعظم بيده فبانت أصابعه، والتجأ إلى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور وهو يصيح: «من جرحنى؟» قالوا: «الحشيشة»، فقال: «لا والله إلا البحرية! والله لا أبقيت منهم بقية!» واستدعى المزين ليداوى يده. فقال البحرية بعضهم لبعض: «تمموه وإلاّ أبادكم»، فدخلوا عليه بالسيوف. ففر المعظم إلى أعلى البرج وأغلق بابه، والدم يسيل من يده، فأضرموا النار فى البرج، ورموه بالنشاب فألقى نفسه من البرج، وتعلق بأذيال الفارس أقطاى، واستجار به فلم يجره، وفر المعظم هاربا إلى البحر، وهو يقول: «ما أريد ملكا، دعونى أرجع إلى الحصن يا مسلمين! ما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى؟». هذا وجميع العسكر واقفون، فلم يجبه أحد، والنشاب يأخذه من كل ناحية. وسبحوا خلفه فى الماء، وقطعوه بالسيوف قطعا، حتى مات جريحا حريقا غريقا؛ وفرّ أصحابه واختفوا.

وتُرك المعظم على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخا، لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه، إلى أن شفع فيه رسول الخليفة، فحمل إلى ذلك الجانب ودفن، فكانت مدّة ملكه أحدًا وسبعين يوما. وقيل مرة لأبيه فى الإرسال إليه، ليحضر من حصن كيفا إلى مصر، فأبى، وألح عليه الأمير حسام الدين أبو على فى طلب حضوره، فقال: «متى حضر إلى هنا قتلته». وكان المباشر لقتله أربعة من مماليك أبيه، وكان الملك الصالح نجم الدين لما أراد أن يقتل أخاه العادل، قال الطواشى محسن: «اذهب إلى أخى العادل فى الحبس، وخذ معك من المماليك من يخنقه»، فعرض محسن ذلك على جماعة من المماليك، وكلهم يمتنع إلاّ أربعة منهم، فمضى بهم حتى خنقوا العادل. فقدر الله أن هؤلاء الأربعة هم الذين باشروا قتل ابنه المعظم أقبح قتلة. ورؤى فى النوم الملكُ الصالح نجم الدين بعد قتل ابنه الملك المعظم تورانشاه، وهو يقول:

قتلوه شرّ قتله	صار للعالم مُثله
لم يراعوا فيه إلاّ	لا ولا من كان قبله
ستراهم عن قريب	لأقل الناس أكْلَه

فكان ما يأتى ذكره من الوقعة بين المصريين والشاميين، بين المعز أيبك[1] والناصر

(١) أيبك بن عبد الله الصالحى النجمى، عز الدين التركمانى: أول سلاطين المماليك البحرية=

صلاح الدين يوسف بن عبد العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف، وهو صاحب حلب وعدم فيها عدّة من الأعيان. وبقتل المعظم انقرضت دولة بنى أيوب من أرض مصر، وكانت مدتهم إحدى وثمانين سنة، وعدّة ملوكهم ثمانية، كما مرَّ ذكرهم. فسبحان الباقى، وما سواه يزول.

* * *

الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر

كانت تركية الجنس، وقيل بل أرمنية، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحظيت عنده بحيث كان لا يفارقها سفرا ولا حضرا. وولدت منه ابنا اسمه خليل، مات وهو صغير. وهذه المرأة شجر الدر، هى أوّل من ملك مصر من ملوك الترك المماليك، وذلك أنه لما قتل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كما تقدّم ذكره، اجتمع الأمراء المماليك البحرية، وأعيان الدولة وأهل المشورة، بالدهليز السلطانى؛ واتفقوا على إقامة شجر الدر أم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مملكة مصر، وأن تكون العلامات السلطانية على التواقيع[1] تبرز من قبلها، وأن يكون مقدّم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى أحد البحرية. وحلفوا على ذلك فى عاشر صفر، وخرج عز الدين الرومى من المعسكر إلى قلعة الجبل، وأنهى إلى شجر الدر ما جرى من الاتفاق، فأعجبها، وصارت الأمور كلها معقودة بها، والتواقيع تبرز من قلعة الجبل، وعلامتها عليها «والدة خليل». وخطب لها على منابر مصر والقاهرة، ونقش اسمها على السكة، ومثاله «المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين»، وكان الخطباء يقولون فى الدعاء: «اللهم أدم سلطان الستر الرفيع، والحجاب المنيع، ملكة المسلمين، والدة الملك الخليل»، وبعضهم يقول، بعد الدعاء للخليفة: «واحفظ اللهم الجبة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح».

=فى مصر والشام. كان مملوكًا للصالح نجم الدين أيوبى، وأعتقه فصار فى جملة الأمراء عنده. وجعله مقدما للعساكر بعد مقتل الملك المعظم تورانشاه وقيام زوجة أبيه شجرة الدر بالأمر، وتزوج بشجرة الدر، فنزلت له عن الملك، وتولاه بمصر سنة ٦٤٨هـ، وتلقب بالملك المعز. انظر ابن إياس ١/٩٠ والنجوم الزاهرة ٧/٣-٤١ والأعلام ٢/٣٣.

(١) التواقيع جمع توقيع، ومعناه هنا نسخة الأمر بتعيين شخص على إقطاع. انظر: صبح الأعشى ٣/١٤٤.

ولما حلف الأمراء والأجناد واستقرّت القاعدة، نُدِب الأمير حسام الدين محمد بن أبى على للكلام مع الملك ريدافرنس فى تسليم دمياط، فجرى بينه وبين الملك مفاوضات ومحاورات ومراجعات، آلت إلى أن وقع الاتفاق على تسليمها من الفرنج، وأن يخلّى عنه ليذهب إلى بلاده، بعدما يؤدى نصف ما عليه من المال المقرر. فبعث الملك ريدافرنس إلى من بها من الفرنج يأمرهم بتسليمها، فأبوا وعاودهم مرارًا، إلى أن دخل العلم الإسلامى إليها، فى يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر، ورفع على السور وأعلن بكلمة الإسلام وشهادة الحق. فكانت مدة استيلاء الفرنج عليها أحد عشر شهرًا وتسعة أيام.

وأفرج عن الملك ريدافرنس، بعدما فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار، وأفرج عن أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه، وسائر الأسرى الذين بمصر والقاهرة، ممن أسر فى هذه الواقعة، ومن أيام العادل والكامل والصالح وكانت عدتهم اثنى عشر ألف أسير ومائة أسير وعشر أسارى، وساروا إلى البر الغربى، ثم ركبوا البحر فى يوم السبت تاليه، وأقلعوا إلى جهة عكا. فقال الصاحب جمال الدين بن مطروح فى ذلك:

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال نصح من قوول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عُبَّاد يسوع المسيح
أتيتَ مصرًا تبتغى ملكها	تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدْهَمٍ	ضاق به عن ناظرتك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفًا لا يُرى منهمُ	إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكُم يستريح
إن يكن الباب بذا راضيا	فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا إنه	أنصح من شِقّ لكم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة	لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح

واتفق أن الفرنسيس هذا بعد خلاصه من أيدى المسلمين، عزم على الحركة إلى تونس من بلاد إفريقية، لما كان فيها من المجاعة والموتان. وأرسل يستنفر ملوك النصارى، وبعث إلى البابة [١] خليفة المسيح بزعمهم. فكتب البابة إلى ملوك النصارى بالمسير معه، وأطلق يده فى أموال الكنائس يأخذ منها ما شاء. فأتاه من الملوك

(١) على هامش ط: المقصود البابا.

الإنْكِتار[١]، وملك اسكوسنا، وملك تُورَل، وملك برشلونة واسمه ريداركون، وجماعة أخر من ملوك النصارى، فاستعد له السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر بالله بن الأمير أبى زكريا يحيى بن الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص عمر[٢]، ملك تونس، وبعث إليه رسله فى طلب الصلح، ومعهم ثمانون ألف دينار، فأخذها الفرنسيس ولم يصالحهم، وسار إلى تونس آخر ذى القعدة سنة ثمان وستين وستمائة، ونزل بساحل قُرْطَاجَنَّة[٣] فى ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل. وأقام الفرنسيس

---

(١) على هامش ط: أطلق مؤرخى المسلمين هذا الاسم على ملك انجلترا فى العصور الوسطى.

(٢) محمد بن يحيى الواثق بالله بن محمد المستنصر الأول، أبو عصيدة أمير المؤمنين المستنصر بالله. من ملوك الدولة الحفصية بتونس بويع له بعد وفاة المستنصر الثانى أبى حفص عمر بن يحيى (سنة ٦٩٤ هـ) وكان مهيبًا حميد السيرة، فيه دماء وأيامه أيام هدنة ورخاء. استمر إلى أن توفى. انظر الخلاصة النقية ٦٨ - الدرر الكامنة ٤/ ٢٨٥- الدولة الحفصية ٩٥ - خلاصة تاريخ تونس ١١١ الأعلام ٧/ ١٣٨.

(٣) قرطاجنة إفريقية: وهى أحلها وأشهرها، حتى قال المسعودى: لما ذكرت البيوت المعظمة عند أوائل الروم، قال: كان بيت معظم قبل ظهور دين النصرانية ببلاد المغرب بقرطاجنة، وهى تونس وراء بلاد القيروان، وهى من أرض الإفرنجة، وبين قرطاجنة وتونس عشرة أميال أو نحوها، ومرساهما واحد، وقرطاجنة من المدن المشهورة، وفيها من الآثار وعجائب البنيان ما ليس فى بلد شرقًا ولا غربًا، ولو دخلها إنسان ومشى فيها عمره يتأمل آثارها لرأى كل يوم فيها أعجوبة لم يرها قبل ذلك. وهى الآن خراب لأن المسلمين لما غزوها فى صدر الإسلام هرب أهلها من باب يقال له باب النساء، فمنهم من فر إلى الأندلس، ومنهم من فر إلى جزيرة صقلية، ويقال إن حسان بن النعمان لما غزاها فى سلطان عبد الملك أو غيره خربها وكسر قناتها. ومن غريب مبانى قرطاجنة الدواميس التى عددها أربعة وعشرون فى سطر واحد، طول كل داموس منها مائة وثلاثون خطوة فى عرض ست وعشرين، فى أعلاها أقباء، بين كل داموسين منها خوخات يصل منها الماء إلى جميعها بهندسة وحكمة، وبقرطاجنة دار الطياطر وهو كله أقباء معقودة على سوارى رخام وعليها مثلها نحو أربع مرات قد أحاطت بالدار، والدار دائرة، من أغرب ما يكون من البناء، وبها من أبواب كثيرة قد صور على كل باب منها صورة نوع من الحيوان وقد صور على الحيطان صور جميع الصناع بأيديهم آلاتهم، وفى هذه الدار من الرخام ما لو أجمع أهل إفريقية على نقله ما قدروا عليه لكثرته، وكان فيها قصران يعرفان بالأختين ليس فيهما حجر سوى الرخام، وداخل المدينة ميناء تدخله المراكب بشرعها؛ وفيها مواجل كثيرة للماء، وبعضها يسمى بالجرير، وآخر فيها يغرف بمواجل الشياطين بسبب أن من يقرب منها يسمع لها دويًا والناس يتنافسون فى الدخول فيها، فمن جسر على دخولها ليلاً علم أنه جرىء القلب ثبت الجنان، وفى وسط المدينة صهريج كبير حوله نحو ألف وسبعمائة حنية سوى ما تهدم منها، كان يقع فيها الماء المجلوب فى هذه القناة ويخرج من هذا الصهريج إلى بعض تلك المواجل، وفى بعض أرجل القناطر كتابة فى حجر قيل إن ترجمتها: هذا من أعمال سمرقند، وقيل إن ذلك الماء جلب فى أربعين سنة، ولو قيل فى أربعمائة سنة لكان أعجب. انظر معجم البلدان ٤/٥٧، ٥٨، والروض المعطار ٤٦٣، ٤٦٤.

هناك ستة أشهر، فقاتله المسلمون - للنصف من محرم سنة تسع وستين - قتالا شديدا قتل فيه من الفريقين عالم عظيمة وكاد المسلمون أن يغلبوا، فأتاهم الله بالفرج وأصبح ملك الفرنجة ميتا، فجرت أمور آلت إلى عقد الصلح ومسير النصارى. ومن الغريب أن رجلا من أهل تونس اسمه أحمد بن إسماعيل الزيات، قال:

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهَّب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبرًا وطواشيك منكر ونكير

فكان هذا فألا عليه ومات[......][1]؛ وكان ريدافرنس هذا عاقلا داهيا خبيثا مُفكِّرًا.

ولما استولى المسلمون على دمياط، سارت البشائر إلى القاهرة ومصر وسائر الأعمال، فضربت البشائر وأعلن الناس بالسرور والفرح، وعادت العساكر إلى القاهرة فى يوم الخميس تاسع صفر.

فلما كان يوم الإثنين ثالث عشره: خلعت شجر الدر على الأمراء وأرباب الدولة، وأنفقت فيهم الأموال وفى سائر العسكر.

ووصل خبر قتل الملك المعظم وإقامة شجر الدر فى السلطنة إلى دمشق، بمسير الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الإسعردى؛ لاستخلاف الأمراء بها. وكان فيها الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة، والأمراء القيمرية، فلم يجيبوه وأخذوا فى مغالطته. واستولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبى بكر ابن أيوب على مال مدينة غزة، وصار إلى قلعة الصبَيْبَة فملكها. فلما ورد الخبر بذلك إلى قلعة الجبل، فى يوم الإثنين لثلاث ليلة خلت من صفر، أحيط بداره من القاهرة، وأخذ ما كان له بها. وثار الطواشى بدر الدين لؤلؤ الصوابى الصالحى - نائب الكرك والشوبك، وركب إلى الشوبك، وأخرج الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل الصغير من الحبس، وملّكه الكرك والشوبك وأعمالها وحلّف له الناس، وقام يدبر أمره لصغر سنه.

وكتب الأمراء القيمرية من دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب - صاحب حلب، يخبرونه بامتناعهم من الحلف لشجر الدر، ويحثونه على المسير إليهم حتى يملك دمشق. فخرج من حلب فى عساكره مستهل شهر ربيع الآخر، ووصل إلى دمشق يوم السبت

---

(١) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

ثامنه، ونازلها إلى أن كان يوم الإثنين عاشره زحف عليها. ففتح الأمراء القيمرية له أبواب البلد، وكان القائم بذلك من القيمرية الأمير ناصر الدين أبو المعالى حسين بن عزيز بن أبى الفوارس القيمرى الكردى. فدخلها الناصر صلاح الدين هو وأصحابه بغير قتال، وخلع على الأمراء القيمرية، وعلى الأمير جمال الدين بن يغمور، وقبض على عدّة من الأمراء المماليك الصالحية وسجنهم. وملك الناصر صلاح الدين قلعة دمشق، وكان بها مجاهد الدين إبراهيم أخو زين الدين أمير جندار، فسلمها إلى الناصر، وبها من المال مائة ألف دينار وأربعمائة ألف درهم سوى الأثاث. ففرق الناصر جميع ذلك على الملوك والأمراء، وأعطى شمس الدين لؤلؤ من خزائنه عشرة آلاف دينار، وخلعة وفرسا وثلاثمائة ثوب، فرد شمس الدين ذلك، إلا الخلعة والفرس.

وكان الخبر قد ورد إلى قلعة الجبل - فى سادس ربيع الآخر - بخروج الناصر من حلب، فجدَّد الأمراء والمماليك وغيرهم الأيمان لشجر الدر، ولعز الدين أيبك بالتقدمة على العساكر، ودارت النقباء على الأجناد، وأمروهم بالسفر إلى الشام. وفى يوم الأربعاء ثانى عشره رُسم أن يسير الأمير أبو على بالعسكر. وفى رابع عشره ورد الخبر بمنازلة الناصر لدمشق، فوقع الحث على خروج العسكر. وفى حادى عشريه ورد الخبر بأن الناصر مَلَك دمشق، بتسليم القيمرية البلد له، فقُبض على عدّة من أمراء مصر الذين ليسوا من الترك، ووقع اضطراب كثير فى القاهرة، وقبض على القاضى نجم الدين ابن قاضى نابلس، وعدة ممن يتهم بالميل إلى الناصر وتزوج الأمير عز الدين أيبك بشجر الدر، فى تاسع عشرى شهر ربيع الآخر، وخلعت شجر الدر نفسها من مملكة مصر، ونزلت له عن الملك، فكانت مدّة دولتها ثمانين يوما.

* * *

الملك المعز عز الدين أيبك[1] الجاشنكير التركمانى الصالحى

كان تركى الأصل والجنس، فانتقل إلى مِلك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من بعض أولاد التركمانى، فعرف بين البحرية بأيبك التركمانى؛ وترقى عنده فى الخدم، حتى صار أحد الأمراء الصالحية، وعمله جاشنكيرا، إلى أن مات الملك الصالح، وقتل بعده ابنه الملك المعظم. فصار أيبك أتابك العساكر، مع شجر الدر؛ ووصل الخبر بذلك إلى بغداد، فبعث الخليفة المستعصم بالله من بغداد كتابا إلى مصر، وهو ينكر

---

(١) على هامش ط: هذا الاسم مركب من لفظين مركبين، وهما أى بك. ومعنى أولهما القمر، ومرادف ثانيهما فى العربية لفظ الأمير.

على الأمراء ويقول لهم: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا».

واتفق ورود الخبر باستيلاء الملك الناصر على دمشق، فاجتمع الأمراء والبحرية للمشور[1]، واتفقوا على إقامة الأمير عز الدين أيبك مقدم العسكر فى السلطنة، ولقوه بالملك المعز؛ وكان مشهورا بينهم بدين وكرم وجودة رأى.

فأركبوه فى يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر، وحمل الأمراء بين يديه الفاشية نوبا واحدا بعد آخر إلى قلعة الجبل، وجلسوا معه على السماط؛ ونودى بالزينة فزينت القاهر ومصر.

فورد الخبر فى يوم الأحد تاليه تسليم الملك المغيث عمر الكرك والشوبك، وبتسلم الملك السعيد قلعة الصبيبة فلما كان بعد ذلك تجمع الأمراء، وقالوا: «لابد من إقامة شخص من بيت الملك مع المعز أيبك ليجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أهله».

قاتفقوا على إقامة الملك شرف مظفر الدين موسى بن الملك المسعود - ويقال له الناصر صلاح الدين - يوسف بن الملك المسعود يوسف - المعروف باسم القسيس - ابن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وله من العمر نحو ست سنين، شريكا لملك المعز أيبك، وأن يقوم الملك المعز بتدير الدولة.

فأقاموه سلطانا فى ثالث جمادى الأولى، وجلس على السماط وحضر الأمراء فى خدمه يوم الخميس خامس جمادى الأولى. فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن الملكين الأشرف والمعز، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم فى الشركة لا غير ذلك، وجميع الأمور بيد المعز أيبك.

وكان بغزة جماعة من العسكر، عليهم الأمير ركن الدين خاص ترك، فرجعوا إلى الصالحية واتفقوا مع عدة من الأمراء على إقامة الملك المغيث عمر بن العادل الصغير، صاحب الكرك وخطبوا له بالصالحية، يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة.

فلما ورد الخبر بذلك نودى فى القاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى، وأن الملك المعز عز الدين أيبك نائبه بها، وذلك فى يوم الأحد سادسه.

ووقع الحث فى يوم الإثنين على خروج العساكر، وجددت الأيمان للملك الأشرف موسى والملك المعز أيبك، وأن يبرز اسمهما على التواقيع والمراسيم، وينقش اسمهما على

---

(١) المشور صيغة عامية للفظ المشورة. انظر محيط المحيط.

السكة، ويخطب لهما على المنابر، وأقيم شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن ساعد الفائزى المنعوت بالأسعد فى الوزارة.

وتسحب من الصالحية الطواشيان شهاب الدين رشيد الكبير، وشهاب الدين الصغير، وركن الدين خاص ترك، وأقش المشرف فقبض على الطواشى شهاب الدين رشيد الصغير، وأحضر إلى القاهرة فاعتقل بها، ونجا الباقون.

وسارت الخلع لمن بقى بالصالحية، وعفى عنهم وأمنوا، وأرسل إليهم بنفقة.

وفى يوم الخميس عاشره: ركب الملكان الأشرف والمعز بالصناجق السلطانية، وشقا القاهرة، والمعز يحجب [1] الأشرف، والأمراء تتناوب فى حمل الغاشية واحدا بعد واحد. وقدمت عساكر الملك الناصر إلى غزة، فخرج الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار - وكانت إليه تقدمة المماليك البحرية - من القاهرة، فى يوم الخميس خامس شهر رجب، بألفى فارس وسار إلى غزة ، وقاتل أصحاب الناصر وهزمهم.

وفى يوم الخميس لخمس بقين من رجب: اتفق أهل الدولة على نقل تابوت الملك الصالح نجم الدين أيوب من قلعة جزيرة الروضة، إلى تربته التى بنيت له بجوار مدارسه الصالحية من بين القصرين. فخرج الناس يوم الجمعة إلى قلعة الروضة، وحملوا السلطان منها، وصلوا عليه بعد صلاة الجمعة وجميع العسكر قد لبسوا البياض، وقطع المماليك شعورهم، وأقيم عزاؤه ودفن ليلا. ونزل الملكان الأشرف والمعز من قلعة الجبل إلى التربة الصالحية فى يوم السبت، ومعهما سائر المماليك البحرية والجمدارية، والأمراء والقضاء والأعيان. وغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر، وأقيم المأتم بالدفوف بين القصرين، واستمر الحضور للعزاء إلى يوم الإثنين. وجعل عند القبر سناجق السلطان وبقجه [2] وقوسه وتركاشه[3]، وترتبت القراء يقرءون عند قبره.

وفى هذه السنة: عزل بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن الحسن السنجارى عن قضاء القاهرة، وولى بعده عماد الدين أبو القاسم بن المقنشع بن القطب الحموى. فلما مات أفضل الدين الخونجى، ولى ابن القطب الحموى بعده قضاء مصر. ثم ولى صدر الدين موهوب الجزرى قضاء مصر، عند انتقال ابن القطب إلى قضاء القاهرة.

---

(١) المقصود هنا أن المعز أيبك كان يودى وظيفة الحاجب فى ذلك الموكب، أى أنه كان راكبا أمامه بعصا فى يده. انظر صبح الأعش ٤٥١/٥.

(٢) البقجة الصرة من القماش، توضع بها الثياب أو النقود أو الأوراق الخاصة، وهى فارسية الأصل، وتجمع على بقج. انظر محيط المحيط.

(٣) التركاش لفظ فارسى الأصل، معناه الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب.

وفى آخر شهر رجب: أعيد البدر السنجارى إلى قضاء القاهرة، وابن القطب إلى قضاء مصر. ثم جمع قضاء مصر والقاهرة للسنجارى، وصرف ابن القطب عن مصر. وعاد الفارس أقطاى من غزة إلى القاهرة، فى رابع شعبان. وفى خامسه قبض على الأمير زين الدين أمير جاندار الصالحى، وعلى القاضى صدر الدين قاضى آمد - وكان من كبراء الدولة الصالحية، واعتقلا.

ولاثنتى عشرة بقيت من شعبان: وقع الهدم فى مدينة دمياط، باتفاق أهل الدولة على ذلك، وخرج الحجارون والصناع والفعلة من القاهرة، فأزيلت أسوارها ومحيت آثارها، ولم يبق منها سوى الجامع. وسكن طائفة من ضعفاء الناس فى أخصاص على شاطئ النيل من قبليها، وسموها المنشية وهو موضع دمياط الآن. ولِستٍّ بقين قُبض على الأمير جمال الدين النجيبى واعتقل وبعده بيوم قبض على أقش العجمى.

وأخذ الملك الناصر صاحب الشام فى الحركة لأخذ مصر، بتحريض الأمير شمس الدين لؤلؤ الأمينى له على ذلك. وخرج الناصر من دمشق بعساكره، يوم الأحد النصف من شهر رمضان، ومعه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل أبى بكر بن أيوب والملك الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن شيركوه[١]، والملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين الكبير[٢] وأخوه نصرة الدين الظاهر شادى بن الناصر داود وأخوه الملك الأمجد حسن، والملك الأمجد تقى الدين عباس بن العادل، وعدة ملوك.

فلما ورد الخبر بذلك اضطربت الدولة، ورُسِم بجمع العربان من الصعيد، وقبض على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل مع الملك الناصر فى ثانى شوال، عندما ورد الخبر بوصوله إلى غزة. وفى غَدِه كثر الإرجاف ووقع التهيؤ للحرب، وأحضرت الخيول من الربيع[٣].

---

(١) موسى (الأشرف) بن إبراهيم (المنصور) بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير: ملك حمص والرحبة. يلقب مظفر الدين وكانت ولايته سنة ٦٤٤هـ. انظر مرآة الجنان ٤/١٦٠ والشذرات ٥/٣١١ والبداية والنهاية ١٣/ ٢٤٣ والأعلام ٧/٣١٩.

(٢) تورانشاه (المعظم) بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى، أبو المفاخر: من أمراء الأيوبيين ورابع من تلقب بالملك المعظم منهم. ولم يل السلطنة. ولد بمصر وتفقه وتلقى الحديث فى دمشق. وتولى قيادة الجيش الحلبى زمنا. انظر صلة التكملة للحسينى. وأعلام النبلاء ٤/٤٥٢ وترويح القلوب ١٠٠ والعبر ٥/ ٢٤٥ والأعلام ٢/٩٠.

(٣) الربيع هنا مكان الرعى.

وفى يوم الإثنين ثامنه: برز الأمير حسام الدين أبو على من القاهرة، وكان الوقت شتاء. وفى تاسعه برز الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار - مقدم البحرية - فى جمهور العسكر من الترك. وسارت العساكر فى حادى عشره، واجتمعت بالصالحية.

وفى يوم السبت ثالث عشره: استناب الملك المعز أيبك بديار مصر الأمير علاء الدين البندقدار، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نوّاب دار العدل، لترتيب الأمور وكشف المظالم ونودى يوم السبت العشرين منه بإبطال الخمور، والجهة[١] المفردة.

وفيه كثر الإرجاف بوصول الناصر الدَّارُوْم.

وفى تاسع عشريه: خلع الملك المعز على الملك المنصور محمود، وعلى أخيه الملك السعيد عبد الملك، ولدى الملك الصالح إسماعيل عماد الدين - وكانا فى حبس الملك الصالح نجم الدين أيوب - وأركبهما فى القاهرة، ليوهم الناس أن الملك الصالح أباهما مباطن له على الملك الناصر، حتى يقع بينهما.

وفى يوم الثلاثاء أوّل ذى القعدة: نودى بالقاهرة أن الصلح انتظم بين الملك المعز والبحرية، وبين الملك المغيث عمر بن العادل صاحب الكرك ولم يكن لما نودى به حقيقة، وإنما قصد بذلك أن يقف الملك الناصر عن الحركة.

وفى يوم الخميس ثالثه: نزل الملك المعز من قلعة الجبل فيمن بقى عنده من العساكر، وسار إلى الصالحية وبها العساكر التى خرجت قبله، وترك بقلعة الجبل الملك الأشرف موسى فاستقرت عساكر مصر بالصالحية إلى يوم الإثنين سابعه، فوصل الملك الناصر بعساكره إلى كُراع[٢] - وهى قريبة من العباسية، فتقارب ما بين العسكرين وكان فى ظن كل أحد أن النصرة إنما تكون للملك الناصر على البحرية، لكثرة عساكره ولميل أكثر عسكر مصر إليه. فاتفق أنه كان مع الناصر جمع كبير من ممالك أبيه الملك العزيز، وهم أتراك يميلون إلى البحرية لعلة الجنسية، ولكراهتهم فى الأمير شمس الدين لؤلؤ مدير المملكة.

فعندما نزل الناصر بمنزلة الكراع، قريبا من الخَشِبِى[٣] بالرمل، رحل المعز أيبك بعساكر مصر من الصالحية، ونزل اتجاهه بَسَمُوْط[٤] إلى يوم الخميس عاشره. فركب

---

(١) الجهة هنا الضريبة.

(٢) واقعة بين العباسية والدير.

(٣) الخشبى يعرف اليوم بالسعيدية، فيما بين بلبيس والصالحية. انظر معجم البلدان ٢/ ٤٤٥.

(٤) وهى موضع بين الخشبى والعباسية. انظر أبو شامة: كتاب الروضتين ٢٠١.

الملك الناصر فى العساكر، ورتب ميمنة وميسرة وقلبا، وركب المعز، ورتب أيضا عساكره. وكانت الوقعة فى الساعة الرابعة، فاتفق فيها أمر عجيب قلَّ ما اتفق مثله، فإن الكرة كانت أوّلا على عساكر مصر، ثم صارت على الشاميين: وذلك أن ميمنة عسكر الشام حملت هى والميسرة على من بإزائها حملة شديدة، فانكسرت ميسرة المصريين وولوا منهزمين، وزحف أبطال الشاميين وراءهم، وما لهم علم بما جرى خلفهم. وانكسرت ميمنة أهل الشام، وثبت كل من القلبين واقتتلوا. ومر المنهزمون من عسكر مصر إلى بلاد الصعيد، وقد نهبت أثقالهم. وعندما مروا على القاهرة خطب بها للملك الناصر، وخطب له بقلعة الجبل ومصر، وبات الأمير جمال الدين بن يغمور بالعباسية، وأحمى الحمام للملك الناصر وجهز له الإقامة. هذا والناصر على منزلة كراع ليس عنده خبر، وإنما هو واقف بسناجقه وخزائنه وأصحابه. وأما ميمنة أهل الشام فإنها لما كُسرت قَتل منهم عسكر مصر خلقا كثيرا فى الرمل، وأسروا أكثر مما قتلوا.

وتعين الظفر للناصر وهو ثابت فى القلب، واتجاهه المعز أيبك أيضا فى القلب فخاف أمراء الناصر منه أن يفنيهم إذا تم له الأمر، وخامروا عليه وفروا بأطلابهم إلى الملك المعز وهم، الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى، والأمير جمال الدين أقوش الحامى، والأمير بدر الدين بكتوت الظاهرى، والأمير سليمان العزيزى، وجماعة غيرهم. فخارت قوى الناصر من ذهاب المذكورين إلى الملك المعز، فحمل المعز بمن معه على سناجق الناصر، ظنا منه أن الناصر تحتها. وكان الناصر - لما فارقه الأمراء إلى عند المعز - قد خرج من تحت السناجق فى شرذمة قليلة، فخاب ما أمَّله المعز أيبك، وعاد إلى مركزه خائبا وقد قوى الشاميون بذلك، وتبعوه يقتلون منه وينهبون.

وسُرَّ الأمراء القيمرية بذلك، وقصدوا الحملة على المعز ليأخذوه، فوجدوا أصحابهم قد تفرقوا فى طلب الكسب والنهب. فحمل المعز عليهم وثبتوا له، ثم انحاز إلى جانب يريد الفرار إلى جهة الشوبك. ووقف الناصر فى جمع من العزيزية وغيرهم تحت سناجقه وقد اطمأن، فخرج عليهم المعز - ومعه الفارس أقطاى - فى ثلاثمائة من البحرية، وقرب منه فخامر عدّة ممن كان مع الناصر عليه، ومالوا مع المعز والبحرية، فولى الناصر فارا يريد الشام فى خاصته وغلمانه. واستولى البحرية على سناجقه، وكسروا صناديقه ونهبوا أمواله.

وساق المعز يريد الأطلاب، فوقع بطلب الأمير شمس الدين لؤلؤ، والأمير حسام الدين القيمرى، والأمير ضياء الدين القيمرى، وتاج الملوك بن المعظم، والأمير شمس

الدين الحميدى، والأمير بدر الدين الزرزارى، وجماعة غيرهم. فبدّد الملك المعز شملهم، وأَسَر المعظمَ تورانشاه بن صلاح الدين، وأخاه نُصرة الدين محمد، والملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل، والملك الأشرف صاحب حمص، والملك الزاهر، والأمير شهاب الدين القيمرى، والأمير حسام الدين طرنطاى العزيزى، والأمير ضياء الدين القيمرى، والأمير شمس الدين لؤلؤ مدبر المملكة الحلبية، وأعيان الحلبيين وخلقا كثيرا وقُتِل الأمير شمس الدين الحميدى، والأمير بدر الدين الزرزارى، وجماعة غيرهم.

وكان الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى على ميسرة عسكر المصريين، فلما وقعت الكسرة على الميسرة تفرق عنه أصحابه، وتقنطر عن فرسه وكاد يؤخذ، لولا أنه وقف معه من أركبه، فلحق بالمعز أيبك، فأمر الملك بضرب عنق الأمير شمس الدين لؤلؤ، فأخذته السيوف حتى قطع؛ وضُربت عنق الأمير ضياء الدين القيمرى وأتى بالملك الصالح إسماعيل وهو راكب، فسلم عليه الملك المعز وأوقفه إلى جانبه، وقال للأمير حسام الدين أبى على: «ما تُسَلِّم على المولى الصالح»، فدنا منه الأمير حسام الدين وعانقه وسلم عليه. وجُرح الملك المعظم، وابنه تاج الملوك، وضُرب الشريف المرتضى فى وجهه ضربة عظيمة، وهموا بقتله ثم تركوه.

وتمزق أهل الشام كل ممزق، ومشوا فى الرمل أياما، وصار الملك الناصر ومعه نوفل الزبيدى وعلىّ السعدى إلى دمشق. وأما العسكر الشامى الذى كَسَر ميسرة المصريين، فإنه وصل إلى العباسية ونزل بها، وضرب الدهليز الناصرى هناك، وفيهم الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة بدمشق وعدة من أمراء الناصر، وهم لا يشكُّون أن أمر المصريين قد بطل وزال، وأن الملك الناصر مُقْدِم عليهم ليسيروا فى خدمته إلى القاهرة. فبينا هم كذلك إذ وصل إليهم الخبر بهروب الملك الناصر، وقتل الأمراء وأسر الملوك وغيرهم. فهمَّ طائفة منهم أن يسيروا إلى القاهرة ويستولوا عليها، ومنهم من رأى الرجوع إلى الشام، ثم اتفقوا على الرجوع.

وأما من انهزم من عسكر مصر أولا، فإنهم وصلوا إلى القاهرة فى يوم الجمعة حادى عشره، غد يوم الوقعة، فما شك فى أن الأمر تم للملك الناصر، وأن أمر البحرية قد زال. وكان بقلعة الجبل الأمير ناصر إسماعيل [...(١)...] بن يغمور، أستادار الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فى جب وهو أمين الدولة أبو الحسن بن غزال - المتطبب المعروف بالسامرى وزير الصالح المذكور، والأمير سيف الدين القيمرى، وجماعة غيرهم

(١) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

أيضا، لهم من أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب فى الاعتقال. فلما بلغهم ذلك خرجوا من الجب، وأظهروا الفرح والاستبشار، وأرادوا أخذ القلعة. فلم يوافق الأمير سيف الدين القيمرى على ذلك، وتركهم وقعد على باب دار الملك المعز أيبك التى فيها عياله، وحماها وصدّ الناس عنها. وصاح البقية: «الملك الناصر يا منصورا».

وخُطب للناصر بالقلعة ومصر، وسائر البلاد التى بلغها خبر نصرته. وكان بجامع القاهرة الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقام على قدميه وخطب خطبتين خفيفتين، وصلى بجماعة الجمعة، وصلى قوم صلاة الظهر. فما هو إلا أن انقضت صلاة الجمعة، حتى وردت البشارة بانتصار الملك المعز وهزيمة الناصر، فدُقّت البشائر. وقدم جماعة ومعهم نصرة الدين بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فاعتقلوه بقلعة الجبل. وقُبض على الأمير ناصر الدين بن يغمور، والوزير أمين الدولة أبى الحسن بن غزال، ومن كان معهما، وأعيدوا إلى الجب. ونودى آخر النهار فى القاهرة ومصر بالزينة.

وأما الملك المعز فإنه ساق - بعدما تقدم ذكر من قتله الأمراء - إلى العباسية، فلما رأى دهليز الملك الناصر توهم، وعرج عن الطريق على العلاقمة إلى بلبيس[1]، ظنا أن واقعة وقعت بالقاهرة. فبلغ من كان بالدهليز الخبر فهدموه فى الليل، وساروا إلى الشام. فبلغ ذلك الملك المعز وهو فى بلبيس، فرحل يريد القاهرة وقد اطمأن، ودخلها يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة بالأسرى بين يديه، وسناجقهم مقلبة وطبولهم مشققة، وخيولهم وأموالهم بين يديه، إلى أن وصل إلى بين القصرين، فلعبت المماليك بالرماح وتطاردوا، والملك المعز فى الموكب، وإلى جانبه الأمير حسام الدين أبى على، وقدامه الملك الصالح إسماعيل تحت الاحتياط، فعندما وصل إلى تربة الملك الصالح نجم الدين أحدق المماليك البحرية بالصالح إسماعيل، وصاحوا: «يا خوند أين عينك ترى عدّوك إسماعيل» ثم ساروا إلى قلعة الجبل، واعتقل الصالح إسماعيل بها وبقية الملوك، وألقى الأسرى من الشاميين فى الجباب. وعندما دخل الملك المعز إلى القلعة، تلقاه الملك الأشرف موسى وهنأه بالظفر؛ فقال الأمير فارس الدين أقطاى للأشرف: «كلنا حصل بسعادتك، وما سعينا إلا فى تقرير ملكك»، وكان يؤثر بقاء الأشرف خوفا من استبداد المعز أيبك وكان هذا اليوم من أعظم أيام القاهرة، واستمرت الزينة بالقاهرة ومصر وقلعة الجبل وقلعة الروضة عدّة أيام.

وفى يوم الإثنين رابع عشره: شُنق الأمير ناصر الدين إسماعيل بن يغمور، أستادار

---

(١) مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. انظر معجم البلدان ٩١٢/١.

الصالح إسماعيل، وشنق بكجا ملك الخوارزمى وأمين الدولة أبو الحسن السامرى الوزير، على باب قلعة الجبل، ومعهم المجير بن حمدان من أهل دمشق. وظهر لأمين الدولة من الأموال والتحف والجواهر ما لا يوجد مثله إلا عند الخلفاء، بلغت قيمة ما ظهر له سوى ما كان مودوعا ثلاثة آلاف ألف دينار، ووجد له عشرة آلاف مجلدة، كلها بخطوط منسوبة، وكتب نفيسة.

وفى ليلة الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة: قُتل الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بقلعة الجبل؛ وعمره نحو الخمسين سنة. قال ابن واصل: من أعجب ما مَرّ بى أن الملك الجواد مودودا، لما كان فى حبس الملك الصالح إسماعيل، سير إليه الملك الصالح إسماعيل من خنقه، وفارقه ظنا أنه قد مات، فأفاق فرأته امرأة هناك، فأخبرتهم أنه قد أفاق، فعادوا إليه وخنقوه حتى مات. وفى هذه الليلة لما أخرجوا لذلك الصالح إسماعيل بأمر المعز أيبك إلى ظاهر القلعة، وكان معهم ضوء فأطفأوه، وخنقوه وفارقوه ظنا أنه قد مات، فأفاق فرأته امرأة هناك، فأخبرتهم أنه أفاق، فعادوا إليه وخنقوه حتى مات. فانظر ما أعجب هذه الواقعة! ودفن هناك؛ وكانت أمه رومية، وكان رئيس النفس نبيل القدر، مطاعا، له حرمة وافرة، وفيه شجاعة.

وفى ثامن عشريه: أخرج الملك المعز كل من دخل القاهرة من عسكر الملك الناصر، إلى دمشق على حمير، هُمْ وأتباعهم، ولم يمكن أحدا منهم أن يركب فرسا، إلا نحو الستة أنفس فقط، وكانوا نحو الثلاثة آلاف رجل.

وفيها وصل إلى الملك الناصر من قبل القان[١] ملك التتر طَمَغَا[٢] صورة أمان، فصار يحملها فى حياصته[٣]، وسير إلى القان هدايا كثيرة، فلما خرج هولاكو واستولى على الممالك، تغافل الناصر عنه ولم يبعث إليه شيئا؛ فعز ذلك عليه، وصار فى كل قليل ينكر تأخر تقديمة الناصر الهدايا والتحف إليه.

وفيها كثر ضرر المماليك البحرية بمصر، ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الأموال، وسبوا الحريم وبالغوا فى الفساد، حتى لو ملك الفرنج ما فَعَلوا فِعْلَهم.

---

(١) على هامش ط: كان قان –أو خاقان – التتر فى تلك السنة كيوك.

(٢) الطمغا كلمة تركية، معناها هنا البراءة التى تصدر من قبل السلطان أو الملك بالعفو عن مجرم أو تأمين خائف. والطمغا أيضا شعار السلطان أو الأمير.

(٣) على هامش ط: الحياصة هنا الحزام أو المنطقة.

وفى سابع عشر ذى الحجة: سار الأمير فارس الدين أقطاى من القاهرة فى ثلاثة آلاف إلى غزة، واستولى عليها.

وفى هذه السنة: قُدِّم البطرك أثناميوس[١] بن القس أبى المكارم، فى يوم الأحد رابع شهر رجب، الموافق الخامس بابه سنة سبع وستين وتسعمائة للشهداء. فأقام فى البطركية إحدى عشرة سنة وخمسة وخمسين يوما، ومات يوم الأحد أوَّل كيهك سنة ثمان وسبعين وتسعمائة للشهداء، الموافق لثالث المحرم سنة ستين وستمائة هجرية، وخلا الكرسى بعده خمسة وثلاثين يوما. وفيها مات الإمبراطور ملك الفرنج الألمانية بصقلية[٢]، وقام من بعده ابنه.

وخرجت هذه السنة والناصر يوسف بدمشق، وبيده ملك الشام والشرق؛ ومملكة مصر بيد الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى، ويخطب معه للأشرف موسى، والمعتمد عليه فى أمور الدولة من البحرية ثلاثة أمراء: وهم الأمير فارس الدين أقطاى، وركن الدين بيبرس البندقدارى، وسيف الدين بلبان الرشيدى.

* * *

ومات فى هذه السنة من الأعيان

الملك المعظم غياث الدين تورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى، قتيلا فى يوم الإثنين تاسع عشرى المحرم. ومات الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى، قتيلا فى ليلة الأحد سابع عشرى ذى القعدة، عن نحو خمسين سنة. ومات

(١) اسم هذا البطريق أثناميوس وهو السادس والسبعون من بطاريقة الأقباط بالإسكندرية.

(٢) جزيرة صقلية فى قطعة من البحر الشامى بينها وبين أقرب برّ من مالطة ثمانون ميلاً؛ افتتحها المسلمون فى صدر الإسلام وغزاها أسد بن الفرات الفقيه أميرًا وقاضيًا سنة اثنتى عشرة ومائتين، ففزع فيه البطريق النصرانى قائد صاحب صقلية إلى زيادة الله فعرض عليه أمر صقلية والظفر بها، وصقلية اسم لإحدى مدنها فنسبت الجزيرة كلها إليها، وفيها مدن كثيرة، وهى جزيرة عظيمة ضخمة حصينة خطيرة قيل إن فيها مائة بلد وثلاثين بلدًا بين مدينة وقلعة غير ما بها من الضياع والمنازل. وطول هذه الجزيرة سبعة أيام وعرضها خمسة أيام، وفتحت فى سنة اثنتى عشرة ومائتين، فتحها زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير القيروان، بعث إليها أسد بن الفرات، كما قدمناه، فمشى فى مراكبه إلى سرقوسة، مدينة من مدن الجزيرة، فنزل بمرساها، وقاتل البطريق الذى كان بها حتى قتله. قالوا: ومعنى صقلية باللسان القديم: تين وزيتون. انظر معجم البلدان ٣/ ٤١٦، والروض المعطار ٣٦٦، ٣٦٧.

الأمير شمس لؤلؤ الأمينى، مقدم عسكر حلب، قتيلا فى يوم الخميس عاشر ذى القعدة. وتوفى رشيد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن طاهر بن على بن فتوح بن رواج الإسكندرى المالكى، عن أربع وتسعين سنة، فى [...[١]...] وتوفى الحافظ شمس الدين أبو الحجاج يوسف بن خليل بن قراجا بن عبد الله الدمشقى بحلب[٢]، عن ثلاث وتسعين سنة.

* * *

(١) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

(٢) يوسف بن خليل بن قراجا بن عبد الله، أبو الحجاج، شمس الدين الدمشقى ثم الحلبى: محدث، حنبلى. ولد وتفقه بدمشق. وقام برحلة إلى بغداد وأصبهان ومصر، وتفرد فى وقته بأشياء كثيرة عن الأصبهانين، فكان أوسع معاصريه رحلة وأكثرهم كتابة. وجمع لنفسه «معجما» عن أزيد من خمسمائة شيخ باسم «الفوائد العوالى الصحاح». انظر الذيل على طبقات الحنابلة، طبعة الفقى ٢/ ٢٤٤ وشذرات الذهب ٥/ ٢٤٣ والتبيان لابن ناصر الدين ودار الكتب ١/ ١٣٦ والأعلام ٢٢٩/٨.

سنة تسع وأربعين وستمائة

فيها استولى الأمير فارس الدين أقطاى على الساحل ونابلس إلى نهر الشَّرِيْعَة[1]، وعاد إلى القاهرة. فسير الملك الناصر عسكرا من دمشق إلى غزة ليكون بها، فأقاموا على تل العجول. فخرج المعز أيبك، ومعه الأشرف موسى والفارس أقطاى وسائر البحرية، ونزل بالصالحية. فأقام العسكر المصرى بأرض السانح قريبًا من العباسة، والعسكر الشامى قريبا من سنتين، وترددت بينهما الرسل. وأحدث الوزير الأسعد الفائزى ظلامات عديدة على الرعية.

وفيها أمر الملك المعز أيبك بإخلاء قلعة الروضة، فتحول من كان فيها من المماليك والحَرَسِيَّه[2] وغيرهم. وفيها عزل قاضى القضاة عماد الدين أبو القاسم بن أبى إسحاق ابن المقنشع - المعروف بابن القطب الحموى، عن قضاء مصر؛ وأضيف ذلك إلى قاضى القضاة بدر الدين السنجارى. وسافر الأمير حسام الدين أبو على إلى الحجاز - وترك طلبه بالسانح وفيه من ينوب عنه - من البحر إلى قوص، ثم ركب البحر الملح إلى مكة. وفيها أشيع وصول البادرائى رسول الخليفة، ليصلح بين الناصر والمعز. فلما أبطأ قدومه، وكثرت الأقاويل، قال الأمير شهاب الدين غازى ابن أيَار المعروف بابن المعمار - أحد المجردين صحبة الأمير جمال الدين موسى بن يغمور: -

يُذكِّرنا زمانُ الزهد ذكرى زمانِ اللهو فى تَلِّ العجول
ونطلب مسلمًا يروى حديثا صحيحا من أحاديث الرسول

وفيها وقع بمكة غلاء عظيم.

* * *

ومات فى هذه السنة من الأعيان

قاضى القضاة ببغداد، واسمه كمال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن عبد السلام بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إبراهيم اللمغانى الحنفى.

وفيها توفى بهاء الدين أبو الحسن على بن هبة الله بن سلامة الجميزى الشافعى،

---

(1) أطلق هذا الاسم على نهر الأردن، بعد زمن الحروب الصليبية، وخصوصا جزؤه الواقع بين بحيرة طبرية إلى مصبه فى البحر الميت.

(2) على هامش ط: جمع حرس، وهو الجندى الموكل بحراسة مكان من الأمكنة.

خطيب القاهرة - وقد انتهت إليه مشيخة العلم - عن تسعين سنة، في يوم [......](١).

وفيها توفى الصاحب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح - الوزير بالشام، و الشاعر أيضًا - عن سبع وخمسين سنة، في [...(٢)...].

وفيها توفى رشيد الدين أبو محمد عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدى شيخ القراءات [......](٣).

وفيها توفى علم الدين قيصر بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن مسافر - المعروف بتعاسيف، الفقيه الحنفى، بدمشق في [......](٤) رجب، ومولده بأَصْفُون من صعيد مصر سنة أربع وسبعين وخمسمائة، وهو أحد الأئمة في العلوم الرياضية.

* * *

---

(١) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

(٢) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

(٣) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

(٤) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

سنة خمسين وستمائة

فيها قدم الأمير حسام الدين أبو على من الحجاز، فنزل فى المعسكر من أرض السانح بالصالحية، وقدم من بغداد الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن أبى سعد البادرائى، رسولا من الخليفة للإصلاح بين الملك المعز أيبك والملك الناصر. فتلقاه القاضى بدر الدين الخضر بن الحسن السنجارى من قطيا، ومعه جماعة، وتحدَّث معه فى ذلك. فأراد الناصر أن تقام له الخطبة بديار مصر، فلم يرض الملك المعز، وزاد بأن طلب أن يكون بيده - مع مصر - من غزة إلى عقبة فِيق.

وفيها وردت الأخبار بأن منكوخان ملك التتر سير أخاه هولاكو لأخذ العراق فسار وأباد أهل بلاد الإسماعيلية قتلا ونهبا، وأسرا وسبيا، ووصلت غاراته إلى ديار بكر وميافارقين، وجاءوا إلى رأس عين وسروج، وقتلوا ما ينيف على آلاف، وأسروا مثل ذلك، وصادفوا قافلة سارت من حران تريد بغداد، فأخذوا منها أموالا عظيمة، من جملتها ستمائة حمل سكر من عمل مصر، وستمائة ألف دينار. وقتلوا الشيوخ والعجائز، وساقوا النساء والصبيان معهم فقطع أهل الشرق الفرات، وفرّوا خائفين.

فعند ذلك أزال الملك المعز اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة، وانفرد باسم السلطنة، وسجن الأشرف، واستولى على الخزائن، وشرع فى تحصيل الأموال فأحدث الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد بن وهيب الفائزى حوادث، وقرر على التجار وعلى أصحاب العقار أموالا، ورتب مكوسًا وضمانات سَّماها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية، وأخذ الجوالى[1] من الذمة مضاعفة، وأحدث التصقِيع والتقويم[2] وعدَّة أنواع من المظالم، ورتب الملك المعز مملوكه الأمير سيف الدين قطز نائب السلطة بديار مصر، وأمَّر عدَّة من مماليكه فقويت شوكة البحرية وزاد شرهم، وصار كبيرهم، الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار الصالحى ملجأ لهم، يسألونه فى حوائجهم، ويكون هو المتحدّث مع الملك المعز.

---

(١) الجوالى جمع حالية، ولفظ حالية يطلق على أهل الذمة، وقد قيل لهم ذلك لأن الإمام عمر أجلاهم عن جزيرة العرب، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة... وإن لم يجلوا من أوطانهم.انظرمحيط المحيط.

(٢) التصقيع هنا إحصاء البيوت والعقارات، لأجل فرص ضريبة عليها. والتقويم: تقدير قيمة كل من البيوت المحصاة، من أجل الغرض نفسه.

وفيها أقطع الفارس أقطاى ثغر الإسكندرية، وكتب له به منشور. وتعدى شر البحرية، وكثر تمرّدهم وطغيانهم.

وخرجت السنة والملك المعز والعساكر بالسانح، وعساكر الشام بغزة، والملك الناصر مقيم بدمشق، والملك المغيث عمر بالكرك. وكان النيل عاليا: بلغ ثمانية عشر ذراعا وسبعة عشر إصبعا، وسدّ باب البحر عند المقس.

وفيها وقع بمدينة حلب حريق عظيم ظهر أنه من الفرنج، و تلف فيه أموال لا تحصى، واحترقت ستمائة دار.

وحج فى هذه السنة ركب العراق.

* * *

ومات فى هذه السنة من الأعيان

العلامة رضى الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد الحسن بن حيدر العمرى الهندى الصنعانى الحنفى اللغوى، مات ببغداد، ودفن بمكة عن ثلاث وسبعين سنة.

وتوفى فخر القضاة أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقى بن هبة الله بن الحسينى بن يحيى بن بصاقة الكنانى، الكاتب الوزير للناصر داود، و الأديب المنشئ، فى [......][1].

وتوفى شمس الدين أبو عبد الله بن سعد الله بن عبد الله بن سعد الأنصارى القدسى، الفقيه الشافعى المحدّث المقرئ، النحوى الأديب الكاتب المجوّد؛ مات بدمشق عن تسع وسبعين سنة.

وتوفى مُسْنَدُ العراق المؤتمن أبو القاسم يحيى بن نصر بن أبى القاسم بن الحسن بن قميرة التميمى، التاجر السفار، عن خمس وثمانين سنة، حدّث بمصر وغيرها.

وتوفى نقيب الأشراف - وقاضى العسكر، ومدّرس المدرسة الشريفية بمصر - الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد العلوى الحسينى الأرموى، على ما حدّثنا الأشراف، فى ثالث عشر شوّال خمسين وستمائة. وكان إماما فى الفقه والأصول مناظرا، تفقّه على الصدر بن حمويه، وشرح المحصول، ومات عن نيف وسبعين سنة.

* * *

---

(١) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

سنة إحدى وخمسين وستمائة

فيها تقرّر الصلح بين الملك المعز أيبك وبين الملك الناصر صاحب دمشق، بسفارة نجم الدين البادرائى. وقد قدم نجم الدين إلى القاهرة، وصحبته عز الدين أزدمر، وكاتب الإنشاء بحلب نظام الدين أبو عبد الله محمد بن المولى الحلبى، لتمهيد القواعد، فلم يبرحا إلى أن انفصلت القضية: على أن يكون للمصريين إلى الأردن، وللناصر ما وراء ذلك؛ وأن يدخل فيها للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله؛ وأن المعز يطلق جميع من أسره من أصحاب الملك الناصر. وحلف كل منهما على ذلك، وكتبت به العهود، وعاد الملك المعز وعسكره إلى قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء سابع صفر، ونزل البادرائى بالقاهرة، وأطلق الملك المعز الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأخاه نصرة الدين، وسائر أولاد الملوك والأمراء، وأحضرهم دار الوزارة ليشهدوا حلفه للملك الناصر. ثم قدَّم الملك المعز أيبك للملك المعظم تقدمة سنية، وأعطى نظام الدين بن المولى، ورفيقه عز الدين أزدمر، عشرة آلاف دينار.

وفيها قويت البحرية - وكبيرهم فارس الدين أقطاى - على المعز، وكثر قبضتهم واستطالتهم وتوثبهم على الملك المعز، وهموا بقتله.

وفيها تسلم المصريون قلعة الشوبك، فلم يبق مع الملك المغيث سوى الكرك والبلقاء وبعض الغور. وفيها قطع المعز خبز الأمير حسام الدين بن أبى على ، فلزم داره، ثم خرج إلى بلاد الشام بإذن الملك المعز له، فأكرمه الملك الناصر وأقامه فى خدمته بمائة فارس.

وفيها ثارت العربان ببلاد الصعيد وأرض بحرى، وقطعوا الطريق برا وبحرا، فامتنع التجار وغيرهم من السفر. وقام الشريف حصن الدين ثعلب بن الأمير الكبير نجم الدين على بن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب بن مُسْلِم بن أبى جميل الجمدى، وقال: «نحن أصحاب البلاد»، ومَنَع الأجناد من تناول الخراج، وصرَّح هم وأصحابه: «بأنا أحق بالملك من المماليك وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب، وهم خوارج خرجوا على البلاد». وأنفوا من خدمة الترك، وقالوا إنما هم عبيد للخوارج؛ وكتبوا إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستحثونه على القدوم إلى مصر.

واجتمع العرب - وهم يومئذ فى كثرة من المال والخيل والرجال، إلى الأمير حصن الدين ثعلب، وهو بناحية دَهْرُوط[(١)] صَرَبان؛ وأتوه من أقصى الصعيد، وأطراف بلاد البحيرة والجيزة والفيوم، وحلفوا له كلهم. فبلغ عدّة الفرسان اثنى عشر ألف فارس، وتجاوزت عدّة الرجالة الإحصاء لكثرتهم. فجهز إليهم الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار، والأمير فارس الدين أقطاى المستعرب، فى خمسة آلاف فارس. فساروا إلى ناحية ذَرَوَة[(٢)]، وبرز إليهم الأمير حصن الدين ثعلب، فاقتتل الفريقان من بكرة النهار إلى الظهر. فقدر الله أن الأمير حصن الدين تقنطر عن فرسه، فأحاط به أصحابه وأتت الأتراك إليه، فقتل حوله من العرب والعبيد أربعمائة رجل، حتى أركبوه. فوجد العرب قد تفرقوا عنه، فولى منهزما. وركب الترك أدبارهم، يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل، فَحَووا من الأسلاب والنسوان والأولاد والخيول والجمال والمواشى، ما عجزوا عن ضبطه، وعادوا إلى المخيم ببلبيس. ثم عدوا إلى عرب الغربية والمنوفية من قبيلتى سِنْبِس[(٣)] ولَوَاتَة[(٤)]، وقد تجمعوا بناحية سخا وسنهور، فأوقعوا بهم وسبوا حريمهم وقتلوا الرجال، وتبدد شمل عرب مصر وخمدت جَمْرَتُهم من حينئذ.

ولحق الشريف حصن الدين من بقى من أصحابه، وبعث يطلب من الملك المعز الأمان، فأمنه ووعده بإقطاعات له ولأصحابه، ليصيروا من جملة العسكر وعونا له على أعدائه. فانخدع الشريف حصن الدين، وظن أن الترك لا تستغنى عنه فى محاربة الملك الناصر، وقدم فى أصحابه وهو مطمئن إلى بلبيس. فلما قرب من الدهليز نزل عن فرسه ليحضر بمجلس السلطان، فقبض عليه وعلى سائر من حضر معه، وكانت عدتهم نحو ألفى فارس وستمائة راجل. وأمر الملك المعز فنُصبت الأخشاب من بلبيس إلى القاهرة وشُنق الجميع، وبعث بالشريف حصن إلى ثغر الإسكندرية، فحبس بها وسلّم لواليها الأمير شمس الدين محمد بن باخل. وأمر المعز بزيادة القطعية[(٥)] على العرب، وبزيادة

---

(١) تسمى تلك الناحية دروت سربام، ودروط سربان، وذروة سريام، ودروط الشريف، وديروط الشريف. ودهروط هى ديروط الحالية إحدى مراكز مديرية أسيوط. انظر الخطط التوفيقية ١١/ ٣، ٦.

(٢) توجد قريتان بهذا الاسم إحداهما بمديرية المنوفية، والثانية فى المرتاحية من قسم نوسة الغيط. انظر الخطط التوفيقية ١١/٧٣.

(٣) كان مقر تلك القبيلة مدينة سخا بالغربية. انظر مبارك، الخطط التوفيقية ١١/٤.

(٤) كانت لواتة بالمنوفية.انظر الخطط التوفيقية ١١/٤.

(٥) على هامش ط: القطعية ما يفرضه السلطان على ولاية أو ناحية من المال سنويا.

القَوْد[١] المأخوذ منهم، ومعاملتهم بالعنف والقهر. فذلّوا وقلوا، حتى صار أمرهم على ما هو عليه الحال فى وقتنا.

وفيه صاهر الأمير فارس الدين أقطاى الملك المظفر صاحب حماة، وسير إليه فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا - قبل أن يتقلد أبوه الوزارة، وإنما كان قد ترشح لها - لإحضار ابنة المظفر من حماة، فحملها إلى دمشق فى تجمل عظيم. فطلب أقطاى من الملك المعز أن يسكن قلعة الجبل بالعروس، فشق ذلك عليه وأخذ يتحيل فى قتله، وكان قد ثقل عليه، وصار ليس له مع البحرية أمر ولا نهى ولا حل ولا عقد، ولا يسمع أحد منهم له قولا فإن رسم لأحد بشىء لا يُمَكّن من إعداده وإن أمر لأحد منهم بشىء أخذ أضعاف ما رسم له به. واجتمع الكل على باب الأمير فارس الدين أقطاى، وقد استولى على الأمور كلها. وبقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر وغيره إليه، ولا يقدر أحد يفتح كتابا، ولا يتكلم بشىء ولا يبرم أمرًا، إلا بحضور أقطاى لكثرة خُشْدَاشِيَته[٢].

وفى هذه السنة: حج من البر والبحر عالم كبير، فإنها كانت وقفة الجمعة، وفيها أخذ الشريف جماز بن حسن مكة، وأقام بها إلى آخر ذى الحجة.

* * *

ومات فى هذه السنة من الأعيان

الشريف أبو سعد الحسن بن على بن قتادة بن إدريس الحسنى أمير مكة، واستقر بعده فى الإمارة ابنه أبو نمىّ، وأخوه إدريس بن على.

ومات الصالح أحمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان، صاحب عينتاب، عن إحدى وخمسين سنة.

وتوفى كمال الدين أبو محمد عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف بن نبهان الأنصارى الزَّملَكانى الدمشقى الشافعى، بدمشق.

وتوفى جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن مكى بن عبد الرحمن الإسكندرى، سبط الحافظ أبى الطاهر السلفى، وقد انتهى إليه علو الإسناد.

* * *

---

(١) القود ما يبعث من قبائل العرب إلى السلاطين من الهدايا.

(٢) على هامش ط: جمع خشداش وهو معرب .اللفظ الفارسى خواجاتاش، أى الزميل فى الخدمة.



سنة اثنتين وخمسين وستمائة

فيها استفحل أمر الفارس أقطاى الجمدار وانحازت إليه البحرية، بحيث كان أقطاى إذا ركب من داره إلى القلعة شَعَل بين يديه جماعة بأمره، ولا يُنْكِر هو ذلك منهم وكانت أصحابه تأخذ أموال الناس ونساءهم وأولادهم بأيديهم، فلا يقدر أحد على منعهم، وكانوا يدخلون الحمامات ويأخذون النساء منها غصبا، وكثر ضررهم.

هذا والمعز يحصل الأموال، وقد ثقل عليه أقطاى، فواعد طائفة من مماليكه على قتله: وبعث المعز إليه وقت القائلة من يوم الأربعاء ثالث شعبان، ليحضر إليه بقلعة الجبل فى مَشُوْر يأخذ رأيه فيه. فركب أقطاى على غير أهبة ولا اكتراث فعندما دخل من باب القلعة، وصار فى قاعة العواميد[1]، أغلق باب القلعة، ومُنع مماليكه من العبور معه. فخرج عليه جماعة بالدهليز قد أعِدّوا لقتله: وهم قُطُز وبَهَادُر وسَنْجَر الغَنْمِى، فَهَبَروه بالسيوف حتى مات. فوقع الصريخ فى القلعة والقاهرة بقتله، فركب فى الحال من أصحابه نحو السبعمائة فارس ووقفوا تحت القلعة، وفى ظنهم أنه لم يقتل وإنما قبض عليه، وأنهم يأخذونه من المعز، وكان أعيانهم بيبرس البندقدارى، وقلاوون والألفى، وسنقر الأشقر، وبَيْسرِى، وسِكِز، وبرامِق. فلم يشعروا إلا ورأس أقطاى قد رَمَى بها المعز إليهم، فسُقِط فى أيديهم وتفرقوا بأجمعهم. وخرجوا فى الليل من القاهرة وحرقوا باب القراطين فعرف بعد ذلك بالباب المحروق إلى اليوم[2] فمنهم من قصد الملك المغيث بالكرك، ومنهم من سار إلى الملك الناصر بدمشق، ومنهم من أقام ببلاد الغور والبلقاء والكرك والشوبك والقدس، يقطع الطريق ويأكل بقائم سيفه.

واتفق أن اثنى عشر من البحرية مرَوا فى تيه بنى إسرائيل[3]، فأقام به خمسة أيام حائرين، فلاح لهم فى اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه، فإذا مدينة عظيمة، ذات أسور وأبواب حصينة، كلها من رخام أخضر. فطافوا بداخل المدينة، وقد غلب عليها الرمل فى أسواقها ودورها، وصارت أوانيهم وملابسهم إذا أخذت تتفتت وتبقى هباء. فوجدوا فى صوانى بعض البزارين تسعة دنانير، قد نقش عليها صورة غزال حوله كتابة

---

(١) كان بالقلعة عدة قاعات، وكلها مخصصة لحاجات السلطان المنزلية.انظرابن شاهين، زبدة المماليك ٧٧٢٧٦.

(٢) المقصود باب القاهرة الشرقى.

(٣) بين أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة من أرض الشام. انظر ومعجم البلدان ٩١٢/١.

عبرانية. وحفروا مكانا، فإذا بلاطة، فلما رفعوها وجدوا صهريجا فيه ماءٌ أبرد من الثلج، فشربوا وساروا ليلتهم. فإذا بفريق عرب فحملوهم إلى الكرج، فعرضوا تلك الدنانير على الصيارف، فقال بعضهم هذه ضربت فى أيام موسى عليه السلام. وسألوا عن المدينة، فقيل هذه المدينة الخضراء، بنيت لما كان بنو إسرائيل فى التيه، ولها طوفان من رمل يزيد تارة وينقص أخرى، ولا يقع عليها إلا تائه. وصرفوا كل دينار بمائة درهم.

وسار منهم قشتمر العجمى، وشارباش العجمى، وسنجر الحاووك، والركن الفارقانى وسنقر الجبيلى، وسنقر الحُبَيْشِى الكبير، والحبيشى الصغير الحاجب، والصقلى، والغتمى وبلبان النجمى، وبكمش المسعودى، وأبو عبية، والنميسى، وفخر الدين ماما، وأيدمر، الجمدار الرومى، وسنقر الركنى، والحسام قريب سكز، وإيدغدى الفارسى، وبلبان الزُهَيرى، وسنجر البدرى، وإزدمر السيفى وإزدمر البواشقى مملوك الرشيدى الكبير، والعنتابى، والمستعربى وسنقر البُدَيْوِى، وأيبك الشقارى، وإيدغدى فتنة، وسيف الدين الأشل، والخولانى، وسنجر الشكارى، والمطروحى، وأيبك الفارسى، وأياس المقرى، فى جماعة كبيرة من المماليك الصغار الجمدارية الصالحية. وكان الحاكم المقدم على هؤلاء الأمير علم الدين سنجر الباشقردى -وهو أعقلهم وأعرفهم -، والأمير شمس الدين سنقر الجبلى - وهو أفرسهم وأشهرهم بالشطارة. فمضى هؤلاء إلى السلطان علاء الدين ملك السلاجقة الروم. فلما أصبح الملك المعز أيبك، وعلم بخروج الجماعة من القاهرة، قبض على من بقى منهم، وقتل بعضهم وحبس باقيهم، وأوقع الحوطة على أملاكهم وأموالهم ونسائهم وأتباعهم، واستصفى أموالهم وذخائرهم وشونهم. وظفر للفارس أقطاى بأموال عظيمة. ونودى فى القاهرة ومصر بتهديد من أخفى أحد من البحرية، وتمكن عند ذلك الملك المعز، وارتجع الإسكندرية إلى الخاص السلطانى، وخفف بعض ما أحدث من المصادرات والجبايات.

فلما وصل البحرية إلى غزة، وفيهم ركن الدين بيبرس البندقدارى، وسيف الدين بلبان الرشيدى وعز الدين أزدمر السيفى، وشمس الدين سنقر الأشقر، وسيف الدين سكز، وسيف الدين قلاوون، وبدر الدين بيبرس - كتبوا إلى الملك الناصر بأنهم قد وصلوا إلى خدمته، فأذن لهم وعَرَوا[1] على بلاد الفرنج بالساحل، فقتلوا ونهبوا حتى قاربوا دمشق. فخرج إلى لقائهم الملك الناصر، وخلع عليهم وأعطاهم. هذا وهم يحثونه على قصد مصر وهو يدافعهم.

---

(١) عراة معربه، أى ألم به وأتاه طالبا معروفا. وهو فعل متعد. انظر محيط المحيط.

فخاف المعز غائلتهم، وكتب إلى الناصر يوهمه منهم، ويخوفه عاقبة شرهم وطلب منه الناصر البلاد التى كان قد أخذها بالساحل لأجل البحرية، وأنها فى إقطاعتهم. فأعادها المعز إلى الملك الناصر، فأقر كل إقطاع منها بيد من كان له، وكتب مناشيرها عنه للبحرية.

وكتب الملك المعز إلى سلطان الروم بأن «البحرية قوم مناحيس أطراف[1]، لا يقفون عند الأيمان، ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم، وإن استأمنتهم خانوا، وإن استحلفتهم كذبوا، وإن وثقت بهم غدروا. فتحرَّر منهم على نفسك، فإنهم غدّارون مكارون خوانون، ولا آمن أن يمكروا عليك». فخاف سلطان الروم منهم، وكانوا مائة وثلاثين فارسا، فاستدعاهم وقال: «يا أمراء ما لكم ولأستاذكم؟»، فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى، وقال: «يا مولانا من هو أستاذنا؟»، قال: «الملك المعز صاحب مصر»، فقال الباشقردى: «يحفظ الله مولانا السلطان! إن كان الملك المعز قال فى كتابه أنه أستاذنا فقد أخطأ، إنما هو خوشداشنا ونحن وليناه علينا، وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرا وأفرس وأحق بالمملكة، فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا، فمر بنا منه وتشتتنا فى البلاد، ونحن التجأنا إليك» فأعجب سلطان الروم بهم، واستخدمهم عنده.

وفيها وقع الصلح بين الملك الناصر وبين الفرنج أصحاب عكا، لمدة عشر سنين وستة أشهر وأربعين يوما أولها مستهل الحرم، على أن يكون للفرنج من نهر الشريعة مغربا، وحلف الفريقان على ذلك.

وفيها أقطع الملك المعز أيبك الأمير علاء الدين إيدغدى العزيزى دمياط، زيادة على إقطاعه، وارتفاعها يومئذ ثلاثون ألف دينار، وفيها خرج الملك المعز من قلعة الجبل بالعساكر وخيم بالبارِدَة[2] قرب العباسية خوفا من البحرية لنزولهم بالموجاء.

وفيها سَفّر الملك المعز أيبك الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن الملك المسعود إلى بلاد الأشكرى منفيا، وفيها درَّس الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بالمدرسة الصالحية بين القصرين. وفيها وصل الشريف عز الدين أبو الفتوح مرتضى ابن أبى طالب أحمد بن محمد بن جعفر الحسينى إلى دمشق، ومعه الخونده ملكة خاتون بنت السلطان علاء الدين كيقباد ملك السلاجقة الروم، وزوجة الملك الناصر يوسف. فزفت إليه، وقد احتفل بقدومها، وبالغ فى عمل الوليمة لها.

---

(١) جمع طرف، وهو هنا الرجل الذى لا يثبت على صحبة أحد. انظر محيط المحيط.

(٢) الباردة يقال لها السعيدية وهى التى سميت فيما بعد باسم الخشبى.

وفيها ظهرت نار بعدن روعت القلوب. وفيها ولّى المنصورُ قضاء حماة شمسَ الدين إبراهيم بن هبة الله البارزى، بعد المحيى حمزة بن محمد.

وفيها مات ملك التتر طَرْطَق خان بن دوشى خان بن جنكز خان، فكانت مدّته سنة وشهورا. فقام بعده بركة خان بن جوشى خان بن جنكز خان، وأسلم وأظهر شعائر الإسلام فى مملكته واتخذ المدارس وأكرم الفقهاء. وأسلمت زوجته جِجِك، واتخذت لها مسجدا من الخيم، وذلك على يد الشيخ نجم الدين كِبْرا.

وفيها توفى مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم بن محمد ابن تَيْمِيَة الحرانى الحنبلى[1] عن اثنتين وستين سنة.

وتوفى كمال الدين أبو سالم محمد بن أحمد بن هبة الله بن طلحة النصيبينى الشافعى خطيب دمشق بحلب، وقد قدم القاهرة.

وفيها أخذ مكة الشريف راجح بن قتادة من الشريف جماز بن حسن، بغير قتال؛ ثم أخذها ابنه غانم بن راجح فى ربيع الأول بغير قتال؛ فقام عليه الشريف أبو نُمِيّ بن أبى سعيد بن على بن قتادة فى شوّال ومعه الشريف إدريس، وحارباه وملكا مكة. فقدم فى خامس عشرى ذى القعدة مبارز الدين الحسين بن على بن برطاس من اليمن، وقاتلهما وغلبهما، وحج بالناس.



---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم النميرى الحرانى الدمشقى الحنبلى، أبو العباس، تقى الدين بن تيميه الإمام، شيخ الإسلام. ولد فى حران وتحول به أبوه إلى دمشق فذيع واشتهر. وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية. ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ، واعتقل بها سنة ٧٢٠ هـ وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلا بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها فى جنازته. كان كثير البحث فى فنون الحكمة داعية إصلاح فى الدين. آية فى التفسير والأصول، فصيح اللسان قلمه ولسانه متقاربان. وفى الدرر الكامنة: أنه ناظر العلماء واستدل وبرع فى العلم والتفسير وأفتى ودرس وهو دون العشرين. أما تصانيفه ففى الدرر أنها ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، وفى فوات الوفيات: أنها تبلغ ثلاثمائة مجلد، منها «بجوامع» فى السياسة الإلهية والآيات النبوية، ويسمى «السياسية الشرعية» و«الفتاوى» و«الإيمان» و«يجمع بين النقل والعقل» و«منهاج السنة» و«الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان» و«الواسطة بين الحق والخلق» و«الصارم المسلول على شاتم الرسول» ومجموع الرسائل فيه ٢٩ رسالة، و«نظرية العقد» وغير ذلك. انظر فوات الوفيات ٣٥/١١–٤٥، والمنهج الأحمد، والدرر الكامنة ١٤٤/١ والبداية والنهاية ١٣٥/١٤، وابن الوردى ٢٨٤/٢، وآداب اللغة ٢٤٣/٣، والنجوم الزاهرة ٢٧١/٩، ودائرة المعارف الإسلامية ١٠٩/١ والأعلام ١٤٤/١.

سنة ثلاث وخمسين وستمائة

فيها سار الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى إلى بلاد الصعيد، وأظهر الخروج عن طاعة الملك المعز، وجَمَع العربان. فسير إليه الملك المعز الوزيرَ الصاحب الأسعد شرف الدين الفائزى، ومعه طائفة من العسكر، حتى سكّن الأمور. وأخرج الملك الناصر عسكرًا إلى جهة ديار مصر، ومعهم البحرية: وهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيد، وعز الدين أزدمر، وشمس الدين سنقر الرومى، وشمس الدين سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسرى، وسيف الدين قلاوون، وسيف الدين بلبان المسعودى، وركن الدين بيبرس البندقدارى، وعدة من مماليك الفارس أقطاى.

وفيها قَتَل الملكُ المعز الأميرَ علاء الدين إيدغدى العزيزى، بعدما قبض عليه؛ وكان قد قبض أيضًا على الفارس أقطاى العزيزى، والفارسى أقطاى الأتابك، وهرب منه أقش الركنى، وأمر الملك المعز ألا تخرج امرأة من بيتها، ولا يمشى رجل بلا سراويل. فقال أبو الحسين الجزار فى ذلك:

حَنَا الملك المعز على الرعايا ... وألزمهم قوانين المُرُوَّة
وصان حريمهم من كل عار ... وألبسهم سراويل الفتوّة

وفيها توجه الناصر داود بن المعظم عيسى إلى بغداد، يطلب ما أودعه عند الخليفة من الجوهر، وقيمته مائة ألف دينار. فمُطِل مدة، فتوجه إلى الحجاز، واستشفع إلى الخليفة فى ردّ وداعته، وعاد إلى العراق. فعوض عن جوهره بما لا يذكر، ورُدّ إلى الشام، وفيها قدم مكة أبو نُمِىّ وإدريس، ومعهما جماز بن شيحة أمير المدينة، فقاتلوا المبارز بن بِرطاس، وأخذوا مكة.

* * *

ومات فى هذه السنة من الأعيان

الأمير شرف الدين يوسف بن أبى الفوارس بن موسك القيمرى بنابلس، ودفن بدمشق. وتوفى نقيب الأشراف بحلب، وهو الشريف عز الدين أبو الفتوح مرتضى بن أبى طالب أحمد بن أحمد بن أبى الحسن محمد بن جعفر بن زيد بن جعفر بن إبراهيم محمد بن ممدوح أبى العلاء، عن أربع وسبعين سنة بحلب.

وتوفى نظام الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عثمان البلخى الحنفى البغدادى، بحلب عن تسع وسبعين سنة.

وتوفى ضياء الدين أبو محمد جعفر بن يحيى بن سالم بن يحيى بن عيسى بن صقر الحلى الشافعى، عن نيف وتسعين سنة بحلب، قدم مصر وحدَّث بها.

* * *

سنة أربع وخمسين وستمائة

فيها ورد الشيخ نجم الدين علم عبد ا لله بن محمد بن الحسن البادرائى، من قبل الخليفة المستعصم با لله؛ ليجدد الصلح بين الأوّل وبين الملك الناصر والملك المعز، فبعث السلطان إلى القائد برهان الدين خضر السنجارى، فسار إلى قطبا، ومعه جماعة من أعيان الفقهاء، حتى قدم به. فقرَّر الصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب من الساحل ببلاد الشام، مع مُلك مصر، وأن الملك الناصر لا يأوى عنده أحدا من البحرية، فمضوا إلى المغيث بالكرك. وتولى الصلح قاضى القضاة بدر الدين السنجارى؛ فلما تم الصلح عاد البادرائى، ورحل الملك الناصر عن تل العجول إلى دمشق، وعاد المعز من العباسية - بعد إقامته عليها ثلاث سنين - إلى قلعة الجبل.

وسار الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولا إلى الخليفة ببغداد، وصحبه الشيخ نجم الدين البادرائى، يلتمس تشرفه بالتقلد والخلع والأولوية للملك المعز، أسوة من تقدمه من ملوك مصر؛ فسار إلى بغداد. وبعث الملك المعز إلى الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة[1] وإلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، يخطب ابنتيهما لنفسه. فشق ذلك على زوجته شجر الدر وتغيرت عليه، فتنكر لها وفسد ما بينهما، فأخذت تدبر فى قتله.

وفى خامس جمادى الآخرة: ظهرت نار بأرض الحجاز، واستمرت شهرا فى شرقى المدينة النبوية، بناحية وادى شَظَا[2] تلقاء جبل أُحُد[3]، حتى امتلأت تلك الأودية منها وصار يخرج منها شرر يأكل الحجارة، وزلزلت المدينة بسببها. وسمع الناس أصواتا مزعجة قبل ظهورها بخمسة أيام، أولها يوم الإثنين أوّل الشهر، فلم تزل الأصوات ليلا ونهارا، حتى ظهرت النار يوم الجمعة. وقد انبجست الأرض عن نار عظيمة عند وادى شظا، وامتدت أربعة فراسخ فى عرض أربعة أميال وعمق قامة ونصف، وسال الصخر

---

(١) محمد بن محمود المنصور بن عمر المظفر بن شاهنشاه، تقى الدين، الملك المظفر: صاحب حماة. مولده ووفاته فيها. كان شجاعا كريما ذكيا محبا للعلماء. ولى حماة سنة ٦٢٦ هـ إلى أن توفى. انظر روض المناظر وتاريخ ابن الوردى ٢/ ١٧٤ وأبو الفداء ١٤٤/٣ والأعلام ١٨٢/٧.

(٢) هو جبل بمكة. انظر معجم البلدان ٢٩٢/٣.

(٣) هو جبل بشمالى المدينة بينه وبينها قرابة ميل. انظر معجم البلدان ١٤٤/١.

منها، ثم صار فحما أسود. وأضاءت بيوت المدينة منها فى الليل، حتى كأن فى كل بيت مصباحا، ورأى الناس سناها بمكة، فالتجأ أهل المدينة إلى قبر رسول الله ﷺ، ودَعَوا واستغفروا الله تعالى، وأعتقوا عبيدهم وتصدقوا، وقال بعضهم:

ياكاشف الضر صفحا عن جرائمنا	لقد أحاطت بنا يارب بأساء
نشكو إليك خطوبا لا نطيق لها	حَمْلا ونحن لها حقا أحقاء
زلازلا تخشع الصم الصلاب لها	وكيف يقوى على الزلزال شماء
بحرا من النار تجرى فوقه سفن	من الهضاب لها فى الأرض إرساء
ترى لها شررا كالقصر طائشة	كأنهما دِيْمَة تنصبُّ هطلاء
تُحَدِّث النيراتِ السبعَ ألسنُها	بما تلاقى به تحت الثرى الماء
منها تكاثف فى الجوّ الدخان إلى	أن عادت الشمس منها وهى دهماء
فيالها آية من معجزات رسول	الله يعقلها القوم الألباء
فاسمحْ وهبْ وتفضلْ وامحُ واعفُ وجدُ	واصفح فكل لفرط الحلم خُطَّاء

وذكر غير واحد من الأعراب الذين كانوا بحاضرة بلدة بُصْرى من أرض الشام، أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم فى ضوء هذه النار. وفى ليلة الجمعة مستهل شهر رمضان، احترق مسجد محمد رسول الله - ﷺ - من مَسرَجه القيِّم، وذهبت سائر صفوفه، وبعض عمده، واحترق سقف الحجرة الشريفة.

وفيها غرقت بغداد وهلك بها عالم عظيم، وسارت السفن فى أزقتها. وفيها قوى أمر هولاكو بن طولو خان بن جنكز خان، وظهر اسمه، وفتح عدّة قلاع بالشرق وفيها دخل مُقَدَّم من التتار إلى أرض الروم السلاجقة، ففر منه السلطان غياث الدين كيخسرو ومات فى فراره، فقام من بعده أولاده الثلاثة، وأخذ التتار قيسارية وما حولها، فصار لهم من بلاد الروم مسافة شهر.

وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى(١) ببغداد،

---

(١) محمد بن أحمد (أو محمد بن محمد بن أحمد) بن على، أبو طالب، مؤيد الدين الأسدى البغدادى المعروف بابن العلقمى: وزير المستعصم العباسى وصاحب الجريمة النكراء، فى ممالأة «هولاكو» على غزو بغداد. ارتقى إلى رتبة الوزارة (سنة ٦٤٢) فوليها أربعة عشر عاما. ووثق به «المستعصم» فألقى إليه زمام أموره، وولى له الوزارة مدة قصيرة ومات ودفن فى شهد موسى بن جعفر (الكاظمية) ببغداد. انظر الحوادث الجامعة لابن الفوطى ٢٠٨: ٣٣٦، والفخرى لابن الطقطقى، والبداية والنهاية ٢١٢/١٣ وشذرات الذهب ٢٧٢/٥، والوافى بالوفيات ١٨٥/١ والنجوم الزاهرة ٢٠/٧.

وتحدّثوا معه ووعدوا جماعة من أمراء بغداد مواعيد، والخليفة فى لهوه لا يعبأ بشىء من ذلك.

وفيها ولى تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن أبى القاسم ابن بنت الأعز[١] قضاء القضاة، عوضا عن بدر الدين يوسف السنجارى. وفيها سار إدريس إلى راجح، وأخذ مكة أبو نمى، فجاء راجح مع إدريس وأصلح بينه وبين أبى نمى. وفيها قدم مكة ركب الحاج من العراق، ولم يحج بعدها ركب من العراق.

* * *

ومات فى هذه السنة من الأعيان

شمس الدين يوسف بن قزغلى بن عبد الله أبو المظفر - هو سبط الحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى - الفقيه الحنفى الواعظ.

وتوفى شرف الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن هبة الله بن قرناص الخزاعى الحموى الفقيه الشافعى الأديب.

وتوفى زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد الوحد بن ظافر بن أبى الأصبع[٢] الفقيه الشافعى النحوى الأديب، عن خمس وستين سنة.

وتوفى الشيخ أبو الروح عيسى بن أحمد بن إلياس البونينى ببعلبك.

ومات ملك الروم غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، وقد ملك التتر قيصرية وميسرة معها، فقام بعده ابنه عز الدين كيقباد بن كيخسرو.

* * *

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خليفة العلامى المصرى الشافعى: وزير، فقيه، له نظم حسن. ولى الوزارة مع القضاء بمصر، ثم استعفى وتولى التدريس بالمدرسة المجاورة لضريح الشافعى. انظر فوات الوفيات ٢٥٦/١ وابن كثير ٣٤٦/١٣ والنجوم الزاهرة ٨٢/٨ الأعلام ٣١٥/٤.

(٢) عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبى الإصبع العدوانى، البغدادى ثم المصرى: شاعر، من العلماء بالأدب. مولده ووفاته حسنة، منها « بديع القرآن» فى أنواع البديع الواردة فى الآيات الكريمة وتحرير التحبير. انظر فوات الوفيات ٢٩٤/١ والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٧ ومعاهد التنصيص ١٨٠/٤ والفهرس التمهيدى ٢٣٨ والخزانة التيمورية ١٦١/١، ١٦٢ والأعلام ٣٠/٤.

سنة خمس وخمسين وستمائة

فيها تزايدت الوحشة بين الملك المعز أيبك وبين شجر الدر، فعزم على قتلها. وكان له منجم قد أخبره أن سبب قتلته امرأة، فكانت هى شجر الدر. وذلك أنه كان قد تغير عليها، وبعث يخطب ابنة صاحب الموصل.

واتفق أن المعز قبض على عدّة من البحرية، وهو على أم البادر، وسيرهم ليعتقلوا بقلعة الجبل، وفيهم أَيْدِكِين الصالحى. فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيه شجر الدر علم أيدكِين أنها هناك، فخدم برأسه وقال التركى: «المملوك أيدكِين بشمقدار وا لله يا خوند ما علمنا ذنبا يوجب مسكنا! إلا أنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل، ما هان علينا لأجلك، فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين» فأومأت شجر الدر إليه بمنديل، يعنى: «قد سمعت كلامك، فلما نزلوا بهم إلى الجب قال أيدكِين: «إن كان حبسنا فقد قتلناه».

وكانت شجر الدر قد بعثت نصرًا العزيزى بهدية إلى الملك الناصر يوسف، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز، والتزوج به وتمليكه مصر. فخشى الملك الناصر يوسف أن يكون هذا خديعة، فلم يجبها بشىء.

وبعث بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يحذر الملك المعز من شجر الدر وأنها باطنت الملك الناصر يوسف، فتباعد ما بينهما، وعزم على إنزالها من القلعة إلى دار الوزارة. وكانت شجر الدر قد استبدت بأمور المملكة ولا تطلعه عليها، وتمنعه من الاجتماع بأم ابنه وألزمته بطلاقها، ولم تطلعه على ذخائر الملك الصالح.

فأقام الملك المعز بمناظر اللوق أياما، حتى بعثت شجر الدر من حَلَف عليه. فطلع القلعة وقد أعدت له شجر الدر خمسة ليقتلوه: منهم محسن الجَوْجَرى، وخادم يعرف بنصر العزيزى، ومملوك يسمى سنجر. فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشرى شهر ربيع الأوّل، ركب الملك المعز من الميدان بأرض اللوق، وصعد إلى قلعة الجبل آخر النهار. ودخل إلى الحمام ليلا، فأغلق عليه الباب محسن الجوجرى، وغلام كان عنده شديد القوة ومعهما جماعة. وقتلوه بأن أخذه بعضهم بأنثييه وبخناقه، فاستغاث المعز بشجرة الدر فقالت اتركوه، فأغلظ لها محسن الجوجرى فى القول، وقال لها: «متى تركناه لا يبقى علينا ولا عليك»، ثم قتلوه.

وبعثت شجر الدر فى تلك الليلة أصبع المعز وخاتمه إلى الأمير عز الدين أيبك الحلبى الكبير، وقالت له: «قم بالأمر»؛ فلم يجسر وأشيع أن المعز مات فجأة فى الليل، وأقاموا الصائح فى القلعة، فلم تصدق مماليكه بذلك: وقام الأمير علم الدين سنجر الغتمى - وهو يومئذ شوكة البحرية وشديدهم -، وبادر هو والمماليك إلى الدور السلطانية، وقبضوا على الخدام والحريم وعاقبوهم، فأقروا بما جرى. وعند ذلك قبضوا على شجر الدر، ومحسن الجوجرى، ناصر الدين حلاوة، وصدر الباز؛ وفَرَّ العزيزى إلى الشام.

فأراد مماليك المعز قتل شجر الدر، فحماها الصالحية، ونقلت إلى البرج الأحمر[1] بالقلعة ثم لما أقيم ابن المعز فى السلطنة، حُمِلت شجر الدر إلى أمه فى يوم الجمعة سابع عشريه فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت. وألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها سراويل وقميص، فبيت فى الخندق أياما، وأخذ بعض أراذل العامة تكتة سراويلها. ثم دفنت بعد أيام - وقد نتنت، وحملت فى قفة - بتربتها قريب الشهد النفيسى. وكانت من قوة نفسها، لما علمت أنها قد أحيط بها، أتلفت شيئا كثيرا من الجواهر واللآلى، كَسَّرته فى الهاون.

وصُلب محسن الجوجرى على باب القلعة، ووُسِّط[2] تحت القلعة أربعون طواشيا وصلبوا من القلعة إلى باب زويلة. وقبض على الصاحب بهاء الدين بن حنا؛ لكونه وزير شجر الدر، وأخذ خطه بستين ألف دينار.

فكانت مدّة سلطنة الملك المعز سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوما، وعمره نحو ستين سنة وكان ملكا حازما شجاعا سفاكا للدماء: قتل خلقا كثيرا، وشنق عالما من الناس بغير ذنب ليوقع فى القلوب مهابته، وأحدث مظالم ومصادرات عمل بها من بعده ووزر له الصاحب تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، ثم صرفه، واستوزر القاضى الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى، فتمكن منه تمكنا زائدا. وأحدث القاضى الأسعد حوادث شنيعة من المظالم، واستناب فى الوزارة القاضى زين الدين يعقوب بن الزبير - كان يعرف اللسان التركى -؛ ليحفظ له مجالس أمراء الدولة، ويطالعه بما يقال عنه.

* * *

---

(١) على هامش ط: كان بقلعة الجبل عدة أبراج، وفيها هذا البرج الذى بناه السلطان الملك الكامل.

(٢) على هامش ط: معنى وسط هنا قطع نصفين.

الملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز أيبك(١)

أقامه أمراء الدولة سلطانا بقلعة الجبل، يوم الخميس سادس عشرى شهر ربيع الأول، سنة خمس وخمسين وستمائة، وعمره خمس عشرة سنة تقريبا، وحلفوا له واستحلفوا العسكر، ماخلا الأمير عز الدين أيبك الحلبى المعروف بأيبك الكبير، فإنه توقّف وأراد الأمر لنفسه، ثم وافق خوفا على نفسه. فركب الأمير قطز - هو والأمراء - وقبض على الأمير سنجر الحلّبى، يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر، واعتقله فركب الأمير أيبك الحلبى الكبير فى الأمراء الصالحية فلم يُوَفَّق، وتقنطر عن فرسه خارج باب زويلة، فأدخل إلى القاهرة ميتا.

وأقيم الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة على عادته، وصار مدبر الدولة الملك المنصور على.

وأقيم الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب الصالحى أتابك العساكر، عوضا عن الأمير علم الدين سنجر الحلبى واستمر الوزير شرف الدين الفائزى على عادته فَنَقَل عنه الأمير سابق الدين بوزيا الصيرفى، والأمير ناصر الدين محمد بن الأطروش الكردى أمير جاندار، أنه قال: «المملكة ما تمشى بالصبيان، والرأى أن يكون الملك الناصر». فتوهمت أم المنصور من أنه يرسل إلى الملك الناصر، وقبضت عليه وأدخلته إلى الدور، وأخذ خطه بمائة ألف دينار. واستقر فى الوزارة بعده قاضى القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن السنجارى، مضافا إلى القضاء وقد أعيد إليه. وأحيط بأموال الفائزى، وقبض على جماعة بسببه. ثم إن السنجارى استعفى من الوزارة وتركها فى ربيع الآخر، فتقلد الوزارة قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن خلف العلائى، المعروف بابن بنت الأعز، بعد السنجارى.

وفى ليلة الخامس عشر من جمادى الآخرة: خسف القمر بحمرة شديدة؛ وأصبحت الشمس حمراء، فأقامت كذلك أياما وهى ضعيفة اللون متغيرة.

وفيها بلغ البحرية الذين كانوا ببلاد السلاجقة الروم موت الملك المعز، فساروا فى البر والبحر، ووصلوا إلى القاهرة. فلم تطل مدتهم حتى كرهوا المنصور بن المعز، لكثرة لعبه بالحمام ومناقرته بالديوك، ومعالجته بالحجارة وركوبه الحمير الفُرْء فى القلعة، ومناطحته بالكباش.

---

(١) انظر ابن إياس ١/٩٣ والأعلام ٤/ ٢٦٥.

وفيها دخل الصارم أحمد عينه الصالحى بجماعة، فقتلوا الوزير الفائزى فى جمادى الأولى. وأخرج فى نخ[١]. قال ابن واصل: حكى القاضى برهان الدين أخو الصاحب بهاء الدين بن حنا قال: «دخلتُ على شرف الدين الفائزى وهو معتقل، فسألنى أن أتحدّث فى إطلاقه، بحكم أنه يحمل فى كل يوم ألف دينار علينا. فقلت له: وكيف تقدر على ذلك. فقال: أقدر عليه إلى تمام السنة، وإلى أن تمضى سنة يفرج الله تعالى». فلم يلتفت مماليك الملك المعز إلى ذلك وعجلوا بهلاكه وخنقوه، وحمل إلى القرافة ودفن بها.

وفيها وقعت الوحشة بين الملك الناصر وبين من عنده من البحرية، ففارقوه فى شوّال، وقصدوا الملك المغيث صاحب الكرك. فأخرج الأمير سيف الدين قطز العسكر الصالحية، فواقعوهم فى يوم السبت خامس عشر ذى القعدة، وأسروا الأمير سيف الدين قلاوون[٢]، والأمير سيف الدين بلبان الرشيدى؛ وقُتِل الأمير سيف الدين بلغان الأشرفى. وانهزم عسكر الكرك، وفيهم بيبرس البندقدارى الذى ملك مصر. وعاد العسكر إلى القاهرة، فَضَمَن الأميرُ شرف الدين قيران - المعزى وهو أستادار السلطان - الأميرَ قلاوون وأطلقه. فأقام قلاوون بالقاهرة قليلا، ثم اختفى بالحسينية عند سيف الدين قطليجا الرومى، فزوَّده وسار إلى الكرك.

وفيها بعث الخليفة إلى الناصر يوسف بدمشق خلعة وتقليدا وطوقا. وفيها حسَّن البحرية للملك المغيث أخذ ملك مصر، فكاتب عدّة من الأمراء ووعدهم. وفيها قوى هولاكو بن طولو بن جنكزخان، وقصد بغداد وبعث يطلب الضيافة من الخليفة فكثر الإرجاف ببغداد، وخرج الناس منها إلى الأقطار. ونزل هولاكو تجاه دار الخلافة وملك ظاهر بغداد، وقَتَل من الناس عالما كبيرا.

وفيها قدم إلى دمشق الفقراء الحَيْدَرِيَّة، وعلى رءوسهم طراطير، ولحاهم مقصوصة وشواربهم بغير قص. وذلك أن شيخهم حيدر، لما أسره الملاحدة قصوا لحيته وتركوا شاربه. فاقتدوا به فى ذلك، وبنوا لهم زاوية خارج دمشق، ومنها وصلوا إلى مصر.

* * *

(١) غطاء، والنخ البساط الطويل، وجمعه أنخاخ. انظرمحيط المحيط.

(٢) قلاوون الألفى العلائى الصالحى الغيمى، أبو المعالى، سيف الدين، السلطان الملك المنصور: أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، والسابع من ملوك الترك وأولادهم بمصر. كان من المماليك، قبجاقى الأصل، أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ هـ. وتولى سلطنة مصر سنة ٦٧٨ هـ مدة ملكه إحدى عشرة سنة وثلاثة شهر. انظر مورد اللطافة، لابن تغرى بردى ٤٤،٤٢ وابن إياس ١١٤/١ وخطط المقريزى ٢٣٨/٢ ووليم موير ٥٥ والنجوم الزاهرة ٢٩٢/٧ وفوات الوفيات ١٣٣/٢ والنهج السديد ٤٧٥ وما بعدها والأعلام ٥/ ٢٠٣.

ومات فى هذه السنة من الأعيان

نجم الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن بن أبى سعد البادرائى البغدادى الشافعى، رسول الخلافة وقاضى بغداد، عن إحدى وستين سنة.

وتوفى الوزير الصاحب الأسعد شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى.

وتوفى عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن أبى الحديد المدائنى، مؤلف كتاب الفلك الدائر على المثل السائر.

ومات متملك الروم علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيسرو بن علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان. وقام بعده أخوه عز الدين كيكاوس ابن غياث كيخسرو، فملك الططر قونية منه، فقفز منها إلى العَلايا[1].

* * *

(١) على هامش ط: هو ثغر بجنوبى آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

سنة ست وخمسين وستمائة

فيها وقع الغلاء بسائر البلاد، وارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر، وأبيع المكوك[1] القمح بحلب بمائة درهم، والشعير بستين درهما، والبطيخة الخضراء بثلاثين درهما، وبقية الأسعار من هذه النسبة.

وفى رابع شهر رمضان: سقطت إحدى مسانّ فرعون التى بعين شمس، فَوُجِد فيها نحو المائتى قنطار نحاس، وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار.

وفيها ملك هولاكو بغداد، وقتل الخليفة المستعصم با لله عبد ا لله فى سادس صفر، فكانت خلافته خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام. وانقرضت بمهلكه دولة بنى العباس من بغداد، وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة؛ فصحَّ حديث حبيب بن أبى ثابت، عن عبيد ا لله بن عبد ا لله بن عتبة[2]، أن رسول ا لله قام فقال: «يا معشر قريش! إن هذا الأمر لا يزال فيكم، وأنتم ولاته حتى تحدثوا أعمالا تخرجكم منه. فإذا فعلتم ذلك سلط ا لله عليكم شر خلقه، فالتحوكم كما يلتحى القضيب».

وقُتل الناس ببغداد وتمزقوا فى الأقطار، وخرب التتر الجوامع والمساجد والمشاهد، وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات، واستمروا على ذلك أربعين يوما. وأمر هولاكو بَعدِّ القتلى، فبلغت نحو الألفى ألف قتيل، وتلاشت الأحوال بها. وملك التتار أربل[3]، ودخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى طاعتهم.

وفيها كثر الوباء ببلاد الشام، فكان يموت من حلب فى كل يوم ألف ومائتا إنسان. ومات من أهل دمشق خلق كثير، وبلغ الرطل التمر هندى ستين درهما.

---

(١) المكوك جمعه - مكاكيك - مكيال للحبوب يسع صاعا ونصفا، والصاع قدر نصف ويبة، والويبة ثلاث كيلات. انظر محيط المحيط.

(٢) عبيد ا لله بن عبد ا لله بن عتبة بن مسعود الهذلى، أبو عبد ا لله: مفتى المدينة، وأحد الفقهاء السبعة فيها. من أعلام التابعين. وهو مؤدب عمر بن عبد العزيز. وقد ذهب بصره. مات بالمدينة. انظر تذكرة الحفاظ ٧٤/١ وسمط اللآلى ٧٨١ والوفيات ٢٧١/١ وتهذيب ٢٣/٧ وسير النبلاء المجلد الرابع، والجمع ٣٠١ وصفوة الصفوة ٥٧/٢ وحلية ٢/ ١٨٨ والأغانى ١٣٩/٩ وأمالى المرتضى ٦٠/٢، ٦٣ ونكت الهيمان ١٩٧ والتبريزى ٦٧/٣ والأعلام ١٩٥/٤.

(٣) قلعة حصينة ومدينة كبيرة فى طرف من المدينة. انظر معجم البلدان ٢٨٩/١.

وفيها أنفذ الملك الناصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هولاكو، ومعه تقادم وعدة من الأمراء فلما وصل الملك العزيز إلى هولاكو قدّم إليه ما معه، وسأله على لسان أبيه في نجدة ليأخذ مصر من المماليك، فأمر هولاكو أن يُتَوَجَّه إليه بعسكر فيه قدر العشرين ألف فارس. فطار هذا الخبر إلى دمشق، فرحل من كان بها من المماليك البحرية، وصاروا إلى الملك المغيث عمر بالكرك وحرَّضوه على أخذ مصر، فَجَمع الملكُ المغيث وسار.

فتجهز الأمير قطز، وخرج من القلعة بالعساكر في [...[1]...] فلما وصل الصالحية تسلل إلى الملك المغيث من كان كاتبه من الأمراء وصاروا إليه، فلقيهم قطز وقاتلهم. فانهزم الملك المغيث في شرذمة إلى الكرك، ومضى البحرية نحو الطور[2]، واتفقوا مع الشهْرَزُوْرِيَّة من الشرق. واستولى المصريون على من بقي من عساكر المغيث وأثقاله، وأسروا جماعة، وعادوا إلى قلعة الجبل. وقد تغير قطز على عدّة من الأمراء، لميلهم إلى الملك المغيث: فقبض على الأمير عز الدين أيبك الرومي الصالحي، والأمير سيف الدين بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي، والأمير بدر الدين بكتوت الأشرفي، والأمير بدر الدين بلغان الأشرفي، وجماعة غيرهم، وضرب أعناقهم في سادس عشري ربيع الأوّل، وأخذ أموالهم كلها.

وفيها فر طائفة من الأكراد من وجه عسكر هولاكو، يقال لهم الشهرزورية، وقدموا دمشق وعدّتهم نحو ثلاثة آلاف، ومعهم أولادهم ونساؤهم. فسر بهم الملك الناصر واستخدمهم ليتقوى بهم، فزاد عنتهم وكثر طلبهم حتى خافهم، وأخذ يداريهم وما يزيدهم ذلك إلا تمردًا عليه، إلى أن تركوه وساروا إلى الملك المغيث بالكرك، فسر بهم وتاقت نفسه إلى أخذ دمشق، فخاف الناصر وتخيل من الأمراء القيمرية اللذين في دمشق فاضطرب وتحير.

وفيها مات أمير بني مَرِين أبو يحيى بن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة[3]،

---

(١) ما بين المعقوفتين بياض في الأصل.

(٢) المقصود هنا طور سيناء.

(٣) أبو بكر بن عبد الحق محيو بن أبي بكر بن حمامة الزناتي المديني، وكنيته أبو يحيى: أول من نهض ببني مرين إلى مرتبة المغرب الأقصى. بايعه قومه بعد مصرع أخيه الأمير محمد سنة (٦٤٢ هـ). توفي بقصره في فاس. انظر الاستقصا ٢/٦ والذخيرة السنية ٦٧-٩١ وجذوة الاقتباس ١٠١ وتاريخ ابن الوردي ٢/٢٢١ وصاحب السلوك ٧٦ والأعلام ٢/٦٥.

فى رجب. وقام من بعده ابنه عمر[١]، ونازعه عمه يعقوب بن عبد الحق[٢] وأبو يحيى هو الذى فتح الأمصار، وأقام رسوم المملكة، وقسم بلاد المغرب بين عشائر بنى مرين، وقام بدعوة الأمير أبى زكريا بن أبى حفص صاحب تونس. وأبو يحيى أوّل من اتخذ الموكب الملكى منهم، وملك مدينة فاس. وقد استبد أبو يحيى بملك المغرب الأقصى، وبنو عبد الواحد بملك المغرب الأوسط، وبنو أبى حفص بإفريقية. وهذا وقد أشرفت دولة الموحدين بنى عبد المؤمن على الزوال.

وفى سنة ست خمسين هذه: قدم أولاد حسن مكة، وقبضوا على إدريس وأقاموا ستة أيام، فجاء أبو نميّ وأخرجهم و لم يُقتل بينهم أحد.

* * *

ومات فى هذه السنة من الأعيان

الخليفة العباسى المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر منصور ابن الظاهر بالله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أبى العباس أحمد، آخر خلائف بنى العباس مقتولا فى سادس صفر، بعدما أتلف عساكر بغداد لنهمته فى جمع المال فَدُهِيَ الإسلام وأهله بلينه وإسناده الأمر إلى وزيره ابن العلقمى، فإنه قطع أرزاق الأجناد، واستجر التتار حتى كان ما كان ومات الملك الناصر داود بن المعظم عيسى ابن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى، صاحب دمشق والكرك، بعدما مرت به خطوب كثيرة، عن ثلاث وخمسين سنة خارج دمشق. وله شعر بديع.

---

(١) عمر بن أبى بكر (وكنيته أبو يحيى) بن عبد الحق المرينى، أبو حفص من أمراء الدولة المرينية فى المغرب الأقصى. بويع بفاس بعد وفاة أبيه (سنة ٦٥٦) ولم يلبث أن تغلب عليه عمه يعقوب بن عبد الحق فنزل عن الإمارة. وأقطعه عمه مدينة مكناسة فرحل إليها وتولاها وقتله بعض أقربائه اغتيالا. انظر الاستقصا ٢/ ١٠ أو الذخيرة السنية ٩٢، ٩٨ وجذوة الاقتباس ٢٨٤ والأعلام ٥/ ٤٣.

(٢) يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة المرينى الزناتى، أبو يوسف السلطان المنصور بالله: سيد بنى مرين على الإطلاق من بربرى، من أصل عربى كانت له فى عهد أخيه وأبى بكر، إمارة بلاد تازاو بطوية وملوية (فى المغرب الأقصى) ولما مات أخوه (سنة ٦٥٦هـ) وولى ابنه (عمر ابن أبى بكر بن يعقوب كان فى رباط نازا). فأقبل إلى فاس، فجاءه الناس يبايعونه، فقاتل عمر (ابن أخيه) فنزل له هذا عن الأمر. وحددت البيعة ليعقوب. انظر الاستقصا ٢/ ١٠، ٣٢ والذخيرة السنية ٩٢ وجذوة الاقتباس ٣٤٩ واللمحة البدرية ٤٢، وروضة النسرين ١٢-١٦ والأنيس المطرب القرطاس ٥ والحلل الموشية ١٤٣-١٤٨ ونظم السلوك ٧٧-١٤٥ والأعلام ٨/ ٢٠٠.

وتوفى الحافظ زكى الدين أبو عبد الله عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله بن سلامة المنذرى الشافعى الإمام الحجة(١) عن خمس وسبعين سنة.

ومات محيى الدين أبو المظفر يوسف بن الحافظ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن ابن محمد بن على بن محمد بن جعفر بن الجوزى البكرى البغدادى الحنبلى، محتسب بغداد ورسول الخلافة، عن ست وسبعين سنة.

وتوفى الصاحب محيى الدين أبو عبد الله محمد بن نجم الدين أبى الحسن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زيد بن هارون بن موسى بن عيسى ابن عبد الله بن محمد بن عامر أبى جرادة العقيلى بن العديم الحنفى، عن ست وستين سنة بحلب.

وتوفى نظام الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد المجيد بن المولى الأنصارى الحلبى، صاحب الإنشاء بحلب.

وتوفى ناظر الجيش بحلب، واسمه عون الدين أو المظفر بن البهاء أبى القاسم عبد الحميد بن الحسن بن عبد الله بن الحسن بن العجمى الحلبى، عن خمسين سنة وتوفى الصاحب عز الدين أبو حامد محمد بن محمد بن خالد بن محمد نصر بن القيسرانى الحلبى، ناظر الدواوين بدمشق.

وتوفى الصاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن على بن يحيى الأزدى المكى(٢) الكاتب الشاعر الماهر، صاحب الإنشاء بديار مصر، عن خمس وسبعين سنة.

---

(١) عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله، أبو محمد، زكى الدين المنذرى: عالم بالحديث والعربية، من الحفاظ المؤرخين. له «الترغيب والترهيب» و«التكملة لوفيات النقلة»، أصله من الشام، تولى مشيخة دار الحديث الكاملية (بالقاهرة) وانقطع بها نحو عشرين سنة، عاكفا على التصنيف والتخريج والإفادة والتحديث. مولده ووفاته بمصر. انظر البداية والنهاية ٢١٢/١٣ والتبيان وفوات الوفيات ٢٩٦/١ وطبقات الشافعية ٥/ ١٠٨ وصلة التكملة للحسينى وخزانة القرويين ونوادرها والأعلام ٦١/٤.

(٢) زهير بن محمد بن على المهلبى العتكى، بهاء الدين: شاعر، كان من الكتاب، يقول الشعر ويرقه فتعجب به العامة وتستملحه الخاصة. ولد بمكة، ونشأ بقوص. واتصل بخدمة الملك الصالح أيوب بمصر، فقربه وجعله من خواص كتابه، وظل حظيا عنده إلى أن مات الصالح، فانقطع زهير فى داره إلى أن توفى بمصر. انظر وفيات الأعيان ١٩٤/١ والنجوم الزاهرة ٦٢/٧ وآداب اللغة ١٨/٣ وروض المناظر ١٤٥/١٢ والأعلام ٥٢/٣.

وتوفى الأمير سيف الدين على بن سابق الدين عمر بن قـزل[١] - المعروف بالمشدّ، عن أربع وخمسين سنة، وشعره غاية فى الجودة.

وتوفى شاعر بغداد جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور الصرْصَرِى[٢] الحنبلى شهيدا، عن ثمان وستين سنة.

وتوفى الأديب شرف الدين أبو الطيب أحمد بن محمد بن أبى الوفاء بـن الحَلاَوِى[٣] الموصلى، عن ثلاث وخمسين سنة بالموصل.

وتوفى الأديب سعد الدين أبو سعد محمد بن محيى الدين محمد بن على بن عربى، بدمشق[٤].

وتوفى الأديب نور الدين أبو بكر محمد عبد العزيز بن عبد الرحيم بن رستم الإسعردى، بدمشق.

---

(١) على بن عمر بن قزل التركمانى الياروقى المصرى، سيف الدين، المشدّ شاعر، من أمراء الديوان كان « مشدّ الديوان» بدمشق. ولد بمصر. وتقلب فى دواوين الإنشاء، وتوفى بدمشق. انظر دايون الإسلام وفوات الوفيات ٦٣/٢ والنجوم الزاهرة ٧/ ٦٤ والبداية والنهاية ١٣/ ١٩٧و آداب اللغة ٣/ ١٨ والأعلام ٣١٥/٤.

(٢) يحيى بن يوسف بن يحيى الأنصارى، أبو زكريا، جمال الدين الصرصرى شاعر، من أهل صرصر على مقربة من بغداد، سكن بغداد. وكان ضريرا. له ديوان شعر صغير ومنظومات فى الفقه وغيره. قتله التتار يوم دخلوا بغداد. انظر المنهج الأحمد والبداية والنهاية ٢١١/١٣ وذيل مرآة الزمان ٣٢٢،٢٥٧/١ وكشف الظنون ١٣٤٠ ودار الكتب ١٣٦/٣ والنجوم الزاهرة ٦٦/٧، ومرآة الجنان ٤٧/٤ أو الفهرس التمهيدى ٣٠٣ وحولة فى دور الكتب الأمريكية ٧٤ وانظر هدية العارفين ٥٢٣/٢ والأعلام ٨/ ١٧٧.

(٣) أحمد بن محمد بن أبى الوفاء بن الخطاب الربعى الموصلى، أبو الطيب شرف الدين بن الحلاوى: شاعر، من أهل الموصل، فيه ظرف ولطف، وفى شعره رقة وجزالة. رحل فى البلاد ومدح الخلفاء والملوك، ودخل فى خدمة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ولبس زى الجند، وتوجه معه إلى بلاد العجم للاجتماع بهولاكو، فمرض ومات فى الطريق. انظر فوات الوفيات ١٨٢،٦٩/١ والنجوم الزاهرة ٦٠/٧ والأعلام ٢١٩/١.

(٤) محمد بن محمد بن على بن عربى الطائر الحاتمى، سعد الدين بن الشيخ محيى الدين ابن عربى: شاعر. ولد فى ملطية، وسمع الحديث ودرس وناب فى دمشق وتوفى بها، ودفن بقرب أبيه. له «ديوان شعر» و«زاد المسافر وأدب الحاضر». انظر الوافى بالوفيات ١٨٦/١ ونفح الطيب ٤٠١/١ وشذرات الذهب ٢٨٣/٥ ومنتخبات التواريخ ٥١١ وفوات الوفيات ١٥٨/٢ بجلة المورد المجلد٢ العدد ٢ ٢٥٥ والأعلام ٣٩/٧.

وتوفى الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الحق بن يوسف الشاذلى[١] الزاهد، بصحراء عيذاب.

وتوفى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن أحمد بن أبى الفتح، خطيب مَرَدا، التركى الحنبلى عن سبعين سنة، بمردا من عمل دمشق، وكان قد حدّث بالقاهرة.

* * *

(١) على بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف بن هرمز الشاذلى المغربى، أبو الحسن: رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفية ولد فى بلاد «غمارة» بريف المغرب، ونشأ فى بنى زرويل أقرب شفشاون، وتفقه وتصوف بتونس، وسكن «شاذلية» قرب تونس، فنسب: لها ورحل إلى بلاد المشرق فحج ودخل العراق ثم سكن الإسكندرية. وتوفى بصحراء عيذاب فى طريقه إلى الحج. وكان ضريرا. انظر نكت الهيمان ٢١٣ وطبقات الشعرانى ٤/٢ ونور الأبصار ٢٣٤ وفهرست الكتبخانة ١١٢/٢، وخطط مبارك ١٤/ ٥٧ والرحلة العياشية ٢٥٩/٢ والتاج للزبيدى ٧/ ٣٨٨ والأعلام ٣٠٥/٤.

سنة سبع وخمسين وستمائة

فيها نازل التتار ماردين فلم ينالوا منها شيئا، فرحلوا عنها إلى ميافارقين وحاصروا أهلها، حت أكلوا من عدم الأقوات جلود النعال التى تلبس فى الرجلين.

وفيها خرج الملك المغيث من الكرك بعساكره يريد دمشق، فخرج الملك الناصر من دمشق إلى محاربته، ولقيه بأرِيْحَا[1] وحاربه، فانهزم المغيث إلى الكرك. وسار الناصر إلى القلس فأقام بعد أياما، ثم رحل إلى زَيْراء[2] فخيم على بركتها. وأقام هناك مدة ستة أشهر، والرسل تتردد بينه وبين المغيث إلى أن وقع الاتفاق بينهما، على أن الناصر يتسلم الطائفة من المغيث البحرية جميعهم، وأن المغيث يبعد عنه الشهرزورية، صارت الشهرزورية من بلاد الكرك إلى الأعمال الساحلية.

وسيّر الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى إلى الملك الناصر يلتمس منه الأمان، فحلف له وحضر ركن الدين بيبرس إليه على بركة زيزاء، ومعه بدر الدين بيسرى، وإيتمش المسعودى، وطيبرس الوزيرى[3]، وبلباى الرومى الدوادار، وأقوش الرومى ولاجين الدرفيل الدوادار، وكشتغدى المشرف، وأيدغمش الشيخى، وأيبك الشيخى، وبلبان المهرانى، وخاص ترك الكبير، وسنجر المسعودى، وأياز الناصرى، وسنجر الهمامى، وأيبك العلائى، وطمان الشقيرى، ولاجين الشقيرى، وسلطان الإلدكزى، وبلبان الإقسيسى، وعز الدين بيبرس. فأكرمه الملك الناصر، وأقطعه نصف نابلس وجينين وأعمالها، بمائة وعشرين فارسا. وبعث المغيث سائر البحرية إلى الملك الناصر، فرحل عن زيزاء إلى دمشق، وقبض على البحرية واعتقلهم.

---

(١) مدينة من أحل بلاد الغور بالشام، وفى الخبر أن عمر رضى الله عنه أحلى اليهود إلى أريحا وكانوا طلبوا إلى النبى ﷺ حين غلب عليهم أن يقرهم على أن لهم نصف الثمر، فقال: «نقركم متى شئنا»، فبقوا كذلك خلافة أبى بكر رضى الله عنه وصدرًا من خلافة عمر رضى الله عنه ثم أحلاهم إلى أريحا، ذكره مسلم بن الحجاج. انظر معجم البلدان ١/٢٢٧، ٢٢٨، والروض المعطار ٢٥.

(٢) وهى قرية كبيرة تابعة للبلقاء، وتطل على بركة واسعة. انظر معجم البلدان ٢/٩٦٦.

(٣) طيبرس بن عبد الله الجندى علاء الدين: أديب نحوى، من المماليك اشتراه أحد الأمراء فى «البيرة» وعلمه القرآن والخط، وأعتقه، فتقدم دمشق، فتفقه ومهر فى الأدب. ونظم ألفية ابن مالك ومقدمة ابن الحاجب، جامعًا بينهما فى أرجوزه سماها «الطرقة» تسعمائة بيت، وشرحها، ومات بالطاعون فى صالحية دمشق. انظر الكامنة ٢/٢٢٩ وشذرات الذهب ٦: ١٦١ وبغية الوعاة ٢٧٣. انظر الأعلام ٣ /٢٣٥.

وفيها قدم الملك العزيز بن الملك الناصر من عند هولاكو، وعلى يده كتابه ونصه: «الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب أنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[١] واستحضرنا خليفها[٢] وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم واستوجب منا العدم. وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة فجمع المال ولم يعبأ بالرجال. وكان قد نمى ذكره وعظم قدره، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال.

إذا تم أمر دنا نقصه ... توقَّ زوالا إذا قيل تم

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم

وكم من فتى بات فى نعمة ... فلم يدر بالموت حتى هجم

إذا وقفت على كتابى هذا، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روى زَمِيْن[٣]، تأمن شره وتنل خيره، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾[٤] ولا تعوّق رسلنا عندك كما عَوَّقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى كروان سراى[٥] فإن كانوا فى الجبال نسفناها، وإن كانوا فى الأرض خسفناها.

أين النجاة ولا مناص لهارب ... ولىَّ البسيطان الثرى والماء

ذلّت لهيبتنا الأسود وأصبحت ... فى قبضتى الأمراء والوزراء

فانزعج الناصر وسير حريمه إلى الكرك، وخاف الناس بدمشق خوفا كثيرًا لعلمهم أن التتر قد قطعوا الفرات، وسار كثير منهم إلى جهة مصر، وكان الوقت شتاء فمات خلائق بالطريق، ونهب أكثرهم. وبعث الناصر، عندما بلغه توجه هولاكو نحو الشام بالصاحب كمال الدين عمر بن العديم[٦] إلى مصر، يستنجد بعسكرها.

---

(١) سورة النمل آية ٣٤.

(٢) صيغة تحقير وتصغير على غير قياس.

(٣) معنى شاهنشاه روى زمين: ملك الملوك على وجه الأرض.

(٤) سورة النجم آيتا ٣٩، ٤٠.

(٥) كانت مصر تعرف فى بلاد التتر باسم كروان سراى.

(٦) عمر بن أحمد بن هبة بن أبى جرادة العقيلى، كمال الدين بن العديم مؤرخ، محدث، من الكتاب. ولد بحلب، ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق، وتوفى بالقاهرة. من كتبه «بغية الطلب فى تاريخ حلب». انظر فوات الوفيات ١٠١/٢ وإرشاد الأريب ١٨/٦ والجواهر المضيئة=

فلما قدم ابن العديم إلى القاهرة، فى يوم [......][١] عُقِد مجلس بالقلعة عند الملك المنصور، وحضر قاضى القضاة بدر الدين حسن السنجارى، والشيخ عز الدين بن عبد السلام: وسُئلا فى أخذ أموال العامة ونفقتها فى العساكر، فقال ابن عبد السلام: «إذا لم يبق فى بيت المال شىء أو أنفقتم الحوائض الذهب ونحوها من الزينة، وساويتم العامة فى الملابس سوى آلات الحرب، و لم يبق للجندى إلا فرسه التى يركبها، ساغ أخْذ شىء من أموال الناس فى دفع الأعداء. إلا أنه إذا دهم العدو، وجب على الناس كافة دَفْعُه بأموالهم وأنفسهم» وانفضوا. فوجد الأمير سيف الدين قطز سبيلا إلى القول، وأخذ ينكر على الملك المنصور وقال: «لابد من سلطان ماهر قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبر المملكة». وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور علىّ بن المعز أيبك، واستهتر فى اللعب وتحكّمت أمه فاضطربت الأمور. وطمع الأمير يوسف الدين قطز فى أخذ السلطنة لنفسه، وانتظر خروج الأمراء للصيد: فلما خرج الأمير علم الدين سنجر الغتمى، والأمير سيف الدين بهادر، وغيره من المعزية لرمى البندق - وكان يوم السبت رابع عشرى ذى القعدة - قبض قطز على المنصور وعلى أخيه قاقان وعلى أمهما، واعتقلهم فى برج بقلعة الجبل. فكانت مدّة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام.

* * *

الملك المظفر سيف الدين قَطز[٢]

جلس على سرير بقلعة الجبل يوم السبت، الرابع والعشرين من ذى القعدة، سنة سبع وخمسين وستمائة. وهو ثالث ملوك الترك بمصر.

وفى خامسه: وَلِى الوزراء زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير، وصُرف تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، فبلغ ذلك الأمراء فقدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قَبْض قطز على الملك المنصور، وتوثبه على المُلْك. فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة الشام ومصر، والتخوف مع هذا من الملك الناصر

=٣٨٦/١ وإعلام النبلاء ٣١٣/٢، ٤٦٤/٤ مجلة المجمع العربى ٢٣/ ٢٥١ والفهرس التمهيدى ٥٦٤ والنجوم الزاهرة ٢٠٨/٧ وتاج التراجم وابن الوردى ٢١٥/٢ ومرآة الجنان ١٥٨/٤ وشذرات الذهب ٣٠٣/٥ وزبدة الحلب مقدمة الناشر. صاحب آداب اللغة ٣/ ١٧٠ والأعلام ٤٠/٥.

(١) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

(٢) انظر مورد اللطافة لابن تغرى بردى ٣٥، ٣٨ وابن إياس ١/ ٩٦ والنجوم الزاهرة ٧٢/٧ وفوات الوفيات ١٣٢/٢ وذيل الروضتين ٢١٠ والأعلام ٢٠١/٥.

صاحب دمشق، وقال: «وإني ما قصدت إلاّ أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتّى ذلك بغير مَلِك. فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدوّ فالأمر لكم، أقيموا فى السلطنة من شئتم» فتفرقوا عنه، وأخذ يرضيهم حتى تمكّن. فبعث بالمنصور وأخيه وأمه إلى دمياط، واعتقلهم فى برج عمره وسماه برج السلسلة، ثم سيرهم إلى بلاد الأشكرى[1] وقبض على الأمير علم الدين سنجر الغنمى المعظمى، والأمير عز الدين أيدمر النجيبى الصغير، والأمير شرف الدين قيران المعزى، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير عز الدين أيبك النجمى الصغير، والأمير سيف الدين الدود خال الملك المنصور على بن المعز، والطواشى شقبل الدولة كافور لالا الملك المنصور، والطواشى حسام الدين بلال المغيثى الجمدار. واعتقلهم وحلّف الأمراء والعسكر لنفسه، واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن الزبير فى خامس ذى القعدة، واستمر بالأمير فارس الدين أقطاى الصغير الصالحى المعروف بالمستغرب أتابكا، وفوّض إليه وإلى الصاحب زين الدين؟ تدبير العساكر واستخدام الأجناد وسائر أمور الدولة، واحتفل باستخدام الجنود والاستعداد للجهاد.

وورد الخبر بقدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق، فكتب إليه الملك المظفر قطز وقد خافه كتابا يترقق فيه، ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه فى الملك ولا يقاومه، وأنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حلَّ بها أقعده على الكرسى، وقال فيه أيضًا: «وإن اخترتنى خَدَمْتُك، وإن اخترتَ قدمتُ ومن معى من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضورى سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره». فلما قدم على الملك الناصر كتاب قطز اطمأن.

وفيها سار هولاكو من بغداد بنفسه إلى ديار بكر، ونزل على آمد يريد حلب، ونازل حران ونصب عليها المجانيق - وكانت فى مملكة الناصر يوسف - حتى أخذها. وقطع بعضُ جيشه الفرات وعاثوا فى البلاد، فأجمع أهل حلب على الرحلة منها، وخرجوا جافلين. فاحترز نائبها المعظم تورانشاه بن الناصر يوسف، وجمع أهل الأطراف. وتقدم التتار حتى دنوا من حلب، فقتلوا كثيرًا من عسكرها الذين خرجوا إليهم، ثم رحلوا عنها عاجلا. فاضطرب الناصر وعزم على لقاء هولاكو، وخيَّم على بَرْزَة[2]. وكتب إلى الملك المغيث صاحب الكرك، وإلى الملك المظفر قطز، يطلب منهما نجدة. ومع هذا فكانت نفس الناصر قد ضعفت وخارت، وعظم خوف الأمراء

---

(١) على هامش ط: المقصود ببلاد الأشكرى هى الإمبراطورية البيزنطية بنيقته.

(٢) برزة: مدينة بالشام من عمل الغوطة. انظر معجم البلدان ٥٦٢/١، والروض المعطار ٨٧.

والعساكر من هولاكو: فأخذ الأمير زين الدين الحافظى يعظم شأن هولاكو، ويشير بألا يقاتل وأن يدارَى بالدخول فى طاعته. فصاح به الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى، وضربه وسبه وقال: «أنتم سبب هلاك المسلمين» وفارقه إلى خيمته فمضى زين الدين الحافظى إلى الملك الناصر، وشكا إليه ما كان من الأمير بيبرس. فلما كان الليل هجم طائفة من المماليك على الملك الناصر، ليقتلوه ويملّكوا غيره، وكان فى بستان، ففر هو وأخوه الملك الظاهر إلى قلعة دمشق. فبادر الأمراء القيمرية جمال الدين ابن يغمور والأكابر إلى القلعة، وأشاروا على الناصر بأن يخرج إلى المخيم، فخرج. وعندما خرج ركب بيبرس وسار إلى غزة، وبها الأمير نور الدين بدلان كبير الشهرزورية، فتلقاه وأنزله. وسير بيبرس إلى الملك المظفر قطز علاء الدين طيبرس الوزيرى ليحلّفه، فكتب إليه الملك المظفر أن يقدم عليه. ووعده الوعود الجميلة. ففارق بيبرس الناصرية، ووصل فى جماعة إلى مصر، فأنزله الملك المظفر بدار الوزارة، وأقبل عليه وأقطعه قليوب وأعمالها.

وبلغ الناصر أن هولاكو أخذ قلعة حران وسائر تلك النواحى، وأنه عزم على أخذ حلب، فاشتد جزعه وسيَّر زوجته وولده وأمواله إلى مصر، وخرج معهم نساء الأمراء وجمهور الناس. فتفرقت العساكر، وبقى الناصر فى طائفة من الأمراء. ونزل هولاكو على البيرة وأخذ قلعتها - وأخذ منها الملك السعيد بن العزيز عثمان بن العادل، وله بها تسع سنين فى الاعتقال، وولاه الصبيبة وبانياس -، ونزل على حلب.

ففر أهل دمشق وغيرها، وباعوا أموالهم بأبخس ثمن وساروا وكان الوقت شتاء، فهلك منهم خلق كثير، وسير الملك المغيث من بقى عنده من البحرية مقيدين على الجمال، وهم نحو الخمسين: منهم الأمير سنقر الأشقر. وسار أربعة من البحرية إلى مصر: وهم قلاوون الألفى، وبكتاش الفخرى أمير سلاح، وبكتاش النجمى، والحاج طيبرس الوزيرى.

وفيها كثرت الزلازل بأرض مصر.

وفى ثانى عشر جمادى الآخرة: جُبى التصقيع من أملاك القاهرة ومصر.

وفى شعبان: قُبض على رجل يعرف بالكورانى. وضرب ضربا مبرحا بسبب بدع ظهرت منه، وجَدّد إسلامه الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وأطلق من الاعتقال فأقام بالجبل الأحمر.

وفيها بنى هولاكو الرَّصَد بمدينة مَرَاغة[١]، بإشارة الخَوَاجا[٢] نصير الدين محمد الطوسى، وهو دار للفقهاء والفلاسفة والأطباء، بها من كتب بغداد شىء كثير وعليها أوقاف لخدامها.

وفيها استقل يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة، ملك بنى مرين، بملك فاس وعامة المغرب الأقصى.

وفيها سار عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج أرسلان ابنا كيخسرو بن كيقباد من قونية إلى هولاكو، فأقاما عنده مدّة ثم عادا إلى بلادهما.

* * *

ومات فى هذه السنة من الأعيان

الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأتابكى صاحب الموصل، فى ثالث عشر شعبان عن ثمانين سنة، دبَّر فيها الموصل نحو خمسين سنة. وقام من بعده ابنه الصالح إسماعيل، وسار ابنه علاء الدين علىّ مفارقا لأخيه إسماعيل إلى الشام.

وتوفى الشريف منيف بن شيحة الحسينى أمير المدينة النبوية.

وتوفى صدر الدين أبو الفتوح أسعد بن المنجا التنوخى الدمشقى الحنبلى، ناظر الجامع الأموى، عن ستين سنة بها.

وتوفى نجم الدين أبو الفتح مظفر بن محمد بن إلياس بن السيرجى الأنصارى الدمشقى الشافعى، محتسب دمشق ووكيل بيت المال بها.

وتوفى الأديب بهاء الدين أبو عبد الله محمد بن مكى بن محمد بن الحسين بن الدجاجية القرشى الدمشقى[٣] بها عن ست وستين سنة.

* * *

---

(١) هى من بلاد أذربيجان. انظر معجم البلدان ٤/٤٧٦، والروض المعطار ٥٣٥.

(٢) الخواجا هو المعلم من معانيه الكاتب والتاجر.

(٣) محمد بن مكى بن محمد القرشى بهاء الدين: أديب، له شعر فيه رقة. من أهل دمشق يقال له «ابن الدجاجية». انظر فوات الوفيات ٢/٢٦٦ وصلة التكملة والأعلام ٧/١٠٨.

سنة ثمان وخمسين وستمائة

فى المحرم: نزل هولاكو على مدينة حلب وراسل متوليها الملك المعظم تورانشاه بن الملك الناصر يوسف، على أن يسلمه البلد ويؤمنه ورعيته، فلم يجبه إلى طلبه وأبى إلا محاربته. فحصرها التتار سبعة أيام وأخذوها بالسيف، وقتلوا خلقا كثيرا وأسروا النساء والذرية ونهبوا الأموال مدّة خمسة أيام، استباحوا فيها دماء الخلق حتى امتلأت الطرقات من القتلى. وصارت عساكر التتر تمشى على جيف من قُتِل، فيقال إنه أسر منها زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان. وامتنعت قلعة حلب، فنازلها هولاكو حتى أخذها فى عاشر صفر، وخربها وخرب جميع سور البلد وجوامعها ومساجدها وبساتينها، حتى عادت موحشة. وخرج إليه الملك المعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فلم يعترضه بسوء لكبر سنه، فمات بعد أيام. ووجد هولاكو من البحرية تسعة أنفس فى حبس الملك الناصر، فأطلقهم وأكرمهم: منهم سنقر الأشقر، وسيف الدين سكز، وسيف الدين يرامق، وبدر الدين بكمش المسعودى، ولاجين الجمدار الصالحى، وكندغدى الصغير.

فلما وصل الخبر إلى دمشق بأخذ قلعة حلب اضطربت بأهلها. وكان الملك الناصر قد صادر الناس، واستخدم لقتال التتر، فاجتمع معه ما يناهز مائة ألف ما بين عرب وعجم فتمزق حينئذ الناس، وزهدوا فى أمتعتهم وباعوها بأبخس الأثمان، وخرجوا على وجوههم. ورحل الملك الناصر عن برزة، يوم الجمعة منتصف صفر، بمن بقى معه يريد غزة، وترك دمشق خالية، وبها عامتها قد أحاطت بالأسوار، وبلغت أجرة الجمل سبعمائة درهم فضة، وكان الوقت شتاء. فلم يثبت الناس عند خروج الناصر، ووقعت فيهم الجفلات حتى كأن القيامة قامت، وكانت مدّة مملكة الناصر بحلب ودمشق ثلاثا وعشرين سنة وسبعة أشهر، منها مدّة تملكه لدمشق عشر سنين تنقص خمسين يوما.

ولحق الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص بهولاكو، وسار الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة إلى مصر بحريمه وأولاده، وجفل أهل حمص وحماة.

وصار هولاكو إلى دمشق، بعد أخذ حلب بستة عشر يوما، فقام الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر العَقْرَبانى المعروف بالزين الحافظى، وأغلق أبواب دمشق، وجمع من بقى بها وقرر معهم تسليم المدينة إلى هولاكو فتسلمها منه فخر الدين المردفائى وابن صاحب أرزن، والشريف على - وكان هؤلاء قد بعث بهم هولاكو إلى

الملك الناصر وهو على برزة. فكتبوا بذلك إلى هولاكو، فسير طائفة من التتر وأوصاهم بأهل دمشق، ونهاهم أن يأخذوا لأحد درهما فما فوقه.

فلما كان ليلة الإثنين تاسع عشر صفر: وصل رسل هولاكو صحبة القاضى محيى الدين بن الزكى، - وكان قد توجه من دمشق إلى هولاكو بحلب، فخلع عليه وولاه قضاء الشام، وسيره إلى دمشق ومعه الوالى. فسكن الناس، وجُمعوا من الغد بالجامع، فلبس ابن الزكى خلعة هولاكو وجَمع الفقهاء وغيرهم وقرأ عليهم تقليد هولاكو. وقُرئت فرمانات هولاكو بأمان أهل دمشق، فكثر اضطراب الناس واشتدّ خوفهم.

وفى سادس عشر ربيع الأوّل: وصل نوّاب هولاكو، فى جمع من التتر صحبة كتبغا[1] نُويْن[2] فقرئ فرمان بالأمان. وورد فرمان على القاضى كمال الدين عمر التفليسى، نائب الحكم عن قاضى القضاة صدر الدين أحمد بن سنى الدولة، بأن يكون قاضى القضاة بمدائن الشام والموصل وماردين وميافارقين، وفيه تفويض نظر الأوقاف إليه من جامع وغيره، فقرئ بالميدان الأخضر.

وغارت جمائع التتر على بلاد الشام، حتى وصلت أطراف بلاد غزة وبيت جبريل والخليل وبركة زيزاء والصلت، فقتلوا وسبوا وأخذوا ما قدروا عليه، وعادوا إلى دمشق فباعوا بها المواشى وغيرها.

واستطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرمانا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم: فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان، ورشّوه على ثياب المسلمين فى الطرقات، وصبّوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب وصاروا يمرون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم[3]، ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم، وقالو جهرا: «ظهر الدين الصحيح دين المسيح». فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو وهو كتبغا فأهانهم وضرب بعضهم، وعظّم قدر قسوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم. وجمع الزين الحافظى من الناس أموالا جزيلة، واشترى بها ثيابا وقدّمها لكتبغا نائب هولاكو، ولبِيبْدَرا وسائر الأمراء والمقدمين من التتر، وواصل حمل الضيافات إليهم فى كل يوم، ثم خرج كتبغا وبيدرا إلى مَرْج بَرغُوْث[4].

---

(١) على هامش ط: هو صهر هولاكو.

(٢) على هامش ط: هو لفظ فارسى معناه مقدم ألف.

(٣) كانت تلك الكنيسة تابعة للطوائف اليونانية المسيحية.

(٤) هو على مسافة يوم من دمشق.

ووصل الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو، وبيده مرسوم أن يكون نائب السلطنة بدمشق والشام، فامتثل ذلك كتبغا، وصارت الدواوين وغيرها تحضر إلى الأشرف. ثم بعد أيام ثار الأمير بدر الدين محمد بن قَرْمَجاه والى قلعة دمشق، هو والأمير جمال الدين بن الصيرفى، وأغلقا أبوابها. فحضر كتبغا بمن معه من عساكر التتار، وحصروا القلعة فى ليلة السادس من ربيع الآخر. فبعث الله مطرا وبردا، مع ريح شديدة ورعود وبروق وزلزلة، سقط منها عدّة أماكن، وبات الناس بين خوف أرضى وخوف سمائى، فلم ينالوا من القلعة شيئا، واستمرّ الحصار عليها بالمجانيق - وكانت تزيد على عشرين منجنيقا - إلى ثانى عشرى جمادى الأولى. عند ذلك اشتدّ الرمى، وخرب من القلعة مواضع، فطلب من فيها الأمان ودخلها التتر فنهبوا سائر ما كان فيها، وحرقوا مواضع كثيرة، وهدموا من أبراجها عدّة، وأتلفوا سائر ما كان فيها من الآلات والعدد. وساروا إلى بعلبك فخربوا قلعتها، وسارت طائفة منهم إلى غزة، وخربوا بانياس وأسعروا البلاد خربا وملأوها قتلا ونهبا.

وفى يوم السبت ثانى عشرى شهر ربيع الأول: قدم الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى إلى القاهرة، فركب الملك المظفر قطز إلى لقائه، وأنزله فى دار الوزارة بالقاهرة، وأقطعه قصبة قليوب الخاصة.

وفيها ملك هولاكو ماردين، وقتل أمراءها وخرب أسوار قلعتها.

وفيها وصل الملك الناصر إلى قطيا، فخافه قطز وبرز بالعسكر إلى الصالحية. ففارق الناصر عدة من أمرائه ومن الشهرزورية، ولحقوا بقطز وأقاموا ببلبيس: منهم حسام الدين طرنطاى، وبدر الدين طيدمر الأخوث، وبدر الدين أيدمر الدوادار، وإيدغدى الحاجى. فعاد الناصر من قطيا وقد تمزق ملكه وتفرق الناس عنه، فنزل البلقاء.

ورجع قطز إلى قلعة الجبل، وقبض على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور، وأعتقه بقلعة الجبل وصادر كل من وصل إليه من غلمان الملك الناصر وكتابه وأخذ أموالهم، وألزم زوجة الملك الناصر بإحضار ما عندها من الجواهر، فأخذ منها جوهرا كثيرا، وأخذ من نساء الأمراء القيمرية أموالا جمة، وعاقب بعضهن، وأما الملك الناصر، فإن شخصا من غلمانه - يعرف بحسين الكردى الطَّبَرْدار[1] - قبض عليه وعلى ولده الملك العزيز، وعلى أخيه غازى، وإسماعيل بن شادى ومن معه، وبعث بهم إلى هولاكو.

---

(١) الطبرادر هو الذى يحمل طبر - أى فأس - السلطان، عند ركوبه فى المراكب وغيرها.

وفيها رحل هولاكو عن حلب يريد الرجوع إلى الشرق، وجعل كتبغا نوين نائبا عنه بحلب، وبيدرا نائبا بدمشق. وأخذ هولاكو معه من البحرية سبعة منهم: سنقر الأشقر، وسكز، وبرامق، وبكمش المسعودى.

وفيها وصلت رسل هولاكو إلى مصر بكتاب نصه: «مِن مِلك الملوك شرقا وغربا، القان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر قطز، الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز، وسار أمراء دولته وأهل مملكته، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله فى أرضه، خلَقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه. فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ. فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم البلاد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب. فأى أرض تأويكم، وأى طريق تنجيكم، وأى بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ومطركم علينا لا يُسمع فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند الكلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان. فأبشروا بالمذلة والهوان، **﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾**[1] **﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾**[2] فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم. فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم. فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلّطنا عليكم من له الأمور المقدّرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمى نحوكم شِرارها، فلا تجدون منا جاها ولا عزا، ولا كافيا ولا حرزا. وتُدْهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية. فقد أنصفنا إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقى لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشى عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

---

(١) سورة الأحقاف آية ٢٠.

(٢) سورة الشعراء آية ٢٢٧.

ألا قل لمصرٍ ها هُلاوُن(١) قد أتى ... بحدّ سيوف تُنتضى وبواتر
يَصير أعز القوم منا أذلة ... ويُلحق أطفالا لهم بالأكابر

فجمع قطز الأمراء، واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية: فقبض على الرسل واعتقلوا وشرع فى تحليف من تخيّره من الأمراء، وأمر بالمسير، والأمراء غير راضين بالخروج كراهة فى لقاء التتر.

فلما كان يوم الإثنين خامس عشر شعبان: خرج الملك المظفر بجميع عسكر مصر، ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم، من قلعة الجبل يريد الصالحية.

وفيه أحضر قطز رسل التتر، وكانوا أربعة، فوسط واحدا بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية. وعلقت رءوسهم على باب زويلة، وهذه الرءوس أوّل رءوس علّقت على باب زويلة من التتار. وأبقى الملك المظفر على صبى من الرسل، وجعله من جملة مماليكه.

ونودى فى القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج إلى الجهاد فى سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ.

وتقدّم الملك المظفر لسائر الولاة بإزعاج الأجناد فى الخروج للسفر، ومن وُجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع(٢). وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر، فطلب الأمراء وتكلم معهم فى الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل. فقال لهم: «يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته. فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين». فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلّفهم فى موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفضَّ الجمع.

فلما كان فى الليل ركب السلطان، وحرك كوساته وقال: «أنا ألقى التتار بنفسى» فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره. وأمر الملك قطز الأميرَ ركن الدين بيبرس البندقدارى أن يتقدّم فى عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار بيبرس إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله، وملك هو غزة.

---

(١) على هامش ط: صيغة لاسم هولاكو.

(٢) مفردها مِقْرَعَة: وهى خشبة يضرب بها. انظر المعجم الوسيط ٢/٧٣٥.

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يوما، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وأخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رَجَع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر.

وأمر الملك المظفر بالأمراء فجمعوا وحضَّهم على قتال التتر، وذكَّرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبى والحريق، وخوّفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله. فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد فى قتال التتر ودفْعِهم عن البلاد. فأمر السلطان حينئذ أن يسير الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى بقطعة من العسكر، فسار حتى لقى طليعة التتر. فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك. وأخذ فى مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان على عين جالُوْت[1].

وكان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو، لما بلغهما مسير العساكر المصرية، جمعا من تفرق من التتر فى بلاد الشام، وسارا يريدان محاربة المسلمين، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشرى شهر رمضان: التقى الجمعان، وفى قلوب المسلمين وهْمٌ عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس. وقد امتلأ الوادى وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء، فتحيز التتر إلى الجبل. فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتفض طرف منه، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته على رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: «وا إسلاماه!»، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيده الله بنصره وقتل كتبغا مقدم التتر، وقُتل بعده الملك السعيد حسن بن العزيز - وكان مع التتر. وانهزم باقيهم، ومنح الله ظهورهم المسلمين يقتلون ويأسرون، وأبلى الأمير بيبرس أيضا بلاء حسنا بين يدى السلطان.

ومما اتفق فى هذه الوقعة، أن الصبى الذى أبقاه السلطان من رسل التتر وأضافه إلى مماليكه، كان راكبا وراءه حال اللقاء. فلما التحم القتال فوّق سهمه نحو السلطان، فبصر به بعض من كان حوله فأُمْسِك وقُتل مكانه. وقيل بل رَمى الصبى السلطانَ بسهمه فلم يخطئ فرسه وصرعه إلى الأرض، وصار السلطان على قدميه، فنزل إليه فخر الدين ماما وأركبه فرسه، حتى حضرت الجنائب[2] فركب فخر الدين منها.

---

(١) هى بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. انظر معجم البلدان ٣/ ٧٦٩.

(٢) جمع حنب، وهى الخيول التى كانت تسير وراء السلطان فى الحروب لاحتمال الحاجة إليها.

ومر العسكر فى أثر التتر إلى قرب بيسان[1]، فرجع التتر وصافوا مصافا ثانيا أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم. وكان قد تزلزل المسلمون زلزالا شديدًا فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: «وا إسلاماه!» ثلاث مرات، «يا الله! انصر عبدك قطز على التتار». فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكرًا لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم.

فورد الخبر بانهزام التتر إلى دمشق ليلة الأحد سابع عشريه، وحملت رأس كتبغا مقدم التتار إلى القاهرة، ففرَّ الزين الحافظى ونوّاب التتار من دمشق، وتبعهم أصحابهم فامتدّت أيدى أهل الضياع إليهم ونهبوهم، فكانت مدة استيلاء التتر على دمشق سبعة أشهر وعشرة أيام.

وفى يوم الأحد المذكور: نزل السلطان على طبرية، وكتب إلى دمشق يبشر الناس بفتح الله له وخذلانه التتر، وهو أوّل كتاب ورد منه إلى دمشق، فلما ورد الكتاب سر الناس به سرورا كثيرا، وبادروا إلى دور النصارى فنهبوها وأخربوا ما قدروا على تخريبه، وهدموا كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم وأحرقوها حتى بقيتا كوما، وقتلوا عدة من النصارى، واستتر باقيهم. وذلك أنهم فى مدّة استيلاء التتر هموا مرارا بالثورة على المسلمين، وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، وأعلنو بضرب الناقوس وركبوا بالصليب، وشربوا الخمر فى الطرقات ورشوه على المسلمين.

وفى ثامن عشريه: نهب المسلمون اليهود بدمشق حتى لم يتركوا لهم شيئا، وأصبحت حوانيتهم بالأسواق دكا، فقام طائفة من الأجناد حتى كفوا الناس عن حريق كنائسهم وبيوتهم. وفيه ثار أهل دمشق بجماعة من المسلمين كانوا من أعوان التتار وقتلوهم، وخربوا الدور المجاورة للكنائس، وقتلوا جماعة من المُغُل، فكان أمرا مهولا.

وفى تاسع عشريه: وصل بكرة النهار الأمير جمال الدين المحمدى الصالحى بمرسوم الملك المظفر قطز، فنزل بدار السعادة، وأمن الناس ووطنهم.

وفى يوم الأربعاء آخر شهر رمضان: وصل الملك المظفر إلى ظاهر دمشق، فخيم هناك وأقام إلى ثانى شوال، فدخل إلى دمشق ونزل بالقلعة وجرد الأمير ركن الدين بيبرس إلى حمص، فقتل من التتر وأسر كثيرا، وعاد إلى دمشق.

---

(١) بيسان: مدينة بالشام صغيرة جدًا وتنسب الخمر الطيبة إليها، ويقال إن الموضع الذى قتل فيه جالوت كان بيسان من أرض الغور من بلاد الأردن. انظر معجم البلدان ١/٧٨٨، والروض المعطار ١١٩.

واستولى الملك المظفر على سائر بلاد الشام كلها من الفرات إلى حد مصر، وأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام، واستناب الأمير علم الدين سنجر الحلبي في دمشق، ومعه الأمير مجير الدين أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشي الكردي. وبعث إليه الملك الأشرف موسى - صاحب حمص، ونائب هولاكو ببلاد الشام - يطلب الأمان فأمّنه. وبعث السلطان أيضا بالملك المظفر علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار إلى حلب نائبا بها، وأقطع أعمالها بمناشيره. وأقر الملك المنصور على حماة(١) وبارين، وأعاد عليه المعرة - وكانت بيد الحلبيين من سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأخذ سليمة منه وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب. ورتب الأمير شمس الدين أقوش البُرْلى العزيزى أميرًا بالساحل وغزة، ومعه عدة من العزيزية - وكان قد فارق الناصر يوسف وسار إلى القاهرة فأكرمه السلطان، وخرج معه فشهد وقعة عين جالوت، وأمر بشنق حسين الكردى الطبرادار، فشنق من أجل أنه دل على الملك الناصر.

وثار عدة من الأَوْشَاقِيّة(٢) مماليك السلطان بالنصارى ونهبوا دورهم، وكان معهم عدة من عوام دمشق، فشنق منهم نحو الثلاثين نفسا. وأمر السلطان أن يقرر على نصارى دمشق مائة وخمسون ألف درهم، فجمعوها وحملت إلى السلطان، بسفارة الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابك العسكر.

وأما التتر فإنهم لما لحقهم الطلب إلى أرض حمص، ألقوا ما كان معهم من متاع وغيره وأطلقوا الأسرى، وعرجوا نحو طريق الساحل. فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقا كثيرًا، وأسروا أكثر. فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك، ورحل من يومه.

وكان هولاكو لما قدم عليه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز

---

(١) حماة: من كور حمص بالشام، وهى مدينة طيبة فى وسطها نهر يسمى العاصى، وهذا النهر عظيم عليه جسور يعبر عليها، وعليه نواعير كثيرة تخرج الماء إلى ما على جانبيه من غيطان المدينة، وبينها وبين كفر طاب أربعون ميلاً، ومن حمص إلى حماة مثلها، وهى قديمة البناء، وربضها كبير وفيه الحمامات والديار، وبها جامعان وثلاث مدارس ومارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير وبخارج البلد بسيط فسيح عريض فيه شجر الأعناب والمزارع والمحارث والبساتين على شطى النهر، وهو العاصى لأن ظاهر انحداره من أسفل إلى علو ومجراه من الجنوب إلى الشمال وهو يجتاز على قبلى حمص وبمقربة منها.انظر معجم البلدان ٢/٣٠٠، والروض المعطار ١٩٩.

(٢) مفردها أوشاقى، وهو الذى يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة. انظر صبح الأعشى ٥/٤٥٤.

صاحب الشام أكرمه وأجرى له راتبا، واختص به وأجلسه على كرسى قريبا منه، وشرب معه، ثم كتب له فرمانا وقلده مملكتى الشام ومصر، وأخلع عليه وأعطاه خيولا كثيرة وأموالا، وسيّره إلى جهة الشام. فأمر هولاكو لما ورد عليه خبر الكسرة برده، فأحضر وقُتل بجبال سَلَماس[١] فى ثامن عشر شوّال؛ وقتل معه أخوه الملك الظاهر غازى، والملك الصالح ابن شيركوه، وعدة من أولاد الملوك، وشفعت طُقُز خاتون زوجة هولاكو فى الملك العزيز بن الناصر، فلم يسلم من القتل غيره، ورجع هولاكو إلى بلاده.

وتراجع الناس إلى دمشق، وسارت الأسعار بها غالية جدا لقلة الأقوات. وعدمت الفلوس فيها، وتضرر الناس فى المعاملة بسبب الدراهم وعزَّ كل ما كان قد هان.

فلما رتب السلطان أحوال النوّاب والولاة والشادين ببلاد الشام، خرج من دمشق يوم الثلاثاء سادس عشرى شوَّال يريد مصر بعدما كان قد عزم على المسير إلى حلب، فثناه عن ذلك ما بلغه من تنكر الأمير بيبرس وغيره عليه، فإنه قد عزم على القيام بمحاربته: وسبب ذلك أن الأمير بيبرس سأل السلطان أن يوليه نيابة حلب فلم يرض فتنكر عليه؛ ليقضى الله أمرا كان مفعولا. فخافه السلطان وأضمر له السوء، وسار إلى جهة مصر. وبلغ بيبرس، فاحترس كل منهما من الآخر، وعمل فى القبض عليه. وحدَّث بيبرس جماعة من الأمراء فى قتل السلطان: منهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى، والأمير سيف الدين بهادر المعزى، والأمير بدر الدين بكتوت الجُوكَنْدار[٢] المعزى، والأمير بيدغان الركنى، والأمير بلبان الهارونى، والأمير بدر الدين أنس الأصبهانى.

فلم يزل السلطان سائرا إلى أن خرج من الغرابى وقارب الصالحية، وانحرف فى مسيره عن الدرب للصيد ومعه الأمراء. فلما فرغ من صيده وعاد يريد الدهليز السلطانى، طلب منه الأمير بيبرس امرأة من سبى التتر، فأنعم بها عليه. فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها، وكانت إشارة بينه وبين الأمراء: فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف و ضرب به عانقه، واختطفه الأمير أنس وألقاه عن فرسه، ورماه الأمير بهادر المعزى بسهم أتى على روحه، وذلك يوم السبت خامس عشر ذى القعدة، ودفن بالقُصَير[٣] فكانت مدّة ملكه أحد عشر شهرا وسبعة عشر يوما.

---

(١) سلماس مدينة فى أذربيجان، بينها وبين أرمية يومان، وبينها وبين تبريز ثلاثة أيام. انظر معجم البلدان ٣/١٢٠، والروض المعطار ٣٢١.

(٢) على هامش ط: الجوكندار هو الذى يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة.

(٣) على هامش ط: هو بلد بمصر.

وحمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقى الدين قبل أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهرى إلى القرافة ودفن قريبا من زاوية ابن عبود. ويقال إن اسمه محمود بن ممدود، وإن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وإن أباه ابن عم السلطان جلال الدين، وإنما سبى عند غلبة التتار، فبيع بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة.

* * *

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى

كان بيبرس تركى الجنس، فاشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وترقى فى خدمته واستفاد من أخلاقه. فلما مات الملك الصالح، قام بيبرس فى خدمة ابنه الملك المعظم تورانشاه إلى أن قتل، فلم يزل يترقى إلى أن قُتل الفارس أقطاى، فخرج من القاهرة وتنقل فى بلاد الشام. ثم عاد إلى مصر، وخرج مع الملك المظفر قطز إلى قتال التتر. فلما قتل قطز، سار الأمراء الذين قتلوه إلى الدهليز السلطانى بالصالحية، واتفقوا على سلطنة الأمير بيبرس. فقام الأمير أقطاى المستعرب الأتابك - وكان بالدهليز - وقال للأمراء عند حضورهم: «من قتله منكم؟» فقال الأمير بيبرس: «أنا قتلته». فقال الأمير أقطاى: «يا خوند! اجلس فى مرتبة السلطنة مكانه». فجلس بيبرس، وبايعه أقطاى وحلف له، ثم تلاه الأمير بلبان الرشيدى، والأمير بدر الدين بيسرى، والأمير سيف الدين قلاوون، والأمير بِيلِيْك الخازندار، ثم بقية الأمراء على طبقاتهم.

وتلقب بيبرس بالملك القاهر، وذلك فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة المذكور. فقال له الأمير أقطاى الأتابك: «لا تتم السلطنة إلا بدخولك إلى قلعة الجبل». فركب بيبرس لوقته، ومعه الأمير أقطاى، والأمير قلاوون، والأمير بيسرى، والأمير بلبان، والأمير بِيلِيْك، ومماليكه. وتوجه إلى قلعة الجبل، فلقيه الأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة بديار مصر، وكان قد خرج إلى لقاء الملك المظفر قطز. فأعلمه بيبرس بما جرى فحلف له الحلى وتقدّمه إلى القلعة، ووعد من فيها من الأمراء بمواعيد جيدة عن بيبرس، فلم يخالف منهم أحد. وجلس الأمير عز الدين أيدمر الحلى على باب القلعة حتى قدم بيبرس والأمراء فى الليل، فتسلم القلعة ليلة الإثنين تاسع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة، وحضر إليه الصاحب الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير، وأشار عليه أن يغير اللقب بالملك القاهر، فإنه ما تلقب به أحد فأفلح، فاستقر لقبه الملك الظاهر.

وكانت القاهرة قد زينت لقدوم الملك المظفر قطز، والناس فى فرح ومسرات بقتل التتر. فلما طلع النهار نادى المنادى فى الناس: «ترحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس». ثم فى آخر النهار أمر بالدعاء للملك الظاهر. فغمَّ الناس ذلك، وخافوا من عودة دولة المماليك البحرية، وسوء مملكتهم وجورهم.

وكان قطز قد أحدث فى هذه السنة حوادث كثيرة عند حركته لقتال التتر: منها تصقيع الأملاك وتقويمها، وأَخَذ زكاتها من أربابها، وأَخَذ من كل واحد من الناس من جميع أهل إقليم مصر دينارا، وأخذ من التَرَك الأهلية[١] ثلثها. فأبطل الملك الظاهر جميع ما أحدثه قطز، وكتب به توقيعا قرئ على المنابر، فكان جملة ما أبطله ستمائة ألف دينار. فسر الناس ذلك، وزادوا فى الزينة.

وفى يوم الإثنين: صبيحة قدوم السلطان، جلس الملك الظاهر بيبرس بالإيوان من القلعة، وحلّف العساكر، واستناب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، واستقر الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكا على عادته، والأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى أستادارا، والأمير عز الدين الأقرم الصالحى أمير جاندار، والأمير صيام الدين لاجين الدرفيل والأمير سيف الدين بلبان الرومى دوادارية، والأمير بهاء الدين أمير آخُوْر[٢] على عادته. ورتب فى الوزارة الصاحب زين الدين يعقوب ابن الزبير، والأمير ركن الدين إياجى والأمير سيف الدين بكجرى حاجبين. وكتب بإحضار البحرية البطالين من البلاد؛ وكتب إلى الملوك والنواب يخبرهم بسلطنته، فأجابوا كلهم بالسمع والطاعة، خلا الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق؛ فإنه لما استقر فى نيابة دمشق كان قد عمر سورها وحصنها، فورد عليه الخبر بقتل قطز وسلطنة بيبرس فى أوائل ذى الحجة، فامتعض لذلك وأنف من طاعة بيبرس. ودعا لنفسه وحلّف الأمراء وتلقب بالملك المجاهد، وخُطب له يوم الجمعة سادس ذى الحجة، فدعا الخطيب للملك الظاهر أوّلا ثم للملك المجاهد ثانيا، وضُربت السكة باسمهما. ثم ارتفع المجاهد عن هذا، وركب بشعار السلطنة والغاشية بين يديه، وشرع فى عمارة قلعة دمشق، وجمع لها الصناع وكبراء الدولة والناس، وعملوا فيها حتى عملت النساء أيضا، وكان عند الناس بذلك سرور

---

(١) هى التركات التى مات عنها أصحابها من غير المماليك.

(٢) وهى التى يتحدث متوليها على إصطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل. وهذا أو أمير آخور مركب من لفظين، أحدهما عربى وهو أمير، والثانى فارسى وهو آخور ومعناه المعلف.

كبير. فقدم رسول الملك الظاهر بيبرس بكتابه بعد يومين، فوجد الأمير سنجر قد تسلطن، فعاد إلى مصر. فكتب الملك الظاهر إليه يعنفه ويقبح فعله، فغالطه فى الجواب.

فولى دمشق فى هذه السنة - من أوّلها إلى نصف صفر - الملك الناصر، ثم ملكها هولاكو إلى أن سار إلى الشرق، فاستناب بها كتبغا وبيدرا، فحكم فيها التتر إلى خامس عشرى رمضان، ثم صارت فى مملكة قطز إلى أن قتل فى خامس عشرى ذى القعدة، فملكها الملك المجاهد علم الدين سنجر الحلبى بقية السنة. وكان القضاء بها أولا بيد القاضى صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله بن سنى الدولة، ثم ولّى التترُ القاضى كمال الدين عمر بن بندار التفليسى، ثم بعده القاضى محيى الدين بن الزكى، ثم القاضى صدر الدين أبو القاسم. ثم ولى القاضى صدر الدين بعلبك، فاستقل ابن الزكى بالقضاء بدمشق إلى أن صرفه قطز بنجم الدين أبى بكر محمد بن صدر الدين أحمد بن سنى الدولة.

وفيها ثار بحلب العزيزية والناصرية على الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين صاحب الموصل، وقبضوا عليه ونهبوا وطاقه، وقدَّموا عليهم الأمير حسام الدين لاجين العزيزى الجوكندار. وكان الأمير حسام الدين المذكور قد أخذ إذنا من الملك المظفر قطز - رحمه الله تعالى - وتوجّه لاستخلاص ما بقى له من الإقطاع والودائع التى كانت له من أيام الملك الناصر. فلما أنفق ما اتفق وهو بحلب أجمع الحلبيون على تقديمه، فكتب إليه الملك المجاهد علم الدين سنجر الحلبى بأن يخطب له فى حلب وأن يكون نائبا له، وأن يزيده على إقطاعه زيادات كثيرة. فامتنع لاجين من إجابة الملك المجاهد سنجر، وقال: «أنا نائب ملك مصر»، وأقام على طاعة الظاهر بيبرس، فبعث إليه الظاهر بالتقليد بنيابة حلب.

وفيها ثار جماعة من السودان والرّكْبدارية[1] والغلمان[2]، وشنقوا بالقاهرة وهم ينادون «يآل على!»، وفتحوا دكاكين السيوفيين بين القصرين وأخذوا ما فيها من السلاح، واقتحموا اصطبلات الأجناد وأخذوا منها الخيول وكان الحامل لهم على هذا رجل يعرف بالكورانى، أظهر الزهد بيده سبحة وسكن قبة بالجبل، وتردد إليه الغلمان فحدثهم فى القيام على أهل الدولة، وأقطعهم الإقطاعات وكتب لهم بها رقاعا. فلما ثاروا فى الليل ركب العسكر وأحاطوا بهم وربطوهم، فأصبحوا مصلبين خارج باب

---

(١) الركبدارية هم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب الحفلة. انظر صبح الأعشى ٤/١٢٢٧.

(٢) هو من يقوم بخدمة الخيل.

زويلة، وسكنت الثائرة. وخرجت السنة ولم يركب الملك الظاهر بيبرس بشعار السلطنة على العادة.

* * *

ومات فى هذه السنة من الأعيان

الملك المعظم تورانشاه بن الناصر يوسف بن العزيز شادى بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب كبير البيت الأيوبى، ونائب حلب، عن ثمانين سنة.

ومات الملك الكامل محمد بن المظفر غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى[١] صاحب ميافارقين، وكان عالما عادلا محسنا، قتله التتار وحملوا رأسه إلى دمشق.

وتوفى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى، صاحب قلعة الصبيبة وبانياس، بعد ما أخذتا منه وسار إلى البيرة، فأعاده التتار إلى ولايتهما، وحضر معهم عين جالوت، فأسِر وضُرب عنقه.

ومات الملك السعيد إيلغازى بن المنصور أرتق بن إيلغازى بن ألبى بن تمرقاش بن إيلغازى بن أرتق، صاحب ماردين بها؛ وقام من بعده ابنه المظفر قرا أرسلان.

وتوفى قاضى القضاة بدمشق صدر الدين أبو العباس أحمد بن أبى البركات يحيى بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن سنى الدولة التغلبى الدمشقى الشافعى ببعلبك، عن ثمان وستين سنة.

وتوفى شيخ الإسلام تقى الدين أبو عبد الله محمد بن أبى الحسين أحمد بن عبد الله ابن عيسى اليونينى الحنبلى[٢]، عن ست وثمانين سنة ببعلبك.

---

(١) محمد بن غازى (المظفر) بن محمد (العادل): صاحب ميافارقين، الملقب بالملك الكامل. كان شجاعا صبر زمنا على حرب التتار، وحاصروه أكثر من سنة ونصف، وهو ظاهر عليهم، إلى أن فنى أهل البلد؛ لفناء زادهم، ودخلها التتار فوجده مع من بقى من أصحابه موتى أو مرضى، فقطعوا رأسه وحملوه إلى البلاد وطافوا به فى دمشق على رمح قصير، علق عليه بشعره فوق قطعة شبكة. انظر ذيل الروضتين ٢٠٥ وشذرات الذهب ٥/ ٢٩٥ والأعلام ٦/ ٣٢٤.

(٢) محمد بن أحمد بن عبد الله من سلالة جعفر الصادق، أبو عبد الله تقى الدين اليونينى: من حفاظ الحديث. حنبلى. ولد فى يونين، واشتهر وتوفى فى بعلبك. وكان مقربا من ملوك عصره. انظر البداية والنهاية ١٣/ ٢٢٧ وذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٢٦٩- ٢٧٣ وشذرات الذهب ٥/ ٢٩٤ والأعلام ٦/ ٣٢٢.

وتوفى الصاحب مؤيد الدين أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم القفطى الشيبانى، وزير حلب، بها عن أربع وستين سنة.

وتوفى الأديب مخلص الدين أبو عبد الله المبارك يحيى بن المبارك بن فضيل الغسانى الحمصى، بها فى الجفلة.

وتوفى الأديب جلال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن محمد بن عبد الله الصفار الماردينى الشاعر(١)، بها قتيلا عن ثلاث وثمانين سنة.

وتوفى الشيخ أبو بكر بن قوام بن على بن قوام البالسى(٢) الصالحى الزاهد، ببلاد حلب عن أربع وسبعين سنة.

* * *

---

(١) على بن يوسف بن شيبان الماردينى، حلال الدين بن الصفار: كاتب شاعر. مولده ووفاته بماردين. كان كاتب الإنشاء لصاحبها الملك المنصور ناصر الدين «أرتق» وكتب لأشراف بنى دبيس ثمانية عشر عاما. وصنف «أنس الملوك» فى الأدب وقتله التتر يوم دخلوا ماردين. انظر فوات الوفيات ٩٧/٢ والنجوم الزاهرة ٢٥٢/٧ والأعلام ٣٣/٥، ٣٤.

(٢) أبو بكر بن قوام بن على بن قوام بن منصور الهلالى البالس: زاهد شافعى المذهب أشعرى العقيدة. كانت له زاوية وأتباع. ولد بمشهد صفين (غربى الفرات) ونشأ ببالس، على مقربة منها. ومات قرب حلب ثم نقل تابوته إلى دمشق ودفن بجبل قاسيون أسفل عقبة دمر. انظر الشذرات ٢٩٥/٥ وقلادة النحر وفوات الوفيات ١/ ٢٢٤ ومخطوطات الظاهرية ١٩٣ وفى دار الكتب ٣٦١/٥ و٢٥١/٨ والأعلام ٦٨/٢.

سنة تسع وخمسين وستمائة

فيها عظم الفأر فـى[1] أرض حَـوْرَان[2] أيـام البيـادر[3] حتـى أكـل معظـم الغـلال، فيقال إنه أكل ثلاثمائة ألف غرارة قمح.

وفيها اجتمع من التتار ستة آلاف فارس، وقاموا بحمص. فبرز إليهم الملـك الأشـرف موسى شيركوه صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماة، واجتمع إليهما قدر ألـف وأربعمائة فارس. وقدم زامل بن على أمير العرب فى عدة من العربان وواقعوا التـتر يـوم الجمعة خامس المحرم على الرَّسْتَن[4]، فـأفنوهم قتـلا وأسـرا، ووردت البشـارة إلى مصـر بذلك. وكـانت التتـار فـى ستة آلاف، والمسـلمون ألـف وأربعمائـة، وحُملـت رءوس القتلى إلى دمشق وفيها اشتد الغلاء بدمشق.

وفى يوم الإثنين سابع صفر: ركـب الملـك الظـاهر بيـبرس مـن قلعـة الجبـل بشـعار السلطنة[5] إلى خارج القاهرة، ودخل من باب النصر، فترجل الأمراء ومشـوا بـين يديـه إلى باب زويلة، ثم ركبوا إلى القلعة، وقد زينت القاهرة، ونثرت الدنانير والدراهم علـى السلطان، وخلع على الأمراء والمقدمين وسائر أرباب الدولـة، وكـان هـذا أول ركوبـه، ومـن حينئـذ تـابع الركـوب إلى اللعـب بـالأُكْرَة[6]. وكتـب إلى ملـوك الغـرب واليمـن والشام والثغور بقيامه فى سلطنة مصر والشام.

وفيها بعث السلطان الملك الظاهر بيبرس الأمير جمال الدين المحمدى إلى دمشق، ومعه مائة ألف درهم وحوائص وخلع بألفى دينار عينا، ليستميل الناس علـى المجاهد سـنجر.

---

(١) الفاء والألف والراء أصل، ويسمون الألف فيه همزة، الفأر معروف ويقـال منـه: مكـان فـئر أى: كثير الفأر. انظر مقاييس اللغة مادة الفأر فأر.

(٢) حوران: حبال بالشام، وحوران أيضا من أعمال دمشق، ومدينتها بصرى، تسير فى صحـراء حوران عشرة فراسخ فى منازل ومزارع حتـى تصـل إلى مدينـة بصـرى، وهـى مدينـة حـوران، وفـى شرقى هذه المدينة بحيرة فيها تجتمع مياه دمشق وتسير منهـا فـى صحـراء ورمـال مقـدار خمسـة عشر فرسخا فتدخل دمشق. انظر معجم البلدان ٢/٣٥٧،٣٥٨، والروض المعطار ٢٠٦.

(٣) جمع بيدر، وهو الموضع الذى تدرس فيه الغلال. انظر محيط المحيط.

(٤) وهى فى نصف الطريق بين حماة وحمص. انظر معجم البلدان ٢/٧٧٨.

(٥) المقصود بشعار السلطنة أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان السلطان يظهر بها فى المواكب الحفلة. انظر صبح الأعشى ٤/٧،٨.

(٦) على هامش ط: الأكرة لُغَيَّة من الكرة، والمراد بلعب الأكرة.

فقدم دمشق ثالث صفر وعَمِل ما أمر به، فأجابه الأمراء القيمرية وخرجوا عن دمشق: ومعهم الأمير علاء الدين إيدكين البندقدار الصالحى، والأمير بهاء الدين بُغْدِى الأُشرفى، والأمير قراسنقر الوزيرى، وعدّة من الأمراء. ونادوا باسم الملك الظاهر بيبرس، فارتجت دمشق.

وبعث المجاهد سنجر إليهم بعسكر فانهزم، فخرج بنفسه وحمل بأصحابه، ففروا عنه ثم عادوا عليه، فخرج وقتل عدّة من جماعته، والتجأ هو إلى القلعة فامتنع بها يوم السبت حادى عشر صفر. فدخل الأمير إيدكين البندقدار - أستاذ الملك الظاهر - إلى المدينة وملكها، وحلّف الناس للملك الظاهر وقام بأمرها. وخاف المجاهد على نفسه ففر من قلعة دمشق إلى بعلبك، فأرسل إليه الأمير إيدكين وأحضره محتفظا به. فلما بلغ الملك الظاهر بيبرس ذلك قرر الأمير علاء الدين طيبرس الحاج الوزيرى فى القلعة، وجعل إليه التحدث فى الأموال، واستدعى الأمير سنجر الحلبى، وأقام إيدكين مدّة شهر فى نيابة دمشق، ثم صرفه عنها بالأمير طيبرس الوزيرى، وسار الأمير سنجر مع الأمير بدر الدين ابن رحال، وأحضر فى سادس عشر صفر وهو مقيد إلى مصر. فندب الملك الظاهر إلى لقائه الأمير بيسرى، وأدخله ليلا من باب القرافة على خفية واعتقله بالقلعة، من غير أن يعلم به أحد من الناس.

وفيها جهز الملك الظاهر بيبرس الأموال والأصناف صحبة الأمير علم الدين اليغمرى لعمارة الحرم النبوى بالمدينة، وبعث الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس، وكانت وهَت. وأخرج ما كان فى إقطاعات الأمراء من أوقاف الخليل عليه السلام، ووقف عليه قرية تعرف باذنا. ورسم للأمير جمال الدين بن يغمور بعمارة ما تهدم من قلعة الروضة، فرمّ ما فسد منها ورتب بها الجندارية وأعاد لها حرمتها، وفرق أبراجها على الأمراء: وهم الأمير قلاوون، والأمير عز الدين الحلى والأمير عز الدين أوغان، والأمير بيسرى، وغيرهم -لكل أمير منهم برج، وأمرهم أن تكون اصطبلاتهم وبيوتهم فيها، وسلمهم مفاتيح القلعة. وأمر بعمارة القناطر بجسر شبرامنت[1] من الجيزية؛ لكثرة ما كان يشرق من الأراضى فى كل سنة، فانتفعت البلاد بهذه القناطر. وأمر بعمارة أسوار الإسكندرية، ورتب لذلك جملة من المال فى كل شهر. وبنى بثغر رشيد مرقبا لكشف البحر. وأمر بردم فم بحر دمياط، فخرج جماعة الحجارين وألقوا فيه القَرَابِيْص[2]، حتى تمتنع السفن الكبار من دخوله، واستمر ذلك إلى اليوم.

---

(١) وهى قرية من مديرية الجيزة، وتقع شمالى بوصير، وفى قبليها جسر ممتد من النيل إلى الجبل. انظر الخطط التوفيقية ١٢/ ١٣٤، ١٣٥.

(٢) على هامش ط: القرابيص مفردها قرباص، وهى الحجارة.

وأمر السلطان بإخراج الأمير سيف الدين الرشيدى إلى بحر أشموم، فتوجه إليه وأحضر الولاة وحفر هذا البحر، وأزال منه ما تربى به من الأطيان، وغرّق عدة مراكب حتى ردّ إليه الماء. وأمر بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام: وهى قلعة دمشق، وقلعة الضلت، وقلعة عجلون، وقلعة صرخد[1]، وقلعة بصرى[2] وقلعة شيزر، وقلعة الصبيبة، وقلعة شُمَيْمِيْش[3] وقلعة حمص. فعمرت كلها ونظفت خنادقها، ووسعت أبراجها وشحنت بالعدد، وجرد إليها المماليك والأجناد، وخزنت بها الغلات والأزواد. وحملت كثيرة إلى دمشق، وفرقت فى البلاد لتصير تقاوى الفلاحين. ورتب السلطان بدمشق بعدل، وبنى مشهدا فى عين جالوت عرف بمشهد النصر.

ورتب السلطان البريد فى سائر الطرقات، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق فى أربعة أيام ويعود فى مثلها. فصارت أخبار الممالك ترد إليه فى كل جمعة مرتين، ويتحكم فى سائر المماليك من العزل وهو مقيم بقلعة الجبل، وأنفق فى ذلك مالا عظيما حتى تمّ ترتيبه. ونظر فى أمر الشوانى الحربية، وكان قد أهمل أمر الأسطول بمصر وأخذ الأمراء رجاله واستعملوهم فى الحراريق وغيرها، فأعادهم إلى ما كانوا عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب. وأنشأ عدة شوانى بثغرى دمياط والإسكندرية، ونزل بنفسه إلى دار الصناعة ورتب ما يجب ترتيبه، وتكامل عنده ببرّ مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد ونحوها.

فلما كان ذات يوم حضر إليه رجل من أجناد الأمير الصقلى، وأخبره أن أستاذه فرق مالا على جماعة من المعزية وقرر معهم قتل السلطان: منهم الأمير علم الدين الغتمى، والأمير بهادر المعزى، والأمير شجاع الدين بكتوت، فقبض على الجميع فى ثامن ربيع الأول.

و فيها قُبض على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، وعوق فى قاعة الوزارة؛ فشفع فيه الأمير سيف الدين أنس، فخلع فى يومه. و لم يقم سوى أيام وقبض السلطان على الأمير أنس، فقبض على الصاحب زين الدين بن الزبير فى صبيحة مسكه. ثم طلب قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ليلى الوزارة فأبى ، وأقام الأمير فارس

---

(١) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق. وهى قلعة حصينة. انظر معجم البلدان ٤٠١/٣.

(٢) بصرى: من أرض الشا ممن أعمال دمشق وهى مدينة حوران وفى شرقى هذه المدينة بحيرة تجتمع فيها مياه دمشق وتسير منها فى صحراء ورمال مقدار خمسة عشر فرسخًا فتدخل دمشق. انظر معجم البلدان ٣٥٤/١، والروض المعطار ١٠٩.

(٣) هى إحدى بلاد كورة حمص.

الدين أقطاى يراوده زمانا وهو لا يقبل، ثم نزل إلى داره، فطلب السلطان بهاء الدين على سديد الدين محمد بن سليم بن حنا، فولى الوزارة، وفُوّض إليه تدبير المملكة وأمور الدولة بأسرها، وخلع عليه. فركب معه جميع الأعيان والأكابر، وعدّة من الأمراء منهم سيف الدين بلبان الرومى الدوادار.

وورد الخبر عن عكا أن سبع جزائر من جزائر الفرنج فى البحر خسف بها وبأهلها، بعدما نزل عليهم دم عشرة أيام، فهلك بها خلق كثير، وصار أهل عكا فى خوف واستغفار وبكاء.

وجهز السلطان الأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى فى جماعة، ولم يعرف مقصده فى ذلك أحد ممن جرده ولا غيرهم، فساروا إلى الشوبك وتسلموها من نواب الملك المغيث فتح الدين عمر فى سادس عشرى ربيع الأخر، واستقر فى نيابتها الأمير سيف الدين بلبان المختصى واستخدم فيها النقباء والجنادرة، وأفرد بخاص القلعة ما كان فى الأيام الصالحية.

وفيه قبض على الأمير بهاء الدين بغدى، وحبس بقلعة الجبل حتى مات.

وفى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى: فَوُض قضاء القضاة بديار مصر للقاضى تاج الدين عبد الوهاب بن القاضى الأعز خلف، المعروف بابن بنت الأعز، عوضا عن بدر الدين السنجارى، بعد عدّة شروط اشترطها على السلطان أغلظ فيها. وقصد القاضى تاج الدين بكثرة الشروط أن يعفى من ولاية القضاء، فأجاب السلطان إلى قبول ما اشترط عليه رغبة فيه وثقة به، وصلى بالسلطان صلاة الظهر، وحكم بعد ذلك. وقبض السلطان على البدر السنجارى وعوقه عشرة أيام، ثم أفرج عنه.

وفيها سار الأمير أبو القاسم أحمد(١) بن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله العباسى(٢) - الذى يقال له الزراتيقى لقب لقبه به

---

(١) أحمد (المستنصر) بن محمد الظاهر بن الناصر المستضىء، أبو القاسم العباس أول الخلفاء العباسيين بمصر. دخلها بعد ثلاث سنين من انقراض عباسية العراق، فأثبت نسبه فى مجلس الملك الظاهر بيبرس البندقدارى أمام جمع من العلماء وأركان الدولة، فسر به الظاهر ووجد فيه قوة حديدة لملكه فجمع الناس وأعلن فيهم الأمر وبايعه بالخلافة، ولقبه بالمستنصر، ولم تطل مدة أبى القاسم (المستنصر) فإن الظاهر سيره فى حيش إلى العراق لاسترداد بغداد من أيدى التتار فزحف وحارب التتر وانهزم حيشه، وفقد. انظر ابن إياس ١٠١/١ والنجوم ٢٠٦/٧ والخميس ٣٧٨/٢ والأعلام ١/ ٢١٩.

(٢) محمد بن أحمد، أبو نصر، الظاهر بن الناصر بن المستضىء العباسى: من خلفاء الدولة=

العامة - مع جماعة من العرب بنى مهنا، يريد دمشق. وكان قد فرّ من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله، ونزل عند عرب العراق فى هذه المدة، ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر بيبرس بمصر. فوردت مكاتبة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب دمشق: بأنه ورد إلى الغوطة رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر، وهو عم المستعصم وأخو المستنصر، ومعه جماعة من عرب خفاجة فى قريب الخمسين فارسا، وأن الأمير سيف الدين قلج البغدادى عَرف أمراء العرب المذكورين، وقال: «بهؤلاء يحصل المقصود». فكتب السلطان إلى النواب بالقيام فى خدمته وتعظيم حرمته، وأن يسير معه حجاب من دمشق فسار من دمشق بأوفر حرمة إلى جهة مصر. فخرج السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس تاسع شهر رجب إلى لقائه، ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا، وقاضى القضاه تاج الدين ابن بنت الأعز ، وسائر الأمراء وجميع العسكر، وجمهور أعيان القاهرة ومصر، ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين. وخرجت اليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل. فسار السلطان به إلى باب النصر، ودخل إلى القاهرة وقد لبس الشعار العباسى، وخرج الناس إلى رؤيته، وكان من أعظم أيام القاهرة. وشق القصبة إلى باب زويلة، وصعد قلعة الجبل وهو راكب، فأنزل فى مكان جليل قد هيىء له بها، وبالغ السلطان فى إكرامه وإقامة ناموسه.

فلما كان يوم الإثنين ثالث عشره: حضر قاضى القضاة ونواب الحكم، وعلماء البلد وفقهاؤها وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية، والأمراء ومقدّمو العساكر، والتجار ووجوه الناس، وحضر أيضا الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فمثلوا كلهم بحضرة الأمير أحمد، وجلس السلطان متأدبا بغير كرسى ولا طَرَّاحَة[1] ولا مسند. وشهد العربان وخادم من البغاددة بأن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر أمير المؤمنين بن الإمام الناصر أمير المؤمنين، وشهد بالاستفاضة القاضى جمال الدين يحيى بن عبد المنعم بن حسن المعروف بالجمال يحيى نائب الحكم بمصر، والفقيه علم الدين محمد بن الحسين ابن عيسى بن عبد الله بن رشيق، والقاضى صدر الدين موهوب الجزرى، ونجيب الدين الحرَّانى، وسديد الدين عثمان بن عبد الكريم بن أحمد بن خليفة، و أبو عمرو بن أبى

=العباسية فى العراق. بويع بعد وفاة أبيه (سنة ٦٢٢ هـ). وكانت خلافته تسعة أشهر وأياما. انظر الكامل لابن الأثير ١٢/ ٦٦٩، ١٤٧ والأعلام لابن قاضى شهبة ونكت الهميان ٢٣٨ وتاريخ الخميس ٣٦٩/٢ وابن العبرى ٤٢٢ والبداية والنهاية ١٣/ ١١٢ ومرآة الزمان ٨/ ٦٤٢ والأعلام ٣٢٠/٥.

(١) على هامش ط: الطراحة وجمعها طراريح. مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس.

محمد الصنهاجى التَّزْمَنْتِى، أنه أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر. فقبل قاضى القضاة تاج الدين شهادات القوم، وأسجل على نفسه بالثبوت، وهو قائم على قدميه فى ذلك المحفل العظيم حتى تم الإسجال والحكم.

فلما تم ذلك كان أول من بايعه القاضى تاج الدين، ثم بعده قام السلطان وبايع أميرَ المؤمنين المستنصر بالله أبا القاسم أحمد بن الإمام الظاهر، على العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها. ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم الأمراء وكبار الدولة. فلما تمت البيعة قلد الإمام المستنصر بالله السلطان الملك الظاهر البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار، ثم قام الناس فبايعوا الخليفة المستنصر بالله على اختلاف طبقاتهم. وكتب فى الوقت إلى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة على من قبلهم للخليفة المستنصر بالله أبى القاسم أحمد بن الإمام الظاهر، وأن يُدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده، وأن تنقش السكة باسمهما.

فلما كان يوم الجمعة سابع عشرة: خطب الخليفة المستنصر بالله فى جامع القلعة، فاستفتح بقراءة صدر سورة الأنعام، ثم صلى على النبى ﷺ، وترضى عن الصحابة وذكر شرف بنى العباس، ودعا للملك الظاهر، وقضى الخطبة، فاستحسن الناس ذلك منه، واهتم السلطان بأمره، ونثر عليه جملا مستكثرة من الذهب والفضة. فلما شرع فى الخطبة تلكأ فيها، ثم نزل بعد تمامها وصلى بالناس الجمعة.

وكان منصب الخلافة شاغرا ثلاث سنين ونصف سنة، منذ قتل الخليفة المستعصم فى صفر سنة ست وخمسين، فكان الخليفة المستنصر بالله هو الثامن والثلاثون من خلفاء بنى العباس، وبينه وبين العباس أربعة وعشرون أبا. وكان أسمر اللون وسيمًا، شديد القوى عالى الهمة، له شجاعة وإقدام. واتفق له ما لم يتفق لغيره، وهو أنه لقب بالمستنصر لقب أخيه بانى المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يقع لغيره أن الخليفة لقب بلقب أخيه سواه.

فى يوم الأحد تاسع عشره: ركب الخليفة والسلطان من قلعة الجبل إلى مدينة مصر، وركبا فى الحراريق وسارا فى النيل إلى قلعة الجزيرة، وجلسا فيها، وأحضرت الشوانى الحربية، فلعبت فى النيل على هيئة محاربتها العدو فى البحر، ثم ركبا إلى البر وسار إلى قلعة الجبل، وقد خرج الناس لمشاهدتهما، فكان من الأيام المشهودة.

وفيه قلد السلطان الأمير علم الدين سنجر الحلبى - الذى ثار قبلا بدمشق - نيابة حلب، وجهز معه أمراء لكل منهم وظيفة وهم: الأمير شرف الدين قيران الفخرى أستادار، والأمير بدر الدين جماق أمير جاندار، والأمير علاء الدين أيدكين الشهابى شاد الدواوين. وسار الأمير علم الدين من القاهرة كما تسافر الملوك، فدخل حلب فى ثالث شعبان فحضر إليه جماعة من العزيزية والناصرية وسألوا الأمان - كانت العزيزية والناصرية قد اختلفوا وخرجوا إلى الساحل، فأقطعهم السلطان إقطاعات، وأحضر منهم عدة إلى مصر.

وفى يوم الإثنين رابع شعبان: ركب السلطان إلى خيمة ضربت له فى البستان الكبير خارج القاهرة، ومعه أهل الدولة. وحُملت الخلع صحبة الأمير مظهر الدين وشاح الخفاجى، وخادم الخليفة المستنصر بالله. فدخل السلطان إلى خيمة أخرى. وأفيضت عليه الخلع الخليفتية وخَرَج بها وهى: عمامة سوداء مذهبة مزركشة، ودُرّاعَة[1] بنفسجية اللون، وطوق ذهب، وقيد من ذهب عُمل فى رجليه، وعدة سيوف تقلد منها واحدا - وحُملت البقية خلفه، ولواءان منشوران على رأسه، وسهمان كبيران وترس. فقدّم له فرس أشهب، فى عنقه مِشَدَّة[2] سوداء وعليه كُنْبُوش[3] أسود. وطلب الأمراء واحدًا بعد واحد وخلع عليهم، وخلع على قاضى القضاة تاج الدين، وعلى الصاحب بهاء الدين، وعلى فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء. ونُصب منبر، فصعد عليه ابن لقمان بعدما جلل بثوب حرير أطلس أصفر، وقرأ تقليد الخليفة للسلطان، وهو من إنشائه، ونصه بعد البسملة: «الحمد لله الذى اصطفى الإسلام بملابس الشرف، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف، وشيَّدها وهى من غلائه حتى أنسى ذكر ما سلف، وقيَّد لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف. أحمده على نعمه التى رتعت الأعيُن منها فى الروض الأُنُف، وألطافه التى وقف الشكر عليها فليس عنها منصرف. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة توجب من المخاوف أمنا، وتسهل من الأمور ما كان حزنا. وأشهد أن محمدا عبده الذى جبر من الدين وهنا، ورسوله الذى أظهر من المكارم فنونا لا فنا، صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقية لا تفنى، وأصحابه الذين أحسنوا فى الدنيا فاستحقوا الزيادة من الحسنى».

---

(١) الدراعة جبة مشقوقة المقدم، ولا تكون إلا من صوف. انظر محيط المحيط.

(٢) المشدة مرادفة للفظ الرقبة. انظر القلقشندى، صبح الأعشى ٤/٨.

(٣) على هامش ط: هى البرذعة تجعل تحت سرج الفرس.

«وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا فى تسطير مناقبه وبره، من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدّما، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان مُنْجدا ومُتْهما، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما. ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام[1] العالى المولوى[2] السلطانى الملكى الظاهرى الركنى شرفه الله وأعلاه، ذكره الديوان العزيز النبوى الإمامى المستنصرى أعز الله سلطانه، تنويها بشريف قدره، واعترافا بصنعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره. وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية، بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهبت ما كان من محاسن وإحسان، وأعتب دهرها المسىء لها فأعتب، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب. فأعاده لها سلما بعد أن كان عليها حربا، وصرف إليها اهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها واسعا رحبا، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا، وأظهر من الولاء رغبة فى ثواب الله ما لا يخفى، وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمر لو رامه غيره لامتنع عليهن ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به قبل الوصول إليه. لكن الله تعالى ادخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه، ويخفف بها يوم القيامة حسابه، والسعيد من خفف من حسابه. فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها فى صحيفة صنعه، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه بعد أن حصل الإياس من جمعه».

«وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع. وقد قلّدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا، وفوَّض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى، ولا جهة من الجهات تعد فى الأعلى ولا فى الأدنى».

«فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا، وخلّص نفسك من التبعات اليوم ففى غد تكون مسئولا لا سائلا، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلا، وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالا زائلا، فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة، وقدَّم لنفسه زاد التقوى فتقدمة غير التقوى مردودة لا مقبولة. وابسط يدك بالإحسان والعدل، فقد أمر الله بالعدل وحثّ على الإحسان، وكرّر ذكره فى مواضع من

---

(١) لفظ المقام كان من الألقاب الخاصة بالملوك والسلاطين، وأنه كان يستعمل فى المكاتبات السلطانية للكناية عن السلطان تعظيما له من التفوه باسمه.

(٢) نسبة للمبالغة من كلمة مولى.

القرآن، وكَفّر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما، وجعل يوما واحدا منها كعبادة العابد ستين عاما. وما سلك أحد سبيل العدل إلا واجتنبت ثماره من أفنان، ورجع الأمر به بعد بُعْد تداعِي أركانه وهو مشيد الأركان، وتحصن به من حوادث زمانه والسعيد من تحصن من حوادث الزمان، وكانت أيامه فى الأيام أبهى من الأعياد، وأحسن فى العيون من الغرر فى أوجه الجياد، وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد».

«وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نوّاب وحكام. وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام، فإذا استعنت بأحد منهم فى أمورك فنقّب عليه تنقيبا، واجعل عليه فى تصرفاته رقيبا. وسل عن أحواله ففى يوم القيامة تكون عنه مسئولا وبما أجرم مطلوبا، ولا تول إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا. وأمُرْهم بالأناة فى الأمور والرفق، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق، وألا يعاملوا أحدا على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا إخوانا، وأن يوسعوهم برًا وإحسانا، وألا يستحلوا حرماتهم إذا استحل الزمان لهم حرمانا، فالمسلم أخو المسلم ولو كان أميرا عليه وسلطانا. والسعيد من نسج ولاته فى الخير على منواله، واستنوا بسنته فى تصرفاته وأحواله، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله».

«ومما تؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيئ السنن، وجدد من المظالم التى هى من أعظم المحن، وأن يشترى بإبطالها المحامد فإن المحامد رخيصة بأغلى ثمن. ومهما جبى منها من الأموال فإنما هى باقية فى الذمم حاصلة، وأجياد الخزائن وإن أضحت بها حالية فإنما هى على الحقيقة منها عاطلة، وهل أشق ممن احتقب إثما، واكتسب بالمساعى الذميمة ذما، وجعل السواد الأعظم له يوم القيامة خصما، وتحمل ظلم الناس فيما صدر عنه من أعماله وقد خاب من حمل ظلما. وحقيق بالمقام الشريف المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله، وعزائمه تخفف ثقلا لا طاقة لهم بحمله، فقد أضحى على الإحسان قادرا، وصنعت له الأيام ما لم تصنع لغيره ممن تقدم للملوك وإن جاء آخرا. فأحمد الله على أن وصل إلى جانبك إمام هدى أوجب لك مزية التعظيم، ونبه الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم. وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى، وأن توالى عليها حمد الله فإن الحمد يجب عليه عقلا وشرعا، وقد تبين أنك صرت في الأمور أصلا وصار غيرك فرعا».

«ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا، وهو العمل الذى يرجع به مسود الصحائف مبيضا. وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم، وخصّهم بالجنة التى لا لغو فيها ولا تأثيم. وقد تقدمت لك فى الجهاد بيضاء أسرعت فى سواد الحُساد، وعرفت منك عزمة هى أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد، وأشهى إلى القلوب من الأعياد. وبك صان الله حمى الإسلام من أن يتبدَّل، وبعزك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول، وسيفُك أثر فى قلوب الكافرين قروحا لا تندمل، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه فى الأيام الأول. فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا، وكن فى مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا، وأيِّد كلمة التوحيد فما تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا».

«ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تبسم له الثغور، واحتفال يبدِّل ما دجى من ظلماتها بالنور. واجعل أمرها على الأمور مقدما، وشيِّد منها كل ما غادره العدو منهما، فهذه حصون بها يحصل الانتفاع، وهى على العدو داعية افتراق لا اجتماع. وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا، والعدو له ملتفتا ناظرا، لاسيما الديار المصرية، فإن العدو وصل إليها رابحا وراح خاسرا، واستأصلهم الله فيها ما أقال منهم عاثرا».

«وكذلك أمر الأسطول الذى تزجى خيله كالأهلة، وركائبه سابقة بغير سائق مستقلة. وهو أخو الجيش السليمانى، فإن ذاك غدت الرياح له حاملة، وهذا تكلفت بحمله المياه السائلة. وإذا لحظها جارية فى البحر كانت كالأعلام، وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع بالأيام».

«وقد سنى الله لك من السعادة كل مطلب، وأتاك من أصالة الرأى الذى يريك المغيب، وبسط بعد القبض منك الأمل، ونشط بالسعادة ما كان من كسل، وهداك إلى مناهج الحق ومازلت مهتديا إليها، وألزمك المراشد ولا تحتاج إلى تنبيه عليها. والله يمدك بأسباب نصره، ويوزعك شكر نعمه، فإن النعمة ستتم بشكره».

ولما فرغ من قراءته، ركب السلطان بالخلعة والطوق الذهب والقيد الذهب، وكان الطالع برج السنبلة. وحمل التقليد الأمير جمال الدين التجيبى أستادار السلطان، ثم حمله الصاحب بهاء الدين وسار به بين يدى السلطان وسائر الأمراء ومن دونهم مشاة سوى الوزير. ودخل السلطان من باب النصر وشق القاهرة، وقد زُينت وُبسط أكثر الطريق بثياب فاخرة مشى عليها فرس السلطان. وضج الخلق بالدعاء. بإعزاز أيامه وإعزاز

نصره وأن يُخْلَعها خلع الرضى، إلى أن خرج من بـاب زويلـة وسـار إلى القلعـة، فكـان يوما مشهودا تقصر الألسنة عن وصفه.

وشرع السلطان فى تجهيز الخليفة للسفر، واستخدم له عساكر، وكتب للأمير سـابق الدين بوزنا أتابك العسكر الخليفتى بألف فـارس، وجعـل الطواشـى بهـاء الديـن سندل الشرابى الصالحى شرابيا بخمسمائة فارس، والأمير ناصر الدين بن صيرم خازندارا بمـائتى فارس، والأمـير الشـريف نجـم الديـن أسـتادارا بخمسـمائة فـارس، وسـيف الديـن بلبـان الشمسى دوادارا بخمسـمائة فـارس، والأمـير فـارس الديـن أحمـد بـن أزدمـر اليغمـورى دوادارا أيضًا، والقاضى كمال الدين محمـد بـن عـز الديـن السـنجارى وزيـرا، وشـرف الدين أبا حامد كاتبا، وأقام عدة من العربان أمراء، وحمل السـلطان إلى الجميـع الخزائـن والسلاح وغيره من الصنـاجق والطبلخانـاه، وانفـق أمـوالا كثـيرة واشـترى مائـة ملـوك كبارا وصغارا، ورتبهم سلاح دارية وجامدرايـة، وأعطـى كـلا منهـم ثلاثـة أرؤس مـن الخيل وجملا لعدته، ورتب سائر ما يحتاج إليه الخليفة: من صاحب ديوان وكاتب إنشـاء ودواوين وأئمة، وغلمان وجرائحية وحكاء وبيوتـات، وكملهـا كلهـا ممـا تحتـاج إليـه، ورتب الجنائب وخيول الإصطبلات، واستخدم الأجناد، وعين لخاص الخليفة مائة فـرس وعشر قُطُر بغال وعشر قُطُر جمال، وطشتخاناه وحوائج خانـاه، وكتـب لمـن وفـد معـه من العراق تواقيع ومناشير بالإقطاعات.

فلمـا تهيأ ذلـك كلـه بـرز الدهليز الخليفتـى والدهليز السلطانى إلى البركـة ظـاهر القاهرة، وركب الخليفة والسلطان من قلعة الجبل فى السادسة من نهـار الأربعـاء تاسـع عشر شهر رمضان، وسار إلى البركة فنزل كل منهما فى دهليزه، واستمرت النفقـة فـى أجناد الخليفة، وفى يوم عيد الفطر ركب السلطان مع الخليفة تحت المظلة، وصليا صـلاة العيد، وحضر الخليفة إلى خيمة السلطان بالمنزلة وألبسه سراويل الفتوة بحضـرة الأكـابر، ورتب السلطان الأمير عز الدين أيدمـر الحلـى نـائب السـلطنة بديـار مصر، وأقـام معـه الصاحب بهاء الدين بن حنا.

وفـى يـوم السـبت سـادس شـوّال: رحـل الخليفـة وصحبتـه الملـك الظـاهر بجميـع العساكر، فساروا إلى الكسوة ظاهر دمشق، وخرج إلى لقائهم عسـكر دمشـق فـى يـوم الإثنين سابع ذى القعدة، فـنزل الخليفـة بالتربـة الصالحيـة فـى سـفح قاسِيُوْن(١)، ونـزل السلطان بقلعة دمشق.

---

(١) هو جبل مطل على الشمال الغربى من دمشق.

وفى يوم الجمعة عاشره: دخل الخليفة الجامع الأموى بدمشق من باب البريد[١]، وجاء السلطان من باب الزيادة، واجتمعا بمقصورة الجامع حتى فرغا من صلاة الجمعة، وخرجا إلى باب الزيادة فمضى الخليفة وعاد السلطان.

وكان قد قدم إلى السلطان وهو بقلعة الجبل الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وولده الملك السعيد علاء الملك وأهله، فى شعبان إلى القاهرة فأقبل السلطان عليه وأحسن إليه، وأمر له ولمن معه بالإقامات والأموال من دمشق إلى القاهرة، وتلقاه وأنزله بدار تليق به. ثم وصل أخوه الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة، فتلقاه السلطان كما تلقى أخاه. وكان أخوهما الملك السعيد علاء الدين علىّ صاحب سنجار قد رتبه الملك المظفر قطز فى نيابة حلب، فقبضه العزيزية واعتقلوه، فسأل إخوتُه الملك الظاهر فيه فأفرج عنه، وبالغ فى إكرامهم وعطائهم. وكان السلطان لما نزل بالبركة خارج القاهرة، قد جهز إليهم خيل[٢] النوبة والعصائب والجمدارية والخلع، وكتب لهم التقاليد ببلادهم التى فوضت إليه من الخليفة، فكتب للملك الصالح بالموصل ونصيبين وعَقْر[٣] و شُوْش[٤] ودارا والقلاع العمادية[٥]، وكتب للمجاهد بالجزيرة، وكتب للمظفر بسنجار. فقبلوا الأرض عند لبس الخلع، وسير السلطان إليهم الكوسات والسناجق والأموال، وأعفوا من الحضور والخدمة. فساروا إلى دمشق، وحضروا مجلس الشام بقلعة دمشق، ولبسوا الخلع وقبلوا الأرض، وخرجوا والأتابك فى خدمتهم بشعار السلطنة؛ وأعطاهم السلطان فى لعب الكرة شيئا كثيرا.

ووصل إلى دمشق الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماة. فوصل السلطان كلا منهما بثمانين ألف درهم وحملين من الثياب وخيول، وركب كل منهما بدمشق والأمراء مشاة فى خدمته بشعائر السلطنة. وكتب السلطان لهما التقاليد باستقرارهما على ما بأيديهما وزادهما، ثم عادا إلى بلادهم.

---

(١) على هامش ط: باب البريد أحد الأبواب الأربعة التى لجامع دمشق، وهى باب البريد، وباب جيرون، وباب الزيات، وباب الساعات.

(٢) خيل النوبة هى التى تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب.

(٣) هى قلعة فى الجبال الواقعة شرقى الموصل. انظر معجم البلدان ٦٩٦/٣.

(٤) هى قلعة عالية جدًا قرب عقر الحميدية.

(٥) هى قلعة فى شمالى الموصل.

وكان السلطان قد عزم أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد ويكون أولاد صاحب الموصل فى خدمته. فخلا أحدهم بالسلطان وأشار عليه ألا يفعل: «فإن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر». فرجع إليه الوسواس، ولم يبعث مع الخليفة سوى ثلاثمائة فارس. وجرّد السلطان الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى، والأمير شمس الدين سنقر الرومى إلى حلب، وأمرهما بالمسير إلى الفرات، وإذا ورد عليهما كتاب الخليفة بأن يسير أحدهما إليه سار.

وركب السلطان لوداع الخليفة، وسافر الخليفة فى ثالث عشر ذى القعدة، ومعه أولاد صاحب الموصل الثلاثة ففارقوه فى أثناء الطريق وتوجه كل منهم إلى مملكته. فوصل الخليفة إلى الرحْبَة[1]، وأتاه الأمير على بن حذيفة من آل فضل بأربعمائة فارس من العرب، وانضاف إليه من مماليك المواصلة نحو الستين مملوكا، ولحق به الأمير عز الدين بركة من حماة فى ثلاثين فارسا ورحل الخليفة من الرحبة إلى مشهد على، فوجد رجلا ادَّعى أنه من بنى العباس قد اجتمع إليه سبعمائة فارس من التركمان، كان الأمير شمس الدين أقوش البرلى قد جهزهم من حلب. فبعث الخليفة إلى التركمان واستمالهم ففارقوه وأتوا الخليفة، فبعث إليه الخليفة يستدعيه وأمنه ورغّبه فى اجتماع الكلمة على إقامة الدولة العباسية، ولاطفه حتى أجاب وقدم إليه، فوفى له وأنزله معه. وسار الخليفة إلى عانة ثم إلى الحنيشة، وخرج يريد هيت[2]؛ وكتب إلى الملك الظاهر بيبرس بذلك.

وأما حلب فإن الأمير سنجر الحلبى فارقها وسار إلى دمشق، فاستولى عليها الأمير شمس الدين أقوش البرلى وبعث بالطاعة إلى السلطان، فأبى إلا حضوره، فلما سار الأمير سيف الدين الرشيدى والأمير سنقر الرومى من دمشق رحل أقوش عن حلب، فدخلاها، وسارا منها إلى الفرات، وأغارا على بلاد أنطاكية، وكسب العسكر وغنم، وحرق غلال الفرنج ومراكبهم وعاد. فولى السلطان الأمير علاء الدين بندقدار نيابة حلب، فأقام بها فى شدة من غلاء الأسعار وعدم القوت، ثم رحل عنها.

---

(١) الرحبة: هى مدينة فى شرقى الفرات حصينة عامرة عليها سور تراب ولها أسواق وعمارات وكثير من التمر، ومنها مع الفرات إلى الخابورى مرحلتان. انظر معجم البلدان ٧٦٤/٢، والروض المعطار ٢٦٨.

(٢) هيت: مدينة بين الرحبة وبغداد، وهى على شاطئ الفرات، والهيت الهوة، وسميت لأنها فى هوة، وهى الأرض المنخفضة، وقيل سميت باسم بانيها هيت بن البلندى ملك من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام. وهى فى غربى الفرات، وعليها حصن، وهى من أعمر البلاد. وبأرض هيت عيون تسيل بالقار. انظر معجم البلدان ٤٢١/٥، والروض المعطار ٥٩٧.

وقدمت الإقامات من الفرنج إلى السلطان، وسألوا الصلح فتوقف وطلب منهم أمورا لم يجيبوا إليها، فأهانهم. وكان العسكر قد خرج للغارة على بلادهم من جهة بعلبك، فسألوا رجوعه. واتفق الغلاء ببلاد الشام، فتقرر الصلح على ما كان الأمر عليه إلى آخر أيام الملك الناصر، وإطلاق الأسارى من حين انقضت الأيام الناصرية. فسارت رسل الفرنج لأخذ العهود وتقرير الهدنة لصاحب يافا ومتملك بيروت، فكاسر الفرنج فى أمر الأسارى، فأمر السلطان بنقل أسرى الفرنج من نابلس إلى دمشق واستعملهم فى العمائر. فتعلل الفرنج بالعوض عن زرعين، فأجيبوا: «بأنكم أخذتم العوض عنها فى الأيام الناصرية مرج عيون، وقايضتم صاحب تبنين[1] والمقايضة فى أيديكم. فكيف تطلبون العوض مرتين؟ فإن بقيتم على العهد وإلا فما لنا شغل إلا الجهاد». وخرج الأمير جمال الدين المحمدى فى عسكر، وأغار على بلاد الفرنج وعاد غانما سالما.

وسارت عدة من العسكر فأوقعوا بعرب زُبَيْد[2] لكثرة فسادهم، وقتلوا منهم جماعة وعادوا غانمين. وأحضر السلطان أمراء العربان، وأعطاهم وأقطعهم الإقطاعات، وسلمهم دَرَك[3] البلاد وألزمهم حفظ الدروب إلى حدود العراق؛ وكتب منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا.

وفوّض السلطان إلى الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى نيابة دمشق، وفوّض قضاءها للقاضى شمس الدين أبى العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان[4] - وكان قد خرج معه من مصر - عوضا عن نجم الدين أبى بكر محمد بن أحمد بن يحيى ابن السنى، ووكل به وسفّره إلى القاهرة. وقرئ تقليد ابن خلكان يوم الجمعة تاسع

---

(١) بلدة فى جبال بنى عامر مطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور. انظر معجم البلدان ٨٣٤/١.

(٢) اسم لقبيلة كانت مساكنها حول دمشق. انظر صبح الأعشى ٢١٣/٤،٢١٤.

(٣) الدرك التبعة، فيقال درك السلطان أمراء العربان بالبلاد أى جعلها تحت دركهم. انظر محيط المحيط.

(٤) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان البرمكى الإربلى أبو العباس المؤرخ الحجة، والأديب الماهر صاحب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، وهو أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطا وإحكاما. ولد فى إربل بالقرب من الموصل على شاطئ دجلة الشرقى، وانتقل إلى مصر فأقام فيها مدة، وتولى نيابة قضائها وسافر إلى دمشق، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام، وعزل بعد عشر سنين، فعاد إلى التدريس فى كثير من مدارس دمشق. وتوفى فيها فدفن فى سفح قاسون. انظر وفيات الأعيان ٤٢٠/٢،٤٢١ وفوات الوفيات ٥٥/١ والنعيمى ١٩١/١ والنجوم الزاهرة ٣٥٣/٧ وبروكلمان فى دائرة المعارف الإسلامية ٥٧/١ والأعلام ٢٢٠/١.

ذى الحجة، وفُوّض إليه الحكم من العريش إلى الفرات، والنظر فى جميع أوقاف الشام من الجامع والمارستان والمدارس والأحباس وتدريس سبع مدارس.

وخرج السلطان من دمشق يوم السبت سابع عشره يريد مصر. وصُرف قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز فى سلخ شوّال عن قضاء مصر والوجه القبلى، واستقر مكانه قاضى القضاة برهان الدين السنجارى، وبقى قضاء القاهرة والوجه البحرى بيد ابن بنت الأعز. وأمر السلطان ببناء مشهد على عين جالوت.

وفيها كتب السلطان إلى الملك بركة خان يغريه بقتال هولاكو ويرغبه فى ذلك، وسببه تواتر الأخبار بإسلام بركة.

وفيها أغار التتار الذين تخلّفوا على أعمال حلب وعاثوا، ونزل مقدمهم بيدرا على حلب، وضايقها حتى غلت أسعارها وتعذّر وجود القوت، فلما بلغهم توجه عسكر السلطان إليهم رحلوا.

وفيها استولى الأمير شمس الدين أقوش البُرْلى العزيزى على حلب، وجمع معه التركمان والعرب، فأقام نحو أربعة أشهر. ثم توجه إلى البيرةوأخذها ومضى إلى حران فأقام بها، وصار يقرب من حلب ويبعد عنها خوفا من السلطان وفيها عدى بنو مرين العَدْوَة[1] لقتال الفرنج فظفروا. وفيها حج الملك المظفر يوسف بن عمر رسول ملك اليمن، وكسا الكعبة وتصدق بمال.

* * *

ومات فى هذه السنة من الأعيان

الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى، صاحب حلب و دمشق - وهو آخر ملوك بنى أيوب -، بعد أربعة وعشرين عاما من ملكه، واثنتين وثلاثين سنة من عمره، مقتولا بأمر هولاكو.

ومات الملك الصالح إسماعيل بن المجاهد شيركوه بن القاهر محمد بن المنصور أسد الدين شيركوه بن شادى، صاحب حمص، مقتولا بأمر هولاكو أيضا.

وتوفى الأديب مخلص الدين أبو العرب إسماعيل بن عمر بن يوسف بن قرناص الحموى.

* * *

---

(١) المقصود الشاطئ المراكشى لبوغاز جبل طارق.

سنة ستين وستمائة

فى ثانى المحرم: وصل السلطان من دمشق. واشتد الغلاء بدمشق، فبلغت الغرارة القمح أربعمائة وخمسين درهما فضة، وهلك خلق كثير من الجوع.

وفيه سار قرابُغا مقدم التتار من بغداد - وكان قد استخلفه هولاكو عليها عند عوده إلى بلاد الشرق - يريد لقاء الخليفة المستنصر بالله ومحاربته، فنهب الأنبار وقتل جميع من فيها، وتلاحقت به بقية التتار من بغداد. ولقيهم الخليفة وقد رتّب عسكره: فجعل التركمان والعرب جناحى العسكر، واختص جماعة جعلهم فى القلب، وحمل بنفسه على التتار فكسر مقدَّمتهم، وخذله العرب والتركمان فلم يقاتلوا، وخرج كمين للتتار ففر العرب والتركمان، وأحاط التتار بمن بقى معه فلم يفلت منهم سوى الأمير أبى العباس أحمد الذى قدم إلى مصر وتلقب بالحاكم بالله، والأمير ناصر الدين بن مهنا، والأمير ناصر الدين بن صيرم، والأمير سابق الدين بوزبا الصيرفى، والأمير أسد الدين محمود، فى نحو الخمسين من الأجناد. ولم يعرف للخليفة خبر: فيقال قتل بالمعركة فى ثالث المحرم، ويقال بل نجا مجروحا فى طائفة من العرب فمات عندهم. وكانت هذه الواقعة فى العشر الأول من المحرم، فكانت خلافته دون السنة، وبلغت نفقة الملك الظاهر على الخليفة والملوك المواصلة ألف ألف دينار وستين ألف دينار عينا.

واستقر الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ فى مملكته بالموصل، وسار أخواه إسحاق وعلىّ إلى الشام خوفا من التتار، وقدما على السلطان بقلعة الجبل فأبرَّ مقدمهما، وسألاه فى تجهيز نجدة لأخيهما، فرسم السلطان بتجريد الأمير شمس الدين سنقر الرومى فى جماعة من البحرية والحلقة، وساروا من القاهرة فى رابع جمادى الأولى. وكتب إلى دمشق بخروج عسكرها صحبة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس، فسار العسكران من دمشق فى عاشر جمادى الآخرة.

وفوّض السلطان وزارة دمشق لعز الدين عبد العزيز بن وداعة. وتسلم نوّاب السلطان قلعة البيرة. ووقع الصلح بين السلطان وبين الملك المغيث صاحب الكرك. وباشر السلطان عرض عساكر مصر بنفسه، وحلفهم لولىّ عهده الملك السعيد ناصر الدين خاقان بركة خان.

وفى يوم الأحد ثانى عشرى صفر: وصل الأمير أبو العباس أحمد الذى تلقب

بالحاكم بأمر الله[1] إلى دمشق، وخرج يريد مصر يوم الخميس سادس عشريه فوصل إلى ظاهر القاهرة فى سابع عشرى شهر ربيع الأول، فاحتفل السلطان للقائه، وأنزله فى البرج الكبير داخل قلعة الجبل، ورتب له ما يحتاج إليه.

وفى نصف رجب: قدم جماعة من البغاددة مماليك الخليفة المستعصم، الذين تأخروا بالعراق بعد قتل الخليفة، ومقدمهم الأمير سيف الدين سلار. فأكرمهم السلطان، وأعطى الأمير سلار إمرة خمسين فى الشام ونصف مدينة نابلس، ثم نقله إلى إمرة طبلخاناه بمصر. وفيها أطلق السلطان الأمير سيف الدين قلج البغدادى المستنصرى من الاعتقال، وكان قد اعتقله، فمنّ عليه وأذن له فى لعب الكرة معه.

وفى شعبان: قدم الأمير سيف الدين الكرزى، والقاضى أصيل الدين خواجا إمام، من عند الأنبرو ملك الفرنج بكتابه. ثم قدم رسوله بهدية ومعه نفران من البحرية، فاعتقلا بقلعة الجزيرة تجاه مصر. وقدم الأمير شرف الدين الجاكى، والشريف عماد الدين الهاشمى، من عند صاحب الروم - وهو السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، ومعهما رسل المذكور وهما الأمير ناصر الدين نصر الله بن كوح رسلان أمير حاجب، والصدر صدر الدين الأخلاطى، وكتابه المتضمن أنه نزل عن نصف بلاده للسلطان، وسيَّر دُرُوْجًا[2] فيها علائم بما يُقطِع من البلاد لمن يختاره السلطان ويؤمّره، وسأل أن يكتب له السلطان منشورا قرين منشوره[3]. فأكرمهم السلطان، وشرع فى تجهيز جيش نجدة لصاحب الروم، وأمر بكتابة المناشير[4]. وعين السلطان الأمير ناصر الدين أغلمش السلاح دار الصالحى لتقديمه العسكر ومعه ثلاثمائة فارس، وأقطعه إقطاعا ببلاد الروم منه آمد وبلادها.

---

(١) أحمد بن على بن أحمد بن المسترشد بن المستظهر، أبو العباس، الحاكم بأمر الله: ثانى خلفاء الدولة العباسية فى الديار المصرية. نشأ ببغداد واختفى فى واقعتها، وتوجه إلى حسين بن فلاح أمير خفاجة وقاتل التتر، وتوجه إلى مصر عن طريق دمشق، فاتصل بالظاهر بيبرس بعد فقدان المستنصر، فأثبت نسبه أمام بيبرس سنة ٦٦٠ هـ فبايعه وجعل له ما كان لسلفه (المستنصر) من الخطبة باسمه على المنابر. فأقام فى القاهرة إلى أن توفى. انظر بدائع الزهور ١٠٢/١ وابن الوردى ١١٤/٢ وأبو الفداء ٢١٥/٣ والبداية والنهاية ١٤/ ١٩ والدرر الكامنة ١١٩/١ وتاريخ الخميس ٣٧٩/٢ وشذرات الذهب ٢/٦ والأعلام ١/ ١٧٥.

(٢) جمع درج وهى الورق المستطيل المركب منه عدة أوصال.انظر صبح الأعشى ١٣٨/١.

(٣) لفظ المنشور هو كل ما يصدر عن سلطان أو ملك من المكاتبات مما لا يحتاج إلى ختم. انظر صبح الأعشى ١٥٧/١٣.

(٤) المناشير جمع منشور وهو ما يكتب فى الإقطاعات خاصة. انظر صبح الأعشى ١١٨/١٣-١٥٧.

وفى شهر رجب: قدم الأمير عماد الدين بن مظفر الدين صاحب صهيون، رسولا من جهة أخيه الأمير سيف الدين، وصحبته هدية. فأكرمه السلطان وكتب له منشورا بإمرة ثلاثين فى حلب، ومنشورا آخر بإمرة مائة فى بلاد الروم. وفى هذا التاريخ ورد كتاب ملك الروم، بأن العدّو هولاكو لما بلغه اتفاق الروم مع السلطان خاف من هيبته وولى هاربا، وأنه سيرّ إلى قونية يحاصرها ليأخذها من أخيه.

وفى هذا التاريخ قدم كتاب الملك المنصور صاحب حماة، وصحبته قصاد من التتار معهم فرمان[١] له، فشكره السلطان على ذلك، واعتقل التتار.

وفى هذا التاريخ سار الأمير عز الدين الأقرم أمير جاندار بعسكر إلى بلاد الصعيد، وأوقع بالعربان وبدَّد شملهم، وذلك أنهم كثر طمعهم وهمَّوا بتغيير الممالك، ووثبوا على الأمير عز الدين الهواش والى قوص وقتلوه.

وفى شعبان: كثر قدوم العزيزية والناصرية الذين كانوا صحبة الأمير البرلى: فأكرمهم السلطان وعفا عنهم.

وفى هذه المدَّة وصل الأمير فارس الدين أقوش المسعودى الذى كان قد توجه رسولا إلى الأشكرى. وكان الأشكرى قد بعث يطلب من السلطان بطركا النصارى الملكية، فعين الرشيد الكحال لذلك، وسيرّه إليه مع الأمير فارس الدين أقوش المسعودى فى عدَّة من الأساقفة. فلما وصلوا إليه أكرمهم وأعطاهم، ووأوقف الأمير أقوش على جامع. بناه بالقسطنطينية ليكون فى صحيفة السلطان ثوابه. وعاد الأمير أقوش وصحبته البطرك المذكور، فقدَّم البطرك ما ورد على يده من هدية الأشكرى للسلطان، وقدَّم أيضا ما حصل له من المال، فرد السلطان ذلك عليه. وجهز السلطان برسم جامع قسطنطينية الحصر العبدانى، والقناديل المذهبة والستور المرقومة، والمباخر والسجادات إلى غير ذلك من البسط الرومية، والعود والعنبر والمسك وماء الورد.

وفيها أغار الأمير شمس الدين سنقر الرومى على أنطاكية، ونازل صاحبها البِرِنْس وأحرق الميناء بما فيها من المراكب، وكان معه الملك الأشرف موسى صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماة. ثم حاصر السويداء، واستولى عليها وقتل وأسر وعاد، فوصل إلى القاهرة يوم الخميس لليلة بقيت من شهر رمضان، وصحبته من الأسرى نحو مائتين وخمسين أسيرا. فأكرمه السلطان، وأحسن إلى الأمراء، وسير الخلع إلى الملكين المذكورين.

---

(١) الفرمان فى اللغة ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاة والوكلاء والقضاة، يعلن فيها تنصيبهم ومأموريتهم، والجمع فرمانات وفرامين وفرامنه. انظر محيط المحيط.

وفى ثالث شهر رمضان: عزل السلطان قاضى القضاة برهان الدين السنجارى عن قضاء مصر والوجه القبلى، وأعاد قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، فصار بيده قضاء القضاة بديار مصر كلها. وكان متشددا فى أحكامه، فرسم له فى ذى القعدة أن يستنيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة، فاستنابهم فى الحكم عنه، ولم يعرف ذلك بمصر قبل هذا الوقت: فجلس القاضى صدر الدين سليمان الحنفى، والقاضى شرف الدين عمر السبكى المالكى، والقاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى، فى أول ذى القعدة وحكموا بين الناس بمذاهبهم.

وفى رابعه: قبض على الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى نائب الشام، وحمل إلى مصر فاعتقل بقلعة الجبل، وكانت مدّة نيابته سنة وشهرا. وحكم فى دمشق بعده الأمير علاء الدين إيدغدى الحاج الركنى إلى أن يحضر نائب.

وفيها كثر الإرجاف فى دمشق بحركة التتار، فكتب السلطان برحيل أهل الشام بأهليهم إلى مصر. فحضر من تلك البلاد خلق كثير، بعدما كتب السلطان إلى الولاة بتخفيرهم، وألا يؤخذ منهم مكس ولا زكاة، ولا يُتعرض لما معهم من متجر ولا غيره، ولا تُغش تجارة، فاعتمد ذلك. وكتب السلطان إلى حلب بتحريق الأعشاب، فسيرت جماعة إلى بلاد آمد وغيرها وحرقت الأعشاب التى كانت بالمروج التى جرت عادة هولاكو أن ينزلها. فعمَّت النار مسيرة عشرة أيام حتى صارت كلها رمادا، وهمّ الحريق بلاد خلاط، وقُطع السنبل وهو أخضر.

وفيها خرجت الكَشَّافة [1] من دمشق وغيرها، فظفروا بكثير من التتار يريدون القدوم إلى مصر مستأمنين. وقد كان الملك بركة بعثهم نجدة إلى هولاكو، فلما وقع بينهما كتب يستدعيهم إليه، ويأمرهم إن تعذّر عليهم اللحاق به أن يصيروا إلى عساكر مصر. وكان سبب عداوة بركة وهولاكو أن وقعة كانت بينهما، قُتل فيها ولد هولاكو وكُسر عسكره وتمزقوا فى البلاد، وصار هولاكو إلى قلعة بوسط بحيرة أذربيجان محصورا بها. فلما بلغ ذلك السلطان سُرّ به، وفرح الناس باشتغال هولاكو عن قصد بلاد الشام. وكتب السلطان إلى النوّاب بإكرام الوافدية من التتار، والإقامة لهم بما يحتاجون إليه من العليق والغنم وغيره، وسيرت إليهم الخلع والإنعامات والسكر ونحوه. وساروا إلى القاهرة، فخرج السلطان إلى لقائهم فى سادس عشرى ذى الحجة ولم يتأخر أحد عن مشاهدتهم، فتلقاهم وأنزلهم فى دور بنت لهم فى اللوق ظاهر

(١) الكشافة جمع كشاف. ومعناها هنا فئة معينة من العسكر وكان عملها الخروج لكشف أخبار العدو.

القاهرة، وعمل لهم دعوة عظيمة هناك، وبعث إليهم الخلع والخيول والأموال. وأمَّر السلطان أكابرهم، ونزل باقيهم فى جملة البحرية، وكانوا مائتى فارس بأهاليهم، فحسنت حالهم، ودخلوا فى الإسلام. وكتب السلطان إلى الملك بركة كتابا، وسيره مع الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كسريك.

وفيها سار صَنْدَغُوْن مقدم التتار إلى الموصل، ونصب عليها خمسة وعشرين منجنيقا، و لم يكن بها سلاح ولا قوت فاشتد الغلاء. وحاصرها صندغون حتى خرج إليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأتابكى، فى يوم الجمعة النصف من شعبان، فقبض عليه وعلى من معه. ووقع التخريب فى سور المدينة وقد اطمأن أهلها، ثم اقتحموها ووضعوا السيف فى الناس تسعة أيام، ووسّطوا علاء الدين ابن الملك الصالح، ونهبوا المدينة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والذرية، وهدموا المبانى وتركوها بلاقع، ورحلوا بالملك الصالح إسماعيل، ثم قتلوه وهم فى طريقهم إلى هولاكو.

وفيها خرج الأمير شمس الدين أقوش البُرْلى من حلب نجدة للملك الصالح، فأدركه التتار بسنجار وواقعوه، فانهزم منهم إلى البيرة فى رابع عشر جمادى الآخرة. ثم استأذن الأمير شمس الدين السلطان فى العبور إلى مصر، فأذن له وسار إلى القاهرة فدخلها أوّل ذى القعدة، فأنعم عليه السلطان وأقطعه إمرة سبعين فارسا. وولى السلطان بعده نيابة حلب الأمير عز الدين أيدمر الشهابى، فواقع أهل سيس وأخذ منهم جماعة، وبعثهم إلى مصر فوُسْطوا.

وفيها وفد على السلطان بعيد كسرة المستنصر شيوخ عبادة وخفاجة، من هيت والأنبار إلى الحلة والكوفة، وكبيرهم خضر بن بدران بن مقلد بن سليمان بن مهارش العبادى، وشهرى بن أحمد الخفاجى، ومقبل بن سالم، وعياش بن حديثة، ووشاح وغيرهم. فأنعم السلطان عليهم وكانوا له عينا على التتار.

* * *

ومات فى هذه السنة من الأعيان

الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله أبى نصر محمد ابن الناصر لدين الله أبى العباس أحمد العباسى، قتيلا فى المعركة قريبا من هيت.

وتوفى شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم ابن الحسن المهذب السلبى الشافعى، عن اثنتين وستين سنة فى[......][1].

(١) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

وتوفى الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن نجم الدين أبى الحسن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن العديم الحنفى بالقاهرة[١]. عن نيف وستين سنة.

وتوفى الأديب محيى الدين أبو العز يوسف بن يوسف بن يوسف بن شبرمة بن زبلاق[٢] الهاشمى الموصلى الأديب الشاعر الكاتب، قتيلا بالموصل، عن سبع وخمسين سنة.

* * *

(١) جاء فى أن الصاحب كمال الدين بن العديم، وهو مؤلف كتاب تاريخ حلب المشهور، كان قد هرب مع الناصر صاحب حلب من وجه التتر إلى القاهرة استدعاه هولاكو إلى الشام ليوليه قضاء القضاة بها، غير أنه ظل مقيما بالقاهرة حتى مات.

(٢) يوسف بن يوسف بن سلامة بن إبراهيم بن موسى الهاشمى العباسى، أبو المحاسن، محيى الدين الموصلى، المعروف بابن زبلاق: شاعر مجيد، من الفضلاء كان كاتب الإنشاء بالموصل. وقتله بها التتار، لما استولوا عليها. انظر البداية والنهاية ٢٣٦/١٣ وذيل مرآة الزمان ٥١٣/١ و١٨١/٢ وفوات الوفيات ٣٢١/٢، ٣٢٧ والحوادث الجامعة ٣٤٨ شذرات الذهب ٣٠٤/٥ والأعلام ٢٥٩/٨.

سنة إحدى وستين وستمائة

فى الخميس ثامن المحرم: جلس الملك الظاهر مجلسًا عاما جمع فيه الناس. وحضره التتار الذين وفدوا من العراق والرسل المتوجهون إلى الملك بركة. وجاء الأمير أبو العباس أحمد بن أبى بكر على بن أبى بكر بن أحمد بن المسترشد با لله العباسى، وهو راكب إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل، وجلس إلى جانب السلطان، وقُرئ نسبه على الناس بعدما ثبت على قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، ولقب بالإمام الحاكم بأمر ا لله أمير المؤمنين، وتولى قراءة نسبه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر. فلما ثبت ذلك مدّ السلطان يده وبايعه على العمل بكتاب ا لله وسنة رسوله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد أعداء ا لله وأخذ أموال ا لله بحقها وصرفها فى مستحقها، والوفاء بالعهود وإقامة الحدود، وما يجب على الأمير فعله فى أمور الدين وحراسة المسلمين. فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور البلاد والعباد، وجعل إليه تدبير الخلق، وأقامه قَسِيمه فى القيام بالحق، وفوّض إليه سائر الأمور، وعلّق به صلاح الجمهور. ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم فى مبايعته، فلم يبق ملك ولا أمير ولا وزير ولا قاض ولا مشير ولا جندى ولا فقيه إلا وبايعه. فلما تمت البيعة تحدث السلطان معه فى إنفاذ الرسل إلى الملك بركة، وانفض الناس.

فلما كان يوم الجمعة ثانى هذا اليوم: اجتمع الناس وحضر الرسل المذكورون، وبرز الخليفة الحاكم بأمر ا لله وعليه سواده، وصعد المنبر لخطبة الجمعة فقال: «الحمد لله الذى أقام لكل العباس ركنا وظهيرا، وجعل لهم من لديه سلطانا ونصيرا. أحمده على السراء والضراء، وأستنصره على دفع الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا ا لله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمه وكاشف غمه أبى السادة الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين، وعلى بقية الصحابة التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أيها الناس! اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم عَلَم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سُبيت الحُرُم إلا بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم. فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام[1]،

---

(١) المقصود بها بغداد.

واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأبطال والأطفال، وهتكوا حرم الخليفة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعَلَت الضجَّات من هول ذلك اليوم الطويل. فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم طفل بكا فلم يرحم لبكائه. فشمِّروا عن ساق الاجتهاد فى إحياء فرض الجهاد ﴿وَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُم وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُم وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] فلم تبق معذرة عن أعداء الدين، والمحاماة عن المسلمين».

«وهذا السلطان الملك الظاهر، السيد الأجل العالم العادل المجاهد الرابط ركن الدنيا والدين، قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار، وشرَّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار. فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود. فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة، وأخلصوا نياتكم تنتصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ولا يُرَوِّعَنَّكم ما جرى، فالحرب سجال والعاقبة للمتقين، والدهر يومان والأخرى للمؤمنين. جمع الله على التقوى أمركم، وأعز بالإيمان نصركم، وأستغفرُ الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم».

وجلس الخليفة جلسة الاستراحة، ثم قام للخطبة الثانية وقال: «الحمد لله حمدا يقوم بشكر نعمائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عدة للقائه، وأشهد أن محمدا سيد رسله وأنبيائه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلق فى أرضه وسمائه. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، إن أحسن ما وعظ به الإنسان كلام الديَّان: ﴿يأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُم، فَإنْ تَنَازَعْتُم فِى شَىءٍ فَرُدُّوه إلى اللهِ والرَّسُولِ إنْ كُنْتُم تُؤمِنونَ باللهِ والْيَومِ الآخرِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[2] نفعنا الله وإياكم بكتابه، وأجزل لنا ولكم من ثوابه، وغفر لى ولكم وللمسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين». ثم نزل الخليفة وصلى بالناس صلاة الجمعة، وانصرف.

وفى هذا اليوم خُطب على منابر القاهرة ومصر بالدعاء للخليفة الحاكم بأمر الله، وكُتب إلى الأعمال بذلك، فخطب له بدمشق فى يوم الجمعة سادس عشره. وقد قيل فى نسبه إنه أبو العباس أحمد بن الأمير محمد بن الحسن بن أبى بكر بن الحسن بن على القُبِّى بن الحسن بن أمير المؤمنين الراشد بن المسترشد، وهو الخليفة التاسع والثلاثون من

---

(١) سورة التغابن آية ١٦

(٢) سورة النساء آية ٥٩.

خلفاء بنى العباس، وليس فيهم بعد السفاح[1] والمنصور[2] من ليس أبوه وجده خليفة غيره، وأما من ليس أبوه خليفة فكثير.

وتجهز الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كش تك، وكُتب على يدهما كتب بأحوال الإسلام ومبايعة الخليفة، واستمالة الملك بركة وحثه على الجهاد، ووصف عساكر المسلمين وكثرتهم وعدة أجناسهم، وما فيها من خيل وتركمان وعشائر وأكراد، ومن وافقها وهاداها وهادنها، وأنها كلها سامعة مطيعة لإشارته، إلى غير ذلك من الإغراء بهلاون وتهون أمره والإشلاء عليه وتقبيح فعله، ونحو ذلك. وجهز السلطان معهما أيضا نسخة نسبة الخليفة إلى رسول الله ﷺ، وأُذْهِبَت وكتب فيها الإسجال بثبوتها. وجُمعت الأمراء والمفاردة[3] وغيرهم وقرئت عليهم الكتب، وسلمت إلى الرسل. وسُيّر معهما نفران من التتر أصحاب الملك بركة ليعرفاهما بالطرق، وساروا فى الطرائد ومعهم زوادة أشهر. فوصلوا إلى الأشكرى فقام بخدمتهم، واتفق وصول رَسَلِ[4] الملك بركة إليه فسيّرهم صحبته وعاد الفقيه مجد الدين لمرض نزل به، ومعه كتاب الأشكرى بمسير الأمير سيف الدين ورفقته. وسار الأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى إلى نيابة دمشق، ومعه الصاحب عز الدين عبد العزيز بن وداعة وزير دمشق، وعلى يده تَذاكر[5] شريفة بعدما خلع عليهما.

---

(١) عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أبو العباس، أول خلفاء الدولة العباسية، وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب. ولد ونشأ بالشراة (بين الشام والمدينة) بويع له بالخلافة جهرا فى الكوفة سنة ١٣٢ هـ لقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء بنى أمية. كانت إقامته بالأنبار، حيث بنى مدينة سماها (الهاشمية) وجعلها مقر خلافته. انظر ابن الأثير ١٥٢/٥ والطبرى ١٥٤/٩ واليعقوبى ٣/ ٨٦ وابن خلدون ١٨٠/٣ تاريخ الخميس ٣٢٤/٢ والبدء والتاريخ ٨٨/٦ والنبراس ١٩،٢٣ والمسعودى ١٦٥/٢-١٨٠ وتاريخ بغداد ٤٦/١٠ وفوات الوفيات ٢٣٢/١ والأعلام ١١٦/٤.

(٢) عبد الله بن محمد بن على بن العباس، أبو جعفر، المنصور: ثانى خلفاء بنى العباس، وأول من عنى بالعلوم من ملوك العرب. ولد فى الحميمة من أرض الشراة (قرب معان) وولى الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة ١٣٦ هـ. وهو بانى مدينة «بغداد» أمر بتخطيطها سنة ١٤٥ هـ وجعلها دار ملكه بدلا من الهاشمية التى بناها السفاح. انظر ابن الأثير ١٧٢/٥ والطبرى ٢٩٢/٩-٣٢٢ والبدء والتاريخ ٩٠/٦ واليعقوبى ١٠٠/٣ وتاريخ الخميس ٣٢٤/٢ و٣٢٩ والنبراس لابن بحية ٢٤-٣٠ والمسعودى ١٨٠/٢-١٩٤ وتاريخ بغداد ٥٣/١٠ وابن الساعى ٢٣/١١ وفوات الوفيات ٢٣٢/١ والأعلام ١١٧/٤.

(٣) جمع مفردى، والمفاردة نوع من عساكر السلطان. ويظهر أنهم أفردوا بهذه النسبة لتبعيتهم مباشرة لديوان المفرد.

(٤) الرسل هم الجماعة والقطيع من كل شىء وجمعه أرسال. انظر محيط المحيط.

(٥) التذاكر جمع تذكرة وهى كما يدل معناها اللفظى: كل مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه بالأقاليم المصرية ونيابات الشام، أو إلى قصاده الذين يرسلهم فى مهام الدولة.

وفى سابع ربيع الآخر: سار السلطان من قلعة الجبل إلى بلاد الشام، ونزل خارج القاهرة. ورحل فى حادى عشره، ودام الصيد إلى أن دخل غزة، بعدما ضرب حلقة بثلاث آلاف فارس فى العريش، فوقع فيها صيد كثير جدا، وتقنطر الأمير شمس الدين سنقر الرومى عن فرسه، فسار السلطان إليه ونزل عنده، وجعل رأسه على ركبته وأخرج من خريطته المومْيا[1] وسقاه، وأخذه معه إلى خيمته. وتقنطر الأمير سيف الدين قلاوون، فاعتمد السلطان معه مثل ذلك.

وقدم عليه فى غزة جماعة منهم أم الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب صاحب الكرك، فأنعم عليها إنعاما كثيرا وأعطى سائر من كان معها، وحصل الحديث فى حضور ولدها إلى السلطان، وعادت إلى ابنها بالكرك. من جملة ما زوّدها به السلطان من صيده خمسة عشر حملا، وسار معها الأمير شرف الدين الجاكى المهمندار، برسم تجهيز الإقامات للملك المغيث إذا حضر. ونظر السلطان فى أمر التركمان، وخلع على أمرائهم وعلى أمراء العربان من العابد وجرم وثعلبة، وضمنهم البلاد وألزمهم القيام بالعِدَاد، وشرط عليهم خدمة البريد وإحضار الخيل برسمه وكتب إلى ملك شيراز وأهل تلك الديار، وإلى عرب خفاجة، يستحثهم على قتال هولاكو ملك التتار، وأن الأخبار قد وردت من البحر بكسر الملك بركة له غير مرة.

ثم رحل السلطان من غزة إلى جهة الساحل، ونزل الطور فى ثانى عشر جمادى الأولى، وقدم إليه هناك الملك الأشرف صاحب حمص فى خامس عشره بإذن منه فتلقاه السلطان وأكرمه، وبعث إليه سبعين غزالا فى دفعة واحدة، وقال: «هذا صيد يومنا هذا، جعلته لك». وخرج إليه المغيث من الكرك، بعدما كاتبه الملك الظاهر يستدعيه وهو يسوّف به. فأظهر السلطان من الاحتفال له شيئًا كثيرا، وخدعه أعظم خديعة، وكتم أمره عن كل أحد. فلما وصل المغيث بيسان ركب السلطان إلى لقائه فى سادس عشرى جمادى الأولى، وافاه فى أحسن زىّ. فعندما التقيا ساق الملك المغيث إلى جانب السلطان، فسار به إلى الدهليز السلطانى، ودخلا إلى خركاه، وللوقت قُبض عليه. وأحضر السلطانُ الملوكَ والأمراء، وقاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان - وكان قد استدعاه من دمشق، والشهود والأجناد ورسل الفرنج. وأخرج السلطان إليهم كُتب الملك المغيث إلى التتار وكُتب التتار إليه، وأخرج أيضا فتاوى الفقهاء بقتاله، وأحضر أيضا القصاد الذين كانوا يسفرون بينه وبين هولاكو. ثم قال الأميرُ الأتابكُ لمن حضر:

---

(١) على هامش ط: الموميا - وهى لفظة يونانية الأصل - مادة دواء يستعمل شربا وضمادا، ويستخدم كثيرا لجبر العظام المكسورة.

«السلطان الملك الظاهر يسلم عليكم، ويقول ما أخذتُ الملك المغيث إلا بهذا السبب»، وقرئت الكتب المذكورة عليهم. فكُتب بصورة الحال، وأثبت القضاة خطوطهم فى المكتوب، وانفض الجمع. وجلس السلطان وأمر فكتب إلى من بالكرك يعدهم ويحذرهم، وسير الأمير بدر الدين بيسرى، والأمير عز الدين الأستادار، بالكتب والخلع والأموال إلى الكرك. وأرسل الملك المغيث عِشَاء إلى مصر مع الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى السلاح دار، فسار به إلى قلعة الجبل وسجنه بها، وأطلق السلطان حواشيه، وبعث بحريمه إلى مصر، وأطلق لهم الرواتب.

ولما خلا بال السلطان من همّ الملك المغيث، توجه بكليَّته إلى الفرنج: فإنهم كانوا قد شرعوا فى التعلل وطلبوا زرعين، فأجابهم السلطان «بأنكم تعوضتم عنها فى الأيام الناصرية ضياعا من مرج عيون»، وهم لا يزدادون إلاّ شكوى. وآخر الحال طلب الفرنج من والى غزة كتابا بتمكين رسلهم إذا حضروا، فكتب لهم الكتاب، وتواصلت بعد ذلك كتبهم. ووردت كتب النواب بشكواهم، وأنهم اعتمدوا أمورا تفسخ الهدنة فلما صار السلطان فى وسط بلادهم وردت عليه كتبهم، وفيها: «ما عرفنا بوصول السلطان». فكتب إليهم: «من يريد أن يتولى أمرا ينبغى أن يكون فيه يقظة، ومن خفى عنه خروج هذه العساكر، وجهل ما علمته الوحوش فى الفلاة والحيتان فى المياه، من كثرتها التى لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويُكنَسُ منه التراب الذى أثارته خيل هذه العساكر، ولعلّ وقع سنابكها قد أصمَّ أسماع من وراء البحر من الفرنج، ومن فى مُوتان[1] من التتار. فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون، فأى شىء تعلمون؟ وماذا تحطون به علما؟ ولَمَ لا أعطيتم لوالى غزة الكتاب الذى كنا سيرناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر؟» قال الرسول: «نسينا، وما علمنا كيف عُدِم». فكان الجواب: «إذا نسيتم هذا فأى شىء تذكرون؟ وإذا ضيّعتموه فأى شىء تحفظون؟» وانفعل الحال على هذا. ووصلت نوّاب يافا ونواب أرسوف بهدية، فأخذت منهم تطمينا لقلوبهم، وتسكينا لهم. هذا وقد أمر السلطان ألا ينزل أحد فى زرع الفرنج ولا يسيب فرسا، ولا يؤذى لهم ورقة خضراء، ولا يتعرض إلى شىء من مواشيهم ولا إلى أحد من فلاحيهم.

وكانت كتبهم أولا ترد بندمهم على الهدنة وطلبهم فسخها، فلما قرب السلطان منهم صارت ترد بأنهم باقون على العهد متمسكون بأذيال المواثيق.

وفى اليوم الذى قُبض فيه على الملك المغيث، أمر السلطان بإحضار بيوت الفرنجية وقال: «ما تقولون؟» قالوا: نتمسك بالهدنة التى بيننا. فقال السلطان: «لم لا كان هذا

---

(١) هى إحدى أقسام آذربيجان. انظر ومعجم البلدان ٦٨٦/٤.

قبل حضورنا إلى هذا المكان، وإنفاق الأموال التي لو جرت لكانت بحارا؟ ونحن لما حضرنا إلى ها هنا ما آذيناكم زرعا ولا غيره، ولا نُهب لكم مال ولا ماشية، ولا أسر لكم أسير. وأنتم منعتم الجَلْب[1] والميرة عن العسكر، وحرّمتم خروج شيء من الغلات والأغنام وغير ذلك، ومن انفرد من غلمان العسكر أسرتموه. إلينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها، وسيَّرنا نسخة يمين من عندنا لم تحلفوا عليها، وعلمتم أنتم نسخة حلفتم عليها، وشرط اليمين الأولى تتعلق بالثانية. وسيرنا الأسارى إلى نابلس ومنها إلى دمشق، وما سيرتم أنتم أحد، وكل بيت يحيل على الآخر، وما سيرنا الأسارى إلا وفاء بالعهد وإقامة الحجة عليكم وسيَّرنا كمال الدين بن شيث رسولا يعلمكم بوصول الأسرى، فلم تبعثوا أحدا، ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم، كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم. وأموال التجار شَرَطتم القيام بما أخذتموه منها، ثم قلتم ما أخِذَت من بلادنا وإنما أخذت في أنطرسوس[2] وُحمل المال إلى خزانة بيت الديوية والأسرى في بيت الديوية، فإن كانت أنطرسوس ما هي لكم فالله يحقق ذلك. ثم إنا سيرنا رسلا إلى بلاد السلاجقة الروم، وكتبنا إليكم بتسفيرهم في البحر فأشرتم عليهم بالسفر إلى قبرص فسافروا بكتابكم وأمانكم، فأُخِذُوا وُقيدوا وضُيّق عليهم، وأتلف أحدهم على ما ذكر. فإن كان هذا برضاكم فقبيح أنْ يعتمدوا هذا الاعتماد. هذا مع إحساننا إلى رسلكم وتجاركم، والوفاء أحد أركان الملك. وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى، وما زالت الحرب قائمة والرسل تتردّد، وما القدرة على الرسول بشيء يسكن غيظا. فإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص في حرمتكم، وإذا كان صاحب جزيرة قبرص من أهل ملتكم، يخرق حرمتكم ولا يفي بعهدكم ولا يحفظ ذمامكم ولا يقبل شفاعتكم، فأي حرمة تبقى لكم وأي ذمام يوثق به منكم، وأي شفاعة تقبل عند المسلمين والفرنجية؟ وهل كانت الملوك الماضية تقي النفوس والرجال والأموال إلا بحفظ الحرمة؟ وما صاحب جزيرة قبرص ملك عظيم، ولا صاحب حصن منيع، ولا قائد جيش كثير، ولا هو خارج عنكم. بل أكثر تعلقاته في عكا والساحل، وله عندكم المراكب والتجار والأموال والرسل، وليس هو منفرد بنفسه، وعنده الديوية وجميع البيوت والنواب مقيمون عنده، وعنده كُنْد يافا وغيره. فلو كنتم لا تؤثرون ذلك كنتم قمتم جميعكم عليه، وأحطتم على كل ما يتعلق به وأصحابه، واسترحتم من هذه

---

(١) الجلب هنا ما تجلبه البلاد من الأطعمة للجيوش النازلة بقربها. انظر ابن أبي الفضائل، النهج السديد ١٠٨.

(٢) بلد من سواحل بحر الشام وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص. انظر معجم البلدان ١/٣٨٨.

الفضيحة، وكتبتم إلى ملوك الفرنجية وإلى البابا بما فعله. وإذا قلتم صاحب قبرص لا يسمع منكم ولا يعطيكم، فإذا لم يسمع منكم صاحب قبرص وهو من أهل ملتكم، فمن يسمع منكم؟ وهل لهذه التقدمة إلى الأمر والنهى؟ ولاسيما أنتم تقولون أن أموركم دينية، ومن ردّها عصى المعبود، ويغضب عليه المسيح. فكيف لا يعصى المعبود ويغضب المسيح على صاحب قبرص، وقد ردّ أمركم وأغرى بكم وقبح قولكم؟ وكنا لو اشتهينا أخذنا حقنا منه، وإنما الحق عندكم نحن نطلب منكم، وأنتم تطلبون منه. وأنتم فى أيام الملك الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف[1]، على أنكم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح نجم الدين أيوب. وخرجتم جميعكم فى خدمته ونجدته، وجرى ما جرى من خذلانه، وقَتْلِكم وأسركم وأسر ملوككم وأسر مقدّميكم، وكل أحد يتحقق ما جرى عليكم من ذهاب الأرواح والأموال. وقد انقضت تلك الدولة، ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عن فتوحه البلاد، وأحسن إليكم فقابلتم ذلك بأن رحتم إلى الريدافرنس، وساعدتموه وأتيتم صحبته إلى مصر، حتى جرى ما جرى من القتل والأسر. فأىّ مرة وفيتم فيها لمملكة مصر، أم أى حركة أفلحتم فيها؟ وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الملك الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام، وطاعة ملكها ونصرته والخروج فى خدمته، وإنفاق الأموال فى نجدته. وقد صارت بحمد الله مملكة الشام وغيرها لى، وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجدتكم، ولم يبق لى عدو أخافه. فردّوا ما أخذتموه من البلاد، وفكّوا أسرى المسلمين جميعهم، فإنى لا أقبل غير ذلك».

فلما سمع رسل الفرنج هذه المقالة بهتوا، وقالوا: «نحن لا ننقض الهدنة، وإنما نطلب مراحم السلطان فى استدامتها، ونحن نزيل شكوى النوّاب، ونخرج من جميع الدعاوى ونفك الأسرى، ونستأنف الخدمة». فقال السلطان: «كان هذا قبل خروجى من مصر، فى هذا الشتاء وهذه الأمطار، ووصول العساكر إلى هنا». وانفصلوا على هذه الأمور، فأمر السلطان بإخراجهم وألا يبيتوا فى الوطاق. ووجّه الأمير علاء الدين طيبرس إلى كنيسة الناصرة، وكانت أجل مواطن عباداتهم ويزعمون أن دين النصرانية ظهر منها، فسار إليها وهدمها، فلم يتجاسر أحد من الفرنج أن يتحرّك. ثم وجه السلطان الأمير بدر الدين الأيدمرى فى عسكر إلى عكا، فساروا إليها واقتحموا أبوابها وعادوا. ثم ساروا ثانيًا، وأغاروا على مواشى الفرنج، وأحضروا منها شيئًا كثيرا إلى المخيم.

واستمر جلوس السلطان كل يوم على باب الدهليز بصُفّة[2] عمرها، من غير

(١) حصن بالقرب من صور، أو قلعة من نواحى حلب قبلى حارم أو قلعة صغيرة قرب أنطاكية. انظر معجم البلدان ٣/٣٥٦.

(٢) الصفة هنا مسطبة مرتفعة تستعمل للجلوس عليها. انظر محيط المحيط.

احتجاب عن أحد، فمن وقف له أحضره وأخذ قِصته[١] وأنصفه، وهو فى أمر ونهى وعطاء وتدبير، واستجلاب قلوب أهل الكرك. وقدمت رسل دار الدعوة[٢] بالهدايا، فأحسن إليهم وعادوا. وأمَّر جماعة فى الشام والساحل، وأعطى الأمير علاء الدين أيديكن البندقدار إقطاعا جيدا بمصر. وطلب أهل بلاد الساحل من الفلاحين، وقرر عليهم أموالا سَّماها جنَايات[٣]، وألزمهم بحملها إلى بيت المال، عن ديات من قتل وليس له وارث وهم ما نهبوه من مال جهل مالكه. فحملت من ذلك أموال كثيرة جدا من بلاد نابلس وبلاد الساحل، وانكسرت شوكة أهل العيث والفساد بذلك بعدما كان الضرر عظيما بهم، من تسلطهم على الرعية ونقلهم الأخبار للفرنج. فرأى السلطان عقوبتهم بهذا الفعل أولى من قتلهم، فإنهم أصحاب زرع وضرع.

ركب السلطان وجرَّد من كل عشرة فارسا، واستناب الأمير شجاع الدين الشبلى المهمندار فى الدهليز السلطانى، وساق من منزلة الطور نصف الليل. فصبح عكا وأطاف بها من جهة البر، وندب جماعة لحصار برج كان قريبًا منه فشرعوا فى نقبه، وأقام السلطان على ذلك إلى قريب المغرب وعاد. وكان قصده بذلك كشف مدينة عكا، فإن الفرنج كانوا يزعمون أن أحدا لا يجسر أن يقرب منها، فصاروا ينظرون من أبواب المدينة ولا يستطيعون حركة. ولما عاد السلطان إلى الدهليز ركب لما أصبح، وأركب الناس معه، وساق إلى عكا. فإذا الفرنج قد حفروا خندقا حول تل الفضول، وجعلوا مَعاثِر[٤] فى الطريق، ووقفوا صفوفا على التل، فلما أشرف السلطان عليهم رتب العسكر بنفسه، وشرع الجميع فى ذكر الله وتهليله وتكبيره، والسلطان يحثهم على ذلك حتى ارتفعت أصواتهم. وللوقت رُدمت الخنادق بأيدى غلمان العساكر وبمن حضر من الفقراء المجاهدين، وصعد المسلمون فوق تل الفضول، وقد انهزم الفرنج إلى المدينة.

وامتدت الأيدى إلى ما حول عكا من الأبراج فهدمت، وحرقت الأشجار حتى انعقد الجو من دخانها. وساق العسكر إلى أبواب عكا، وقتلوا وأسروا عدّة من الفرنج فى ساعة واحدة، والسلطان قائم على رأس التل يعمل فى أخذ رأى المدينة، والأمراء تحمل على الأبواب واحدا بعد واحد. ثم حملوا حملة واحدة ألقوا فيها الفرنج فى

---

(١) على هامش ط: القصة هى الطلب والالتماس، ويرفعها صاحب الحاجة أو الشكوى إلى حضرة السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصته دار.

(٢) على هامش ط: المقصود بدار الدعوة مركز الإسماعيلية بالشام.

(٣)على هامش ط: الجنايات جمع جناية، وهو ما يفرضه السلطان من الضرائب والغرامات التأديبية على رعيته.

(٤) المعاثر جمع العاثور، وهو ما يعد فى الأرض من حفرة ونحوها ليقع فيه أحد. انظرمحيط المحيط.

الخنادق، وهلك منهم جماعة فى الأبواب. فلما كان آخر النهار ساق السلطان إلى البرج الذى نقُب، وقد تَعَلَّق حتى رُمى بين يديه، وأخِذ منه أربعة من الفرسان ونيف وثلاثون راجلا، وبات السلطان على ذلك. فلما أصبح عاد على بلاد الفرنج وكشفها مكانا مكانا، وعبر على الناصرة[١] حتى شاهد خراب كنيستها وقُد سُوِّى بها الأرض، وصار إلى الصفة التى بناها قبالة الطور، فوافاها ليلا وجلس عليها. وأحضر الشموع[٢] التى بالمنجنيقات ونصب عليها خمسة، وأحضر الصاحب فخر الدين محمد بن حنا وزير الصحبة. وجماعة كتاب الدَّرْج[٣] وهم سبعة: الصاحب فخر الدين بن لقمان، والصدر بدر الدين حسن الموصلى، والصدر كمال الدين أحمد بن العجمى، والصدر فتح الدين ابن القيسرانى، والصدر شهاب الدين أحمد بن عبيد الله، والصدر برهان الدين. وأحضر كتاب الجيش، وأمر الأمير سيف الدين الزينى أمير علم[٤] أن يجلس مع كتاب الجيش، لأجل كتابة المناشير وتجهيز الطبلخانا، وأن يكون الأتابك بين يدى السلطان. واستدعى من الجُشارات[٥] بخمسمائة فرس لأجل الطبلخاناه وخيول الأمراء، وأحضرت خلع كثيرة، وأمر السلاح دارية أن يستريحوا بالنوبة ويحضروا. فلم تزل المِثالات[٦] والمناشير تكتب وهو يعلّم، فكُتب بين يديه تلك الليلة ستة وخمسون منشورا كبارا يخطب لأمراء كبار. وظل الصاحب فخر الدين يعلّم، وفتح الدين بن سناء الملك صاحب ديوان الجيش وصاحب ديوان الخزائن يعلّم، والأمير بدر الدين الخازندار واقف، والمستوفى ينزّل، حتى كملت بين يديه. وأصبح السلطان فخلا بنفسه، وجهز الطبلخاناه والسناجق والخيل والخلع إلى الأمراء، وجعل الأمير ناصر الدين القيمرى[٧] نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية.

---

(١) قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا. انظر معجم البلدان ٥/٢٥١.

(٢) الشموع جمع شمعة أو معناها هنا الأعمدة الخشبية الدقيقة.

(٣) كان كتاب الدرج من موظفى ديوان الإنشاء. انظر صبح الأعشى ١/١٣٧.

(٤) كان صاحب هذه الوظيفة هو الذى يتولى أمر الأعلام السلطانية والطبلخاناه.انظر صبح الأعشى ٤/٢٢.

(٥) الجشارات جمع حشار، وهو مكان رعى الماشية من خيل وغيرها.

(٦) المثالات جمع مثال، وهو أول ما كان يكتب من الأوراق الرسمية إيذانا بإعطاء أحد المماليك إقطاعا من الإقطاعات الخالية. انظر صبح الأعشى ١٣/١٥٣.

(٧) الحسين بن على القيمرى، ناصر الدين: أمير، كردى الأصل، مستعرب. كان صاحب القيمرية الجوانية فى دمشق. كان شجاعا موفقا، أقطعه الظاهر إقطاعا جيدا وجعله مقدم العسكر بالساحل، فمات فيه. نسبته إلى قيمر ببلاد الأكراد. انظر المجموعة التاجية والأعلام ٣/٢٤٦،٢٤٧.

ورحل السلطان من الطور يوم الإثنين ثالث عشر جمادى الآخرة، وسار إلى القدس فوافاه يوم الجمعة عشره، وكشف أحوال البلد وما يحتاج إليه المسجد من العمارة، ونظر فى الأوقاف وكتب بحمايتها، ورتّب برسم مصالح المسجد فى كل سنة خمسة آلاف درهم وأمر ببناء خان خارج البلد، ونقل إليه من القاهرة باب القصر المعروف بباب العِيد[1]، ونادى بالقدس ألا ينزل أحد فى زرع.

ثم سار السلطان إلى الكرك فنزله يوم الخميس ثالث عشريه بعساكره، وأحضر السلالم الخشب من الصلت وغيره، والحجارين والبنائين والنجارين والصناع من مصر ودمشق. وكتب إلى من فى الكرك فخافوا، وترددت الرسل بينهم وبينه، حتى استقر الحال على أنه يعطى الملك العزيز عثمان بن الملك المغيث إمرة مائة فارس، فأنعم بذلك. ونزل أولاد المغيث، وقاضى المدينة وخطيبها وعدة من أهلها ومعهم مفاتيح المدينة والقلعة، فحلف لهم السلطان وأرضاهم، وسير الأمير عز الدين أيدمر الأستادار، والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا[2] فى ليلة الجمعة رابع عشريه، فتسلما القلعة. وفى بكرة الجمعة دُعى للسلطان على الأسوار، ونُصبت سناجقه على الأبراج، وركب فى الساعة الثالثة وطلع إلى القلعة ورتب أمر جيش الكرك، وأنفق فيهم ثلاثة أشهرمن خزائنه واهتم السلطان ببلادها وعين لها خاصا، وزاد جماعة، وأنعم على أولاد الملك المغيث بجميع ما كان فى القلعة من مال وقماش وأثاث. وصلى بها صلاة الجمعة، ونزل قريب المغرب، ولم يتعرض أحد من العسكر لأهلها بسوء. وأصبح السلطان فبعث إلى العزيز بن المغيث الخلع والقماش، وإلى الطواشى بهاء الدين صندل، والأمير شهاب الدين صعلوك أتابكة. وكُتب بالبشارة إلى مصر والشام بأخذ الكرك، وأن تُحمل إليه الغلات والأصناف وطلع السلطان إليها يوم الإثنين، وأحضر الدواوين ورتب الإقطاعات للعربان والأجناد، فكتب بين يديه زيادة على ثلاثمائة منشور، وسلمت لأربابها بعدما حلفوا بين يدى السلطان، وكتبت أيضا تواقيع لأهل الكرك بمناصب دينية وديوانية. وجرّد السلطان بها عدة من البحرية والظاهرية، وحلف مقدمى الكرك وأنصارها، وقال لأهل الكرك: «اعلموا أنكم قد أسأتم إلىّ فى الأيام الماضية، وقد اغتفرت لكم ذلك لكونكم

---

(١) كان ذلك الباب أحد أبواب القصر الكبير الفاطمى. انظر خطط المقريزى.

(٢) على بن محمد بن سليم المصرى المعروف ببهاء الدين بن حنا: وزير كان من أكابر الرجال فى عصره، حزما وعزما ذو رأى ودهاء وخبرة، مولده ووفاته بمصر. استوزره «الظاهر» وفوض إليه الأمور. انظر فوات الوفيات ٧٦/٢ وابن الفرات ١٢٥/٧ والأعلام ٣٣٣/٤.

ما خامرتم على صاحبكم. وقد ازددت فيكم محبة فتناسوا الحقود». وأحضر الأمير عبية وغيره عن هرب من بنى مهدى، وألزمهم أدراك البلاد وخفّرهم إلى أرض الحجاز. وأمر بعمارة ما يحتاج إليه فى السور وحصّنه وحفر الخندق وأحاطه بالحصن، ولم يكن قبل ذلك كذلك. وأشحن الحصن بالأسلحة والغلال وآلات الحرب والأقوات، ووضع فيه مبلغ سبعين ألف دينار عينا ومائة وخمسين درهم نقرة. واستناب بالكرك الأمير عز الدين أيدمر من مماليكه، وأضاف إليه الشوبك وأعطاه ثلاثين ألف درهم وكثيرا من القماش.

ورحل السلطان إلى مصر، ومعه أولاد الملك المغيث وحريمه، فى يوم الأربعاء تاسع عشريه. فدخل القاهرة فى سابع عشر رجب وقد زينت أحسن زينة، فشق القصبة إلى قلعة الجبل على شقق الحرير الأطلس والعتابى، وخلع على الأمراء والمفاردة والمقدمين وجميع حاشيته وغلمانه ومباشريه، وأعطى العزيز بن الملك المغيث إمرة مائة فارس وخلع عليه وأعطاه طبلخاناه، وأطلق لأخويه وحرم أبيه سائر ما يحتاجون إليه هم وغلمانهم، وأنزلهم بدار القطبية بين القصرين من القاهرة.

وأصبح السلطان فقبض على الأمير سيف الدين الرشيدى واعتقله. وفى تاسع عشره قبض على الأمير عز الدين أيبك الدمياطى والأمير شمس الدين أقوش البرلى واعتقلهما، فكان آخر العهد بأقوش البرلى. ولما قبض السلطان عليهما أحسن إلى مماليكهما وحواشيهما، ولم يغر على أحد منهم ولا تعرض إلى بيوت الأمراء. وكان سبب تنكره على هذه الأمراء أنه كان قد فوّض إلى الرشيدى أمر المملكة حتى تصرفت يده فى كل شىء، وأطلق له فى كل جمعة خِوَانين من عنده يُمدّان له حتى ماء الورد، ورتب له كل شهر كَلُّوتَتَين[١] زركش قيمة كل منهما مبلغ خمسين دينارا عينا وقيمة كلبندها[٢] مبلغ أربعين دينارا ورتب له برسم مشروبه اثنى عشر ألف دينار فى كل سنة. هذا سوى ما له من الإقطاعات الجليلة والمرتبات الكثيرة، وسوى الإنعامات وجوامك البَزْدارية[٣] والفَهّادة[٤] وعليق الخيل. فأقبل الرشيدى على اللهو وشرب الخمر، وحمت حواشيه عدّة بلاد، وحدثت منه أمور لا تسر، فأغضى عنه السلطان. فلما كان بالطور بلغه أن الرشيدى قد فسدت نيته، فأقام عليه عيونا تحفظ كل ما يجرى منه: فبلغه عنه

---

(١) هذا اللفظ مثنى كلونة، وهى غطاء الرأس تلبس وحدها أو بعمامة.

(٢) على هامش ط: الكلبند جزء من غطاء الرأس سواء أكان عمامة أو كلونة.

(٣) البزدارية جمع بزدار - أو بازدار -

(٤) الفهادة هم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود.

أنه كان يكاتب المغيث بالكرك ويحذره من القدوم على السلطان ويشير عليه ألا يسلم نفسه، وأنه كتب إلى أهل الكرك أيضًا بعد القبض على المغيث يأمرهم بألا يسلموا الكرك، فأسرّ السلطان ذلك فى نفسه إلى أن سار إلى الكرك، فبلغه عنه أنه يريد المبادرة إلى أخذ الكرك، فسارع إليه ولاطفه وركب معه إلى الكرك وأخذها. وبلغ السلطان عنه أيضا عدّة أمور من هذا النحو.

وقدمت رسل الملك بركة تطلب النجدة على هولاكو - وهم الأمير جلال الدين ابن القاضى، والشيخ نور الدين على، فى عدة - ويخبرون بإسلامه وإسلام قومه، وعلى يدهم كتاب مؤرخ بأوّل رجب سنة إحدى وستين وستمائة. وقدم أيضا رسول الأشكرى، ورسول مقدّم الجَنَوِية[١]، ورسول صاحب الروم السلاجقة، فأحسن السلطان إلى الرسل وعمل لهم دعوة بأراضى اللوق، وواصل الإنعام عليهم فى يومى الثلاثاء والسبت عند اللعب فى الميدان.

وفى يوم الجمعة ثامن عشرى شعبان: خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بحضور رسل الملك بركة، ودعا للسلطان وللملك بركة فى الخطبة، وصلى بالناس صلاة الجمعة، واجتمع بالسلطان وبالرسل فى مهمات أمور الإسلام.

وفى ليلة الأربعاء ثالث شهر رمضان: سأل السلطانُ الملكُ الظاهر الخليفةَ الحاكم بأمر الله: «هل لبس الفتوة من أحد من أهل بيته الطاهرين أو من أوليائهم المتقين؟» فقال: «لا»، والتمس من السلطان أن يصل سببه بهذا المقصود. فلم يمكن السلطان إلا طاعته المفترضة، وأن يمنحه ما كان ابن عمه رضى الله عنه قد افترضه. ولبس الخليفة فى الليلة المذكورة بحضور من يُعتبر حضوره فى مثل ذلك، وباشر اللبس الأتابكِ فارس الدين أقطاى بطريق الوكالة عن السلطان، بحق لبسه عن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين ولدِ الإمام الظاهر - وأبوه لجده الناصر لدين الله - والناصر لعبد الجبار، لعلى ابن دُغيم لعبد الله بن القير، لعمر بن الرصاص، لأبى بكر بن الجحيش، لحسن بن الساريار، لبقاء بن الطباخ، لنفيس العلوى، لأبى هاشم بن أبى حية، لعمر بن ألبس، لأبى على الصوفى، لمهنا العلوى، للقائد عيسى، لأمير وهران، لروَية الفارسى، للملك أبى كاليجار، لأبى الحسن النجار، لفضل القرقاشى، للقائد شبل بن المكدم، لأبى الفضل القرشى، للأمير حسان، لجوشن الفزارى، للأمير هلال النبهانى، لأبى مسلم الخراسانى[٢]، لأبى العز النقيب، لعوف الغسانى، لحافظ الكندى، لأبى على النوبى،

(١) أهل مدينة جنوة. انظر صبح الأعشى ٥/٤٠٥.

(٢) عبد الرحمن بن مسلم: مؤسس الدولة العباسية، وأحد كبار القادة. ولد فى حماة البصرة=

لسلمان الفارسى[1]، للإمام الطاهر النقى التقى على بن أبى طالب رضى الله عنه وحمل السلطان إلى الخليفة من الملابس لأجل ذلك ما يليق بجلاله.

وفى الليلة الثانية: حضر رسل الملك بركة إلى قلعة الجبل، وألبسهم الخليفة بتفويض الوكالة للأتابك، وحمل إليهم من الملابس ما يليق بمثلهم. وجهز السلطان هدية جليلة للملك بركة، وكتب جواب كتابه فى قَطْع النصف فى سبعين ورقة بغدادية[2] بخط محيى الدين بن عبد الظاهر، وهو الذى قرأه على السلطان بحضور الأمراء. وسُلْمت الهدية للأمير فارس الدين أقوش المسعودى، والشريف عماد الدين الهاشمى، فسارا فى يده طريدة فيها عدة رماة وجَرْخِيْة[3] وزراقين[4]، وأشحنت الأزودة لمدة سنة، وسارا سابع عشره. وخرجت النجابة إلى مكة والمدينة بأن يدعى للملك بركة ويعتمو عنه، وأمر الخطباء أن يدعوا له على المنابر بمكة والمدينة والقدس وبمصر والقاهرة، وبعد الدعاء للسلطان الملك الظاهر.

وفى سادس شوّال: توجه السلطان إلى جهة الإسكندرية، فأقام بَتَرُوْجَة[5] أيام ودخل البرية وضرب حلقة فوقع فيها كثير من الصيد. واهتم السلطان بأمر المياه وولى

=(مما يلى أصبهان) عند عيسى ومعقل بن إدريس العجلى، قريباه إلى أن شب. انظر ابن خلكان ١/ ٢٨٠ وابن الأثير ١٧٥/٥ والطبرى ١٥٩/٩ والروض المطار والبدء والتاريخ ٩٥،٧٨/٦ وميزان الاعتدال ١١٧/٢ ولسان الميزان ٤٣٦/٣ وتاريخ بغداد ٢٠٧/١٠ والذريعة ٣١٨/١ وفى المعارف لابن قتيبة ١٨٥ والأعلام ٣٣٧/٣.

(١) سلمان الفارسى: صحابى: من مقدميهم. كان يسمى نفسه سلمان الإسلام. أصله من مجوس أصبهان. عاش عمرًا طويلاً، واختلفوا فيما كان يسمى به فى بلاده. وقالوا: نشأ فى قرية جيان، ورحل إلى الشام، فالموصل، فنصيبين، فعمورية، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود، وقصد بلاد العرب، فلقيه ركب من بنى كلب فاستخدموه، ثم استعبدوه وباعوه، فاشتراه رجل من بنى قريظة فجاء به إلى المدينة. وعلم سلمان بخبر الإسلام، فقصد النبى صلى الله عليه وسلام بقباء وسمع كلامه، ولازمه أيامًا. وأبى أن يتحرر بالإسلام، فأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه. فأظهر إسلامه. وكان قوى الجسم، صحيح الرأى، عالما بالشرئع وغيرها. وهو الذى دلّ المسلمين على حفر الخندق، فى غزو الأحزاب. وله فى كتب الحديث ٦٠ حديثا. ولابن بابوى القمى كتاب «أخبار سلمان وزهده وفضائله» ومثله للجلودى. انظر: طبقات ابن سعد ٤: ٥٣، وتهذيب ابن عساكر ٨٨/٦ والأصابة، وحلية الأولياء ١: ١٨٥ وصفة الصفوة ١: ٢١٠.

(٢) كان الورق البغدادى أجود أنواع الورق وأكبره سعة، وكان مخصوصا لكتابة المصاحف، ولا يستعمل فيما عدا ذلك سوى لمكاتبة كبار الملوك.

(٣) الجرخية جمع جرخى أى رامى الجرخ.

(٤) على هامش ط: جمع زراق، ومعناه هنا رامى النفط من الزراقة.

(٥) هى قرية من كورة البحيرة. انظر معجم البلدان ٨٤٥/١.

أمرها الأخير شجاع الدين الزاهدى أحد الحجاب، وأحضر من الإسكندرية الرجال لحفر الآبار. ثم سار السلطان من تروجة إلى الإسكندرية، وكان الصاحب بهاء الدين ابن حنا قد سبق إليها وحصل جملا كثيرة من المال: منها حمل بلغ خمسة وتسعين لفة من القماش السكندرى، ولم يعامل أحد من أهلها بغير العدل، ولم يضرب بها أحدا بمقرعة. فضرب السلطان خيامه ظاهر المدينة، ونادى ألا يقيم بالثغر جندى ولا ينزل أحد فى دار.

وفى يوم الخميس مستهل ذى القعدة: دخل السلطان إلى المدينة من باب رشيد، فتلقاه الناس بالسرور والفرح والدعاء. واستدعى السلطان بالخزائن والأمتعة، وشرع فى تعبئة ما يعبيه للأمراء على قدر مراتبهم، ورسم بمكتوب يرد مال السهمين وصلة أرزاق الفقراء، وسامح بما كان يؤخذ من أهل الإسكندرية وهو ربع دينار عن كل قنطار يباع من [...[1]...] ولعب بالكرة وخلع على الأمراء، وأعطى الأتابك ثلاثة آلاف دينار وأعطى الأمراء على حسب مراتبهم، وركب لزيارة الشيخ المعتقد محمد بن منصور بن يحيى أبى القاسم القبارى، فلم يمكنه من الطلوع إليه ولم يكلمه إلا وهو فى البستان والشيخ فى عِليته، ثم مضى لزيارة الشيخ الشاطبى[2].

وحضر إلى السلطان رجلان من أهل الثغر: أحدهما يقال له ابن البورى والآخر يعرف بالمكرم بن الزيات، ومعهما أوراق تتضمن استخراج أموال ضائعة فاستدعى السلطان فى يوم الثلاثاء سادسه الأتابك والصاحب والقضاة والفقهاء وأمرت فقرئت وصار كلما ذكر له باب مظلمة سده ويعود على المذكورين بالإنكار، حتى انتهت القراءة. فقال: «اعلموا أنى تركت لله تعالى ستمائة ألف دينار من التصقيع والتقويم والراجل والعبد والجارية وتقويم النخل فعوضنى الله من الحلال أكثر من ذلك، وطلبت جرائد الحساب فزادت بعد حط المظالم جملة، ومن ترك شيئا لله عَوضه الله خيرا» وأمر بإشهار ابن البورى.

وفى سابعه: قدم البريد من البيرة وحلب بأن جماعة مستأمنة وردت إلى الباب العزيز، عدتها فوق الألف وثلاثمائة فارس من المغل والبهادرية، فكتب بالإحسان إليهم.

وفى يوم الخميس ثامنه: جلس السلطان بدار العدل، وأمر بتطهير الثغر من الخواطى[3] الفرنجيات.

---

(١) ما بين المعقوفتين بياض فى الأصل.

(٢) محمد بن سليمان بن محمد المعافرى أبوى عبد الله الشاطبى، ويقال له ابن أبى الربيع: عالم بالقراءات. مولده شاطبة، تفقه وروى الحديث فى الأندلس والشام والحجاز ومصر وانقطع للعبادة فى الإسكندرية فتوفى بها. انظر: نفح الطيب ١/٣٩٤ والنجوم الزاهرة ٧/٢٤٣،٢٤٥ والوافى للوفيات ٣/ ١٢٨ والأعلام ٦/١٥٠

(٣) على هامش ط: جمع خاطية، وهى المرأة الداعرة.

وفى ثامن عشره: سار السلطان من الإسكندرية يريد القاهرة، فنزل تروجة وأمر عربانها بالسباق بين يديه، فاجتمه ألف فارس من عرب تروجة، وانضم إليها جملة من خيل العسكر. وعّين السلطان لهم المدى، ووقف على تل، وأوقف الرماح وعليها الثياب الأطلس والعتابى وفيها المال. فأقبلت الخيل، وأخذ كل راكب سبّق ما فرض له. ثم سار السطان إلى قلعة الجبل، فلما وصل فوض قضاء الثغر للفقيه برهان الدين إبراهيم بن محمد على البوشى المالكى، وكان زاهدا عابدا يأوى إلى مسجد بمصر؛ وفوّض الخطابة لقاضى زين الدين أبى الفرج محمد بن القاضى الموفق بن أبى الفرج الإسكندرى الذى كان حاكما بالثغر.

وفى آخر ذى العقدة: نزل السلطان إلى القاهرة، وعاد الأمير سيف الدين قلاون الألفى، والأمير علاء الدين الحاج أيدغدى الركنى، والأمير حسام الدين بن بركة خان.

وفى ليلة الأربعاء خامس ذى الحجة: توفى الأمير حسام الدين بن بركة خان، فحضر السلطان جنازته ومشى فيها مع الناس.

وفى سادسه: وصلت التتار المستأمنة، وأعيانهم كَرَمُون وأمطغية ونُركيَه وجَبْرك وقيان وناسيسة وطيشور ونبتو وصبحى وجرجلان واجقرقا وارقرق وكراى وصلاغيه ومتقدم وصراغان. فركب السلطان إلى تلقيهم فنزلوا عند مشاهدته عن خيولهم وقبلوا الأرض وهو راكب فأكرمهم وعادوا إلى القلعة.

وفى ثامنه: خلع عليهم السلطان، ونزل إلى تربة ابن بركة خان. ثم وردت الكتب بقدوم طائفة أخرى، فأحتفل بهم وركب لتلقيهم. ثم وردت طائفة ثالثة، فاعتمد معهم مثل ذلك وأمَّر أكابرهم، وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وختنوا بأجمعهم.

واتفق أن الأمير بهاء الدين أمير آخور ضرب بعض دلالى سوق الخيل، فمات قلاوون واستتر عنده فدخل قلاوون على الأتابك فى أمره، وأخرج لأولاد الميت من ماله خمسة آلاف درهم ومائة أردب غلة وكسوة، فأبرؤه وأقروا أن أباهم مات بقضاء الله وقدره.

ودخل الأتابك إلى السلطان وحدثه فى ذلك، فاشتد غضبه، فقال له الأتابك: «تغضب والشرع معنا! فإن كان قد قتله عمدا أو خطأ فقد أبرأ الأولياء». وتحدث الأمراء فى العفو عنه فعفه، وأمر بعمل جامع من الثياب المفصلة بضرب على يمنة الخيمة السلطانية فعمل ونصبت ؟ وأبرايه وعملت فيه مقصورة برسم السلطان.

وفى هذه السنة: جددت دار العدل تحت قلعة الجبل، وجلس بها السلطان فى يومى الخميس والإثنين لعرض العساكر. وفيها وردت هدية من بلاد اليمن.

وفيها أمر بتنصيب أربعة قضاه نوابا لقاضى القضاه تاج الدين ابن بنت الأعز، فاستناب حنفيا ومالكيا وشافعيا و لم يجد من يستنيبه من الحنابلة فولى نائبا حنبليا.

وفيها جهز السلطان عرب خفاجة بالخلع إلى أكابر أهل العراق، وكتب إلى صاحب شيراز وغيره يغويهم بهولاكو، وألبس عدة من أمراء خفاجة الفتوة، وجهز معهم الأمير عز الدين إلى شيراز.

وفيها جهز السلطان فى البحر جماعة من البنائين والنجارين والنشارين والعتالين، وعدة أخشاب وغيرها من الآلات، برسم عمارة الحرم النبوى. وعُملت كسوة الكعبة على العادة، وحملت على البغال وطيف بها فى القاهرة ومصر، وركب معها الخواص وأرباب الدولة والقضاة، والفقهاء والقراء والصوفية والخطباء والأئمة. وسفرت إلى مكة فى العشر الأوسط من شوال، وفوضت عمارة الحرم لزين بن البوزى.

وفيها جمع الفرنسيس ملك الفرنج عساكره يريد أخذ دمياط، فأشار عليه أصحابه يقصد تونس أولا، ليسهل أخذ دمياط بعدها. فسار إلى تونس ونازلها حتى أشرف على أخذها، فبعث الله فى عسكره وباءً هلك فيه هو وعدة من أكابر أصحابه، وعاد من بقى منهم.

* * *

ومات فى هذه السنة

الأمير الكبير مجير الدين أبو الهيجاء بن عيسى بن خشترين الأركسى الكردى بدمشق.

وتوفى عز الدين أبو محمد عبد الرزاق بن رزق الله بن أبى بكر بن خلف الرسغى الحنبلى، شيخ البلاد الجزرية، بسنجار عن اثنتين وسبعين.

وتوفى علم الدين أبو محمد بن أحمد بن موفق جعفر المرسى اللورى بدمشق، وقد انتهت إليه مشخية الإقراء، عن ستين سنة.

* * *

المحتويات